بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : ابتسام محمد سعيد [illegible] .... قسم : الأدب ....

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراة ... في تخصص : الأدب ....

عنوان الأطروحة : ((الاتجاه الإسلامي في المقامات المشرقية من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري))

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٣/١٠/١٤١٩هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه. والله الموفق.

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم: [illegible]	الاسم: د. حسن محمد باجودة	الاسم: د. محمد بن ناصر الدخيل
التوقيع: [signature]	التوقيع: [signature]	التوقيع: [signature]

رئيس قسم الدراسات العليا

أ.د. محسن بن سالم العميري

١٧/١٢/١٤١٩

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى/مكة المكرمة
كلية اللغة العربية
قسم الأدب



الاتجاه الإسلامي في المقامات المشرقية

من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري

((بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة))

إعداد الطالبة
ابتسام محمد سعيد باحمدان

إشراف الأستاذ الدكتور
إبراهيم الحاردلو

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة الدكتوراة التي تحمل عنوان

الاتجاه الإسلامي في المقامات المشرقية من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري

والذي ظهر بوضوح تام عند الزمخشري، وابن الجوزي دون بقية المقاميين، هذا والبحث يتكون من مقدمة وتمهيد، وبابين وخاتمة، تناولت في التمهيد تطور دلالة فن المقامة في الأدب العربي، والتأكيد على أن بديع الزمان الهمذاني هو حامل لواء هذا الفن، أما الباب الأول والذي يحمل عنوان قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة، فيتكون من ستة فصول، كان الأول منها عن الأخلاق الإسلامية في المقامة تناولنا أبرزها والمتمثلة في الزهد، والصبر، والشكر، والكرم، وحسن الصحبة، والوفاء، والشجاعة، والتي لم تكن عند المقاميين على وتيرة واحدة، وإن كان الزمخشري، وابن الجوزي يحثان عليها أكثر من سواهم، أما الفصل الثاني فقد كان عن النقد الاجتماعي الذي ظهر واضحاً في النزعة إلى الوعظ، ونقيض ذلك في مجالس اللهو والمجون، والكدية واستغلال المساجد لغير العبادة، وخير من ظهر ذلك في مقامته، البديع والحريري وابن ناقيا، أمّا الصورة الصحيحة فقد حث عليها ابن الجوزي والزمخشري، وكذا الفصل الثالث الذي كان عن الحاكم فهو عندهما يحرص على البطانة الصالحة، وحضور مجالس الوعظ خلافاً لبقية المقاميين.

بينما الفصل الرابع كان يتناول الجهاد بأنواعه والذي لم يعطه المقاميون حقه رغم أنهم عاشوا كثيراً من الحروب وعلى رأسها الحروب الصليبية. أما الفصل الخامس فقد كان عن الحياة والموت حيث خرجتُ بأن المقاميين أشاروا إلى ذلك من أول نفخ الروح إلى دار القرار الأخير، وآخر فصل كان عن علوم اللغة العربية حيث تطرق المقاميون إلى بعض علومها من نحو، وعروض، وقافية باستعمال مصطلحاتها وخاصة الزمخشري الذي انطلق لوعظ نفسه قبل غيره بها.

والباب الثاني كان عن ملامح الفن الإسلامي في المقامة، وهو فصلان:

الفصل الأول: ويشمل: فن الوعظ، وفيه الرمز المعتمد على الكناية والذي استغله الزمخشري وابن الجوزي ليعظا به إضافة إلى أن الأول اتكأ على استدعاء الشخصيات القرآنية والتاريخية ليوظفها في وعظه؛ ليكون أدعى للتأثير، وزاد عليه ابن الجوزي الذي رمز عن طريق قصص الحيوانات.

أمّا القص فقد لجأ إليه المقاميون إلا أنّ ابن الجوزي والزمخشري اعتمدا على قصص الأنبياء؛ليصلا إلى موطن العبرة والعظة منها أكثر من غيرهم، يلي ذلك الواقعية حيث تقصيتُ الواقعية الإسلامية فوجدتُها تمثلت في الاستخارة، والدعاء، وحسن الجوار، وإقامة الدروس في المساجد، وإفشاء السلام، والصحبة الحسنة، وحب العلم والعلماء والحث على النكاح، والحج، والتوبة، والحجامة، ظهرت عند الحريري.

أما ابن الجوزي فظهرت الواقعية الإسلامية لديه من خلال الوعظ بالموت وإحياء الليل، والاعتكاف، والقناعة، والعزلة، والحرص على الصلاة والصوم ليتعظ من لم يجعل واقعه كواقع المسلم الحق.

والفصل الثاني عن الأسلوب فكان عن المعجم اللغوي الذي خرجت منه بأن لغة المقاميين كانت متينة أنيقة تارة، وغريبة ثقيلة أخرى يمثل الأولى الزمخشري، والثانية الحريري، أما الصياغة ممثلة في السجع، والجناس، والطباق والمقابلة، فقد كانت من الكثرة لتجعل القارئ يلجأ للمعاجم لمعرفة معانيها، وفي الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم من الشعر والأمثال، عمد المقاميون فيه إلى النوع المقبول والمباح إلا ابن الجوزي فقد تجاوز أثر القرآن في مقاماته إلى الإفادة من منهج القرآن في الدعوة إلى الله تعالى.

أما الصورة الممثلة في التشبيه، والاستعارة، والمجاز، فلقد امتلأت مقامات المقاميين بها إلاّ أنّ أجملها تشبيهات ابن الجوزي لأنها من قصص القرآن.

وأخيراً الخاتمة التي دونتُ فيها نتائج البحث، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الطالبة	المشرف	العميد
ابتسام محمد سعيد باحمدان	أ.د. إبراهيم أحمد الحاردلو	أ.د. صالح جمال بدوي
١٧/ ١١/ ١٤١٩هـ		



المقدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ با لله من شرور أنفسنا، ومـن سيئات أعمالنا ، من يهده ا لله فلامضـل لـه ، ومـن يضلـل فلاهـادي لـه، وأشـهد أن لاإله إلاا لله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب ا لله تبارك وتعـالى، وخـير الهـدي هـدى محمـد ﷺ والذي ضمن ا لله لهما البقاء والحفـظ في عقيـدة أفـراده، – صلـى ا لله عليـه وسـلم – وشرائعهم، وحياتهم، وآدابهم.

ولذا فقد حث الإسلام على العلم من خلال الكتـاب الكريـم، والسـنة النبويـة الشريفة، وانبرى لتطبيق ذلك فئة من الناس؛ فنهلوا من معين العلم، ومن ثم أخذ يظهر على ماألفوه، فمنهم من كان نبراساً سطع ضوء ماتعلمه فيما كتبه، ومنهم من لم يكن كذلك، إلا أن من ينهل من معين الكتاب والسنة لابد أن يبرز ماتعلمـه؛ ليظهـر فـوق ماسطره اشعاعات نور، وهذا ماحدث من كتاب المقامات في القـرن الرابـع والخـامس والسادس من القرون التي كان الأدب قد أخصب فيها، حيـث ازدهـر في الرابـع منهـا وآتى ثماره في الخامس، وأما السادس فكان عصر المقامات.

أما لماذا المقامات ؟

– فلأن المقامات فن تميز به أحد عصور الأدب المتعارف عليها عنـد الدارسـين وهو العصر العباسـي، وربمـا يقـال: إن الدراسـة حولهـا مسـتفيضة ... فنقـول: حـول البديـع ربمـا؛ لأنـه مبتكـر هـذا الفـن، ومثلـه الحريـري أمـا بقيـة المقامـات كمقامـات ابن الجوزي، والزمخشري، والنعماني، والأسواني، والغـزالي، وابـن نباتـه، وابـن ناقيـا، فلا، اللهم كتب ثلاثة دارت حولهم، وأخرجت هذا من دائرة المقاميين كــ(الغـزالي في دراسة د.عبدالملك مرتاض)[1]، أو حذفت ذلك بعـد ذكـر اسمـه لعدم الوقـوف على

(١) في كتابه : فن المقامات في الأدب العربي.



مقاماته كـ(ابن نباته السعدي عند د.حسن عباس)[1]، أو لكونها مفقودة كـ(الحصيبية للأسواني عند د.يوسف نور عوض)[2].

- أضف إلى هذا أنه لم يتطرق أحدهـم إلى الاتجاه الإسلامي بدراسة وافية، وإن أشاروا إلى الوعظ عند بعضهم.

والبحث لايدعي كمال ذلك، وإنما عملت جهدي؛ لأخرج المضمون موافقاً للعنوان، وهو :

(الاتجاه الإسلامي في المقامات المشرقية من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري).

ولعل هذه الدراسة ترد على من وصف هذين القرنين - الخامس والسادس- بأنهما عصر غروب شمس الأدب العربي، أو العصر الفضي كما وصفه المستشرق جب حين قال عن القرن السادس والسابع: «إنه العصر الفضي؛ حيث كان العصر السابق هو العصر الذهبي، وأنه لم يكن يمتاز بالعبقرية والإبداع بقدر ماامتاز به من براعة في الصنعة ومهارة في الصياغة الفنية»[3]، وتبعه في ذلك د.شوقي ضيف الذي قال عن القرون التالية للقرن الرابع: «لقد أجدب معين الحضارة العربية فلم يعد يظهر من جديد إلا هذه الضروب من التعقيد والتصعيب، وإن الإنسان ليشعر كأن الحياة العربية قد أصيبت بعطل شديد وأنه عطل يتسع، فإذا مصانع النثر لاتستطيع أن تخرج ضرباً جديداً أو مذهباً حديثاً، إلا هذه الطرق الملتوية المحملة بالتصنع لمصطلحات العلوم والتكلف لأشياء شاذة كالأمثال، والإشارات التاريخية والأدبية ... وقد خمدت العصور التالية عند هذا الأسلوب»[4].

---

(١) في كتابه : فن المقامة في القرن السادس.

(٢) في كتابه : فن المقامات بين المغرب والمشرق.

(٣) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، ص ٢٠.

(٤) الفن ومذاهبه، ص ٣١٠.



ونظرة إلى الكتب التي تُعنى بتدوين كتب التراث في شتى العلوم التي ظهرت في ذينك القرنين ترد تلك المزاعم؛ أضف إلى ذلك ظهور نقاد ومؤلفين خدموا الأدب وأخصبوه. صحيح أن أغلب كتاب هذا العصر قد أغرقوا كتاباتهم بالحلية اللفظية على حساب الأفكار والعواطف، غير أنهم لم يكونوا بدعاً في ذلك، فكتاب القرن الرابع هم الذين أسسوا تلك الطريقة، واحتكموا إلى المحسنات البديعية، وصحيح أن نتاج هذا القرن - السادس- الأدبي والفكري لايوازي نتاج القرن الرابع المصطلح عليه بالعصر الذهبي للأدب - لا من حيث الوفرة، ولامن حيث الجودة الفنية إلا أنه فرق لايجعله كالفرق بين معدني الذهب والفضة، والذي أصبح أول انطباع يطلق على أدب هذه الفترة؛ مما يدعو الناشئين وعشاق الأدب ومحبي الثقافة إلى الزهد في كل نتاج هذا العصر قبل أن يطلعوا عليه. هذا مادعاني إلى اختيار تلك الحقبة من الزمن، لتقوم الدراسة عليها، أضف إلى ذلك أن هذه الفترة عاصرت الحروب الصليبية، سواء في مراحل الهزائم أم في أطوار الانتصارات التي فجرت ينابيع الشعر فعبر عنها الشعراء، فأردت معرفة مدى تأثيرها على الكتاب المقاميين، في محاولة لاستخراج نتاجها الحبيس في المكتبات، إذ ليس على الباحث إلا أن يدرس الأدب في فترة زمنية، - كما فعل هذا البحث - ويخرج منها بنتائج، ويلقي مزيداً من الضوء على نتاج تلك الفترة، ولاينقص من عمله أو يقلل منه أن تكون تلك النتائج في غير صالح ذلك الأدب، أو أن أدب تلك الفترة أقل جودة من غيره، ولايعني كونه أقل جودة من نتاج قرون أخرى أنه رديء أولايستحق البحث والدراسة.

هذا وقد كان منهجي في كتابة البحث على النحو التالي :

- عمدت إلى تعريف عناصر الموضوع في اللغة والأدب بعزوها إلى مصادرها الأصيلة، ووجوه استعمالاتها فيها، ومن ثم ماظهر منها عند المقاميين.

- كان أهم مارتكز عليه البحث : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في إظهار الاتجاه الإسلامي، فالآيات عزوتها إلى سورها، والأحاديث خرجتها من مصادرها الأصيلة.

- جمعت عناصر موضوعاته من أصحاب المقامات، وإن كانت كثيرة ركزت على التوضيح في الأمثلة الأولى ثم أشرت إلى الأمثلة الأخرى فقط، ماعدا الواقعية فقد



مثلتها لدى المقاميين كلهم في المثال الأول، ثم اخترت واحداً فقط يمثل أصحاب المقامات التى تقوم على الكدية، وآخر للتى تقوم على الوعظ.

- لجأت إلى التسلسل التاريخي أثناء عرض الأفكار، اللهم إلا في فصل أو فصلين أغفلت التسلسل التاريخي، وعولت على تقديم من ظهرت الفكرة واضحة لديه دون سواه؛ كما في فصل الأخلاق الإسلامية والواقعية.

- لم أقف طويلاً أمام من كان له السبق في إظهار هذا الفن بل كان جل تركيزي على بيان مدى وجود الاتجاه الإسلامي في تلك المقامات أو بعده؛ حيث قام البحث على عمل موازنة بين الكتاب المقاميين في نهاية كل فصل بعد العرض، والتحليل لبعض مقاماتهم التي تسبق تلك الموازنة.

- استند البحث في بابه الثاني على الدراسات السابقة التي كان لمقامات البديع والحريري نصيب الأسد في معالجتها الفنية، أما بقية المقامات فلانكاد نجد إلا القليل من التنويه بها، فحاولت سد هذا الخلل وجعلتها متساوية في الدراسة قدر المستطاع إلا أصحاب المقامة الواحدة.

- أما مصادر الرسالة ومراجعها، فقد كانت كثيرة ومتنوعة، وأبرزها المخطوطات التي قام جزء من الرسالة عليها كمقامات ابن نباته، وابن ناقيا، والأسواني. ومن المراجع التي اعتمدت عليها كثيراً في دراستي :

- فن المقامات في الأدب العربي للدكتور عبدالملك مرتاض.

- فن المقامات بين المشرق والمغرب للدكتور يوسف نور عوض.

- فن المقامة في القرن السادس للدكتور حسن عباس .

إلا أن الكتب الثلاثة كان تركيزها على التأصيل لفن المقامة، ثم تتبع تطور المقامات، وأثرها على الآداب الأجنبية كما عند د.يوسف نور الذي أقام الباب الثالث بأكمله لاثبات ذلك أو نفيه، أو إدراج فن المقامة ضمن فن القصة كما عند د.عبدالملك مرتاض الذي جعل الفصل الثالث من بابه الثالث لذلك، وإن كان كلاهما تناول الفن المقامي دون تحديد مدة زمنية محددة، لكن لهما فضل السبق وأنهما كما قال د.مرتاض: «وإني لسعيد أن أكون أول معالج لفن المقامات على هذه



الصورة العامة الشاملة، التي ستتيح للباحثين من بعدي أن يختصوا في عناصر خاصة من هذا الفن الغني الخصيب، كما ستتيح لهم أن يهتدوا ببعض مـاتوصلت إليـه مـن نتـائج عامة خلال بحثي هذا الذي استغرق بضع سنين من الزمن»[1].

والحق يقال لقد كان عمل د.مرتاض الضوء الذي كنت استرشد به في طريقي لإقامة هذا البحث، الذي تخصص في عناصر خاصة – كما قال – وهي إظهار الاتجـاه الإسلامي في تلك المقامات، ومن ثم عمل د.حسن عباس.

وقد رتبت المصادر، والمراجع حسب الترتيب الهجائي لاسم الكتاب، ومن ثـم أذكر المؤلف، ويتبعه بقية المعلومات الخاصة بفهرس المصادر والمراجع.

أما عن الصعوبات التي واجهتني فهي جمـة، إذ لايخلو بحـث مـن ذلـك، إلا أن أصعبها الجهد المضني الذي بذلته للوصـول إلى مقـامتي ابـن نباتـه والغـزالي مـن ألمانيـا، ومقامة ابن ناقيا من اسطنبول، فأما مقامتـا ألمانيـا فقـد طرقـت كـل السبل للحصـول عليهما منذ السنة الأولى لقيامي بهذا البحث بدءاً من الملحق الثقافي بالسفارة السعودية هنـاك، أو السـفارة الألمانيـة بالريـاض، مـروراً بالاتصـالات بجامعـات الجزائـر لأصـل للدكتور عبدالملك مرتاض، وانتهاءً بالدكتور فؤاد سـزكين الـذي اعتـذر عـن مـدّ يـد المساعدة لي معللاً بأن هذا ليس مجال عملـه هنـاك في ألمانيـا، أضـف إلى ذلـك أنـي لم أترك مركزاً للبحوث إلا وكان لي معه قصـة بـدءاً مـن مركـز الملـك فيصـل للبحـوث والدراسات الإسلامية في الرياض، ومـروراً بمركـز العلـوم والتكنولوجيـا بجـده اللذيـن أحالاني إلى فؤاد سزكين بألمانيا فاعتذر الأخـير، إلى أن قيـض ا لله لي الدكتـورة وفـاء قزمار التي أحضرت لي المخطوطتين من ألمانيا في رمضان العام المـاضي. وأمـا مقامـات ابن ناقيا، رغم أنها مطبوعة كما أشار لذلك د.مرتاض، فـإنَّ جهـوداً مضنيـة بذلـت، ومع ذلك لم أحصل سوى على المخطوط قبـل شـهرين مـن تسـليم البحـث (والحمـد لله)، ولولا ذلك لكان البحث أقيم على المقاميين الآخرين دون هؤلاء الثلاثة.

---

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣.

هذا ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة، تناولت في المقدمة أسباب اختياري لهذا الموضوع، والخطة التي سار عليها، والمنهج الذي اعتمده البحث.

وكان التمهيد في لمحة دالة عن فن المقامة في الأدب العربي.

أما الباب الأول فكان عن : قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة، وفيه ستة فصول :

الفصل الأول منه : عن " الأخلاق الإسلامية في المقامة "، وشمل الزهد والصبر، والشكر، والكرم، وحسن الصحبة، والوفاء، والشجاعة.

والفصل الثاني: عن " النقد الاجتماعي في المقامة "، وشمل الحديث عن مجالس الوعظ، واللهو والمجون، وإبراز عقليتهم التي كانت تؤمن بالحرز، والعين، وبالشعوذة، وشياطين الشعر وبالتطير، ومن ثم الحديث عن الكدية، بطرق منها: بالتعامي، أو ادعاء عاهة أو القرّاد، أو الادعاء بتبدل الحال مع وجود العيال، ومن الصور: بيع العبيد والمرأة، واستغلال المساجد لغير العبادة، والطعام والمطاعم، ونقد بني زمانهم.

والفصل الثالث:عن" الحاكم في المقامة"الذي يمثل رؤية إسلامية والآخر الذي لايمثلها.

والفصل الرابع:عن"الجهاد في المقامة"إما بالسيف،وإما جهادالنفس،وإما المجتمع.

والفصل الخامس : عن «الحياة والموت في المقامة»، فأما الحياة فممثلة في نفخ الروح، وإحياء الموتى بعد خروج الأرواح، والهدى، والبقاء، وحياة الأرض بالنبات، وأما الموت فمثلته المقامات في زيارة القبور، ووضع الإنسان في قبره، وحاله بعد ذلك في الصراط، ثم دار القرار.

والفصل السادس: فكان عن علوم اللغة العربية في المقامة : ممثلة في علم النحو، والعروض، والقافية، والنقد الأدبي.

أما الباب الثاني : فعن: «ملامح الفن الإسلامي في المقامة»، «دراسة فنية» وهو فصلان:

الفصل الأول : عن " فن الوعظ "، ويشمل : الرمز ، والقص، والواقعية.

والفصل الثاني : " الأسلوب " ويشمل :

١- المعجم اللغوي .

٢- الصياغة .

٣- الصورة .

ثم الخاتمة التي كانت فيها نتائج البحث، تتبعها الفهارس.

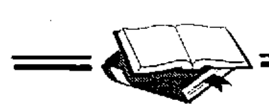
هذا وأحمد الله على عونه ومده لي بفيض من الصبر والعون والتيسير، وأسأله التوفيق والسداد لي ولوالدي ولزوجي، ولكل من أسدى لي يد العون؛ لإبراز هذه الرسالة إلى حيز الوجود.

ولما قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، ولما كان على المسلم الحق أن يكون شكوراً، معترفاً بالفضل لأهله، فقد خطت يدي هذا الشكر عرفاناً بالجميل لوالدي الكريمين - أطال الله في عمرهما - اللذين كان لهما فضل غرس حب العلم في نفسي، ومن ثم الشكر والامتنان لزوجي الذي كنت اقتطع الكثير من وقته لأنجز هذا البحث، وكان يحفزني ويحثني للانتهاء منه.

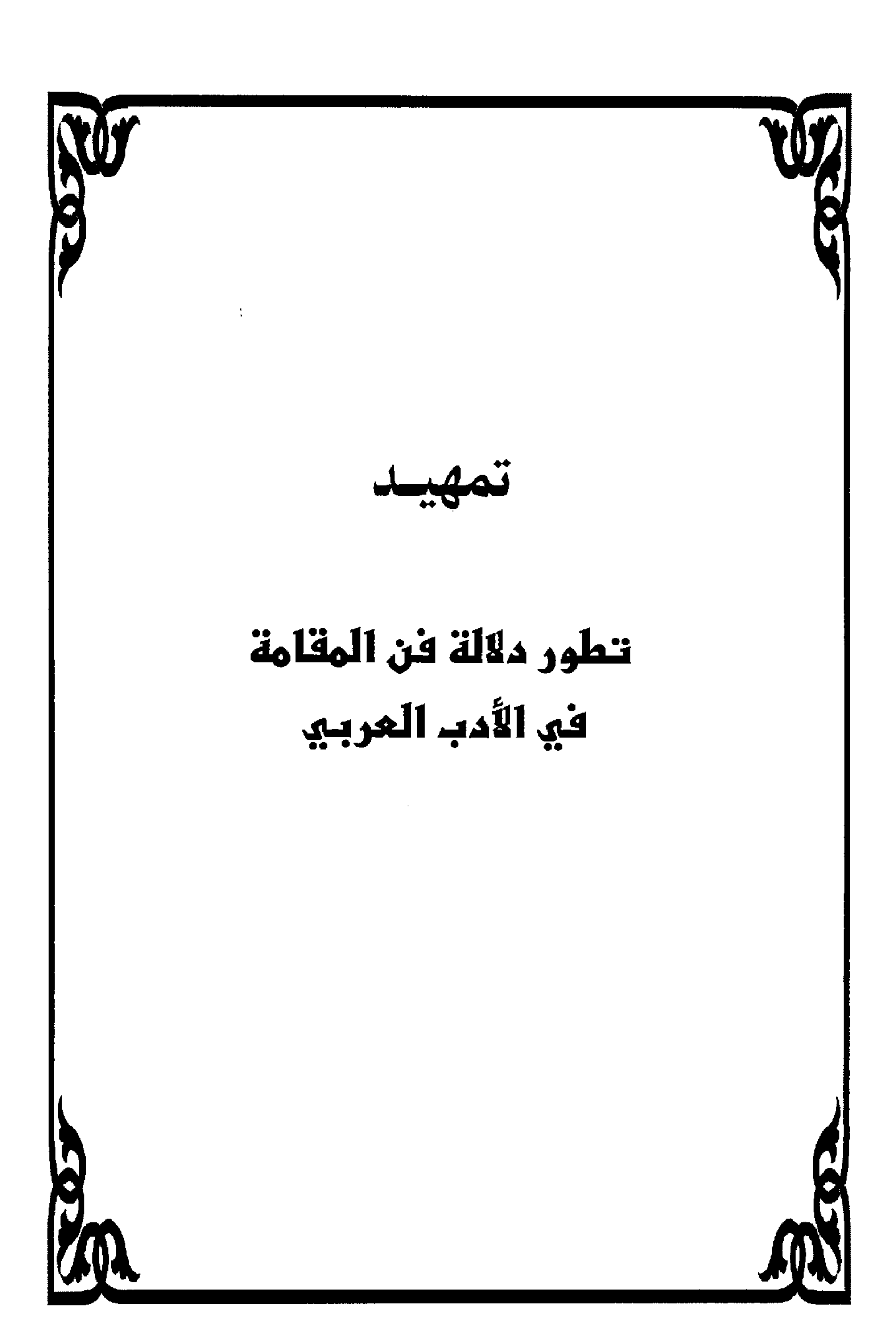
كما أتوجه بالشكر الجزيل كذلك إلى جامعتي؛ جامعة أم القرى التي أتاحت لي الفرصة؛ لأكمل دراستي في رحابها، وأخص بالشكر القائمين على كلية اللغة العربية، وقسم الدراسات العليا العربية.

وأتقدم بعظيم الشكر إلى المشرفين على هذه الرسالة أستاذي الدكتور مصطفى عليان، الذي رعى هذا البحث منذ أن كان فكرة، حتى أصبح حقيقة ماثلة للأعين، واستاذى الدكتور إبراهيم الحاردلو الذي أكمل الإشراف معي فأخرجت هذه الرسالة على هذا الوجه، فجزاهما الله عني خير الجزاء.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذين الفاضلين، عضوي لجنة المناقشة؛ لتكرمهما بقبول مناقشة هذه الرسالة، وعلى بذلهما الوقت والجهد في تقويمها، واسأل الله أن ينفعني بتوجيهاتهما، والله ولي التوفيق.



هذا ويعلم الله أني ماقصرت، وأني بذلت أقصى مـافي جهـدي وطـاقتي، فمـا كان في هذا البحث صواب، فهو من فضل الله وتوفيقه وكرمه، وماكان فيه من خطأ فمن نفسـي، فأسـأله العفـو والمغفـرة، وأن يتقبـل هـذا العمـل مـني، ويجعلـه في مـيزان حسناتي، كما أسأله أن ينفعني وينفع به ... آمين .



تمهيـد

تطور دلالة فن المقامة
في الأدب العربي

نشأة فن المقامة

لما كان البحث كله يدور حول ((المقامات))، فمعرفة الأسباب التي أطلقت من أجلها هذه الكلمة أول ماحثنا على الكتابة عنها، ولعل ((البديع* الذي سمى كتابه المعروف ((كتاب المقامات)) لم يترك لنا مقدمة يوضح فيها سبب هذه التسمية، ولعله فعل ولكن هذه المقدمة ضاعت مع ماضاع من مقاماته))[١].

وممن كتب عن مدلول لفظ ((مقامة)) في اللغة د.عبدالملك مرتاض[٢]، و د.يوسف نور عوض[٣]، و د.حسن عباس[٤].

وقد كان د.عبدالملك مرتاض أكثر دقة في تقسيم تلك الدلالات، الذي ثنى بعدها بتعريف مدلولها القديم في الشعر، وثلث بذكر دلالة ((مقامة)) في النثر العربي قبل ظهور المقامات الفنية.

وخرج بأن ابن قتيبة ت سنة ٢٧٦هـ من أوائل الكتاب الذين أطلقوا على الأحاديث الوعظية التي يقوم بها الخطباء أمام الخلفاء أو الأمراء لفظ ((مقامات)) في

---

(١) نشأة المقامة في الأدب العربي، د.حسن عباس، ص٩-٢٢، ط. دار المعارف، ١٩٨٦م.

(٢) فن المقامات في الأدب العربي، ص٩-٢٥، ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠م.

(٣) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص٩-١٤، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٤) نشأة المقامة في الأدب العربي، ص ٩-٢٢.

(*) بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨-٣٩٨هـ): أبوالفضل أحمد بن الحسين،ولد في همذان، عاش أربعين سنة فقط،كان يعتز بعروبته،أملى مقاماته التي كانت حدثاً فريداً في عالم الأدب.
انظر: بديع الزمان الهمذاني، رائد القصة، د.مصطفى الشكعة، المقدمة، عالم الكتب ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي، ١٦٢/٢، دار إحياء التراث العربي. وفيات الأعيان، لابن خلكان، ١٢٧/١، دار صادر، بيروت . ويتيمة الدهر، للثعالبي، ١٦٧/٤، المطبعة الحفنية.



كتابه «عيون الأخبار»[١]، ومثله ابن عبدربه الأندلسي ت سنة ٣٢٨هـ، في كتابه «العقد الفريد»[٢]، وكذا المسعودي (ت سنة ٣٤٦هـ) في كتابه «مروج الذهب»[٣]، لكنها في مدلولها العام تدور بين الموعظة والخطبة.

أما أبوعلي القالي ت سنة ٣٥٦هـ في كتابه «الأمالي»[٤]، فشرح لفظ «مقامة» على أنها المجلس، إلى أن قال :

«وكذلك ظل لفظ (مقامة) حيث كان في الشعر الجاهلي، لم يكد ينفخ فيها شاعر إسلامي، ولاكاتب قبل **البديع** الهمذاني، ... إلا ابن قتيبة الذي كان يثب به إلى مدلول جديد؛ وهو الوعظ الصرف، والترغيب عن الدنيا، إلى أن جاء زعيم فن المقامات بديع الزمان، فألبس المقامة حلة لم تلبسها من قبل ...، فقد أصبحت المقامة تعني منذ ظهور فن **البديع** الأقصوصة أو الحكاية أو النادرة المعنوية في ألفاظ أنيقة، وأسلوب مسجوع»[٥].

وإلى مثل هذا أشار د. حسن عباس فقال :

«إن المقامات ... عند ابن قتيبة قد دونت في كتب تختص بها، أو ضمن كتب الخطب، ... أما المقامات الأدبية بالمعنى الذي نعرفه اليوم فلم تعرف حتى طلع بديع الزمان الهمذاني ....،وبهذا وضع لكلمة المقامات معنى اصطلاحياً لم يستعمل من قبل»[٦].

---

(١) ٣٣٣/٢، دار الكتب، سلسلة تراثنا .

(٢) ١٥٨/٣-١٦٤، ت: د.عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

(٣) انظر: ٤١٣/٢، ٤١٤، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٦، ط ١٢٨٣هـ، مصر.

(٤) ٩٥/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.

(٥) فن المقامات في الأدب العربي، د.عبدالملك مرتاض، ص٢٣.

(٦) نشأة المقامة في الأدب العربي، د.حسن عباس، ص١٤.

ولعل بروكلمان[١] أول من حاول تتبع كلمة مقامة وتطورها ... لهذا عاد د.حسن عباس وقال :

((إن العرب أوسعوا في معنى الكلمة ((مقامة)) حتى سموا مايدور في هذه المجالس من خطب ومواعظ وغيرها مقامات، ومن ثم لانرى أن هناك هبوطاً أو ارتفاعاً في معنى الكلمة، وكل ماهنالك أن الكلمة أصبحت تدل دلالة اصطلاحية خاصة على نوع من النشاط الأدبي ... ولاشك عندي في أن الكلمة ظلت حية سواء بمعانيها القديمة أو بمعانيها الاصطلاحية الأخرى إلى جوار المعنى الاصطلاحي الأدبي الذي خلعه عليها **البديع**))[٢].

وهذا الفهم لمعنى المقامة جعل د.عبدالرحمن ياغي[٣]، و د.محمد رشدي حسن[٤]، يضمان إلى المقامات الأدبية مقامات الزهاد والوعاظ عند ابن قتيبة، وابن عبدربه، والغزالي*. وتبعهما في ذلك د.يوسف نور عوض[٥].

---

(١) انظر: تطور الأساليب النثرية، أنيس المقدسي، ص٣٦٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٧٩م.

(٢) نشأة المقامة في الأدب العربي، د.حسن عباس، ص١٥.

(٣) رأي في المقامات، ص٢٠، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م.

(٤) تطور فن المقامة : ٢-٨، ١٠٢-١٠٤ (رسالة دكتوراه مخطوط بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٠م).

(٥) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ٧١.

(*) الغزالي(٤٥٠-٥٠٥هـ): أبوحامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي، خلف آثاراً علمية خالدة قيل إنها نحوٌ من (٢٢٨)مؤلفاً أكثرها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ، ومنها المقامات.

انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢/٧، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط(٥) ١٩٨٠م . البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٥/١٢، مكتبة المعارف، بيروت، ط(٢)، ١٩٧٧م. تاريخ الإسلام =



وكما اختلف الباحثون في نشأة فن المقامة، اختلفوا في الرجل الذي إليه ينبغي أن ينسب قصب السبق، ويكاد بديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين ت٣٩٨هـ يكون حامل لواء هذا الفن، الذي ثبت دعائمه، ,أرسى أسسه، وجاء فيها بما لم يخطر على ذهن أحد من سابقيه يشهد له بذلك عدد لايستهان به من جل العلماء السابقين، وأكثر الباحثين المحدثين، ولعل الإمام **الحريري*** صاحب المقامات المشهور من أوائل من شهد له بذلك في قوله في مقدمة مقاماته: ((فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان - رحمه الله تعالى - وعزا إلى ابي الفتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لايعرف، ونكرة لاتتعرف، فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم إلى أن أنشيء مقامات أتلو فيها تلو **البديع**، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع))(١).

= السياسي والديني والثقافي والإجتماعي، د.حسن إبراهيم حسن، ٥٣٢/٤-٥٣٣، المكتب الإسلامي، ط(١)١٤٠٥هـ-١٩٨٥م . شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد، م٢، ١١/٤-١٢، القاهرة، ١٣٥٠هـ. طبقات الشافعية، قاضي شهبة، ت: عبدالعليم خان، دار الندوة الجديدة، ط ١٤٠٨هـ، ١٠١/٤. سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢٢/١٩-٢٢٣، ت: شعيب الأرناؤط وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(١) شرح مقامات الحريري، للشريشي، ٢١/١-٢٥، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الظالع: العرج، الضليع: العظيم الخلق الشديد. انظر اللسان، مادة: ظلع، ضلع.

(*) الحريري (٤٤٦-٥١٦هـ): هو أبومحمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري، حنبلي، كتب خمسين مقامة واتخذ له راوية هو الحارث بن همام والبطل وهو أبوزيد السروجي.

انظر: انباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، ٢٥/٣، دار الكتب المصرية. بديع الزمان الهمذاني رائد القصة، د.مصطفي الشكعة، ص٤٠٩. معاهد التنصيص، عبدالرحيم العباسي، ٢٧١/٣، عالم الكتب،بيروت. معجم الأدباء للحموي، ٢٦١/١٦. المقامة، د.شوقي ضيف، =



وقوله ((... مع اعترافي بأن البديع - رحمه الله - سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لايغترف إلا من فضالته، ولايسري ذلك المسرى إلا بدلالته. و لله در القائل:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً ** بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا ** بكاها فقلت: الفضل للمتقدم))[1]

وشايع الحريري على نسبة اختراع هذا اللون من فنون النثر إلى البديع ابن خلكان ت سنة٦٨١هـ فقال في ترجمة البديع: ((... صاحب الرسائل الرائعة، والمقامات الفائقة، وعلى منواله نسج الحريري مقاماته، واحتذى حذوه، واقتفى أثره، واعترف في خطبته بفضله، وأنه الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج...))[2]، وابن حجة الحموي ت٦٢٦هـ في سياق حديثه عن البديع، قال: ((وهذا الإمام المتقدم الذي صلى الحريري خلفه، وأشار إليه بقوله في مقاماته :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً ** بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا ** بكاها فقلت: الفضل للمتقدم

فإن البديع هو الذي سبق الحريري إلى نظم المقامات، وسبك العلوم في تلك القوالب الغريبة، وعلى منواله نسج الحريري ...))[3]، والقلقشندي ت سنة٨٢١هـ، وكان كلامه في ذلك واضحاً صريحاً، إذ قال ((واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر، وإمام الأدب البديع الهمذاني))[4].

= ص٤٤، ط٦، دار المعارف. وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٦٣/٤، ت: د.إحسان عباس، ط. دارصادر بيروت١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٣.

(٢) وفيات الأعيان،١٢٧/١.

(٣) خزانة الأدب، ١٣٢/١، ط١، القاهرة ١٣٠٤هـ، المطبعة الخيرية. صلّى: جاء بعده، اللسان، مادة: صلى.

(٤) صبح الأعشى، ١١٠/١٤، القاهرة ١٣٤٧هـ-١٩٧٥م، دار الكتب المصرية.



والشهاب الخفاجي ت سنة١٠٦٩هـ فقال:((وأول من اخترع هذا **البديع** الهمذاني، وتابعه **الحريري**، و**الزمخشري*** والفضل للمتقدم))(1). أما **ابن نباته****، و**ابن ناقيا***** ، والنعماني****، فلم نجد لهم ذكراً؛ ربما لقلة عدد مقاماتهم.

---

(١) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل،ص١٨٩،ط١، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥هـ.

(*) الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ): جارا لله أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري، ولد في خوارزم. انظر:تاج التراجم في طبقات الحنفية،زين الدين قام ابن قطلوبغا،ص٧١-٧٢، بغداد١٩٦٢م. الفوائد البهية في تراجم الحنفية، أبوالحسنات اللكنوي، ص٢٠٩-٢١٠، دار المعرفة، بيروت. معجم الأدباء، للحموي، ٨٦/٤، ١٣٢/١٩.مقدمة شرح مقامات الزمخشري يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط(٢). مقدمة الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب اللبناني، بيروت. وفيات الأعيان لابن خلكان، ١٧١/٥. يتيمة الدهر للثعالبي، ١٠١/٤.

(**) ابن نباته (٣٢٧-٤٠٥هـ): هو أبونصر عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن أحمد ابن نباته، له مجلس أدب يحضر فيه الأدباء والشعراء يتبادلون فيما بينهم الأشعار. انظر: ديوان ابن نباته، ٢٢/١-٨٠، دراسة وتحقيق: عبدالأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية، بغداد ١٩٧٧م، تاريخ بغداد، ٤٦٦/١.

(***) ابن ناقيا (٤١٦-٤٨٥هـ): هو أبوالقاسم عبدا لله بن ناقيا، وقيل عبدالباقي بن محمد ابن الحسين بن داود بن ناقيا، ولد ونشأ في بغداد، وله ديوان شعر، وديوان رسائل، ومقاماته عددها عشر وليست سبع أو تسع كما قيل. انظر: انباه الرواة، للقفطي، ١٥١/١. بغية الوعاة، للسيوطي، ص٢٩٢، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة الحلبى، ط(١) ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م . الجمان في تشبيهات القرآن، لابن ناقيا، ت: د.مصطفى الصاوي الجويني، ص١٠-٣٢. دائرة المعارف الإسلامية، ١٦١/٨. النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، دار الكتب المصرية، ط(١)، ١٣٤٨هـ، ٦/٥ . وفيات الأعيان لابن خلكان، ٩٨/٣ دار الثقافة.

(****) النعماني: ت٥٢٠هـ، هو: أبومحمد طلحة بن أحمد بن طلحة بن الحسين النعماني، وقيل: طلحة بن محمد، من أهل النعمانية، كان فاضلاً عارفاً باللغة والأدب والشعر. وهو الذي ورد البصرة في زمان الحريري صاحب المقامات.

=



وتناقل عدد من الباحثين نصاً أورده الدكتور/ زكي مبارك عن ((زهر الآداب)) للحصري ت سنة ٤٥٣هـ، يقول فيه عن **البديع**: ((وهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وكلام غضّ المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفا، والهوى يعشقه ظرفاً. ولما رأى أبابكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنتجها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض أعجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ماأظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولاترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها؛ إذ صرف معانيها في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، وعارضها بأربعمائة مقامة في الكدية، تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً، لامناسبة بين المقامتين لفظاً ولامعنى..))(١).

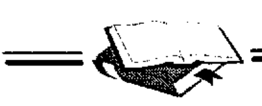
وأسس الدكتور/ زكي مبارك على ذلك أن ابن دريد هو مخترع فن المقامات، فهو السابق إليه، وعلى نهجه سار **البديع**(٢)، وقد أشكل على الدكتور/ زكي أمر ((أحاديث ابن دريد)) التي أشار إليها الحصري، وعزّ عليه أن يظل غيابها عقبة في سبيل مايرى أنه إليه تنبه، فراح يلتمسها في الأخبار المنقولة عن ابن دريد في أمالي أبي علي القالي، وأخذ يحاول إقناع الباحثين أو إقناع نفسه ((قبل أن يقنعنا بأنه وقف على أحاديث ابن دريد المفقودة في أمالي القالي، وحاول بكل طريق أن يخلع على هذه الصفات مايوافق ماجاء في نص الحصري كما وقف عليه))(٣)، وقد وقف الدكتور/ حسن عباس عند نص الحصري، وأبان في جلاء أن الدكتور/ مبارك ومن سار على

= انظر: انباه الرواة، للقفطي، ٩٣/٢. خريدة القصر، عماد الدين الأصبهاني الكاتب، القسم العراقي، ٣/٢، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م. فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، ١٣٥/٢، ت: د.إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م. معجم الأدباء للحموي، ١٢/٢٦.

(١) زهر الآداب للحصري، تحقيق: زكي مبارك، ٣٠٥/١، ط٤، دار الجيل، بيروت ١٩٧٢م. وانظر: النثر الفني في القرن الرابع، ٢٤٣/١، دار الكتاب العربي، القاهرة.

(٢) انظر: النثر الفني، ٢٤٤/١.

(٣) نشأة المقامة في الأدب العربي، د.حسن عباس ، ص٢٩.



رأيه من الباحثين[١] لم يوفقوا في فهم النص ذاكراً أن النص المذكور أدى فيما أدى إلى أن يدعى بعض الباحثين أن فن المقامة فن فارسي الأصول، أو مستمدة من أصول فارسية[٢]، وقد استوقفت الدكتور حسن عباس عبارة الحصري: «في معارض عجمية [كذا]، والفاظ حوشية»، فذكر أن فيها تحريفاً، وأنها لاتستقيم إلا أن تكون «في معارض حوشية، وألفاظ غنجية»[٣]، كما جاء في نص الكلاعي في إحكام صنعة الكلام[٤]، والخطب في هذا أيسر مما شغل به الدكتور/ حسن عباس نفسه فليست «معارض عجمية» أو «أعجمية» التي جاءت في الطبعة المحققة من زهر الآداب بالتي يناط بها سلب ابن دريد أثره في كونه مصدراً مهماً من مصادر البديع التي قام عليها بنيان الفن الشامخ «المقامة»، ولاهي مما يخول أحداً زعم أن تلك الأحاديث كانت فارسية اللحمة والسدى، ويبدو أن السبب الذي جعل الأمور تختلط في أذهان كثير من الباحثين عدم التفريق بين شيئين مختلفين أشد مايكون الاختلاف هما:

١- أحاديث ابن دريد التي أشار إليها الحصري بقوله : «استنبطها من ينابيع صدره. واستنتجها من معادن فكره».

٢- أمالي ابن دريد التي تدخل في جانب مروياته فهو فيها ناقل عن شيوخه، وعلى وجه الخصوص عن عبدالرحمن عن عمه الأصمعي[٥]، وعلى الرغم من أن

---

(١) انظر: من هؤلاء: د.شوقي ضيف في كتابه (المقامة) ص١٧، د.محمد رشدي حسن (تطور فن المقامة) ص٢٠-٢١، ٣١، عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجي (فن المقامة والرسالة الأدبية في الأندلس)ص٦.

(٢) انظر: نشأة المقامة في الأدب العربي، د.حسن عباس، ص٣٢-٣٦.

(٣) انظر: نشأة المقامة، ص٣٧، وذكر أنها في معجم الأدباء جاءت محرفة (..وألفاظ عنجهية)، يراجع: معجم الأدباء، ٢/١٦٩، ط القاهرة - ١٩٣٨م.

(٤) ص ١٢٠ ت: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٦م . عن نشأة المقامة، د.حسن عباس، ص٢٧ وهو كذلك .

(٥) انظر نشأة المقامة، د. حسن عباس، ص ٣٠-٣٢.



الدكتور/ عباس كان واضحاً في التفريق بين الأمرين،والرد على ماسببه الخلط بينهما عند عدد كثير من الباحثين جاروا د.زكي مبارك في رأيه،أو نقلوه دون تمحيص فإنه لم يتمكن من الإفلات من ذلك حين استشكل العبارة السابقة فقال : ((ومع هذا فإن نص ياقوت لم يخل من تحريف، ولعل أصدق صورة لهذا النص هي التي نقلها لنا الكلاعي في إحكام صنعة الكلام حيث جاء: (في معارض حوشية، وألفاظ غنجية) هذا هو الوجه الذي يستقيم به الكلام لفظاً ومعنى، فوصف الألفاظ بأنها غنجية وصف يأباه الحس اللغوي لمن أدمنوا قراءة الكتب القديمة حيث العربية الناصعة، والبيان المشرق، ... فالعبارة لاتوحي بما ذهب إليه زكي مبارك ... من أن الصعوبة والإغراب [كذا] في اللفظ ، بل توحي بأنها كانت في جملتها أحاديث ماجنة سيقت في ألفاظ خليعة ماجنة؛ لذا تنفر من تفاصيلها الطباع الكريمة، وتتقزز من ألفاظها الأسماع الشريفة ...))(١)، وفات الدكتور/ حسن أن إيحاء العبارة بأنها كانت ((أحاديث ماجنة سيقت في ألفاظ خليعة)) هو ذاته المراد من قول الحصري (معارض أعجمية)، فالمعارض بالأسلوب ألصق، وعليه أدل، ولايخفى أن ذلك كله قريب الصلة بماشهد عن ابن دريد – رحمه الله –، وبيّن أيضاً أن الحياة اللاهية العابثة دخيلة على الأمة التي كانت في جاهليتها وشيء من صدر إسلامها تعاني من شظف العيش، وضنك الحياة ماسطرته أمثالها وأشعارها، وأفاض فيه مؤرخوها، وأن الحضارة الفارسية جلبت فيما جلبت من أنواع الملاذ المتنوعة، ومارافقها من المجون، وتسرب من هذا شيء غير قليل، وكان شيوعه وانتشاره في المناطق الفارسية التي احتضنت ابن دريد فترة من حياته ظاهراً واضحاً، وكان الحريصون على هذه الحياة اللاهية العابثة يرون أن يندب لغوي ماهر – لوصف هذه المباذل أو تخيلها فوصفها ابن دريد نفسه – فيتفكهون بذلك في مجالس أنسهم، وهذا ضرب من الحياة مع شناعته ومخالفته للحياة التي ينبغي أن تحياها أمة اختارها الله لنشر شريعته موجود لايستطيع أحد إنكار وجوده. كما أن حياة أخرى حافلة بالأتقياء البررة موجودة لايستطيع أحد إنكارها

(١) نشأة المقامة، ص ٣٧.



أو إنكار وجودها في أكثر الأزمان ضياعاً وإغراقاً في الترف والملذات، ثم إن (حُوشية) بالألفاظ ألصق، وبها أليق.

هذا ، ومما يجدر ذكره أن د.زكي مبارك نفسه لم يستطع أن يطمئن كل الاطمئنان إلى صحة دعواه فعاد كالذي ينقض قوله، أو يحاول أن يحتفظ لنفسه بحق التراجع عن قضية خب في إثباتها وركض من غير نص واضح دقيق يجلو غامضها، فقال: ((ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات، فإن عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر، وطريقته في القصص تختلف عن طريقة ابن دريد، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في أذهانهم غير فن **البديع**، فهو بذلك منشيء هذا الفن في اللغة العربية، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد، وإنما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان))[1].

وينهي د.حسن عباس نقاشه بقوله :

((وخلاصة القول إننا نؤمن مع زكي مبارك بدور ابن دريد في نشأة المقامة العربية وأثره في عمل **البديع** ... وأخيراً نجد من الباحثين المحدثين من يشير إلى ابن فارس* اللغوي على أنه مبدع فن المقامات كجرجي زيدان[2] الذي انتهى إلى أن ابن فارس هو المبتكر الحقيقي لفن المقامات الأدبية ... وتناقله عدد من الباحثين كالدكتور جميل سلطان[3] الذي قرر أن لابن فارس مقامة من إنشائه، ويأتي بعده الدكتور

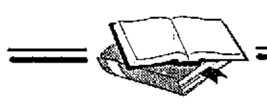
---

(١) النثر الفني، ١/٢٤٦-٢٤٧.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٣/٣١٠، ت: د.شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٧م.

(٣) فن القصة والمقامة، د.جميل سلطان، ص١٧، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٦٢هـ-١٩٤٣م.

(*) أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، ت٣٩٥هـ.
انظر إنباه الرواة للقفطي، ١/٩٤. تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ٢/٢٦٨، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨م. بغية الوعاة للسيوطي، ١/٥٢.



أحمد الحوفي[١] ليجعلها مقامات لا مقامه ... ويلحق بهم باحث آخر هو الدكتور يوسف نور عوض[٢] ...))[٣].

ومع هذا نجده في آخر المطاف يقول :

((اذن فلاعلينا إذا استبعدنا ابن فارس ذلك الاسم الكبير في ميدان اللغة والفقه من مضمار الفن المقامي))[٤].

إلا أن الدكتور/هادي حسن حمودي أقام بحثاً بأكمله،ليصل بالقارئ من أول البحث لآخره إلى أن النشأة للمقامات قبل أن تستقر أصولها لدى التلميذ الذي هو الهمذاني كانت لها جذور عند أُستاذه ابن فارس فعرض لأقوال **الحريري**، والثعالبي، والحصري القيرواني، وبروكلمان، وزكي مبارك، ومرجوليوث، والسباعي بيومي، وجرجي زيدان، وعبدالملك مرتاض، وناقش كل هذه الأقوال، وبين مواطن ضعفها، كما بين أن من هؤلاء الباحثين الأفاضل من ألمح إلى الصواب مثل: السباعي بيومي الذي قال:

((إن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ... وأن **البديع** حين عارضه سمى أحاديثه مقامات. ولكنا نذكر أن الذي احتذاه أولاً، إنما هو أُستاذ **البديع** أبوالحسين أحمد بن فارس لا **البديع**. فقد وضع مقامات اتبع الأدباء نسقه فيها، وكان أولهم اتباعاً تلميذه **البديع** ...))[٥]، وجرجي زيدان الذي قرر أن ابن فارس كتب رسائل

---

(١) تيارات ثقافية بين العرب والفرس: د.أحمد الحوفي، ص٢٨١، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٢) فن المقامات بين المشرق والمغرب، د.يوسف نور عوض، ص ٦٧.

(٣) نشأة فن المقامة ، د.حسن عباس، ص٣٧-٤٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٥) تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، ٣/١٩٧-١٩٨، مكتبة الأنجلو المصرية ط٢، ١٣٧٦هـ-١٩٥٨م.



اقتبس منها العلماء نسقه[١].

هذان الكاتبان مسا القضية مساً خفيفاً عابراً، و لم يقدما من الأدلة مايقنع، وإنما هو كلام عام، واستخلاص لايفيء إلى مرتكز معقول، وقد رد عليهما الدكتور عبدالملك مرتاض[٢] ورفض ماذهبا إليه))[٣].

وناقش د.هادي أدلته وردها قائلاً :

((والحق أن مرتكزات هذا الاعتراض أكثر ضعفاً مما حاول نقده، ومع أننا لانميل إلى ما مال إليه بيومي من أن ابن فارس قد قلد (مقامات) لابن دريد، ولانميل إلى ما مال إليه جرجي زيدان من أن لابن فارس رسائل هي التي أوحت بالمقامات كفتيا فقيه العرب، فإننا نأخذ على الدكتور مرتاض أدلته التي تجاوزت في ضعفها، هشاشة قولي بيومي، وزيدان))[٤].

ولما كان د.هادي قد عقد العزم على إثبات ماأقام البحث من أجله. -وهو إثبات نشأة المقامات لابن فارس - فقد أورد نصوصاً بدأها بنص للحريري، وثنى بنص للثعالبي[٥] ت سنة ٤٣٠هـ الذي قال :

((... ولما استقرت عزيمته - أي **البديع** - على قصد نيسابور أعانه على حركته، وأزاح علله في سفرته - يعني أبا سعد محمد بن منصور، شيخ جرجان - فوافاها سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، ونشر بها بزه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة مقامة نحلها أباالفتح الاسكندري في الكدية وغيرها...))[٦]، وعلىالرّغم من أن الثعالبي

---

(١) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٦١٩/٢.

(٢) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، ص ١٤١، ومابعدها.

(٣) المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمذاني، د.هادي حسن حمودي، ص٢٦، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٥) انظر: ترجمته في وفيات الأعيان، ١٧٨/٣-٢٤٤.

(٦) يتيمة الدهر، ٢٥٦/٤.



لم يشر هنا إلى أوليات المقامات، فإنه قد ذكر في مكان آخر من يتيمته: أن **البديع** قد أخذ جميع ماعند ابن فارس، وأنه استنزف بحره[١].

وللإشارة هذه أهميتها إذ لاتناقض النص المذكور أعلاه، فيمكن أخذها باطمئنان، ومناقشتها، لنصل لأوليات المقامات[٢].

ولسنا بهذا نريد أن ننفي استفادة **البديع** من موروث ضخم يشمل فيما شمل أقاصيص الأعراب وملحهم، ومواعظ الزهاد وأخبارهم، وحكايات الإخباريين، وآثاراً متفرقة من كتب الجاحظ، وابن دريد، وابن فارس، وحيل المكدين، واللصوص، والشطار، والعيارين ...، وحكاية أبي القاسم البغدادي مما يطول الحديث لو أردنا تقصيه، لكن نود الإشارة إلى أن المقامة فن أدبي متميز السمات تشابكت في تشكيل صورته لدى فارسه الأول بديع الزمان الهمذاني، تلك الموروثات مجتمعة حيناً، ومتفرقة أحياناً في ذهنية أدبية نافذة تلبي حاجة مجتمع تضطرب فيه الاتجاهات، ويعاني من اختلال المعايير، وتفاوت الطبقات، واختلاف المشارب، وتباين الفرق مايدفع النابهين من حملة القلم لتسجيله وكشفه، وبيان صحيحه وجلائه، وهتك استار قبيحه، وبيان شناره، ولعل في تعرف أطوار حياته مايكشف في جلاء شيئاً من ذلك فقد تنقل كثيراً، ولم يطب له المقام مع الصاحب بن عباد الشيعي المتعصب لشيعيته، فينتقل إلى جرجان ((ولايمكث في جرجان طويلاً، بل يتركها إلى نيسابور موطن أهل السنة، وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي ...، فانتهز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان بلدتهم، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي، انتصروا فيها للبديع، فعلا صيته، وتألق نجمه...))[٣].

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ٤/٢٥٧.

(٢) انظر:المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمذاني،د.هادي حسن حمودي، ص٢٤-٢٥.

(٣) عصر الدول والامارات: الجزيرة العربية، العراق، إيران، د.شوقي ضيف، ص٦٦٧.

الباب الأول

قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة

وفيه فصول :

الفصل الأول : الأخلاق الإسلامية في المقامة.

الفصل الثاني : النقد الاجتماعي في المقامة.

الفصل الثالث: الحاكم في المقامة .

الفصل الرابع : الجهاد في المقامة .

الفصل الخامس : الحياة والموت في المقامة .

الفصل السادس : علوم اللغة العربية في المقامة.

الفصل الأول

الأخلاق الإسلامية في المقامة



تعريف الخلق :

الخُلق والخلق : السجية، والخُلق : الطبيعة، وفي التنزيل : ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(١).

والخلق : المروءة، والخلق : بضم اللام وسكونها : هو الدين والطبع والسجية(٢)، وقد جمعها صاحب القاموس المحيط فقال: (الخلق: السجية والطبع والدين والمروءة)(٣).

والخلقة : الفطرة ، والخليقة والسَّليقة بمعنى واحد، والجمع: أخلاق.

قال صاحب اللسان: ((إن حقيقة الخلق هو: صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه واوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، وبهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع، كما جاءت في ذم سوء الخلق أيضاً أحاديث كثيرة))(٤).

ولقد كفل الإسلام للإنسان حقوقه كلها: حق الحياة في كرامة، وحق الشعور بهذه الكرامة، والتعبير عن هذا الشعور وفق مارعى من مصالح الفرد التي تنسجم في مصالح الجماعة ولاتؤدي إلى تعطيل شيء، ليتلاحم الكيان المسلم بالحرص على مخالقة الناس بالخلق الحسن، ومصداق ذلك قول المصطفى - ﷺ -: ((**ألا إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، الذين يألفون ويؤلفون**))(٥).

---

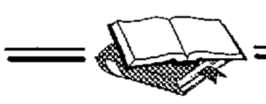
(١) سورة القلم، آية ٤ .

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ٨٦/١٠، ٨٧-٩١، ط دار صادر، بيروت.

(٣) الفيروزآبادي، ٢٢٩/٣، ط دار الفكر، بيروت.

(٤) ابن منظور، ٨٦/١٠-٨٧.

(٥) رواه الترمذي(٢٠١٨)،عن جابر -ﷺ- كتاب البر، باب ماجاء في معاني الأمور، ٣٧٠/٤.



وقال – عليه الصلاة والسلام – لأبي ذر – رضي الله عنه – : ((**اتق ا لله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**))(١).

وأي بيان أنصع، وأي إرشاد أبلغ من قول الباري جل شأنه: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(٢).

الذي يشيع التآلف في المجتمع المسلم بما يجعله مجتمعاً مخلص العبادة لله وحده داعياً إلى ذلك جهده، فيمكنه القيام بالدور المنوط به في هذه الحياة، وهو قيادة البشرية إلى طريق الحق والنور والهداية. إنه لن يصل إلى ذلك الرقي إلا حين يتخلق بأخلاق الإسلام الحميدة، ويتأدب بآدابه المشرقة.

وتصور المقامات شيئاً كبيراً من هذا عند البديع الهمذاني والحريري، ومن حذا حذوهما وتظهر الرغبة في اتخاذ المقامة منبراً لتنبيه الغافلين السادرين في غيهم في أكثر من صورة، فالزمخشري مثلاً يكتب خمسين موعظة يسمي كل واحدة بالمقامة، ويشرحها، ولئن كان الزمخشري لم يحافظ من الشكل الفني للمقامة إلا على الأسلوب المسجوع الذي يشاركه في المحافظة عليه كتاب الرسائل، فلقد أراد أن يرتفع بالمقامة عن الكدية والاستجداء، ووصف مباذل الحياة التي كانت ظاهرة كل الظهور في مقامات البديع الهمذاني، والحريري إلا على الراوية الذي سماه فيها أباالقاسم ويعني به نفسه، والبطل هو الهاتف الذي سمعه في بعض إغفاءات الفجر يقول له :

((ياأبَا القَاسِم : أجَلٌ مَكْتُوب، وَأَمَلٌ مَكْذُوب، فَهَبَّ مِنْ إِغْفَاءَاتِهِ تِلْكَ مَشْخُوصاً به، مما هَالَهُ مِنْ ذَلِكَ وَرَوَّعَهْ، وَنَفَّرَ طَائِرَهُ وَفَزَّعَهْ، وَضَمَّ إلى هَذِهِ الكلماتِ مالرتفَعَتْ بهِ مَقَامَه، وآنسَهَا بِأَخَواتٍ قَلَائِل ثُمّ قطعَ لمراجعةِ الغفلةِ عَنِ الحقائقِ، وَعَادَة الذّهُول عَنْ الجد بِالهَزْلِ، فَلمَّا أُصِيبَ في مُسْتَهَلّ شَهْرِ ا للهِ الأَصَمّ الْوَاقِعِ فِي سنة

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ١٥٣/٥. والترمذي (١٩٨٧). كتاب البر، باب ٥٥، ٣٥٥/٤، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٤.

ثني عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التي سماها المنذرة، كانت سبب انابته، وتغير حاله وهيئته))[(١)].

فالمقامات **الزمخشرية** على هذا ألفت في مرحلتين :

أولاهما: قبل المرض الشديد الذي ألمّ به في شهر رجب سنة ٥١٢هـ وتضم اثنتى عشرة مقامة، وفي تلك المقامات مايشعر أن الرجل يخاطب نفساً لها إلى ملاذ الدنيا ميل، وعلى الشهوات إقبال تحتاج إلى وعظ رادع، وإرشاد كابح[(٢)].

وثانيتهما: بعد المرضة الشديدة المذكورة، والتي مكنت في نفسه مفارقة الدنيا، ودنو الأجل فنراه يخاطب نفساً أثقلها المرض، فاستكانت وبدأت تترقب حين الوداع في رضى بالقضاء، وشكر عليه، وندم على مافرطت في جنب الله[(٣)].

والذي يعنينا هنا هو ماتضمنته هذه المقامات من حرص على تأكيد الأخلاق الإسلامية منتظمة في السياق التالي :

١- الزهد في الحياة .

٢- الصبر على المتاعب.

٣- الحث على الشكر، والكرم.

٤- تأكيد الوفاء بعهد الله.

٥- بيان مهمة المسلم في الحياة بدءاً من حسن الصحبة وانتهاءً بالوقوف أمام العقبات بشجاعة.

وهذه موضوعات متداخلة متناسقة حيناً، ومنفصلة في بعض جزئياتها حيناً آخر ، وسنتناول ذلك ببعض التفصيل، وستكون البداية بمقامات أبي الفرج

---

(١) مقامات الزمخشري، ٥-٩.

(٢) انظر: فن المقامة في القرن السادس، د.حسن عباس، ص١٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٤.



ابن الجوزي الذي كانت مقاماته أدخل في فن المقامات من مقامات **الزمخشري** فقد كفل لها ذلك حذو **ابن الجوزي للحريري** فأسند بطولة مقاماته إلى من سماه أباالتقويم، وهو يقصد العقل، يقول في مفتتح مقاماته بعد تسويغ كتابتها: ((وكنتُ كثيراً ماأخلو بالعقلِ في بيتِ الفكرِ فأجري سُؤَاله ويجيب، وَيَجْري لي ولَهُ كُلُّ عجيب، والإخبار بتلك الأخبارِ علَى الحقيقة عنّي؛ لأنَّ منبعَ السؤالِ والجوابِ منّي، فأحببتُ أنْ أؤلف لكلِّ فكرة استطرف مقامه ليُعرَف شرفُ العقلِ ومقامه، وقد كنيته ليُعْرَف أَبَاالتقويم؛ لأني رأيتُه قد تلطَّفَ مَنْ أَبَى التقويم، فإنه يتفاوتُ في ضربِ الأمثالِ العالمون ﴿ومايعقلها إلا العالمون﴾ ...))[1].

لهذا تجدنا أغفلنا التسلسل التاريخي لأصحاب المقامات، وبدأنا بمن وجدنا التطبيق لديه أوفى من غيره، **كابن الجوزي**، **والزمخشري** وهكذا سرنا، فمن وجدنا البدء به يخدم مانحن بصدده، كان التقديم له، والتأخير لسواه .

الزهـــد :

تعـريفـــه :

((الزهد في الشيء في لغة العرب -التي هي لغة الإسلام- الانصراف عنه احتقاراً له،وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه،ولم يجيء في القرآن إلا في شأن الذين شروا يوسف :﴿**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾[2].

والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الإنسان في هذه الحياة، بما جعله بلاءً وعوناً للمهتدين على الإيمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقياً صالحاً للآخرة، وعوناً على الكفر والفسوق والعصيان، عند الغافلين الكافرين، الزهد في ذلك: إعراض عن نعم الله وتحقيرها وليس هذا من هدى رسول الله - ﷺ -، ولاهدى أصحابه، وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبها، والفرح بفضل الله

---

(١) مقامات ابن الجوزي، ص ٦.

(٢) سورة يوسف ، آية ٢٠.



عليهم بها، وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به))[1].

وها هو ذا **ابن الجوزي** يحث على الزهد في المال في مقامته السادسة والأربعين فيقول:

((غلبَ علَى قَلْبي حُبّ المالِ أجْمَعُه، علَى يقينٍ مني أنَّهُ يُؤخذُ يومَ المآل أجمعه.. وإذا علَى المنبرِ أبُوالتقويم ... فَقَالَ: لاشكَّ أَنَّ المالَ بالطبعِ محبوبٌ، وأَنَّ تحصيلَ ذاتهِ للذاتهِ مطلوب، وَلكنْ لابحيثُ مَايفسدُ الأديانَ والقلوب، وَإنما هُوَ مَخلوقٌ لِغَرضٍ معترضٍ ينوب،فَهو مَمْدُوحٌ لِكونهِ يَقْضي الْحَوَائِج، مَحْمُودٌ لأنَّه مستعجل في المراد رَائح، وَلَعَمْري إنَّه ماتشبَّثَ هَمّ إلاّ بِالْحَاجَةِ إليهِ، وَلاَوَقَعَ رِيَاءٌ إلاَّ بِالْحِيلةِ عَلَيهِ، غَيْرَ أَنَّه لاَيَنْبَغي أَنْ يَحرصَ عَلَى زِيادَتهِ، إلاَّ مَنْ اَلْبَذْلُ مِنْ عَادَتِهِ، فإنَّه كَالحيةِ التي لاَتُطَاق وَلاَيصلح قُربانُها إلا لمن شَرِبَ الدّرياق .. هَلْ المالُ إِذَا تَأَمَلْتَهُ ذو الحِجى بمَحْجِرِ الحِجْرِ إلاَّ حَجَرٌ؟، فَمَا بَاله علَى البال بالبَلبَالِ قَدْ حَجَرَ؟... وَيحكَ مَالكَ تَجْمَعُ مَالَك، وَمَالَكَ مِنْهُ إلاَّ مَاتُتْلِف، وَالزَّمان يحثكَ للذهابِ وأنتَ للأذْهَاب تُؤلِّف. كما جائز للقناطيرِ غيرُ جائزٍ قَنْطَرَة الحِسَاب، كَمْ عَرْيَان للحرصِ اكْتَسَى ذُلّ الاكتساب.

يَاجَامِعاً مَانِعاً والدَّهـر يَرْمقـه ** مقدِّراً أيّ باب عَنْـه يغلقـهُ

جمعتَ مَالاً فقلْ لي: هَل جَمَعْتَ لَهُ ** يَاغَافِلَ القَلْـبِ أَيَّاماً تُفَرِّقُـهُ؟

المَالُ عنـدكَ مَخـزون لِوَارِثـه ** مَا المالُ مَالَكَ إلاَّ يَوْمَ تُنْفِقُهُ))[2].

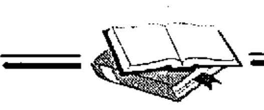
لعلك لحظت أنه حث على الزهد في إحدى ضروريات الحياة وهي ((سبعة: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه))[3].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ١/٤٥٢، هذبه/ عبدالمنعم صالح العلي العربي، مؤسسة الرسالة، دار المنطلق، دبي.

(٢) المقامة (٤٦): الزهد في المال، لابن الجوزي، ص٣٧٦-٣٧٨.

(٣) مختصر منهاج القاصدين، للشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، ص٣٢٦، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.



فالمذكور هنا هو المال فبين أن أحدهم قد تعلق قلبه بحب جمع المال، ثم شاهد أباالتقويم، الذي بين أن جمع المال يمتدح لمن كان البذل والعطاء من عادته، ثم ذم جامع المال، وحثه على إنفاقه في وجوه الخير، بدل أن يتركه بعد موته لورثته فقال: ((وَيحكَ مَالَكَ تجمعُ مَالكَ، وَمَالَكَ مِنْهُ إلاَّ مَاتُتْلِف، وَالزَّمانُ يحثكَ للذهابِ وَأنتَ للأَذْهَابَ تُؤلِّف..))، والرسول - ﷺ - قال: ((**يقول العبد: مالي مالي إنما له من ماله ثلاث: ماأكل فأفني، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وماسوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**))(١).

والمال ضروري في المعيشة، لكن الزاهد يقتصر منه على مايدفع به الوقت، قال رسول الله - ﷺ -: ((**إِنَّ لكلِّ أمةٍ فتنةً وفتنةُ أُمتي المال**))(٢).

ولقد حث **ابن الجوزي** على الزهد متلمساً طريق رسول الله - ﷺ - الذي كان القدوة في الفعل قبل القول، فها هو ذا عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث أم المؤمنين - رضي الله عنهما - يقول: ماترك رسول الله - ﷺ -، عند موته درهماً ولاديناراً، ولاعبداً، ولاأمةً، ولاشيئاً إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة))(٣).

أما أحاديثه عليه الصلاة والسلام في الحث على الزهد، وفي ذم جمع المال والحرص عليه فكثيرة منها قوله - ﷺ -: ((**ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها**

---

(١) رواه مسلم بشرح النووي عن أبي هريرة - ﷺ - في كتاب الزهد، ٩٤/١٨. ورواه الترمذي، كتاب الزهد، باب رقم ٣١ بنحوه ٥٧٢/٤.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٣٦)، عن كعب بن عياض - ﷺ - كتاب الزهد، باب (٢٦)، ٥٦٩/٤ وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الوصية، ترك الوصية لمن ليس له شيء، ٨٩/١١، وصحيح البخاري مع الفتح الرباني، كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي - ﷺ - ((وصية الرجل مكتوبة عنده)) ٣٥٦/٥، ورواه النسائي في سننه، شرح السيوطي، كتاب الأحباس، ٢٢٩/٦.



من حرص المرء على المال والشرف، لدينه))(١).

و((قد تظنُّ أنَّ تاركَ المالِ زاهدٌ، ولَيْسَ كَذَلِكَ، فإنَّ تركَ المالِ، وإظْهَارَ التَّخَشُّنِ، سَهْلٌ عَلَى مَنْ أَحبَّ المدحَ بالزّهدِ، فكَمْ مِنْ رَاهِبٍ قَدْ لازَمَ الدَّيْرَ، وَقَلَّلَ المطعمَ، وَقوّاه عَلَى ذَلِكَ حُبّ المحمدةِ وَالرّياءِ))(٢)، لذا مدح (ابن الجوزي) جمع المال لمن يبذله في الوصول إلى رضا الله فقال: ((لاشك أن المال بالطبع محبوب، وأن تحصيل ذاته للذاته مطلوب، فهو ممدوح لكونه يقضي الحوائج، محمود لأنه مستعجل في المراد رائح))، وليدلل على ذلك ذكر مجموعة من أخبار الكرام الذين بذلوا مالهم في سبيل الله فقال: ((كان الكرام لأبي بكر الصديق عنه يلفى إلفا، فأنفق في موجب التصديق أربعين ألفا))(٣).

وفي مقامة أخرى نرى **ابن الجوزي** يحث على الزهد حين أظهر لنا بطل مقاماته في صورة رجل زاهد فقال: ((عِنْدَنا فقيهُ البلدِ، يقنعُ مِنْ التَّمرِ بالحَشَفِ، وَمِنْ الماءِ بالنَّشَفِ وَيُؤْثِرُ الزّهدَ وَالقَشَف، وإذَ اعَرَضَ لَنَا مُعمًّى كَشَفْ))(٤).

فذكر هنا بعض مما زهد فيه أبوالتقويم، وأولاها: المطعم، فقال: ((يقنع من التمر بالحشف..))؛ لأن همة الزاهد من المطعم مايدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وقالت عائشة - رضي الله عنها - لعروة: ((**كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال فما يوقد في بيت رسول الله - ﷺ - نار، قال: قلت: ياخالة: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر**))(٥).

---

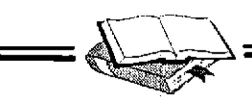
(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦)، عن كعب بن مالك - ﷺ - كتاب الزهد باب (٤٣)، ٥٨٨/٤ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، للشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامه المقدسي، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٣) المقامة (٤٦) نفسها، ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٤) المقامة (٣٧): في العزلة، لابن الجوزي، ص ٢٩٧.

(٥) رواه مسلم بشرح النووي، كتاب الزهد، ١٠٧/١٧، ط٣ (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).



والأحاديث في ذلك كثيرة ومشهورة.

ثم ذكر لنا **ابن الجوزي** الهيئة التي كان عليها هذا الزاهد، فقال: ((فوَصَلْنَا إِلَى خِبَاءٍ عَلَى مَاءٍ سِيح، فَإِذَا شَيْخٌ عَلَيهِ سِيح، صَبيحُ الوَجهِ، مليحُ الشَّيبةِ... فقلتُ لَهُ: أَمَا في هَذَا العالَمِ مَنْ يبني لكَ بيتاً فتأوي له؟...))[1].

فبين لنا **ابن الجوزي** الملبس، والمسكن اللذين كان عليهما الزاهد، أما المسكن فقال: ((فوصلْنَا إِلَى خِباءٍ عَلَى ماءٍ سيح)).

فهو لم يطلب حجرة مبنية؛ لأنَّ من طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن، وقد توفي رسول الله - ﷺ - ولم يضع لبنة على لبنة.

قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم، نلت السقف.

وفي الحديث : ((**إنَّ المسلمَ ليؤجر في كلِّ شيء ينفقهُ إلاَّ في شيءٍ يجعلُهُ في هذَا التراب**))[2]، أو كما قال في البناء .

وأما الملبس فقال: ((فَإِذَا شيخٌ عَلَيهِ سِيح))، فالزاهد يقتصر في الملبس على مايدفع الحر والبرد، ويستر العورة، ولابأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة، وكان أكثر لباس السلف خشناً، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد روى عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة - رضي الله عنها - كساء ملبداً، وإزاراً غليظاً، وقالت: ((قبض رسول الله - ﷺ - في هذين))[3].

= وانظر: صحيح البخاري شرح فتح الباري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي - ﷺ - وأصحابه، ٢٨٣/١١.

(١) المقامة نفسه، ص٢٩٧-٢٩٨، سيح: مسح مخطط، تفسير غريب المقامة، ص٣٠٣.

(٢) رواه ابن ماجه عن خباب - ﷺ - تحت رقم (٤١٦٣) كتاب الزهد، باب في البناء والخراب، ١٣٩٤/٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب فرض الخمس،باب(٥)،٤٧/٤،وفي كتاب اللباس،باب(١٩)، ٤١/٧.



ولما سئل بطل المقامة عن سبب عزلته تلك، وزهده في مخالطة الناس قال: ((ماتعربتُ ولاتغربتُ، وإنما هربتُ ممنْ جَرّبْتُ ... قَدْ كنْتُ في البلدِ أعقدُ مجلسَ المناظرةِ، فَمَا بَقِي مَنْ أقعدُ مَعَهُ لِلمحَاضرةِ، إنّهم مَايتواصَوْن بالحقِّ، إنما يتناصَوْن عَلَى الأحقِّ، أَشْكُو إلى الله لَا إِلَى الغيرِ زمنَ الزّمن، وأعوذُ بِهِ مِن السَّيرِ عَلَى غَيرِ سَنَنِ السُنن.

فَمَا النَّاسُ بالنّاسِ الذينَ عهدتهُمْ ** ولا الدّارُ بالدّارِ التي كنْتَ تَعرِفُ))[1]

ومن ضمن الناس الذين هرب منهم ((جمهورُ المتزهدين إنَّما صَوّفوا للتصنُّعِ ملبوسَهم، وَنَكَّسُوا للتخشُّعِ رُؤوسَهم، لِيُلاحِظَهمْ بالزّهدِ مَنْ يَرَى، وَهُمْ في الْبَاطِن أسدُ شَرى))[2].

أي أنهم يظهرون خلاف مايبطنون، فمظاهر الزهد من ملبس، وتصنع للخشوع بادية عليهم بينما هم بعيدون كل البعد عن الزهد، وأشار إلى ذلك بقوله ((وهم في الباطن أسد شرى)).

فأين هؤلاء من قوله – ﷺ – : **((من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة))**[3].

وفي مقامة أخرى أشار **ابن الجوزي** إلى السبب نفسه في اتخاذ أبي التقويم العزلة على الاختلاط، فقال: ((الكسادُ أَفْرَدَكَ في البريّة؟ فقالَ: لَا بَلْ فسادُ البَرِيّة ثُمّ أنشدَ:

أوصاكَ رَبُّكَ بالتّقَى ** وأولُو النُّهى أوْصَوا معَه

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) المقامة نفسها ، ص٣٠١.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ١٨٣/٥، ورواه الترمذي، حديث رقم (٢٤٦٥)، كتاب صفة القيامة، باب(٣٠)، ٦٤٢/٤، ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، ١٣٧٥/٢.



فاخْتَرِ لِنَفْسِكَ طُولَ دَهـ ** ـرِكَ مَسجِداً أَوْ صَوْمَعَه))[1].

ففي المقامة السابقة قال: ((وهربت ممن جربت))، أي ممن جرب من الناس، ورؤيته لأحوالهم التي وصفها في بقية المقامة، والتي كانت على غير مايحب المؤمن، وهاهنا، ذكر السبب نفسه فقال: ((فساد البرية)) أي فساد أهل زمانه، جعله عازفاً عن الدنيا وأهلها، لذا سأله السائل قائلاً: ((صف لي أحوال الزهاد والمحبين، فإن الموصوف بالوصف يبين فقال:

شُمُّ العرانين في آنافِهم أنَفٌ ** عَنِ القبيحِ وفي أَعْنَاقِهم صَيَد

قلت : زِدني مِنْ شَرحِ أَحْوَالهِمْ، وَأَفِدْنِي بِذكرِ أَعْمَالهم... زِدْنِي من أَوْصَافِهِم، فقال: صَاحِبُهم أوصَافِهم: تَائِبُهُمْ يقولُ: اعفُ عني وأقلني عَثرتي، ومفرِّطُهم يصوِّتُ: ماضاعَ من أيامِنَا هَلْ يُغْرَمُ، ومُتَعَبدهم يتمثَّلُ:

* تُريدينَ إدراكَ المعَالي رخيصةً * . وخَائِفهمْ يصيحُ :

* علَّمتَ ياهجرُ جنبي هجرَ مضجِعِه.. *))[2].

ولما سأله قائلاً: ((كيفَ الطَّريقُ إلى هذِه الطَّريق؟))[3]، لم يجبه إلى كيفية الوصول إلى طريق الزهاد والمحبين بل أجابه بقوله : ((ياطفلاً في حِجْرِ العادةِ محصوراً بقُمطِ الهوىٰ، مَالكَ ومزاحمةَ الرِّجالِ يَامخنث العَزِيمَة؟))[4].

واشار إلى الزهاد في المقامة الثانية والعشرين قائلاً : ((كُلّ الزُّهادِ غرسُوا أشجارَ المعاملةِ في بساتينِ المعرفةِ، فلماذا عَلَا ذِكْرُ مَعْرُوفٍ، فقالَ: مَعْرُوفُ رَكّبَ، قلتُ: بَلَغَنيَ أنَّه كانَ لَايلزم للزُّهدِ ناموساً، قالَ: فَهذِهِ طَرِيقُ مُحَمّد وَعِيسى وَمُوسىٰ، أَمَا عَلِمْتَ أنَّه مَنْ رَمَى عَنْ رَأسِهِ قلنسُوة التعظيمِ تواضُعاً رَدَّها القدَرُ بحبلٍ، مَنْ نَزَلَ في

(١) المقامة (٣٠): في المحبين، لابن الجوزي، ص٢٣٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٣٩-٢٤٠، العرنين: أول كل شيء، والعرنين: ما صلب من عظم الأنف صَيَد: الذي يرفع رأسه كِبراً، اللسان، مادة: عرن، صيد.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٤٣.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.



بئرِ الدّالية صَعَدَ لَهُ الماء))(١).

وقوله : ((معروف* رَكّب)) : وهو أن ينحت مثل القلم من شجرة فيغرس في أخرى فيجيء الثمر جيداً(٢).

وفي المقامة التاسعة عشرة، قال يوضح حقيقة الزهد، ويحث على السعي في طلب الرزق : ((فإنَّ الكسبَ للعيالِ أشد العبادتين، والرّفقَ بالأطفالِ أَقْوى المجاهدتين، وَلَكَم بين مَنْ فَرى أرضَ الفرائضِ، وبينَ مَنْ نَوى فِعْلَ النوافل، أتظنُّ الزَّاهدَ مَنْ بَنَى رِباطاً وتأخرَ عَنْ كسبِ الدنيا وَتَبَاطَا، ينتظرُ فَتُوحاً مَاتعبَ في تحصيلِها، ويأخذُ فُتُوحاً لاينظرُ في جملِها وَتفصيلِها، أفّ لطبعٍ يستلذّ الوسخ، كُلما جُذِبَ إلى علوِّ الهمةِ رَسَخ))(٣).

إذن ليس الزاهد من بنى رباطاً – كما قال – وليس التارك للنكاح ((اعلمْ أَنَّ تركَ النِّكاح رَهبانية، وَالمتزوجون في العلوّ بإبانيّة، فينبغي أَنْ تحققَ القصدَ، وَلَاتأبى نيّة، وأَنَّ التّسبُّب في الأولادِ أَقْوَى عِبادَة. فَإذا أتيتَ بولدٍ كَثَّرْتَ للهِ عِبادَه، وإذَا لَاحظتَ الأهلَ مِنْ خَيْرِ الصلات، كَانَ خَيْراً مِن الصَّومِ والصَّلاةِ. أَما مَذْهَبُ أحمَد أحمَدُ مَذهب، وَهُو إلى تفضيلِ النِّكَاحِ عَلَى التبتل يَذْهَب. أما هَذا شَأْن النبي وَأَصْحَابِهِ، فَدَعْ عَنْكَ هَذَا الوسواس وَلَاتعبأْ بهِ. إنَّ ليلةً باتَ فيها أبوالشَّافعي معَ زوجتهِ، وَوَالد

(١) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمداراة، لابن الجوزي، ص١٨٨-١٨٩، والدالية: الناعورة يديرها الماء أو الحيوان. انظر: اللسان ، مادة : دلى .

(٢) المقامة نفسها، ص ١٩٠.

(٣) المقامة (١٩): في الخلوة، ص١٦٢. الفُتوح: جمع فُتُح: أول مطر الوسمي، اللسان، مادة: فتح

(*) معروف بن واصل السعدي، وقيل معرف، كان ثقة.

انظر: طبقات ابن سعد، ١٠٠/٦، دار صادر، بيروت. ميزان الاعتدال، للذهبي، ١٤٣/٤، ت: على محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط(١)، ١٣٨٢هـ. تهذيب التهذيب، ابن حجر، ٢٢٩/١٠، حيدر آباد، ط(١)١٣٢٥هـ.



أحمد مَعَ امرأتِهِ، حَتّى حملتَا من حمل مَاحملاً مِن العلوم، أَفضل من تعبُّد عابدٍ أَلْفَ سنةٍ يصلّي وَيصوم))[1].

أما لماذا حدد القائل بذكر الرسول - ﷺ -، وذكر عليّ - رضي الله عنه -؛ فلأن الرسول - عليه السلام - كان له تسع نسوة، ومع هذا فهو من أزهد البشر على الإطلاق، وأما عليّ - رضي الله عنه - فكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سرية، وهو من أزهد الصحابة.

وأما **الزمخشري** فقد حث على الزهد في الدنيا، فقال: ((ياأبا القاسم مالك لاتَرْفُضُ هذه الفانيةَ رفْضاً، ولاتنفض يَديْكَ عن طلبها نَفْضاً، ألم ترَ كيف أبْغَضَهَا الله وأَبغْضَها أنبياؤه، ومقتها، ومقتَهَا أولياؤه، ولولا استيجابها أن تكونَ مَرْفوضَة، لوَزَنَتْ عند الله جَنَاحَ بعوضة...))[2]، وأخذ يبين أن كل مافيها من سرور، ومن أشياء جميلة، زائل، فليكن هذا الزوال هو الزاجر لكل عاقل لكي لايلبي داعي الشهوة لديه، وأن يعتصم بحبل الله ويتمسك بعروته التي لاتنفصم، قال تعالى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى..**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾[4].

ويكفي تزهيد الرسول - عليه السلام - فيها بقوله الذي استشهد به **الزمخشري**: ((**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ماسقى كافراً منها شربة ماء**))[5].

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٦٣.

(٢) المقامة (٦): الزهد، للزمخشري، ص ٤٤-٤٥.

(٣) سورة النساء، آية ٧٧.

(٤) سورة النحل، آية ٩٦.

(٥) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، عن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - كتاب الزهد، باب (١٣)، ٥٦٠/٤ وقال حديث حسن صحيح. ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ١٣٧٦/٢-١٣٧٧.



وفي المقامة الثامنة عشرة، حثّ أيضاً على الزهد في الدنيا بعد أن وجه حامل العلم والأدب كيف يستفيد بما يحمل فقال: ((من حَمَل العلم والأدبَ لمثل هذه الثِّمار... مِنْ ثَمرَاتِها النزُولَ على قضيّاتِ الحِكَم، ورِيَاضةَ صِعَاب الشيَم، وعِزّةَ النَّفْس وبُعْد الهِمَم. وَعِزّةُ النَّفْسْ: أن لاتدَعها تُلِمُّ بالعملِ السَّفْسَاف. وان تسفَّ إلى الدَّناءَةِ بعضَ الإسْفاف. وأن تَظْلِفها عن المطَامِع الدَّنيَّة لا أن تعلفهَا المطاعِمَ الهنيّة، وبُعْدُ الهمةِ: أن تُوَجِّهَهَا إلى طريق الآخرةِ وسُلوكها، والاسْتِهَانة بالدُّنْيا ومُلوكها، وأنْ لاتَلْتفِتْ إلِى مَايتفيَّؤونَ مِنَ الظّلِ الوَارِفِ، وَيَعْلِقُونَ فيه المَخَارِف، ويُعَلِّقُونَ به مِنَ الزينِ والزَّخَارِف ...))[1].

إذن فبعد الهمة أن توجهها إلى طريق الآخرة وسلوكها، والاستهانة بالدنيا وملوكها، فقد قال النبي – ﷺ –: ((**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء**))[2]، وقال– عليه السلام–: ((**مالدنيا في الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟**))[3].

أما **البديع** فنراه يزهّد في الدنيا في مقامتين، دون اللجوء إلى الحيلة للحصول على المال من وراء وعظه، وهاتان المقامتان هما: الأهوازية، والوعظية، ففي الأولى يقول حاثاً على الزهد في الدنيا ومافيها لقوم تطيروا من رؤية جنازة محمولة على الأعناق:

((وَإنَّ امْرَأً قَدْ سَارَ عِشْرِينَ حِجَّةً ** إلى مَنْهَلٍ من وِرْدِهِ لَقَرِيبُ

---

(١) المقامة (١٨): الظلف، للزمخشري، ص١٠٦–١٠٧، ت : يوسف بقاعي .

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري – ﷺ –، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٨٩/٨. وفي صحيح البخاري بنحوه، كتاب الرقاق، باب مايحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، ٢٤٤/١١.

(٣) رواه مسلم بشرح النووي، عن المستور بن شداد – ﷺ –، باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها، ٩٥/١٨، ورواه الترمذي (٢٣٢٢)، كتاب الزهد، باب (١٥)، ٥٦١/٤.



وَمِنْ فوقِكُمْ مَنْ يعلمُ أسْرارَكُمْ، وَلَوْ شَاء لهتَكَ أسْتَارَكُمْ، يُعَامِلُكُمْ في الدُّنيا بحلمٍ، وَيقْضِي عليكُمْ في الآخِرَةِ بعِلْمٍ، فليكُنِ الموتُ مِنْكُمْ عَلَى ذُكْرٍ، لِئلاَّ تأْتُوا بِنُكْرٍ...»(١).

فأراد بالبيت أن الموت ومايتبعه هو مكان الورود وهو جمع مورد، وأنكم سائرون في طريقكم إليه؛ لأن الدنيا مجاز الآخرة، وقطعتم في سيركم عشرين سنة هي مقدار أعماركم، وأن الله يمد لكم في الدنيا، ويعاملكم بالحلم، مع علمه بما تفعلون، ولو شاء لفضح أمركم، وأفشى سركم، وأذاع حديثكم، ولكنه سيحاسبكم في الآخرة بمقتضي هذا العلم.

فلما طلبوا منه أن يلبوا له ماشاء من متاع الدنيا وزخرفها، قال: «لاحَاجَةَ لي فِيها، وإنما حَاجَتِي بَعْدَ هَذَا أَنْ تَخِدُوا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تعُوا»(٢)، والمراد أنه يطلب منهم أن يجدوا في السير في العمل؛ لأنه خير لهم من حفظ مايقوله دون أن يعملوا به، وقد قال رسول الله - ﷺ -: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله: فيرجع اثنان، ويبقى واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله»(٣).

وأما في المقامة الوعظية فيقول مزهداً في الدنيا: «أَلاَ وإنَّ الدُّنيا دار جِهَازٍ، وَقَنْطرةُ جَوَازٍ، مَنْ عَبَرَها سَلِمَ، ومَنْ عَمَرَها نَدِمَ، أَلا وَقَدْ نَصَبَتْ لكُم الفَخَّ، وَنثَرتْ لكُم الحَبَّ؛ فَمَنْ يَرْتَعْ، يَقَعْ، وَمَنْ يلقطْ يَسْقُطْ، أَلاَ وَإِنَّ الفقرَ حِلْيَةُ نَبيكُمْ

---

(١) المقامة (١١)، ص ٦٨-٦٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦٩.

تخدوا : من وخد يخد وخداً : أسرع في مشيه، ووعى، يعى : فطن، انظر: اللسان، مادة (وخد، وعى).

(٣) رواه البخاري مع فتح الباري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، ٣٦٢/١١، ومسلم شرح النووي، عن أنس - ﷺ - باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها، ٩٥/١٨ . ورواه الترمذي (٢٣٧٩)، كتاب الزهد، باب (٤٦)، ٥٨٩/٤.



فاكتسوها...))(١)، يريد أن هذه الحياة ليست إلا سوقاً تتجهزون منها لسفركم الطويل، وطريقاً تسلكونه إلى مقصدكم الذي تريدونه، فانتقوا من المتاع ماتعلمون أنه يعينكم في سفركم ولايضركم، واسلكوا الطريق الي لايشوبها عوج ولاتنهشكم أسودها؛ لأن الدنيا كصياد ينصب حبائله للطير، لايريد بذلك منفعة الطير، ولكنه يريد منفعة نفسه، فكل طائر يلقط الحب يقع في هذه الأحبولة، ولاتنفروا من الفقر والإملاق، فإنه يذكّركم بالخالق دائماً، ويحثكم على طاعته وطلب رضوانه، ولقد خير النبي – عليه السلام– في أن يكون له مثل جبل أحد ذهباً فقال: ((**لو كان لي مثل أحد ذهباً، مايسرني أن لاتمر عليّ ثلاث ليالٍ، وعندي منه شيء إلا شيئاً أرصده لدين**))(٢).

ثم زاد في تزهيدهم بها فقال: ((وقَدْ سَمِعْتُ أنَّ عليَّ بنَ الحُسَيْنِ كَانَ قائِماً يَعِظُ النَّاسَ ويقُولَ: يانَفْسُ حَتّامَ إلى الحياةِ ركُونُكِ، وَإلى الدُّنيا وَعِمارَتها سُكُونُكِ؟... كم اخْتَلَسَتْ أيدي المنون ...

وَأَنْتَ عَلَى الدُّنْيا مُكِبٌّ مُنافِسُ ** لِخطَّابِهَا فيها حَرِيصٌ مُكاثِر
عَلَى خَطَرٍ تَمْشِي وتُصْبِحُ لاَهِيًا ** أتَدْرِي بماذَا لَوْ عَقَلْتَ تُخَاطِرُ؟
وَإِنَّ امرَأً يَسْعى لِدُنْياه جَاهِدًا ** وَيُذْهَلُ عَنْ أُخْرَاه لاشَكَّ خاسِرُ

انظرْ إلى الأُمَمِ الخَالِيَة، والمُلُوكِ الفانِيَة، كَيْفَ انْتَسَفتْهُمُ الأيامُ ...

وَتَخلَّوا عَنِ الدُّنْيا وَمَاجَمَعُوا بِهَا ** ومَافَازَ مِنهُمْ غَيْرُ مَنْ هُوَ صَابِرُ
وَحَلُّوا بِدارٍ لاتَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ ** وَأَنَّى لِسُكَّان القُبُورِ التَّزاوُرُ؟

---

(١) المقامة(٢٦)، ص ١٦٩.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة – ﷺ –، كتاب الرقاق، باب قول النبي – ﷺ – ((مايسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً))، ١١/٢٦٣–٢٦٤.



ياقومُ الحذَرَ الحذَرَ، والبِدارَ البِدارَ، مِن الدُّنيا وَمَكَايِدِهَا، وَمَانصبَتْ لَكُمْ مِنْ مَصايِدِهَا، وتجلَّتْ لَكُمْ مِنْ زِينَتِهَا.

وَفي دُونِ مَاعَانيْتَ مِنْ فَجَعَاتِهَا ** إِلَى رَفْضِهَا دَاعٍ، وبالزُّهْدِ آمِرُ

فَجِد وَلاتغفُلْ فَعيشُكَ بَائِدٌ ** وأنْتَ إلى دارِ المنيَّةِ صَائِرُ

وكيفَ يحرصُ عليها لبيبٌ، أو يُسَرُّ بِهَا أَريبٌ، وهُوَ عَلَى ثِقَةٍ فَنَائِها؟...

كَمْ غَرَّتْ الدُّنْيا مِنْ مُخلِّدٍ إليهَا، وَصَرَعَتْ مِنْ مُكِبٍّ عليهَا؛ فَلَمْ تُنعِشْهُ مِنْ عَثْرَتهِ؟ ولمْ تُقِلْهُ مِنْ صَرْعَتِهِ، وَلَمْ تُداوِهِ مِنْ سَقَمِهِ، وَلَمْ تشفِهِ مِنْ أَلَمِهِ.. بَكَى عَلَى مَاسَلَفَ مِنْ خَطَايَاهُ، وَتحَسَّرَ عَلَى مَاخَلَّفَ مِنْ دُنْيَاهُ، حيثُ لَمْ ينفعْهُ الاسْتِعبارُ، ولمْ يُنْجِهِ الاعتِذَارُ...»[1].

أما **الحريري** فقد ذكر الزهد وحث عليه حين قيل له: «ماتقولُ في التَّهَوُّدِ؟ قَالَ: هُو مُفْتَاحُ التَّزهُد»[2]، فجعل التوبة هي المفتاح لمن أراد أن يسلك طريق الزهد والتزهد، والتوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾[3].

وينبغي للتائب أن يتفقد ماعليه، ويفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى فالتوبة منه الندم والاستغفار.

والعزم على ألا يعود في المستقبل إلى تلك المعاصي والذنوب ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً، ولن يستمر في التوبة إلا إذا عرف الداء، والداء المهلك هو حب الدنيا، فلو زهد فيها، وأقلع عن حبها وحب مافيها من شهوات، لوصل إلى أرفع الغايات وهذا ماحدا **بالحريري** أن يقول «إن التوبة مفتاح التزهد».

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٧١-١٧٨.

(٢) المقامة (٣٢): الطيبية، ٥٦/٤، التهود: التوبة. انظر: اللسان، مادة : هود .

(٣) سورة الأعراف، من الآية ١٥٦.



وفي مقامة أخرى قال **الحريري** ذاكراً ماتميز به أهل البصرة: ((وَزَاهِدُكُمْ أَوْرَعُ الخليقةِ، وَأَحْسَنُهُمْ طَرِيقةً عَلَى الحقِيْقَة))(١)، فحين قال: ((زاهدكم)) لم يحدد أي وجه من وجوه الزهد.

بل أضاف إلى الزهد الورع حين قال: ((وزاهدكم أورع الخليقة)). قال شيخ الإسلام ابن تيميه: ((الزهد ترك مالاينفع في الآخرة، والورع: ترك ماتخاف ضرره في الآخرة))(٢).

وقد جمع النبي -ﷺ- الورع كله في كلمة واحدة ، فقال: ((**من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه**))(٣)، فهذا يعم الترك لما لايعني : من الكلام والنظر والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

((وقيل : الورع أول الزهد))(٤).

وحين قيل : أورع وهي على وزن ((أفعل)) من أساليب التفضيل يريد أن يصل إلى أن أهل البصرة أفضل الناس في الزهد - وكما سبق أن قلت - لم يحدد فيم زهدوا، لذا نستطيع أن نقول: ربما أنهم زهدوا في كلٍّ، والله أعلم.

ونخلص إلى أن الزهد لم يكن عند المقاميين على وتيرة واحدة، فما نراه يحث عليه هذا، لايحث عليه الآخر، بل يزهد في شيء آخر، **فابن الجوزي** حث على الزهد في المال، وفي المطعم، وفي الملبس، والمسكن، وإن كان قد ذكر في مقامة أخرى أن الملبس ربما اتخذه بعض الناس مظهراً للزهاد على الزهد بينما هم بعيدون عنه، وفي

---

(١) المقامة (٥): البصرية، ٣٤٦/٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيميه،الزهد،م١٠، ص٦١٥،طبعة الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين.

(٣) رواه الترمذي (٢٣١٨)، كتاب الزهد، باب ١١، ٥٥٨/٤. وابن ماجه (٣٩٧٦)، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ١٣١٦/٢. ورواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٠١/١، عن علي بن حسين عن أبيه - رضي الله عنهما-. ورواه مالك في الموطأ، ٤٧٠/٢.

(٤) تهذيب مدارج السالكين، ٤٦٣/١.



ذلك تحذير من الانخداع بمظهر الزهاد الناشيء عن ملبسهم، وحذر في أكثر من مقامة من مغبة السير على طريق الزهاد الذين خرجوا على السنن الصحيح للزهد، وتصنعوا فيه، فردد: أن ذلك من فساد الرعية الذي أخرجه إلى البرية.

فنصل إلى أن **ابن الجوزي** هو الذي وضح طرق الزهد - أكثر من بقية المقاميين- فبين أنه ليس من الزهد ترك السعي في طلب الرزق للأهل والأولاد، وليس منه من اهتم ببناء رباط، وليس منه ترك النكاح.

أما **الزمخشري**، و**البديع** فقد حثا على الزهد في الدنيا.

وربما عنّ لأحدهم أن يسأل عن كيفية البحث عن الأخلاق الإسلامية عند **البديع والحريري**، بينما المقامات كلها تقوم أساساً على الكدية والسؤال، وهذا خلق مذموم في الإسلام، فكيف نوفق بين هذا، وذاك؟ فنقول: وإن كانت المقامة تقوم على خلق ذمه الإسلام عند بطل المقامات إلا أنك تلحظ أنه لن يتمكن من الحصول على مايريد لو لم يكن أفراد المجتمع الذي يعيش فيه متحلين بأخلاق إسلامية؛ كالكرم الذي يدفعهم لإعطائه،وحب الخير الذي يعتمل في نفوسهم فيتعاطفون معه، في أي صورة من صور الاحتيال التي كان يلجأ إليها؛ ليحصل على المال.

لذا تجدنا نتلمس تلك الأخلاق الإسلامية، عند البطل، أو من معه، فالبطل وإن كان محتالاً فهو مثلاً، صابر، شاكر، يصبر ليحصل على ماحتال بسببه على الناس، ويشكر من نقده المال، زاهد، أو حاث على الزهد كما في هاتين المقامتين عند **البديع** اللتين لم يلجأ فيهما إلى الحيلة مطلقاً، بل هو وعظ، ووعظ فقط.

أما **الحريري** فقد ذكر فقط مفتاح الزهد، وأشار مجرد إشارة إلى أن الزهد من مميزات أهل البصرة .



الصبـر :

هو : ((حبس النفس على مايقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسهما عنه))(١).

ولما كان **ابن الجوزي** على علم ودراية بفضيلة الصبر وتعدد مجالاته، ومايتنظر الصابرين من ثواب ومايناله الجزعون من عقاب، فقد حث في مقامته على التمثل بآدابه والاتصاف به.

ولهذا نجده في مقاماته قد حث على هذا الخلق، وحذر من ضده وهو: الجزع والهلع، ((فالصبر لفظ عام ينتظم جملة فضائل، وقد يسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره، فالصبر في الحرب، يسمى شجاعة، والصبر في النوائب قد يسمى برحابة الصدر، وإن كان صبراً على شهوة البطن سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه، اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى؛ ليسترسل في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشق الجيوب، وغيرها))(٢).

وهذا صاحب مقاماتنا يصور لنا حالة رجل، فجع بفقد ابنه، فلم يحتمل ويصبر، بل أخذ يعدد متوجعاً لفراق ابنه فيقول :

((كُنْتَ السوادَ لناظِري ** فعليكَ يَبْكِي الناظِرُ
من شَاءَ بَعدَكَ فليمتْ ** فعليكَ كنتُ أُحاذِرُ

ثم يعول ويقول :

فإنْ يُطِقِ الموتُ انتزاعَكَ مِنْ يَدِي ** فلنْ يُطِق الموتُ انتزاعكَ مِنْ فكري

---

(١) المفردات، للأصفهاني، ص ٢٧٣، ت: د.محمد سيد كيلاني، دار المعارف، بيروت، لبنان.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن، د.أحمد الشرباصي، ١/١٩٢-١٩٣، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

وإن تكُ ممحوَّ المحاسـنِ بِالْبلـــى ** فإنَّك محفوظُ المحَاسِنِ في صَـدْرِي
فلاَوصلَ إلاَّ بينَ عينيّ والْبُكَــــا ** ولاهَـجْرَ إلاَّ بينَ قلبي والصَّبر»(١).

فمصاب هذا الرجل يندرج تحت القسم الثالث: مالايدخل تحت حصر الاختيار كالمصائب مثل : موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض، وعمى العين، وفساد الأعضاء، وسائر أنواع البلاء،والرجل الذي أراد ابن الجوزي ضرب المثل به على الصبر قد أصيب بموت عزيز عليه؛ هو ابنه.

أما القسمان الآخران، اللذان ذكرت ثالثهما آنفاً فهما :

١- مايرتبط باختياره .

٢- مالايدخل تحت حصر الاختيار(٢).

فموت ابنه ليس له اختيار فيه، لكنه كان يستطيع أن ينال درجة الصبر بترك الجزع، لأن هذا داخل تحت اختياره، فيظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت، كما روى عن «أم سليم»* رحمها الله، قالت: «توفي ابن لي وزوجي أبوطلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت، فهيأت له إفطاره، فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ فقلت: بحمد الله لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ماكنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: ماهم؟ قلت: أعيروا عارية

---

(١) المقامة (٣١) : في التعازي، لابن الجوزي، ص٢٤٥.

(٢) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال القاسمي، ص٤١٦-٤١٧، ت: عاصم البيطار، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ - ١٩٨٤م.

(*) أم سليم بنت ملحان الأنصارية، اختلف في اسمها، تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية فولدت أنس بن مالك الذي أصبح خادم الرسول -ﷺ- بعد ذلك، أسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار فغضب زوجها،وفارقها إلى الشام ومات فيها،فخطبها أبوطلحة، فاشترطت أن يكون مهرها دخوله في الإسلام، كانت مجاهدة، ت سنة ٣٠هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر، ٤/٤٦١.



فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ماصنعوا، فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قبضه إليه، فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول الله -ﷺ- فأخبره فقال: ((**اللهم بارك لهما في ليلتهما**))(١).

قال الراوي : ((فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأوا القرآن)).

ولايخرجه عن حد الصابرين توجع القلب، ولافيضان العين بالدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية، ولذلك لما مات ((إبراهيم)) ولد النبي - ﷺ - فاضت عيناه، فقيل له في ذلك، فقال: ((**هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**))(٢)،

بل ذلك لايخرج أيضاً من مقام الرضا.

فنعمَ الرجل الذي قال :

* فَلَاوَصْلَ إلاَّ بينَ عينيّ والبكا *

فالبكاء ، يفرج عن النفس، لكنه أخطأ بقوله :

* ولاهَجْرَ إلاَّ بينَ قَلْبي وَالصّبر *

فالأولى أن يكون علاج دائه الصبر، لا أن يهجر الصبر وهذا هو العلاج الذي قدمه ونصحه به أبوالتقويم، لما رأى شدة جزعه قائلاً له: ((إذا قيس الجزع بالصبر، فالصبر أولى، غير أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى، واتعظ بما قال المولى:﴿ **وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري من حديث أنس - رضي الله عنه-، كتاب الجنائز، باب (٤٢): من لم يظهر جزعه عن المصيبة، ٢/٨٤، والمسند، ٣/١٠٥، ١٨١، ١٩٦، ٢٨٨.

(٢) رواه البخاري من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه -، كتاب الجنائز، باب (٣٣): قول النبي -ﷺ- ((يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه))، ٢/٨٠. ورواه الإمام أحمد: ٥/٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧.

(٣) سورة الضحى، آية ٤ .



إذَا لمَّ بكَ الأمرُ ** فكنْ بالصبر لوَّاذا
وإلَّا فاتَكَ الأجرُ ** فلا هَذَا ولَا هَذَا

الجزعُ لَايردُّ الغائبَ، وَلكنْ يَسُرّ الشّامِت، ثُمّ إنَّه زِيَادَةٌ في العذابِ، لأنَّه مُصَابٌ يُضَافُ إلى مُصَاب»[١].

ولذلك أمر الله تعالى رسوله بهذا اللون من الصبر، فقال له: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا**﴾[٢].

لكن **ابن الجوزي** ذكر أن المصاب في مقامته هذه قد جزع أيما جزع، فكلما زاد أبوالتقويم في تعزيته وتسريته عن مصابه، زاد هو في بكائه «ثُمَّ التفتَ فَرَأى بُكَاءَ المصابِ قَدْ تشدّد فناداه رُويدًا، ثُمّ أنشد:

قَدْ آن للصبرِ أَنْ ترجى مثوبَتُهُ ** ومولَع بهُمولِ الدمع أن يدَعَا

وقال : في المصَائبِ نِعَم، وإنّما تخفى على النِعَم، تُوقِظُ الغافِل للعِبَر، وتُنبّه الراحلبمن غَبر، وتحصِّل الثّوَاب لمن صَبر»[٣].

فما هي مثوبة الصبر التي قال إنها قد آنت، وماهو الثواب الذي يحصله من صبر كما أسلف؟

الجواب في قوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[٤].

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٤٦-٢٤٧.
(٢) سورة المعارج، آية ٥ .
(٣) المقامة نفسها، ص ٢٤٧.
(٤) سورة الرعد، آية ٢٢.



ويؤكد القرآن الكريم عظيم الثواب للصابرين وضمانه لهم، فيقول: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١]، ويقول ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفائزون﴾[٢]، ويقول : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

وينتهي بنا القرآن الكريم في تكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله العظيم الذي لاحدود له، ولاقيود، فيقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٤].

عندما ذكر أبوالتقويم الرجل المصاب بالثواب، عاد إلى رشده وقال: «لَقَد نفعتني بما أَسْمعتني، وَلَقد كنتُ في حضيضِ الجزعِ فَرَفَعْتَني، فَزدني مِنْ فَصيحِ لَفْظِكَ لأشْتَمِل بصبحِ وَعْظِكَ»[٥].

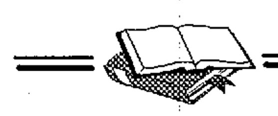
عندها استحق صفة الصابر.

والمصاب هنا استمع لنصح أبي التقويم، وصبر ولم يكتف بذلك، بل إنه طلب المزيد من وعظه، الذي ركز فيه أبوالتقويم على التذكير بالآخرة، والوعظ بالموت، فالعمل.. العمل قبل الفوت «مَنْ لَاينسىٰ إهلاكَ الموت، لَاينسىٰ استدراكَ الفَوْت»[٦].

أما **الزمخشري**، فقد حث على الصبر في أكثر من مقامة بذكر الثواب الذي يناله الصابر، مرة بالإشارة إليه والأخرى بذكره، فأما الإشارة ففي قوله :

« رُزْءُ الْفَتَى بِثوابهِ لِفَرَائِــهِ ** يُنْسِي الشَّديدَ الصّعبَ مِن أَرْزَائِهِ

(١) سورة النحل، آية ٩٦.
(٢) سورة المؤمنون، آية ١١١.
(٣) سورة يوسف، آية ٩٠.
(٤) سورة الزمر ، آية ١٠.
(٥) المقامة نفسها، ص ٢٤٨.
(٦) المقامة نفسها، ص٢٥٠.



لَيْسَ الفَتَى إلا فتىً إنْ نَابَهُ ** عَزَّاءُ دَهْرٍ عَزَّ في عزَّائِهِ
والعزّ أنْ يَلْوِي على الصبْر الذي ** يمشي ثوابُ الله تحتَ لِوَائِهِ))(١).

فها هنا حث الإنسان على الصبر على مايلقاه من مصائب الدهر حباً في الحصول على الثواب من الله، فلم يذكر ماهو هذا المصاب، ولاالتحديد للثواب.

وأما الذكر فقد بين لما قال: ((النعيم الخالد في جنات عدن))، فذكر مبيناً حال المعاندين من الكفرة، وفي مقابلهم المؤمنون الذين تحملوا كل أذى وصبروا: ((ومارَكبَ أعداءُ الله مِنْ أوليائِهِ غيرَ مكْتَرِثينَ لِعتوّهم بكبريائِه، رَدَعُوهم عَنْ المَنَاكير فَقَطَّعُوهُم بالمَنَاشير، ودَعوهُم إلى أعْمَالِ الأبْرَار، فَعَرَضُوهم عَلَى السَّيف وحَرَّقُوهم بالنَّار،ثُمّ اصْطَبَرُوا لوجْهِ الله وثبَتُوا، ومااسْتَكَانُوا لهمْ، ولاَ أخْبَتوا،حَتّى اشتروا النعيمَ الخالدَ في جَنّاتِ عَدْنٍ))(٢).

حث الصابرين على أن يجعلوا قدوتهم في الصبر، أنبياء الله،وماتحملوه من عذاب ومشاق في سبيل نشر الوحدانية، فقال:

((واجعلْ مَرمَى بَصرِكَ الغَايَة التي انتهى إليها أولُو العزمِ الصَّابرون، ومَمْشَى قدمِكَ الطريقة التي انْتَهَجَها الغَابِرُون))(٣).

والزمخشري يعرف مكانة الصبر، لذا جعله ضمن صفات الرجل الحر، فقال: ((والحرُّ عزوفٌ، عَرَوفٌ، لموارِدِ السّوءِ عَيُوفٌ))(٤).

هذه بعض من صور الصبر التي حث عليها الزمخشري، حيث بيّن أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال، والأفعال، حتى من اعتزل وحده لايستغني عن الصبر على وساوس الشيطان باطناً، فإن اختلاج الخواطر لايسكن، ولايزال في شغل دائم،

---

(١) المقامة (١٠): التسليم ص٦٨-٦٩.
(٢) المقامة (٣٩): الفرقان ص، ٢٣١-٢٣٢.
(٣) المقامة (٤٤): العزم، للزمخشري، ص٢٥٣.
(٤) المقامة (١٥): الطيب، للزمخشري، ص٨٦.



بسببها يضيع به الزمان، وقد فطن الزمخشري لذلك فقال: ((واصبرْ عَلَى مُعَاناةِ الوَحدةِ صَبْراً))(١).

في كل ماسلف حثنا الزمخشري على الصبر، ثم أخذ يبين لنا في مقامة أخرى كيفية تدريب النفس عليه فقال: ((يَاأبَا القَاسِمِ نَفْسُكَ إلى حَالها الأولى نَزَّاعِة. فاغْزُها بِسَرِيةٍ من الصَّبْر غَزَّاءة لعلَّكَ تَفُلُّ شَوْكَتَها وتكسِرُها، وتُجبرُها علَى الصلاحِ وتقسرُهَا، فإنْ عَصَتْ ... وعلمتَ أنَّ صَبْرَكَ وَحْدَه لايَقُوِّم عِنَادَها فاضْمُمْ إلَى الصَّبرِ مِنَ التَّصبُّرِ مَدَدا ... فإنْ رَأيتَ الصَّبرَ والتَّصبُّرَ لاَيفيَان، وَعلمتَ أنَّهما لايكفيان ... فَخَادِعْهَا... جَرِّدْها عَنْ الملبَس البهيّ، وافْطِمْهَا عَنْ المطعمِ الشَّهيّ ... وَجَافِهَا عَنْ الفَرَاغِ المورثِ للكسلِ...))(٢)، واستمر في بيان كيفية تدريب النفس على الصبر، بأن يلبسها الخشن من الثياب والنوم غير المتواصل، والشرب بدون ري، ومن ثم حث على الاقتداء بالصالحين وذلك: بإيلام النفس، والاغتسال بالماء البارد، وزيارة المقابر، ويذكرها بما أعده الله لها من الوعد والوعيد، وقراءة الآيات الرادعة وأخيراً أن يشغلها بالعبادة ويستمع للمواعظ، فيصل بذلك إلى مايريد: ((فَإنْ فعلتَ ذَلِكَ استَبدلتْ مِنْ نزْوتِهَا سكُوناً واعتَاضتْ، ولاَنتْ بعد جِمَاحِها وارتاضتْ، ولمْ تَأْبَ عليكَ خَيْراً تُرِيدُهُ، ولاعملاً صَالِحاً تُبدئُه وتعيده، واحتفظْ بما أُلقي إليكَ من بابِ الرِّياضة من جوهرةِ ابن عُبيد))(٣)، وأراد بجوهرة ابن عبيد: كلمة عمرو بن عبيد التي قال فيها : ((لقد رضت نفسي رياضة لو أردتها على ترك الماء لتركته))(٤).

أما **البديع** فقد ظهر خلق الصبر جلياً في مقامته(٢٣)، حين كان الراوي عيسى ابن هشام يركب سفينة، وقال :

---

(١) المقامة (٤٣): الخمول، للزمخشري، ص٢٤٩.

(٢) المقامة (٢٨): التصبر، ص١٦٧-١٦٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٧٢.

(٤) شرح مقامات الزمخشري، يوسف بقاعي، هامش ص١٧٢.



«غَشِيَتْنا سَحابةٌ تَمدُّ من الأَمطارِ حِبالاً، وَتَحْدو من الغَيْمِ جِبالاً، بريحٍ تُرْسِلُ الأمواجَ أزْواجاً، والأمْطَارَ أفْوَاجاً،... لانَمْلِكُ عُدَّةً غَيْرَ الدّعُاءِ، وَلَا حِيلَةَ إلاّ البُكَاءَ، ولَاعِصْمَةَ غيْرَ الرَّجَاءِ ... وَاصْبَحْنَا نَتبَاكَى، وَنَتَشَاكَى، وَفِيْنَا رَجُلٌ لاَيَخْضَلُّ جَفْنُهُ ولاتبتلُّ عَيْنُهُ، رَخِيُّ الصَّدْرِ مُنْشَرِحُهُ، نَشِيطُ القَلْبِ فَرِحُهُ...»[١].

وماهذا الرجل إلا أبوالفتح الإسكندري الذي كان ينتظر معهم الفرج، «ويعبر عن الانتظار بالصبر لما كان حق الانتظار أن لاينفك عن الصبر، بل هو نوع من الصبر»[٢]، وهذا ماتسلح به الإسكندري بل هي صفة ملازمة له؛ ليصل إلى مايريد في حيله، كما فعل في هذه المقامة، فقد تعرض لما تعرضوا له، فلجأوا للدعاء والتسبيح والاستغفار، والصبر لابد له من قوة معنوية فكان لابد من العمل على صفاء النفس بالاستغفار، والتسبيح؛ لأن في الاستغفار تخلية عن الأكدار النفسية، وفي التسبيح تحلياً بالكمالات النفسية التي يتم الشكر بها ظاهراً وباطناً، وفي كل منهما شد للعزيمة في المواجهة، ففي التسبيح والاستغفار يذكّر المؤمن با لله، وبإيمانه به، وفي الصبر يتذكر أنه يعمل ابتغاء وجه ا لله، وهذا مافعلوه فهم لايملكون عدة غير عدة الدعاء، ولاحيلة إلا البكاء، ولاعصمة غير الرجاء، فاستغل الإسكندري كل هذا واحتال عليهم، وباعهم رقاع ادعى أن فيها حرزاً من الغرق، ولم يظهر عليه الجزع، بل كان رخي الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحه، مما دعا عيسى بن هشام إلى التعجب لحاله، وقال له:

«كيف نصرك الصبر، وخذلنا ، فأنشد يقول :

وَيْكَ لَوْلاَ الصَّبْرُ مَاكُنْـ ** ـتُ مَلأْتُ الكيسَ تِبْـرَا
لَنْ ينالَ المجد مَنْ ضَا ** قَ بما يَغْشَاهُ صَـدْرَا»[٣].

ففي قوله : * كيف نصرك الصبر وخذلنا؟*

---

(١) الحرزية، ص١٤٥-١٤٦.

(٢) المفردات، للأصفهاني، ص ٢٧٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٤٨، مايغشاه: ماينزل به من الحوادث، اللسان مادة : غشى.



شبه الصبر بإنسان يأخذ بيد بعض الناس فيعينها، ويترك بعضهم الآخر، وأسند إليه فعلاً من خواص المشبه به ترشيحاً.

ثم ذكر أنه لو لم يتذرع بالصبر، لما سألوه، وكشف لهم بعد ذلك المسألة، ونشأ عن ذلك أخذه المال منهم حتى امتلأ كيسه به.

فالصبر يتطلب القدرة على الاحتمال، وضبط النفس، ويتطلب ممارسةً وتدريباً في السيطرة على هوى النفس، وانفعالاتها، وعلى الرجوع إلى العقل والتروي في مواجهة الشدة، والأزمة.

ثم بين أن بلوغ المجد، والوصول إلى غاية الرفعة لايكونان مع الجزع والخوف.

وقال واعظاً بالموت في مقامة أخرى :

«وَخَلّوا عَنْ الدُّنْيَا وَمَاجَمَعُوا بِهَا ** وَمَافَازَ مِنْهُمْ غَيرُ مَنْ هُوَ صَابِرُ»(١).

وفي مقامة أخرى قال: «خَرَجْتُ مِنْ الرِّصَافِةِ... فَلمَّا نَصَفْتُ الطَّرِيقَ اشْتَدَّ الحَرُّ، وأَعْوَزَنِي الصَّبْرُ»(٢): أي افتقرت إلى الصبر؛ لأنه ذهب مني كله.

إذن فالصبر مطلوب؛ لأنه عامل رئيسي في النجاح، ودفع الهزيمة في كل الأمور.

وهذا **ابن ناقيا** يحث على صبر الغربة فيقول على لسان الراوي الذي سأل الرجل حين دخل المسجد متأففاً من غربته: «مَنْ لَكَ بالوطنِ الخَاصِّ، وَجَامِعِ وَلَدِ الْعَاص؟ ثُمّ ذكرت الغُوطَة وَأَبْوَاب جَيرُون، وَحَنَنْتُ حَنِينَ مَيْسُون، فَرَفَعَ ذَلِكَ الشَّخْصُ رَأْسَهُ، وَصَاعَدَ أَنْفَاسَهُ، وَانتزَعَ زَفْرَةً مِنْ حيزومِهِ إِلَى خَيْشُومِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَنَّى لَكَ مَفْزَع وَتَمَثَّلَ بقولِ المُلْسُوع:

لَقَدْ كَانَ فِي أهلِ الغَضَا لَوْ دَنَا الغَضَا ** مَزَارٌ وَلَكِنَّ الْغَضَا لَيْسَ دَانِيَا

(١) المقامة (٢٦): الوعظية، ص١٧٤.

(٢) المقامة (٣٠): الرصافية، ص ٢١٥.



وجعل يغتص عبرته، ويبدى لوعته، ويندب غربته ويقول: واشوقاً إليكم أبـدا، وواحسرتا على شربة من ماء بردى، ووصل تأسفه وتلهفه:

فراقَ لقيضِ السنّ في الصبر إنَّه ** لكلِّ أُناسٍ عثرةٌ وجبـون))[1].

إن من أكثر مايحتاجه المرء عند فراقه لأهله وداره؛ الصبر وإلا لما استطاع تحمل ألم البعاد، ولوعة الفراق، ولولا الإيمان بطول الأمل بقرب اللقاء، مااستطاع المضـي في حياته، وقد كان لحسن خلق الراوي دور في تهدئـة مـايعتمل في نفس المغـترب حين وعده، بل وبشره حين قال له : ((ياهَذَا أبشرْ بقربِ الدَّار، والرّفيقِ السَّار، والعودِ مَعَنَا إلى البلدِ، والاجتماعِ بالأهلِ والْولدِ))[2].

أما **الحريري** فقد حث على الصبر في مقامتـه (٤٩) علـى لسـان بطـل مقاماتـه أبوزيد السروجي، ينصح ابنه عند إحساسه بدنو أجله، قائلاً له :

((وعليكَ بِصَبْرِ أُولِي الْعَزْمِ))[3]، و((صَبْرِ أَبي أَيوب))[4].

ونخلص إلى أن خلق الصبر ورد في المقامات بـدءاً مـن الصبر علـى فقـد عزيـز بالموت ومروراً بجعل صفة من صفات الرجل الحر والاستعانة به في المصائب والملمـات وانتهاءاً بالصبر على معاناة الوحدة، كما وجدنا بعض المقاميين يذكرون عاقبته، ومـن ثم كيفية التحلى به، وتعويد النفس عليه حتى يصبح مؤمنـاً صـابراً، وإذا كـان الصـبر لأي إنسان من لوازم بقائه وسيره في الحياة، وبلوغ مـايريد فـإن الصـبر أشـد ضـرورة للمسلم من غيره، لأن المسـلم مطلـوب منـه أن يحبس نفسـه، ويكفهـا عـن المعصيـة، ويحثها على فعل الطاعة، فيحتاج إلى قدر كبير من ضبط النفس، والإرادة التي تمنعه من مقارفة الخطيئة، ومفارقة الفضيلـة، ثـم يصـبر علـى مـايقدره الله حفاظـاً علـى الأجـر والثواب.

---

(١) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٦ ، الحيزوم: وسط الصـدر ومـا يُضَـمّ عليه الحزام، اللسان، مادة : حزم.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) الساسانية، ٥/٣٣٩.

(٤) المقامة نفسها والصفحة كذلك، وأبوأيوب : الجمل.



«ولعل القرآن الكريم لم يكثر من ذكر خلق من أخلاقه كما فعل في شأن الصبر، حتى إنه ذكر في نحو تسعين موضعاً، وما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢]، ومعية الله هنا معية محبة وتأييد، ونصر وتكريم، ومعونة، ومثوبة، ولذلك قال العلماء: إن الصبر واجب بإجماع الأمة، ولاعجب فهو نصف الإيمان، لأن الإيمان شطران، فنصفه صبر، ونصفه شكر»[٣].

الشكر:

هو : «تصور النعمة وإظهارها، وضده الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها»[٤].

وقد حث **ابن الجوزي** على الشكر في مقامته الثالثة والعشرين على لسان أبي التقويم حين وجد بعض الاخوان يستمتعون بالربيع وخضرته، يقول واصفاً تلك النعم المصاحبة للربيع.

«فلمّا هبّتْ علَى الأشجارِ نَسَائِمُ الربيعِ، وَعرضتْ سلعُ الثّمَارِ نفوسَها عَلَى السَّائِمِ عرضَ المبيعِ، ونَجمتْ نجومُ الثريّا خالصةً مِنْ القِرانِ وَالتربيع، خرجتُ في إخوان.... حيّتْنا أراييحُ الرياحين ... فَجَلَسْنَا في بعضِ تلكَ الرّياضِ، ننظرُ إلى تلكَ الغِيَاضِ، مُتكئينَ عَلَى خمائِل الخُضْرة، ومعجبينَ بما حوتْ تلكَ الحضرة، فكُنّا في بُسْتَانٍ كأنّهُ من خلائِق الصِبَاح خُلِقَ، وَ مِنْ شَمائِلِ المِلَاحِ سُرِقَ، نسمعُ فيهِ من الأَصْوَاتِ مارقّ وَرَاق، مِنْ قُمري، وهدهدٍ وشِقْرَاق...»[٥].

---

(١) سورة الزمر، آية ١٠.

(٢) سورة البقرة، آية ١٥٣، وسورة الأنفال، آية ٤٦.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن، د.أحمد الشرباصي، ١/١٩٥-١٩٦.

(٤) وقيل: هو الامتلاء من ذكر المنعم، أو هو عرفان الاحسان ونشره وحمد موليه. انظر: موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ١/١١٢.

(٥) المقامة (٢٣): في الربيع، لابن الجوزي، ص١٩٠-١٩١، شقراق: طائر صغير قدر الهدهد مرقط بخضرة وحمرة وبياض، اللسان، مادة: شقرق.



نبه الشيخ ((ابوالتقويم)) الإخوان إلى التفكر في خالق تلك النعم وزادهم بذكر أخرى، كالأرض كيف تخضر بعد نزول المطر، وكيفية نزول المطر بعد امتلاء السحب بالماء، وسماع صوت الصواعق والرعد، فتسيل الأودية، وكيف يصفو الجو، ويهب نسيم الصبا، فتشاهد لون الورد الذي يحاكي لون الخجل، والطيور وهي تغني على الأغصان، ثم قال: ((وقَدْ ضَربَ الربيعُ جُلّ نَارِهِ في جُلْنَارِه، وَبثَّ الأرايج أسْرَارَها إلَى النَّسيمِ فَنم، فَاجْتَمَعَتْ فنونُ القِيَانِ، فَعَلاَ كُل ذِي فَنٍّ عَلَى فَنَن، فَتَطَارَحَتْ الأطْيَارُ مناظرات السجوعِ، فَأَعْرَبَ كُلٌّ بلغتهِ عَنْ شَوْقِهِ إلى إلْفهِ، فالحمامُ يَهْدُر، والبُلْبُلُ يخطبُ، والقُمْرّي يرجّع، والمكَّاءُ يغرِّدُ، والأغصانُ تتمايلُ، كُلّهَا تَشْكُرُ الذي بيدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاح))[١].

لأن الشكر نصف الإيمان، فقد ورد أنه شطران هما: الصبر، والشكر -كما أسلفنا-[٢]، لذلك أمر الله به، ونهى عن ضده وهو الكفر. وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من اسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً ولقد نوه الحديث النبوي بهذه المكانة للشكر حين قال: ((**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**))[٣].

وقد قطع الله تعالى بتحقيق المزيد من النعمة مع الشكر، ولم يستثن في ذلك، فقال: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[٤]، وقرن الشكر بالذكر في قوله تعالى:

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٩٣، المكاء: طائر صغير يألف الريف يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيراً حسناً، اللسان مادة: مكأ.

(٢) انظر: ص٤٥ من البحث.

(٣) رواه الترمذي برقم(٢٤٨٦) في كتاب صفة القيامة، باب (٤٣)، ٦٥٣/٤. وابن ماجه في أبواب الصيام، ٢٧٥/١. وأحمد، ٢٨٣/٢، ٢٨٩ من حديث أبي هريرة -ﷺ-، كما روى ابن ماجه، ٢٧٦/١. وأحمد، ٣٤٣/٤ نحوه من حديث سنان بن سنة السلمي -ﷺ-.

(٤) سورة إبراهيم، آية ٧.



﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(١)، وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٢).

والحق – جل جلاله – يذكر نعمه وآلاءه، ثم يعقب على ذلك بالتوجيه إلى الشكر، لكي يشعر المنعم عليهم بأن واجب التقدير للنعم في المعاملة أوفى، أو العدل في التصرف، يستلزم شكر النعمة وتقديرها، حتى يكون ذلك داعياً إلى استمرار المزيد منها، قال تعالى : ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٣)، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤)، وقال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٥).

وابن الجوزي وعى ذلك كله، فحث على خلق الشكر، ودعا إليه، مع التنبيه على أنه مقتضى الإدراك الواعي، والتقدير البصير للأشياء، والإحساس بقيمة النعم والآلاء، كالقرآن الكريم الذي يعلمنا أن الرجل المتحلي بخلق الشكر؛ هو الإنسان المتدبر المعتبر الناظر إلى آلاء الله وآياته نظرة فاحصة عميقة مقدرة، فيذكر قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٦).

ويقول على لسان بطله: « هَلْ لَاحَظَ فكركمْ هذهِ النِّعم، أَو لاحَظَّ لكم مِنْها إلاّ حَظّ النَّعم، هَلْ علّقْتم قُلوبَكم بحُبِّ الصَّانع، أَو ماشتَقْتمْ إلاّ إلى الحَبّ اليَانِع...»(٧).

---

(١) سورة البقرة، آية ١٥٢.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٤٥.
(٣) سورة الأنفال، آية ٢٦.
(٤) سورة النحل، آية ٧٨.
(٥) سورة القصص، آية ٧٣.
(٦) سورة إبراهيم، آية ٥ .
(٧) المقامة (٢٣) نفسها، ص ١٩٤.



يريد بذلك أنهم انصرفوا عن الشكر.

وهذا **الزمخشري** يبين أن على الإنسان أن يشكر الله على ماأولاه من نعم فيقول:

«فَأيُّ دِثَارٍ مِنْ صِحَّةِ اليَقين أَلحفَك ... فيمَا وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ رَحْمَتِه، وَلاَيُعَدُّ ولاَيُحْصَى مِنْ نعمتِهِ. لَئِنْ ظللْتَ أيّامَ الغابرِ من عُمُرِكَ صَائماً،وبتَّ لياليَهُ قائماً لِتَشْكُرَ ماأَطْلَق لكَ مِنْ هذِه اليَدِ البيْضَاء. وخَوّلكَ مِنْ هَذِه النعمَةِ الخضْراء،لبَقِيتَ تَحْتَ قَطَرةٍ مِنْ بَحْرِها غريقاً فِي التَّيارِ، وتَحتَ حَصَاةٍ مِنْ طَوْدِهَا مَرْضُوضَ الفِقَار»(١).

وفي مقامة أخرى أخذ يعدد بعض نعم الله على الإنسان، من أفلاك، وكواكب، وشمس وقمر، ومطر وأرض وجبال، وبحرين عذب ومالح، وحب ونوى، وخلق الإنسان نفسه بعد أن كان نطفة وجعل له قلباً ولساناً وبصراً «مَاهَذِه إلاَّ دَلاَئِلُ عَلَى أنَّ وَرَاءَهَا حَكِيْماً قَدِيْراً، عَلِيْماً خَبِيْراً، تَتَصرفُ هذِهِ الأشْيَاءُ عَلَى قَضائِهِ وَمَشِيْئَتِهِ، وَيتمَشّى أمْرُهَا عَلى حَسَب إمْضَائِه وَتمْشِيَته ... وَهَذِهِ كُلُّهَا مُحْدَثَاتٌ عَنْ عَدَم، فَلْيمْلأُ اليَقِينُ صَدْرَكَ بِلاَمُخَالَجَةِ رَيْبٍ، وَلاتَزِلَّ عَنْ الإيمَانِ بالغيبِ وعَالِمِ الغَيْبِ،... وَارْحَم نَفْسَك بابتغاءِ رَحْمَتِه، وأنْعِمْ عَلَيْهَا بالشُّكْرِ عَلَى نِعْمَتِهِ، وَلْيَنْكَشِفْ عَنْ بَصَرِكَ غِطَاؤُهُ. فَأَنْتَ وجَمِيعُ مَاعِنْدَكَ عَطَاؤُه»(٢).

لقد بين **الزمخشري** أن العبد لايكون شاكراً لمولاه إلا إذا استعمل نعمته في محبته، أي فيما أحبه لعبده لالنفسه، وأما إذا استعمل نعمته فيما كرهه فقد كفر نعمته، كما إذا أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون الأول إلا أنه كفران للنعمة بالتضييع، وكل ماخلق في الدنيا إنما خلقه الله للعبد ليتوصل به إلى سعادته.

ثم إن فعل الشكر وترك الكفر لايتم إلا بمعرفة مايحبه الله تعالى ومايكرهه.

وهذا ماحث عليه **الزمخشري** في المقامة الثلاثين فطلب ترك قول الشعر من

---

(١) المقامة (١٣): المنذره، للزمخشري، ص٨١.

(٢) المقامة (٢٦): التوحيد، للزمخشري، ص١٦٠-١٦١.



تشبيب، ونسيب، وغزل للنساء، ومدح للسلطان؛ لطلب الأموال وقال: ((اجعلْ ثَنَاءَكَ لِوَجْهِهِ خَالِصاً وَاسْأَلْهُ الطيِّبَ في جميع مَاتكْتَسِب، واتَّقِهِ يرزقكَ من حَيْثُ لاتَحْتَسِب:

اثْنِ عَلَى ربِّ البَشَرْ ** عَلَى الذِي أَعْطَى الشِّبَرْ))[١].

وهو قد توجه بالشكر لك لأنه :

((أعطَى الذي عيَّ الوَرَى ** يَحْصُره ولاحَصَرْ

حَسْبُكَ ماأَوْلاكَ مِنْ ** قَلْبٍ وسَمْعٍ وَبَصَرْ

ومِنْ لِسَانٍ مُنطَلِقٍ ** لِلذِّكْرِ كالسّيفِ الذَّكَرْ

آياتُ صِدقٍ وَعِبَرْ ** وَهُنَّ آلاتُ العِبَرْ))[٢].

وكذا في المقامة الرابعة والثلاثين بدأ بذكر نعم الله على عبده من بداية خلقه، منذ كان نطفة، مروراً بالرضاعة وطلوع الأسنان، وانتهاءً بالمكانة العالية التي أوصله إليها، ثم يقول :

((إنَّما أَوْلاكَ مَاأَوْلاكَ لِتنظُرَ في وُجُوهِ نَعْمَائِهِ مُفَكِّراً))[٣]، ومع هذا لاتشكر بل ((تَسُدُّ مَسَامِعَكَ دونَ أَنْ تتنصحَ ... كُلَّمَا ازْدَدْتَ بِلؤمِكَ غَمْصاً لِأَيَادِيهِ وكُفْرَاناً، زادك بكرمه الواسع طولاً وإحساناً ... وتابع عليك ألطافه الزائدة في إيقانك...))[٣].

وكأنه يوبخه بإنهاء المقامة بهذا السؤال: ((فَبِشُكْرِ أيَّة نعمةٍ تنهضُ أيُّها العَبْدُ العَاجز؟ هَيْهَات قَدْ حُجِزَتْ دَونَ ذلكَ الحوَاجِز))[٤].

---

(١) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة للزمخشري، ص١٨٥، الشبر: العطية، يقال: شبره كذا، وأشبره؛ إذا أعطاه.
انظر: اللسان، مادة شبر.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٦.

(٣) المقامة (٣٤): الشكر، ص ٢٠٥.

(٤) المقامة نفسها ، ص ٢٠٩.



أما **ابن نباته**، فقد ذكر الشكر على لسان المتباري الرابع في مجلس المناظرة الذي يعقده شيخ من ذوي الأدب تنسل إليه الطلاب من كل حدب، فسار الراوي إليه ومعه رفاقه، وهناك أخذ كل منهم يقول شعراً في الربيع، والشيخ يرجح الحسن من القبيح، فقال: «فاشْكُرِ القومَ إنْ رَأوا التفصيلَ فيمَا قالَ، وَمَاقِيلَ، وَقَالُوا»[(١)].

فتقدم بالشكر لهم إن فصلوا قوله، أو قول الشيخ الناقد، أو ماقيل ممن حضر المجلس، وهكذا يجب أن يكون المسلم شكاراً، فيشكر الله أن من عليه بنعمة العلم، ومن ثم يشكر من يدله على الصواب أثناء تحصيله العلمي، فينال هو الأجر، وكذلك من دله، لقوله - ﷺ - : «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»[(٢)].

فهذا الشيخ يصحح لهم مااستقبح من قولهم، فله - إن شاء الله - أجر ذلك.

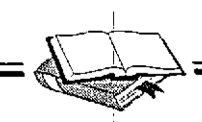
أما **ابن ناقيا** فلم يذكر من صور الشكر إلا ماأورده في المقامة الثالثة وهو: شكر الله على أن سلمهم من محتال ادعى أنه غريب عن الأهل والدار، فدعوه إلى الطعام بعد أن وعدوه بقرب اللقاء بالأهل والعودة إلى الديار، فتمنع عن تلبية الدعوة للطعام، ومن ثم قبلها، وبانتهائه منه، انتهى الزاد لقضائه عليه، ثم هرب، يقول الراوي: «وَدَعَوْنَاهُ إلى الطّعَامِ فتثاقلَ عَنِ المقامِ، حَتّى اقسمْنَا عَلَيهِ... فناولْنَاهُ ذَنوباً من الطّعَامِ... ثُمّ حَنَا ركبتيهِ، وَحَرونَ بِيديهِ، وأَحْطَطَ عينيهِ، وَجَعَلَ يَرْفعهنّ كَالْقَطَى، وَيلفهنّ في لظَى، واحتسبَ أهلَهُ وَوَلَدَهُ، وَسَلاَ أَرْضَهُ وَبَلَدَهُ... فنهضَ... ومانلْنَا مِن الزّادِ... فَعَجبْنا مِن هَرَبهِ، وَهَمّ القومُ بطلبِهِ، فإذَا هُو اليشكري، فَشَكَرْنَا الله عَلَى السّلاَمةِ مِنْهُ»[(٣)].

---

(١) مخطوط مقامة ابن نباته السعدي، ص٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب الامارة، باب فضل اعانة الغازي في سبيل الله، ٤١/٦. ورواه أبوداود تحت رقم(٥١٣٩)، عن أبي مسعود الأنصاري - ﷺ-، كتاب الأدب، باب في الدال على الخير، ٣٣٣/٤-٣٣٤. والترمذي، كتاب العلم، باب الدال على الخير كفاعله، ٤١/٥. مسند أحمد، ١٢٠/٤، ٣٧٤/٥، ٣٥٧.

(٣) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٧ . ذنوب: الدلو العظيمة، حرون: قام ولم يبرح، وأصله في الخيل، سلا: نسي. انظر: اللسان مادة: ذنب، حرن، سلا.



وهذا الرجل بدل أن يشكرهم على مافعلوه معه، ويمتثل لقول رسول الله -ﷺ-: ((**من لايشكر الناس لايشكر الله**))(١).

إذا به يهرب، وهم بدلاً منه يشكرون الله على أنه أنقذهم من حيله ومكره.

أما **الحريري** فقد ذكر نوعي الشكر، شكر الله، ومن ثم شكر الناس، ومن قوله في شكر الله: ((سَاقَنِي إِلَيْكَ لُطْفُ القَضَاءِ، فَشُكْراً لِيَدِهِ البَيْضَاءِ))(٢).

فبين أن أول من يشكر : الله – جل جلاله – لأنه صاحب الفضل والنعمة والمنة، وصاحب اليد البيضاء، ولامنعم في الحقيقة سواه، ويعقب شكر الله، شكر الوالدين لقوله تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾(٣)، وشكرهما يكون بطاعتهما وتوقيرهما، والإحسان في الأعمال والأقوال إليهما، وعدم ايذائهما، ولو بأقل لفظ، وخفض جناح الذل لهما تأدباً، ورحمتهما، وهما كبيران، والدعاء لهما، وصلة رحمهما، وبر من يحبان، وهذا الشكر للوالدين ظهر جلياً في المقامة قبل الأخيرة عند **الحريري** حين أحضر أبوزيد السروجي ابنه، وعلمه كيف يتخذ من الكدية حرفة له، ويكون خير خلف له ثم قال: ((يَابُنَيَّ قَدْ أَوْصَيْتُ، واسْتَقْصَيْتُ فَإِنْ اقْتَدَيْتَ فَوَاهاً لَكَ، وإِنْ اعْتَدَيْتَ فآهاً مِنْكَ، واللهُ خَلِيفَتِي عَلَيكَ، وأَرْجُو أَنْ لاتُخْلِف ظَنِّي فِيْكَ، فقَالَ لهُ ابْنُه : ياأَبَتِ لاوُضِعَ عَرْشُك، ولارُفِعَ نَعْشُك، فلقَدْ قلْتَ سَدَداً...))(٤).

فمن شكر الوالدين طاعتهما، إلا أن المقامة السالفة كان الأحرى بالولد ألا يطيع أباه في اتخاذ التسول حرفة له؛ لأنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، وديننا الحنيف قد أوصانا أن نأكل من كدنا، وتعبنا، وألا نكون عالة على غيرنا...

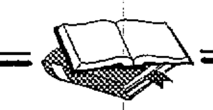
---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة – ﷺ – تحت رقم (١٩٥٤)، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال حديث حسن صحيح، ٣٣٩/٤. ورواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، ٢٥٥/٤.

(٢) المقامة (١٥)/ الفرضية، ١٨١/٢-١٨٤.

(٣) سورة لقمان، آية ١٤.

(٤) المقامة (٤٩): الساسانية، للحريري، ص ٤١٢-٤١٣.



وفي المقامة نفسها حثه على شكر الناس قائلاً لابنه ضمن وصاياه له: ((كُنْ يابُنَيّ خَفِيفَ الكَلّ، قليْل الدَّلِ، ... وَعَظِّم وَقْعَ الحقير، وَاشْكُر عَلَى النَّقِير))(١).

وفي مقامة أخرى أورد شكر الناس حين قال على لسان الراوي: ((فَلَمَّا رأَيْنَا الشِّبْل يُشْبه الأَسَد، أرْحَلْنا الوَالِدَ وَزَوَّدْنَا الوَلَدَ، فقَابَلا الصَّنْع بِشُكرٍ نَشْر أَرْدِيته، وأدَّيَا به دِيَتَهُ))(٢).

يقول: جعلا شكرهما حقاً لبرنا ومكافأة لصلتنا، وكأن المال الموهوب قد استهلكه الآخذ له، فإن شكر عليه فالشكر للواهب هو دية ماله الهالك، فقد قيل: إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر؛ وإنما أراد قول النبي -ﷺ- عن جابر -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: **((من أعطي عطاءً فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور))**(٣).

وفي مقامته الخمسين أخذ يعدد محاسن أهل البصرة، ويمدحهم قائلاً: ((دَهْماؤكم أطْوعُ رَعيّةٍ لسُلْطَان، واشْكَرُهُمْ لإحْسَان))(٤)، أي أن أكثر أهل البصرة يتصفون بخلق الشكر، فيشكرون من يحسن إليهم، ((لأن القرآن الكريم يقول: **﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾**(٥).

وكذا السنة النبوية المطهرة عنيت بالحث على شكر الناس، فقال رسول الله -ﷺ-: **((مَنْ لَمْ يشكرِ النَّاسَ لَمْ يشكرِ الله))**(٦).

---

(١) المقامة نفسها (٤٩)، ص ٤١٠-٤١١.

(٢) المقامة (١٤): المكية، للحريري، ١٤٣/٢.

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في المتشبع بما لم يعطه، ٣٧٩/٤ حديث حسن غريب. ورواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، ٢٥٦/٤.

(٤) المقامة (٥٠): البصرية، للحريري، ٣٤٦/٥، شرح الشريشي، دهماؤكم: جماعتكم. والدهماء: معظم الناس، انظر: اللسان، مادة دهم.

(٥) سورة الرحمن، آية ٦٠.

(٦) سبق تخريجه ص٥١.



لأن الذي يقدر صنيع الجميل معه، ولايشكر عليه يكون مقصراً في حق الله -عز وجل-، لأن الله تعالى لايقبل شكر الإنسان على إحسانه إليه إذا كان العبد لايشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم، لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

وكذلك جاء في الحديث : «**من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء**»(١).

وهذا بالنسبة للعاجز غير القادر على الشكر المادي، وجملة «جزاك الله خيراً» فيها ثناء بليغ، لأن فيها معنى الاعتراف بالعجز عن الشكر، وقائلها قد دعا الله ورجاه بأن يثيب صاحب المعروف نيابة عنه، والله واسع الفضل والعطاء، فلو أخلص الإنسان في الدعاء لكان شاكراً عظيماً.

ونخلص إلى أن المقاميين حثوا على هذا الخلق، ممثلاً في شكر الله، إلا أن **ابن الجوزي**، و**الزمخشري** ركزا على أن العبد لابد أن ينظر إلى النعم التي أنعم الله بها عليه؛ ليزداد شكره لمنعمها عليه، وزاد **الزمخشري** على ذلك بذكر الكيفية التي يشكر بها العبد مولاه؛ وذلك باستعمال نعمته في محبته؛ لأن من فهم حكمة الله في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر لله.

أما **ابن نباته** فقد أشار إلى شكر الله، ثم شكر الناس، وعلى النقيض منه **ابن ناقيا** الذي مثل بصورتين، إحداهما: لرجل يحسن إليه ولايشكر، والثانية: لأُناس توجهوا بالشكر لله؛ لأنه خلصهم من كافر لصنيع المعروف.

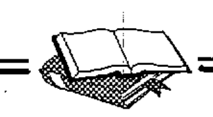
أما **الحريري** فأضاف إلى ذكر شكر الله، ثم الناس: شكر الوالدين.

الكرم:

إن **ابن الجوزي** لايترك مناسبة في مقاماته إلا ويشيد فيها بخلق من أخلاق القرآن، ويحث المسلم على التمسك بها إما من خلالها وإما بذكر ضدها، وذكر الضد

---

(١) رواه الترمذي تحت رقم (٢٠٣٥) عن أسامة بن زيد - ﷺ -، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في المتشبع بما لم يعطه، ٣٨٠/٤.



وبيان مساوئه يكون تأثيره أفضل، وهذا ماالحتذاه **ابن الجوزي** فهو يذكر الكرم ويحض عليه، ويذم البخل ويبين عيوبه كما نرى في مقامته « في ذم الأكل في قوة العز» حيث أورد فيها أنه دعا في بعض الأيام دعوة عامة، فكان من ضمن المدعوين فلاح ازدرى هيئته، فأحس بذلك الأعرابي فقال له : «يَاأجودَ مِنْ حَاتمٍ، مَايبلغُ كَعْبُ في الكرم كَعْبكَ»، فندم على ازدرائه للأعرابي الذي قال: «أَيْنَ طيبُ الأرومةِ، أينَ أثرُ الأكرومةِ، أفٍّ لثيابِ أحرارٍ، عَلى غيرِ أحْرَار :

رُبّ قَومٍ في خَلاَئِقهم ** غُررٌ قَدْ صُيّروا غَرَرا
سترَ المَالُ العيوبَ لهمْ ** سَتَرى إِنْ زالَ ماسَتَرا

ثم قال :

رَأيْتُ خَيْمَةَ شَعْر ** فقلْتُ : مَاذَا السَّوادُ؟
فَقيلَ : مَطبخُ قَومٍ ** فقلت : أيَن الرَّمَادُ؟
فقيلَ لى : فِيه بِنٌّ ** وَكَامخٌ وجَرادُ
ولَيْسَ فيهِ سِوَى ذَا ** وللجَمَال يُرادُ
مجَاهيلَ مافطِنُوا بالسَّماحِ ** وَلاَسمِعُوا بحديثِ القِرى
....
بَلَى عِنْدَ ضيفهم مايريدَ ** ولكنْ لعَمْري إذَا ماالشْترَى
وإنْ كَانَ عِنْدَهم ثَاوِيَا ** فَمَا تتعذرُ دُور الكِرَا»[١].

---

(١) المقامة (١١) «في ذم الأكل في قوة العز»، لابن الجوزي، ص ٨٧-٨٩.
البن: الطبقة من الشحم، اللسان، مادة: بنن، والكامخ: مايؤتدم به أو المخللات المشهية والجمع كوامخ، اللسان، مادة : كمخ.



وعلى النقيض منهم ماذكرهم بعد ذلك الأعرابي حين قال: ((لَقَدْ ألفتُ صحبةَ قومٍ كانُوا أخَايرَ الذَّخَاير، وَبَشَائِر العَشَاير، وكنْتَ إذَا حَيِيْتُ فبينَ كِرامٍ، وإذَا حُيِّيتُ فَبإكرام))[1]، ثم يتحسر على فراق مثل هؤلاء فيقول :

((للهِ أقوامٌ فقدتهم ** سَكَنُوا بُطونَ الأرضِ وَالحُفرَا
أينَ السَّبيلُ إلى لقائِهم ** أم مَنْ يُحدِّثُ عنهمُ خَبَرَا؟!
أشدُ الوَغَا وبدورُ أنديةٍ ** تهوى العيونُ إليهم النظرَا
تَركُوا الزمان مُرقعاً خَلقَا ** والنَّاس لاحيَّاً ولابشَرَا))[2].

فهو حين وصفهم بتلك الصفات يريد أن يوقظ في نفس سامعه حب العطاء، والإنفاق لأنه سأله: لمن وصفت؟ فقال لضدك، ثم قال :

((لَذَّةُ الدنيا إذا ماحَضَرُوا ** وإذَا غَابوُا فشغل لِلأمَاني
مااطمأنَّ الدهرُ حَتَّى نقصوا ** فكأني لاأراهم في مكانٍ))[3].

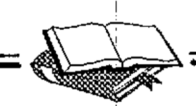
ثم ساحت دمعة من عينه، وأخذ ينعي عدم وجود الكرام :

((مَاتَ الكرامُ وولوا وانقضَوْا وَمَضَوْا ** وماتَ مِنْ بعدِهِمْ تلك الكَرامَاتُ
وَخَلَّفُوني في قَوْمٍ ذوي سَفَهٍ ** لو أبصَرُوا طَيْفَ ضَيْفٍ في الكرَى مَاتُوا))[4].

وصف البخلاء بالسفه، ثم زاد في بيان شدة بخلهم فهم حين يبصرون طيف الضيف في نومهم يموتون خوف تقديم الطعام لهم

---

(١) المقامة نفسها، ص ٨٩.
(٢) المقامة والصفحة نفسها.
(٣) المقامة والصفحة نفسها.
(٤) المقامة نفسها ، ص ٩٠.



ومن ثم بدأ الأعرابي يحث على إطعام الطعام فيقول : ((أيّ مُروءة لِمَنْ لاَيجتمعُ الإخْوانُ عَلَى خِوانِهِ، ولم تقعْ الأجفَانُ علَى جِفانِهِ غيرَ أنَّ الحُرَّ كالعنقاءِ، مَعْدومُ اللِّقَاء، ومثل الماثل بينَ الطَّعام، وطَاعم الطَّعام، مثل حُروفِ الإدْغَام))(١).

نعم ، شتان بين البخلاء، والمنفقين، وقد أورد لهما رسول اللـه - ﷺ - مثالين، في الحديث التالي :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول: ((**مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق، فلاينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تخفي نباته، وتعفو أثره، وأما البخيل، فلايريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقةٍ مكانها، فهو يوسعها ولاتتسع**))(٢).

ولكن الرجل لم يكن من وراء حثه على إطعام الطعام يريد أن يلتهم، ويغوص في ذلك الطعام، لأنه حين قدم إليه، تناول لقمات ثم كف، ولما سئل عن ذلك قال كلاماً مأثوراً:

((إنَّما يريدُ العاقلُ أَنْ يأكلَ ليحْيَا لاَ أَنْ يحيَا ليأْكُل، إِنَّ خَيْرَ المطَاعِمِ ماستخدمتْ، وإِنَّ شَرَّها ماخَدمتْ، وَهَلْ عَالجَ الحجّامةُ وفَصدَ الفَصَّادُ، إلاَّ خَارِجٌ عَنْ حَدِّ الاقتصَاد))(٣).

يريد بذلك ذم الأكول، ثم سئل: ((أما تَشْتَهي أَنْ تشبعَ؟ قالَ: أشْتَهي وأَمْتَنع، ... ثُمَّ أخذَ يُدَرِّسُ دَرْساً قَدْ دَرَسْ،ثلْثٌ للطَّعام،وثلْثٌ للشَّراب،وَثلْثٌ لِلنَّفس))(٤).

---

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) رواه البخاري مع فتح الباري، كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل، ٣٥/٣. الجنة: الدرع، اللسان، مادة : جن .

(٣) المقامة نفسها، ص٩١.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.



فيكون بذلك امتثل لحديث رسول الله - ﷺ - حين قال: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لامحالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[1].

ونرى ابن الجوزي في مقامته (في ذم البخل) يشيد بالكرم ويذم في المقابل البخل، فها هو ذا يقول بعد أن كان النقاش على أشده مع شيخ ورجل جلف، فقطع الكلام فقير، قائلاً:

«يَاقوم مَالي نقيرٌ، أَخْرَجني إِلَى سُؤالِكمْ الجوعُ، وَإِلَى أَمْثَالِكمْ الرَّجُوع، فقالَ الشَّيخُ: اْلعَقْرُ داءُ الكرمِ. فرحمَ اللهُ مَنْ وَاسَى هَذَا الغلامَ، فبادرُوا الْأَرْبَاح في هذِهِ التَّجَارة، فَسَكَتُوا كأنَّه كَلَّمَ حِجَارة. فقالَ الشّيخُ :

أَرَىَ إِخْوانَنَا أَثروا ولَكِنْ ** ثراؤهُمْ عَلَى التَّحقيقِ فقرُ
لأَنَّهم يَخَافُونَ المرجى ** كَأَنَّهمْ حَبَارَى وَهُو صَقْرُ
وإنْ قُلْنَا أضيفُوا النَّاس وَاَقْرُوا ** فِفي آذانهم مِنْ ذَاكَ وَقْرُ

ثم بالغ في ذم البخلاء وأنشد:

خُلقوا وماخلِقُوا لمِكرمةٍ ** فَكَأَنَّهمْ خُلقوا وَمَاخُلِقُوا
رُزقُوا وَمَارزقوا سَمَاحَ يدٍ ** فَكَأَنهَّمْ رُزِقُوا ومَارُزِقُوا

ثُمّ قَالَ لهمْ : هَذَا المسكِين مَاذَاقَ اللَّيلةَ لما جَا ،وَلَوْ عَلِمَ مِثْله لمَا جَا ، إنَّ البَّخْلَ بالطَّعامِ، مِنْ أَخْلَاقِ الطَّغَام، وإنَّ العقلاءَ وَاسَوْا بِقَدرِ طَاقَتِهم، وَلَمْ يتناسَوا قُرْبَ فَاقَتِهِمْ...، فقالَ الشَّيخَ: لَو كُنتُمْ بِالخَلَفِ تُصدِّقون، مَاكُنْتُمْ بِالخُلْفِ تَصدّقون وَلَاتيمموا الخبيثَ مِنْهُ تُنفِقُون»[2].

---

(١) رواه الترمذي، تحت رقم (٢٣٨٠)، كتاب الزهد، باب ماجاء في كراهية كثرة الأكل، ٥٩٠/٤. ورواه ابن ماجه (٣٣٤٩)، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، ١١١١/٢؛ بلفظ آخر.

(٢) المقامة (٢١)، لابن الجوزي، ص ١٧٤-١٧٦.



وقد أظهرهذا الوعظ في ذم البخل نتيجته الفورية، ولكن كل على طبيعته، فهذا رجل قد قدم حثالة من الحثالة، ومن ثم قام آخر أظهر صورة للكرم المطلوب من المسلم تجاه أخيه،يقول **ابن الجوزي**:((فأشرفَ جارٌ للمسجدِ عَلَيهِ،وضمنَ جميع المطلوبِ عَليهِ، فَكَانَ بينَ وعدِهِ وإنجازِه لامُ عَلّيها أَلِف، فألفيْنَا شَخْصاً للمعروفِ قدْ أَلِف.. وَقالَ لغلامِهِ: كِلْ لَهُ...فهالَ عَليهِ مِن الجيّد ماهَالَ، فَرَأَيْنَا مِنْ ذلكَ السّيد مَاهَال))[1].

فأشاد ((أبوالتقويم)) الشيخ بكرمه فقال: ((السَّليقةُ خَليقةٌ، وَهِي بِالكرامةِ خَلِيقة، والنَّحِيزَةُ غَرِيزة، وَهي في الخُلُقِ عَزِيزَة، لايقول المجْدُ وَاطَرَبَاه، حتّى يصيحَ المالُ: وَاحَرْبَاه هيهاتَ أَنْ يسمنَ المدحُ حَتَّى يهزلَ الكيس))[2].

ثم بين الكيفية التي يداوى بها البخل فقال: ((فبماذا أداوي البخل؟ فقال: اعلم أن مالك ماأتلفت. ومالك ماخلفت، وتيقن أن البخيل فقير لايؤجر على فقره.

يَفْنى البخيلُ بجمعِ المالِ مدّتَهُ ** وَلِلحوادثِ والوراثِ مَايدعُ

كَدُودةِ القزّ مَاتبنيه يهدمُهَا ** وَغيرهَا بالذي تَبنيه ينتفِعُ))[3].

= لما جا : لم يذق شيئاً.

لنقير: جذع ينقر ويجعل فيه كالمراقي يصعد عليه إلى الغرف، أو خشبة تنقر فيتخذ فيها نبيذ من الثمر ونحوه، اللسان، مادة : نقر، لمج.

الحبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة، المفرد والجمع سواء، اللسان، مادة : حبر. الخلف: العوض والبدل. الخلف: المحال الذي ينافي المنطق ويخالف المعقول. انظر: اللسان ، مادة خلف.

(١) المقامة نفسها، ص ١٧٦ من كلام العرب قولهم: لم يكن إلا كلا و . يريدون سرعة الانجاز، اللسان، مادة كلى .

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.



أما في المقامة الثانية والعشرين فنرى **ابن الجوزي** يحث على إكرام الضيف، حين أظهر لنا بطل مقاماته في صورة زائر، وقد قام المضيف بإكرامه كما يجب على المسلم تجاه ضيفه فقال على لسان أبي التقويم :

((يازَوْل أنا زَوْر ... فَأفردتُهُ في صُفّة، وأبردْتُهُ في أَهل الصُفَّة ... فصحتُ بخادمي: ياكَافور قَدّم لنا قِدْراً تَفور ... فَاستسعدتُ أَنَا بخدمةِ ضَيفي، وأَعددتُ للخادمِ سَوْطِي وَسَيْفِي، ثُمّ دعوتُ جماعةً كَانُوا يُفْطِرون عِنْدي، فَأسنيتُ طَعَامهم ونسيتُ عَبْدِي ... فَلَمَّا أكلُوا تَنَاولُوا بالأصابعِ ثُمَّ بالرَّاح، وَشَغلُوا جميعَ المسَامِع بحديثِ الأفْرَاح، فناولَ الشيخُ ناقةَ الجوعِ لقمات ثُمّ شَق، وقالَ: أعوذُ بالله مِن الشَّرَه والسَنَق، فقلتُ لَهُ: فَمَا الذي تُؤثر مِن الحلْوى قالَ: السَّلوى فازدادَ منها وَقَالَ: لابَأس فإنَّ فيهَا شِفَاءً لِلنَّاس ... فَلمَّا رَأَى الآكلينَ قَدْ لَعِبُوا وَأَشِرُوا، قَالَ: فإذَا طَعِمْتُم فَانْتَشِرُوا..))(١).

فمنذ بدء المقامة بين أول آداب الزائر أو المضيف أثناء دخوله على المزار، فاستأذن، وحين سئل عن الطارق قال: ((يازول أنا زور))، لأن للزيارة آدابها، بعضها في الدخول، وبعضها في تقديم الطعام، أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل، فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهى عنه، قال الله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ**﴾(٢)، يعني منتظرين حينه ونضجه.

ومن ثم انتقل ليبين مافعله المضيف مع ضيفه، حيث أجلسه في صفة، وعامله كأهل الصفة، ثم أخذ يستعد ليقوم بواجبه تجاه ضيوفه كإعداد للطعام.

كما أن المصنف في هذه المقامة حقق الكثير من آداب إحضار الطعام، ومنها: تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف ... وترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن

---

(١) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمدارة، لابن الجوزي، ص ١٨٢-١٨٤، زول: الحلو الظريف، زور: أي زائر، السنق: التخمة، انظر: اللسان مادة: زول، زور، سنق.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٣ .



كانت فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وفي القرآن الكريم دليل على تقديم الفاكهة في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[١]، ثم قال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٢].

ثم تقديم اللحم والثريد بعد الفاكهة، فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات، ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف ((إبراهيم))، إذ أحضر العجل الحنيذ أي المحنوذ وهو الذي أجيد نضجه، وهو أحد معنيي الإكرام، أعني تقديم اللحم في قوله تعالى : ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[٣].

وهذا مضيف ابي التقويم يقول له: ((فما الذي تؤثر من الحلوى قال: السلوى))، هذا بعد أن ((ناول الشيخ ناقة الجوع لقيمات)) ولم يسرف كالبقية في تناول الطعام امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَابَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٤].

وكذا أراد تنفيذ أوامر الله حين قال لهم:﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾،فالله تعالى قال في كتابه العزيز:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾[٥].

كما نلحظ أن أبا التقويم حقق أيضاً آداب الانصراف، وهي ثلاثة:

((الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف.

---

(١) سورة الواقعة ، آية ٢٠.

(٢) سورة الواقعة ، آية ٢١.

(٣) سورة هود، آية ٦٩.

(٤) سورة الأعراف، آية ٣١.

(٥) سورة الأحزاب، آية ٥٣.



الثانـــي: أن ينصرف الضيف طيب النفس، وإن جرى في حقه تقصير.

الثالث: أن لايخرج إلا برضاء صاحب المنزل وإذنه ... وإذا نزل ضيفـاً فلايزيـد علـى ثلاثة أيام فربما يتبرم به، ويحتاج إلى إخراجه، نعم لو ألح رب البيـت عليـه عـن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك»[١].

وأبوالتقويم في هذه المقامة قد استأذن للانصراف، لكن مضيفه أبى عليه ذلك.

يقول ابن الجوزي: «ثُمَّ آبَ لِيَذْهَبَ، فقلْتُ: مافِيَها مَذْهَب، قَـدْ عَـرَضَ لي أَنْ تبيتَ، فقالَ: لاغرضَ لي في المبيتِ، فَشَمَّر للرّحيلِ ذَيْلهُ، فقلْتُ: إنَّما هِـي لَيْلَـةٌ، فقـالَ: إنَّ شُكْرَ المنعمِ مُسْتَحَقٌ، ولَكَ بما فَعَلْتَ حَق»[٢].

كما نلحظ أن ابن الجوزي قد حث على الجود بـالعلم وبذلـه وهـي: «المرتبـة الرابعة من مراتب الجود، .... وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم اشرف من المال، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لاينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به : أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

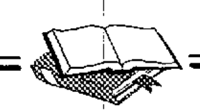
ومن الجود بالعلم : أن السائل إذا سألك عـن مسـألة، استقصيت لـه جوابهـا جواباً شافياً، لايكون جوابك له بقدر ماتدفع به الضرورة، كما كان بعضهـم يكتـب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليهما، وكـان شيخ الإسـلام ابن تيميـة إذا سئل عن مسألة حكيمة، ذكـر في جوابهـا مذاهـب الأئمـة الأربعـة إذا قـدر، ومـآخذ الخلاف، وترجيح القول.. وهذه فتاويه – رحمه الله – بين الناس، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك»[٣].

---

(١) موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) المقامة (٢٢): نفسها، ص ١٨٤-١٨٥.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ٢/٦٤٣-٦٤٤.



وأبوالتقويم يظهره ابن الجوزي – في معظم مقاماته – وفي مقامته هذه يجود بالعلم حين سأله صاحب الدار قائلاً له : ((عِنْدِي مَسَائِل ، فقالَ: وَلَكَ عِنْدِي وَسَائِل، فقلْتُ: وَكَيْفَ أزودُ عِلْمَكَ، قالَ: سَلْ وَأَحْضِرْ فَهْمَكَ، وَقُلْ مَابَدَا لَكَ))(١).

ونلحظ أن ابن الجوزي لم يترك فئة من الناس إلا وتطرق إليها، وبين كيفية التعامل معها، كما أظهر هنا فئة الخدم، وكيفية تسامح سيده – صاحب الدار– عنه حين أعرض عن طلبه، ولم يلبه حين قال له : ((ياكافور. قَدِّمْ لَنَا قِدْراً تَفُور...، فقلْتُ: وَيْحَكَ اغْرِف. فَأَعْرَضَ عَنَّا وَأَبَى، وَلَمْ يَغْرِفْ لَنَا، فقلْتُ لِلشَّيخ: اسمعني ذمّه فَالكَلام يشفي صَدْري، فَقَدْ حَيَّرني هَذَا الغلامُ في أَمْرِي فَزَفَرَ الشَّيخُ– لما مَيَّزَ– زَفْرَةَ القيظِ. وكَانَ يتميزُ مِنْ الغيظِ، وَقالَ: تَعَلَّمْ عَلَى غُلَامِكَ كَظْمَ الْغَيظِ، ثُمَّ بَادَأه فَنَادَاهُ:

أكافورُ قُبِّحتَ مِنْ خَادمٍ ** وَلَاقَتْكَ مُسْرِعَةً جَائِحَهْ
حَكَيْتَ سَمِيَّكَ في بُرْدِهِ ** وَأَخْطَأَكَ اللّونُ وَالرَّائِحَةْ

فاستعسدتُ أَنَا بخدمةِ ضَيْفِي، وَأَعْدَدْتُ لِلخَادِمِ سَوْطِي وَسَيفِي))(٢).

إلا أن ابن الجوزي عاد بعد ذلك، وأظهر لنا صاحب الدار، وقد حن قلبه على خادمه، وعفا وصفح عنه فقال :

((ثُمَّ حَنَّ قلبي إليه فَصَالحتُهُ وَعَفَوْتُ عَنْ جِنَايَةِ يَدِيهِ وَسَامَحْتُهُ ... ثُمَّ جَعَلَ يقولُ: لَابَأْس بمدَارَةِ مَنْ تقَاسِيهِ، فَإنَّ العفو يَلَيِّن من قَاسِيه))(٣).

وهكذا حال المسلم مع خادمه، يصفح ويعفو عن زلاته، فقد جاء رجل إلى رسول الله–ﷺ– فقال:يارسول الله كم تعفو عن الخادم؟ثم أعاد عليه، فصمت، فلما كانت الثالثة قال له:((**أعفو عنه كل يوم سبعين مرة**))(٤)،لأن العفو من شيم الكرام.

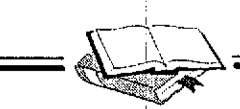
---

(١) المقامة (٢٢) نفسها، ص ١٨٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٣.

(٣) المقامة (٢٢) نفسها، ص ١٨٤.

(٤) رواه الترمذي تحت رقم (١٩٤٩) عن ابن عمر – ﷺ –، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في =



وإلى مثل هذا أشار في مقامة أخرى حين قال : ((أَنْتَ أكرمُ مَنْ جَادَ علَى الخدم وَأَوْلَى، وَأَنْشَدُوه بِذلةِ العبيدِ عِنْدَ المولَى :

يَامَنْ صَفَتْ أخلَاقَه وَاحْلَولَى ** أَنْتَ الكريمُ لَيْسَ فيهِ لَوْلَا[١]))

ومن إكرام الخدم انتقل إلى نوع آخر من الكرم في مقامة أخرى قائلاً: ((فاذْكُره لي مِنْ أَخْبارِ الكِرَام، مَايحدثُ عَلَى البعدِ عَنْ اختيارِ اللئَام، فقالَ: ربَمَا قالَ البخيلُ هَذَا في المنامِ، كانَ الكرامُ لأبي بكرٍ الصَّديق عنهُ يُلْفَى إلْفَا،فَأَنْفَقَ في موجبِ التَّصْدِيق أَرْبعينَ أَلْفاً ...

وَيَسْخُو بمَا قَدْ حَوَتْ كَفُّهُ ** وَلَايتبع المنّ مَاقَدْ وَهَب

وَكَمْ فِضَّةٍ فَضَّهَا في الهدَى ** وَكَم ذَهَبٍ عِنْدَه قَدْ ذَهَب

عَاينَ طَائِرُ الفَاقةِ يحومُ حولَ حَبِ الإيثارِ، فَألْقَى إليهِ إِلْقَاء مَنْ قَدْ ذَرَى))[٢].

وذكر من أخبار الكرام قوله : ((وَهَبَ عَثْمَانُ لطلحةَ خَمْسِينَ أَلْفاً، وَقَالَ: استعنْ بِهَا عَلَى مُروءتكَ، وقسَّمَ طَلْحَة في يومٍ أربعمائة ألف، وَفَرَّقَتْ عائشةُ سَبْعِينَ ألفاً، وَبَاتَتْ ترتقعُ دِرْعَها، وَاشْتَرَى ابن عَامِر* دَاراً بسبعينَ ألفاً، فسمعَ أَنَّ أهلَ الدَّارِ يبكونَ لفراقِهَا فقالَ: المالُ والدارُ لهم))[٣].

= العفو عن الخادم، ٣٣٦/٤ . ورواه أبوداود تحت رقم (٥١٦٤)، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، ٣٤١/٤.

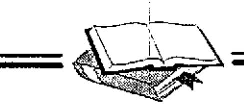
(١) المقامة (٤٥): في الأحاجي والمكاتبة والمواعظ، ص ٣٧١.

(٢) المقامة (٤٦): في الزهد في المال، ص ٣٧٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٧٩ .

(*) عبدالله بن عامر الأموي (٤-٥٩هـ)، ولي البصرة زمن عثمان - ﷺ - وافتتح بلاداً كثيرة في فارس، أثر عنه أنه كان يشتري الدور ثم يهدمها ويجعل منها شوارع. قال عنه علي - ﷺ -: ابن عامر سيد فتيان قريش.

انظر: طبقات ابن سعد، ٣٠/٥-٣٥. الكامل لابن الأثير، ٢٠٦/٣.



وأجمل ماقاله عن الكرم أن الكرام إذا نزل غريب الحي تقارعوا لإكرامه رغم فقرهم، فيقول :

«وَتَأخذهُمُ في سَاعةِ الجودِ هِزّةٌ ** كَمَاتَخايل المِطرابُ مِنْ نزوة الخمرِ
فَتَحْسَبهُم فِيهَا نَشَاوى مِنْ الْغِني ** وَهُمْ في جَلابيبِ الخصاصةِ والفقرِ
عَظِيمٌ عَلَيْهِم أَنْ يَبيتُوا بِلَا يَدٍ ** وهينٌ عَلَيْهم أنْ يَبيتُوا بِلَا وَفْرِ
إذا نزلَ الحيّ الغريبُ تَقَارَعُوا ** عليهِ فَلَمْ يُدرَ المِقلّ من المثري»[1].

ويتعجب **ابن الجوزي** قائلاً : «كيفَ انقلبتْ طباعُ الكرماءِ، فكانَ المالُ عِنْدَهم كالماءِ ... لَو تأمّلَ البخيلُ فَضْلَ مطلوبِ الكريمِ لَصَبَا، ويحكَ إنَّ أكبرَ شرفِ الكريمِ رَدّ لهفِ العَديمِ، ثمّ قلتُ: لَقَدْ ذكرتَ مِنْ أحوالِ الكرماءِ مَافيهِ مُعْتَبر، فَاذْكُرهُ مِنْ أحوالِ البخلاءِ مَافيهِ مُزْدَجر، فَقالَ سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الأَضْدَاد، وَفَرَّقَ بينَ العبادِ، أَمّا البخيلُ بالذهبِ، فماتَ وَذَهَبْ، وأما الكريمُ فعاشَ بعدَ الموتِ بما وَهَب»[2]، ثم ذكر قصة ثعلبة الذي طلب من الرسول - ﷺ - أن يسأل الله أن يرزقه مالاً، فلما أعطاه، رفض إعطاء الزكاة، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[3].

ثم قال : «كيفَ يحثُّ عَلَى إعطاءِ جنسهِ مَنْ يبخل بالْعَطَاءِ عَلَى نفسهِ؟ البخيلُ يملأ الوِجَارَ، وَالجَارُ جَائِع، ويحفظ العَرَض، والعِرْضُ ضَائع. البخيلُ مَعَ الوِجْدان ذو عَوز كلما برَزَ لَهُ سائِلٌ أرزٌ مَفْتُول الحاجبَين أَبَداً وقَدْ ضَاعَ المِفْتَاحُ، في أَخْلَاقهِ أخلاق دَنيَّة قِباح، مجموعها عُصَارة لُؤم في قرارة خبْث، فَذَاكَ ميتٌ في حياتِهِ، فإذَا نشرَ كانَ الطيُّ أصلح له ... بَشّرْ مالَ البخيلِ بحادثٍ أَوْ وَارثٍ»[4].

---

(١) المقامة نفسها، ص ٣٨١.
(٢) المقامة نفسها، ص ٣٨١.
(٣) سورة التوبة ، آية ٧٥.
(٤) المقامة نفسها، ص٣٨٢-٣٨٣، الوجار : البيت، أرزّ: انقبض وتجمع وتثبت.
انظر: اللسان، مادة : وجر، ومادة : رزز.



فبعد أن ذكر أحوال الكرام انقلب إلى ضدهم وهم البخلاء؛ لأن ذكر الضد يحث على عمل نقيضه، فحين يذكر البخل، ويعدد عيوبه ومساوئه يحث بذلك على تركه، والعمل على تجنبه والسعي إلى ضده للوصول إلى المحاسن من الأخلاق، قال تعالى ذاماً البخلاء: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا**﴾[١]. وقال – جل جلاله –: ﴿**فمنكم مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ**﴾[٢]، وقال: ﴿**وَلَايَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[٣].

وقال – ﷺ –: ((**إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم**))[٤]، وعنه – ﷺ – قال: ((**لايدخل الجنة خب ولامنان ولابخيل**))[٥]، وقال: ((**خصلتان لاتجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق**))[٦].

وقد ذم **ابن الجوزي** البخل حين جعله أحد أخلاق أبناء زمانه الذين ذمهم فقال: ((والأغنياءُ أَصْدَقاءُ البخلِ أَعْداءُ الحقوقِ ... الفقيرُ يتقلقلُ جُوعاً والمالُ في

---

(١) سورة النساء، آية ٣٧ .

(٢) سورة محمد، آية ٣٨ .

(٣) سورة آل عمران، آية ١٨٠.

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبدالله – ﷺ – بلفظ آخر، كتاب البر والصلة والآداب، باب (١٥): تحريم الظلم، ١٩٩٤/٤ وكذلك في مسند الإمام أحمد، ٣٢٣/٣ و ٤٣١/٢.

(٥) رواه الترمذي (١٩٦٣) من حديث أبي بكر الصديق – ﷺ –، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في البخيل، ٣٤٣/٤. ورواه الإمام أحمد، ٤/١ بلفظ مختلف.

(٦) رواه الترمذي (١٩٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري – ﷺ – في كتاب البر، باب ماجاء في البخيل، ٣٤٣/٤.



الصندوقِ))[١]، فالأغنياء يملكون المال. ومع ذلك يبخلون به، مع أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء – عليهم السلام – وهو أصل من أصول النجاة، وقد روى عن النبي – ﷺ – فيه أحاديث كثيرة، منها : ((**إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، وإن البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل، وأدوأ الداء البخل**))[٢].

وها هو ذا في مقامة أخرى يذكر الكرم ويمدحه، وبالمقابل يذم البخل ولايحبذه وذلك في مقامته ((في ذم البخل ومدح الكرم)) والتي تدور حول رجل أوصلته رحاله إلى جزيرة وهو في حالة يرثى لها، ثم سار إلى أن دخل مدينة ووجد على المنبر عالماً، ورئيس البلدة حاضر وطلب أن يسدوا جوعه، لكن لامجيب، عندها عرض العالم بالبخل والبخلاء لعل أحدهم يخرج من تلك الدائرة :

((الأيامُ صحائفُ الأعْمَالِ، فَخَلّدوها أَحْسَنَ ٱلأَعْمَالِ، الفُرَصُ تمرُّ مرَّ السَّحاب، والعجزُ عَن اسْتِدْرَاكِها شَأْنُ الخَوَالِف ... ولكن كفّ البخيلِ كَفَكٌ قَيْد، كُفّت كفه، شَلّتْ شَلاّ ماَيَنْفَتِقُ منه غُرْزَة، يعرق جسمُه كُلُّه إلاَّ اليَد ... ثُمَّ قَالَ: البخيلُ فعلٌ لازِمٌ لايتعدّى بجمعِ الدّراهم جَمْعَ الثُريّا، والأقدارُ تفرقها كبناتِ نَعشٍ.

وَمَنْ يُنفق الأعمارَ في جمعِ مَالهِ ** مخافَة فَقْرٍ فالذي فعلَ الفَقْرُ))[٣]

---

(١) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، لـ*ابن الجوزي*، ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٢) رواه الترمذي (١٩٦١) من حديث أبي هريرة – ﷺ –، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في السخاء، ٣٤٢/٤ دون قوله: ((وأدوأ الداء البخل))، وقال حديث غريب. ورواه الدارقطني بالزيادة الأخيرة.

(٣) ورد في مقامات *ابن الجوزي*، لعلي مهنا، ص ٤١٣: * من ينفق الساعات ... * وفي الهامش أورد أن البيت للمتنبي ، وهو كذلك، انظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ناصيف اليازجي، ص ١٩٦، ط٢.



ثم مال وقال :

مالُ البخيل أسيرٌ تحتَ خاتمه ** فليس يُطلَق إلا يومَ مأتَمه»[١]

ثم وجه الخطاب للغني :

«أظاعـــنٌ أنْتَ أم مُقيـــمُ ** يا أيُّها الموسر العَـــديمُ؟

أنْتَ لعمري خَـــراجُ قـــومٍ ** مسترَقٌ من هجـاكَ جِيمُ

ولما وجد الشيخ الرجل قد ندم على سؤاله،و لم يجد مجيباً يسد جوعه قال له: ويحكَ ماءُ الوجهِ في أيِّ إناءٍ وَضعتَهُ أضعْتَهُ. فهَلاَّ صرفْتَهُ إلى مَنْ بِالجودِ عَرَفْتَه سِرْ مَعِي إلى المنزلِ أواسِكَ ويكونُ رَأسي حِينَ أنزل مَعَ رَاسِكَ، ثم همَّ بالنزولِ عَنْ المنبرِ غَضباً عَلَى جماعتِهِ.

عندها رمىَ كُلُّ واحدٍ منهمْ إليَّ ثَوْباً مِنْ سَاعَتِهِ»[٢].

وهذا الذي قام به أبوالتقويم تجاه الرجل الذي أخرجه الجوع والعرى قد أسره، وفخ الفقر أسلمه، لم يكن ببعيد عما حدث على عهد رسول الله - ﷺ - في الحديث التالي مع اختلاف: عن أبي عمر وجرير بن عبدالله البجلي - رضي الله عنهما - قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله - ﷺ - فجاءه قوم عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، جُلتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله - ﷺ - لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال : ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[٣]، ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[٤].

---

(١) مقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم/ لابن الجوزي، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) سورة النساء، آية ١ .

(٤) سورة الحشر، آية ١٨ .



تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقّ تمرة.

قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت.

قال: ثم تتابعوا، حتى رأيت وجه رسول الله - ﷺ - يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله - ﷺ -: ((**من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولاينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولاينقص من أوزارهم شيء**))(١).

أما **الزمخشري** فقد بدأ ذكر الكرم بقوله : ((يَاأَبَا الْقَاسِمِ ضُرُوبُ السَّخَاءِ جَمَّةٌ، وَلَاتكادُ تُحْصِيها كَثْرَة، ولَيْسَ السَّخَاءُ كُلّ السَّخَاءِ:))(٢)

- أن يتلقى الضيف بكؤوس الشراب .
- ولا أن توقر الركائب يوم وصوله .
- ولا أن يكرم بتقديم الطعام في الجفنة البيضاء من كثرة الدسم والشحم.
- ولا أن تقدم الجوائز والهدايا كماحصل مع النابغةالذبياني الذي أجازه النعمان بمائة من عصافيره، أو كما يفعل بعض الملوك إذا أعجبهم بيت شاعر ملأوا فاه بالدرر.

كل هذا ليس سخاء عند **الزمخشري** ، إنما السخي : ((مَنْ أَنْزَلْتَ بِهِ أَمَلَكَ، فَتَسَخَّى عَلَيْكَ بما مَلك، فَمَاتَرَكَ كَرَماً إلاَّ أدْرَكَه،ولَاأدْرَكَ لُؤْماً إلا تَرَكَهُ))(٣).

لأن للإيثار مراتب؛ ومنزلة السخاء أولاها :

وهي : ((أن لاينقصه البذل، ولايصعب عليه))(٤).

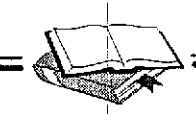
---

(١) رواه مسلم،كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ٦١/٨.

(٢) المقامة (٣٣): التصدق، للزمخشري، ص ١٩٥.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٩٧.

(٤) تهذيب مدارج السالكين، هذبه عبدالمنعم العربي، ٦٤١/٢.



ثم ذكر **الزمخشري** قوله : ((فَتَسخَّى عَلَيكَ بِمَا مَلَكَ ... وإِنْ أَخْفَى عَوْرتَكَ بِخُرَيْقَةٍ تَكْتَسِيها، أو أَطْفَأ سَوْرتَكَ بِمُرِيقَةٍ تَحتَسِيها))(١)، فهذا بداية الارتقاء في مدارج الإيثار وهي: ((أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لايخرم عليك ديناً، ولايقطع عليك طريقاً، ولايفسد عليك وقتاً، وذلك بأن تقدمهم على نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لايؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لايجوز في الدين، ومثل أن تؤثرهم بمالك وتقعد كلاً مضطراً، مستشرفاً للناس أو سائلاً))(٢).

وبعد ذكر **الزمخشري** لبداية الارتقاء في مدارج الإيثار، عرج على ذكر المرتبة التاسعة من الجود، فقال: ((فَإِنْ ضَاقَتْ عَنْ ذَلِكَ طَاقَتُه وَفَاقَت المَفَاقِرَ كُلَّها فَاقَتُه، فتلقَّاك بِبشرٍ يُونِسٍ، وخُلُقٍ يُونِقٍ، وتحيَّةٍ تَعْلُو، وكَلِمَةٍ تَحْلُو))(٣).

فهذه المرتبة هي : ((الجود بالخلق والبشر والبسطة، ... وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل مايوضع في الميزان، قال النبي – ﷺ –: ((**لاتحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**))(٤).

وفي هذا الجود من المنافع، والمسار، وأنواع المصالح مافيه))(٥).

ثم أخذ **الزمخشري** يحثنا على الكرم، ويبين لنا الكيفية وذلك، بأن لانترك الصدقة تذهب من بالنا، وأن يكون للعطية حظ من مالنا فيقول: ولأن الله جعلك سيداً على مالك، فسق لهذا المال الصدقة أي الصداق، وصداق المال: الصدقة على

---

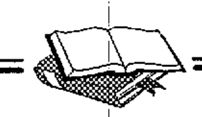
(١) المقامة نفسها، ص ١٩٧.

(٢) تهذيب مدارك السالكي، عبدالمنعم العزبي، ٦٤٧/٢.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) رواه مسلم برقم (١٤٤) عن أبي ذر – ﷺ –، كتاب البر، باب (٤٣): استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، ٢٠٢٦/٤، برواية : ((أن تلقى أخاك بوجه طلق))، رواه أحمد في مسنده، ١٧٢/٥، عن جابر بن سليم، وهو حديث صحيح.

(٥) تهذيب مدارج السالكين، عبدالمنعم العربي، ٦٤٦/٢.



الفقراء فا لله أعطاك هذا المال واستقرضك إياه من أجلهم لتنال فضلهم، ولاتنس المتعففين، وهؤلاء جعلهم ابن قيم الجوزية أصحاب المرتبة العاشرة من الجود، فقال:

((العاشرة : الجود بتركه مافي أيدي الناس عليهم، فلايتلفت إليه، ولايستشرف له بقلبه، ولايتعرض له بحاله، ولالسانه، .... فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ماتجود به على الناس، فجد عليهم بزهدك في أموالهم، ومافي أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة))[١].

وهذه الفئة من الناس هي من حث **الزمخشري** على عدم نسيانها بالكرم والعطايا فقال: ((وتعمد بها المتعففين))[٢]، حتى وإن كان هذا العطاء قليلاً؛ مادام لوجه ا لله، فقال:

((ولاتَمنعْ خَيْرَكَ لأَنَّهُ نَذْر، ... وَرُبَّما رَضَخْتَ اليَتيمَ بِالقيْراطِ وأطعمتَه الفُدْرَة، وأَنْتَ أَكْرمُ ممَّنْ عَقَر وممَّنْ سَبَّق البدْرَةَ ... وَعجِّلْ ماتهَبُ فَإنَّ مَاعَجَّلْتَ وإنْ قَلَّ، خَيْرٌ مما أجَّلْتَ وَإنْ جَلّ))[٣].

أما **بديع الزمان الهمذاني** فيبين لنا صوراً عدة للكرم، كإكرام الضيف وإن كان في ختام المقامة يظهر بطلها أبوالفتح الإسكندري محتالاً على أهل الدار؛ ليحصل على المال أو الطعام، إلا أن هذا لايمنعنا من إبراز صورة من الصور التي كان عليها مجتمع الهمذاني، وهي هاهنا إكرام الضيف، فمثلاً في مقامته الكوفية يقول على لسان الراوي عيسى بن هشام الذي كان مع رفيق له قد استكنا في الليل، فقرع عليهما الباب: ((فقلنا: من القارعُ المنتابُ؟ فقال: وفدُ الليل وبريدُهُ، وفلّ الجوعِ وطريدُه، وحُرٌّ قادَهُ الضُّرّ، والزّمَنُ المرّ، وضيفٌ وطؤُهُ خفيفٌ، وَضَالتُهُ رغيفٌ، وجَارٌ يَسْتَعْدِي على

(١) تهذيب مدارج السالكين، عبدالمنعم العربي، ٢/٦٤٦-٦٤٧.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٩٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٩٩-٢٠٠. الفدرة : القطعة من اللحم، اللسان، مادة: فدر. سبق البدرة: يقال بينهم بدرة : إذا حصل بينهم سيفٌ من غلب أخذها، اللسان، مادة: بدر.



الجوع، والجيبِ المرقوعِ، وغريبٌ أوقِدَتِ النَّارُ عَلَى سَفَرِه...»[١].

فهذا الضيف الذي طرق عليهم الباب وبين حاله لهم وأنه جمع إلى الجوع العري ولزمه ألم ظاهر الجسم، وألم بالأمعاء، ومع ذلك فهو لايريد أن يجشمهم عظيماً، ولايطلب منهم جسيماً، ولايثقل كواهلهم، بل إنما يود أن يشبع بطنه فحسب، على الرغم من أنه لاأمل له في العودة إلى وطنه؛ وكعادة العرب التي أمَّنَ عليها الإسلام لم يرد الضيف خاوي الوفاض، بل قبض ابن هشام من كيسه قبضة الليث وبعثها إليه، وإنما قال: قبضة الليث ليكني عن الكثرة والنوال.

وهذاحال المسلم لايترك ضيفه يغادر داره إلا وهو مسرور من إكرام مضيفه له

ويلحظ إكرام الضيف في المقامة الأسودية بصورة أوضح من سابقتها فهذا ابن هشام اتهم بمال أصابه، فهام على وجهه حتى وصل إلى البادية ورأى فتى ينشد شعراً يوافق لعبه مع أترابه، فسأله عن قائل الشعر ثم قال له : «يَافتَى العَرَبِ أدَّتْني إليكَ خِيفةٌ فَهَلْ عِنْدَكَ أَمْنٌ أو قِرىً؟ قالَ: بَيْتَ الأمْنِ نَزَلْتَ ، وَأَرْضَ القِرَى حَلَلْتَ...»[٢].

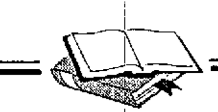
والمضيف هنا جمع بين كرمه وشجاعته، واقترن الجود والإقدام بيده فصارا سحابين:أحدهما ينقع الغلة ويحي موات الأرض ويعشب جديبها.وثانيهما ينزل كسفاً على قوم فيفنيهم ويستأصل شأفتهم وجاء هذا على لسان الفتاة التي قالت له: «اسْكُنْ يَاحَضَرِي» ثم بدأت تنشد الشعر لتبين حال المضيف، وتهدأ من روع الضيف:

« أيا حَضَرِي اسْكُنْ وَلَاتَخْشَ خِيفَةً ** فَأَنْتَ ببيتِ الأسودِ بن قِنَانِ
أَعزّ ابن أنثى مِنْ مَعَدّ وَيَعْرُب ** وَأَوْفَاهم عَهْداً بِكُلِّ مَكَانِ
وَأَضْرَبهِمْ بِالسَّيفِ مِنْ دُونِ جَارِهِ ** وَأطْعَنِهِمْ مِن دُونِه بِسِنَانِ

---

(١) المقامة (٥): الكوفية، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ٣٢-٣٣، محمد محيي الدين عبدالحميد.

(٢) المقامة (٢٧): شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٨٢، محمد محيي الدين عبدالحميد.



كأنَّ المنايَا والعطايَا بكفِّـــــــــهِ ** سَحَابَانِ مَقْرُونَانِ مُؤْتَلِفَان»[١]

ودخل إلى البيت الذي أشارت إليه فإذا به سبعة نفر، من بينهم أبوالفتح الإسكندري، والذي أجاب حين سأله عن سبب وجوده بأنه مثله جاء الدار؛ مستأمناً فأنزله صاحب الدار في المكان الرحب، وخيره من أمواله فاختار أطيبها وأكرمها.

ويظل بديع الزمان الهمذاني جاعلاً من بطل مقاماته مستغلاً لخلق الكرم، لينال مايحتاجه من المال.

إلا أن هذا الكرم طُلِبَ منه في مقامة أخرى، فإذا هو المضيف لكن بئست تلك الضيافة، فقد ظل يصف لهم ألوان الطعام، ثم يُثَنِّيْ بعدم وجوده[٢] .

وأما **ابن نباتة** فنراه يحث على الكرم حين وجه السؤال إلى من ادعى معرفته بنقد الشعر، فقال :

« لِمِنْ جوده؟ أَنْ يَغْرَفَ المالَ جُودُه ** فَمعروفُهُ يَاذَا إلى كُلِّ سَائِلِ

جَوادٌ يَكَادُ الجودُ يتلفُ مَالَـــــه ** وَقورٌ لَهُ سَمْعٌ إلى كُلِّ مَاْئِلِ»[٣]

فالممدوح في هذين البيتين بالكرم الذي عرف به؛ قد أصبح معروفاً إلى كل سائل، ومن شدة كرمه يكاد أن يتلف ماله، إلا أنه لايبالي، فالمال وفير بدليل قوله «يغرف» وإلى مثل هذا حث الإسلام، فالجود صفة حميدة من صفات المسلمين، فالغني يجود بشيء مما أعطاه الله على الفقير، قال رسول الله -ﷺ- : «**ياابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولاتلام على كفاف، وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السلفى**»[٤].

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٨٣.

(٢) انظر: المقامة (٣٤): النهيدية، ص ٢٤٤-٢٥٢.

(٣) مخطوط مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٩.

(٤) رواه الترمذي تحت رقم (٢٣٤٣)، عن أبي أمامة - ﷺ -، كتاب الزهد، باب (٣٢)، ٥٧٣/٤.



وهذا **ابن ناقيا** يذكر صورة من صور الكرم الذي اعتاده العربي، فيدعو غيره إلى طعامه؛ ليشاركه إياه حتى وإن لم يكن يعرفه مسبقاً فيقول: ((حَدَّثني بعضُ الشَّاميين قالَ: يممتُ العراقَ في بعضِ السِّنين فانتهيتُ إلى مَدينةِ السَّلام .. فَجُلْنَا في ضَمَاير مَحالِّهَا وَأسْوَاقِها حَتَّى كَشَفَتِ الظهيرةُ عَنْ سَاقِهَا ... فقلتُ لِصَاحبي: آتنَا غَدَاءنا ... فَصَادَفَ شَخْصاً بِالفِنَاءِ عَارِياً ... وَدَعوْنَاهُ إلى الطَّعامِ، فتثاقلَ عَنْ المقامِ، حَتَّى أقْسَمْنَا عَلَيهِ ..))[١].

فهذا الراوي لو لم يكن سخياً لما دعاه إلى الطعام، لأنه أراد تمثل قول رسول الله – ﷺ – : ((**السخي قريب من الله قريب من الجنة، قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار**))[٢].

إلا أن **ابن ناقيا** أورد صورة مخالفة لهذه في المقامة التي تليها مباشرة، لولا أنه تدارك الأمر في آخر المقامة، وتزحزح عن شحه، بعد أن وجد الإلحاح في السؤال من السائل، وإصراره للحصول على ماتجود به نفسه وبالتالي يده، يقول الراوي: ((فَاضْحَكَني قَولُهُ ورجعتُ عَنْ مَكْرُوهِهِ، واسْتَدعيتُ لَهُ شَيْئاً منْ الطَّعامِ، فتناولهُ مِنَ الغُلام))[٣].

وهذه ليست من شيم العرب، فالعربي يبادر بإعطاء السائل الطعام وربما قبل أن يسأله، فما بالك بالمسلم الذي يحرص على مساعدة أخيه المسلم، وربما نجد له عذراً في كون السائل طارق ليل..

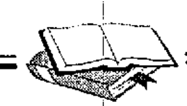
أما **الحريري** فنجده يحث على الكرم في قول أحد المسافرين للآخر حين سأله الثاني عن كيفية تعامله مع الناس فرد: ((واسْتَقِلَّ الجزَيلَ، للنَّزِيل))[٤]، أي أنه يقدم

(١) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٣ .

(٢) سبق تخريجه، ص ٦٦ .

(٣) المقامة الرابعة، مخطوط المقامات الشعر، لابن ناقيا، ص ١٠ .

(٤) المقامة (٤): الدمياطية، للحريري، ١/١٦٥.



لضيفه الكثير، ومع ذلك يراه قليلاً ، فإكرام الضيف من طبيعته، وطبيعة كل مسلم، لأنه يمتثل لقوله – ﷺ – : ((**من كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**))(١)، وبلفظ آخر، قال عليه السلام: ((**من كان يؤمن بـا لله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بـا لله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**))(٢)، وفي أثر آخر: ((**لاخير فيمن لايضيف**))(٣).

وفي مقامة أخرى حث على هذا الخلق الإسلامي : إكرام الضيف والذي استغله بطل مقاماته كثيراً إلا في المقامة التاسعة عشرة، فقد كان أبوزيد هو المضيف لصحبه الذين أتوا لزيارته بعد مرضه التي كان يظن أنه يودع فيها الدنيا، وقد أكرم ضيوفه أيما كرم وقدم لهم أنواع الطعام الذي أطلق على كل منه كنى لطيفة فقال بعد ماالتفت – أبوزيد – إلى شبله : ((إِنِّي لَإِخَالُ أباعَمْرة قَدْ أَضْرَمَ في أَحْشَائِهِم الجمْرَةَ، فاسْتَدْعِ أباجَامِع، فإنَّه بُشْرَى كُلِّ جَائِع، وَأَرْدِفْهُ بأَبِي نُعَيم، الصَّابِرِ عَلَى كُلِّ ضَيْم، ثُمَّ عَزِّزْ بِأَبي حَبِيْب المحُبَّب إِلى كُلِّ حَبِيْب...))(٤).

ثم نبه ابنه ألا يحضر الطست والإبريق إلا بعد انتهاء الطعام وأطلق عليهما (المرجفين)، لأن لهما عند أخذهما صوتاً بنقر أحدهما في الآخر، فكأن ذلك الصوت يرجف ويخبر بتمام الطعام ويحث على القيام إلا أنه ختم واجبات إكرام الضيف بأن طيبهم بالبخور.

---

(١) رواه البخاري، عن أبي هريرة – ﷺ – كتاب الأدب، باب قول الرسول من كان يؤمن بـا لله واليوم الآخر فلايؤذي جاره، ٨/١٣.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة – ﷺ – كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا من الخير وكون ذلك كله من الإيمان، ١/٤٩.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عقبة بن عامر – ﷺ –، ٤/١٥٥.

(٤) المقامة (١٩): النصيبية، للحريري، شرح الشريشي، ٢/٣٨٠، أبوجامع: الخوان، أبونعيم: الخبز، أبوحبيب: الجدي. انظر: اللسان، مادة : خون، خبز، جدى.



وأبوزيد السروجي في المقامة السالفة قد دعاهم للبقاء عنده حين أتوا لعيادته في مرضه، فلبوا، فأكرم وفادتهم.

أما لماذا أجابوا دعوته فلعل ذلك لمعرفتهم أن الإسلام حث عليها، واعتبر الممتنع عنها عاصياً، لقوله - ﷺ - : «**إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن شاء طعم وإن شاء ترك**»(١).

وعنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «**إذا دعا أحدكم أخاه فليجب: عرساً كان أو نحوه**»(٢).

وعنه ﷺ : «**من دعى فلم يجب فقد عصى الله ورسوله، ومن دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مغيراً - أي مختطفاً**»(٣).

فقد لبوا الدعوة لأنهم يحذرون الوقوع في معصية الله لقوله - ﷺ - في الحديث السابق «فقد عصى الله ورسوله»، ولإدخال السرور على داعيهم - أبوزيد السروجي - وإكرامه بقبولهم لدعوته لقوله - ﷺ - السابق .

وهذا ماحدا **بالحريري** أن يذكر في مقامة أخرى صورة من صور إكرام الضيف، وتلبية الدعوة من قبل الراوي - الحارث بن همام - لمضيفه الذي اتخذ من داره مكاناً لاستضافة القوم، والتي من أول صورها - الضيافة- إيقاد النار، والتي كانت من فعل حاتم الطائي فقد كان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه، فأوقد ناراً في يفاع من الأرض، لينظر إليها من أضل الطريق ليلاً فيهتدي إليها، ومن باقيها

---

(١) رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبدالله - ﷺ -، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة، ١٠٥٣/٢ . ورواه أبوداود (٣٧٤٠) كتاب الأطعمة، باب ماجاء في إجابة الدعوة، ٣٤١/٣.

(٢) رواه مسلم وغيره عن عبدالله بن عمر-ﷺ-،كتاب النكاح،باب الأمربإجابة الداعي إلىالدعوة ١٠٥٤/٢.ورواه أبوداود (٣٧٣٨)،كتاب الأطعمة، باب ماجاء في إجابة الدعوة، ٣٤٠/٣.

(٣) رواه أبوداود - عن عبدالله بن عمر - ﷺ - تحت رقم (٣٧٤١)، كتاب الأطعمة، باب ماجاء في إجابة الدعوة، ٣٤١/٣.



قوله: ((تَلقَّاني بمُحَيّاً حَيٍّ، وصَافَحني براحَة أَريَحي، واقْتَادني إلى بَيْتٍ عِشَارُه تَخُور، وأَعْشَارُه تَفُور، وَولائِدُه تَمور، وَموائِدُه تَدُور، وَبأكْسارِه أضْيَافٌ قَدْ جَلبَهُم جَالبي، وقُلِّبوا في قَالبي، وهُمْ يَجْتنُونَ فَاكِهةَ الشّتَاءِ، ويَمْرَحُون مَرَحَ ذي الفَتَاء...))[1].

فالمضيف هنا عمل بكل واجبات الضيافة ، فاستقبله بوجه حي، وصافحه بكف كريم يهتز للكرم، أما الدار فقد كانت معدة لاستقبال الضيوف من موائد وخدم تقوم على خدمة الأضياف، وقد وصف تلك الموائد بقوله: ((ولمَّا أنْ سَرَى الحَصْر، وانْسَرى الحَصَر أَتيْنا بَموائِد كالهَالاتِ دَوْراً، والرَّوْضَاتِ نَوراً، وقَدْ شُحِنَّ بأطْعِمة الوَلائم، وحُمِينَ منْ العَائبِ واللاَّئِم، فرفَضْنا مَاقِيلَ في البِطْنَة، وَرَأيْنا الإمْعَان فِيْها مِنْ الفِطْنة))[2].

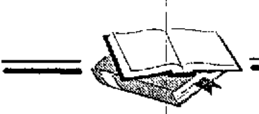
وكأنه وإياهم حين رأوا الطعام نسوا ماقيل في البطنة، ولبوا قضاء شهوة البطن، فخرجوا من كون تلبية الدعوة واجبة، ودخلوا بها ضمن مايمتنع من الإجابة والتي منها ((أن يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملاً في أبواب الدنيا، ولاتكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله – ﷺ – في قوله : ((**لو دعيت إلى كراع لأجبت**))[3]))[4].

ونخلص إلى أن هذا الخلق – الكرم – حث عليه معظم المقاميين إلا أن ابن الجوزي يذكره – غالباً – مع ضده؛ ليكون أدعى للتأثير، وأول صوره إكرام الضيف، وإطعام الطعام لمن يعرف ومن لايعرف، وإكرام السائل.

كما أظهرت – المقامات – معظم مراتب الجود: كالجود بالنفس، وبالرياسة، وبالراحة، وبالعلم، وبالنفع بالجاه، وبنفع البدن، وبالعرض، وبالصبر، وبالبشر

---

(١) المقامة (٤٤): الشتوية، للحريري، شرح الشريشي، ١٤٠/٥.
(٢) المقامة نفسها، ١٥٧/٥.
(٣) رواه مسلم عن ابن عمر – ﷺ –، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة برقم (١٤٢٩) ١٠٥٢/٢ عن عبدالرحمن بن مهدي برقم (١٤٣٠) ١٠٥٤/٢.
(٤) حق المسلم على المسلم، طه عبدا لله العفيفي، ص ٨٠.



والبسطة، وبترك مافي أيدي الناس، وبينت آداب المضيف مع ضيفه، وإكرام الخادم، كما أعطت صوراً للكرم ممثلة في أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وطلحة - رضي الله عنهم -، ورغم أن **ابن الجوزي** عاب على بعض أهل زمانه بخلهم، إلا أنه شاد بالبعض الآخر الذين كانوا يقترعون إذا نزل غريب؛ لإكرامه، وهذا الإيثار أعلى مرتبة من الجود والسخاء اللذين حث عليهما كثيراً **الزمخشري**، وبين الكيفية التي يكون بها الانسان كريماً؛ وذلك بالصدقة على الفقراء؛ لأنها صداق المال.

حسن الصحبة أو المصاحبة :

التعريف بها :

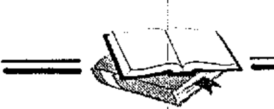
((كلمة ((المصاحبة)) فيها معنى الملازمة، ولذلك تقول العرب: إنَّ الصَّاحِب هو: الملازم، سواء أكانت المصاحبة حسية بالبدن - وهو الأصل والأكثر - أم كانت معنوية بالاهتمام والعناية على حد قول القائل :

لئن غبتَ عَنْ عَيْنِي ** لَمَا غبتَ عَنْ قَلْبِي

والمصاحبة أبلغ من الاجتماع، لأن المصاحبة تقتضي طول اللبث أو الدوام، ولذلك يقال: كل مصاحبة يكون معها اجتماع، وليس كل اجتماع يكون مصاحبة، ومن هنا عبر القرآن الكريم عن المقيمين في النعيم بقوله : ((أصحاب الجنة))، وعبر عن الباقين الخالدين في العذاب بأنهم ((أصحاب النار)) أو ((أصحاب الجحيم)).

وقد تطلق كلمة ((المعاشرة)) على معنى ((المصاحبة)) ولذلك قالت العرب: صحب وصاحب بمعنى عاشر...

والمفهوم الأخلاقي لفضيلة ((المصاحبة بالمعروف)) أو ((المعاشرة بالمعروف)) هو أن يصحب الإنسان من يصحبه بحسن الفعال،وطيب الأقوال،ومحبوب الأحوال،



ومعاملة الصاحب بمثل مانحب ونتمنى أن يعاملنا به، وهذه المعاملة فضيلة أخلاقية قرآنية كريمة، تحدث كتاب الله عنها وحث عليها»[١].

وتعرّض **ابن الجوزي** للصحبة في مقامته «في حسن الصحبة والمداراة» حين سأل ضيفه قائلاً: «ماتقولُ في صحبةِ الإخوان؟ فقالَ: وهَلْ بَقِيَ إلاّ خَوّان. فَعَاشِرِ النَّاس بالظَّاهِرِ والإعْلاَن، وَلاَتطَالِبهم لخلوصِ السَّرَائِرِ وَالجِنْمَان، فَقَدْ دَخَلَ المخلِصُونَ في خَبرِ كَان.

همومُ زَمَاني في أمورٍ كَثِيرةٍ ** وهمِّي مِنَ الدُّنيا صَديقٌ مساعِدُ
نصيرُ كَرُوحٍ بينَ جسمين فُرِّقَا ** فجسماهما جِسمَانِ وَالرُّوحِ وَاحِدُ

قلتُ : أو أعَاشِرُ مَنْ ذَا وَقْتُهُ قالَ: نَعم باشِرْ فماذَا وَقتُه.إنَّكَ إنْ طلبتَ الصَحِيْحَ لم تَجِدْ، وإنْ طالَبْتَ الشَحِيْحَ لم يَجُدْ... ويحكَ إنَّ العاقلَ يُداري كلَّ شخصٍ بما يَصلحُ له، فإنَّ صُحبَة العَاقِلِ للبهائِم أحوجتِ الفصح أنْ يقولَ للذُّبابِ: إكشْ. ثُمَّ قالَ:كُلّ صَاحِبٍ يُخَالِط فالواجب عَلَيهِ أَنْ يُنزلَ الأصحابَ بمنزلةِ الشَّعرِ: فإنَّ مِنْهُ مَايكرَم وَيخدَم ولاينحىّ كشعرِ الرّأس ومنه مَايُقصُ إذَا طَالَ كالشَّاربِ، والبَّاقي يُستَأْصَلْ»[٢].

ثم أخذ يشبه الأصدقاء فقال: – «الصديقُ الصَدوقُ لايحتاجُ إلى مداراةٍ، كَحَلْوى السّكر تُحَرِكُهَا في فِيكَ وقد عَبرَتْ، وَمِنَ المَعَاشِرينَ كلحمِ البَقر يُتعِبُ الإنسانَ في مضغِهِ والمِعدَة في هضمِهِ، وَمنهم كالفُجلِ لاَينهضمُ أَصْلاً، وَأنشد:

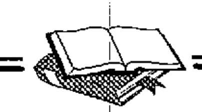
لاتركَننّ إلى هذا الزمانِ وَلَا ** أبنائِه ساعةً وَاستعملْ الحَذَرَا
فَإنْ أبيتَ فجرّب مَنْ تعاشره ** حتّى يقولَ لَكَ التجريبُ:كيفَ تَرَى؟»[٣].

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ٣/٧٠-٧١.

(٢) المقامة (٢٢)، ص١٨٥-١٨٦، كش: صوت للزجر، ومنه كلمة كشيش: صوت الأفعى، والجمل أول هديره، انظر: اللسان، مادة: كشش.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٨٦.



ولما أراد أن يبين أثر الصاحب شبهه فقال : ((الصاحب كالرقعة في الثوب إذا لم تُشَاكِلْهُ شَانته، وأنشد :

أَرَىَ خُلاً تُصَانُ وَلاَتهَـان ** وَأعْرَاضـاً تهَـانُ ولاتُصـانُ

يقولونَ الزمانُ بهِ فَسَـادٌ ** وهُمْ فَسَدُوا وَمَافَسَدَ الزَّمَانُ))(١).

وقد مثل صلوات الله وسلامه عليه لكل نوع من الأصدقاء فقال: عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ((**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة**))(٢).

فابن الجوزي حث على الصحبة الحسنة بالتمثيل لمنزلة كل، وكذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - جاء الحث بالتمثيل لكل، وطبيعي أن المرء لايجلب ويختار إلا ماينفعه، فيصادق الصديق الصدوق الذي لايحتاج إلى مداراة، والذي مثل له ابن الجوزي بأنه كحلوى السكر تحركها في فيك وقد عبرت، وتصادق الجليس الصالح الذي مثل له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحامل المسك.

لكن ابن الجوزي أراد أن يبين كل مايتعرض له الفرد من أصدقائه فقال: ((إنَّ أَصْدِقَائي يُطْروني حَتَّى يُطْغُوني، فَردَّ أبوالتقويم: مَنْ وَصَفكَ بمَالَيْسَ فِيكَ فَقَدْ هَجَاكَ، قلتُ: وَيبْلُغني عَنْهم مَالاَيصلحُ، فقالَ: عورةُ الجاهِلِ بينَ فَكيهِ...))(٣).

ثم أخذ ينعي عدم وجود الأصدقاء الأوفياء فقال :

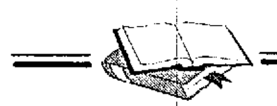
((يَامَنْ يرومُ صديقَ صِـد ** قٍ بعدَ مَافَسَـدَ الأَنَامُ

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢) [يحذيك : يعطيك]، انظر: اللسان، مادة: حذى، رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، ٨/٣٧-٣٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٨٧.



ذَهَبَ الصَّديقُ وصَارَ حُلْـــ ** ـــمًا مثل ماذهبَ الكِرَامُ
فتعـــــزَّ عَمّا فَـــاتَ مِنـــ ** ـــهُ فَلَيْسَ يوجَدُ والسَّلامُ

ثم قال ويحك كان الناس أصدقاء فدخلوا في خبر كان ... ويحك الصديق الصدوق ثاني النفس، وثالث العين، لقاؤه روح الحياة، وفراقه سم الحيات :

طلبتُ صديقاً في البريةِ كُلِّهــا ** فَأَعْيَا طِلاَبي أنْ أُصيبَ صَدِيقا
بلى من تسمّى بالصديقِ عبارةً ** وَلَمْ يَكُ في مِعْنَى الوِدَادِ صَدُوقَا
فَطَلّقتُ وُدَّ الْعَالمين صريمَـــــةً ** فأصبحتُ مِن أَسْرِ الوِدادِ طَلِيقَا»[١]

ومازال مستمراً في إظهار المعاناة لمن يبحث عن صديق وفي، وأن عليه أن يتأكد، ولاينخدع بالمظاهر البراقة فقال :

«فَلاَتغشَّ وَلاَتخدعك بَارِقَــةً ** من ذي خِداعٍ يُرى بِشراً وَأَلطافا
فلو قَلَيْت جميعَ النّاسِ قَاطِبــةً ** وسرتَ في الأرضِ أوْسَاطاً وَأَطْرَافا
لم تلقَ فيها صديقاً صادقاً أبداً ** ولاأخا يَبْذُل الإنصاف إنْ صَافَى»[٢]

وآخر ماحث عليه **ابن الجوزي** الصديق تجاه صديقه هو: تقديم النصح له إذا مارأى منكراً منه فقال:«فَإِنْ رأيتَ مِن إخْواني مُنْكراً، فصاحَ انصح إنْ صَحّ»[٣].

نعم انصح، لأن رسول الله -ﷺ- قال في حديثه الشريف: «**الدين النصيحة. قلنا لمن يارسول الله؟. قال: لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٤].

«وقد ذكر العلماء أن النصيحة لله: هي صحّة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله: هي التصديق به والعمل بما فيه،

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٨.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) رواه مسلم برقم (٩٥) عن تميم الداري - ﷺ - كتاب الإيمان، باب (٢٣): بيان أن الدين النصيحة، ٧٤/١. ورواه أبوداود (٤٩٤٤)، كتاب الأدب، باب في النصيحة، ٢٨٦/٤.



والنصيحة للرسول: هي التصديق بنبوته ورسالته، والانقياد لما أمر به ونهى عنه، والنصيحة لعامة المسلمين: هي ارشادهم إلى مصالحهم. ونفهم من السنة المطهرة أن النصيحة تصبح واجبة إذا طلبها الأخ من أخيه في ا لله، ويدل على ذلك قول سيدنا رسول ا لله – ﷺ – : ((**إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه**))[1]))[2].

وفي مقامة أخرى قال **ابن الجوزي** مبيناً صفةً من صفات الأخ في ا لله وهي؛ إسداء النصيحة: ((صحبتُ أباالتَقْويم وكان سَيّدَ العُقَلاءِ، فكنتُ أستشيرُهُ في المدائنِ وفي الْفَلَا ... فأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْقِدَ الأَوَاخِي بأَنْ أُوَاخِي مَنْ لاأَرَى لَهُ مِثْلاً، وَلَامَثَلَا، فعرضتُ مَوَدَّتَهُ عَلَى قَلْبِي فَصَاحَ لِيِّ حَيَّ هَلاَ.

إذَا ماظفرتَ بودِّ امْرِيءٍ ** قَليل الخِلَافِ عَلَى صَاحبِهِ
فَلَاتعْدِلَنَّ بـِهِ نِعْمَـةً ** وَعَلِّقْ يَمينكَ يَاصَاحِ بِهِ))[3]

فقد طلب وده، ومحبته، وكذا الانسان إن قيض له صحبة حسنة، فهي نعمة لاتعدلها نعمة، لأن الرسول – ﷺ – قال: ((**من أراد ا لله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه**))[4].

وهذا الصاحب يحب، ويزار، بل إن مفارقته لاتسعد القلب، لأن من يجالسه لايمل من الجلوس إليه، بل ينهل من معين علمه، ويستنير باستشارته، لأنه أهل لذلك بل هو أقرب إلى النفس من الأهل والولد. كما قال **ابن الجوزي**: ((فقلتُ : وماشبعت مِن الزَّادِ بَعْد، فقالَ: كُلّ علمٍ تَطْلبه عَلَيَّ سَهْل، وأنتَ اليومَ مِن الْأَهْلِ، فَقَدْ أمنتَ مِنِّ الفوتَ، إلَّا أَنْ يفرِّقَ بينْنَا الموت، فَاسْتَغنيتُ بِعلومهِ عَنْ كُلِّ أَحَد، وَاسْتَرَحْتُ أَنْ أرحلَ لِطلبهِ إلَى بَلَد، وَصِرْتُ سَلْمَانَ بَيْتِهِ وَأَبَا هُريرة مَجْلِسِهِ، وَأَنَس

---

(١) رواه ابن ماجه، عن جابر – ﷺ – كتاب الآداب، باب المستشار مؤتمن، ٢/١٢٣٣.
(٢) موسوعة أخلاق القرآن، للشرباصي، ٥/١٣٦.
(٣) المقامة (٥٠): في الأخ الصادق، ص٤٠٩-٤١٠. الأواخي: جمعُ آخية، وهي عُوَيدٌ يعرض في الحائط تشدُّ إليه الدابة، انظر: اللسان، مادة: أخى.
(٤) رواه الإمام أحمد عن عائشة – رضي ا لله عنها- بلفظ آخر ٦/٧٠.

خِدمته، وَحَسّان مَادحتهِ، وكانَ سُروري لَايفَي بِندامَتي علَى تَرِكهِ في عَهْدِي المتقـادم، ثُمّ صَارَ يَخصُّني بِأَسرارٍ لَاتحتمِلُ الإظْهَار))(١).

فهذا الصاحب هو الذي قال فيه رسول الله – ﷺ –: ((**المؤمن آلف مألوف ولاخير فيمن لايألف ولايؤلف**))(٢). وعنه – ﷺ – قال: ((**إن الله تعالى يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي**))(٣).

وذكر **ابن الجوزي** هنا أحد حقوق الصحبة فقال: ((ثُمَّ صَارَ يَخصُّني بِأَسْرارٍ لاتحتمِلُ))، فللصاحب حق لأخيه في لسانه؛ ((وذلك بالسكوت مرة وبالنطق أخرى. أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولايماريه ولايناقشه، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، ... وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ولايبثها إلى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه، ولايكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع، وخبث الباطن))(٤).

أما **الزمخشري** فيذكر صفات جمة للأصحاب الذين لايجب مجالستهم، وفي هذا وعظ وحث على الجلوس مع أضدادهم، فذكر الضد يغري ويحث على البحث عن ضده، فها هو ذا يقول: ((إذَ فُوجِئْتَ بِمُشَافَنَةِ بَعضِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَخَذَكَ اللهُ بِبُغْضِهِم فَضَربَ بَيْنَكَ وَبيْنَ مَاكُنْتَ فِيه بِأَسْداد، وَرمَاكَ بِأُمورٍ منْ تِلكَ الأُوَلِ بِأَضْداد، وافْتَنَّ

---

(١) المقامة نفسها، ص ٤١٣.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ٢/٤٠٠، ٥/٣٢٥.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ (١٧٣٥) في كتاب الشعر، باب (١٦) عن معاذ بن جبل – ﷺ – باختلاف يسير. ورواه الإمام أحمد بسنده وبلفظ مختلف وزيادة من حديث عبادة بن الصامت – ﷺ –، ٤/٣٨٦، ٥/٢٢٩، ٥/٢٣٧.

(٤) موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ٢٠٤.

في الأحَاديثِ كَحَاطِب اللَّيْل... مُلْقياً أَسْبَاب الفِتَنِ بَيْنَ يدَي افتِنَانِه مُخَلِّفاً لـلآدابِ والسُّنَنِ وَراءَ استِنَانِهِ، لايدفع في صدره من حياء دافع ...))[1].

وقد بين أن هذا الصاحب إن استمعت إليه ((ولَمْ تُقبِل عَليْه بِوجْهكَ وَصفَكَ بالكِبْرياءِ، وإنْ لَم تُرعِه سَمْعَكَ نَسبَكَ إلى الرِّياءِ..))[2].

وما إذا وافقته ((فَكِلاَكُمَا والشَّيْطَانَ المريد))[3].

وختم المقامة بأن وصف هذا الصاحب، ووجوده في حياته محنة، وفتنة فقال: ((فَيالَها مِحْنةً ماأَضَرَّها، ويَالَهَا فِتْنةً وَقَى ا للهُ شَرَّهَا))[4].

وبعد أن ذكر بعض صفات الصاحب الذي تتجنبه، وتبعد عنه، نوه في مقامة أخرى بأن هذا الصاحب يجب أن يذكرك دوماً بالموت، وسكراته، حتى لاتسدر في غيك، وتجرفك الدنيا ومشاغلها عن الآخرة، والإعداد لها، فقال يعظ بأن يكون فكرك مصاحباً لمآل كل انسان ألا وهو الموت :((دَوام الفِكْـرَ في سَكَراتِ شعوب، فَافْعَل صَحِبكَ التّوفيق، وَنعمَ الصَّاحِب والرَّفِيق))[5].

فقد مدح هذه الصحبة، فقال: نعم الصاحب والرفيق تفكرك الدائم في الموت.

وفي المقامة الثالثة والأربعين حث **الزمخشري** الإنسان على مصاحبة أخ له صفات بينها بقوله : ((ولاَتَنْشَط إلاَّ إلى زائرٍ إنْ ضللتَ عَنِ المحجَّةِ أَرْشَد، وإنْ أَضْلَلْتَ الحجّةَ أَنْشَدَ، وإنْ خَفِي عَلَيْكَ الصَّوابُ جَلّى، وإنْ أصَابكَ هَمٌّ في دينكَ سَلّى، لايَزُورَكَ إلاَّ لِيوصِيكَ بالحقِّ وَيَنْصَحَكَ، وَيَرْأَبَ ثَأْيُكَ وَيُصْلِحَكَ، وَيُعَالجكَ مِن

(١) المقامة (١٩): العزلة، للزمخشري، ص١١٣، ت: يوسف بقاعي، مثافنة: مجالسة: ثافن: لازم. انظر: اللسان، مادة: ثفن.

(٢) المقامة نفسها، ص ١١٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ١١٥.

(٤) المقامة نفسها، ص ١١٦.

(٥) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة ، للزمخشري، ص ١٧٩، ت: يوسف بقاعي. شعوب: المنية يقال لها شعوب، انظر: اللسان مادة شعب.

مَرضِكَ وشَكَاتِك، بما يصفُ من أمرِ مُبْكياتِك، لا أَمْرِ مُضْحكَاتِكَ، ذَاكَ لايتنفَّسُ في جَنابِكَ إلا عَبَقَ نسِيمُ الفِرْدَوْس بثِيَابِك، ولايخطِرُ في عَرصَةِ دَارِك إلاّ أصبحتْ مُبَارَكة، وَبسَطَتْ أجْنحَتها فيِهْا الملائِكة، فَلاَتبْغِ بهِ بَدَلاً وإنْ أَفاءَ عَليْكَ بِيْضَ النِّعَم،وسَاق إلِيْكَ حُمر النَّعَمْ))(١).

لقد ذكر الزمخشري في المقامة السالفة الذكر الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته، لأنه لايصلح للصحبة كل إنسان، قال - ﷺ - : ((**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**))(٢).

ولابد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته، ذكر بعضاً منها الزمخشري في المقامة السابقة وهي في جملتها: أن يكون عاقلاً حسن الخلق، غير فاسق، ولاحريص على الدنيا، أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصل، فلاخير في صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتهما وإن طالت، وقد قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله. وأما حسن الخلق فلابد منه، فإن من غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن وأطاع هواه فلاخير في صحبته. وأما الفاسق المصر على فسقه فلافائدة في صحبته، بل مشاهدته تهون أمر المعصية على النفس وتبطل نفرة القلب عنها، ولأن من لايخاف الله لاتؤمن غائلته، ولايوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأعراض، قال الله تعالى: ﴿**وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾(٣).

ولعلك لحظت تردد لفظ الأخوة بدل الصحبة، لأن أخوة الإسلام أعم وينطوي في معنى الأخوة: الصداقة والصحبة إلا أن لكل منها درجات، وللأخوة والصحبة حقوقاً: حقاً في المال، وفي الإعانة بالنفس، وفي اللسان والقلب، وفي العفو، وفي الدعاء، وفي الوفاء والإخلاص، وفي التخفيف، وفي ترك التكلف والتكليف.

---

(١) الخمول، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب الزهد، باب (٤٩)، ٥٨٩/٤.

(٣) سورة الكهف، آية ٢٨.

وهذا **البديع** يذكر الصحبة الحسنة في السفر قائلاً على لسان الراوي عيسى ابن هشام: «اتَّفقتْ لي حاجةٌ بحمصَ، فَشَحَذَتْ إليها الحِرْصَ، في صُحْبةٍ أَفْرادٍ كنجومِ اللَّيل، أحلاسٍ لظهورِ الخيْل»(١).

فقوله في وصف رفاقه إنهم فرسان لايغادرون متون الخيل، ولايفترون عن ركوبها، ذِكْرٌ لحق من حقوق الصحبة ةوهو : الإعانة بالنفس، فهؤلاء لايفارقون ظهور خيولهم؛ لأنهم على أهبة الاستعداد ليدفعوا عن بعضهم غائلة الطريق.

وفي مقامة ثانية يصف مجموعة جمعتهم الأخوة فيقول : «كُنْتُ بالأهْوَازِ في رُفْقَةٍ مَتى ماتَرَقَّ العَيْنُ فيهِمْ تَسَهَّلِ، لَيْسَ فينَا إلَّا أمْرَدُ بكْرُ الآمال، أو مُخْتَطٌّ حَسَنُ الإقْبالِ، مَرْجُوُّ الأيَّامِ واللَّيال، فَأَفَضْنَا في العِشْرَةِ كَيْفَ نَضَعُ قَوَاعِدَهَا، والأخُوَّةِ كَيْفَ نُحْكِمُ مَعَاقِدَهَا، والسُّرورِ في أيِّ وقتٍ نَتقَاضَاهُ، والأنْسِ كَيْفَ نَتهَادَاهُ، وفَائِتِ الحظِّ كيفَ نَتَلَافَاهُ ...»(٢).

وقوله : «مَرْجُوُّ الأيَّامِ واللَّيالِ» يريد أن أفراد هذه الجماعة كلهم كانوا من الأحداث صغار السن، فإما أمرد لم ينبت شاربه، وإما فتى خط شاربه، ولكنه لايزال غضا فتي القوة، مفتول الساعد، نافعاً في الكروب، مأمولاً عند الشدائد.

وقوله : «السُّرور في أيِّ وَقْتٍ نَتقَاضَاهُ ... » أي أنهم أرادوا أن ينظموا أوقات سمرهم ، ويُعَيِّنُوا ساعات لهوهم، ويضعوا نموذج الصداقة والمؤاخاة، بحيث تكون أعمالهم جارية على مقتضاه.

---

(١) المقامة (٦): الأسدية، لبديع الزمان الهمذاني، ص ٣٦، أحلاس : جمع حلس، وهم الذين يلازمون الشيء، ولاينفكون عنه، اللسان، مادة : حلس .

(٢) المقامة (١١): الأهوازية، لبديع الزمان الهمذاني، ص ٦٦. شرح المقامات محمد محيي الدين عبدالحميد.

وفي المقامة التاسعة والأربعين يحث على اتخاذالأصدقاءالمخلصين،من خلال ذكر الراوي عيسى بن هشام لذلك قائلاً: ((واتخذْتُ إخواناً لِلْمِقَةِ،وآخَرينَ للنَّفَقَةِ))(١).

فإخوان المقة : هم أصدقاء المحبة والوداد، وألّاف الإخلاص الذين يستنصر بهم، ويستصرخون في الشدة، إذا حزبه أمر أو نزلت به كارثة، والمعنى أنه جعل أخلاءه نوعين:

– نوع تجمعه بهم المحبة الأكيدة والوداد المحض، وادخره للنوازل والخطوب.

– ونوع تدعوه إليهم مجالس الأنس، وأوقات المسرة من أهل الظرف، والمروءة، ووداعة الأخلاق، ليتشاركوا في المأكل والمشرب ونحوهما من دواعي الطرب وبواعث الارتياح. إذن لايصلح للصحبة كل أحد، ولابد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، وهي: ((إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة. وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يكدر القلب، ويصد عن العبادة، ومنها الاستعانة في المهمات، فتكون عدة في المصائب، وقوة في الأحوال))(٢).

وهذا ماعناه **البديع** هنا، فكلا النوعين اتخذ: إخواناً للمقة وإخواناً للنفقة.

وهذا **ابن نباتة** يشير إلى مايحدث بين الأصحاب فيقول: ((إنَّه الْعَجَبُ الْعَجِيب لَوْ أَنَّكَ بِغيرِ مَاأَجَابُوا مُجِيب، وبعيد أَنْ تختلفَ الْقُرَنَاء أَوْ تَرى الخيانةَ الأمناءُ، فَرَدّوا عَلَيهِ قَولَه، واسْتَداروا حَوْلَه، وقَالُوا: إنَّكَ قَدْ أبت مَالَاتَسْتَحِقه، وَبَيْنَنَا مِنْ الصُّحْبَةِ مَاقَدْ علم حَقُّهُ، وَكُل مِنّا قَدْ بَذَلَ جُهْدَهُ وَأَظْهَرَ مَاعِنْدَه))(٣).

---

(١) المقامة الخمرية، ص ٤١٥، شرح مقامات البديع، محمد محيي الدين عبدالحميد، المقة: المحبة، وقد ومقه يمقه : أي أحبه فهو وامق، انظر: اللسان، مادة ومق.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، ص٩٩.

(٣) مخطوط مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٧ .



فالرواي يذكر أنه من العجيب أن أحدهم يجيب إجابة مختلفة عن قرنائه، فالصحبة التي بينهم تجعله يسير وفق ماساروا، ويجيب بمثل ماأجابوا، إلا أن الرفقاء استاءوا من الشيخ الذي رد على كل منهم قوله، وقد بذلوا جهدهم وأظهروا ماعندهم، وكان عليه حقوق للصحبة التي تجمعه بهم فلايبدى اللوم بهذا الذي عدل عن رفاقه في تشبيه الزهر، إلى ذكر وجه النهر، إلا أن الشيخ – حين ذكر بحق الصحبة– عمد إلى توضيح سبب لومه وهو : ((وَأَي شَيءٍ أَقْبَحُ مِنَ الانتسابِ إِلَى غَيرِ الاكْتِسَابِ))(١).

وهذا نعم الصاحب، فهو لم يرض أن يسكت عن الخطأ الذي وقع فيه صاحبه حتى وإن تعرض للوم، فكان عليه أن يعينه بتصحيح خطئه، لأنَّ: ((**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**))(٢). وأشار بقوله: ((أو تَرَى الخيانةَ الأمناءُ))، إلى أن الخيانة لايجب أن تكون بين القرناء لقوله – ﷺ – : ((**من ضار ضار ا لله به، ومن شاق شاق ا لله عليه**))(٣).

وأما **ابن ناقيا** فقد ذكر حسن الصحبة، وكأنه يشير من طرف خفي إلى الحث عليها حين قال على لسان الراوي : ((فقلتُ لَهُ: يَاهَذَا ابْشِرْ بِقرابِ الدَّارِ، وَالرَّفيقِ السَّار))(٤).

فهذا يعده بصحبة ورفقة تسره، لأن من حق المسلم على المسلم أن يفرج كربة أخيه، ويدخل السرور إلى قلبه، فالرواي حين وجد هذا الرجل يدعي أن الغربة تكاد

---

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ٢٠/٨. ورواه الترمذي تحت رقم (١٩٢٨)، عن أبي موسى الأشعري – ﷺ –، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في شفقة المسلم على المسلم، ٣٢٥/٤

(٣) رواه الترمذي تحت رقم(١٩٤٠)، عن أبي خرمة – ﷺ –، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الخيانة والغش، ٣٣٢/٤.

(٤) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٧ .

تقضي عليه، وهو بعيد عن داره وأهله، سرى عنه، وأبعد الهم، وطرد الحزن؛ بوعده إياه أن يكون نعم الرفيق له أثناء عودته للبلد، والاجتماع بالأهل والولد. فيكون بذلك المسلم الحق الذي تمثل قول الرسول - ﷺ -: ((**بشروا ولاتنفروا، ويسروا ولاتعسروا**)).(١)

وفي مقامة أخرى يبين **ابن ناقيا** صفة من صفات القرناء لكنها تنفر ممن يتصف بها،وأبان ذلك في قوله:((فلَمْ نَزَلْ نختلسُ الطَّريقَ إلى القصدِونُحاذِرُ صُحْبَةَ قَرِينٍ وَغْدٍ))(٢)، إلا أن الذي خافوا منه وقعوا فيه،حين انضم إليهم((شخص من البشر كأنه قطعة حجر ثقيل الوطأة))جعلهم في نهاية المجلس ينهضون هرباًمن المكان الذي هو فيه.

وقد روي أن رجلاً استأذن على النبي - ﷺ -، فقال: ((بئس ابن العشيرة)) أو ((بئس رجل العشيرة))، ثم قال ((إيذنوا له)) فلما دخل ألان لـه القول، فقالت عائشة يارسول الله ، ألنت له القول، وقد قلت له ماقلت، قال: ((**إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من ودعه، أو تركه الناس لاتقاء فحشه**))(٣).

أما **الحريري** فها هو ذا يقول في مقامته الرابعة: ((وأحتملُ الخليطَ ولَوْ أبْدَى التَّخْلِيط، وَأودّ الحَمِيمَ، ولَوْ جَرّعَني الحَمِيم ... وَأُولي مُرَافِقي، مَرَافِقي، وَأُلِينُ مَقَالي، لِلقَالي، وَأُدِيمُ تَسَآلي، عَنْ السَّالي))(٤).

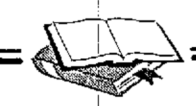
---

(١) رواه الترمذي تحت رقم (٤٨٣٥)، عن أبي موسى - ﷺ-، كتاب الأدب، باب في كراهية المراء، ٢٦٠/٤.

(٢) المقامة (٦)، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ١٦ .

(٣) رواه مسلم،كتاب البر والصلة،باب مداراة من يتقى فحشه، ٢١/٨. ورواه الترمذي تحت رقم (٤٧٩١) عن عائشة - رضي الله عنها -،كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، ٢٥١/٤.

(٤) الدّمياطية، شرح الشريشي، ١٦٣/١، مرافقي : جمع مرفقة وهي المعونة، اللسان، مادة: رفق. والخليط: الصاحب، اللسان، مادة : خلط . الحميم: الأول بمعنى الصديق المقرب، والثاني: الماء الحار، انظر: اللسان، مادة: حمم، القالي: المبغض، اللسان، مادة: قلى. السالي : المداوم في السؤال، اللسان، مادة : سلا .



فالتودد للصاحب، والمعاشر مما حث عليه الإسلام، فهـذا رسـول ا لله – ﷺ- يقول: ((**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثـل الجسـد، إذا اشـتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**))(١).

وفي قول **الحريري** : ((ولَأتَظَلَّمْ، حِينَ أُظْلَم، ولأنْقِم ولَوْ لَدغَني الأرْقَـم))(٢) حث على احتمال الأذى، وعدم التفكير في الانتقام ممن يظلمك ومثلـه الأعلى في ذلك رسول ا لله – ﷺ –، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: كأني أنظـر إلى رسـول ا لله – ﷺ – يحكي نبياً من الأنبياء، صلواته وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: ((**اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون**))(٣).

كل ماسبق سمعه الراوي الحارث بن همام مـن أحـد الاثنـين اللذيـن يتسـامران وسنعرض للآخر الذي رد على الأول قوله : ((وَيْكَ يَابُنَيّ! إنَّمَا يُضَنُّ بالضَّنِين، ويُنَافَسُ في الثَّمِين؛ لَكِنْ أنَا لاآتِي، غَيْرَ المُوَاتِي، ... ولأُصَافِي، مَنْ يَـأْبَى إنْصَـافِي... ولأُصَفِّي نِيَّتِي، لِمَنْ يتمنَّى مَنِيَّتِي ... وَمَـنْ حَكَـم بـأَنْ أبـذُلَ وَتَخْزُن، وألِين وتَخْشُـن، وأذُوب وتَجْمُد... وكَيْف يُجْتَلَب إنْصَافٌ بِضَيْم، وأنّى تُشْرِقُ نَفْسٌ مَع غيْم! ومتَى أُصْحِبَ وُدٌّ بعَسْف، وأيُّ حُرٍّ رضِي بخُطَّة خَسْف ...))(٤).

وللشعراء القدماء والمحدثين مذهبان في العفـو أو الانتصـاف، وهـذان المذهبـان اللذان ذكرهما **الحريري** على لسان السمير الأول، والثاني مبنيان علـى آيتـين، مـن كتاب ا لله تعالى؛ في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْـلِ مَـا عُوقِبْتُـمْ بِـهِ وَلَئِـنْ**

(١) رواه البخاري عن النعمان بن بشير –رضي الله عنه– كتاب الأدب، باب قول الرسـول –ﷺ– "رحمـة النـاس والبهـائم" ١٢/٨، ورواه مسـلم، كتـاب الـبر والصلـة والآداب، بـاب تراحـم المؤمنـين وتعاطفهم: ٢٠/٨.

(٢) شرح مقامات الحريري، للشريشي، ١٦٤/١.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (٣٧)، ١٤١٧/٣.

(٤) المقامة نفسها (٤): الدّمياطية، للحريري، شرح الشريشي، ١٦٥/١–١٦٧.



صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(١). والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾(٢).

وهذا **الحريري** يحث على اختيار الصديق حتى تثمر الصحبة فيقول:

«أُسْ أَرْملاً إذَا عَرَا ** وارْعَ إذَا المَرْءُ أَسَا

أَسْنِد أَخَا نَبَاهَةٍ ** أَبِنْ إخَاءً دَنَّسَا»(٣)

فأراد : إن قصدك فقير فصله، وإن أخطأ عليك صاحب فلاتقطعه، وارع حق الصحبة، فإن من حقه عليك أن تتحمله عند ضيقه.

وفي البيت الثاني يريد أن يقول:صاحب من يشرفك بذكره الجميل، وباعد من يدنس عرضك،وتعاب به،وقد قيل:الصاحب رقعةالثوب،فلينظرالإنسان مايرقع به ثوبه وفي حق الصحبةواختيار الصديق أحاديث منها:قول رسول الله ﷺ : «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف**»(٤).

وفي حسن الصحبة قال **الحريري** أيضاً : «اسْتِعْمَالُ المُدَارَاةِ يُوجِبُ المُصَافَاةَ، وعقْدُ المحبَّةِ يقْتَضِي النُّصْح ... وتَتبُّعُ العَثَراتِ يُدْحِضُ المَوَدَّاتْ، وخُلُوص النِيَّة، خُلاَصَةُ العَطِيَّة»(٥).

---

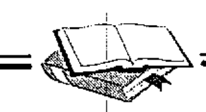
(١) سورة النحل، آية ١٢٦ .

(٢) سورة الشورى، آية ٤١.

(٣) المقامة (١٦): المغربية، للحريري، ٢/٢١١، أس: اعط. والأوس: العطية. انظر: اللسان، مادة: أوس. أرملاً: فقيراً، اللسان، مادة: رمل. عرا: قصد، اللسان، مادة: عرا، أسا: أتى سوء، اللسان، مادة: أسا. أبن: باعد، اللسان، مادة: بون.

(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة، ٨/٤١ . ورواه ابن داود عن أبي هريرة – ﷺ –، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ٤/٢٦٠.

(٥) المقامة (١٧): القهقرية، للحريري، ٢/٢٣٩.



يريد أن البحث عن عيوب الصاحب يبطل مودته ومن يخلص لك النية، فكأنه أعطاك خالص ماله.

وقال **الحريري** حاثاً على حسن المعاملة مع الصاحب :

"سَامِحْ أَخَاكَ إِذَا خَلَطْ ** مِنْه الإِسَاءَةَ بالغَلَطْ
وتَجَافَ عَنْ تَعْنِيفِهِ ** إِنْ زَاغَ يَوْماً أو قَسَطْ
واحْفَظْ صَنِيعَكَ عِنْدَهُ ** شَكَرَ الصَّنِيعَةَ أَمْ غَمَطْ
وأَطِعْهُ إِنْ عَاصَى وهُنْ ** إِنْ عَزَّ وادْنُ إِذَا شَحَطْ"(١)

وقال **الحريري** في مقامته الثامنة والأربعين على لسان بطل مقاماته الذي انبرى من الجماعة لما قضى الفرض : ((يَاجِيرَتي، الَّذِينَ اصْطَفَيْتَهُم عَلَى أغْصَانِ شَجَرَتِي ... أمَا تَعْلَمُونَ أنَّ لبُوسَ الصِّدْقِ أبْهَى الملابِسِ الفَاخِرة ... وأنَّ أَخَاك هُوَ الَّذِي عذَلكَ، لاَ الَّذِي عَذَرَكْ، وصَدِيقُكَ مَنْ صَدقَك، لاَمن صَدَّقَكَ))(٢).

يريد أن أخاك هو الذي يلومك، ويقبح لك سوء فعلك، وأما من حسن عذرك في ذلك، فليس بصديق ولا أخ .

وقد ذكر هنا من حقوق الأخوة والصحبة : اللسان، وذلك بالسكوت مرة، وبالنطق أخرى، وماذكره **الحريري** هنا إذا وجب على الصاحب النطق في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، ولم يجد رخصة في السكوت، فإذ ذاك لايبالي بكراهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق، وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

وقال في مقامته التاسعة والأربعين ينصح ابنه : ((وإذَا أَزْمعْت عَلَى الاغْتِرَاب، واعدَدْتَ لهُ العصَا والجِرَاب، فتَخَيَّرَ الرَّفِيق المُسْعِد، مِن قَبْل أَنْ تُصْعِدْ، فَإِنَّ الجَار قَبْل الدَّار، والرَّفِيقَ قَبْل الطَّرِيق))(٣).

---

(١) المقامة نفسها، ١٥٨/٣.

(٢) المقامة الحرامية، ٢٩٨/٥، ٣٠٢، عذلك: لامك، انظر: اللسان، مادة: عذل.

(٣) المقامة الساسانية، ٣٣٩/٥-٣٤٠، أزمعت : عزمت، اللسان، مادة: زمع،الجراب: الوعاء، اللسان، مادة: جرب، المسعِد: الموافق القليل الخلاف، اللسان، مادة: سعد.

يريد : لاتشتر داراً حتى تعلم من جيرانك، ولاتعزم على التجوال والغربة قبل أن تختار الرفيق الذي يرافقك في طريق سفرك وغربتك.

ونخلص إلى أن أصحاب المقامات حثوا على حسن الصحبة إما بمدحها، أوالتنفير من ضدها، وفي كلٍّ دلالة على العمل بمقتضاها على الوجه الصحيح، وهو التمسك بهذا الخلق الحسن وأن تجمع مابين المسلمين الصحبة الحسنة أو الأخوة، إلا أن الأخوة أعم من الصحبة، لأنه ينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة، غير أن لكل منها درجات، *وابن الجوزي* رغم أنه ينعى عدم وجود أخوة، وأصدقاء أوفياء، فإنه أشاد ببعض الحقوق التي يلتزم بها الصاحب تجاه صاحبه ومنها حق اللسان، فيسدي النصح له، ويذكره بالموت، وإلى هذا الحق أشار الزمخشري أيضاً والبديع والحريري، إلا أن البديع زاد فذكر كيفية اختيار صديق السفر، وأن لديه نوعي صحبة، صحبة دينية وأخرى دنيوية، وأما ابن نباته فقد أشار إلى اجتماع الأصحاب على كلمة واحدة ونادراً ماتختلف، وابن ناقيا يشيد بالصحبة الحسنة، وينفر من قرين السوء، أما الحريري فيحث بطريق غير مباشر إلى أن حق الصديق على صديقه بأن يحتمل منه ثلاثاً: ظلم الغضب، ظلم الدالة، ظلم الهفوة، وألا ينقب عن عيوبه، ويراعي حسن الصحبة، لأن من لم يراعها فقد كفرها .

الوفاء :

لقد حث ابن الجوزي على خلق الوفاء في عدة مقامات؛ ومنها قوله في قصة عيسى – عليه السلام–: ((فَلَمّا علمتْ بالحملِ اكْتَسَبَها السُّرور وَلَهَاَ،فوَهَبتْهُ بِلِسَانِ النَّذرِ لمنْ وَهَبَهُ لَهَا، فقالَ القدرُ: يَامَلِكَ التَّصْوِيرِ اجعلْ الحملَ أُنْثَى، ليبينَ أَثرُ الْكَرمِ، في قبولِ النَّاقصِ وَتُوفَى النُّذُور، فأقْبَلَتْ بها الأمّ توَمُّ بَيْتَ الْمَقْدِس))(١).

---

(١) المقامة (٤): فيما سبق، ص ٤٢ .

قال تعالى : ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١)، وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾(٢).

فالقرآن حدثنا بأن الوفاء صفة المؤمنين، الأخيار، الأبرار، كما أن هذه الآيات الكريمات ذكرت الوفاء بالعهد بمختلف أنواعه، الوفاء بين الناس، والوفاء بعهد الله تبارك وتعالى، والوفاء المذكور في هذه المقامة من نوع: الوفاء بالنذر الذي يشير إليه قوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾(٣).

فهذه أم السيدة ((مريم)) من فرحها وسرورها بحملها نذرت أن تهب ماتحمله في بطنها لواهبه، وقد وفت بالنذر، فبعد أن وضعت وكان المولود أنثى وهي السيدة ((مريم)) ذهبت بها إلى بيت المقدس،وكفلها زكريا.

إذن فقد أعطانا **ابن الجوزي** مثلاً رائعاً من أمثلة الوفاء بالنذر الذي امتثلت فيه التي نذرت النذر؛ لأوامر الله حين قال: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾(٤)، فكانت من النساء الصالحات اللواتي يفعلن مايقلنه، ويفين بما نذرنه.

وفي المقامة التالية قال **ابن الجوزي** حاثاً على الوفاء بالوعد: ((اجْتَمَعَ وجُوهنَا لوعدِ أَبي التقويم فَاحْتَبس، فَأَخَذَتْ وُجُوهُنَا تَقْرَأُ سُورةَ عَبس، ... إلى أَنْ طلعَ طلُوعَ الْهِلالِ ليلةَ العيدِ، وَقَالَ: عَاقَنِي شُغْلٌ، وَالطَّرِيقُ بَعِيد، وَمعَاذَ الله أَنْ أَعِدَ وأُخْلِف، وَسَأَغْرَمُ مَافَاتَكُمْ وَأَحلف، إِنَّ خُلْفَ الوَعْدِ خُلقُ الوغْدِ))(٥).

سبق أن ذكرنا أن الوفاء ألوان وأنواع، وهذا المذكور في هذه المقامة هو من نوع الوفاء بالوعد الذي يشير إليه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران، آية ٧٦ .

(٢) سورة الرعد، آية ١٩-٢٠.

(٣) سورة الإنسان، آية ٧ .

(٤) سورة الحج، آية ٢٩.

(٥) المقامة (٥) : فيما سبق، ص ٤٦ .

(٦) سورة مريم، آية ٥٤ .



فقد وعد أبوالتقويم الوجوه بأن يحضر، ويكمل لهم قصص الأنبياء، والتي كان الجميع يتابعونها معه، لكنه تأخر عليهم، حتى ظنوا أنه لن يحضر، إلا أن أباالتقويم حضر، ونفى عن نفسه أن يكون ممن يعد ويخلف، بل إنه قال: ((إن خلف الوعد خلق الوغد))،وهو ليس وغداً حتى يخلف وعده، بل إن هناك ماجعله يتأخر عن الموعد وقدم اعتذاره عن هذا التأخير، وهذا ماينبغي أن يكون عليه حال المسلم؛إذا وعد وفى.

ويذكر **ابن الجوزي** نوعاً آخر من الوفاء، وهو الوفاء بالعهد الذي يقول الله عنه: ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾[1]، وهنا يقول موجهاً الخطاب لله تعالى: ((وَعِزَتِكَ مانَقَضْتُ عهدَكَ، ولاضَيَّعْتُ وِدَّكَ))[2].

فالعهد الذي ذكر أنه لم ينقضه هو العهد الفطري الذي ذكره الله في قوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[3].

وقد أشار الله – جل جلاله – إلى جانب من مضمون هذا العهد الإلهي حين قال: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي ءَادَمَ أَنْ لَاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾[4].

وهذا العهد هو الذي ذكره في مقامة أخرى قائلاً :

((أوحشتني خلواتـي ** بكَ مِـنْ كُـلِّ أنيـسِ
وتفـردتُ فعاينـ ** تكَ بالغيبِ جليسـي
وَبَدَا لي أنَّ مهـرَ الـ ** حبِّ أنفـاسُ النُّفـوسِ
فكتبتُ العَهْـدَ للـ ** ـحبِّ عَلَى طِرسِ الرَّسيسِ))[5]

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٢) المقامة (١٥): في الخائفين، ص ١٢٣.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان ١٧٢-١٧٣.

(٤) سورة يس، الآيتان ٦٠، ٦١.

(٥) المقامة (١٩): في الخلوة، ص ١٦٠-١٦١، الرسيس: العاقل، طرس: الصحيفة. انظر: اللسان، مادة: رسس، طرس.



فالعهد الذي كتبه على نفسه هو حب الله؛ لأن من أحب الله أطاع أوامره وانتهى عن نواهيه، وقبل كلٍ، عبادته وحده لاشريك له ...

وفي المقامة السادسة والعشرين، يذكر **ابن الجوزي** مثلين للوفاء، يمثل الأول: وفاء اسماعيل، فيقول: «يَاخليلُ امدُدْ يَدَكَ، فاذبحْ وَلَدَك، فَيقولُ للوَلَدِ: انظرْ مَاذَا تَرَى؟. فيقولُ: الحُكْمُ لَمَنْ يَرَى، أَنَا اطلُبُ الصبرَ ممن يُنْجِدُني سَتَجِدني»[١]، قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**﴾[٢].

و«إنما خصه بذكر صفة الوفاء له هنا، وصدقه في الوعد، لأنه كان مشهوراً بذلك، وكانت له في هذا الباب أشياء لم تعهد من غيره، وحسبنا أنه وعد بالصبر على الذبح، وقال لأبيه: ﴿**افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾[٣]، ووفى بعهده وصدق في وعده، فكان من المخلصين»[٤].

أما المثل الثاني في الوفاء ففي قوله : «وَزَليخَا تهيّيء مَجْلِسَ الهوى لِيُوسف وتعبّى، فيقولُ: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي**﴾[٥]»[٦]، ثم حين عاهد الله، ولم يرد أن ينكث بما عاهد عليه قال: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾[٧].

أما في المقامة الحادية والثلاثين فقد ذكر **ابن الجوزي** الغدر،وهو ضد الوفاء فقال:«كَمْ أَعِد نَفْسِي بتوبةٍ وَلَا أفي فقالَ:وعْدُكَ بالتوبةِ كذبُ الصُّنّاع،..فقامَ شَابٌّ يبكي، فقالَ:الْعَملُ عَلَى بكاءِ قَلْبِكَ،فَإِنَّ إخوةَ يُوسف جَاءوا أَبَاهُم عشَاء يَبْكُون»[٨].

---

(١) في ذم الدنيا ومدحها، ص٢١٦.

(٢) سورة مريم ، آية ٥٤ .

(٣) سورة الصافات، آية ١٠٢.

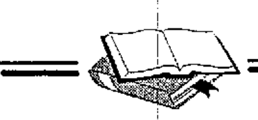
(٤) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ١٩٦/٢.

(٥) سورة يوسف، آية ٢٣.

(٦) المقامة (٢٦) نفسها، ص ٢١٦.

(٧) سورة يوسف، آية ٢٣.

(٨) في التعازي، ص ٢٥١.



إذا كان القرآن الكريم والسنة المطهرة قد مجدا فضيلة الوفاء كل هذا التمجيد، فإنهما قد حملا حملة رادعة على الخيانة والغدر فقال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[١]، وقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[٥]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٦].

وهذا الرجل قد عاهد الله على التوبة، ولكنه لم يف بالعهد فيقول: «كَمْ أَعِدُ نَفْسِي بتوبةٍ وَلَا أَفِي» وأياً كان الذي عاهد نفسه على التوبة عنه، كان الأجدر به أن يفي به، وإنْ كان هذا العقد بينه وبين نفسه.

وفي مقامة أخرى قال **ابن الجوزي** : «سَعَى إِليهِ سَاعي الزَّكَاة، فردَّ بَابَ الْعطَاءِ بِيَدِ المطلِّ ... وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ الله»[٧]، يشير إلى قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٨].

---

(١) سورة الأنفال، آية ٥٨.

(٢) سورة يوسف، آية ٥٢.

(٣) سورة الحج، آية ٣٨.

(٤) سورة النساء، آية ١٠٧.

(٥) سورة النساء، آية ١٠٥.

(٦) سورة الأنفال، آية ٢٧.

(٧) المقامة (٤٦): في الزهد في المال، ص ٣٨٢.

(٨) سورة التوبة، الآيات ٧٥-٧٨.



فالقرآن المجيد صور في هذه الآيات غدر بعض الناس الذين أخذوا على أنفسهم أغلظ العهود والمواثيق بالطاعة والشكر إن أعطاهم ربهم ماأرادوا، فلما حقق لهم ماطمعوا فيه كانوا من الجاحدين، الغادرين، وهذا ماأشارت إليه المقامة السابقة.

وفي المقامة التاسعة والأربعين أشار إلى الغدر في قوله : ((فَأَخَذَ الشَّيخُ يَذمُ الإخوانَ عَلَى عَادَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَاوَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، قُلْتُ: فَلاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيهِمْ حَسَرَاتٍ))(١).

يريد أنهم يعاهدون ولايوفون بعهودهم، لذا ينبغي للإنسان أن يحتاط لأمره، فلايعاهد إلا بما يقدر عليه. إلا إذا كان في نيته أن يفي ثم عجز لسبب خارج عن إرادته أو عن طاقته، لم يكن عليه إثم، لقول الرسول - ﷺ - : ((**إذا وعد الرجل أخاه، ومن نيته أن يفي فلم يف (أي لعذر) ولم يجيء للميعاد فلاإثم عليه**))(٢).

أما **الزمخشري** فقد حث على فضيلة الوفاء حين ذكره ضمن صفات الذين يجب أن يكونوا أسوة لنا نسير على خطاهم، فقال: ((يَاأَبَا الْقَاسِم لِلهِ عبَادٌ رَهنُوا بِحَقّ اللهِ ذِمَمَهُم ... ثِقَاتٌ لاَتعَرِفُ النكثَ عُهودُهم وأَمانَاتُهم))(٣)، فمن العباد الذين نجعلهم أسوة لنا في الوفاء؛ الأنبياء، فقد نوه القرآن المجيد بسمو فضيلة الوفاء حين جعلها صفة لهم - أي الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - فقال : ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾(٤)، وقال: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**﴾(٥)، وأولهم الرسول - ﷺ - الذي ضرب المثل الرائع في

---

(١) في ذم أبناء الدنيا، ص ٤٠٤.

(٢) رواه أبوداود تحت رقم (٤٩٩٥) عن زيد بن أرقم - ﷺ -، كتاب الأدب، باب في العدة، ٢٩٩/٤.

(٣) المقامة (٣٥): في الأسوة، للزمخشري، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٤) سورة النجم، آية ٣٧.

(٥) سورة مريم، آية ٥٤ .

الوفاء، حينما حفظ عهد زوجته خديجة – رضي الله عنها – حفظه في حياتها، وبعد مماتها، و لم يشغله عن ذكرها شاغل، فكان يكثر من الحديث عنها والثناء عليها .

وهذا نموذج آخر على الوفاء بالوعد ذكره **الزمخشري** في مقامته الخامسة والأربعين قائلاً : ((وإِذَا عَقَدْتَ مِيثَاقاً فَأَوْفِ بعَقْدِك، أوْ وَعَدتَ فَسَارِعْ إلى إِنْجَازِ وَعْدِكَ، وَلاَيكُونَنَّ مَوْعِدُكَ مِثْلَ لَمْعِ البَرْوقِ بالذَّنَبِ، وَلاَمُشبَّهاً بِلَمْعِ البُرُوقِ الخُلَّبِ،... وَكُنْ رَجُلاً قُدِّمَ عَطَاؤُهُ قَبْلَ وَعْدِه))[1].

فحث على السرعة في إنجاز الوعد، وعدم المماطلة وأن تعد وأنت موفق بإعطاء ماوعدت به، دون اللجوء إلى التسويف.

وهذا **البديع** يذكر نوعين من أنواع الوفاء؛ الأول: الوفاء بالوعد. والآخر: الوفاء بالنذر. وثمة نوع آخر، وهو الوفاء باللسان عن طريق الثناء لأنه لايملك طريقًا سواه، وهذا ذكره في مقامته السادسة عشرة حين ادعى أبوالفتح أنه كفيف، فرقت له القلوب، وأعطاه أحدهم قطعة فقال له:

((ياذَا الذي يَعْنيهِ ذَا الثَّنَاءُ ** مَايقتَضَى قَدْرَكَ الإطْرَاءُ

امْضِ إِلَى اللهِ لَكَ الجَزَاءُ))[2]

يريد أن يقول: إن قدره يعجز طوق المادحين، ويبلد قرائحهم، فلايستطيعون الوفاء له بحق الثناء.

أما الوفاء بالوعد فيظهر حين وفى جميع من في السفينة بوعدهم لأبي الفتح الإسكندري، وأعطوه ماوعدوه من نقود، مقابل إعطائه لكل واحد منهم رقعة فيها

---

(١) الصدق، للزمخشري، ص٢٥٧–٢٥٨، البروق الأولى: الناقة التي تبرق بذنبها من غير لقاح. انظر: اللسان، مادة : برق.

(٢) المكفوفية، لبديع الزمان الهمذاني، ص ٩٣.



حرز يقيهم من الغرق، فأعطوه الدينار في الحال، والآخر بعد أن يسلموا من الغرق، ((فَلمَّا سَلِمَتِ السَّفِينة، وأحَلَّتْنا المدينةَ، اقتضى النَّاسَ ماوعدُوه، فَنَقَدُوه))[١].

أما الوفاء بالنذر فذكره في مقامته الثالثة والأربعين حين قال: ((حدَّثَنَا عيسى ابنُ هِشَام قال: اتَّفَقَ لي نَذْرٌ نذرتُهُ في دينارٍ أتصدَّقُ به على أَشْحَذِ رَجُلٍ ببَغْدَادَ، وَسَأَلتُ عَنْهُ ... فمضيتُ إليه، لِأتَصَدَّقَ به عَلَيهِ... وقال آخر مِن الجماعَةِ: لا، بَلْ أَنَا. ثُمَّ تناقشَا وتَهَارَشَا، حتى قُلْتُ: لِيشْتُمْ كُلٌّ مِنْكُما صَاحِبَهُ فَمَنْ غَلَبَ سَلَبَ ... فتركتُهما والدِّينار مَشاعٌ بَيْنَهُما، وانصرَفْتُ وماأدْرِي ماصَنَعَ الدَّهْرُ بهِمَا))[٢].

أما **الحريري** فقد ذكر الوفاء من خلال ذكره للمثل: ((أَنْجَزَ حُر مَاوَعَد))[٣] أي لينجز حر ماوعد، وهو مثل قاله الحارث آكل المرار – جد امرئ القيس – لصخر بن نهشل بن دارم[٤].

وفي المقامة الرابعة يقول حاثاً على الوفاء: ((وَفِي للعَشِيْرِ، وإنْ لَمْ يُكَافِيء بالعَشِير))[٥]، فهو يعامل الصاحب بالوفاء وإن لم يجازه بالعشر من أفعاله، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾[٦]، وقوله: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**﴾[٧]، وإلا كان من

---

(١) المقامة (٢٣): الحرزية، لبديع الزمان الهمذاني، ص١٤٧-١٤٨.

(٢) الدينارية، لبديع الزمان الهمذاني، ص ٣٧٤-٣٨٨.

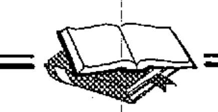
(٣) المقامة (٣): الدينارية، للحريري، شرح الشريشي، ١/١٤٣.

(٤) انظر قصة المثل في جمهرة الأمثال، العسكري، ١/٣٠، ت: محمد أبوالفضل وزميله عبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

(٥) الدمياطية، للحريري، شرح الشريشي، ١/١٦٣-١٦٤.

(٦) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٧) سورة الاسراء، آية ٣٤.



المنافقين لقوله - ﷺ -: ((**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**))(١).

ونخلص إلى أن المقاميين أشاروا إلى نوعين من الوفاء، الوفاء بالوعد، وبالعهد وحثوا عليهما، إلا أن ابن الجوزي، نفّر من ضده وهو الغدر والخيانة، وشدد على عدم الوفاء بما عاهد العبد به ربه من طاعة وشكر، وكذا عدم الوفاء بالنذر، أما الزمخشري فقد زاد على ذلك بالحث على السرعة في إنجازه، أما البديع فقد ذكر الوفاء بالوعد والوفاء بالنذر وحث عليهما، وكذا الحريري.

الشجاعة :

هي : ((مواجهة الألم أو الخطر عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس، فالذي يرى النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها في ثبات رجل شجاع، ومادام الإنسان يعمل في موقفه خير مايعمل فهو شجاع))(٢).

وقدوضح **ابن الجوزي** خلق الشجاعة أيما إيضاح حين لجأ إلى إبراز نقيضها، ففي المقامة الثانية عشرة يقول: ((رأيْتُ جماعةً من الغُزَاةِ، وقَدْ انتُدِبُوا للغَزاةِ، فتقْتُ إلى فَضْلِ الشَّهَادَةِ، ووثقتُ بِأَنّهَ أفْضَلُ الزّهَادةِ، فاخْتَرْتُ ذِلَّةَ القتلِ بالثّغُورِ عَلَى لَذّةِ التقبيلِ للثغُورِ))(٣)، وترافق مع آخر ولكن بعد أن حمي الوطيس، ونظر إلى القتلى كما يقول: ((فارقتُ الصَّنَادِيدَ، ولحقتُ بما فَارَقْتُ كُلّ هيبانٍ رِعْديدٍ، فَقَالَ صَاحِبي: أو مَاكُنْتَ قَدْ عَزَمْتَ؟ فَمَا أسْرَعَ مَاانْهَزَمْتَ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَتَشَبَّهَ البِرْشَاعُ بالشُّجَاعِ...))(٤) وهرب من ساحة القتال بينما رفيقه استمر إلى أن عاد وتقابلا، فندم

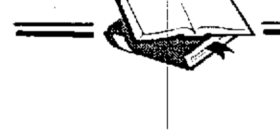
---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة -ﷺ- كتاب الأدب،باب قول الرسول:آية المنافق ثلاث،٨/٣٠

(٢) الأخلاق، أحمد أمين، ص٢٠٥، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣ ١٩٢٥م.

(٣) في الغزاة، ص ٩٧-٩٨.

(٤) المقامة نفسها، ص ٩٨ . البرشاع : الذي لاقوة له، انظر : اللسان، مادة: برشع.



على هروبه حين أيقن جزاء الشهداء فهم أحياء عند ربهم يرزقون؛ لذا عزم على العودة للقتال وقال: ((وَالآن فَقَدْ صَاحَ بي التقىٰ عُدْ))[1]، فالتقوى التي امتلأ بها قلبه والإيمان با لله وبمقاديره، والإيمان باليوم الآخر من أعظم الوسائل لاكتساب فضائل الأخلاق ومنها خلق الشجاعة، وذلك لأن الإيمان بالقدر خيره وشره من الله يورث القلوب طمأنينة تامة تجاه أشد المخاوف وأعتاها.

إذن فالأول كان يملك الشجاعة، لذا أقدم و لم يتقهقر؛ وكذا الثاني الذي شاهد نتيجة خوضه غمار المعركة من قتلى وجرحى، وأقدم بعد ذلك فهو شجاع.

وفي مقامة أخرى يذكر **ابن الجوزي** مثالاً رائعاً للشجاعة فيقول: ((لَاأَصِفُ لحسانَ الْكَسَلِ، أَحْضِرُوا بِلَالَ الْعَزْمِ، كَانُوا يَتْرُكونَ عَلَى صَدْرِ بِلَال الصَّخْرَ في الرَّمْضَاءِ وَلِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ : * لِعَيْنِكَ مَايَلْقَىٰ الْفُؤادُ وَمَالقى*[2]

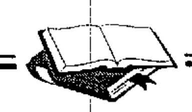
فعلى الرغم من أن الصخرة على صدر بلال، فإنه أصر بكل شجاعة على موقفه، معلناً عن إيمانه بصراحة مردداً ((أحد ... أحد ...))، لم يخف من بطش قريش وسطوتهم وسلطتهم، وفي ذلك يظهر التثبت بالحق، وعدم التخلي عنه إرضاءً لأية قوة، أو هروباً من أي ضغط، وليس بعجيب أمر هذه الوقفة الشجاعة، فوراءها دفعة إيمانية تستمد قوتها من رصيد إيماني ضخم يشعل أواره في تلك النفس المطمئنة جذوتان: الإيمان با لله وبمقاديره وباليوم الآخر وتدابيره، واللذان يعدان من أعظم الوسائل لاكتساب فضائل الآخلاق ، ومنها الشجاعة.

لأن الشجاعة تتمثل أساساً في ضبط النفس عند مواجهة الخطر في الظروف الأليمة، كما تقوم في مواجهة الظلم والشر بالقول والفعل وفي التغلب على الصعوبات والأخطار، والتي تتجاوز المعتاد، وفي احتمال أشد الآلام بصبر وثبات .

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٠٢.

(٢) المقامة (٣٩): في الوعظ، ص٣١٥. وقوله: *لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقى* من بيت للمتنبي شطره الثاني: *وللحب ما لم يبق مني وما بقي*، انظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ناصيف اليازجي، ص ٣٥٨.



وفي ضوء ذلك ندرك أن الشجاعة ليست مقصورة على حمل السلاح، وارتياد غمار الحروب، بل إن هناك من المواقف مايحتاج إلى شجاعة أقوى من شجاعة المقاتل في ساحة الوغى ولاأدل على ذلك من بلال بن رباح. في تحمله الأذى من المشركين.

أما **الزمخشري** فقد حض على الشجاعة، ونفر من الذل داعياً إلى اجتناب الظلمة في مواضع كثيرة منها قوله في مقامة اجتناب الظلمة «وَلَاتراجِع الرُّكونَ إلَى أَهْلِ الحَيفِ، وإِنْ عَرَضوك علَى غِرَار السَّيفِ، وَأَجْر لِسَانكَ أنْ تَنْطقَ بثناءٍ لَهُم وامتِدَاح ... وَتَرِبَتْ يَدَا من بَسَطهُمَا إلى أعطياتِهِمْ وأَيَادِيهِم. مَن وقَفَ وَقفةً لأحدِهم على رَبْع. فليغسِلْ قدميهِ سَبعينَ فَضْلاً عن سَبْع، ويحكَ لايَرَينَّ جسْمُكَ في إيوانه، ولايُجْرِيَنَّ اسمكَ في دِيوانِهِ، ولايَخطُونَّ قدمُكَ في إيوانِهِ، وَطَيِّبْ نَفْسَكَ عمَّا ليس بطيّب منْ أَرْزاقِهِ، ولاتُلَوِّثْهَا بالطَّمَعِ في إرْفادِه وإرْزَاقه، وإيَّاكَ وهَذِهِ المراسِم المسمَّاة فإنَّها والمواسِمَ المحْماة...»[1].

ففي قوله : «وَإِنْ عَرَضُوك عَلَى غِرَار السَّيْفِ»: حث على الشجاعة والثبات، والصمود حتى لو تعرضت للقتل.

أما **البديع** فقد ذكر الشجاعة في مقامته السادسة حين طلع الأسد على عيسى ابن هشام ورفاقه، وهم متوجهون إلى حمص، فقال: «وَطَارَ كلُّ واحِدٍ منا إلى سلاحه، فَإذا السَّبُعُ في فَرْوَةِ الموتِ، قَدْ طَلَعَ من غَابِهِ، ... وَتَبادَرَ إليهِ من سُرْعانِ الرُّفْقَة فَتىً:

أَخْضَرُ الجِلْدَةِ في بَيْتِ العَرَبْ ** يَملأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

بِقلْبٍ سَاقَهُ قَدَرٌ، وسَيْفٍ كُلُّه أَثَرٌ...»[2].

حيث سارعوا جميعاً إلى قتال الأسد لمكانتهم في الشجاعة والإقدام، ولكن واحداً منهم بادر فوصل إليه قبلهم.

---

(١) المقامة (٣٠)، ص١٨٣-١٨٥.

(٢) الأسدية، لبديع الزمان شرح: محمد محيي الدين عبدالحميد، ٣٧-٣٨.



وبعد القضاء على الأسد، طلع عليهم فارس، ادعى أنه سيكون عبداً لعيسى ابن هشام، وقد أعجبه وأعجب رفاقه لما تحلى به من صفات، فقال يصف شجاعته: ((فَعَمَدَ إلى قَوْسِ أَحَدِنا فَأَوْتَرَهُ، وَفَوَّقَ سَهْماً فرَمَاهُ في السَّماء، وأَتْبَعَهُ بآخَرَ فَشَقَّهُ في الهَوَاءِ، وقال: سَأُرِيكُمْ نَوْعاً آخَرَ، ثُمَّ عَمَدَ إلى كِنَانَتِي فَأَخَذَهَا، وإلَى فَرَسِي فَعَلَاهُ، ورَمَى أَحَدَنا بِسَهْمٍ أَثْبَتهُ في صَدْره، وآخَرَ طَيَّرَهُ من ظَهْرِهِ... ثُمَّ دَنَا إلَيَّ لِيَنْزِعَ الخُفَّ، ومددْتُ يَدِي إلى سِكِّينٍ كان معي في الخفِّ وهُوَ في شُغْلِهِ فأَثْبَتهُ في بَطْنِهِ، وأَبَنْتُهُ من مَتْنِهِ، فما زَادَ على فَمٍ فَغَرَهُ، وأَلْقَمَه حَجَرَه ...))(١).

والمعنى أنه امتطى فرسه بعد أن أخذ كنانته؛ ليتمكن من النجاة إذا أعوزته الحال، واضطر إليها، وكان منه أن رمى واحداً منهم بسهم بقي مرشوقاً في صدره، ورمى ثانياً بسهم نفذ من ظهره؛ ليريهم قدرته على الرماية.

إذن فقد أظهر عيسى بن هشام شجاعة فاقت شجاعة ذلك الفتى، حباً في البقاء على حياته .

أما **الحريري** فقد حث بطل مقاماته ابنه على الشجاعة حين قال له: ((وعَلَيْكَ بِالإِقْدامِ، وَلَو عَلَى الضِّرْغَامِ، فَإِنَّ جَراءَةَ الجنَان، تُنطِقُ اللِّسان، وتُطْلِق العنَان، وبِهَا تُدرَكُ الحظْوة، وتُمْلَكُ الثَّرْوة، كَمَا أَنَّ الخَوَرَ صِنْو الكَسَل، وسَبَبُ الفشل، ومَبْطَأَةٌ للعَمَل، ومَخْيَبَة للأَمَل، ولِهذَا قِيل في المثَل: مَنْ جَسَرَ، أَيْسَرَ، ومَنْ هَابَ، خَاب))(٢).

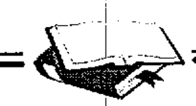
يريد أن فزع النفس وضعفها يخيب الأمل والرجاء، وقد قال معاوية: الهيبة مقرون بها الخيبة(٣).

---

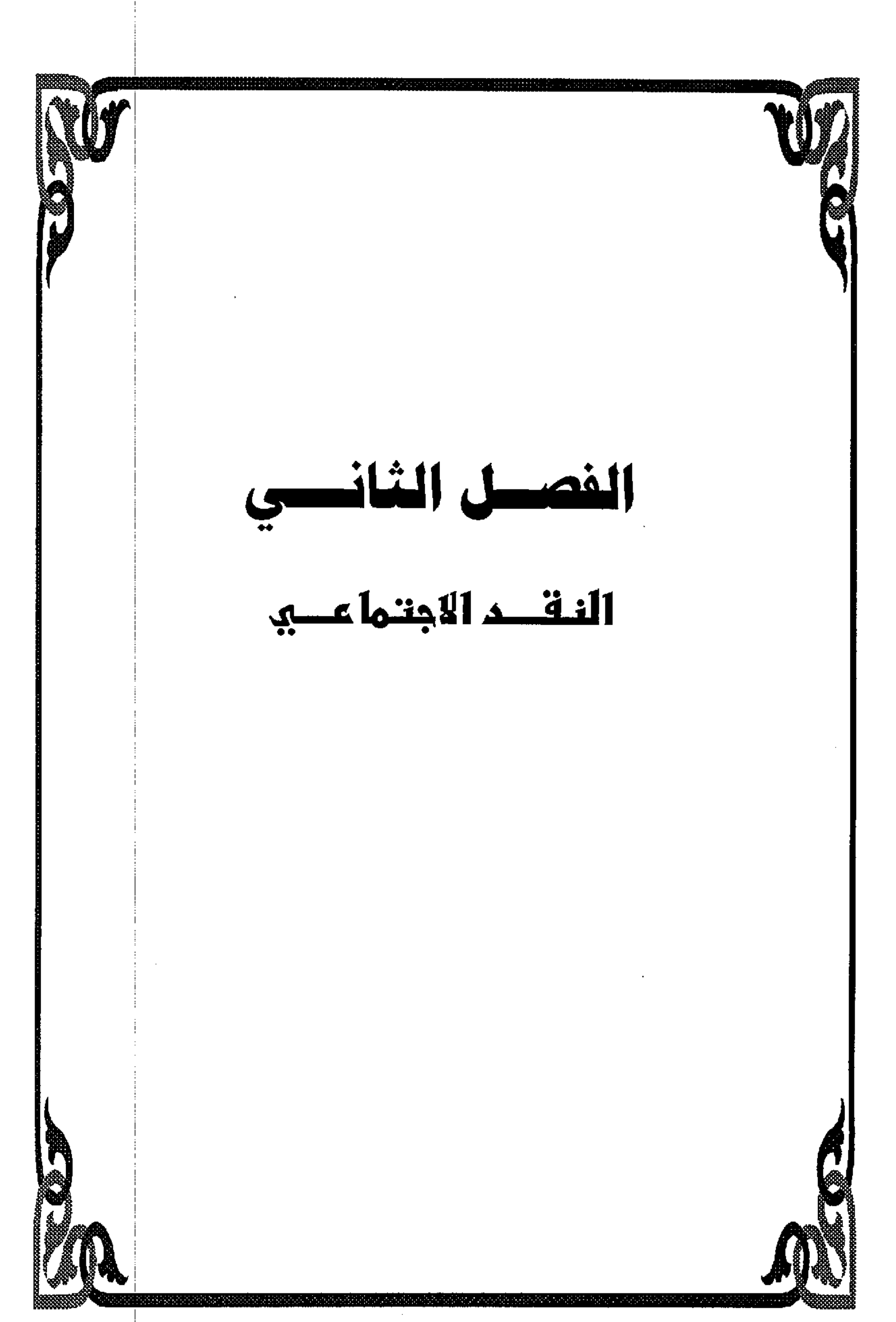
(١) المقامة نفسها، ص ٤٣-٤٤. أوتر القوس: جعل لها وتراً، اللسان، مادة: وتر. فوق السهم: سدده، اللسان، مادة : فوق . الكنانة: جعبة تجعل فيها السهام. اللسان، مادة: كنن.

(٢) المقامة (٤٩): الساسانية، للحريري، شرح الشريشي، ٣٣٤/٥.

(٣) المقامة نفسها، شرح مقامات الحريري، للشريشي، ٣٣٥/٥.

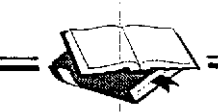


ونخلص إلى أن خلق الشجاعة الذي يقوم أساساً على ضبط النفس عند مواجهة الخطر في الظروف الأليمة قد وضحه ابن الجوزي، وحث عليه في غمار الحروب، وفي بعض المواقف التي تحتاج إلى شجاعة غير تلك التي يحتاج إليها من يدخل لساحات الوغى، إلا أن الزمخشري نوه بالشجاعة من طريق آخر، وهي الاستفادة منها في مرحلة الشباب وتوجيهها الوجهة الصحيحة في كل مايقرب العبد من ربه، وحث على مايمكن أن نطلق عليه الشجاعة الأدبية، أما البديع فلم يشر إلا للشجاعة التي تعتمد على القوة البدنية في مواجهة العدو، وكذلك الحريري.



الفصل الثاني

النقد الاجتماعي



إن الأدب إلى جانب كونه غذاءً للروح ينعشـها، وفناً للـذوق يرهفـه، ومتعة للنفس يبهجها، قد يكون صـورة تصـور بعـض جوانـب المجتمـع الـذي وضعـت فيـه، والمجتمع الذي نحاول استخراج صورة له من خلال الأدب، هو المجتمع الذي عاش فيـه أصحاب المقامات بداية من بديع الزمان المتوفى ٣٩٨هـ إلى **ابن الجوزي** المتوفى سـنة ٥٩٧هـ والأدب الذي سنطل من خلاله على ذلك المجتمـع هـو فـن المقامـات، ولنبـدأ بالتسلسل التـاريخي، فـنرى أن بديـع الزمـان الهمذانـي وإن كـانت مقاماتـه نابعـة مـن أعماقه، ومتأثرة بآرائه وظروف حياته ، فإنها أيضـاً شملـت نقـداً لكثـير مـن الوضـاع الإجتماعية السائدة، والعادات المعيبة، وجاءت المقامات صورة معبرة عن تلك الحيـاة، ولجوانب مختلفة من المجتمع الذي أنشئت فيه، وتحديداً مـن النصـف الثـاني مـن القـرن الرابع للهجرة، الزمن الذي عاشه بديع الزمان الهمذاني، ذلك القرن الذي كان العصـر الذهبي للعقلية العربية، والذي كان إلى جانب ذلك، عصـراً عجيباً بما كـان فيـه مـن اضطراب في الحياة وعدم استقرار في الحكم، وليس عجيباً إذن أن تقدم المقامات تلـك الصور عن بعض جوانب ذلك المجتمع الإسلامي، ولسنا نسميه بغير ذلك لأنه لم يكـن عربياً خالصاً، وإنما كانت فيه أجناس وشعوب تلاقت تحت راية الإسلام.

كان هذا المجتمع في عصر الهمذاني مجتمعاً فيه الكثـير مـن المتناقضـات، إلا أنـه التناقض المنسجم مع طبيعة الحياة، وطريف أن يكون في التنـاقض انسـجام. بمعنـى أنـه كان تناقضاً طبيعياً؛ كوجود الزهد والورع جنبـاً إلى جنـب مـع الخلاعـة والمجـون. إذ أليس من التناقض الطبيعي مثلاً أن يؤدي الافراط في الأمر إلى عكسـه؟ ألم يقولـوا: إذا تجاوز الأمر حده يقلبه إلى ضده؟ وهذا ماوقع حـين أدى الإفـراط في الخلاعـة والمجـون عند طائفة من الناس إلى التمسك بالدين والزهد في متع الحياة عند طائفة أخرى(١).

إذن فأبرز الصور الإجتماعية :

---

(١) انظر: مجتمع الهمذاني من خلال مقامته، د. مازن المبارك، ص٤٥، دار الفكـر، دمشـق، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

إرشادهم إلى ذينك المطلبين فيأخذ المال، ويعدهم بأن يدلهم في اليوم الثاني ثم يذهب ولايعود، ومن قوله في تلك المقامة: ((صَهْ. لَقد عَجَزتُم عن شَيء عَدِمْتُمُوه ... وخُدِعْتُم عن الباقي بالفاني، وشُغِلْتُم عن النَّائي بالدَّاني ... هل الدُّنيا إلا مُنَاخُ راكِبٍ، وتَعِلَّةُ ذاهِبٍ؟ وهل المالُ إلا عاريةٌ مُرْتَجَعَة، ووديعَةٌ مُنْتزعةٌ؟ ...))[١].

نلحظ مما سبق مدى انتشار الوعظ، حتى نزل إلى ميدان الكسب وتنافس فيه المخادعون، ووقع في شباكهم سذج القوم.

وقد كثر الوعظ في المقامات، وكثر اتخاذه وسيلة للكدية أو الخداع، حتى أصبحنا نعجب إذا رأينا في مقامة من المقامات وعظاً صادقاً ليس للمقامة غرض آخر سواه، على غير ماعهدناه في جميع المقامات؛ وذلك هو الوعظ الذي نسمعه في المقامة الأهوازية، حيث نفاجأ بجواب الواعظ الذي سألوه في آخر وعظه: ماحاجتك؟ فقال عن الدنيا: ((... لاحاجَةَ لي فِيها، وإنما حاجَتِي بَعْدَ هذا أن تَخِدُوا أكثرَ مِنْ أنْ تَعْدُوا))[٢]، إنها فلتة من أبي الفتح الإسكندري الواعظ، ولكنها على كل حال ليست غريبة عن المجتمع الذي يصوره أدب الهمذاني[٣]، فقد كان فيه ورع وتقى، وانتشر فيه الزهد والتصوف، يقول آدم متز: ((وكانت بغداد والبصرة مختلفتين في أمر التصوف، كما كانتا مختلفتين في مسائل اللغة وعلم الكلام؛ فكانت بغداد أكبر مدرسة للمتصوفين على حين كانت البصرة أكبر مركز للزهاد))[٤].

أما **ابن نباتة** فلم يشر إلى هذه النزعة، ولو بمجرد إشارة، ونلتمس له العذر، لكونها مقامة واحدة فلو كان قد أدلى بدلوه في هذا الفن بأكثر من مقامة، فلربما صور لنا نزعة أفراد مجتمعه وميلهم نحو الزهد، والوعظ، كبقية المقاميين؛ لأنه عاش حياته

---

(١) المقامة المطلبية، ص ٤٣٩-٤٤١.

(٢) المقامة، ص٦٩، الوخد: ضرب من السير السريع، انظر: اللسان، مادة: وخد.

(٣) انظر: مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، د.مازن المبارك، ص٤٥-٤٩.

(٤) الحضارة الإسلامية، ٢/١٦ .



استغلال الوعظ في مآرب شخصية :

حيث بين **بديع الزمان الهمذاني** مدى انتشار الوعاظ في الأسواق وتحلق الناس حولهم، فقال: «بَيْنَا أنا بالبصرةِ أميسُ، حتّى أدّاني السيرُ إلى فُرْضَةٍ قَدْ كَثُرَ فيها قَوْمٌ على قائمٍ يَعِظُهُمْ ...»(١)، كما أنه أعطانا صورة أوضح مما أعطانا التاريخ عن نفاق سوق الوعظ حين ذكر لنا مدى انتشار الوعاظ وإقبال العامة عليهم حتى لفت ذلك الاقبال أنظار الدجالين فتطفلوا على الوعظ، واتخذوه حرفة للكسب، ومطية لنيل المآرب؛ إنهم كانوا يتخذون من حث الناس على الزهد فخاً يسلبون من ورائه مايكرهون الناس به من متاع وأموال، وهذا واحد من هؤلاء الماكرين يروي لنا بديع الزمان قصته فيقول : إنه فقير محتاج فكر في أمر معاشه، فلم يجد خيراً من سبيل الوعظ فكان الوعظ مطية للكدية، وهو يقول: «وَنَفَرْتُ مَعَ ذَلكَ نُفُورَ طَبْعِ الكريمِ عَن وجوهِ اللِّئامِ، ونَبَوْتُ عَنِ المخْزياتِ نُبوَّ السَّمْعِ الشَّريفِ عَن شَنيعِ الكَلامِ والآنَ لمَّا أسْفَرَ صُبْحُ المشيبِ، وعَلَتْني أُبَّهةُ الكِبرِ عَمَدْتُ لإصْلاحِ أمْرِ المعادِ بإعدادِ الزَّادِ، فلمْ أرَ طَرِيقاً أهْدى إلى الرَّشَادِ مما أنا سَالِكُهُ»(٢).

وهـو يعتقد أنه بوعظه هذا يؤدي أمانة في عنقه، فيقول: «دُفِعْتُ إلى مَكارِهِ نَذَرْتُ ألاَّ أدَّخرَ عَن المسلمينَ منافِعَها، ولابدَّ لي أن أخْلَعَ رِبْقَةَ هذِهِ الأمَانَةِ مِنْ عُنُقـي إلى أعْناقِكُم، وأعْرِضَ دَوَائي هذا في أسْواقِكُم، فليشترِ منّي مَنْ لايتقزَّزُ من مَوْقِفِ العبيدِ، ولايأنَفُ من كَلمةِ التوحيدِ»(٣).

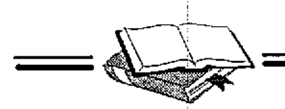
وذلك مخادع آخر يتظاهر بالورع والزهد، ويبطن الخداع والمكر، ويتخذ الوعظ والزهد وتكريه الغنى إلى الأغنياء وسيلة للإيقاع بالسذج، ويزعم أنه يعرف موضع مطلبين عظيمين وكنزين ثمينين، فيقبل عليه الناس ويعطونه المال الوفير أملاً في

---

(١) المقامة الوعظية، ص١٦٨، وانظر الفصل السابق فيه مبحث يتحدث بتمامه عن الزهد.

(٢) المقامة السجستانية، ص ٢٨-٢٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٠.



مابين الفترة التي عاشها **البديع**، و**ابن ناقيا**، وقد وجدنا أن كليهما قد صورا نزعة أفراد مجتمعه إلى ذلك، وا لله أعلم.

وهذا **ابن ناقيا** يظهر بطل مقاماته مرتدياً ثوب الواعظ بعد أن قام بفعل مشين، فنبش القبور حتى وقع على ضالته، فلما سمع حركة العسس والطواف «رَفَعَ عَقِيرَتَهُ فَذَكَّر وَخَوّف، وَوَعَظَ وَاسْتَعْطَف، وَوَصفَ الدّنيا وَزَوَالَها، وَالْقِيَامَة وَأَهْوَالَهَا، وَالنَّارَ وَعَذَابهَا، وَالجَنَّةَ وَأَكْوَابَهَا»[١]، فلو لم يكن ذا علم بتأثير الوعظ؛ لما لجأ إليه بعد فعلته مع الموتى ونبشه لقبورهم، فأنقذ نفسه برفع صوته يزهد في الدنيا، وكأن من رآه يحسبه حضر لتلك القبور، ليذكر نفسه بالمآل الذي ينتهي إليه كل حي، وهي تلك الحفرة التي يوضع فيها وليس معه إلا عمله يؤنسه في وحشته تلك، و**ابن ناقيا** وفق حين جعل من بطله يقوم بعملين متناقضين، لترى فظاعة وهول ماقام به، من نبش للقبور، ومن ثم واعظ يذكر، ويخوف، ويعظ، تخرج بعد قراءة المقامة مستعجباً من هذا الذي لم يطبق – ماوعظ به غيره – على نفسه، فيتعظ قبل أن يعظ، ويخاف قبل أن يخوف، فقد نهى ا لله عن إيذاء المسلم لأخيه المسلم وهو حي، فما بالك وهو ميت، وهو نبشه قبورهم وفي ذلك إيذاء لهم أيما إيذاء، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر مانهى ا لله عنه**»[٣]، وهذا لم يسلم المسلمون الموتى من يده التي نبشت قبورهم.

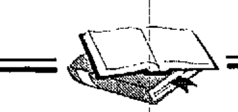
ولمكانة الوعظ، وتأثيره على الناس في أفراد ذلك المجتمع يصف **ابن ناقيا**، أثر ماقاله هذا المحتال على من سمعه، فيقول: «فَسَمِعْتُ بُكَاءَ الْقَوْمِ، وَكَأَنِّي أَرَى ذَلِكَ في

---

(١) المقامة الثانية، من مخطوط المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٨.

(٣) رواه البخاري عن عبدا لله بن عمرو بن العاص – ﷺ – كتاب الإيمان، باب من سلم المسلمون من لسانه ويده، ٩/١ . وورواه الترمذي تحت رقم (٢٦٢٧) كتاب الإيمان، وباب من سلم المسلمون من لسانه ويده، ١٧/٥.



النَّوم، وَقَدْ هَزَّني مَقَالُهُ، وَهَالَني احْتِيَالُهُ))[١]، لهذا تبعه الراوي، والذي كان يشاهد النقيضين من فعله فقال له: ((ياعبدا لله، قد رأيت منك العجب، وأنت بهذا الأدب، فقال: لم يخف علي فضولك منذ الليلة، فما عليك من ذي العيلة، فإنها الغنيمة الباردة، وسيان من عرض مستقفيا أو خرج مختفياً، وقد قال صاحب الشرعية: اطْلُبُوا في خَبَايَا الأرضِ، فُقُلْتُ: وَيحَكَ يَعْنى: في اسْتِخْرَاجِ النَّبَاتِ، لاَفي نَبْشِ الأَمْواتِ، فَقَالَ: لستَ بِالتَّأْوِيلِ أَوْلَى مِني، أَنَا الْيَشْكَري وَسَمِعْتَ بِهِ))[٢].

نعم العجب أن يكون ذا علم ومعرفة بأمور الدين، ومع ذلك يستخدمها لأغراضه الدنيوية ويؤولها التأويل الذي يخدم غرضه وهو مدعٍ، مخادع، مصر على أن مافعله لايضير في شيء بدليل تصريحه بالقول: ((إنها الغنيمة الباردة، وسيان من عرض مستقفيا أو خرج مختفيا))، وكأنه لم يسمع لقوله تعالى: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[٣]، وعنه عليه الصلاة والسلام: ((**إن ا لله تعالى يغار، وغيرة ا لله أن يأتي المرء ماحرم ا لله عليه**))[٤].

وهذا **الحريري** ينحو منحى بديع الزمان فيتخذ من الوعظ، وتزهيد الناس في الدنيا مطية للوصول إلى مأربه، وهذا راويه الحارث بن همام يروي لنا كيف أنه وصل إلى سمرقند، وبعد أن استعد ذهب إلى مسجدها الجامع، واقترب ليسمع الخطبة، فبرز الخطيب في أهبته، وارتقى المنبر، وبعد الأذان، قام، وقال: ((الحَمْدُ لِلّهِ المَمْدُوحِ الأَسْمَاء، المَحْمُودِ الآلاء ... أَرْسَلَ مُحَمَّداً للإِسْلامِ مُمَهِّداً ... وَصَلَ الأَرْحَام، وَعَلَّمَ الأَحْكَام ... اعْمَلُوا رَحِمَكُم ا لله عَمَلَ الصُّلَحَاء، واكْدَحوا بمَعَادِكُم كَدْحَ الأَصِحَّاء، وارْدَعوا أَهْواءكُم رَدْعَ الأَعْداء، وأَعِدُّوا للرِّحْلة إِعْدادَ السُّعَدَاء، وادَّرِعُوا حُلَلَ الوَرَعْ،

---

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) سورة النور، آية ٦٣ .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة – ﷺ –، كتاب النكاح، باب الغيرة، ٤٤/٧ . ورواه مسلم بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء، باب غيرة ا لله وتحريم الفواحش، ٧٧/١٧ .



وَداوُوا عِلَلَ الطَّمَع ... وادَّكِرُوا الحِمَام وسَكْرَةَ مَصْرعـه، والرَّمْس وَهَوْل مُطَّلعِه، واللَّحْد وَوحدَة مُودَعِه، والملكَ وَرَوْعَةَ سُؤَالِه ومطْلعِه ... الله الله، رعاكُمْ الله! إلاَمَ مُداوَمَة اللَّهْو، ومواصَلةَ السَّهْو، وطُولَ الإصْرَار، وَحَمْل الآصار، واطِّراحَ كَلام الحكَماءِ، ومُعَاصَاةَ إلهِ السَّماءِ! ... أَلاَ رَحِمَ الله امرأً ملكَ هواهُ، وأَمَّ مَسَالِك هُدَاهُ، وأَحكَمَ طاعةَ مولاهُ، وكدَّ وكدحَ لروحِ مأواهُ، وَعمِلَ مادامَ العُمْر مُطاوِعاً، والدَّهْرُ مُوَادِعاً والصِّحَةُ كَامِلَة، والسَّلاَمةُ حَاصِلَة، وإلا دَهَمَهُ عَدَمَ المرَام، وحَصرُ الكَلاَم، وإلمامَ الآلام، وحُمومُ الحِمَام، وهُدُوُّ الحوَاس، ومَرَاسُ الأَرْمَاس، ... الهمكُمُ الله أحْمَدَ الإلْهام، وردَّاكُمْ رِدَاءَ الإكرام، وأَحَلَّكُم دَارَ السَّلاَم، وأَسْأَلهُ الرَّحْمة لكُمْ ولأَهْل مِلَّةِ الإسْلام، وَهُو أسمحُ الكِرَام، والمسلِّمُ والسَّلاَم»[1].

إذن لولا انتشار الوعظ، والتفات الناس إليه، لما اتخذه أهل هذا المجتمع الذي عاشه **الحريري** وسيلة للكدية، وللخداع. ومابطل مقامات **الحريري** إلا صورة من هذا المجتمع، الذي يصر على إظهاره في صورة واعظ زاهد في الدنيا، وهو خلاف مايظهر في أكثر من مقامه[2].

و«يلمس الوعظ الديني عند **الحريري** بوضوح منذ المقامة الأولى، حيث يجعل أبازيد واعظاً، فقد جعله واعظاً في عشر من مقاماته هي : المقامة الصنعانية، والحلوانية، والسادية، والرازية، والكرجية، والتفليسية، والتنيسية، والحرامية، والبصرية.

ويلحظ أيضاً أن **الحريري** كان في كثير من مقاماته الأخرى يحض على الهدى، ويحث على العمل الصالح، ويزري على الدنيا ومن يغرمون بها، ويذكر ثواب الآخرة، وماينتظر الناس»[3].

النزعة إلى الزهد والوعظ:

فالزمخشري يسير على نفس خطى سابقيه من أصحاب المقامات فيعظ

---

(١) المقامة (٢٨): السمرقندية، للحريري، ٣/٣٣٠-٣٥٢. شرح الشريشي.
(٢) انظر المقامة (٤١): التنيسية، للحريري، ٥/٣-٢٦.
(٣) انظر: ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي جميل مهنا، ص ١٥٧، رسالة دكتوراه.



ويزهد في الدنيا قائلاً: «ياأبَا القاسم اتركِ الدنيا قبلَ أَنْ تتركك، وافركْها قبلَ أَنْ تفركك»(١)، ولما أراد لوعظه الوصول إلى الغاية التي من أجلها لجأ إليه، جعل الدنيا تتحدث بلسان حالها قائلاً: « طَلِّقْ القَائلَةَ بملءِ فِيهَا: أنا غَدَّارةٌ غَرَّارةٌ، خَتَّالَةٌ خَتَّارةٌ ومَاالفائلُ رأْيُهُ إلاَّ مَنْ رَآني علَى الأُخْرَى مُخْتَارة. لاتَنِي أيامها وَلَيَاليها ينحتْنَ مِنْ أَقْطَارِك، فقضِّ فيهَا أسْرعَ ماتقْضِي أهمَّ أوْطَارِك، إنَّ أهمَّ أوطارِك فيْهَا تَزُّودكَ مِنْهَا، فالبِدَار البِدَار قَبْلَ إشْخَاصِك عنها ... ألاَ إنَّ النَّذِيرَ بمفَاجَأةِ رَحِيلك، يَصِيحُ بِكَ في بُكْرتِكَ وَأصِيلِكَ، فَقُلْ لي أين جِهازُك المعَبَّا، وأَيْنَ زادُكَ المهُيَّا»(٢).

كما أنه يعظ ويزهد في مقاماته كلها، ومنها قوله: «ياأبَا القَاسِمِ العُمْرُ قَصِير، وَإلى اللهِ المصِير، فَمَا هَذَا التَّقْصِير، إنَّ زِبْرِجَ الدُّنْيا قَدْ أضَلَّك، وَشَيْطَانَ الشَّهْوةِ قَدْ استزَلَّك، لَوْ كُنْتَ كما تَدَّعي مِنْ أَهْلِ اللُّبِ والحِجَى، لأتيتَ بمَا هُوَ أَحْرَى بِكَ وأحْجَى ألاَ إنَّ الأحْجَى بِكَ أنْ تلُوذَ بالرُّكْنِ الأقْوَى، ولاركْن أقْوَى مِنْ رُكْنِ التَّقْوَى»(٣).

ومن ذلك أيضاً قوله في مقامة أخرى: «ياأبَا القَاسِمِ تبتلْ إلى اللهِ وَخَلِّ ذِكْرَ الخَصْر المبتَل، وَرَتِّلْ القُرْآن، وَعَدِّ عَنْ صِفَةِ الثغر المرتَّل، أَدِرْ عَيْنَك في وُجُوه الصَّلاحِ الملاح لِتعلقَ أصْلَحَها، لاَفي وُجُوهِ الملاح لِتعشقَ أصْبَحَها، وابكِ عَلَى مَامَضَى في غيرِ طاعةِ اللهِ مِنْ شَبَابِكَ، وَدَعْ البكاء عَلَى الظَّاعنينَ مِنْ أَحْبَابِكَ»(٤).

فلعلك لحظت أن **الزمخشري** قد وعظ فيما سبق بطرق شتى، ففي المثال الأول، حين أراد التنفير من الدنيا، لجأ إلى ذكر أهم ماتوصف به من أنها: غدارة .. غرارة .. ختالة .. ختارة .. وصاحب الرأي الضعيف هو الذي يختارها على الحياة الأخرى ويستكين إلى أيامها ولياليها، بينما الأجدر به أن يأخذ وطره منها؛ وهو

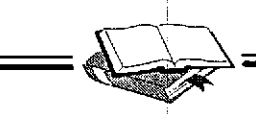
---

(١) المقامة (٥): الزاد، للزمخشري، ص ٤١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤١-٤٣. ختالة، ختله: خدعه عن غفلة، ختارة، الختر: أشد الغدر، انظر: اللسان، مادة: ختل، ختر

(٣) المقامة (٢): التقوى، للزمخشري، ص ٣٠-٣١.

(٤) المقامة (١٢): الطاعة، للزمخشري، ص ٧٣، المبتل: الخصر الدقيق كأنه بتل لحمه حتى دق، انظر: اللسان، مادة: بتل.



التزود بالعمل الصالح لليوم الآخر، وأن لايغيب عن باله أن رحيله عنها قد يكون في أية لحظة، فليكن على أتم استعداد، مزوداً بالزاد الذي ينفعه هناك، يوم لاينفعه مال ولابنون إلا من أتى ا لله بقلب سليم .

وفي المثال الثاني سلك طريقاً آخر في وعظه، وذلك بالتركيز على أهم الطرق التي يرتكز عليها في حياته، ألا وهو طريق التقوى؛ لأن أصحاب العقول السليمة الراجحة، لايركنون إلا له ولايستندون إلا عليه، متبعدين عن ضلال الدنيا، وشيطان الشهوة، لكونهم يعلمون علم اليقين أن العمر قصير، وإلى ا لله المصير.

وفي المثال الثالث سار على نهج من يلجأون إلى المقابلة، فيعظ بشيء، ويأتي بضده ليكون التأثير أقوى، والوصول للغاية أقرب، فيقول: تبتل إلى ا لله، واترك ذكر النساء ذوات الخصر المبتل .

واقرأ القرآن بتؤدة وترتيل، وعد عما يسمع من الثغر المفلج .

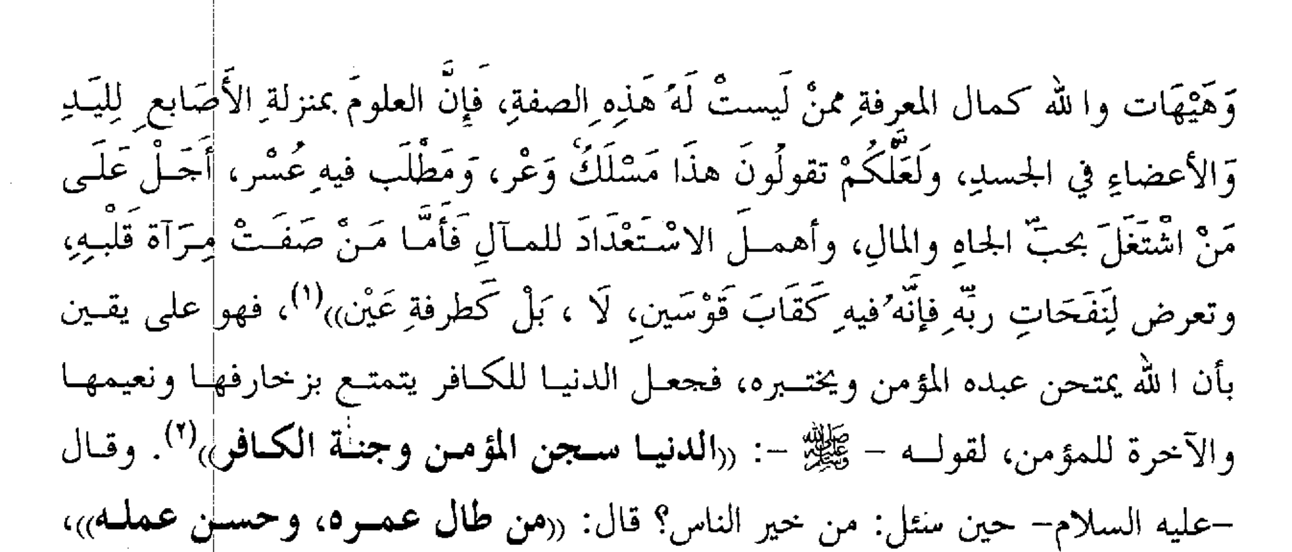
وركز عينيك في وجوه الصلاح لتصل وتتمسك بأصلحها، وأبعد عن التركيز في وجوه النساء الملاح لكي لاتقع في عشقهن.

ثم يأمر بالبكاء على مافات من عمرك الذي فرطت، وابتعدت فيه عن طاعة ا لله، ولاتبك على فراق أحبائك.

وهكذا فأسلوب المفارقة الذي لجأ إليه **الزمخشري** في وعظه وقع موقعه الأمثل، وكذا باقي وعظه الذي أقام عليه مقاماته كلها كما قال في مقدمته، فهو : ((يعظُ فيها نفسَهُ،وينهاها أَنْ تركَنَ إلى ديْدَنِها الأوّل،بفكرٍ فيه وذكرٍ لهُ إلّا علَى سَبيلِ التّندُّمِ والتّحَسُّر))[1].

وهذا **الأسواني** يحث على الزهد، وعدم الجري وراء الدنيا وشهواتها فقال: ((كَلا وا لله؛ حَتّى يهجرَ الدّنيا وَيودّعها، وَيُطَلّقَ الدعة وَيَدَعَهَا، ويميت هَوَى النَّفْس، وَيُحي ليلَتَهُ بالدرسِ، فَلايُبْقى علماً إلّا كَشَفَ قِنَاعَ سَتْرِهِ،وَهَتَكَ حِجَابَ سِرِّه،

(١) مقدمة مقامات الزمخشري، ص ٢٢، ت. يوسف بقاعي.



وَهَيْهَات وا لله كمال المعرفةِ ممنْ لَيستْ لَهُ هَذِهِ الصفةِ، فَإِنَّ العلومَ بمنزلةِ الأَصَابعِ لِليَدِ وَالأعضاءِ في الجسدِ، ولَعَلَّكُمْ تقولُونَ هذَا مَسْلَكٌ وَعْر، وَمَطْلَب فيهِ عُسْر، أَجَلْ عَلَى مَنْ اشْتَغَلَ بحبِّ الجاهِ والمالِ، وأهمـلَ الاسْتَعْدَادَ للمـآلِ فَأَمَّـا مَـنْ صَفَـتْ مِـرَآة قَلْبِـهِ، وتعرض لِنَفَحَاتِ ربِّهِ فإِنَّهُ فيهِ كَقَابَ قَوْسَين، لَا ، بَلْ كَطرفةِ عَيْن))[1]، فهو على يقـين بأن ا لله يمتحن عبده المؤمن ويختـبره، فجعـل الدنيـا للكـافر يتمتـع بزخارفهـا ونعيمهـا والآخرة للمؤمن، لقولـه – ﷺ –: ((**الدنيـا سـجن المؤمـن وجنـة الكـافر**))[2]. وقـال –عليه السلام– حين سئل: من خير الناس؟ قال: ((**من طال عمـره، وحسـن عملـه**))، قال: فأي الناس شر؟ قال: ((**من طال عمره، وساء عمله**))[3].

وهذا **ابن الجوزي** الذي كانت مقاماته تـدور في معظمهـا حـول الوعـظ، وإن تعرض من خلال الوعظ إلى موضوعات كثيرة؛ كقصص الأنبياء.

أما من حيث تصوير العصر ونقده الذي كتبـت فيـه المقامـات فـإن مقاماتـه لم تصور المجتمع الذي كتبت فيه تصويراً واضحاً، إلا مـن جـانب واحـد، وهـو الجـانب الديني، فقد وصف كثيراً من المجالس الوعظية، ومايدور فيها، ونقـد كثـيراً مـن أوجـه الحياة في عصره، وسنتناول ذلك كلاً في حينـه، أمـا هنـا فسـيكون الوعـظ هـو المتكـأ الذي سنركز عليه.

فها هو ذا في مقامته السابعة عشرة، يذكر كيف أنه أراد أن يفرج عن نفســه الهم فلم يجد إلا مجلس الذكر ومايذكر فيه من وعظ وهو مفتاح لتفريج كربته، وإبعـاد همه وإزاحة غمه، فيقول: ((تَغَشَّاني غَمٌّ اغْشَاني، فَشَـغَلَنِي وكَـفَّ شَـانِي عَـنْ شَـانِي،

---

(١) مخطوط المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ٧ .

(٢) رواه الترمذي، عن أبي هريرة – ﷺ – (٢٣٢٤)، كتاب الزهد، باب (١٦) ٤/٥٦٢، وقـال حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الـترمذي تحـت رقـم (٢٣٣٠) عـن أبـي بكـرة – ﷺ –، كتـاب الزهـد، بـاب (٢٢)، ٤/٥٦٦، وقال حديث حسن صحيح.



فَهَرَبْتُ مِنْ مَجْلِسِ الْفِكْرِ إِلَى مَجْلِسِ الذِّكْرِ»[١]، ثم أخذ يصف كيف أن الناس في مجتمعه، يتزاحمون مثله على حضور تلك المجالس فقال: «فَمَنَعَ الزحامُ مِنْ قُربِ المنبرِ، فلمَّا توَرطْتُ توسطتُ المعْبَرَ، فإِذَا الكلامُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وأَذْكَى مِنَ العنبرِ، وإِذَا المتكلمُ ذو هيئةٍ وهيبةٍ، فَصيح اللّهجةِ، مَليحُ الشّيبةِ، فحفظتُ مما يقولُ، وقَدْ حَيّر العقولُ: ياأُمَرَاء الجهلِ فكُّوا قيودَكمْ بِالْعِلمِ تَسْلَموا، وَقوُّوا أَنْفُسَكمْ الضِعَاف بِالتَّقوى تَقْوَى، وَاحْذَرُوا الإغْرَاق في بَحْرِ الْمَعَاصِي، فإِنَّ ذَنوباً مِنَ الذُنوب يُغرق، وَاعْلَموا أَنَّ حَياة الْفَاجِرِ فَضيحةُ الدَّهرِ، لأَنَّ الدّنيَا همتُه، وَاللّذة نهمتُه، يبيعُ الآجلَ الأجَلّ، بالعاجلِ الأَقَل، يَلبسُ ثِيابَ الحرّ عَلَى جَسَدِ عَبْدٍ، قَدْ أَنْضَاهُ الحرص وَأَضْنَاهُ الطّلَب»[٢].

وإلى مثل هذا أشار في مقامة أخرى، حين ذكر أن أحدهم أخرجه الهم، وتعب القلب، فوجد آخر مثله، وأخذا يجوبان ألف واد وواد، ويطوفان البلاد، لعلهما يقعان على المراد؛ وهو إزالة ماعلق بالفؤاد، إلا أن ذلك لم يتحقق إلا في مجلس ذكر، وعلى يدي واعظ وصفه، ووصف تزاحم الناس على مجلسه قائلاً: «إلى أَنْ دَخَلْنَا بَلْدةً .. فَوَجَدْنَا مَسْجِداً مِنْ مَسَاجِدِهَا، وَسَأَلْنَا عَنْ عَالِمِها وَزَاهِدِهَا، فَقِيلَ لَنَا: عِنْدَنَا مَاتَطْلُبُونَهُ، مُذكِّر قَدْ جَمَعَ الأَمْرَين، قُلْنَا: أتحبونَهُ؟، قَالُوا: نَرَىٰ بهِ الْقَمَرَين، قُلْنَا: صِفُوا لَنَا وَانْصِفُوا، قَالُوا: هَذَا أَخْطَبُ مِنْ سَحْبَان، وَأَبْلَغُ مِن قُسّ، بلفظٍ أَرقّ مِنَ النَّسِيم، في معانٍ أَدَقّ مِنَ الشَّعر، بعجلةٍ أَسْرَعُ مِن الْبَرقِ، بخاطرٍ أَجْودُ مِنَ الرِّيح، بحسنٍ أخْلَب من يُوسف، يَخْرُجُ الكلامُ مِنْ فِيهِ خُروجَ الْعَروسِ مِنَ الْخِدرِ... وَيلين بِوَعْظِهِ كُلّ قَلْبٍ أَقْسَى مِنْ الصَّخْر»[٣].

وأما أثر هذا المجلس على مستمعيه فهو : «تَرَى المتخلّف يَبْكِي عَلَى الْهَجْرِ، بُكَاءً أَمرَّ مِنَ الصَّبر، والْعَاصِي يبالغُ في العذرِ عَنْ الْغَدرِ، وَقَلْبُ النَّادِم أحرَّ مِنْ الجَمْرِ،

---

(١) المقامة (١٧): في المواعظ ، لابن الجوزي، ص ١٣٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٣٥-١٣٦، ذَنوباً: الأولى بمعنى الدلو، انظر: اللسان، مادة: ذنب.

(٣) في وصف واعظ، لابن الجوزي، ص ٢٧٥-٢٧٦.



فمجلسهُ عندَ الفُطناءِ ألذّ من الغِنَى بعدَ الفَقْرِ، وَأَطْيَب مِـن غنـاءِ العُـودِ والزمرِ، قُلْنَا: فَمَتَى مَجْلِسُه؟ قَـالُوا: بَعْدَ العَصْرِ، وَجَمْعُهُ يَزْدَحِمُ قبلَ الظّهْرِ، فَفرِحْنَا بِالمسابقةِ إلى المكانِ، فَرحَ الحاجّ بمكةَ، وَزَحمْنَا حَتىّ رُحِمْنَا، فَظَنَنا أَنّنا بِبكّة»[١].

وزيادة في وصف هذا الواعظ قال: «فـأقبلَ شيخٌ سِيمَاهُ يَدُل عَلَيْهِ، وَهَديه يَهْدِي إليهِ ... فَارْتقَى المنبرَ فَهَلَـلَ وسبحَلَ، وحَمدلَ، وَمَرّ في الذِكر كَأَنّه يضرب بِالمندلِ، ثُمّ أخَذَ يفتِي في الحَرَامِ والمباحِ والجائزِ، وَقَدْ صَاحتْ فَصَاحتُهُ بِالفصحاءِ: هَـلْ مِن مُبارزٍ، فَرَأَيْتُهُ أُمّةً في شَخْصٍ، وَعَالماً في فَرْدٍ ......

فيوجزُ لكنّه لايخلّ ** ويُطنبُ لَكنّه لَايُمل»[٢].

وقال في مقامة أخرى مظهراً تأثير مجالس الوعظ في الناس، بعد أن وصف ازدحامها، وبراعة واعظها: «ثُمّ دَخلْنَا المدينةَ وإذَا مُنَادِي الجمعة فَأَجبْنَا وتأهبْنَا وقرّبْنَا ... عَلاَ عَلَى المنبرِ عَالِمٌ ظَرِيفُ الخلائقِ، وَحَفّ به عَالَمٌ كَثيرٌ من الخلائـقِ، فوجدنَا فـج زُمرةٍ، وقلْنَا: نُردفُ الحجّ عُمرة، فَأَنسنا مِن الكلامِ الحسنِ بعبارةٍ أَحْلَى مِن الشهدِ، في ترقيقٍ ألين من الزُّبْدِ، بتخويـفٍ أفظَع مـن الرّعْدِ، فـإذَا القلوبُ تتوجعُ مِن الْوَجْدِ، وَتَبْكي بُكاءً أمرّ مِن الْفَقدِ، فَعَجِبْنَا مِن أَعْمَالِ تِلْكَ المواعظِ،وكَمَال ذَلِكَ الْوَاعظِ»[٣].

وفي مقامة ثانية تحمل العنوان نفسه، شرح لنا **ابن الجوزي** مـايحدث في مجالس الوعظ بدءاً من الأفراد الذين يبحثون عن تلك المجالس، ومروراً بنص ممايقال فيها، وانتهاءً بأثر الموعظة على مستمعيها قائلاً: «مَازلتُ أعاهدُ عَلَى أَنْ أتعاهدَ المواعِظ، وَأَسْعَى بوسعي، حَتّى أَمْلأ سَمْعي مِن كُلّ وَاعظ، فخلَتْ بلدُتَنا مَعَ كَثْرةِ العالَم، مِن واعظٍ ومن عَالِم، فبقيتُ فِيهَا كالحوتِ في البرّ، أَو كـالضبّ في البحرِ، ثُمّ سمعتُ أَنّ عربياً غريباً قَدْ قَدِمَ وَجلس، فزاحمتُ مُزاحمةَ مَـنْ صَـدمَ وصُـدمَ حَتىّجَلَس، فَحَمْدَلَ

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧٦.

(٢) المقامة نفسها، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٣) المقامة (٣٩): في الوعظ، لابن الجوزي، ص ٣١١.

وَحسْبَلَ وَسَبْحَل وَهَلّل وَدَعَا، ثُمَّ قالَ: رَحِمَ الله مَنْ سَمِعَ فَوَعَى»[١]، وأما بعض ماقاله فهو: «يَاابْنَ آدم تفكرُ في أمرِكَ، تَعْرِفُ قصر عمرِكَ، وتلمحُ انقضاضَ قَصْرِكَ، عِنْدَ انقضاءِ عَصْرِكَ، فكأنَّكَ بك وَقَدْ نودي راكبُ شئونكَ في أَهْلِكَ وَمصْرِكَ أبْرِكَ، وَسَطَت العِلَل فانْبَسَطَت انبساطَ الغَلل مِنْ شئُونِكَ إلى ظُفْرِكَ، فَيَاكثرة مَرَضِكَ وَيَاقِلَّة صَبْرِكَ، ثُمَّ جاءَ المَلَكُ فَرافعها فانتزَعَها مِنْ صَدْرِكَ، ثمَّ ألفيتَ ذَلِيلاً وَأُلْقِيتَ في قَبرِكَ، ورميت في قفرِكَ، قد منيت بفقرِكَ، ثمَّ تقومُ حَزِيناً يومَ نشرِكَ لحشْرِكَ، وينصب لَكَ ميزان ربحِكَ وَخسرِكَ، وربما امْتَدتْ يدُ الفضيحةِ إلى هَتْكِ سِتْرِ سِرِّكَ، ثُمَّ تَمشي قدمُ وَتَأْتي عَلَى جِسْرِكَ ... أَدْرِك وَاسْتَدرِك، ويحكَ وَاللهِ مَاتساوي اللَّذاتُ، أَنْ يخاطِرَ المخاطرُ فِيها بالذَّاتِ، وأي راحةٍ في لُقمَاتٍ، تكون عندَ الحسابِ نَقماتٍ مُنْتَقِماتٍ، كم وقعتَ في مَهْواة شَهوات؟ ثُمّ فارَقَتْ فأَرّقَتْ، وتَبعت تَبِعَات ... وَيحكَ إنَّما هُوَ صَبْرُ سَاعَةٍ عَنْ الحرامِ أَوْ عَلَى الطَّاعاتِ، فَازَ بِهِ المتيقظون وفاتَ أهلَ الغَفلات...»[٢].

أما عن أثر تلك الموعظة فقال" «فَارْتَجز المجلسُ ثُمَّ ارتَجّ»[٣].

وفي مقامة أخرى ذكر **ابن الجوزي** مثالاً آخر عن مجلس من مجالس الوعظ، حيث إن الواعظ لم يكن واعظاً من تلقاء نفسه، فالناس هم الذي استعطفوه وطالبوه، بل إنهم ألحوا على ذلك، فها هو ذا يوضح ذلك قائلاً: «فَلمّا أصبحْنَا سمِعَ بِهِ أهلُ الْبَلدِ، فَاجتمعُوا حَتَّى لمْ يبقَ مِنْهُمْ أَحَد، فَخَرَجَ إِليهم، فَسَأَلوه الجلوسَ، وَجَعَلُوا يَفدُونَهُ بالأرواحِ والنّفوسِ، فقالَ: قَدْ سهرتُ لَيلتي في وَعْظِ هَذَا الغلامِ، فَقَالُوا: نَقنعُ بيسيرٍ مِنَ الكلامِ، فترددَ بينَ أَنْ يقولَ: نَعَمْ، أَوْ لَا، فقالُوا: أَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ جَادَ عَلَى الخَدَمِ وَأَوْلَى، وَأَنْشَدُوه، بِذلةِ العبيدِ عِنْدَ المولى :

يَامَنْ صَفَتْ أَخلاقُهُ وَاحْلَولَى ** أنتَ الكريمُ لَيْسَ فِيهِ لَوْلَا»[٤].

---

(١) المقامة (٤٤): في الوعظ، لابن الجوزي، ص ٣٥٥.

(٢) المقامة نفسها، ص٣٥٥-٣٥٦، الغلل: الماء الذي يجري تحت الشجر، اللسان، مادة: غلل.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٦١.

(٤) المقامة (٤٥): في الأحاجي والمكاتبة والمواعظ، ص ٣٧١.



ومن مواعظه التي قالها لهم : ((إخْوَاني البسوا للدنّيا جنّة الهَجْرِ، واسمعُوا فِيهَا مِن وَاعظِ الزّجْرِ، وَاحسبوهَا يوْماً صُمْتُمُوه للأجْرِ، وَصَابِرُوا لَيْلَ الْبَلاءِ فَمَا أَسْرَعَ إتيانَ الْفَجْرِ...))[١].

ومن الصور الاجتماعية التي أبرزتها المقامات باعتبارها نقداً للمجتمع :

اللهو والمجون :

قدم لنا بديع الزمان الهمذاني في مقاماته الجانب الزاهد في المجتمع، ثم حدثنا عن الجانب الآخر، جانب اللهو والمجون، ولم يغفل تصوير الحياة العابثة اللاهية، فأخذنا إلى بعض مجالس القوم، وأطلعنا على مايدور فيها من أسباب اللهو والمتعة، وولج بنا إلى حاناتهم، ورفع لنا الستار عن اجتماعهم على الخمرة والوتر[٢]، وكل ذلك كان وصفاً لمجتمعه آنذاك[٣].

أما **الزمخشري** فقد ذكر أن هناك من عاش في مجتمعه على اللهو والمجون، وانغمس فيها حتى بلوغه سن الكهولة ولم يرعو، لذا نجده يحضه على ترك ذلك قائلاً: ((أَصبوةً وحَقّ مثلكَ أن يَصحُو، لاَ أَنْ يصْبُو، أنزَاعاً وَقَدْ حَانَ لَكَ أَنْ تنزُعَ لاأنْ تنزِعَ ماأقبحَ لمثلكَ الفُكاهَةَ والدُّعَابةَ، وديدَن المِمزَاحِ التَّلعَابة، يَاهذَا الجدَّ الجِدَّ، فقدْ بلَغْتَ الأشُدّ وخَلّفْتَ ثنيةَ الأربعين، ولهزَ القَتيرُ لِدَاتِكَ أَجْمعِين، أبعْدَ ماعطلتَ شَبيبتَكَ في التغزّلِ والتّشبيبِ، وَذَهبتَ بصفوةِ عُمُركَ في صفةِ الحبِّ والحبيبِ، وأضللتَ حلمكَ في أوديةِ الهوَى، وعكَفْتَ همَّكَ عَلَى أبْرقِ الحِمَى وَسِقْطِ اللوَى ... تُريدُ – وَيحكَ–

(١) المقامة نفسها، ص ٣٧٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : المقامة الخمرية .

(٣) مجتمع الهمذاني، مازن المبارك، ص ٥١.



أنْ تُصِرَّ على مافعلتَ وأَنْ تُشيِّعَ النارَ التي أشْعَلت ... أَنِبْ إلى الله لَعلّ الإنَابةَ تُمَحِّصْ، وافْزَعْ إلى الله لعلّ الفَزَعَ يُخَلِّص ..))[1].

فأعطى صورة من صور مجتمعه تمثلت فيمن بلغ الأربعين، وهو مازال في لهوه ومجونه وتشبيبه وتغزله بالنساء، وكثرة المزاح واللعب، فيحثه على ترك ذلك قائلاً: ((مَاأَقبحَ لِمثْلِكَ الفُكَاهَةَ والدُّعَابة ودَيدَنُ المِمْزاحُ التَّلعَابة، ياهذا الجِدَّ الجِدَّ)).

كما أن **الزمخشري** رأى بعض الشباب وقد اتخذ لنفسه وسيلة للهو عن طريق التعلق بالنساء الحسان، أو بالأموال أو حب الملاهي التي تؤدي إلى المناهي، لهذا قال يحذر من ذلك: ((وإيَّاكَ والكَلَفَ بِبَيْضاتِ الخُدُورِ، وقَسَماتِهن المُشَبَّهةِ بالبُدورِ، وأَنْ تعلّقَ هِمّتك بِأَعْلاقِ الأمْوالِ، والاستيثَاقِ مِنْها بِالأَبْوابِ والأَقْفَال، واسْتَنِظر نَفْسكَ إنْ تَقَاضَتْكَ إيثارَ الملاَهِي واستَمْهِلها إنْ طَالبتْكَ بِارْتكَابِ المنَاهِي ...))[2].

فقد حذر ماحذر منه رسول الله -ﷺ- في قوله:((**اتقوا الدنيا واتقوا النساء**))[3].

ثم بين حال هذا الإنسان الذي انحرف وراء لهوه، ومجونه وسار وراء شهواته وأهوائه، لو تعرض لمصاب ألم به، فكيف يكون حاله، فقال: ((والَّذِي بَيْنَ دَفَّيْه قَلبُ هَوَاءٍ قَدْ تَياسَرَتْهُ الشَّهواتِ والأَهْوَاء. لااسْتِبْصَارَ يزَعُه، ولاَرَوِيّة تَردَعه، لايعْرِف الغَثَاثَة والسَّمَنَ إلاَّ في بدَنِه ومَاشِيَته، ولاَيفْطَنُ للقِلَّةِ والْكَثْرة إلاَّ فِي ضَبْنَتِه وحَاشِيَته لايعْبأُ بِدِيْنِه أَغَثٌّ هُو أَمْ سَمِين، بَلْ هُو بالغَثَاثَةِ قَمِيْن، ولاَيكْتَرِثُ بخَيْره أَقليلٌ هُوَ أَمْ كَثِير، بَلْ هُو بِالقِلَّة جَدِيْر، وَلاَيرَى النُّقْصَانَ إلاَّ مَاوقَع فِيْ مَالِه، ولاَيُبَالِيْ به فِي سَيْرِهِ وأَعْمالِه، قَدْ

---

(١) المقامة (٧): الإنابة، للزمخشري، ص٥١-٥٥، ت: يوسف بقاعي. التلعابة : الكثير اللعب. اللسان، مادة : لعب. لداتك: اللدة : من ولد، قيل: لدة الرجل: لمن وافق ميلاده ميلاده، انظر: اللسان، مادة: لدد.

(٢) المقامة (٩): الاعتبار، للزمخشري، ص ٦٢-٦٣، ت: يوسف بقاعي. ببيضات الخدور: النساء الحسان البيض . قسماتهن : أعلى الوجنة. أعلاق: العلق: النفيس الذي تعلق به النفس. تقاضتك : طلب الدين. انظر: اللسان، مادة : بيض، قسم، علق، قضى.

(٣) رواه مسلم بشرح النووي عن أبي سعيد الخدري - ﷺ - كتاب الذكر، ١٧/٢٤.



رَانَ عَلى قَلْبه حُبُّ الدُّنيا رَيْنا، وزَانَهُ الشَّيطَانُ في عينِه زَيْنـا، فَذاكَ إنْ نَـزَلَ بِـه بعـضُ اللأْوَاءِ رُزِيَء فِيه أيْضاً بِعثُوبة العَزاء ولاَيْدرِي أنَّ الرُّزْءَ بالثَّوابِ أطَمّ وإنْ سَالَ به البحرُ الغِطَمّ»[(١)].

إذن فحال هذا الذي انغمس في لهوه ومجونه لو نزلـت بـه بعـض المحـن رزيء: أي أصيب بشدة، رغم أن مصابه قليل، إلا أن حب الدنيا وإنجرافه وراءها؛ جعله يرى ذلك المصاب كبيراً، ولو أنه صبر لنال الثواب الأكبر، لكن هذا حال هذه الشريحة مـن المجتمع في زمن **الزمخشري**، وفي أي زمان، فمن أحب اللهو والدنيا ران على قلبه.

وها هو ذا **الزمخشري** يذكر بعده عـن اللهـو والمجـون، بتركـه شرب الخمـر فقال: «ياأبا القاسم زَعمتَ أنَّكَ ماألممتَ بمُعَاطَاةِ كَـأْسِ العُقَـار لافِي أوْقَـاتِ الطَّيْـشِ، ولا إذْ لَبِستَ ثوبَ الوَقَارِ، وأنَّ حُمَيَّاهَا لم تَطِر في هَامَتِك، ولادَبَّـت في مَفَاصِلك، ولمْ تقِفْ على حَقِيقة أثْرها وعَملِها، ولاعَرَفْتَ مَامعْنَى نَشْوتِها وَثَمِلِها، وأنَّكَ مِنَ المصونينَ عمَّا يُدنِيها ويُدْنِي منْهَـا، والآمنِـينَ أنْ تُسـأَلَ يَـوْمَ العـرْض أعمـالَكَ عنْهـا، إيْهـاً، وإنْ صَدرتْ زَعْمتُكَ عنْ مَصْدُوقة، وكَانَت كَلِمتُكَ مَحْضَةً غيرَ مَمْذوقَة، فَغَيبَـةُ الأخِ المسـلِمِ منْ تَعاطِي الكأْسِ أحْرمُ...»[(٢)].

إذن **فالزمخشري** لايظهر متعاطياً الخمرة، بل إنه ينفي تعاطيه إياهـا، لافي أيـام الشباب ولافي المشيب، ولذا فهو لايعرف حقيقة أثرها وعملها المؤدي للثمل والسكر، الذي يؤدي بدوره إلى فقدان الشخص الشارب لاتزانه، فتصدر منـه تصرفـات مشينة تذهب وقاره بعد ذهاب عقله، لكن **الزمخشري** أراد بهذا النفي أن يصل للتحذير مـن الغيبة «فَغَيبةُ الأخِ المسلمِ منْ تَعاطِي الكأْسِ أحْرمُ»، كما قال.

(١) المقامة (١٠): التسليم، للزمخشري، ص ٦٦-٦٨ ت:يوسف بقاعي. الغثاثة: الضعف والهزال، ضبنة: عياله، اللأْواء : المحنة. رُزيء: أصيب بشدة، أطم: أغلب. الغطـم: الكثير الماء. انظـر: اللسان، مادة:غثث، ضبن، لوأ، رزء، غطم.

(٢) المقامة (١١): الصمت، للزمخشري، ص ٦٩-٧١، يوسف بقاعي.



أما في مقامته العشرين فقد بين ماهية هذا اللهو الذي تنغمس فيه النفس بعد أن تطلبه فقال حاثاً لعدم الانصياع لها ((ياأبا القاسم بَسَأَتْ نَفْسُكَ بالشَّهَواتِ فَافْطِمهَا عنْ هَذَا البُسُوء، ولاتُطِعْها إنَّ النفْسَ لأَمَّارَة بالسُّوءِ. تَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ يكُونَ مَسْكَنُهَا دَاراً قَوْرَاء، وَسَكَنُها مَهَاةً حَوْراء، تجُرُّ في عَرَصَتِها فُضُولَ مِرْطِهَا، وتمَسُّ عَقْوتَها بهُدَّابِ رَيْطِهَا، وتُرَقْرِقُ المِسك السَّحِيقَ في تُرَابِهَا. إذَا لعِبَتْ فِيها مَع أَتْرابِهَا. تَطْلُعُ إلَيْكَ مِنْ جَانِبِ الخِدْرِ. كَمَا انجَابَتِ السَّماءُ عَن شِقَّة البَدْر. وأَنْ تكُون سَمَاءُ رُواقِها مُنَمَّقة بالرَّقْمِ الذِّرْيَابِي، وأَرضها منجّدةٌ بالبُسط والزَّرابِي، وأنْتَ مُتَّكِئٌ فِيهِ عَلَى الأَرِيكَة. مَعَ تُرْكِيَّةٍ كالتَّرِيكة. وتَقْتَرِحُ عَليكَ وَصِيفاً مَوْصُوفاً بالجَمَال. واصِفاً للغزالةِ والغزالِ. مُقَرْطِقاً مُخَنَّقَ الخَصر يَنفُثُ في عُقَدِ السِّحْر ... يُقْبِلُ إليكَ بخُوط البَان، ويُدْبِرُ عنكَ ببعض الكُثْبان، وتسأَلُكَ أنْ تَلْبَس مَايَدِقُّ وَيرِقُّ مِنْ خُرِّ الملابِس، ومَايَرُوقُ وَيفوقُ مِنَ الحُلَلِ والنَّفائِسِ. مُسْتشْعِراً مَالاَنَ مِنَ الحرِيْر. مُتَدَثِّراً بِمَا رَاقَ مِنَ الحِبَرْ، مِرْواحاً في مَصِيفكَ ومشْتاكَ بيْنَ اللَّاذِ والرَّدَن، مُنْتقِياً مِنْهُمَا ماهُو أخَفُّ وأَدْفأُ لِلبَدن. وَتَحْدُوك علَى رُكُوبِ أَعتَقِ المراكِبِ وأَرْوعِها، وأَسْلَسِها قِيَاداً وأَطْوعِها، مُوشّىً بالآلاتِ المزيّنة، مغشّي بالحِليةِ الزَّرِينَة مِنَ الذَّهَبِ الحمْراءِ، والفِضَّةِ البَيْضَاءِ، كأَنَّمَا يَسْبَحُ في لجُةٍ من اللُّجَيْنِ أَوْ تَسِيحُ عَلَيْهِ عينٌ منَ العينِ، وتَدْعُوكَ إلى أَكْلِ الطيِّبِ النَّاعِم مِنْ أَلوانِ المطَاعِم))(١).

---

(١) العفة، للزمخشري، ص١١٨-١٢٢، ت: يوسف بقاعي ، بسأت: اعتادت، داراً قوراء: واسعة، مهاة : بقرة الوحش، حوراء : شدة بياض البياض وشدة سواد السواد في العين، عرصتها: ساحة الدار، مرطها: الثوب الحريري، العقوة: ساحة الدار، هداب: الخيوط التي تبقى في طرفي الثوب، ريطها : ثوبها، ترقرق : تخلط، الذريابي: ماء الذهب، التريكة: بيض النعام، خوط بان : قده، اللاذ : الحرير الأحمر، الردن: الخمر، اللجين: الفضة، العين: الخالص من الذهب. اللسان ، مادة : بسأ، قور، مهي، حور، عرص، مرط، عقو، هدب، ريط، رق، ذرب، ترك، بون، لاذ، ردن، لجن، عين.



وبعد أن ذكر كل هذه الألوان مما تلهو به النفس وتشتهيه طلب قائلاً: ((وَيْحَكَ لاتُجِبْهَا إلَى شَيْءٍ مِنْ طِلْبَتِها، وأَرْجِعْها نَاكِصَةً عَلى أَخْيَبِ خَيْبَتِها))[١]، فهو يحذر من الانجراف في اللهو، لأنه أمر مطرد بالخسران المبين.

ومن اللهو الذي ذكره **الزمخشري**، وحذر منه التشبيب والنسيب والتغزل بالنساء قائلاً: ((وكَأَيِّنْ لَكَ مِنْ تَشْبِيبٍ ونَسِيب وتَخَلُّصٍ إلى امْتِدَاح دَخيلٍ أوْ نسيبٍ، ومنْ كلمةٍ مُخزيةٍ شَاعِرَة وَقَافيةٍ طَنّانةٍ نَاعِرَة ومَطْلعٍ كما حَدَرتِ الحَسْناءُ مِن لثَامِها. وَمَقْطَعٍ كما استُلِذَّتْ الصَهْباءُ بطيبِ ختامِها . أيَّةَ نارٍ شَبَبْتَ علَى كَبِدِكَ إذ شَبَّبْتَ، وإلى أيِّ عَارٍ نَسبتَ نَفسَكَ حِينَ نَسَبْت، ... إنَّ صَاحِبَ الغَزَل والنَّسيبِ لَيْسَ لَهُ عندَ اللهِ منْ نصيبٍ، سُحْقاً لمَا يَجري منَ القَوافِي على أَلْسُنِ المنْشِدين، ومَرْحَباً بالنُّفوسِ القَوافِي في آثارِ المرْشِدين. مِنْ أَيْنَ يُفكِّرُ في الاسْتِهلالِ والمَطلَع، مَنْ هُو مَنُوط الفِكْرِ بأهوالِ المطْلَعِ. وكيفَ يَفْرَغُ للإغْرابِ في التخَلّص إلى المدْحِ. مَنْ هُو مِنْ طلبِ تخلُّصٍ آخر في الكَدِّ والكَدْح . لقدْ أضللتَ هِمتَكَ في وادِي الشِّعرِ فَأصِخْ لمُنشِدها وإنْ أنشدَتَ نَفاثاتِ الشُّعراءِ فلاتُصغِ إلى مُنْشِدها . نادِ أمَّ الشُّعراءِ ياخَبَاث وعجِّلْ بَتاتَها بالثَّلاثْ))[٢].

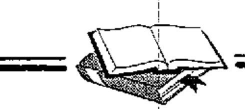
فمن أنواع اللهو الانشغال بنظم الكلام، والتفكر في مطالع القصائد، والتغزل في النساء، وهؤلاء نصحهم **الزمخشري** بقوله : ((نَادِ أُمَّ الشُّعراءِ ياخَبَاث، وعجِّلْ بَتاتَها بالثَّلاثْ)).

أما **الأسواني** فقد ذكر اللهو بعد أن بدأ مقامته، بين جماعة يتحدثون عن التمييز بين القديم من العلوم والحديث، فبدأ النحوي مفضلاً النحو على سائر العلوم، ثم من فضل علم اللغة وتبعهما من فضل علم الشعر، ومن ثم صاحب علم العروض

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٢٣.

(٢) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة، للزمخشري، ص١٨٠-١٨٣، ت: يوسف بقاعي . ناعرة: صاخبة، النفوس القوافي: التوابع، نفاثات: مانفثته من فيك من الشعر، بتاتها: قطعها وطلاقها، انظر: اللسان، مادة نعر، قفى ، نفث ، بتّ .



والقافية ولحق به من فضل صناعة النثر، إلا أن الأسواني بعد ذلك قال عنها كلها على لسان أحد أفراد تلك الجماعة إن هذا من اللهو : ((لَقَدْ طَاشَتْ عَنْ الغرضِ سِهَامُكُمْ وَكَثُرَ في الهَذْرِ كَلامُكُمْ، وَشَغَلتُمْ أَنْفَسَكُمْ بالتّرّهَات، وَضَيّعْتُم بهِ فِيمَا لاَينْفَعُ الأَوْقَات))(١).

ففي قوله ترهات(٢)، أظهر أن الانشغال بهذه العلوم باطل؛ ونوع من اللهو الذي يضيع الوقت فيما لانفع منه، ثم إنه ذكر ماالذي ينفع قائلاً:((أينَ أنتمْ مِنَ العلومِ الدينيةِ وَالآداب الشّرعيةِ وَالمسَائِلِ الخِلاَفِيّةِ وَالأُصُولِ الفِقْهيةِ،وَقِرَاءة كِتَابِ ا لله وَتَأْوِيلِهِ، وَرواية حَدِيثِ رَسُولِ ا لله- ﷺ- الـتي هِي قَوَاعدُ الإسلامِ وَمَدَارك العِلمِ بالْحَلالِ وَالْحرامِ..))(٣).

وهذا الحكم الذي أطلقه الأسواني جائر، صحيح أن العلوم الدينية، كما ذكر، إلا أن العلوم الأخرى السابقة، والتي أطلق على من انشغل بها انشغل بالترهات، فيها من المنفعة التي تعود على الإسلام بالشيء الكثير، فمثلاً علم النحو، من لايعرفه كيف يستطيع أن يقرأ كتاب ا لله الكريم والقرآن العظيم قراءة سليمة خالية من اللحن.

غير أنني معه في أن الانشغال بالغناء والموسيقى، لهو بل مجون، وعلم ماأنزل ا لله به من سلطان، وإن جاء على لسان من فضله من العلوم قائلاً: ((أَغَفَلْتَ عَنِ الصناعةِ الموسيقيةِ، وَبهَا تحدثُ الحركاتُ النَّفْسَانية باتفاقِ النسبِ التّأْليفيةِ، والإيقاعاتِ الصّوتيةِ، وَلَوْلاَهَا لَمَا علمت أسْبَاب الألحانِ المشْجِيةِ المبكيةِ وَالأنْغَامِ المطربةِ الملهيةِ))(٤)، فقد صرح هاهنا بأنها ((ملهية))، ومع هذا فقد ذكر أن لها قوماً يحرصون على تعلمها، ويشيدون بهذا العلم، بل ويفضلونه على سائر العلوم، وكأنهم

---

(١) مخطوط المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ٣.

(٢) تره، ترهاً: وقع فى الترهات، والتره: الباطل، انظر: اللسان، مادة: تره.

(٣) مخطوط المقامة الحصيبية ، للأسواني ، ص ٣ .

(٤) ص ٤ من المخطوط نفسه .



لم يسمعوا قول رسول ا لله - ﷺ -: ((**إن ا لله تعالى حرم على أمتي الخمر والميسر والكوبة والغبيراء، وكل مسكر حرام**))(١).

أما **ابن الجوزي** ، فقد أشار إلى اللهو المتمثل في الغناء والمعازف، لكنه وضح أنه بعيد عن هذه الملاهي، مشغول عنها بما هو أفضل منها قائلاً : ((فقلْتُ: ماتقولُ في سماعِ الأَغَاني، فقالَ: شُغِلْتُ عَنْهَا بإيقاعِ المعَاني))(٢)، إذن فقد وجه إليه السؤال لمعرفة رأيه في هذا النوع من اللهو، فأجاب بما ينفي عدم تعلقه به، بل هو مشغول عنه بالتأمل في المعاني.

وفي مقامة أخرى أكد على عدم تعلقه بالغناء ومايصاحبه من موسيقى صادرة عن العود والزمر فقال: ((فمجلسه عِنْدَ الفطناءِ ألَذُّ مِنَ الغِنَى بَعْدَ الْفَقْرِ، وَأَطْيبُ مِن غناءِ العودِ والزَّمرِ))(٣)، ولعل هذين المثلين يؤكدان موقف **ابن الجوزي** من اللهو الذي اجتاح مجتمعه، المتمثل في الغناء وآلات الطرب، فهو لايركن إلى الملاهي؛ لأنها تلهيه عن مجالس الذكر، بل إن تلك المجالس لديه ألذ من الغني بعد الفقر، وأطيب من الغناء المصاحب بالعود والزمر .

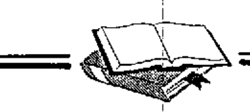
ومن أنواع اللهو التي ألمح إليها **ابن الجوزي** وأسرف فيها أفراد مجتمعه ((شرب الخمر))، ولكنه يحذر وينفر منه، فها هو ذا يوضح الفرق بين ماشتهر به زاهد في الدنيا، وبين متكالب عليها، منغمس في شهواته، لاهٍ عن الآخرة، عاكف على شرب

---

(١) صحيح أخرجه أحمد في مسنده ١٧١/٢ عن عبدا لله بن عمر - رضي ا لله عنهما-. وأبوداود تحت رقم (٣٦٨٥) في كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، ٣٢٨/٣-٣٢٩.
فالكوبة:الطبل الصغير،وقيل هو البربط، وعلى كل حال فهو آلة من آلات الطرب، وقيل هي شراب يتخذه الحبشة من الذرة،وكونها آلة من آلات الطرب،كالعود والطنبور أقرب، ووجهة دلالة الحديث على تحريم الغناء هي: أن الغناء لهو وحرام،ولو لم يكن حراماً كيف تحرم آلته؟.
انظر: الإعلام بأن العزف والغناء حرام، أبوبكر الجزائري، ص ٣٩.

(٢) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز لابن الجوزي، ص ٩٢.

(٣) المقامة (٣٥): في وصف واعظ لابن الجوزي، ص ٢٧٦.



الخمر فيقول: ((كَمْ بينَ مَعْرُوفٍ وَأبي نُواس، هَذَا كَاسٍ بالزّهدِ، وَذَاكَ شَـائِتَهُ الْكَـاس، ثُـمَّ مَا لمَنْ تَقَرْقَـفَ وَالْقَرْقَـف؟))(١)، والبـون شاسـع، فـالأول زاهـد في الدنيـا تقرقـف، وأصابه البرد، وآلمه حتّى اصطدمت ثناياه بعضهـا ببعـض، والثـاني يعـب مـن الخمـر، وكأس القرقف: الخمر لاتفارقه، فشتان بين الاثنين، وقد صرح أيضاً بموقفه من الخمـر حين قال: ((فقلتُ: لعلكَ ممن هَوَاهُ في السكرِ. فقالَ: أعوذُ بالإلهِ مِنْ كَلِمةِ النُّكْرِ، إنَّ الشَّمُولَ تبدّدَ شَمْلَ الدّين، وَلَيْسَتْ مِن شَأْنِ الفُطَنَاءِ وَلَا المهْتَدِين))(٢).

إذن **فابن الجوزي** يعلم يقيناً أن الشمول : الخمر، تبدد شمل الدين، ومـن لديـه فطنة، ويهتدي بهدى الإسلام، يعرف – كما عرف **ابن الجوزي** – أن الخمر حرام.

أما الحكمة في تحريـم الخمـر فقـد بينهـا **ابـن الجـوزي** في مقامـة أخـرى قـائلاً: ((مَاالحكمةُ في تحريمِ الخمرِ؟ فقالَ: إنَّها تميتُ العقلَ، وَتحيي النَّفْسَ، وَيَنْبَغي أَنْ يَكـونَ الأمرُ بالعكسِ))(٣)، وقد ذكر ذلك أبوبكر الجزائري فقال: ((الحكمة من تحريـم الخمر المحافظة على سلامة دين المسلم وعقله وبدنه وماله))(٤).

ومن الصور الاجتماعية أيضاً :-

عقليـة العامـة :

أما عقلية القوم من القرن الرابع الهجري إلى السادس الهجري، فقد حدثنا عنها التاريخ بما يرفع رأس أمتهم فخراً واعتزازا؛ فقـد كـانت عقليـة جبـارة نشيطة مبدعـة خاضت كل علم، وألفت في كل فن، واسـتوعبت مـاورد إليهـا مـن قرائـح العقليـات الغريبـة عنهـا كالفارسـية واليونانيـة والهنديـة ... وحسـبنا أن نتذكـر أعـلام الفكـر

---

(١) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمداراة، ص ١٨٤، تقرقف: أصابه البرد، القرقـف: الخمـر، اللسان، مادة : قرف.

(٢) المقامة نفسها وكذا الصفحة.

(٣) المقامة (٢٩): في ذم إبليس، لابن الجوزي، ص ٢٣٢.

(٤) منهاج المسلم، ص ٦٦٥ .



الإسلامي في تلك الحقبة لنعلم مدى ماوصلت إليه تلك العقلية من نضج ورقي. ولكن هل القوم كلهم علماء؟ وهل القوم كلهم ذوو عقليات راقية تسبر الأغوار؟ لابد من ترك العلماء جانباً للبحث عن الصفات العقلية للسواد الأعظم من الناس، والتي منها:[1]

إيمانهم بالحرز:

لعل من أبرز خصائص «عقلية العامة» سرعة التصديق العجيبة لكل مايقال لهم، ولعل لنا في المقامة الحرزية لبديع الزمان **الهمذاني** مثالاً يبين ماكانت عليه العامة من سرعة الإيمان وسلامة الطوية، ومن أسرع إيماناً وأسلم طوية ممن يعتقد أن حرزاً ينجي من الغرق؟ وليته كان حرزاً متصلاً بأسباب الدين، أو كان آيات من القرآن الكريم، إذن لكان للقوم عذرهم لما يوحى به الإيمان بالدين من الاطمئنان، ومايلقيه في النفس من السكينة، ولكنه حرز مصون بالديباج والعاج، يتلقاه القوم مؤمنين، قبل أن يعلموا حقيقة مايحتويه(١).

وهذا عيسى بن هشام يروي كيف يحتال أبوالفتح الإسكندري على راكبي الفلك حيث تشتد الأمواج، وتهطل الأمطار، ويفزع الناس إلا أبا الفتح الإسكندري، فيسألونه: «ماالذي أَمَّنَك مِنَ العَطَبِ؟ فيقول: حِـرْزٌ لايَغْـرَقُ صاحِبُـهُ، ولـو شِئْتُ أن أَمْنَحَ كُلاًّ مِنْكُمْ حِرْزاً لَفَعَلْتُ، فكلٌّ رَغِبَ إليه، وأَلَحَّ في المسألةِ عليه، فقال: لَـنْ أفعلَ ذلِكَ حتَّى يُعْطِيني كُلٌّ واحدٍ مِنكُم دِيناراً الآن، وَيَعِدَني ديناراً إذا سَلِمَ، قَالَ عيسى بْنُ هِشَام: فَنقَدْنَاهُ ماطَلَبَ، وَوَعَدْنَاهُ ماخَطَبَ، وآبَتْ يَدُهُ إلى جَيْبِهِ فأخْرَجَ قِطْعَةَ دِيبَـاجٍ، فيها حُقَّة عاجٍ، قَدْ ضُمِّنَ صَدْرُها رِقاعاً، وَحَذَفَ كُلَّ واحِدٍ مِنَّا بواحِدَةٍ مِنْها، فَلَمَّـا سَلِمَتِ السَّفِينَة وأَحَلَّتْنا المدِينَةَ، اقْتَضَى النَّاسَ ماوعدُوهُ، فَنَقَدُوهُ»(٢).

يقول د.مازن المبارك: «والطريف أن يستمر خداعه وأن ينقدوه ماوعدوه بعد سلامتهم من الغرق»(٣).

---

(١) انظر: مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، د. مازن المبارك، ص ٥٤-٥٥ بتصرف.

(٢) المقامة (٢٣): الحرزية، لبديع الزمان الهمذاني، ص ١٤٦-١٤٨.

ولقد صور **الحريري** أيضاً إيمان الناس بالحرز في حل كثير من المشكلات في مجتمعه آنذاك، وذكر موقفين تحايل فيهما السروجي عن طريق الأحراز في المقامة العمانية، فعندما ركبوا السفينة أخبرهم أن معه عُوذة مأخوذة عن الأنبياء «صَاحَ صَيْحَةَ المبَاهي وقال: أتدْرون ماهِي! هِيَ وا لله حِرْزُ السَّفْرِ، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ في البَحْرِ، والجُنَّةُ مِنَ الغَم، إذَا جَاشَ مَوْجُ الْيَم، وبها اسْتَعْصَم نوحٌ من الطُّوفَان، ونجَا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الحَيَوان؛ على ماصَدعَتْ بِهِ آيُ القُرآن، ثُمَّ قرأ بَعْدَ أساطِير تَلاهَا، وزَخَارِفَ جَلاهَا، وقال: اركَبُوا فِيهَا بِسم ا لله مَجْرَاها ومُرْسَاها، ثُمَّ تَنَفَّسَ تَنَفُّسَ المغْرمِين، أوْ عبادِ ا للهِ المكْرَمين، وَقَالَ: أمَّا أنا فَقَدْ قُمْتُ فِيكُمْ مَقَامَ المبَلِّغِين، ونصحتُ لكُمْ نُصْحَ المبَالِغِين، وَسَلكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الراشِدين، فاشْهَدِ اللهُمَّ وأَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِين»(١).

فأبو زيد هنا اقنعهم بفائدة ما معه من حرز من باب أن ا لله سيآخذه إذا لم يخبرهم بما يعلمه، لأنه روى في الأخبار المنقولة عن الأحبار، أن ا لله تعالى ماأخذ على الجهال أن يتعلموا ، حتى أخذ على العلماء أن يعلموا، وإن كان قد ذكر أساطير وأباطيل إلا أن تلك الآية التي ذكرها وردت في حديث رسول ا لله ﷺ، حين قال: «**أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم ا لله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾**(٢)، و **﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**(٣)» (٤).

أما الموقف الثاني فعندما نزلوا الجزيرة، ودخلوا قصراً مشيداً يملكه قطب هذه البقعة، عرفوا أن زوجته متعسرة في الوضع والناس يجهشون بالبكاء، فقال أبوزيد بعد

---

(٣) مجتمع الهمذاني، د. مازن المبارك، ص ٥٦ .

(١) المقامة (٣٩): العمانية، للحريري، ٢٩٣/٤ شرح الشريشي.

(٢) سورة الأنعام، آية ٩١.

(٣) سورة هود، آية ٤١.

(٤) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب الفتن، باب قوله - ﷺ - سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين..، ١٤/١٨. وأحمد في مسنده، ١٧٥/١، ١٨٢.

أن علم أنه الكمد لخلو صاحب القصر من الولد: ((اسكنْ ياهذَا واستبشرْ، وأبْشِرْ بالفرج وَبشِّر؛ فعندي عزيمةُ الطَّلْقِ، التي انتشرَ سَمْعُها في الخلْقِ))(١).

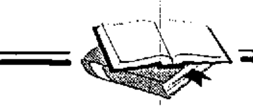
والغريب أن يصدق ذلك من صوره الحريري من علية القوم – صاحب القصر– بعد رؤيته لما طلب ومافعل؛ فقد طلب قلماً مبرياً وحجراً بحرياً وزعفراناً مخلوطاً، فكتب على الزبد (الحجر) بالمزعفر:

((أيُّها الجنينَ إنّي نَصيحُ ** لَكَ، والنُّصحُ مِنْ شُروطِ الدّين
أَنْتَ مُسْتَعْصِمٌ بِكِنٍّ كَنِين ** وَقَرَارٍ مِنْ السُّكونِ مَكِين
....
فَمَتَى برزت مِنْهُ تحولت إلى مَنْزِلِ الأَذَى وَالْهُون
....
فَاسْتدمْ عَيْشَكَ الرَّغيد وَحَاذِر ** أَنْ تبيعَ المحقوقَ بِالمظْنُون

... ثم إنه طمس المكتوب على غفلة، وتفل عليه مائة تفلة، وشد الزبد في خرقة حرير، بعدما ضمخها بعبير، وأمر بتعليقها على فخذ الماخض، وألا تعلق بها يد حائض))(٢).

وقد آمن الناس بفائدة الحرز، وخاصّةً بعد أن وضعت مولودها ((فَامْتَلأَ القَصْرَ حُبُوراً، وَاستُطِيرَ عميدُه وعبيدُه سُروراً، وأحاطتْ الجماعةُ بأبي زيدٍ تُثْني عَلَيه، وَتُقَبّل يديهِ، وَتتبركُ بِمَسَاسِ طِمْرَيهِ))(٣)، إنه لجهل مابعده جهل، فكيف يؤمنون بأن ذلك الكلام المكتوب على الحجر بالزعفران والمطموس عليه، ثم يرونه يتفل عليه مائة تفلة ويعلق ذلك الحجر بخرقة الحرير في فخذها، ويصدقون أن ذلك هو الذي سهل عليها

(١) المقامة نفسها، ٣٠٣/٤.
(٢) المقامة نفسها، ٣٠٧/٤-٣٠٩.
(٣) المقامة نفسها، ٣٠٩/٤.



الولادة. وماذا لو علموا أن المكتوب أبيات من الشعر ينصح الجنين بأن يظل في بطن أمه؛ لأنه آمن له من خروجه إلى الدنيا منزل الأذى والهون؟!!

إيمانهم بالعين :

وأما **ابن الجوزي** ، فقد أورد صورة موجودة في عصره؛ وهي الإيمان بالعين، كما تمثلها في مقامته المسماة: ((في ذم أبناء الدنيا))، حيث جاء على لسانه يطلب من أبي التقويم أن ينزل من فوق المنبر بعد أن قال خطبة أبكت مستمعيه: ((أيُّهَا الوصَّافُ با للهِ عَلَيْكَ أنْزِلْ وَاقْطَعْ فَإنِّي أَخافُ عَلَيْكَ العينَ، وَالعينُ تقلعُ. فَنَزَلَ فَهَرْوَلَ))[١].

فأبو التقويم يؤمن بالعين، وإلا لما امتثل ونزل مهرولاً والإيمان بالعين حق، فقد ورد عن رسول الله - ﷺ - قوله: ((**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**))[٢]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**﴾[٣]. وقال أبوسعيد - رضي الله عنه - : ((كان رسول الله - ﷺ - يتعوذ من الجان، وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذهما، وترك ماسواهما))[٤].

إيمانهم بالشعوذة:

وأما **ابن ناقيا** فقد صور إيمان الناس بالشعوذة في مقامته الثامنة، ولجوءه إلى تلك الحيلة ليحصل على المال، فأوهم الناس أن بغلامه مساً من الجن،وهو سيخرجه، فأخذ يتكلم ((وهردَ بالاسمِ الأعظمِ، وقدْ رَاعَ الغلامُ مَاسمعَ، وسَحَلَ من انتضابهِ حَتّى ارعدتْ خَصايهُ، ولانَتْ مفاصلهُ، فغمزَهعلى أكحلهِفَصَرعَهُ، وكادَ يفيقُ فمنعَهُ، ثمّ

---

(١) المقامة: ٤٩، ص٤٠٩.

(٢) رواه مسلم برقم (٢١٨٨) في الطب، باب الطب والمرض والرقي، ١٧١٩/٤.

(٣) سورة الكهف، آية ٣٩.

(٤) رواه الترمذي (٢٠٥٩) في الطب، باب الرقية بالمعوذتين، وقال: حديث حسن، ٣٩٣/٤. ورواه النسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من عين الجان، ٢٧١/٨. وابن ماجه تحت رقم (٣٥١١) في الطب، باب من استرقى من العين، وإسناده صحيح، ١١٦٠/٢.



صَفّرَ ... وجعلَ يسايلُ ويستنطقُ ويخترعُ الباطلَ ويحتلقُ، وَقَدْ أجهشَ جماعةُ الأقوامِ، وسَارّ بالغلامِ، فقالَ: ماتخرجُ الملعونَةُ إلا بعشرةٍ موزونةٍ، فلمْ يبقَ أحدٌ إلا أعطَاهُ، وهو يقولُ: بقي مِن المبلغ كَذا، وَبقي كَذا حتّى اجتذبَ أضعافَ ماطلَبَ، ثُمّ قالَ: السَّاعَة السَّاعَة ... أخرجْ لامِنْ عينهِ، ولاَمِنْ أذنهِ، ولاَمِنْ أنفهِ، وَلاَمِنْ فمهِ، بَلْ مِنْ دُبرِه أو ظفرِه، ومسحَ جبهةَ الغلامِ وقَدْ انتهَى شرره، فقامَ وتفرّقَ النَّاس))[1].

هل رأيت أغرب من ذلك، يوهم الناس بأنه يخرج جناً سكن الغلام، والأغرب أنه يأمره بأن يخرج، ويحدد له من أين يخرج .. لامن عينه ولامن أذنه ولامن أنفه، ولامن فمه بل من دبره أو ظفره، والناس مجتمعة حوله تصدقه، بل وتعطيه المال فوق ماطلب، لإيمانها بصدق ماترى.

صحيح نحن نؤمن بوجود الجن، ونتعوذ منهم؛ لأن الرسول - ﷺ - ((كان يتعوذ من الجان، وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذهما، وترك ماسواهما))[2] يتعوذ بهما الانسان لطرد الشيطان، إلا أن الطريقة التي سلكها اليشكري بطل مقامات **ابن ناقيا** هو مانعترض عليه؛ لقيامها على الشعوذة.

إيمانهم بشياطين الشعر :

فبديع الزمان **الهمذاني** يحدثنا عن إيمان بعض الناس بشياطين الشعر، والمقصود بهم: الذين يوحون إلى الشعراء بأشعارهم، وهي أسطورة جاهلية، ولازالت عالقة في أذهان بعض أفراد المجتمع الذي عاشه الهمذاني، لذا صور لنا ذلك في مقامته الابليسية[3]، فيروي عيسى بن هشام أن شيخاً رآه في وادٍ حين كان يبحث عن ابل ضالة له، فادعى الشيخ أن قصيدة جرير من شعره والتي منها :

---

(١) المقامات العشر لابن ناقيا، ص ١٩ (مخطوط).

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٩ .

(٣) لعلّ الهمذاني تأثر في مقامته هذه برسالة التوابع والزوابع.



((بانَ الخليطُ ولو طَوِّعْتُ مابَانَا ** وقطَّعُوا من حِبَالِ الوَصْلِ أقْرانا))[١]

وتجري بينهما محاورة يتهم ابن هشام فيها الشيخ -الذي قال إن اسمه أبومرة- بالانتحال،وقال له:((ياشيخُ هذه القصيدةُ لجريرٍ قَدْ حفظَتْها الصبيانُ،وعَرَفَها النِّسْوانُ))[٢].

فكشف أبومرة عن شخصه وقال: ((كُنتُ أكتُمُك حَديثي، وأعيشُ مَعَكَ في رَخَاء لكنَّك أبَيْتَ فَخُذِ الآنَ. فما أحدٌ من الشعراءِ إلا ومَعَهُ مُعِينٌ مِنَّا، وأَنَا أمليت على جريرٍ هذه القصيدة، وأنا الشَّيْخُ أبُومُرَّةَ))[٣].

وقد تعجب ابن هشام من أبي الفتح الإسكندري وقال له:((ياأبا الفتحِ شَحَذْتَ على إبليسَ؟ إنَّك لشحَّاذٌ))[٤].

إيمانهم بالتطير أو زجر الطير:

وزجر الطير: التيامن بها، والتشاؤم، وكان العرب يؤمنون بذلك، فينظر الزاجر منهم للطائر، ولما يفعل، فيستقر من ذلك مايتيامن به ويتشاءم منه، ومثال ذلك: ((أن الرجل في الجاهلية إذا أراد الحاجة أتى الطائر في وكره فنفره، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته، وإن أخذ ذات الشمال رجع)) وهذا تفسير الشافعي، لقول النبي - ﷺ -: ((**أقروا الطير على مكاناتها**))[٥] : أي لاتزجروها وأقروها على موضعها التي جعلها الله بها.

(١) المقامة (٣٥)، ص ٢٦٤.
(٢) المقامة والصفحة نفسها.
(٣) المقامة نفسها، ص ٢٧١.
(٤) المقامة نفسها، ص ٢٧٦.
(٥) رواه أبوداود في كتاب الأضاحي، باب (٢) ٩٥/٤. ورواه أحمد في مسنده، ٣٨١/٦.



والحريري ذكر ذلك في مقامته؛ ليدلل على إيمان أفراد مجتمعه بذلك فقال على لسان راويه الحارث بن همام وهو يبحث عن أبي زيد السروجي: ((فَلَمَّا تطوحتُ إلى مَرو، وَلَاغرو، بَشّرَني بملقاهُ زَجرُ الطيرِ، والفألُ الذي هُو بريدُ الخيرِ))(١).

وزجر الطير،أوالطيرة نهى عنه رسول ا لله -ﷺ- فقال:((**ولاعدوى ولاطيرة، وأصدقها الفأل، قالوا : ومالفأل؟ قال: الكلمة الحسنة يسمعها الرجل**))(٢).

إذن فالرسول يكره الطيرة، ويعجبه الفأل الحسن، حتى في الأسماء، ومن ذلك أنه لما قدم المدينة في سفر الهجرة لقيهم رجل فقال: مااسمك؟ قال: بريدة، فقال -ﷺ-: ((**برد أمرنا**))(٣).

ومن الصور الإجتماعية أيضاً :-

التكدي بطرق منها :

التعامي أو ادعاء عاهة:

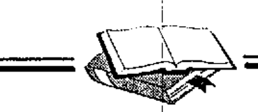
وهي حيلة كان يكثر الساسانيون من استخدامها في إكدائهم، ضمن تظاهر كثير بالمرض، فمنهم من يمثل دور المصاب المبتلى فيضمد ساقه، أو يشد يده إلى عنقه، أو يعصب رأسه، أو يعمد إلى الارتجاف كلما شعر بدنو أحد المارة منه، ومنهم من يتظاهر بالعمى كما ظهر أبوالفتح الإسكندري مدعياً العمى في المقامة المكفوفية عند **بديع الزمان الهمذاني**؛ إذ روى عيسى بن هشام أنه بينما كان يجتاز بعض بلاد الأهواز أدى به السير إلى رقعة فسيحة من البلد، وجد فيها الناس ملتفين حول رجل ظن أنه أعمى في أول الأمر، لكنه سرعان ماعرف الدينار من لمسه مما يجعل ابن هشام يشك

---

(١) المقامة (٣٨): المروية، للحريري، ٢٥٦/٤. شرح الشريشي.

(٢) رواه البخاري في كتاب الطب، باب الفأل، ١٨١/١٠و ٢٠٦. ورواه مسلم بنحوه برقم (٢٢٢٤) من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك – رضي ا لله عنهما– في كتاب السلام باب الطيرة والفأل: ٢١٨/٤-٢١٩.

(٣) رواه البيهقي من حديث بريدة بن الحصيب –رضي الله عنه– في مجمع الزوائد، ٥٥/٦.



في أمره ويقول: ((وتبعتُه، وعَلِمْتُ أنَّهُ مُتَعَامٍ لِسُرْعَةِ ماعَرَفَ الدِّينَارَ ... فَفَتَحَ عن تَوْأَمَتَي لَوْزٍ))[1].

إن مافعله الإسكندري يدخل تحت نطاق الكذب؛ فقد أظهر نفسه خلاف ماهو عليه في الواقع، فهو واقع في دائرة الكذب، بعيد عن الصدق الذي كان يقصده لامايحاول أن يوهم الناس به في إطار الصدق، لأن النبي - ﷺ - قال: ((**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**))[2].

وقبلها قال الله تعالى يمدح صفة الصدق، ويقرر أنها صفة الأخيار من عباد الله الصالحين: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[3] ، وقال يمدح المؤمنين: ﴿**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾[4].

ولما كان ادعاؤه للعمى يدخل تحت نطاق الكذب فهو بالتالي منافق؛ لقوله -ﷺ -: ((**أربع من كن فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**))[5].

---

(١) المقامة (١٦)، ص ٩٣.

(٢) رواه البخاري، عن ابن مسعود - ﷺ -، كتاب الأدب، باب ماينهى عن الكذب، ٣٠/٨. ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب (٢٩) ٢٠١٣/٤ . ورواه الترمذي (١٩٧١)، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الصدق والكذب، ٣٤٧/٤.

(٣) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٧.

(٥) رواه الترمذي تحت رقم (٢٦٣٢) عن عبدا لله بن عمر - ﷺ -، كتاب الإيمان، باب ماجاء في علامة المنافق، ١٩/٥-٢٠. وقال حديث حسن صحيح.



وهذا **ابن ناقيا** يعمد بطل مقاماته إلى الحيلة نفسها، فيدعي العمى في مقامته الرابعة، ويطرق الباب ويسأل أهل الدار النوال، فلايجيبونه فيلح في السؤال ذاكراً عاهته فيقول: «أعينُوا السَّائِل المبتَلَى، والزَّمِن الأَعْمَى وَلَو بِتَفرُوقِ التَّمرة، ثُمَّ غَصَّتْهُ الْعَبْرَة...»[1]، وحين خرج إليه صاحب الدار؛ ليعرف هذا الملحاح فإذا هو اليشكري وقال له: «قبحكَ اللهُ تزعمُ أنَّكَ أعْمَى مُبْتلَى، وَأَنْتَ صَحِيح الْبَدَنِ مِن المرضِ، سَليم الْبَصَر مِن الضّر، فقالَ: حَسْبُكَ بِعَمَى جِنَانى، وبَلْوَى عجَاني، فَأَضْحَكَني قَوْلُهُ، ورجعتُ عَن مَكْروهِهِ، واسْتَدعيْتُ لَهُ شَيْئاً مِن الطَّعَامِ، فتناولَهُ مِن الْغُلامِ، وإِذَا هُو مُسْتَبْطِن سَلاَقاً كَبَطْنِ المِيْتَم أَوَ كَحَشَا المرزَم، فَأَوْدَعَهُ مادُفِعَ إليه وَوَلَّى ...»[2].

وادعاؤه العمى كذباً يشكك في صحة إيمانه لقوله - ﷺ - حين سئل: «**أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أفيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل أفيكون كذاباً؟ قال: لا**»[3]. وقوله عليه السلام: «**دع مايريبك إلى مالايريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة**»[4].

وإلى الحيلة نفسها لجأ بطل مقامات **الحريري**، فتظاهر بالعمى وغطى عينيه، تقوده زوجته في المقامة البرقعيدية وحكى ذلك الحارث بن همام حين قال: «أَزْمَعْتُ الشُّخوص مِن بَرْقعيد، وقَدْ شمتُ بَرْقَ عِيد ... اتبعتُ السُّنَةَ في لبسِ الجديدِ، وَبرزْتُ مَع مَنْ برزَ للتَّعييد، وَحِينَ التأَم جمعُ المصلّى وانتظَم، وأَخَذَ الزِّحام بالكَظْمِ، طَلَعَ شَيْخٌ

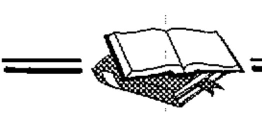
---

(١) المقامة الرابعة من مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص٩، تفروق الثمرة: قمعها، انظر: اللسان، مادة: فرق.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٠، الزَّمِن: المبتلى، العجان: بلغة أهل اليمن: العنق، اللسان، مادة زمن، عجن.

(٣) رواه مالك في الموطأ عن مالك عن صفوان بن سليم - ﷺ - تحت رقم (١٩)، كتاب الكلام، باب ماجاء في الصدق والكذب، ٢/٩٩٠.

(٤) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب تفسير المشبهات، ٣/٧٠. ورواه الترمذي برقم (٢٥١٨)، عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما-، كتاب صفة القيامة، باب (٦٠)، ٤/٦٦٨ وقال حديث صحيح.



في شَمْلتَين، مَحْجُوب المُقْلتَيْن، وقَدْ اعتَضَد شِبْهَ المِخْلَاة، واسْتَقَادَ لعَجُوزٍ كالسِّعلاة، فَوقَفَ وَقفةَ مُتَهَافِت، وَحَيَّا تَحِيَّةَ خَافِت، ولما فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ، أجَال خَمْسَهُ في وِعَائِه، فأَبْرَزَ مِنْه رِقَاعاً قَدْ كُتِبْنَ بألوانِ الصِّبَاغ، في أوانِ الفَرَاغ، فَنَاوَلَهُنّ عَجُوزَه الحيزَبُون، وأَمَرَها بأَنْ تتوسَّمَ الزَّبُون ...))[١].

فهذا لجأ إلى حيلتين؛ ادعاء العمى، وتوزيع رقاع كتب فيها عن وجود عيال له، مما اضطره إلى اللجوء لسؤال الناس ، فقال :

((فَلَيْتَ الدَّهر لما جَا ** رَ أَطْفَالي أَطفَالِي
فَلَوْلَا أَنَّ أَشْبَالِي ** أَغْلَالِي وَأَعْلَالِي
لَمَا جَهَّزْتُ آمَالِي ** إلَى آلٍ ولَا وَالِي))[٢]

فهو يتمنى – لما ظلم الدهر أولاده، وجار عليهم – الموت؛ ليتخلص مما به، وأراد بالأغلال أولاده؛ لأنهم قيوده فلايسرح بسببهم، وأراد بالأعلال أنهم قد تعلقوا به يطلبون ماعنده.

ولعلك لحظت أنه يتمنى الموت ، وهذا مكروه شرعاً؛ لقوله – ﷺ – : ((**لايتمن أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب**))[٣].

---

(١) المقامة (٧)، ٢٧٢/١، شرح الشريشي. الشخوص: الخروج، برقعيد: بلد بينه وبين الموصل عشرون فرسخاً.انظر:معجم البلدان، الحموي،٣٧٨/١، برق عيد: مقدماته، الكظم : تضييق النفس من شدة الزحام، اعتضد: علقها في عضده، السعلاة: أنثى الغول، الحيزبون: المسنة القوية الخلق، انظر: اللسان، مادة: شخص، كظم، عضد، سعل، حزب.

(٢) المقامة نفسها،٢٧٥/١، شرح الشريشي، جار:مال عن الحق، أطفأ: أمات، أطفالي: أولادي، ومثله أشبالي،آل :قريب، وآل:أهل، أويكون أميراً وسائساً،انظر:اللسان،مادة:جار، طفا،آل.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة – ﷺ – باب مايكره من التمني، ١٠٤/٩ . ورواه أبوداود (٣١٠٩) عن أنس، كتاب الجنائز، باب لايتمنين أحدكم الموت، ١٨٨/٣.



هذا مادعاه في المقامة السابقة من تعامٍ، وفي مقامة أخرى تظاهر بأنه مصاب بالشلل وذلك في المقامة التفليسية وادعى مايدعيه في معظم مقاماته بأن وراءه صبية يكون من الجوع، بعد أن كان يعيش في بُحبوحة من العيش انقلب حاله، وإلا ما لجأ إلى السؤال، فقال موضحاً ذلك: «حكى الحارث بن همام ... اتَّفَقَ حِينَ دَخَلْتُ تَفْلِيس ... بَرَزَ شَيخٌ بَادِي اللَّقْوة، بَالِي الكُسْوة والقُوَّة، فَقَال: ... ولَقَدْ كُنْتُ والله مِمَّنْ مَلَكَ وَمَالَ، وَوَلِي وآل، ورَفَدَ وأَنَالَ، ووَصَل وصَالَ، فَلَمْ تَزَلْ الجَوائِحُ تُسْحِت، والنَّوائِبُ تُنْحِت، حتّى الوَكْر قَفْرٌ، ... والعَيْش مُر، والصِّبْيَة يتضَاغَوْنَ مِنَ الطَّوَى...»(١). وكسابقتها يتمنى الموت على الاستمرار في حاله تلك، التي يكسوها الفقر والعوز، قال في ذلك: «ولم أَقُم هذَا المَقَام الشَّائِن، وأَكْشِف لكُمْ الدَّفَائِن، إلاّ بعْدَ ماشَقِيتُ وَلَقِيتُ، وشِبْتُ ممّا لَقِيتُ؛ فليْتَني لَمْ أَكُنْ بَقِيت»(٢).

ومن طرق التكدي كذلك :

القَرَّاد :

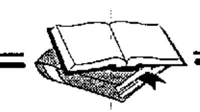
وهذه إحدى الحيل التي لجأ لها المكدون، وهي قرَّاد يرقص قِرده والناس يضحكون من حوله، وقد أبان **الهمذاني** لنا ذلك في مقامته القردية، يقول عيسى بن هشام: «إذ انتهيتُ إلى حَلْقَةِ رِجَالٍ مُزْدحمين، يَلْوي الطَّربُ أعْنَاقَهُم، ويَشُقُّ الضَّحِكُ أشْدَاقَهُمْ، فَسَاقَنِي الحرصُ إلى ماسَاقَهُمْ ... فإذا هُوَ قَرَّادٌ يُرْقِصُ قِرْدَهُ، ويُضْحِكُ من عِنْدَهُ»(٣).

---

(١) المقامة (٣٣)، الحريري، ٤/١٠٥-١١٠، تفليس: مدينة بأرمينية. انظر: معجم البلدان، الحموي، اللقوة: ضرب من الفالج يصيب الوجه، يتضاغون: يبكون ويصيحون، الطوى: الجوع، انظر: اللسان، مادة : لقى، ضغى، طوى.

(٢) المقامة نفسها، ٤/١١١.

(٣) المقامة (٢٠)، ص ١١١.



والإسكندري اكتفى في المقامة هذه بالحيلة وحدها و لم يستعن ببلاغته، ((ومازال هذا المنظر إلى يومنا هذا، ومازلنا نرى السذج يجتذبهم منظر القرد فيلتفون حوله، والطرب يلوي أعناقهم كما يقول **البديع**، وكأنه يسخر من البسطاء الذين يضحكون لتوافه الأشياء، وبديع الزمان هنا صور لنا المشاعر إلى جانب تصوير المناظر))(١)، أما د.عبدالملك مرتاض فقد حللها تحليلاً لامكان للإضافة عليه فيقول: وقد اعتبرنا هذه المقامة تناولت في موضوعها النقد الاجتماعي، لبعض هذه العناصر التي وردت فيها، وأهمها: قوله : ((يلوي الطرب أعناقهم))، فإن هذا القول ليس من باب القول المأثور: ((كل مؤمن طروب))، بل ينطوي على نقد لاذع لطرب أولئك القوم مما لايطرب منه، وهيجانهم ممالايهتاج له، وأي شيء أدعى إلى النقد، بل إلى النعي من طرب قوم يعقلون من حركات تصدر عن قرد قرادٍ؟ ....، وأما قوله: ((يشق الضحك أعناقهم))، ففيه نعي شديد أيضاً على هؤلاء الذين يضحكون ممالايضحك منه، وماشأن الضحك من منظر القرد والقراد، وقد خلقهما الله كما خلقهم؟ فما القرد إلا حيوان جبل على إتيان حركات خاصة به، كحركات أي كائن حي آخر، بالرغم من غرابتها على نحو ماعند القِرد، ولكن ألم يكن لأولئك المجتمعين هنالك عمل أجدى، ونزهة أرقى، وملهى أشرف وأجمل يقضون فيه فراغهم؟.

إن تكالب الناس على حلقة القراد دليل على شيء من انحطاط الذوق العام، وفساد في الأخلاق، وقلة في المعرفة والإدراك العميق، كما أن الضحك على تلك الصفة التي أشار إليها **البديع** هنا، لم يكن مما يحمد.

كما أن الناس التأموا حول هذا القراد، الذي لم يكن إلا الإسكندري طبعاً، التئاماً جعل من العسير على الداخل أن يدخل، وعلى الخارج أن يخرج ثم إن قوله ((حتى افترشت لحية رجلين))، يدلل على أنه كان في هؤلاء المجتمعين من الكهول والشيوخ من كانت له لحى يمكن افتراشها، وحتى لو فرضنا أن هذين الرجلين لم يكونا شيخين هرمين، باعتبار أن الإبقاء على اللحية كان من العادات المتبعة بحيث

---

(١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص٥٧.



يبقى عليها الكهول والشيوخ جميعاً، فإن مثل هذا لايغير من الموقف شيئاً؛ إذ إن في ذلك اعترافاً بالواقع المر؛ وهو أن الرجال الناضجين كانوا ممن يرتادون مثل هذه الحلقات السخيفة، ويقبلوا عليها إقبالاً فيه شيء كثير من الحماسة.

بقي لنا أن نتساءل : ولكن لم ذهب عيسى بن هشام أيضاً إلى هذه الحلقة؛ وأقام هنالك مع المجتمعين في الوقت الذي يسخر منهم، وينقدهم من طرف خفي؟.

يبدو أنه إنما أتى ذلك بحكم وظيفته داخل إطار المقامة، إذ كان هو الراوية لأحداثها، وقد استطاع أن يستكشف أمر الاسكندري في آخر المقامة كالعادة، كما أنه نقد حالة راهنة على ذلك العهد(١).

ومنها أيضاً :-

الادعاء بتبدل الحال مع وجود العيال :

يستخدم **الاسكندري** هذه الحيلة في أكثر من مقامة، وقد يلجأ في بعضها إلى استدرار عطف الناس باصطحاب أطفاله معه فيكلمك بلسانهم، ويكلمك أطفاله بعيونهم، فإن لم تتأثر بلهجته فلن تقوى على صد نظراتهم الزائغة الضارعة، وربما لايصطحبهم معه، بل يدعي وجودهم في انتظار عودته إليهم، ففي المقامة الجرجانية نجد عيسى بن هشام في مجمع من الناس يطل عليهم الاسكندري قائلاً: ((يَاقومُ إني امرؤٌ من أَهْلِ الإسكندرية من الثُغورِ الأموية، نمتْنِي سُلَيْمٌ، وَرَحَّبَتْ بي عَبْسٌ جُبْتُ الآفاق،وتقصَّيْتُ العِراقَ ... ثُمَّ إنَّ الدَّهرَ ياقومُ قَلَبَ لي من بَيْنهم ظَهْرَ المِجنِّ، فاعتضْتُ بالنوْمِ السَّهر، وبالإقامةِ السَّفَرَ، ... فطلعتُ من هَمَذانَ طُلُوعَ الشَّارِدِ، ونَفَرْتُ نِفَارَ الآبدِ، أفري المسالِكَ. وأقتفرُ المهالِكَ، وأُعَانِي المَمَالِكَ، عَلَى أنِّي خَلَّفْتُ أُمَّ مَثْوَاي وزُغْلُولاً لي ... وقد هَبَّتْ بي إليكُمْ ريحُ الاحتِيَاج، ونسِيمُ الإلْفَاج))(٢)، وقد ذكر في المقامة نفسها اصطحاب أطفال معه ليرق لحالهم من يراهم فقال: ((إذْ وقفَ علينا رَجُلٌ

---

(١) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣٢٢-٣٢٤.

(٢) المقامة (٩)، ص ٥٦-٥٧، ٥٩، ٦٠، الإلفاج: الاحتياج إلى غير الأهل، اللسان، مادة: لفج.



... يتلوهُ صِغارٌ في أطْمارٍ»(١)، وفي مقامة أخرى يذكر هذا النوع من المكدين فيقول: «أخَذَتْ عَيْنايَ رَجُلاً قد لَفَّ رأسَهُ ببُرقُعِ حَياءٍ،ونَصَبَ جَسَدَهُ، وبسط يَدَهُ، واحتضَنَ عيالَهُ، وتأبَّطَ أطْفَالَهُ...»(٢)، وفي مقامة ثانية يقدم طفلاً ويدفعه للكلام، ليكون ذلك أدعى للشفقة، وأنفذ في القلب، يحدث ابن هشام مارآه في جامع بخارى فيقول: «طلع إلينا ذُو طِمْرَيْنِ قد أرْسَل صِوَاناً، واستتلى طِفْلاً عُرْياناً، يضيقُ بالضُّرِّ وُسْعُهُ، ويأخُذُهُ القُرُّ ويَدَعُهُ، لايملِكُ غير القِشْرةِ بُرْدَةً، وَلَايكتفي لحمايةِ رِعْدَةٍ، فَوقَفَ الرجلُ وقالَ: لاينظُرُ لهذا الطِّفل إلَّا من الله طَفَّلهُ،ولايرقُّ لهذا الضُّرِّ إلا مَنْ لايأمَنُ مِثْلَهُ...فبادِروا الخيرَ ماأمْكَنَ، وأحْسِنُوا مع الدَّهْرِ ماأحْسَنَ،فَقَدْ والله طَعِمْنا السِّكْبَاجَ،وركِبْنا الهِمْلاجَ، ولَبِسْنا الدِّيباجَ،وافترَشْنَا الحشَايَا،بالعَشَايَا، فما رَاعَنَا إلا هُبُوبُ الدَّهْرِ بغدرهِ، وانقلابُ المِجَنِّ لِظَهْرِهِ، فَعَادَ الهِمْلاجُ قَطُوفاً،وانقلب الدِّيباجُ صوفاً،وهَلُمَّ جَرًّا إلى ماتُشَاهِدُون مِنْ حالي وَزِيِّي ...ثُمَّ قعد مرتفِقاً وقال للطِّفْل:أنت وشأْنُكَ، فقالَ:ماعسى أنْ أقُولَ وهذا الكلامُ لو لَقِي الشَّعْرَ حلقَهُ، أو الصَّخْرَ لَفَلَقَهُ، وإنَّ قلباً لم يُنْضِجْهُ ماقلت لَنِيء، وَقَدْ سَمِعْتُم ياقَومُ، مالم تسمعوا قبل اليوم، فليشْغَلْ كل مِنْكُم بالجودِ يَدَهُ، وليذكُرْ غَدَهُ، واقِياً بي وَلَدَهُ، واذكُرُوني أذكُرْكُم، وأعْطُونِي أشْكُرْكُمْ»(٣).

وكانت هذه الصورة المؤثرة سبباً في إعطائه، وهكذا تتوالى حيله في المقامات المختلفة؛ لتعكس في النهاية صورة شاملة لما آل إليه أهل النبوغ من أمثال الإسكندري في ذلك المجتمع، والحقيقة أن الإسكندري كان يقوم بتلك الحيل بدافع الظرف؛ لكشف حقيقة المجتمع الذي يعيش فيه، وقد دفع إلى ذلك دفعاً، إذ نراه في المقامة الساسانية يحمل الزمان مسؤولية حاله:

---

(١) المقامة نفسها، ص ٥٦.

(٢) المقامة (٣): الأزاذية، ص ١٨-١٩.

(٣) المقامة (١٧): البخارية، للهمذاني، ص ٩٥-٩٧. القر: شدة البرد، السكباج: لحم يطبخ بالخل، الهملاج: الدابة السريعة في سيرها، الديباج: الحرير، الحشايا: الوسادة المحشوة للجلوس عليها، قطوف : الدابة البطيئة في سيرها. انظر: اللسان، مادة: قرر، سكبج، هملج، دبج، حشا، قطف.



«هذا الزمانُ مشُومٌ ** كما تراهُ غَشُـومُ
الحمقُ فيه مَليـــحٌ ** والعَقلُ عَيبٌ ولُومُ
والمال طَيفٌ ، ولكِنْ ** حَوْلَ اللِّئام يحُومُ»(١)

فهو هنا لايرفض العقل، ولكنه يرى بضاعة العقل لاتسعف صاحبها في مجتمع انحلت فيه القيم، وأضحت السيادة فيه للئام، وهكذا نرى موقفه في المقامة القردية حيث يحمل الليالي الذنب كله :

«الذنْبُ للأيَّام لا لي ** فاعتِبْ على صَرْفِ اللَّيالي»(٢)(٣)

إلا أنه لاعذر للهمذاني في سبه للزمان، ووصفه بأنه شؤم في قوله :

* هـــذا الزمـــانُ مشـــومُ *

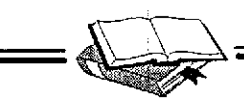
ووصفه بالغدر في قوله السابق :«فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدره»،وكأنه لم يسمع لقوله -ﷺ- : «**قال ا لله:يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار**»(٤).

لما تنزل بالمرء حوادث، وتحل به كوارث، وتجري تصاريف القدر على غير مايرغب يشتد همه، وتصبح الدنيا في وجهه ضيقة، فيسخط، ويتبرم، ويضطرب حتى يخرج عن جادة العقلاء، ويحيد عن سبيل الحازمين الحكماء، كأنما أخذ على الأيام عهداً ألا تجري ريحها له إلا رخاء حيث أصاب، وعقد بينه وبينها ميثاقاً أن تكون على مايهوى في جميع الأوقات والأزمان.

فإذا لم تكن على مايشتهي سب الزمان وتصاريفه، ولعن الأيام وماأحدثت، ومادرى أن الأيام مسخرة ممن بيده تقليب الليل والنهار، وأنها تسير بقدر معلوم ليس

---

(١) المقامة (١٩)، ص ١٠٩-١١٠.
(٢) المقامة (٢٠)، ص ١١٢.
(٣) انظر: فن المقامات بين المشرق والمغرب، د:يوسف نور عوض، ص ١٠٣-١٠٤.
(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة - ﷺ - باب النهي عن سب الدهر، ٥١/٨. ورواه مسلم تحت رقم (١)، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب (١) النهي عن سب الدهر، ١٧٦٢/٤.



له فيه اختيار. فالسخط عليها سخط على من بيمينه زمامها؛ ولقدرته تصريفها لحكمة يريدها ونظام وإيداع يجريه لاطاعة لمخلوق، ولاوقوفاً عند رغبة إنسان، فمن ألمت به نازلة أو حلت به أذية فادحة فلايضيق بها صدره ولايكفر بجزيل نعم الله عليه، وليصبر فإن الأيام لاتبقى على حال، ولايدوم بؤس ولاحزن فإن مع العسر يسرا وبعد الضيق فرجا.

ومن الصور الإجتماعية :

بيع العبيد

وهذه إحدى ظواهر المجتمع الذي عاش فيه **الحريري**؛ لذا نراه يصوره لنا في مقامته الزبيدية حيث يبيع أبوزيد ابنه الحارث بن همام على أنه عبده، ثم يعلن الابن أنه حر، ويذهبان إلى القاضي، ويحكم القاضي ببطلان البيع، وحرية الغلام منها وهاهو ذا الحارث بن همام يقول: ((فَقَصَدْتُ مَنْ يبيعُ العَبِيد، بِسُوقِ زَبِيد ... فَإِنّي لأَسْتعرضُ الغِلْمان، وأَسْتَعْرِفُ الأَثْمَانَ، إِذْ عَارَضَنِي رَجُلٌ قَدْ اخْتَطَمَ بِلِثَام، وقَبَضَ عَلَى زَنْد غُلاَم، وقال :

مَنْ يشْتَرِي مِنّي غُلاَماً صَنَعَا ** فِي خَلْقِه وخُلقِه قَدْ بَرَعَا))[1]

وقد نبَّه الغُلام ابنَ همام بأنه حر لايباع، وذلك بالإشارة إلى بيع إخوة يوسف ليوسف فقال: أنا يوسف ... أنا يوسف، ولم يصغ ابن همام لهذا التحذير، لذا احتكما للقاضي الذي بين له : ((أنَّ هَذَا الغُلاَمَ قَدْ نَبَّهَكَ فَمَا ارْعَوَيْتَ، وَنَصَحَ لَكَ فَما وَعيْت، فاسْتُرْ دَاءَ بَلَهِك واكتُمْه، ولُمْ نفْسَكَ ولاَتلُمْه، وحَذَارِ مِنْ اعْتِلاَقِه، والطَّمع في اسْتِرقَاقه، فإنَّه حُرُّ الأَدِيم، غَيْرُ مُعَرَّضٍ للتَّقْوِيم))[2]، فحكم القاضي كان

(١) المقامة (٣٤): الزبيدية، للحريري، ٤/١٢٥-١٢٨، زبيد: بلدة باليمن، انظر: معجم البلدان، الحموي، ٣/١٣١، اختطم: جعل اللثام على طرف الأنف، اللثام: ماكان على الأنف من النقاب، زند: طرف عظم الساعد، انظر: اللسان، مادة: خطم، لثم، زند.

(٢) المقامة نفسها، ٤/١٥٤، اعتلاقه: متعلق به، استرقاقه: تملكه وتعبده، الأديم: الجلد، للتقويم: لمعرفة قيمته، انظر: اللسان، مادة: علق، بَق، أدم، قوم.



لصالح الغلام، أما الحارث بن همام فقد ودعه وهو يلبس ثوب الخجل والحزن من الغبن الذي لحقه ولقيه، لأنه لم يستمع لتحذير الغلام الذي لامه بعد ذلك قائلاً:

«وَيْكَ أَمَا ناجَتْكَ هَاتِيْكَ المِلح ** بِأَنَّنِي حُرٌّ وَبَيْعي لَمْ يُبَحْ
* إِذْ كَانَ فِي يُوسُفَ مَعْنًى قَدْ وَضَح *»(١)

إذاً بيع الحر غير مباح كما قال، أما العبيد فنعم، ومما سبق نستدل على أنهم كانوا ينادون على العبيد في الأسواق، ويؤلفون شعراً ونثراً للترويج لبيعهم، وبيع العبد أو الرقيق منتشر، في ذلك الزمان، وهو جائز لقوله تعالى: ﴿**وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾(٢)، وقوله - ﷺ - : «**من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه**»(٣).

إلا أن بطل مقامتنا باع ابنه الحر، وهذا ما لم يجزه الإسلام لقوله -ﷺ- : «**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً، فاستوفى منه، ولم يعطه أجره**»(٤).

أما المقامة المعرية فتكشف عن أن أفراد مجتمع **الحريري** يستخدمون الجواري مقابل مال يدفعونه أو بلامقابل، فيقول أبوزيد: «إِنَّ هَـذَا الفَتَى اسْتَخْدَمْتُهُ لِغَرضٍ فَأَخْدَمْتُهُ إِيَّاهَا بِلَاعِوَض»(٥) أشار بذلك إلى التسري، وهو جائز في الإسلام، فيجوز للسيد أن يتسرى بأمته، فإذا ولدت منه صارت أم ولد لقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾(٦).

---

(١) المقامة نفسها، ١٥٣/٤. لم يبح : أي لم يجعل مباحاً، انظر: اللسان، مادة: بوح.

(٢) سورة النساء، آية ٣٦. إن الإسلام قرّر العتق ولم يقرّر الرّقّ الذي كان قانوناً عالمياً آنذاك، وإنما لم يحرّم الإسلام الرّقّ بصريح اللفظ لأن الخصوم كانوا يسترقّون أسرى المسلمين. ومن حقّ الإمام أن يعامل الخصوم بالمثل؛ إن منّوا على أسرانا مننّا على أسراهم وإن أخذوا الفداء أخذنا الفداء، وإن استرقّوا أسرانا استرققنا أسراهم، وإن قتلوا أسرانا قتلنا أسراهم، والأفضل في الإسلام المنّ دون فداء، ثم أخذ الفداء على نحو ما بينتْ الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمد ﷺ.

(٣) رواه أبوداود (٥١٦٨)، عن ابن عمر رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، ٣٤٢/٤.

(٤) رواه البخاري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، كتاب البيوع، باب اثم من باع حراً، ١٠٨/٣.

(٥) المقامة (٨)، ٣١٠/١.

(٦) سورة المعارج، آية ٢٩-٣٠.



وقد تسرى رسول الله - ﷺ - بمارية القبطية فولدت إبراهيم، فقال عليه الصلاة والسلام: ((أعتقها ولدها))(١)، كما كانت هاجَر- أم إسماعيل - سرية لإبراهيم فولدت له إسماعيل - عليهما السلام.

ومنهـــا :-

المـرأة :

هذا **الزمخشري** يذكر المرأة ويحذر من التعلق الشديد بحبها، وأبان صفة من صفات الجمال التي تجعل الرجل يتعلق بها، وهي في قوله : ((وإيَّاكَ والكَلَفَ بِبَيْضَاتِ الخُدُور، وقَسَمَاتِهِن المُشَبَّهةِ بالبُدُور))(٢).

فهؤلاء النساء الحسان البيض يشبهن بيض النعام، قال الله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ**﴾(٣)، ويقال: بيضات الخدور وأضافهن إلى الخدور للدلالة على أن المراد النساء. فهؤلاء يكلف الرجال بهن ويحبونهن حباً شديداً، لدرجة الولع، لهذا نجده، يحذرهم من الوقوع في ذلك .

وأبان أن نساء عصره يضعن اللثام على وجوههن فيقول:((حَدَرَتِ الحسْناءُ مِنْ لِثَامِها))(٤)،وأولى أن يكن كالنساء على عهد رسول الله -ﷺ- فقد كن يختمرن، فعن عائشة -رضي الله عنها- قال:((**يرحم الله نساء المهاجرات الأول،لما أنزل الله:**

---

(١) رواه ابن ماجه عن ابن عباس - ﷺ - (٢٥١٦)، كتاب العتق، باب أمهات الأولاد، ٨٤١/٢.

(٢) المقامة (٩): الاعتبار، للزمخشري، ص ٦٢-٦٣، ت: يوسف بقاعي.

(٣) سورة الصافات، آية ٤٩.

(٤) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة، للزمخشري، ص ١٨٠-١٨١.



﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[١] شققن أكنف،وقيل:أكثف مروطهن، فاختمرن بها))[٢].

ويقول **ابن الجوزي** عن نساء عصره: ((والنِّسَاءُ تخُنَّ الأزواج، فَكُلّ مَافي الدَّارِ مسْرُوق، ولايَعْرِفْنَ قِبْلَةً في الغُروبِ ولاَفي الشُّروقِ، يتبرجْنَ إذَا خَرَجْنَ فَكَمْ أزْعَجْنَ بأَمْرٍ يشُوق، وَيَرْمِينَ عَنْ أقواسِ العُيون لاَمن فَوَقٍ فُوق، وربما ألحْقْنَ حملاً بمَنْ لَيْسَ مِنْهُ العلُوق، فإنْ مَاتَ ميتٌ فَالثَّوبُ مخرّق، والجيبُ مَفْتُوق، وهُنّ لاَطِمَات كَاشِفَات في الثّغورِ والشّعورِ والسّوقِ، بلَى، مِنْ علْمِهِنّ المحفوظ عَنْهُم وَالمنْطُوق: لاتكْسِر وَسَطَ الرّغيفِ وَالدّيكُ مَعْتُوق، وَلاَتكْنِس باللّيلِ إلاّ وَرَأْس المسْفَرة مَحْرُوق))[٣].

هذه حال نساء ابتعدن عن الله، ولايرضى عن خلقهن هذا، فأين هن من قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾[٤]، وأين هن من قوله - ﷺ -: ((**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**))[٥].

وكيف لايعرفن قبلة في الغروب ولافي الشروق والإنسان أول مايحاسب عليه الصلاة، لقوله -ﷺ-:((**إن أول مايحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته**))[٦].

---

(١) سورة النور، آية ٣١.

(٢) رواه أبوداود (٤١٠٢)، كتاب اللباس، باب في قوله : ((وليضربن بخمرهن على جيوبهن)) ٤/٦١.

(٣) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، لابن الجوزي، ص ٤٠٣. الفوق: السهم، المسفرة : المكنسة، والسفر الكنس. انظر : اللسان، مادة: فوق، سفر.

(٤) سورة النور، آية ٣١.

(٥) رواه البخاري (١٢٩٧)، كتاب الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب، ٢/١٠٣، بلفظ "من لطم الخدود ..."، ورواه مسلم(١٠٣)، كتاب الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب، ١/٩٩.

(٦) رواه الترمذي (٤١٣)، كتاب الصلاة، باب (٣٠٥)، ٢/٢٧٠.



ومن الصور الإجتماعية :

استغلال المساجد لغير العبادة :

لقد ورد ذكر المساجد كثيراً في المقامات بدءاً من **البديع** ومروراً **بالحريري** وانتهاءً **بابن الجوزي** ، وهاهو ذا **بديع الزمان الهمذاني** يطلعنا على مايحدث في المسجد، ويسمعنا الأحاديث التي تدور في حلقات القوم، فقد كانوا يجتمعون في أفنية المساجد وتدور بينهم الأحاديث المختلفة، وقد يمر بهم المكدون، أو ينتظرون عند الباب فيعمدون إلى إبراز حيلهم فور انتهاء الصلاة، حيث تكون النفس مائلة نحو العمل الصالح، فينتهزون تلك اللحظات؛ ليصلوا لمرادهم؛ ألا وهو الحصول على العطاء.

كما أن الكثير من تلك المقامات كانت تعكس صورة لمجتمع يلبي نداء ربه فور سماعه للداعي؛ ليكسب أجر الصلاة جماعة، يقول الراوي: «نُودي للصَّلاة نداءً سمِعْتُهُ، وتعيَّنَ فَرْضُ الإجابةِ فانْسَلَلْتُ من بينِ الصَّحَابةِ أغْتنمُ الجماعةَ أُدْرِكُها»(١)، وفي مقامة ثانية يقول : «ثَوَّبَ مُنادي الصُّبح ... وتبادَرْنَا إلى الدَّعْوةِ وقُمْنَا وَرَاء الإمامِ قِيَامَ البَرَرَة الكِرَام بوقارٍ وسكينةٍ، وحَرَكَاتٍ مَوْزُونَةٍ»(٢).

أما عن انتهاز المكدين للمصلين فحدث ولاحرج عن كثرة ذلك في المقامات، فها هو ذا الهمذاني يقول على لسان الراوي عيسى بن هشام: «أحَلَّني جَامِعُ بُخَارىٰ يومٌ وَقَدْ انتظمتُ مَعَ رفقةٍ في سمط الثّريا، وَحَيْنَ احتفلَ الجامعُ بِأهْلِهِ طَلَعَ علينَا ذُو طِمْرين قد أرسَلَ صِوَاناً، واسْتَتْلَى طِفْلاً عرْيَاناً ...»(٣).

كما أن المساجد ربما تكون لغير الصلاة في كثير من الأوقات، وقد يعرج عليها مسافر، أو من ليس لديه دار، تخفيفاً لمشقة أو فراراً من قيظ الحر فيقول: «خَرَجْتُ من الرُّصَافة أريدُ دَارَ الخِلاَفَةِ، وحَمَارَّةُ القيظِ تَغْلِي بِصَدْرِ الغَيْظِ، فَلمَّا

---

(١) المقامة (١٠): الأصفهانية، ص ٦١. شرح : محمد محي الدين عبدالحميد.

(٢) المقامة (٤٩): الخمرية، ص ٤١٩-٤٢٠، ثوّب: التثويب: الاجتماع والمجيء، اللسان، مادة: ثوب.

(٣) المقامة (١٧): البخارية، ص ٩٥، الصوان: وعاء الثياب، اللسان، مادة: صون.



نَصَفْتُ الطريقَ اشتدَّ الحرُّ،وأعْوزَني الصَّبْر، فملْتُ إلى مسجدٍ قَدْ أَخَذَ من كُلِّ حُسْنٍ سِرَّهُ، وفيه قومٌ يتأمّلونَ سُقُوفَهُ، وَيَتَذَاكَرُونَ وُقُوفَهُ ...))(١).

وقد أبان ذلك آدم متز في قوله : ((وكانت المساجد تظل مفتوحة ليلاً ونهاراً في أحوال قليلة، وهي بحكم الشرع يجوز أن تكون مأوى لمن لايجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبدين، وكان في هذا مايخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها، ... ويندر أن تكون ((بيوت الله)) خالية أثناء النهار، وذلك في المدن على الأقل، وكانت أشبه بنوادٍ أو مجتمعات للناس، وخصوصاً المسجد الجامع، حيث كان القاضي يجلس في النهار للحكم بين الناس، حيث كان العلماء يعقدون حلقات التدريس، وكان موضع العالم يعرف بالسجادة التي يصلي عليها ...))(٢).

وهذا **ابن ناقيا** في إحدى مقاماته أبان أن المسجد قد يكون مأوى للمسافرين، يرتاحون فيه، ويتناولون طعامهم أيضاً؛ لأنه لامكان لهم ينزلون فيه، فقال: ((حَدَّثني بعضُ الشَّاميين قالَ: يممتُ العراقَ في بعضِ السنين فانتهيتُ إلى مدينةِ السَّلمِ والنفقةِ في صحبةِ الغلامِ فجلْنَا في ضمايرِ محالِهَا وَأَسْواقِها؛ حَتَّى كشفَتْ الظهيرةُ عَن ساقِهَا فَوَلَجْنَا ... إلى مسجدٍ خرابٍ وقَدْ برحَ الطَّوى خفاناً، وَطَوَى طَيّ السِّجلِ إمْعَاناً، فقلْتُ لِصَاحبي: آتنا غدانا))(٣). وعند وضع الطعام دخل عليهم بطل مقامات **ابن ناقيا** يشكو من الغربة ووعدوه بالأوبة، ودعوه إلى طعامهم، فأقبل يلتهم الطعام التهاماً، وحين أتى وقت الصلاة خرج هو من المسجد، فكأنه مادخل إلا ليأكل ويخرج، أما الصلاة كأنها تقام لغيره، لا له، يقول الراوي: ((ثُمَّ دخلَ الإمامُ وَمَنْ معه لِصَلاةِ الظهرِ فنهضَ مُشتملاً رِدَاءه ... وقَدْ لفَّ واشتفَّ فمَا نِلْنَا من الزَّادِ إلا عشاءً ماهجى غرثاً، فَعَجِبْنَا مِنْ هَرَبِهِ، وَهَمّ القومُ بطلبهِ فَإذَا هُو اليَشْكري))(٤).

---

(١) المقامة (٣٠): الرصافية، ص ١١٥، حمارَّةُ القيظ: شدة الحرّ، اللسان، مادة: حمر.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢/١٢٢-١٢٣.

(٣) المقامة (٣): مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٦ .

(٤) المقامة نفسها ، ص ٧ ،اشتف: الربح والزيادة، انظر: اللسان، مادة: شفف.



وفي مقامة أخرى أظهر لنا **ابن ناقيا** أن المسجد قد يكون ملاذاً آمناً يبعد عن داخله الشك والريبة، فهذا اليشكري بطل مقامته بعد أن ينبش القبور ويسرق الأكفان، ويشعر بقرب العسس؛ يتسلل إلى مئذنة أحد المساجد ويتحول إلى واعظ، فلايرتاب فيه أحد، وها هو ذا الراوي يقول: «فإذَا بحركةِ العَسَسِ وَالطَّوافِ فَعَدَلَ إلى مئذنةٍ فَأنَافَ، ثُمَّ رَفَعَ عقيرتَهُ فَذَكَّرَ وَخَوَّف، وَوَعَظَ وَاسْتَعْطَف، وَوَصَفَ الدُّنْيا وَزَوالَها... كُلّ ذَلكَ وأنَا معهُ لأَعْلَمَ مُسْتَقَره وَمُسْتَودَعَه فَلمَّا انحدرَ مِن قُلَّةِ المسْجِدِ صِحْتُ إليه ...»(١).

كما أن **الحريري** ذكر أن المسجد قد يستغله المكدون فينتهزون وجود المصلين، ليحصلوا على العطايا من الناس، كما في المقامة البرقعيدية التي بين الراوي – ابن همام– أن أبازيد، ومعه عجوز اتخذها سنده،لادعائه العمى، ودخلا إلى المسجد في يوم العيد،والناس، يستعدون للتعييد، ووزعا رقاعاً يشرحان فيها الحال المتدني اللّذين يدعيانه شعراً؛ ليحصلا على العطايا، وما تجود به الأيدي من مال، بعد أن مرت بها على كل صفوف المسلمين، يقول: «وبرزتُ مَعَ مَنْ برزَ للتَّعْييد، وحينَ التَأمَ جَمْعُ المُصَلّى، وانْتَظم ... طلَعَ شَيْخٌ في شَمْلَتين، محجُوب المقْلَتين ... واسْتَقَادَ العجُوزَ ... فرصدْتُها وَهي تَسْتَقْرِي الصُّفُوفَ صَفاً صَفاً، وَتَسْتَوكفُ الأكفَّ كَفاً كَفاً...»(٢).

وفي مقامة أخرى أبان أن أبازيد لجأ إلى المسجد، وهو متنكر في زي امرأة عجوز بعد أن نال ماأراد من المال، وهناك خلع ملابسه التي تنكر فيها،ولانعلم أن للمسجد مخابيء يمكن أن يتوارى خلفها ليخلع تلك الثياب، وإن كان قد ذكر أنه خال حين قال: «ثُمَّ عَاجَتْ بخلوٍّ بَالٍ إلى مَسْجِدٍ خالٍ، فَأَمَاطَتْ الجلبابَ، ونَضَتْ النِّقابَ، وَأنَا ألمحُها مِنْ خَصَاصِ البَابِ»(٣).

أليس لهذا المسجد قيم حتى إنَّ أبازيد يدخله ويغلق الباب خلفه؟ وألا يستحي

---

(١) المقامة (٢): مخطوط المقامات العشر، لابن ناقيا، ص٤.

(٢) المقامة (٧)، ص ٥٦–٥٨.

(٣) المقامة (١٣): البغدادية، للحريري، ص ١٠٤



ابن همام، وهو ينظر من خصاص الباب، ليشبع فضوله في معرفة هذه العجوز؟، يقول رسول الله – ﷺ – في ذلك: ((**لو أنَّ امْرَأً اطَّلَعَ علَيْكَ بغيرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِعَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ لم يكُنْ عليكَ جُنَاحٌ**))(١).

وفي إحدى مقاماته يذكر **الحريري** أن المسجد قد يكون مكاناً، لتجمع الأصدقاء ومباحثاتهم فيما بينهم، فيقول في ذلك راوي مقاماته الحارث بن همام: ((شَهِدْتُ صَلاةَ المغْرِب في بَعْضِ مَسَاجِد المغْرِب، فَلمَّا أدَّيْتُها بِفَضْلها وشَفَّعتُها بنَفْلها، أخذ طَرفِي رِفْقَة قَدْ انتبَذُوا نَاحِيةً، وامتَازُوا بصفْوة صَافِية، وهُمْ يَتعاطَوْن كَأْسَ المنافثَة، ويقْتدِحون زِنَاد المُباحَثة،فرَغِبْت في محادَثتِهم لكَلِمةٍ تُستفادُ، أوْ أدبٍ يُسْتَزَاد...))(٢).

كيف يتعاطون كأس الشراب في المسجد؟ ويقتدحون زناد المباحثة والمسجد ماجعل إلا للصلاة لا للغو، ألم يسمعوا لقوله – ﷺ – ((**من قال صه، فقد لغى**))(٣)، فهل بعد إلقاء الأحاجي والألغاز لغو؟!، بل إن أبازيد بعد أن جالسهم،وذهب عنهم قال عن مجلسهم ذاك: ((قلْ لهُمْ عَنِّي إنَّ السَهَر في الخُرافَاتِ، لَمِنْ أَعْظَمِ الآفَاتِ، ولسْتُ أُلِغي حَواسِي، ولاأَجْلِبُ الهوسَ إلى راسِي))(٤).

كما أن **الأسواني** رغم أن له مقامةً واحدةً فقد أبان لنا أن المسجد يمكن استخدامه للمبيت كما قال بطل مقامته، حين بدأ كل من كان يجالسه يستميله إلى داره، ويسأله أن يكون أبا مثواه: ((كُنْتُ نويتُ أَنْ لَايَأْوِيني غير المسجدِ بيت، فَنَزَلْنَا عَلَى حكم هَوَاه،وَأَنْزَلْنَاهُ مَسْجِداً اخْتَرْناه، فَنَمَا في النَّاسِ خَبَرُه،وَشَاعَ في البلدِ ذِكْرُه، حَتَّى طَرَقَهُ الخَاصّ وَالْعَام، وَاكْتَظّ المسْجِدُ بِالزّحَام))(٥).

---

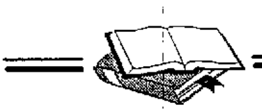
(١) رواه البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه فلادية عليه، ٩/١٣.

(٢) المقامة (١٦): المغربية، للحريري، ص ١٢١.

(٣) رواه أبوداود في كتاب الصلاة، باب(٢٠٣)، ٢/٦٥. وأحمد في مسنده، ٢/٤٧٤.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٢٨ .

(٥) مخطوط المقامة الحصيبية، ص ١١.



إذن فالمسجد آنذاك يمكن للفرد منهم أن يتخذه بيته لمن لابيت عنده، ويجتمع فيه بالناس، ويتداولون الحديث ويحضرون العطايا والأموال فها هو الأسواني يقول: «وجعلتْ التّحفُ تنثالُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إليهِ، وَالأمـوالُ تُلْقَى بـينَ يديـهِ، وهُوَ يَلْحَظُهَا بنظرِهِ، وَلَايميزُ بَيْنَ الدّرةِ منْهَا والْبدَرة، وَلَايزيدُ عَلَى رَجْـعِ السَّلام بالإشارةِ وَالهينَمةِ وَبالتَّسْبيحِ، وَالتّلَاوة إِلَى أَنْ دَجَى اللَّيلِ وَأَظْلَمَ وَأَخذَ النُّعَاس...»[١]، وعند سماعهم لأذان الفجر خرجوا إلى المسجد يبحثون عنه، فلم يجدوه، فقد اتخذ الليل جملاً للذهاب، وكتب لهم على عضادة الباب بيتين من الشعر أبان فيهما أنه كالشمس ولاقرار لشمس بموضع .

ومن الصور الاجتماعية كذلك :

الطعام والمطاعم :

هذا **ابن الجوزي** يشير إلى بعض أنواع الطعام الموجودة في عصره، المعروفة بين أفراد مجتمعه، وذلك في المقامة التي سأل صاحب الدار فيها أباالتقويم: «أَلَا تَغْسَل يدَكَ؟... قَالَ: ماأكلتُ لَحْماً فَأَقولَ يَدي غَمِرَة، وَلَاشَحْماً فَتَكُون زَهِمَة، وَلَاتنَاولتُ مِنَ اللّبنِ وَالزبدِ فَتُرَى شَبِرَة، وَلَامِنَ الثَّرِيدِ فَأَرَاها مَزِرَة، وَلَامِنَ الْفَاكِهةِ فيقالُ: لَزِجة، وَلَامِنَ الدَّهنِ فَتُضْحي ذَجِة، وَلَامِنَ الخَلِّ فَتُصْبِح خَمِطَة، ولامِنَ الْعَسَلِ فَتُوجَد لَزِقة...»[٢].

رغم وجود كل أنواع هذا الطعام إلا أنه كما قال: «سَأَقْتَدي بِأَخْلاقِ مَنْ عَفَا وَمَنْ سَلَف... فَلَمّا مُدتْ الموائدُ أَرّز ... ثُمّ قَرْصَم قُرْصاً وقَصْمَلَه .. فتناولَ لقمات ثم كفَّ الكف، وقالَ: أثقلُ الجماعة حِلماً مَنْ خَف ... وقالَ أفهمُ حِكمةً مَنْ أَحيا .. إِنما يريدُ العاقلُ أَنْ يأكلَ لِيَحْيَا لَا أَنْ يَحْيَا لِيأكلَ، إنَّ خَيْرَ المطَاعِمِ مَاستخدمْتَ وإنَّ

---

(١) المخطوط والصفحة نفسها .

(٢) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، لابن الجوزي، ص٩١-٩٢. زهمة : ريح نتنة، شبرة: القطعة أوالدواء، مزرة: قذرة، خمطه: أول ماتبتدئ الحموضة، انظر: هـ/ص ٩١-٩٢.



شَرَّهَا مَاخدمْتَ ...، فقلْتُ : أما تَشْتهي أنْ تَشْبَعَ؟ قَالَ: أشْتَهي وأَمْنَع، ثُمَّ يُدَرِّسُ دَرْساً قَدْ دَرَسَ ((ثُلْثٌ للطَّعامِ، وثلْثٌ للشّرابِ، وَثُلْثٌ للنَّفس))(١)، يشير بذلك لحديث رسول الله – ﷺ –: ((**بحسب ابن آدم أكلات يقمن أوده، فإن كان لامحالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**))(٢).

وكذلك **الزمخشري** أشار إلى بعض أنواع الطعام التي كان يتناولها أفراد مجتمعه من الأغنياء فيقول: ((وتَدْعُوكَ إلى أَكْلِ الطّيبِ النَّاعِم مِنْ ألوانِ المطَاعِم، الدَّجَاجُ المسمَّنُ بكَسْكَر، والرَّجْراجُ بالسَّمْن والسُّكَّر...))(٣).

أما طعام الفقراء فهو ((قُرْصَا شَعِير في غَدائَك وَعَشائك))(٤).

وقد روى أن النبي – ﷺ – أكل الدجاج، فعن قتادة عن زهدم الجرمي، قال: دخلت على أبي موسى وهو يأكل دجاجة، فقال: ادن فكل فإني رأيت رسول الله – ﷺ – يأكله(٥).

ومن الصور أيضاً:

نقد بني زمانهم:

ونرى **الزمخشري** ينقد بني زمانه نقداً شديداً، للحال الذي رآهم قد ترددوا فيه فيقول: ((ياأبَا القَاسِم أزِلْ نَفْسَكَ عَنْ صُحْبَة النَّاسِ واعْزِلْهَا، وائتِ فَرْعَةً مِنْ فِراع

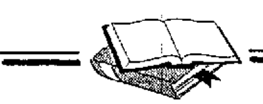
(١) المقامة نفسها، ص ٩٠-٩١.

(٢) سبق تخريجه في ص ٥٧ .

(٣) المقامة (٢٠): العفة، للزمخشري، ص١٢٢، كسكر: بلد بسواد العراق ينسب إليها الدجاج الكسكرى انظر: معجم البلدان، الحموي، ٤/ ٤٦١، الرجراج: الفالوذج الذي يترجرج، انظر: اللسان، مادة: رج.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٢٥.

(٥) رواه الترمذي (١٨٢٦)، كتاب الأطعمة، باب (٢٥)، ٤/ ٢٧١.



الجَبلِ فانْزِلها، ولُذْ بِبعضِ الكُهوفِ والغِيرانِ بَعيْداً مِنَ الرِّفقَاءِ والجِيرانِ... ولاتَفَطنْ لعيبِ أحدٍ سوَى عَيْبك»(١).

فلماذا ينصح بالعزلة، وترك الرفقاء والجيران؟

لقد ذكر السبب وهو قوله: «قَاتَل الله بَني هَذِه الأيَّام فَإنَّهم طَلائِعُ الشُّرُورِ والآثام، لقاهُم لَقَاء، وحِوارهُم غوار، ونِقالهُم نِقَار، وَوفَاقهُم نِفَاق، تسلقُ بألسِنتهم الأعْراض، كَمَا تُرشَق بِسهَامِهم الأغْراضْ»(٢).

لقد دعا عليهم بقوله: «قَاتلَ الله بَني هَذِه الأيـَّام»؛ ومن المآخذ التي تؤخذ عليهم: شرورهم وآثامهم، وأن لقاءهم كأنه لقاء عدو، وأما حوارهم فلاطائل منه، وإذا ماأرادوا الانتقال دبّ بينهم النقار والشجار، وإذا رأيت الوفاق شملهم فاعلم أنهم ينافقون بعضهم، كما أنهم مغتابون فألسنتهم تسلق الأعراض، وعيونهم تصيب بالحسد فيرشقون بها الأغراض، مبتعدين عن ذكر اسم الله؛ لو أعجبهم شيء؛ ليدرأوا به ماتصيبه العين.

وأما الكبار فيجتمعون في الندوة أو النادي، ولايتواصون بالصبر بل يأخذ بعضهم بناصية بعض للوصول إلى صدر المجلس.

هؤلاء هم أفراد مجتمعه لذا يقول: «إنْ آنسُوكَ حَمدْتَ الوحْشَة وإنْ جَالسُوكَ ودَدْتَ الوَحْدة»(٣).

إن بعض أفراد مجتمعه يحملون تلك الصفات السيئة والتي بسببها دعا **الزمخشري** إلى العزلة، مضيفاً إليها صفات أخرى: كالكذب في قوله: «وافْتَنَّ في الأحاديثِ كَحَاطِبِ اللَّيْل، واسْتَنَّ في الأكاذيْبِ كَعاثِر الخَيْل»(٤)، وعدم الحياء، فيقول في ذلك: «مُلْقياً أسْبابَ الفِتنِ بَيْنَ يدَيْ افتِنَانِه، مُخَلِّفاً لِلآدابِ والسُّنَنِ وَرَاء اسْتِنَانِه،

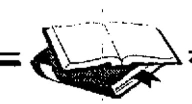
---

(١) المقامة (١٩): العزلة، للزمخشري، ص ١٠٨-١١٠.

(٢) المقامة نفسها، ص١١٠-١١١.

(٣) المقامة نفسها، ص ١١٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ١١٣.



لايَدْفع في صَدْرِه مِنْ حَياءٍ دَافِع، ولايزَعُهُ مِنْ دِينِ حَقّ وازِعْ، وَلاَينْزعُه مِنْ عِرْقِ صِدْقٍ نَازِع»[1]. والغيبية، والتي قال فيها : «فَإِذَا أنْشَأ يَأكُلُ لَحْم أخِيه بالنَّقِيصَةِ والثَّلْبِ، وَيلغُ في دَمِهِ الحَرَامِ وُلُوغَ الكَلْبِ، ويصَوّبُ ويصَعّدُ في تمزِيقِ فَرْوتِهِ، وَيقُومُ وَيقْعدُ في قَرْعِ مرْوَتِه»[2]. والاستهزاء، وفيه يقول: «وَيَخْلِطُ ذَلِكَ باسْتِهزاءٍ مُتَتابِعْ، واسْتغرابٍ مُتَدَافِع»[3].

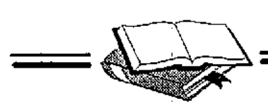
هذه الصفات القبيحة التي اتصف بها بعضهم، لو أن الآخرين ماجاوروهم فيها لوصفوهم بصفة الكبرياء، أو الرياء وإن سرت معهم في طريقهم، فذاك هو الهلاك والضلال، ثم يتعجب ويقول : «فَيالَهَا مِحنَةً ماأضرَّهَا، ويَالَهَا فِتْنةً وَقَى اللهُ شَرَّها»[4].

وهذا **ابن الجوزي** يصور بعضاً من جوانب المجتمع الذي عاش فيه، فها هو ذا في المقامة المسماة «العزلة» يعرض لمجموعة كبيرة من شرائح مجتمعه، مبيناً الحال الذي آلوا إليه على لسان بطله أبي التقويم، الذي ظهر هنا معتزلاً العالم في خباء، ولما سأله الرجل – الذي أقبل إلى تلك البلدة – عن سبب عزلته علل ذلك؛ بأن من جالسهم بعيدون عن جادة الصواب فقال: «إنَّما هَرَبْتُ ممنْ جَرَّبْت ... قَدْ كنتُ في البلدِ أَعقِدُ مجلسَ المناظرةِ. فَمَا بَقِيَ مَنْ أقعدُ مَعَهُ للمحاضرةِ، إنَّهم مايتواصَوْن بالحَقِّ إنَّما يتناصَوْن عَلَى الأحقِّ. أشْكُو إلَى اللهِ لَا إلَى الغيرِ زَمَنَ الزّمن

فَمَا النَّاسُ بالنَّاسِ الَّذينَ عهدتُهمْ ** وَلاَ الدّارُ بالدّارِ التي كُنْتَ تَعْرِفُ»[5].

---

(١) المقامة والصفحة نفسها.
(٢) المقامة نفسها، ص ١١٤.
(٣) المقامة والصفحة نفسها.
(٤) المقامة نفسها، ص ١١٦.
(٥) المقامة (٣٧)، ص ٢٩٨-٢٩٩.



ثم طلب منه أن يصف أعمالهم فقال: ((أَمَّا **القراء** فَهِمَّتُهُمُ الشَّاذ ... وَأَمَّا المحَدِّثُونَ فغرضهم مِنْ المنقولِ علوَّ الإسْنَادِ لابيانَ المقُولِ وَلَافهمَ المراد ...))(١).

ثم بين حال **الفقهاء** وهي حال لاتسر لانغماسهم في الدنيا فيقول عنهم: ((أَمَّا الفقهاء فربما استدلُّوا بأحاديث لَايعرفونَ طيبّها مِنْ الخبيثِ ... يَتَشَاغَلُون بالمسائِلِ الطوالِ لأنَّه يكثرُ فِيهَا قِيلَ وَقَال. يَتَنَافَسُون في الرُّتَبِ والمجَالسِ، فيتعلَّمُ منهم سُوء الأدبِ المجَالس. فيجري بينهم مُجالدَةٌ لَامجادَلة وَمُلَاكَمة لَامُكَالَمَة، يغضبُ أَحَدُهُمْ إذَا لَمْ يُلَقّب. وَينتظرُ تقبيلَ يَدِهِ وَيترقّبُ، يَتَطَفَّلُون عَلَى صُنُوفِ الظلمة. وَلَايَأْمُرُونَهم مِنْ المعروفِ بِكَلمةٍ، وَرَبما لَبِسُوا مِنْ الثِّيَابِ الحريرَ. وَأنسوا بالكذبِ في ثناءِ الْأَمِيرِ... وَمَاكَانَ السَّلفُ عَلَى هـذِهِ الطريق ... كَانَ القَوْمُ لَايؤثرون التَّصَدّر في المسَانِدِ لِلْمَسَائِل، وَيودهم لَوْ أَجَابَ غَيْرُهُمْ السّائِل))(٢).

وانتقل إلى **المذكرين** وقال إنهم: ((يُوردون الأخبارَ الموضُوعَة. وَيَتَخَاشَعُونَ بحركاتٍ مَصْنُوعَة وَيُنْشِدُون شِعْرَ لَيلى وَالمجنون ... همتهم اللقطةُ العجيبةُ. لَا النَّهي عَنْ النظرةِ وَالغيبةِ، فَيَخْرُجُ الغبي وَمَاأُمِرَ بالصَّلاةِ، وَالْغَنَّي وَمَاحثّ عَلَى الزَّكَاة، وَالْعَاصِي وَمَايعرفُ طَرِيقَ النَّجَاة))(٣).

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر حال فئة أخرى من فئات مجتمعه وهم **المتزهدون** فقال إنهم يظهرون خلاف مايبطنون فهم: ((إِنَّما صَوَّفُوا لِلتصنُّع ملبوسَهم. وَنَكَّسُوا للتخشُّع رءوسَهم؛ ليُلاحِظَهم بِالزهد مَنْ يَرَى، وَهُمْ في الباطنِ أَسْدُ شَرَى))(٤).

ثم تحدث عن فئة ثالثة من فئات مجتمعه فقال: ((أما **التجار** فالرِّبَا في تَصرفَاتِهم مِنْ أَقْبَحِ آفَاتِهم. وَيُصَانِعون ببعضِ زَكَاتِهم. فَيَبْقَى الفقراءُ في شكَاتِهم))(٥).

---

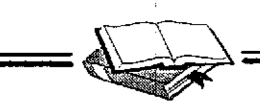
(١) المقامة نفسها، ص ٢٩٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٠٠.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٠١.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة والصفحة نفسها.



وفي آخر المطاف بين كيفية التخلص من هذا الزّمان الظلم جهله، والظالم أهله؛ بقوله: ((إن وجدت العالم ديناً عاقلاً. وإلا فاجعل نصيب العالم والعالم معاً قلي))(١).

وفي مقامة أخرى نرى **ابن الجوزي** يذكر لنا صورة من صور المجتمع ألا وهي حال **المتصوفة** في زمانه ذاك فقال في مقامته المسماة ((في صوفية الزمان)): ((غَالَطُوني بِأَعْمَالِ الصَّلَاحِ. ثُمَّ خَالَطُوني بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ يُسَمّونَ مناخَ الْبَطَالَةِ الرِبَاطَ. وَيخوضُونَ فِي الجهالَةِ إِلَى الآباطِ ... انقطَعُوا عَنْ الجماعاتِ فِي المسَاجِدِ وَجَرَوا عَلَى سَنَنِ مخالف للسُّنَنِ مُعَانِدِ. طَهَاراتهم إِذَا تأملت وسواس. الطَّهارات عِنْدَهم كَالأَنجَاسِ يُغَلِّفُون الأقدامَ لِلمَشيِ عَلَى الْقَطِيفَةِ. وَلَو قَطَعَ بِطَهَارِتَها الشَّافِعي وَأَبُو حَنِيفَة))(٢).

واستمر **ابن الجوزي** يعدد على لسان أبي التقويم حال المتصوفة فإذا هم يمنعون قراءة القرآن وسماع الحديث، وفي المقابل يستمعون إلى المغنى والزير. فهم على الحقيقة ذئاب في ثياب، ستروا ظواهرهم بالرقاع وعيوب البواطن أكثر ... ومن ثم بدأ ينعى حال الصوفية الأوائل فيقول :

((أَهْلُ التَّصوفِ قَدْ مَضَوا ** صَارَ التصوفُ مَخْرَقَهْ
صَارَ التَّصَوفُ صيحةً ** وَتَوَاجدا وَمُطبِّقَهْ
كذبتكَ نَفْسكَ لَيْسَ ذَا ** سنن الطَّرِيقِ الملحِقَهْ
حَتَّى تكونَ بعينِ مَنْ ** مِنْهُ العيونُ المحْدِقَهْ
تَجرِي عليكَ صُروفُه ** وَهُموم سِركَ مُطْرَقَهْ))(٣)

وهكذا نراه يبين لنا صورة من صور المجتمع آنذاك، وهي صورة المتصوفة والحال الذي هم عليه من شطط وبعد عن الطريق القويم.

---

(١) المقامة والصفحة نفسها، قلى: الهجر والبغض ، انظر: اللسان، مادة : قلى .

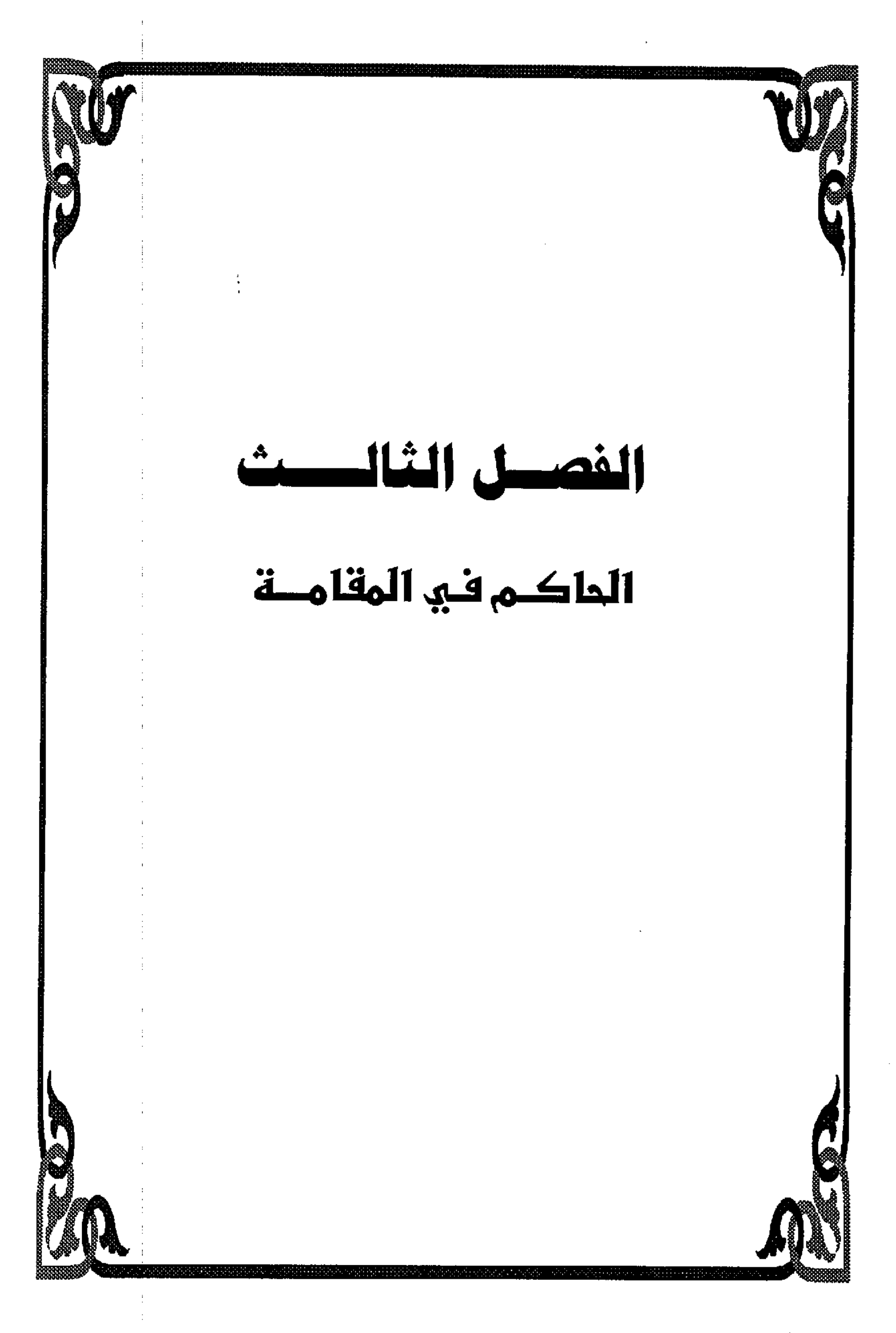
(٢) المقامة (٤٠): لابن الجوزي، ص ٣٢٠.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٢٧-٣٢٨.



ويظل **ابن الجوزي** ينقل لنا في مقاماته صوراً أخرى كما في المقامة المسماة ((في ذم أبناء الدنيا))، حيث يذكر حال أهل العلم وأكثرهم لايحافظ على الحقوق، والمتكلمين يقولون بخلق القرآن، والجاهلين يفتوون بدون علم، والمذكرين جمهور كلاهم في العاشق والمعشوق، والمتزهدين يبيعون زهدهم بسعر السوق، وأما الأغنياء فهم أصدقاء البخل أعداء الحقوق، ناهيك عن العوام فحدث ولاحرج فهم في الزلل والجهل غرقى وعن واجباتهم منشغلون، وصلاتهم يؤخرون، وان أدوها فبسرعة البرق، والزكاة يهملونها، والفقير منهم يتقلقل جوعاً، والمال في الصندوق ثم بين فأبرز أول ماأبرز أن الربا بينهم فاش، يقبلون على تعامل بعضهم مع بعض المنجمين مدبرين عن أمر المشرع الصادق الصدوق[1].

(١) انظر: المقامة (٤٩): ص ٤٠٠-٤٠٩.



الفصل الثالث

الحاكم في المقامة



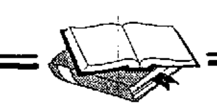
إن الذي يطبق نظام الإسلام، ويرعى عقيدته عملياً، هما شخصان في الدولة، الأول: القاضي الذي يفصل الخصومات بين الناس، ويخبر بالحكم على سبيل الإلزام. والثاني: الحاكم الذي يحكم الأمة سواء سمى هذا الحاكم أمير المؤمنين أو الإمام أو السلطان، لذا سيكون الحديث حول من يمثل الحكم قاضياً كان أو حاكماً.

وللحاكم في مقامات **بديع الزمان الهمذاني** صور متعددة، غير أنها تدور في فلك واحد من المعنى وهو: السخاء والعطاء، ولذلك قلب البديع هذا المعنى في صور مختلفة، وطاف ببطله في آفاق متعددة، ففي نيسابور نجد نموذج السخاء في الحاكم الذي شد الرحال إليه، وهو : ((خلف بن أحمد)* هرباً من قاضي نيسابور الذي ذكر له أبوالفتح الإسكندري مجموعة من الصفات أبرزها مايلي :

- مثل لخبث هذا القاضي ودناءته بقوله : عنه: فهو كالسوس يقع في الصوف وأراد به الأموال، فيأكله ويفسده، ولكنه لايختار إلا صوف الأيتام وأموالهم؛ لأنه لايوجد لليتيم من يدافع عنه ويحاسب له، وهو في أكله الأموال وإهلاكها؛ كالجراد الذي ينزل بالزرع فلايترك فيه ثمرة نافعة، ثم إنه لاينزل بالزرع المباح، بل يختص الحرام منه، وفي هذا زيادة في تشنيع حاله، وهذا الرجل - القاضي - يشبه اللص في أخذه أموال الناس واختلاسها، ولكنه لايسطو إلا على ماشتد الخطر عليه، وزادت حرمة انتهابه، كأموال الأوقاف المرصودة للمنافع عامة، وهو في نهبه الضعاف والعجزة الذين لايقدرون على مغالبته، ولايجسرون على مجالدته يشبه الأكراد؛ وهم جيل من الناس عرف في طبعهم النذالة ودناءة النفس، فهم أشد الناس ميلاً إلى النهب وسلب الأموال.

وشُبّه بالذئب في خبثه إذ يتظاهر بالصلاح والتقوى والخشية من الله، والخوف من عذابه، غير أنه يعمل عمل الذين ليس في قلوبهم شيء من الشفقة، ولاتداخلهم الرحمة بعباده فهو يسطو على الناس وهم ركوع وسجود، واحتياله على الناس بصور

(*) خلف بن أحمد (٣٢٦-٣٩٩هـ): من بني يعقوب بن الليث الصفار، أمير سجستان، تفقه وروى الحديث، جمع كبار العلماء في بلاده فصنفوا معه "تفسيراً" للقرآن الكريم. انظر: الأعلام، الزركلي، ٢/٣٠٩.



خداعة يوهمهم أنها شرعية؛ ليقتنص أموالهم ويستفيدها لنفسه، والحقيقة أن هذه الأشياء متصنعة صورية لاتتفق مع حقيقة الشرع في شيء، ومن تلك الصور الخداعة التي أبرزها لنا بطرق عدة:

أنه ارتدى رداء رجال الدين، ولبس لبوسهم، وتزيا بزيهم، ولكنه قد ترك حقيقة صفاتهم، ونبذ صالح أعمالهم التي لايلائمها مايفعله من ابتزاز الأموال ونهبها، ((وسوّى، وحَرَّفَ، وقَصَّرَ...)) ليزداد في إظهار بشاعة مايفعله تجاه إخوانه المسلمين، فهو قد يلبس لبس الخواص من النساك، وحدد يده ولسانه كناية عن تهيئه، واستعداده للاختلاس وإيقاع الناس في شباكه.

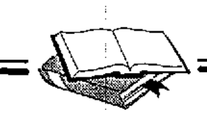
وأظهر ذرابة لسانه وفصاحة منطقه وقوة بيانه؛ ليستجلب الناس فيلتفوا حوله؛ ليوهمهم أنه حق وصواب وهو على خلافهما، معينه في ذلك بياض لحيته من طول ماعاش، لكنه رغم إظهار تعففه عن الدنيا وميله إلى ثواب الآخرة؛ إلا أنه لم يعمل عملاً صالحاً في حياته كلها، بل كل أعماله شريرة، فاسدة، فهو قد لوث صحيفة ذكراه، وتسويدها كناية عن سوء عمله وغرضه الخبيث.

إن الهمذاني حين وصف لنا كل تلك الصفات في قاضي نيسابور، أعطانا صورة لشريحة من شرائح المجتمع المتطفلة التي تعيش كالعلقة في جسم المجتمع، وسجل ظاهرة اجتماعية واضحة، فقال عنه:

((هذا سُوسٌ لايَقَعُ إلا في صُوفِ الأيتامِ، وجَرَادٌ لايَسْقُطُ إلا على الزَّرْعِ الحرامِ، ولِصٌّ لاينْقُبُ إلا خِزَانَةَ الأوْقَافِ، وكُرْدِيٌّ لايُغِيرُ إلا على الضِّعافِ، وذِئبٌ لايفترِسُ عبادَ الله إلّا بَيْنَ الركُوعِ والسُّجُودِ، ومُحَارِبٌ لايَنْهَبُ مالَ الله إلا بَيْنَ العهودِ والشُّهُودِ، وقد لَبِسَ دَنِّيَّتَهُ وخلع دِينِيَّتَهُ، وَسَوَّى طَيْلَسَانَهُ، وحَرَّفَ يَدَهُ ولِسَانَهُ، وقَصَّرَ سِبَالَهُ وأطَالَ حِبَالَهُ، وأبْدَى شَقَاشِقَهُ، وَغَطَّى مَخَارِقَهُ، وبَيَّضَ لحْيَتَهُ، وسَوَّدَ صَحِيفَتَهُ، وأظْهَرَ وَرَعَهُ وسَتَرَ طَمَعَهُ))[1].

---

(١) المقامة (٣٩) : النيسابورية، للهمذاني، ص ٣٠٥-٣٠٨.



لكن مسؤولية تولي القضاء لقاض كهذا تقع على الحاكم، الذي كان عليه أن يتحرى عنه قبل أن يوليه، فما هو إلا ممثل للحاكم في إحقاق العدل، ولعل هذا ماحدا بأبي الفتح الإسكندري أن يخرج من نيسابور متوجهاً لحاكم نعته بصفات حسنة، أولاها السخاء حين سأله الرجل بعد أن لعن القاضي ذا الصفات السيئة السابقة: من أنت؟ وبعد أن أجابه لجأ الرجل إلى أسلوب الاستدراج[1] حين لجأ لاستمالته إلى الجملة الدعائية: «سَقَى الله أرضاً أنبتتْ هَذَا الفَضْلَ، وَأَباً خَلَّفَ هَذَا النَّسْلَ»[2]. ثم وجه إليه سؤالاً : أين تريد؟ فأتى رد أبي الفتح بكلمة واحدة هي : «الكعبة» جعلت السامع يتشوق للرفقة، ومن هنا كان الأخذ والرد بين السائل والمجيب، السائل الذي أثارته الكلمة، وبعثت في نفسه التساؤل، فجاء الجواب الذي لم يطفيء ظمأ تشوقه لمعرفة صاحب هذه الصفات، والنعم التي ينعم بها عليهم الممدوح، عن طريق تعدادها والتي هي في نفس الوقت آيات بينات، ودلالات واضحات على عظم فضل الممدوح فأراد بذلك توجيه أنظار السامع إليه، وتقريره لصفاته، مادفع الجالس أمامه للتساؤل عن صاحبها الذي قال فيه :

« أُريدُ كَعْبَةَ المُحْتاجِ، لاكَعْبَةَ الحُجَّاجِ، وَمَشْعَرَ الكَرَمِ، لا مَشْعَرَ الحَرَمِ، وَبَيْتَ السَّبْيِ، لابَيْتَ الهدى، وقِبْلَةَ الصِّلاتِ لاقِبْلَة الصَّلاةِ، ومِنَى الضَّيْفِ لامِنَى الخَيْفِ»[3]، ولما كانت هذه الأخبار مترتبة بطريقة الترقي جاء الخبر الأخير كالنتيجة لها، وهو ذكر اسم الممدوح : خلف بن أحمد، ويتكيء البديع هنا على عاطفة إنسانية يثيرها؛ لتدفع صاحبها عن طريق الإعجاب حيناً والاعتراف بالجميل حيناً آخر لهذا الحاكم الذي يغدق عليه بسخاء، ويعرف قيمة الأدب والأدباء، الإعجاب بتلك الصفات التي

---

(١) الاستدراج : هو استمالة المخاطب بما يؤثر فيه ويأنس إليه أو بما يرغبه قبل أن يفاجئه بمايطلب منه. الأقصى القريب، للتنوخي، ص ١٠٣، مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٣٢٧هـ، الطراز، يحيى ابن حمزة العلوي اليمني، ٢/٢٨١، ط بيروت، لبنان ١٤٠٠-١٩٨٠م.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٠٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٠٩-٣١٠.



خلعها على ممدوحه، خلف بن أحمد، الذي يمثل الحاكم الحق في نظره ، لأنه : كعبة المحتاج، فيلجأ إليه ذوو الحاجة والمعوزون، وطلاب المكارم، ورائدو الجود. ومشعر الكرم؛ وموضع البذل والسخاء، وإسداء المعروف وحسن العطاء. وأما بيته فإنه بيت سبى: فتساق السبايا إليه . وقبلة الصلات : فلاتظن أنني متوجه إلى المكان الذي يتوجه نحوه المصلي حين صلاته، إنما أنا سائر إلى المكان الذي تكون فيه الهبات والعطايا. ومنى الضيف : فانني لاأقصد أني آخذ في طريقى إلى منى التي يسير إليها من يقضي فريضة الحج، ولكن أردت منى التي يذهب إليها الضيفان ويسيرون نحوها، وأضاف منى إلى الضيف إشارة إلى كثرة عدد الواردين على حضرته، ثم بعد أن استنفد صبر السامع إليه، اتحفه بذكره في البيتين التاليين:

«بحيثُ الدِّينُ والملِكُ المؤيَّدْ ** وخَدُّ المكْرُمَاتِ بِهِ مُوَرَّدْ
بأرْضٍ تَنبُتُ الآمالُ فيها ** لأنَّ سَحَابَها خَلَفُ بْنُ أَحْمَدْ»(١)

فشبه المكرمات بإنسان يترقرق في وجهه ماء السّحاب، وتجري فيه الصحة والعافية، ويتقلب في أعطاف النعمة والرفاهية وكنى بتورد خده عن ذلك كله، وجعل سبب التورد في خد المكرمات: ممدوحه المقصود بالتوجه إليه، فكأنه يقول: إنه حلية المكارم وزينتها، وإن بقاءها ودوامها بوجوده وبقائه، والأرض التي أيممها منبت الآمال، ومغرس الأماني؛ لأن الذي يتعهدها هو : خلف بن أحمد الذي لايخيب عنده قاصد، ولايضل بساحته مالك، ولايضيع لديه رجاء .

وحق لحاكم كخلف بن أحمد له كل تلك الصفات السابقات، أن يكون محط إعجاب الهمذاني، الذي نجده يذكر في مقامة أخرى أنه يلقى كرم الوفادة من الجميع، إلا أن كرم الأمير خلف بن أحمد لايوازيه - في نظره - كرم وجود وسخاء وعطاء، وقد قيل له :

«لَوْ أقَمْتَ بهذا المكَانِ لقَاسَمْنَاكَ العُمْرَ فما دُونَهُ، وَلَصَادفْتَ مِنَ الأَمْطَارِ

---

(١) المقامة نفسها، ص ٣١٠-٣١١.



مايُزْرَعُ، وَمِنَ الأنْواءِ مايُكْرَع، قالَ: ماأخْتارُ عَلَيكُمْ صَحْباً، ولقد وَجَدْتُ فِناءَكُمْ رَحْباً، ولكنَّ أمطارَكُمْ ماءٌ، والماءُ لايُرْوِي العِطَاشَ، قُلْنا: فأيُّ الأمْطارِ يُرْوِيكَ؟ قال: مَطَرٌ خَلَفيٌّ»[١] أي خلف بن أحمد .

وبعد خروجه عاد بعد مدة، وسألوه ماوراءه، فقال: «جمال موقرة وبغال مثقلة، وحقائب مقفلة، وأنشأ يقول :

مَـوْلاي أيُّ رذيلـةٍ لم يَأبَهَـا ** خَلَفٌ؟ وأيُّ فَضِيلَةٍ لم يَأْتِها؟
مايَسْمعُ العَافِينَ إلَّا هَاكَهَا ** لَفْظاً، وَلَيْسَ يُجابُ إلا هَاتِهَا
إنَّ المكارمِ أسْفَرتْ عَنْ أوْجُهٍ ** بِيضٍ، وكانَ الخال في وَجَنَاتِهَا
بأَبى شَمائِلُهُ الـتى تَجْلُو العُلا ** وَيَداً تَرَى البركاتِ في حَرَكاتِهَا
مَنْ عَدَّهَا حَسَنَاتِ دَهْرٍ إنَّنى ** مِمَّنْ يَعُدُّ الدَّهْرَ مِنْ حَسَنَاتِهَا

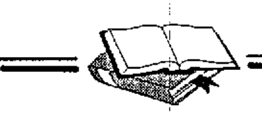
... وأقامَ النَّاجِمُ أياماً مُقْتَصِراً مِنْ لِسَانِه، على شُكْرِ إحْسانِهِ، ولايَتَصَرَّفُ مِنْ كَلَامِهِ، إلا في مَدْح أيامِهِ، والتحدُّثِ بإنعامِهِ»[٢].

فهذا الحاكم إذا كان لإنسان أن يعتبر فضائله حسنة من حسنات الدهر، فالهمذاني يقول: إن الدهر نفسه – وهو الذي يجود بالحسنات – حسنة من حسنات الأمير، وذلك نهاية المبالغة في الإطراء .

وها هو ذا بطل الهمذاني في البصرة حيث يعرض على حاكمها أن يتخذه صنيعة فكان رد الحاكم : « بَلْ أَخْدِمُكَ خِدْمَةَ الرَّفيقِ، وأُشَارِكُكَ في السَّعَةِ والضِّيقِ»[٣]، وبعد أيام أخذ الحاكم يفتش فيها عن الإسكندري إلى أن وجده، وسأله

---

(١) المقامة (٣٧) : الناجمية للهمذاني، ص ٢٨٨-٢٨٩.
(٢) المقامة نفسها، ص ٢٩٥-٢٩٧.
(٣) المقامة (٣٨): الخلفية ، ص ٢٩٩.



عن سبب غيابه، فبين أن سوء معاملة خدامه جعله يبتعد عنه قائلاً : ((وأنْتَ ... لَا اشْتَرَيْتَنِي لِتَبيعَنِي خُدَّامكَ، والمرءُ من غِلْمَانِه، كالكِتَابِ من عُنْوانِهِ))(١).

يريد أن خدم الإنسان ينبئون عن أخلاقه، ويدلون على طيبه، كالكتاب يدل عليه عنوانه، وهذا ضد الذي يقوله بعض الناس : ((إذا حسنت أخلاق السيد ساءت أخلاق المسود)).

وأخذ يعطي صورة للحاكم الذي لايعلم مايحدث من أمور في دائرة حكمه، ويتعجب من ذلك فيقول : ((فإنْ كان جَفَاؤُهُمْ شيئاً أمَرْتَ به فمَا الذي أوْجَبَ؟ وإنْ لم تكن عَلِمْتَ بهِ كانَ أعْجَبَ))(٢).

وكان عليه أن يكون رسول الله – ﷺ – قدوته في محاسبته لعماله، ((فعن أبي حميد الساعدي –رضي الله عنه– أن النبي – ﷺ – استعمل ابن الأتبية على صدقات بني سليم، فلما جاء إلى رسول الله – ﷺ – وحاسبه قال هذا الذي لكم، وهذه هدية أهديت لي، فقال رسول الله – ﷺ – فهلا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً ...))(٣).

وهذا سبب من الأسباب التي جعلته لاينسى حاكم سجستان: خلف بن أحمد، فبالعشرة مع سواه وجد أنه لامثيل له، لذا قال :

((ظَفِرَتْ يَدَا خَلَفِ بْنِ أَحْمَدَ، إنَّه ** سَهْلُ الفِنَاءِ مُؤَدَّبُ الخُدَّامِ
أَوَ مَارأيْتَ الجُودَ يَجْتَازُ الوَرَى ** وَيَحِلُّ مِنْ يَدِهِ بِدَارِ مُقَامِ))(٤)

فيدعو هنا لخلف بالخصب والنماء والقوة، لأنه كريم، حسن الوفادة، كثير الزوار، مع هذا تجد خدمه مؤدبين لايسيئون إلى أحد، ولايمل منهم طارق، وفيه تعريض بحاكم البصرة الذي ذكر في أول هذه المقامة.

---

(١) المقامة نفسها، ص ٣٠٢.
(٢) المقامة والصفحة نفسها .
(٣) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب محاسبة الإمام عماله، ٩/٩٥ .
(٤) المقامة نفسها، ص ٣٠٣.

ويعايش بطلنا نموذجٌ آخر من الحكام يمثله حاكم سارية : وهي إحدى بلاد طبرستان الذي يقدر الأدب، ويحترم الأدباء، وإن كانت صور التقدير هناك – في المقامات السابقة – تمثلها العطايا والهبات، أما صورة التقدير هنا فيعبر عنها الاحترام الشديد لشخص البطل الأديب، والمتمثل في العذر الذي ساقه الحاكم للإسكندري قائلاً له : «مَعَاذَ اللهِ، ولكِنْ عاقني عَنْ بُلُوغِهِ عُذْرٌ لايمكن شَرْحُهُ، ولايؤْسَى جُرْحُه، فقال ....: ياهذا قَدْ طَالَ مِطالُ هذا الوعْدِ، فما أجِدُ غَدَكَ فيه إلا كَيَوْمِكَ، ولايَوْمَكَ فيهِ إلا كأمْسِكَ، فما أُشَبِّهُكَ في الإخْلَافِ، إلّا بِشَجَرِ الخِلافِ، زَهْرُهُ يَمْلأُ العَيْنَ، ولاثَمَرَ في البَيْنِ»[1].

فقد أعطى الهمذاني هنا صورة للوالي أو الحاكم الذي يعد ولايفي بوعده، وشبهه بشجر الخلاف وهو شجر الصفصاف، أو هو نوع منه وبه يضرب المثل في حسن الظاهر، من غير أن يكون وراءه جدوى ولانفع، وهذا هو وجه التماثل بين الوالي وشجر الخلاف: فإنه يخدعك منظره وتغرك رؤيته، ولكنك إذا فتشت في أثنائه وجهدت نفسك أن تجد ثمرة فلن تجد السبيل إلى ذلك .

وانطلق من عند هذا الحاكم بعد رفضه لعذره إلى الأمير خلف بن أحمد الذي قال فيه :

«لَادَرَّ دَرُّ الفَقْرِ فَهْـــوَ طَرِيدُهُ وبِهِ رُزِيتُـــهْ
لَأُسَلِّطَــنَّ عَليْـهِ مِــنْ ** خَلَفِ بنِ أحمدَ مَنْ يُميتُهْ»[2]

ويدخل الهمذاني بطله على أحد ولاة الشام فيقدره حق قدره، ويقعده من المجلس في صدره، ويسأله عن أمره وحاله، «فَنَظَرَ ذاتَ اليمينِ وذَاتَ اليَسَارِ، فقَالَ: بَيْنَ الخُسْرَانِ والخسارِ، والذُّلِّ والصَّغارِ، وَقَوْمٍ كَرَوْثِ الحِمارِ، يَشُمُّهُم الإقْبَالُ وهُمْ مُنْتِنُونَ، ويُحْسِنُ إليهم فلايُحْسِنُونَ ...»[3].

---

(١) المقامة (٤٧) : السّارية، للهمذاني، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٠٦.

(٣) المقامة (٤٨) : التميميّة، للهمذاني، ص ٤١٣.



إنما التفت يميناً وشمالاً ليرى هل يحس به أحد، وهل هناك من يسمع كلامه فيتحاشى أن يذكر عيباً أو يخبر عنهم بقبيح. وقد أعطى بذلك صورة حسنة للوالي الذي قدره، وفي المقابل صورة سيئة لتلك البطانة التي تجلس معه فهم «كروث الحمار» فالسعد يأتيهم واليمن ينزل بساحتهم، والثراء والجاه يلزمانهم، في حين أنهم لايستحقون من ذلك كله شيئاً. أما أفعالهم وخلقهم فهي بعيدة جداً عن أفعال الإنسان وأخلاقه، ثم أخذ يذكر بعد ذلك سجستان، ولم يعد خافياً أن بديع الزمان الهمذاني إذا ذكرها فهو يعني قاطنها فهذه البلدة هي خير البلاد، وأطيب الأماكن، وإن الملك الذي بها هو أكرم من فوق التراب، ولذلك تمنى أن تكون بلاد الدنيا كلها فداء لسجستان، وجميع العباد فداء لذلك الملك الكريم المقيم بها، كما ذكر ذلك في المقامة نفسها فقال:

« فِدَىً لَكِ يَاسجستان البلاد ** وَللملكِ الكريم بكِ العباد
هَبْ الْأَيامَ تسعدني وَهَبْنِي ** تبلغينه رَاحِلة وَزَاد
فَمَنْ لي بالذي قَدْ مَاتَ مِنْهُ ** وَبِالعمرِ الَّذي لَايُسْتَعَاد؟»[1]

والقاريء للمقامة الملوكية يمر بذهنه خاطراً قول القائل :

إذا الفتنةُ اضطرمتْ في الْبِلَادِ ** وَرُمْتَ النَّجاةَ فَكُنْ إمَّعَه

لأن البديع ممثلاً في الراوي يجمع على مدح جميع الملوك والثناء عليهم وهو بهذا يتكيء على نقطتين :

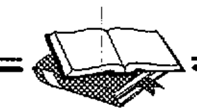
- اختيار جانب السلامة في وقت عمت فيه الفتن .

- طمعه بما في يد الجميع .

إلا أنه عاد إلى سيرته الأولى وخص بالذكر ملكاً من دون الملوك قال عنه:

---

(١) المقامة نفسها، ص ٤١٤ .



((ومتى كَانَ ملكٌ يأنفُ الأكَارِمَ، إنْ بعثْ بالدَّراهم والذَّهبُ، أيْسَرُ مَايهَبُ، والالْفُ لايعُمَّه إلَّا الخلْفُ ...

فليتَ شِعْري مَنْ هذي مآثرُهُ ** مما الَّذي ببلوغِ النَّجْم ينتظرُ؟!))(١)

نعم، إن الأمر غريب جداً؛ لأن من كانت تلك سجاياه، وهذه أوصافه ونعوته فأي شيء يرتجى من وصوله إلى النجم، وارتقائه فوق مناط الثريا؟.

إنه بذلك قد بلغ الكمال الذي لايمكن المزيد عليه قط، وماذلكم إلا خلف بن أحمد، لكن لماذا التأكيد على تثبيت شخصيته وتحديدها دون بقية الحكام والأمراء؟.

سيزول الاستفهام،ويذهب التعجب بعد استقرائنا لكتب التاريخ؛ لنجد أن هذا الأمير جمع إلى بسط ذات اليد حبه للعلم عامة،وتشجيعه إياه،وهذا أطمع هؤلاء الناس – من أدباء وسواهم – للوقوف على بابه، والأخذ من نواله، فقد وجد البديع عنده الفيء الذي يتظلل به، فمن الطبيعي أن يشتاق إليه كلما ابتعد عنه، ويفتقده في تطوافه بين البلاد؛إذ لم يجد له نظيراً في كرمه وحدبه عليه، وإكرامه له بإجراء العطايا عليه.

ولما كان الهمذاني على علم بأن تطبيق نظام الإسلام، ومن يرعى عقيدته عملياً، هما القاضي، والحاكم، لذا أعطانا صورة للاثنين، إلا أن صورة القاضي لم تكن صورة للقاضي المسلم الحق، وكذا الحاكم إلا حاكم سجستان الذي كان قريباً من صورة الحاكم المسلم.

وأما **ابن نباتة** فقد أعطانا صورة للحاكم القدوة؛ حيث لم يترك صفة حسنة إلا وكان له نصيب منها، وذلك حين سأل راوي المقامة ومن معه بطل المقامة أن يهديهم إلى من يستضيئون بنوره بعد أفوله : ((الآن طلبْتُم الحكمَةَ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَأتيتُمْ البيوتَ مِنْ أبوابِهَا، فعليكُمْ بسحرِ الجودِ والعلمِ، وَطَوْدِ المجدِ والحكمِ، وَكريمِ الفَرْعِ والأَصْلِ... إمامُ المصْرَين، وَفريدُ العَصْرين، عَلَمُ الأعلامِ، وَسِنين شريعَةَ الإسلامِ، فارسُ فرسانِ الكلامِ، وَعَيْنُ أعيانِ الأيامِ، صَدْرُ صُدورِ العلماءِ، عَمَادُ وَسمى الكُرَمَاءِ،

---

(١) المقامة (٤٥) : الملوكية ، ص ٣٩٩-٤٠٠.



غيثُ المحل الهَاطِلِ، وَلَيثُ الحقِّ البَاسِلِ، سَيِّدُ الحكام، المثبتُ الأداءِ والإحكام، قَاضِي القضاةِ وَمَوْئلُ العفاةِ،لِسَان الحقيقةِ وَيَدِهَا، شِهَابُ الشريعةِ وَمحمدها الشِّهابُ المستنيرُ، شمسُ العَلا عَلَى شمسِ السَّمَا: أبوعبدا للهِ محمد بْن أبي العباسِ أَحْمَدَ الخَلِيْق بالصدوقِ للقلوبِ،من المجالسِ والمواكبِ في النزولِ والركوبِ،المستضاء بهِ المغرب والمشرق ...

فَاعِلُ الخيرِ مَانُسِبَ الفعلُ إِلى الفاعلِ، وظهرَ في المعمولِ تأثيرُ العامِلِ، المعرفُ بالتصريفِ، والملحقُ بأوائلِ أَفْعَالهِ، مَايَتعدى بهِ مِنْ التضعيفِ،كاملُ المناقبِ، وَوَافِرُها بسيطُ الأيادِي مزودها، لايتحققُ منه أولها وآخرُها...

الصادرُ عَنْ أكرمِ جُرْثومةٍ، وأَطْهَر نجاد، وَأَطْيَب أرومةٍ... إنْ نُوجِيَ أَجَابَ وإنْ حُوجي أَصَابَ، البصيرُ بحلِّ مشكلاتِ اللفظِّ والخطِّ، الجديرُ لِذِي المعضلاتِ بِالرفعِ والحطِّ...))(١).

لقد خلع الشيخ على هذا الحاكم كل تلك الصفات السابقة، مما دعا سائليه أن يتعجبوا، ويقولوا: ((لَقدْ أتيت جَنَادِر عظيم، وَهَديتها إلى صِرَاط مُسْتَقِيم، لَكنكَ قَدْ أَحَلْتَنا عَلَى أَمرٍ أقرب مِنْهُ رَدّ الأمسِ، وَلمس جرمِ الشّمْسِ ...))(٢).

إلا أن الشيخ أصر على موقفه من هذا الحاكم، وأزال كل تعجب أو لبس قد يرد على خاطر سامعيه فقال :

((إنَّه كَمَا عَلمتُمْ، وَخِلَاف مَاظننتمْ، فَهُو العَالِمُ وَالعَامِلُ، وَالغيثُ الهَامِلُ، وَالحِبرُ والعابد، والخيرُ الْعَايد، أَمينُ الجانبِ، وَمُدْنِي المجانب، لَمْ يَزلْ بينَ راهبٍ وراغبٍ، وَقَاصِدٍ وَطَالِبٍ، السّيدُ المتواضِعُ، وَالْفَرِيدُ الجامعُ، إنْ تكلَّمَ فَالفرائدَ وَالفوائدُ، وإنْ أشارَ فتسهيلُ المقاصدِ، منهلُ اللّابدِ، وَلَهفُ العايذِ، يدلُّ عَلَيهِ سَمْتَهُ، وَيَمْلأُ العيونَ وَالْقُلوبَ صمتُهُ.

قَاضٍ بنصرِ اللهِ مستعصم ** وَوَاثِق بالنّاصِرِ القادرِ

(١) مقامة ابن نباتة السعدي (مخطوط)، ص ١٠-١١ .

(٢) المقامة نفسها ، ص ١١ .



مَعْروفُـهُ المعـروف عَـنْ نَـافعٍ ** وَجودُهُ الموجود عَنْ جَابِرِ
بسـيطُ مجـدٍ كـاملٌ سُـؤْددا ** لاينثنى عَنْ بِـرِّه الوافـرِ
أدامَ ربّ العـرشِ أيّامَـهُ ** سعدا دوام الفلـك الدايرِ

فإذا وصلتم حماه، ووجدتم من نوره وهداه، فبشراكم ....»[1].

أما **الحريري** فقد صور لنا الحاكم في صور عدة منها مانراه في مقامته الإسكندرانية، والتي بدأها الراوي في كيفية استمالة الحكام، ليأمن جورهم، فقال:

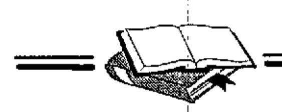
« كُنْتُ لِقِفْتُ مِنْ أَفْواهِ العُلَمَاء، وَثِقِفْتُ مِنْ وَصاياَ الحُكَماء أَنَّهُ يَلْزمُ الأدِيبُ الأرِيب إذَا دخَلَ البلدَ الغَريب، أن يَسْتَمِيل قَاضِيَه، وَيسْتخْلِص مَرَاضِيَه؛ لِيَشْتدَّ ظَهْرُهُ عِنْد الخِصَامِ، ويَأْمنُ فِي الغُربَةِ جَوْرَ الحُكَّام. فاتَّخذْتُ هذا الأدَبَ إمَاماً، وَجعلْتُهُ لمِصَالِحي زِمَاماً، فَمَا دخَلْتُ مَدِينَة، وَلَاوجْتُ عَرِينَة إلاَّ وامْتزَجْتُ بِحُكَّامِها امْتِزاجَ المَاءِ بالرَّاح، وَتقَوَّيْتَ بِعنَايتِه تَقوّى الأجْسَادِ بالأرْواح، فَبيْنَما أَنَا عِنْدَ حَاكِمِ الإسْكَنْدرِيَّة...»[2] أتى رجل وزوجه التي اشتكته لهذا الحاكم، وروت له قصتها، فطلب الحاكم من الزوج أن يرد ويبين مدى صحة قول الزوجة[3].

وقد استطاع أبوالقاسم الحريري أن يمس في مقامته بعض القضايا الجوهرية في صورة الحاكم في زمانه، من ذلك البطانة السيئة التي يمثلها الراوي، ومظهر السوء فيها يكمن في سبب تقربه منه «لِيَشْتَدّ ظَهْرُه عِنْد الخِصَام، وَيأْمَنَ في الغُرْبةِ جَوْرَ الحُكّام»، ثم هو بعد أن عرف المتخاصم مع زوجه، ورغم علمه باحتياله إلا أنه لم يخبر الحاكم بذلك، فأين هو من قوله - ﷺ -: «**مابعث الله من نبي، ولااستخلف من خليفة،**

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) المقامة (٩)، ص ٦٨-٦٩، ت: يوسف بقاعي .

(٣) انظر: المقامة والصفحة نفسها.



إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»[١].

فهو وإن لم يحضه على الشر إلا إنه من البطانة السيئة؛ لأنه سكت عن احتيالهما على الحاكم، والساكت عن الحق شيطان أخرس، وبسكوته أعانهما على إتمام حيلتهما والظفر بالغنيمة. ويكشف حديث السائلة بإفاضة واسترسال عن رحابة صدر الحاكم، وسعة حلمه في إعجام شكوى المرأة، والسماع عموماً لرعيته إلا إذا كان الكلام هذراً لاطائل تحته، وقد عكست هذه المقامة حال الأدباء مع حكام ذلك العصر، فتشجيع الحكام لهم ينعكس عليهم بالعطايا والهبات، والعكس يجعلهم لايجدون قوت يومهم كالسائل الذي بين أيدينا في هذه المقامة، والذي قال:

«فالْيومَ مَنْ يعْلَقُ الرَّجَاءُ بِهِ ** أَكْسَدُ شَيْءٍ في سُوقِهِ الأدَبُ»[٢]

وظهر الحاكم في صورة من لايتوخون الحذر من مثل هؤلاء الناس الذين يلجأون إلى الأساليب التأثيرية، مثل : براعة المحتال في حبكة قصته حتى اقتنع بها الحاكم فـ«فَرَضَ لَهُمَا فِي الصَّدقَاتِ حِصَّة، ونَاوَلَهُمَا مِنْ دَرَاهِمِها قَبْضَة»[٣]، وبلاغته في إنشاد الشعر جعلت الحاكم يشغف بالأبيات، ويقول: «أَمَا إِنّه قَدْ ثَبَتَ عِنْد جَمِيع الحُكّام، وَوُلاةِ الأَحْكَام انقِراضُ جِيلِ الكِرَام وَمَيْلُ الأَيَّام إلى اللِّئَام»[٤]، وربما لسطحية الحاكم الذي كان من المفترض أن يتصف ببعد النظر وعمق التجربة – دور في خروج الشيخ من عنده وهو يصفق بيديه، ويخالف بين رجليه بعد أن حصل على مايريد، ولكن مابال هذا الحاكم يضحك حتى هوت دنيته، وذوت سكينته، رغم معرفته بعد

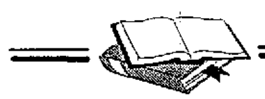
---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة – ﷺ –، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته، ٩/٩٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ٧٢.

(٣) المقامة نفسها، ص ٧٤.

(٤) المقامة نفسها، ص٧٣.



ذلك باحتيال هذا الأديب عليه، فإذا به يقول : ((اللَّهُـمَّ بِحُرمَـةِ عِبَـادِك المُقرَّبِين، حَـرِّم حبْسِي عَلى المُتأَدِّبين))[1].

وكان الأولى به أن يطأطيء الرأس خجلاً؛ لاحتيال الرجل عليـه، وأخـذ المـال منه بدون وجه حق .

إذن فالحريري كان على صلة بالحكام لالينصحهم إذا أخطأوا، أو يذكرهم با لله إذا حادوا عن جادة الصواب، بل للاستفادة منهم إذا وقع في ضائقة أياً كانت تلك الضائقة، وربما كان لصلته ((باعث آخر كالشوق كما بين في بعض مطالع مقاماته، حيث يبرز على لسان الحارث الباعث النفسي للرحلة كقوله: ((... هَتَفَ بِـي دَاعِـي الشَّـوْق إِلى رَحْبـةِ مَـالِكِ بـنِ طَـوْق، فلبَّيتُـه مُمْتَطِيـاً شِمِلَّـة، وَمُنْتَضِيـاً عَزْمَـةً مُشْمَعِلَّة...))[2]. وقد يكون الباعث عقلياً عملياً، لايعتمد على الشوق العابر، والرغبة الطارئة...))[3].

ولعل تلك الصلات المختلفة هي التي جعلت الحريري يصور لأصناف الحكام في عصره، فهذا أحدهم مثلته المقامة العاشرة التي تلقى ظلالاً ثقيلة تغلب فيها قبضة الطين على نفخة الروح، وذلك حين يخلد الإنسان إلى شهواته، وتغلب العتمة على النور في نفسه، ولا أدل على تلك العتمة من ولع حاكم بحب الفتيان فدفعه لإعطاء بطل المقامة مبلغاً من المال ليحصل على فتاه ويتركه معه إلى الصباح[4].

ويعتبر هذا منعطفاً خطيراً في حياة المجتمع الإسلامي، بل هو منعطف غريب على المجتمعات الإسلامية، والأغرب أن يكون على الملأ، وهذا مظهر من مظاهر الانحطاط يؤذن بالسقوط.

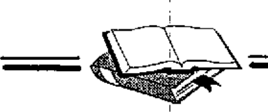
---

(١) المقامة نفسها، ص ٧٥.

(٢) المقامة (١٠): الرحبية، للحريري، ص ٧٦، ص٧٦، شملة : الناقة السريعة، اللسان، مادة: شمل، منتضياً: مجرداً، اللسان، مادة: نضى، مشمعلة: سريعة حادة، اللسان: مادة شعل.

(٣) انظر:التقليدية والدرامية في مقامات الحريري،د.جابر قميحة،ص٥١-٥٢،دارالمعارف،القاهرة.

(٤) المقامة نفسها ، ص ٧٦-٨٢.



فكم من المراحل مرت على هذا المجتمع ليصل لهذه المرحلة؟

لابد أن تكون بعد تعبئة نفسية طويلة ومتدرجة حتى نرى الحاكم يمارسها، وبطل مقاماتنا يتندر بها، والبطانة تؤمن عليها ويكاد الإنسان المسلم لشدة غرابتها على المجتمع المسلم يستنكر، أو يشك في مصداقيتها، لكن – وللأسف – نجد لها إثباتاً تاريخياً فقد قيل : ((في سنة ٣٥٠هـ، ٩٦١م تقلد أبوالعباس بن أبي الشوارب قضاء بغداد، بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معز الدولة مائتي ألف درهم في كل سنة. وكان هذا القاضي مع قبح فعله قبيح الصورة مشوها، وقد اتهم بالغلمان والشهوات والخمور ...))[١].

وهذا صاحب اليتيمة يقول :((وكان الولع بالغلمان من رذائل القضاة المعروفة))[٢].

وقيل : واقتدى المعتصم بالمأمون في الولوع بالغلمان، وإتيانهم حتى اشتهر بهم، وملك ثمانية آلاف منهم، وكان عند المعتمد بدر الجلنار الذي يحبه ويؤثره، والمعتز يحب يونس بن بغا فلايفارقه ولايصبر عنه، وله فيه أشعار كثيرة، وكان يأمر له بكل جليل من الخزائن، وماندري سبب هذا التحول عن النساء إلى الولدان، ولعل هذا الشذوذ الجنسي آتٍ عن كثرة النساء في القصور، فملهن الخلفاء ومالوا إلى الولدان، أو كان ذلك بتأثير الفرس، فقد كانوا مولعين بذلك[٣].

فلو كانت صحبة ((المردان)) المذكورة خالية عن الفعل المحرم، فهي مظنة لذلك، وسبب له؛ ولهذا كان المشايخ العارفون بطريق الله يحذرون من ذلك...))[٤].

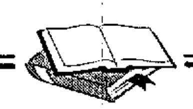
---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متز، ٤١٠/١-٤١١.

(٢) يتيمة الدهر، للثعالبي، ٢٨٨/٢، تحقيق : د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٤٠٣هـ .

(٣) انظر: بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، د.صلاح الدين المنجد، ص٥٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، كتاب التصوف، م١١، ص٥٤٢-٥٤٥ .



لابد أن مجتمع الحريري تجاوز مرحلة تعقبها مراحل طويلة سريعة، ليصل إلى هذه الهوة التي استغلها بطل المقامة فأعطى صورة سيئة للحاكم، والبطانة، والرعية.

ويعرض الحريري لصورة أخرى مغايرة للصورة السابقة فهذا حاكم يقبل على مجالس الوعظ والواعظين، ففي إحدى مقاماته أظهر لنا هذا النوع من الحاكم فقال: «عُنِيْتُ مُذْ أحْكَمْتُ تَدْبيري، وَعرَفْت قَبيلي من دَبِيري، بِأنْ أصْغِي إلى العِظَات... حتّى أَفْضَيْنا إلى نَادٍ جَمَعَ الأَمِير والمَأمُور ... وَوَسْطِ أهِلَتِه شَيْخٌ قَدْ تَقَوّس ... وَهُو يَصْدعُ بوَعْظٍ يَشْفِي الصُّدُور، وَيُلينُ الصُّخُور ... فَظَلَّ القَوْمُ بيْنَ عَبْرة يُذْرُونَها، وَتَوْبَةٍ يُظْهِرونَها حَتّى كَادَت الشّمْسُ تَزُول ... استَصْرخَ مُسْتصرِخٌ بالْأمِير الحَاضِر، وجَعَل يَجْأَرُ إلَيه مِنْ عَامِله الجَائِر، والأَميرُ صَاغٍ إلى خَصْمِه، لَاهٍ عَنْ كَشْفِ ظُلْمِه، فلمّا يَئِس من رَوْحِه، استَنْهَض الوَاعِظَ لنُصْحِهِ، فَنَهضَ نَهْضَةَ الشِّمّير، وأَنْشَدَ مُعَرّضاً بِالأَمِير:

عَجَباً لِرَاجٍ أَنْ ينَالَ وِلَايةً ** حَتّى إذَا مَانَال بُغْيَتَه بَغى»[1].

نلحظ أن بطل الحريري يلبس في هذه المقامة ثوباً جديداً، ومغايراً، وينتهج منهجاً غير مباشر، فقد طرق كل السبل للوصول إلى المال، لكن مع ذكاء في الطلب، وبراعة في المقدمة والتي استهلها بموعظة غلفها ببطانة من التزلف، فهي تزلف في ثوب وعظ كرره، ودعمه بالشعر ثم بالنثر ليصل لمبتغاه: «قال: أَيُّهَا المتَوَشِّحُ بِالوِلَايَة، المتَرشِحُ للرِّعايَة، دَعِ الإِدْلالَ بِدَوْلتِكَ والاغْتِرَارَ بصَوْلَتِكَ فإِنَّ الدَّولَةَ رِيحٌ قُلَّب، والإِمرَةَ بَرْق خُلَّب، وإنَّ أَسْعَد الرُّعَاةِ مَنْ سَعِدَتْ بِه رَعيَّتُه ...، فَلَاتَكُ مِمَّنْ يَذَر الآخِرةَ وَيْلغِيها، وَيُحبُّ العَاجِلَة وَيبْتغِيهَا، وَيَظْلِمُ الرَّعِيَّة ويُؤْذِيهَا، وإذا تَوَلّى سَعى في الأَرض ليُفْسِدَ فِيهَا، فَوَاللهِ مَايَغْفَلُ الدَّيَّان، ولاتُهْمَلُ يإنْسان، ولاتُلغَى الإِسَاءَةُ والإِحْسَان، بَلْ سَيُوضَعُ لَكَ المِيزَان، وكما تَدِينُ تُدَان»[2]، وقد آتت الموعظة ثمرتها، ووصل البطل إلى بغيته وأخذ يتهادى بين رفقته، ويتباهى بفوز صفقته التي ماترك وسيلة من وسائل التأثير إلا وغرف منها، وأدلى بدلوه ليس بعيداً عنها.

---

(1) المقامة (21): الرازية، للحريري، ص 155-158.

(2) المقامة نفسها ، ص 160.



فالحاكم هنا عمل بما جاء في الموعظة التي وعظه إياها، وتأثر أيما تأثر، وأراد أن يكون من أسعد الرعاة فتسعد رعيته به، لقوله - ﷺ -: «**من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة**»[(١)].

لهذا نجد الراوي يقول: «فَوَجَم الوَالِي لِمَا سَمِعَ، وامْتُقِع لَوْنُه وانْتُقِع، وجَعَلَ يَتأَفَّفُ مِنَ الإمْرَةِ، ويُرْدِفُ الزَّفْرةَ بالزُّفْرة، ثُمّ عَمَد إلى الشَّاكِي فأَشْكَاه، وإِلَى المَشْكُوِّ مِنْه فأَشْجَاه، وألطَفَ الواعِظَ وحَبَاه، واسْتَدعى مِنْه أنْ يغْشَاه»[(٢)].

وماوصل الواعظ هنا لهذه النتيجة إلا لأنه حاول التركيز على ربط القلوب بخالقها، وإن كانت العبارات خالية من حرارة الإخلاص، أبرزتها لنا الخاتمة التي وضحت الهدف من هذه العظة، والتي وإن ظهر فيها بوادر دفء لكنه ناتج من إخلاصه لحاجته أكثر من إخلاصه لحاكمه.

غير أن صورة الحاكم هنا، هي الصورة الصحيحة للحاكم الذي من واجبه البحث عن العلماء، والوعاظ لكي يستنبط منهم، فهم خير عون له في إدارة الأمانة التي وضعها الله في عنقه، فيكونون خير معين له.

أما مقامته المسماة بالرقطاء ففيها مثال لأحد الولاة الذين يشجعون ويحبون أهل العلم والأدب، وهو والي الجرائم الذي فضل الذهاب إليه بطل مقاماتنا أبوزيد على الذهاب إلى حاكم المظالم، بعد إصرار أحد الدائنين على اقتياده إلى القاضي؛ ليسترد ماله؛ لأن صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى، ومن جملة الفروق بينهما:

« أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاة بكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة

---

(١) رواه أبوداود تحت رقم (٢٩٤٨) عن أبي مريم الأزدي قاله لمعاوية - ﷺ -، كتاب الخراج والإمارة والفيء باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية، ١٣٥/٣.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

الأمارات والشواهد مايصل به إلى معرفة المحق من المبطل، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء، ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراضٍ، وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك، وأنه يجوز له أن يبتدئ باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم؛ وعادة القضاة تكليف المدعي إحضار بينة، ولايسمعون البينة إلا بعد سؤاله))[1].

فقال يشرح حاله تلك لراويه ((الحارث بن همام)): ((فَلَمَّا رَأَيْتُ احْتِدَادَ لَدَدِه، وأَنْ لامَنَاصَ لِي مِنْ يَدِه، شَاغَبْتُه، ثُمَّ واثَبْتُهُ، لِيُرَافِعَنِي إِلى وَالِي الجَرَائِم، لا إِلى الحَاكِم في المَظَالِم، لِمَا كَانَ بَلَغَنِي مِنْ إِفْضَالِ الوَالِي وَفَضْلِه، وتَشَدُّدِ القَاضِي وبُخْلِه))[2].

عندها كتب رسالة الرقطاء، فأعجبت ذاك الوالي فقضى ديونه، وجعله من خاصته، ولبث عنده بضع سنين.

وهذا حال بطل مقامات الحريري مع الحكام والولاة الذين يذهب إليهم؛ ليحصل على عطاياهم إما برواية قصة عن حاله مع دائنيه كما ذكرنا آنفاً، وإما بالشكوى من عقوق ابنه لوالٍ له صفات ذكرها ((الحارث بن همام)): ((فنُعِتَ لِي قَاضٍ رَحِيْبُ البَاع، خَصِيبُ الرِّبَاع، تميميُّ النَّسَب والطِّبَاع))[3].

لكن هذا العقوق قد نفاه ابنه الذي وضح أن والده يريده أن يستجدي المال، وكل يؤيد مقولته بالشعر، إلى أن وقف القاضي مع الشيخ، وأجزل له العطاء: ((فَلَمَّا أنْ رأَى القَاضِي تَنافِي قَوْل الفَتَى وفِعْلِه، وتَحَلِّيَهُ بِمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِه، نَظَرَ إِلَيْهِ بعَيْنِ غَضْبَى، فَقالَ الغُلامُ والَّذِي جَعَلَك مِفْتَاحاً لِلْحَقّ، وفَتّاحاً بَيْنَ الخَلْق، لَقَدْ أُنْسِيتُ مُذْ أَسِيت، وَصَدِيء ذِهْنِي مُذْ صَدِيْتُ،... فَلَمَّا تَبَيَّنَ للشَّيْخ أنَّ القَاضِي ... سَيَنْصُرُ

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ٤٣٢/١-٤٣٣ منقولاً عن الأحكام السلطانية للماوردي،دارالكتب العلمية،بيروت،لبنان،١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص١٤١-١٤٢.

(٢) المقامة (٢٦)، ص ١٩٧.

(٣) انظر المقامة (٣٧): الصعدية، ص ٢٨٥.



كَلِمته... أَنْشَأ يقُول :

يَاأَيُّهَا القَاضِي الَّذِي عِلْمُه ** وحِلْمُه أَرْسَخُ مِنْ رَضْوَى
قَدِ ادَّعَى هَذَا عَلَى جَهْلِه ** أنْ ليْس في الدُّنْيا أخُو جَدْوَى
ومَادَرى أنَّك مِنْ مَعْشَرٍ ** عَطَاؤُهَمْ كَالْمَنِّ وَالسَّلْوَى
فجُدْ بِمَا يَثْنِيهِ مَسْتَخْزِياً ** مِمَّا افْترَى مِنْ كَذِبِ الدَّعْوَى
وأنْثَنِي جَذْلانَ أُثْنِي بِمَا ** أَوْلَيْتَ مِنْ جَدْوَى وَمِنْ عَدْوَى

فَهشَّ القَاضِي لقَولِه، وأجْزَل لهُ مِنْ طَوْلِهِ ...))(١).

وفعل ذلك أيضاً مع قاضٍ آخر ففي المقامة التبريزية(٢) حضر السروجي ومعه زوجه إلى القاضي، وأخذا في السباب على بعضهما ((وَهُو يَفْتِعَل الخِلاَفَ الحَادَّ مَعَ زَوْجَتِه أَمامَ القَاضِي إِلى أَنْ يخْرُجَا مِنْه بَعْدَ أَنْ خَدعَاهُ بِدينَارَيْن))(٣).

وإن لم يفتعل حدثاً ما، فقد استجدى من الحكام، والولاة مباشرة، ولكن بأسلوب شيق كما حدث مع والي مرو في المقامة المروية(٤) واسمعه شعراً أعجب الوالي فقربه منه وأجزل له العطاء.

((ومثل ذلك يقال عن كثير من القضاة ... ونجد له بصمات وأصداء في شخصية أبي زيد السروجي في حالين متناقضين تكرر ا مرات ومرات وهما: حاله واعظاً يستدر العبرات، وينثر العظات والكلمات الطيبات، وحاله بعدها حين يخلو لنفسه أو براويته الحارث بن همام))(٥)، كما في المقامة التّنيسية(٦).

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٨٩-٢٩٠.
(٢) انظر: المقامة (٤٠)، ص ٣٠٣-٣١٠.
(٣) التقليدية والدرامية في مقامات الحريري. د. جابر قميحة، ص ٤٢.
(٤) انظر: المقامة (٣٨)، ص ٢٩١-٢٩٦.
(٥) التقليدية والدرامية، ص٤١.
(٦) المقامة (٤١)، ص ٣١٤-٣١٨.

ولعلنا نخلص أن الحاكم أو الحكام الذين ورد ذكرهم في مقامات الحريري، هم صورة من حكام عصره، و لم لا والحريري كان على صلة بهم في حياته، فانعكس ذلك على نفسيته، فصوره لنا بتلك الأنماط المختلفة: فنراه مرة حاكماً عادلاً، وأخرى محباً للعلم والعلماء مشجعاً لهم، وثالثة ينفر منهم ولايجزل لهم العطاء، ورابعة نجد الهوى يباعد بينه وبين العدل .

ولاعجب فأديبنا الحريري له صلة بالحكام والأدلة التاريخية تدعم ذلك، بل إن الحريري نفسه ذكر ذلك في مقدمة مقاماته أثناء ذكره للشخصية التي شجعته على إضافة مقامات أخرى إلى المقامة الأولى التي كتبها :

«من أجل ذلك كنا نذهب[1] إلى مارواه الشريشي في تعليقه على العبارة السابقة إذ روى عن بعض أساتذته: أن الذي أشار إليه الحريري في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) وكان له حظ في الأدب وعناية بأهل العلم، فقصده الحريري، ومازال يبعثه على صنع المقامات حتى أتمها ورفعها إليه، فبلغ عنده أسنى المراتب، وخلفه المسترشد فاتصل الحريري بكبار رجال الدولة لعهده، ومن هنا تأتي صلته بابن صدقة وزيره، وربما اتصل بأنو شروان كما اتصل بغيره من البارزين وقدم لهم نسخاً»[2].

أما **أبومحمد طلحة** بن أحمد بن طلحة بن الحسين **النعماني** فقد ذكر الحاكم في مقامته ممثلاً في شخص «قَاضِي القضاة عِمَاد الدِّين أَبَامحمّد طَاهِر بن محمّد الفزاري، - كانَ الرَّجاء وَمَقْصِد الْفُضَلاءِ، وَمَطْلَع السُّعودِ، وَمَنبع الجودِ- الذي أتى إليه أديبنا سنة ٥٠٩، مادحاً، وفي مقامته ذاكراً إياه بعد أن اختار بطل مقامته مدينة (شيراز) دون سواها من المدن ليقصدها مع راويه :

(١) الكلام للدكتور شوقي ضيف، المقامة، ص ٤٤-٤٥.

(٢) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص ١٢١، ط١، ١٤١١هـ.



وشِمْ بروقَ الجودِ من فارسٍ ** ففارسٌ مُرْتَبَعُ الْفَخْرِ
بيضتُها (شيراز) فاعْمِدْ لها ** فإنَّها طاردةُ الفقرِ
بها (عماد الدين) خيرُ الورى ** ربُّ النَّدَى ذو المنن الغُرّ
قاضي القضاةِ العَلَمُ المرتجى ** مبشّرُ الآمالِ بِالْبِشْرِ»[1].

لكن لم تظهر في المقامة أية مواقف لهذا القاضي لتصنيفه لكن الأبيات تدلل على أنه من الأخيار، ومحبي العلم، وكثيري العطاء، ولما كان ذكره في المقامة موضحاً بالاسم فهو يدلل على أنه الأنموذج الحسن من القضاة في عصر كاتب هذه المقامة، وإلا ماامتدحه، بل وأطنب في مديحه، ولم لا ، ونحن شاهدنا عند الحريري مثل هذا الصنف من الحكام، وطلحة النعماني «ممن ورد البصرة في زمن الحريري صاحب المقامات فكتب إليه رسالته الشينية نظماً ونثراً»[2]، وها هو ذا يقول في مقامته نفسها مشيداً بعطاء (عماد الدين):

«ولَوْلَا أَيادِي (طاهر بن محمد) ** لَمَا حلمت بي قَطُّ في النّوم (شيراز)
وَلَاحتْ بي لَوْلَاه في البرِّ سَابِحٌ ** وَلا رَنحتني في قَرَا الكور أَغْـرَاز
ولكن حداني نحوها جود كفه ** ففزت كما قبلي به معشر فازوا»[3]

ويقول أيضاً :

« مَن القوم بالبيضِ المَوَاضي وَبالقَنا ** وَبالخيل وَالزغف النَّدى وَالعُلَى حَازُوا
حَوْوا بـ(عمادِ الدّين) مجْداً مُؤثّلاً ** وَنَالُوا المنى، بَلْ فوقَ غَايتها جَازُوا
بِمَا شِئْتَ فأمر، فَالْقَضاء متابعٌ ** يَصْرِّفُهُ أَمْر عُلَاك وَإِيعَازُ»[4]

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر، عمادالدين الأصبهاني، ص٣-٩.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣-٤.
(٣) المقامة نفسها، ص ١٣ من الخريدة.
(٤) المقامة نفسها، ص ١٥ .



ويقول مؤلف الخريدة معلقاً على البيت الأخير: ((البيتُ في لفظه ومعناه منسوج على منوال بيت محمد بن هانيء الأندلسي في مدح المعز الفاطمي:

مَاشئت لاماشَاءَتْ الأقـدارُ!!! ** فَاحْكُمْ ، فأنْتَ الواحدُ القَهّارُ !!

وهذا المذهب من الغلو في المدح والإفراط المفضي إلى الكفر ... قد نهجه بعض ضعاف النفوس ومدخولي العقيدة من شعراء العربية، وشجع عليه الحكام الناقصون ليسدوا به الخلة ويوهموا شعوبهم قوة سلطانهم، وجلال شأنهم، وهيهات: وماكان أغنى هؤلاء المادحين عن صوغ مثل هذا اللغو، وأغنى هؤلاء الممدوحين عن سماعه وقبوله))[١]، وكأنهم لم يسمعوا حديثه – ﷺ – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أمرنا رسول الله – ﷺ – : ((**أن نحثوا في أفواه المادحين التراب**))[٢].

أما **الزمخشري** فقد وضع نصب عينيه أن النصيحة واجبة على كل مسلم ومسلمة، قادر عليها، عارف بطرق تأديتها، قوله – ﷺ –: ((**الدين النصيحة، قلنا: لمن؟، قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**))[٣].

وهو يعلم أن الرعية قد أدت هذا الحق للإمام في عهد رسول الله –ﷺ– وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده. وكان الحكام يشجعون الناس على قول الحق بتقبله منهم حتى قال قائلهم: ((لاخير فيكم إذا لم تقولوها، ولاخير فينا إذا لم نسمعها))، هذه الممارسة الدعوية لاتؤدي دورها الحقيقي إلا حينما تتكيء على قضية أساسيةمهمّة وهي : ربط القلوب بخالقها حتى ترتقي وتشعر بالعزة، فلاعز لها إلا بذلها لربها.

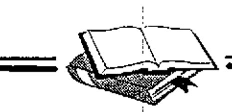
وهذه الملامح هي التي كانت تميز الأوائل، والتي على رأسها: حسن الصلة بالله،الذي يعطي قوة معنوية لايقدرها إلا الذين يعيشون في هذا المجال الرباني الكريم.

---

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٤)، كتاب الزهد، باب (٥٤)، ٤/٦٠٠.

(٣) سبق تخريجه في ص٨٠.



هذا ماحدا بالزمخشري أن يذكر في إحدى مقاماته حال أحد الحكام الذي حاد عن الطريق السوي الذي سلكه الأوائل، فيحبذ من يتذلل له، ويخضع نفسه لطاعته، فيقول:

((يأبا القاسم ... ألاَ أُخبِرُكَ بكلِّ مُهانٍ مُمتَهن، في قَبْضَةِ الذُّلِ مُرْتَهَن، كلُّ مُتهالِك عَلى حُبِّ هَذِه الهلُوك، مُنْقَطِع إِلَى أَحَدِ هَؤُلاءِ المُلُوك، يَدِينَ لَهُ وَيَخْضَع، ويَخُبُّ في طَاعَتِه ويَضَعْ، لايطْمَئِنُّ قَلبُه، ولاتَهْدأ قَدَمُه، ولاينْحَرِفُ عَنْ خِدمتِه همُّهُ ولاسَدَمُهُ يَنْتِصِبُ قُدَّامَهُ انْتِصَابَ الجِذْلِ، وهُو مَلآنُ من الجَذَل، بِعِرْضٍ يحسَبُهُ مَصُوناً وهُوَ كَمَنْدِيل الغَمَر مُبْتَذل، لهُ رُكوعٌ في كُلِّ سَاعةٍ وتَكْفِير، وخرُورٌ عَلَى ذَقِنِه وتَعْفِير، واجماً لِاحْتِرَازِه منْ سَخْطَةِ الملِكِ واحْترِاسِه...))[1].

ونسى هذا الحاكم أن رسول الله - ﷺ -، قال: ((**إذا أراد الله بالأمير خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه**))[2].

هذه صورة لهذا الذي إن نسي الأمير لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه، يؤكدها حديث رسول الله - ﷺ - لذا لم يوجه الزمخشري الخطاب هنا للحاكم، بل توجه ليعظ ذلك الذي وافق أن يجعل من نفسه ذليلاً لغير الله، فذكره أن العزة الحقيقية هي في الاتصال بالله لا بأحد من عباده، ولجأ إلى المقابلة بين صورتين؛ الأولى : هي الصورة السابقة لذاك الإنسان الذليل بعبوديته لغيره من البشر. والثانية: الصورة المقابلة لإنسان عز بعبوديته لله، مستعيذاً به، مقتدياً برسوله، ناصباً قدميه في محرابه، وأظهر في المقابلة الأخرى عنصر الترغيب في العزّ الذي سيناله مستقبلاً ... لأن الذل اليوم لابد أن يقابله عز غداً، والتعب اليوم لابد أن يقابله راحة غداً.

---

(١) مقامة (٢٧): العبادة، للزمخشري، ص ١٣١

(٢) رواه أبوداود تحت رقم (٢٩٣٢) باسناد جيد على شرط مسلم عن عائشة - رضي الله عنها- باب حث السُّلطان والقاضي وغيرهما ١٣١/٣.



ولعل هذه المقامة رد فعل للمرحلة الثانية من مراحل حياته*، والتي توفي فيها والده في سجن المؤيد، فكان له التأثير الكبير على نفسيته لبعده عنه، وكذلك لفقره، وانقطاع المعونة عنه، أدى ذلك لمدح عدد من الملوك والوزراء طمعاً في نيل منصب أو حظوة[١]، ويقابلها المرحلة الأخيرة من حياته حين كان بمكة وعمره خمسة وأربعون عاماً وأصابه مرض تسبب في انقطاعه عن المجتمع الذي كان يعيشه، وآثر العزلة ((فلما أصيب من سنة ثنتي عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التي سماها المنذرة وكانت سبب إنابته وفيئته وتغير حاله وهيئته))[٢]، ندم على مابدر منه من مطامع للوصول إلى المناصب، وماصدر منه من مدائح الملوك والسلاطين في سبيل ذلك، وعاهد الله إن من عليه ألا يطأ بأخمصه عتبة سلطان، ولايتصل بخدمتهم ويربأ بنفسه عن مديحهم، وأن يعكف على العلم: تعليماً وتعلماً وتأليفاً[٣].

فصورة الإنسان المتذلل بعبوديته لغيره من البشر تمثلها المرحلة الثانية من حياة الزمخشري، ووقوفه أمام أبواب الحكام لينال الحظوة منهم في مقابل ذلك صورة إنسان آخر عز بعبوديته لله تمثلها المرحلة الأخيرة من حياته حين جاور بيت الله الحرام، وهي مرحلة عطاء، وإنتاج تمخضت عما كابده في سنوات التحصيل والطلب، حيث

---

(١) يتيمة الدهر، للثعالبي، ٤/١٠١. ت: محمد محي الدين.

(٢) انظر:مقدمة مقامات الزمخشري، ص١١،ط١،دارالكتب العلمية،بيروت،١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

(٣) انظر: مقدمة المقامات نفسها، ص ٧، وكذا الصفحة (١١).

(*) مرت حياة الزمخشري بثلاث مراحل؛ الأولى: نشأته في قريته ((زمخشر)) حيث حفظ القرآن، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة على يد والده الذي كان إماماً بقريته، ورحل إلى بخارى لطلب العلم وفي هذه المرحلة قطعت رجله وهو في سن الصبا، الثانية: طلب العلم حيث خرج من زمخشر إلى خوارزم وفي هذه المرحلة بدأ نشاطه ورحلاته وهي أهم مراحل حياته العلمية لنضوج عقله، الثالثة :تكامل شخصيته العلمية، فتطورت صلاته الإجتماعية وكثر اتصاله بأهل العلم وجاور بيت الله الحرام سنة ٥٠٢هـ ولقّب نفسه بجار الله..انظر:الزمخشري لغوياً ومفسراً، ص٩٧-٩٨، وطبقات المفسرين للسيوطي،ت:علي محمد عمر، ص٤١، مكتبة وهبه، القاهرة، ط(١) ١٣٩٦هـ، ومعجم الأدباء، الحموي، ١٤/٨٦، ويتيمة الدهر للثعالبي، ٤/١٠١.

ألف أشهر مؤلفاته وأنفعها في هذه الفترة، وقد وجد من رعاية ومحبة الشريف علي بن حمزة بن دهاس الدافع الكبير لهذا العطاء الزاخر(١).

لكن لماذا خصص الملوك من دون بقية العباد؟

ربما لكونهم أفضل شريحة في المجتمع تملك الحل والربط ... والتقديم والتأخير، ومع ذلك لاتغني من الله شيئاً ... بل نجد محاولة من الزمخشري وهو ينفر من التذلل للحكام بعرض صورة الإنسان الذي يقف على أبوابهم في حالات مزرية كريهة، فيقول: ((هُوَ كَمِنْدِيل الغَمَر، مُبتَذل، ... خرُورٌ عَلَى ذَقِنِهِ وتَعْفِير، وَاجماً لاحْتِرَازِهِ مِنْ سَخْطَةِ الملكِ ...))(٢)، فاكتملت بذلك الصورة عند الزمخشري في الابتعاد عن أبواب الملوك.

وهذا **الأسواني** لايبرز الحاكم إلا من صورة واحدة؛ هي كونه محباً للعلم وأهله، مما جعل داره مورداً للأدب والأدباء، ومحط رحال العلم والعلماء، ومثل للحاكم عنده ((آل المهلب)) فقال واصفاً نفسه أولاً ليعلي من شأن من سيقدرون هذا العلم والعلماء: ((كنتُ في عنفوانِ عُمْرِي وَرَيعانه ... اشتاقُ إلى الاغتراب ... حَتَّى فَلوتُ الفلوات تَشْريقاً وَتغريباً ... لا أحطّ بِوادٍ وَلَا أنزلُ بحضرٍ وَلَابوادٍ إلا صِرّتُ عَلَماً لِعلمائِهم وَفُضَلائِهم، وَمعلماً لأدبائِهم، وألبائِهم، فلمَّا نزلتُ بالخصيبِ... ألفيتُ بهَا من وجوهِ الأدبِ وَعيونِهِ، وَينابيعِ العلمِ وعيونهِ مَاأَظْفَرني قصوى الطلب، وَنَزلتُ منهِ عَلَى آل المهلبِ، وَأذْهَلنى عَنّ الرحلِ وَالوَجْناءِ...))(٣).

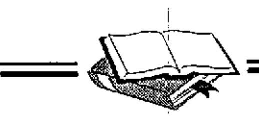
إذن فآل المهلب من الحكام أو الوزراء الذين يشجعون أهل الأدب، حتى إن صاحب مقامتنا يروي على لسان بطله أنه ألفى ببلدتهم وجوه الأدب وعيونه، وينابيع العلم وعيونه، فلو لم يكن آل المهلب ممن يقدرونهم حق قدرهم لرحلوا إلى من يعرف للعلم مكانته وللأدب فضله.

---

(١) انظر: مقدمة تفسير الكشاف، للزمخشري، ٣/١.

(٢) المقامة نفسها(٢٧)، ص ١٣٢.

(٣) المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ١.



وللحاكم صور أخرى عند **ابن الجوزي**، فهذا أحد الحكام يذهب بنفسه إلى أماكن الوعظ ليستمع للوعاظ،وربما هي وصف لمجلس من مجالسه – ابن الجوزي– التي حضرها الخليفة المستضيء[١]، فيقول: ((كَانَ بعضُ السّلاطينِ ينتقلُ مِـن سَهْوةٍ سَهْوٍ، إلى بَهْوِ لَهْوٍ، وهو مَعَ ذلكَ معجبٌ بعجبهِ,قد زَهـا على الزَهـو، والملاهـي قريبـةٌ منـه، والمناهي بعيدةٌ عنه، فقيل له: هَاهُنَا مذكّرٌ مَجْلِسُه فُرجَـة، فَأحْضَرَهُ واحْضَـر في ميـدانِ الحُجَّة، فصادفَ فُولاذاً ينفعه الصَقْلُ، ومميزاً يعرفُ خِسة الهوى من شَرَفِ الْعَقل))[٢].

ثم يبرز لنا صورة هذا الواعظ وقد ارتدى حلة الشجاعة والجـرأة حين شـاهد السُّلطان فانبرى يعظه حتى((جاز الحد في الوعظ))،"فقالَ:أيُّها السُّلطان إنْ تكلمـتُ خِفـتُ منكَ،وإنْ سكتُ خِفتُ عليكَ،وأنا أُقدّمُ خَوفي عَليكَ لمحبتي لكَ،علَى خَوْفي مِنْكَ))[٣].

فهاهنا براعة في الاستهلال بهـذه التوطئـة النفسـية حتـى يصـل للكـلام الـذي سيقوله.

ثم المعالجة الدعوية وذلك بالدعاء للحاكم: ((اسألِ الذي وَلّاك أَنْ يَتولَاكَ))[٤]، ومن ثم التأكيد على جوانب الضعف في حياة الحكام عامة فجعله في مقابلة مع نفسه، ولجأ إلى ذلك بأُسلوب غير مباشر، وذكره بأن هناك من هو أعلى منه ((إنَّ الله – عـزّ وجل – لمْ يجعلْ أَحداً فَوقَكَ، فَلَاترضَ أَنْ يكـونَ أحـدٌ أَطْـوع مِنْـكَ))[٥]، وهـو بهـذا يربطه بأهم مبدأ عقدي وهو مراقبة الله – سبحانه وتعالى – وهي الخلاصة الـتي يريـد أن يصل إليها من هذا الوعظ كله.

ولأسلوبه المؤثر طلب منه الاستزادة في النصح .

---

(١) انظر: البداية والنهايـة،لابـن كثـير، ٢٩/١٣، وتذكـرة الحفـاظ،للذهـبي، ١٣٥/٤، دار إحيـاء التراث العربي، بيروت ، لبنان.

(٢) المقامة (٣٤): في وعظ السُّلطان، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٦٨.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة والصفحة نفسها.

ولما كان الموضوع حيوياً ومهماً أفصح عنه ابن الجوزي كل الإفصاح وأبدى فيه وأعاد، وضرب لذلك أمثلة محسوسة يعيشها المخاطب ويتعامل معها العقل والوجدان.

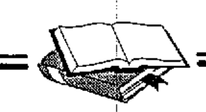
فجاءت الأخبار مترتبة بطريقة الترقي ثم جاء الخبر الأخير كالنتيجة لها، وهو عدم التعلق بالدنيا، ومن هنا فرع عليه، فاستخدم أسلوباً غير مباشر فعرض صوراً ونماذج واقعية من حياة الحكام ((الخلفاء الراشدين))، تكاد تكون مثالية؛ أملاً أن يقتفي الحاكم الخطا ، ولماذا نذهب بعيداً وتاريخ الحكام مليء بالصور المشرقة التي كانت تقوى وعدلاً يمشي على الأرض ... فأين هو من أبي بكر والعمرين : ((عمر بن الخطاب، وعمر بن عبدالعزيز))، ثم يختار مقولة عمر بن الخطاب التي ترسم العدل والأمانة في لوحة الحياة واقعاً ينظر له التاريخ من خلف الأزمنة: ((قالَ عمر بن الخطاب – ﷺ – لو هلكَتْ سَخْلةَ بشطّ الفُراتِ، خفتُ أَنْ أُسألَ عَنْهَا، وَأيما عَامِل بلغني ظلمُهُ، وَلَم أغيره فَأنا ظَلَمْتُ))(١).

لكن لماذا هذا التركيز من قبل ابن الجوزي في الوعظ على التزهد في الدنيا؟ ربما لأن التعلق بالدنيا هو رأس كل خطيئة، لكنها في حق الحاكم آكد؛ لأنه يملك حقيقة متعها، ومن هذا المنطلق وجد ابن الجوزي أنه موضوع يحتاج إلى قرار وتمكين في نفس السامع، وتثبيته في قلبه، وخاصة أن مايتعلق به – الدنيا – هو موضع إنكار فجاء التوكيد بالتكرار هنا قوياً تنبيهاً للنفس لترى ماموقعها، ولم كانت بعد أن تمادت في التعلق بها منصرفة عن التفكير المستقيم المؤدي إلى التعلق با لله، فكانت هذه الغفلة تشغلهم عن التفكير؛ لذا هاجم ابن الجوزي الدنيا بكل قوة عن طريق مناقشة العقل والوجدان معاً ليصلا إلى الحق بأنفسهما ويلزمهما الحجة، ويقودهما إلى الصواب، قال: ((فتحكم سُلطانُ الوعظِ في ذلكَ السُّلطان، أما في البَاطنِ فَبكَاءُ إِنْسَان ذَلكَ الإنْسَان، وَأَمّا في الظّاهر إفاضةُ البرّ والإحْسَان))(٢).

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٧٤.



كما نجد ابن الجوزي حين يعظ الحاكم يتحدث من منطق أقوى للتأثير، وأعم وأدعى حين يذكر بالموت والآخرة من منطلق القائل:«إنها لو دامت لغيرك ماوصلت إليك»،فلتكن على يقين أن هذا الذي أنت فيه تكليف وليس تشريفاً،وأنها أمانة ستحاسب عليها، فقال:«أيُّهَا العبدُ لاتَشْتَغل بِالدّنيا عَنْ المولَى فَهُو غَيورُ،وَكَيْفَ تَغْتَر بغريرِهَوى يُغْرِي وَيَغُور،وكَمْ عدلتَ عَنْ العدلِ وحَاضَرتَ المحظور،أتظنّ البَقاءَ،وقَلائدِ الفِراق كَالأطواقِ في النّحورِ، أَمَا تعتبرُ بِأَقْرَانٍ قُرِنُوا بِقرائنِ أَعْمَالهم في الْقُبورِ»[١].

وقد أحسن ابن الجوزي في هذا الاختيار؛ لأنه لاواعظ كالموت فهو الضابط في حياة الفرد سواء نسيه أم تناساه؟ فجاء ابن الجوزي ليضع الحاكم في موقف مقابل تماماً للموت، وأنه لانجاة له إلا بتقوى الله المتمثلة في عدالة الحاكم مع نفسه أولاً، ثم مع رعيته وكأني بابن الجوزي في ذلك يتمثل بقول رسول الله - ﷺ -: «**مامن عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة**»[٢].

وفي رواية لمسلم: «**مامن أمير يلي أمور المسلمين، ثم لايجهد لهم، وينصح لهم، إلا لم يدخل معهم الجنة**»[٣].

ويكفي بهذه الأمثلة موعظة، فهي تعطي عزة للحاكم المؤمن هذه العزة التي ناقشها الزمخشري في مقامته[٤] وهو يعظ الحاكم بالموت، إلا أننا نجده قد بدأ من النهاية، وبدأ ابن الجوزي من البداية فكانت بدايته أوقع وأقوى، فالتذكير بالموت يدخل في القلب الرهبة، فتتنبه بقية الحواس، وتصيخ الآذان استعداداً لما يقال. إلا أن ابن الجوزي بعد ذلك يرسم صورتين تكادان تكونان متشابهتين إلا من زوايا مخبوءة

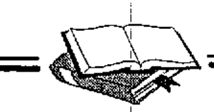
---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧٢.

(٢) رواه البخاري عن معقل بن يسار - ﷺ - كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، ٨٠/٩.

(٣) عن معقل بن يسار - ﷺ - كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائز، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ١٤٦٠/٣.

(٤) المقامة (٢٧): العبادة، للزمخشري، ص ١٣١.



تكمن في أعماق كل فرد تترجمها تصرفاته وهي تبرز في الدافع الذي جعل الحاكم يذهب بنفسه إلى مجلس الوعظ، وهذا هو وجه الاختلاف في صورته الجزئية عن الحاكم في المقامات الأخرى لابن الجوزي والتي منها :

«مقامة العزلة»، فقد بين سبب عزلته الكامن في شر الناس، ثم أخذ يوضح مكمن الشر عند كل صنف من أولئك الناس، وذكر ضمن هؤلاء الحكام، فقال:

«وأما الحكَّامُ فلهم أحكَامٌ وَلَأَطيلُ، من أقلِّهَا قبول البراطيل، يَستشهدون الجاهلَ والغرّ، والشهودُ يَشْهَدون وَمَاعرفُوا المقرّ، وقُضَاةٌ علَى النُّفوُسِ قضاةٌ، وَعُدولٌ عَنِ الصّوابِ عدولٌ»[1].

وكان عليه أن يتحرى العدل ، لقوله – ﷺ -: «**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**»[2].

وأما قوله : «قضاة على النفوس قضاة، وعدول عن الصواب عدول». فهذه صور مغايرة تماماً عن صورة الحاكم السابقة، فهم يصدرون أحكاماً بعيدة عن الدين، وابن الجوزي لايريد أن يطيل في ذكرها لكثرتها وأما الشهود الذين يعتمدون عليهم في إصدار أحكامهم فهم شهود زور فسيكون الحكم الصادر بالتالي جائراً وكأنهم لم يسمعوا لقوله – عليه الصلاة والسلام-: « **عدلت شهادة الزور بالإشراك با لله**» ثلاث مرات[3].

حتى القضاة الذين يتولون القضاء بين الناس، لم يتحر الحاكم أثناء اختياره

(١) المقامة (٣٧): في العزلة، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٢) رواه أبوداود عن ابن بريدة –رضي الله عنه– تحت رقم (٣٥٧٣)، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطيء، ٣/٢٩٩.

(٣) رواه أبوداود، تحت رقم (٣٥٩٩)، كتاب الأقضية ، باب في شهادة الزور، ٣/٣٠٥.

لهم؛ لأنه وصفهم بقوله: ((عُدولٌ عَنْ الصَّوابِ عدول)): أي بعيدون عن جادة الصواب في إصدار أحكامهم.

فلما كانت هذه صورة حاكمهم وقضاتهم آثر ابن الجوزي العزلة في هذه المقامة، وفي مقامة أخرى، بين سبب مرضه الكامن في قبح سيرة المسلمين في عصره آنذاك، وأخذ يعددهم كالمقامة السابقة، ويذكر مكامن القبح عند كل منهم فالعلماء لايحافظون على الحقوق، والمذكورون يزينون الباطل، والمتزهدون يتصنعونه، ثم زاد على ذلك بقوله :

((وَالحكّام في أحْكَامٍ وفي دينِ الشّهودِ خُروق ، والأمراءُ في صَبَوحٍ من المعَاصِي وَغَبوق))[1]

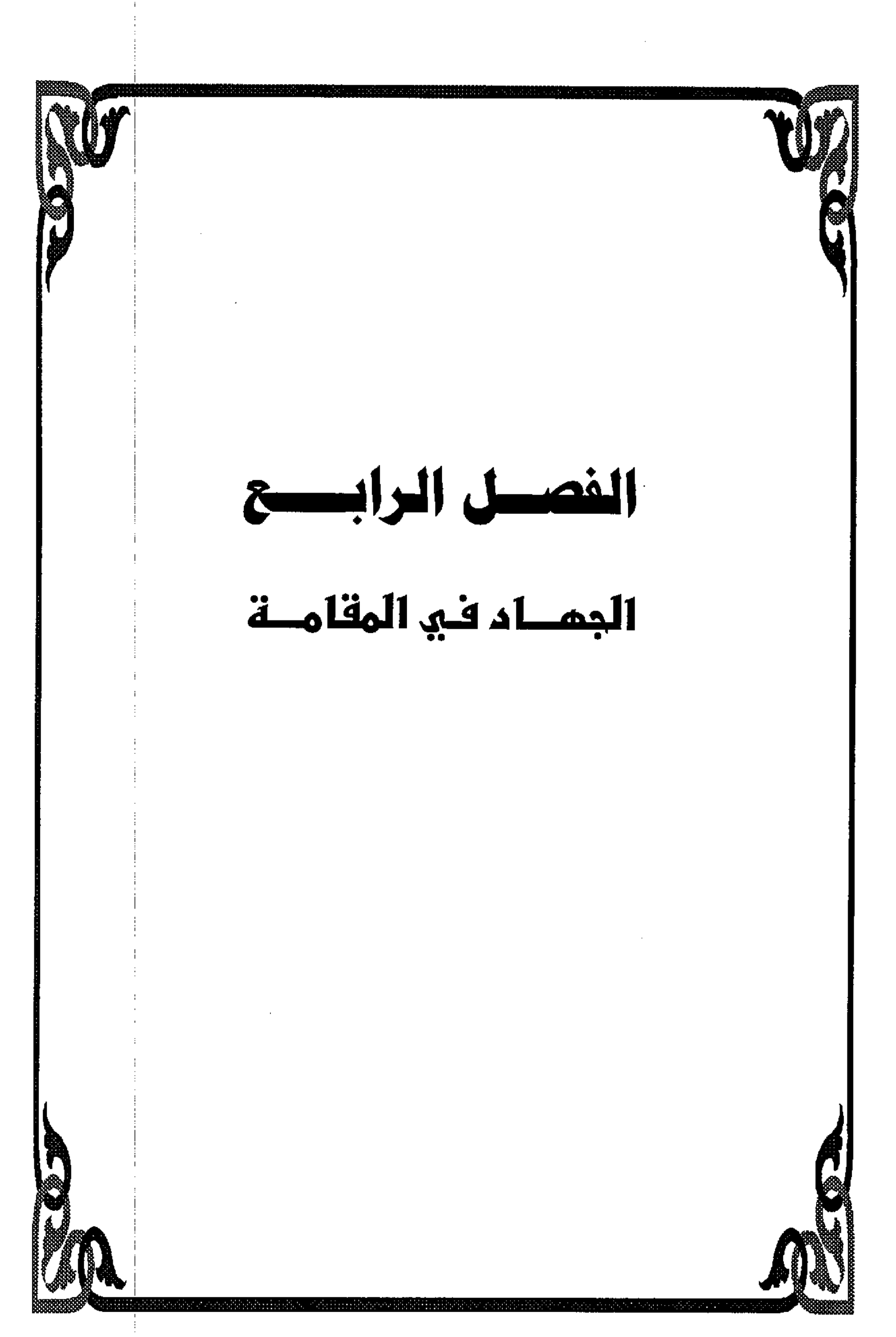
هذه صورة لحاكم وأمير بعيدين كل البعد عن طريق الحق المستقيم، فالأول يخرق أمور الدين بالأحكام التي يصدرها، والثاني غارق في المعاصي ليل نهار، فكيف يرعى أحوال رعيته وهو على تلك الحالة؟!.

ونخلص إلى أن صورة الحاكم في المقامات هي امتداد لصورته من نهاية العصر الأموي إلى الفترة التي قام البحث بتدوينها، وتناوله الأدباء برؤية إسلامية، وأخرى غير إسلامية، حيث عرف الضرب على أبواب الحكام عن طريق الثناء والمديح سواء كان شعراً أم نثراً، وتبذل من أجله العطايا والهبات بشكل مبالغ فيه، ولعل لذلك أسباباً سياسية واجتماعية، يرتكز فيها الحاكم على ثناء المداحين فيطير ذكره في الآفاق، ويهابه الخاصة والعامة، والقاصي والداني. وكأنه في هذا يقنع الشعب بصلاح الحاكم فتظل الصورة المشرقة التي يريدها أمام الرعية ظاهرة للعيان، والصورة الأخرى مخبوءة، ومع هذا يجب على الرعية السمع والطاعة لهذا الحاكم حتى وإن كان فيه مايكره، لقوله - ﷺ - : ((**من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية**))[2].

---

(١) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، مقامات ابن الجوزي، ص ٤٠٢.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنه-، كتاب الإحكام، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية، ٧٨/٩.



الفصـــل الرابـــع

الجهـــاد فـي المقامــة

إن المؤمن حين يجعله إيمانه يتفاعل مع وحي ا لله تعالى من كتاب وسنة تفاعلاً حقيقياً حياً بحيث يكون موقناً برقابة ا لله عليه، وموقناً بأن ا لله تعالى أرحم به من أبيه وأمه، فإنه يحيا تحت جناحي خوفه من ا لله تعالى وحبه له، فيمنعه الخوف من التحالف مع الشيطان والتبعية لـه، ويدفعه الحب إلى عبادة الرحمن والتمتع بالخضوع لأمره ونهيه، وعندما يصير كذلك فإنه يصبح صاحب رسالة، لـه غاية يسعى إليها وهي: رضاء ا لله تعالى وشكره وحسن عبادته.

وله وسيلة محددة توصل إلى هذه الغاية، وهي : السير على النهج الرباني، والشريعة الإلهية التي اختارها ا لله تعالى لتكون وسيلة إلى الغاية المرجوة، وخلاصة الغاية والوسيلة مذكورة في قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾**(١).

فالغاية أن يكون الإنسان خير خلق ا لله، وأن يرضى عنه ويرضى هو بعطاء ا لله تعالى.

والوسيلة إيمان وعمل، وكل من الغاية والوسيلة أمر صعب المنال على البشرية في مجموعها حيث يحتاج إلى أمور ثلاثة، كل منها شاق وصعب، وكل منها يحتاج صبراً ومصابرةً، وثباتاً وتضحية ، وبذلاً من النفس والمال والوقت والتفكير، والجهد، والعلم، والعمل، وكل شيء يملكه الإنسان، أو يتحكم فيه وهي :

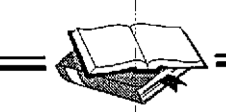
١- جهاد النفس .

٢- جهاد المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣- جهاد العدو بالسيف والمدفع [السلاح].

وهذا **بديع الزمان الهمذاني** يذكر الجهاد بالسيف في المقامة القزوينية، وحدد

(١) سورة البينة ، الآيتان ٧-٨.



البلد والعام، فإذا البلد قزوين وهي إحدى بلاد الديلم، والعام سنة خمس وسبعين، وبدأ بعد ذلك يبين ماتعرضوا له في الطريق ليصلوا إلى العدو، فإذا الطريق مابين أرض مرتفعة وغليظة، وأخرى سهلة منخفضة، يعلون تارة ويسفلون أخرى، ويرتفعون أحياناً وينخفضون أخرى؛ لكون الطريق غير ممهدة ولامعبدة بل كثيرة المنخفضات والمرتفعات.

أما شدة الحر وخاصة وقت انتصاف النهار، جعلتهم يعزمون على أن يستظلوا؛ ليتقوا حر الهاجرة، وقد وجدوا مأأغراهم على ذلك من شجرة عالية وريفة الظل، وعين ماء صافٍ براق كلسان الشمعة في ضوئها، تسيل ماؤها على الأرض الرضراض: ذات الحجارة الصغيرة والحصى ، وتتلوى فوقها كما تتلوى الحية.

لذا توقف الجميع لينالوا كفايتهم من الطعام والقيلولة، فإذا بهم يسمعون جلبة منعت النوم من عيونهم، ومن عيني الراوي الذي لم ير صاحب الصوت؛ لأن الأشجار حالت دون ذلك، لكنه سمعه على إيقاع الطبول يدعو لدين الله؛ لأنه الموصل إلى الجنة، وهي الجهة المتسعة والمربع الخصيب، فهل يتبعني أحد منكم؟.

كما وصف تلك الجنة التي يدعو إليها بأنها كثيرة الثمار.

وأخذ يبين بأنه رجل راجع من بلد الكفر، ويصف حاله في الكفر بأنه جحد وأنكر ربه ولم يؤمن به،ويأتي بالأعمال المريبة،ويأكل لحم الخنزير،ويشرب المسكر، وبعد أن هداه الله؛وخرج من ذل الكفر أخفى اعترافه بربوبية الله الذي يعبده عن العدى،وظل يعبد اللات جهراً،ولايتوجه إلى القبلة؛خشية الرقباء من قومه وعشيرته وجعلهم عدىً؛لمعاداتهم في الدين،ولهذا يسأل الله ويدعوه-في الليل الذي يستره ويخفيه عن العيون بعد يوم وصفه بأنه عصيب- أن ينجيه منهم ويتم نعمته عليه،التي أولها إنقاذه من دينهم ووصف نفسه بأنه(غريب) فيهم،لذا سار ليلاً تاركاً إياهم بعزم، وقد استعار لعزمه الجنيب[1] دلالة على أنه كان دائم العزيمة ثابتها، ويكفيك ليلة من الليالي التي سارها، والتي دلل على هولها بأن رأس الطفل يكاد يشيب منها.

---

(١) وهي الناقة التي يأخذهاالمسافرجوار ناقته ليركبها إذا تعبت الأولى.انظر:اللسان،مادة :جنب.

لكن كل ذلك زال بعد أن اجتاز بلاد الأعداء ووصل ديار الإسلام، ووصف دقّ القلب بأنه وجيب من كثرة خفقانه واضطراب دقاته؛ من جراء الخوف والفزع. ونفضه: طرحه كأنه شيء يلفظ ويرمى به وذلك تمثيل لشدته وهوله حتى إنه ليكاد يكون كذلك، لكن (نصر من الله وفتح قريب) تعبير عن وصوله لديار الهدى ..

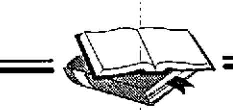
ثم بدأ يوضح لهم لماذا وطيء دارهم؟

وطئها لابدافع العشق ولارغبة في الغنى؛ لأنه ترك خلفه حدائق وأعناباً وجواري وخيولا، وقناطير مقنطرة، وعدة وعديدا، ومراكب وعبيدا. وشبه خروجه من بيته، بخروج الحية من جحرها، والطائر من وكره أي حين اللزوم لذلك. وهو خرج؛ لأنه آثر دينه على دنياه، وجماع يمناه إلى يسراه ليدلل على فقره، وواصل السير ليل نهار طلباً للفرار، ومبادرة إلى الهرب والنجاة منهم .

ثم هو يطلب منهم أن يمكنوه من غزو بلاد الروم فكأنهم حين يساعدونه على ذلك قد دفعوا النار بشرارها،وهي من جنس النار،يقول:((ورميتُمُ الرُّوم بِجَارِهَا))[1]: بمعنى من هو على شاكلتها، والطريق إلى ذلك كله إعطائي المال كل على قدر طاقته فهو يقبل البدرة والذرة: أي النملة الصغيرة أو الجزء من الهباء والتي يضرب بها المثل في الحقارة والقلة أي تعليل القليل والكثير، وفي مقابل ذلك ستلقون مني سهمين: سهم احدده وافوقه وأعده للرمي للقاء غزو الروم ، وسهم أوشق به أبواب السماء بالدعاء في ظلمة الليل: أي من أعانني بما طلبت اكافئه بأن أقوم له بالاستعداد؛ لنصرته على عدوه فأنفعه عاجلاً، وبأن أدعو له الله فأنفعه آجلاً.

فلما سمع كل ذلك الراوي (عيسى بن هشام) استهواه عجيب ألفاظه فخلع جلباب النوم وأسرع إلى القوم فإذا بالرجل أبوالفتح الإسكندري، وقد شهرسيفه،وأخفى نفسه تحت زي لايعرفه فيه أحد،ولكنه أشار إليه إشارة خفيفة ليتستر عليه ولايظهر أمره وقال : رَحِمَ اللهُ من أعانَنا بِفَاضِلِ ذَيْلِهِ،

(١) انظر: المقامة (١٨): القزوينية، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٠٣-١٠٤.



وَقَسَمَ لنا مِنْ نَيْلِهِ ثُمَّ أَخَذَ ماأَخَذَ(١).

بقي سؤال : هل ظهر لنا في هذه المقامة ماينبيء عن الجهاد؟

ماهي إلا لمحات خاطفات ظهرت في الاستعداد للغزو، ومن ثم مالاقوه من عنت الطريق ووعورته وشدة حرارته ..

كما أنه يمكن أن نعتبر تلك الظلال الوارفة والعين السائرة والتي مثل لها بالحية التي تتلوى .. من المغريات التي تثبط عزيمة الجندي فيقارن بين ماهو فيه، وماهو آيل له؛ مافيه: من النعيم والراحة والهدوء والسكينة، ومايؤول إليه: من عقبات لاتعد ولاتحصى، وضجة مردها ضرب الرماح وصلصلة السيوف، وصهيل الخيول أثناء المعارك.. والخاتمة التي يعرفها مسبقاً، وهو أنه ربما لايعود إلى أهله وينتقل إلى جنان ربه.. ومع ذلك يقدم ولايحجم؛ لأن رسول الله -ﷺ- قال:((يقول الله – عز وجل-: **المجاهد في سبيل الله هو علي ضامن، إن قبضته أورثته الجنة، وإن رجعته رجعته بأجر أو غنيمة**))(٢).

وهذا ابن القيم يقول : ((ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي – ﷺ -: ((**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر مانهى الله عنه**))(٣).

كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له فإنه مالم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ماأمرت به، وتترك مانهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج))(٤).

---

(١) انظر: المقامة والصفحة نفسها.

(٢) رواه الترمذي عن أنس –ﷺ–كتاب فضائل الجهاد، ١٦٤/٤–١٦٥،وقال هو صحيح غريب.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ٢٠/٦، ٢٢ .

(٤) زاد المعاد، ٦/٣.



وإلى مثل ذلك أشار حسن البنا[١]، والعلياني[٢].

أما **ابن ناقيا** فقد أشار إلى جهاد النفس حين ذكر في إحدى مقاماته أن الراوي جلس فإذا بطل مقاماته ((اليشكري)) قدوصف الخمر وأخذ يحتسيها، وزاد بأن عرض عليه أن يشرب معه، إلا أن راوي المقامة كان قد جاهد نفسه جهاداً صحيحاً، وملك قيادها و لم ينصاع لشهواتها، فرد عليه بملء فيه، معلناً موقفه من شرب الخمر، قائلاً له: ((أَنَا رَجلٌ مِنْ أَصحابِ الكلامِ، وممَّنْ لَهُ نظرٌ في الدّينِ، وَقَدْ حَظرَ عَلَيْنَا هَذَا الشَّراب))[٣]، ولعل الشيطان سول له أن يزيد في إغراء صاحب هذا المبدأ بينما قد تمكن من اليشكرى وأصبح من أعوانه، فأخذ يسأل الراوي ((فقالَ: ماتقولُ في هذِهِ الكَأس))[٤]، إمعاناً من إبليس ومعاونه في تزيين شرب الخمر قال: ((ثُمَّ لَمْ يقنعْ بِالكتابةِ والإلباسِ حَتّى أنْشَدَ قولَ أَبي نُوَاس ...))[٥]، لكن الراوي كان يملك زمام نفسه، ويكبح جماحها، ويعرف كيف يسوسها ويبعدها عن مهاوي الهلاك، والسقوط في درك الشقاء من جراء شرب المسكر، فقال على لسانه: ((فَرَاعَني مَاانْتَهَى إليه مِن مَذْهَبه،وَشَانَني مَازَانتْ منْ سُوءِ منقَلَبِهِ، وقَدْ استولتْ مِنهُ الخمرُ عَلَى العقلِ...))[٦].

أما **الحريري** فلم نجد في مقاماته مايدلل على ذكره للجهاد ضد العدو اللهم إلا إشارة عابرة في مقامته ((الحرامية))، حيث بدأ ((أبوزيد السروجي)) يرقق قلوب مستمعيه فذكر غزو الروم لبلاده ((سروج))، وسبيهم للنساء والتي كانت ابنته من بينهن، وهو يحاول فك أسرها بدفع الفدية، ويطلب مد يد المساعدة من الحاضرين:

---

(١) الجهاد في سبيل الله، ص ٨٠.

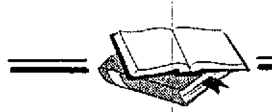
(٢) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، ص ١٢١.

(٣) المقامة السادسة، المقامات العشر، لابن ناقيا (مخطوط) ص ١٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٣.

(٥) المقامة نفسها ، ص ١٤.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.



الذين تزهدوا؛ لتقبل إنابتهم. والذين اعتدوا كفارة لزيغهم، والذين تمردوا،فتمحى آثامهم، ولن يستطيعوا تحقيق ذلك إلا بعد منحهم إياه ماتجود به نفوسهم فقال:

« وأَعِينّي عَلى فَكَا ** كِ ابْنَتِي مِنْ يَدِ العِدَا
فَبِذَا تَنْمَحِي الْمآ ** ثِمُ عَمّنْ تَمَرَّدا
وَبِهِ تُقْبَلُ الإنَا ** بَةُ مِمّنْ تَزَهّدا
وَهْوَ كَفّارَةٌ لِمَنْ ** زَاغَ مِنْ بَعْدِ ماَاهْتَدَى»[١]

وحين ذكر الروم بيّن النفسية التي كان عليها الروم قبل الغزو، والدافع الذي جعلهم يطأوون أرضهم ألا وهو : الحقد، فقال :

« بَوّأَ الرُّومَ أَرْضَنَا ** بَعْدَ ضِغْنٍ تَوَلَّدَا»[٢]

وماتخلفه الحروب من مصائب وبلايا؛ أولاها : سبي النساء، فقال:

« فَاسْتَبَاحُوا حَرِيْمَ مَنْ ** صَادَفُوهُ مُوحِّدَا»[٣]

لكن الحريري لم يذكر كيف كان اللقاء، وماموقفه منه، وهل ثبت أم فر؟ أمّا نتائجه فقد ظهرت والتي منها ؛ استيلاء العدو على مالديهم من غنائم، وتشرد بطلنا.

أما في مقامته البصرية[٤] فنجد في ختامها أن أبا زيد السروجي قد جاهد نفسه فغلبها، وأصبح من الزهاد يقول الراوي بعد أن سأل عن أخبار أبي زيد فكان الرد أنهم: «رَأَوا أبَا زَيْدِهَا المَعْرُوف قَدْ لَبِس الصُّوف، وأمَّ الصُّفُوف، وصَارَ بِهَا الزَّاهِدَ

(١) المقامة (٤٨)، للحريري، ص ٤٠٣، ت: يوسف بقاعي .
(٢) المقامة نفسها، ص ٤٠٢.
(٣) المقامة نفسها، ص ٤٠٣.
(٤) المقامة (٥٠) للحريري، ص ٤١٣-٤٢٧.



الموصوف فقلتُ أتعنون ذا المقامات، فقالوا إنه الآن ذو الكرامات»[١] ولكن الراوي أراد أن يتأكد من ذلك وألا تكون هذه إحدى حيله فشد الرحال إليه فوجده كذلك وقد سمعه يردد : ....

«واخْضَعْ خُضُوع المعْتَرِفْ ** وَلُذْ مَلاذَ المقْتَرِفْ
واعْصِ هَوَاك وانْحَـرِفْ ** عَنْهُ انْحِرافَ المقلِعِ

....

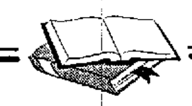
....

وَيْحَكِ يَانَفْسُ احرِصِي ** عَلَى ارْتيادِ المخْلِصِ
وَطَاوِعي واخْلِصِي ** وَاسْتَمِعي النُّصْحَ وَعِي»[٢]

ولعل الحريري أراد بذلك أن يظهر لقاريء مقاماته أن بطله أبا زيد ظل في جهاد مع نفسه جميع المقامات الخمسين إلا أن نفسه الأمارة بالسوء كانت تغلبه إلى أن غلبها في ختام مقاماته وهي المقامة الأخيرة المسماة البصرية وإن كان في بدايتها منتهجاً المنهج القديم نفسه في ارتياد كل السبل، ليحتال على مستمعيه لينال مايريد، ولأن المسلم كان يؤمن يقيناً أن الحق هو المنتصر في النهاية، جعل الحريري لبطله تلك النهاية، وأحسن بها من نهاية، جاهد نفسه فغلبها.

أما **الزمخشري** فتدور معظم مقاماته حول الحث على جهاد النفس وأراد أن يبدأ الإنسان بمجاهدة دواخل نفسه، ليتمكن بعد ذلك من مقاتلة عدوه فها هو ذا في مقامة المراشد يحث نفسه على فعل الخير وترك الشر، لأن خصال الخير كتفاح لبنان، وخصال الشر كحسك السعدان، فالأولى كيفما قلبتها دعتك إلى نفسها، والثانية أنى

(١) المقامة نفسها، ص ٤٢١.
(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢٤.



وجهتها نهتك عن مسها، وقال: ((إِنْ أَرَدْتَ الرُّفُولَ فِي مَطَارِفِ العِزِّ الأَقْعَسِ))[1] مرغباً في الوصول إلى ذلك بعمل الخير، ومحذراً من الشر؛ لأن صاحبه ملتف في أطمار الأذل الأتعس.

كأنه تمثل قول الرسول - ﷺ - حين سأله رجل : أي الناس أفضل؟ قال: ((**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**))، قال : ثم من؟ قال: ((**مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره**))[2].

فالذي يعبد الله في شعب من الشعاب، ويبتعد عن الشر هو مجاهد لنفسه، وقد ذكره الرسول الكريم قسيماً للمجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

كما أخذ الزمخشري يحث نفسه على جهادها؛ وذلك بالنظر في العواقب، ومراقبة الله والحذر من الوقوع فيما يغضبه، ودفع النفس إلى الهدى والرشاد بالعمل الصالح والكلم الصاعد أي الطيب، قال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[3].

ثم أخذ يحثنا قائلاً: واجعل المتقين هم خلصاءك، وامش مع الهادين، وحاسب نفسك وعاتبها قبل أن تحاسب وتعاب .. واترك طرق الضالين؛ لأن الحامل على الضلال كالحية لاتنفع معها الرقية إلا إذا كانت تلك الرقية هي التقى، أما قوله: ((وَيْحَكَ اخْلُط نَفْسكَ بِغِمَارِهم، واحْمِلْها عَلَى شَقِّ غُبَارِهم فَعَسيتَ بِفضْلِ اللهِ تَنْجُو

---

(١) المقامة (١): المراشد، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٧ ت: يوسف بقاعي. الرفول: التبختر، مطارف : البعد عن الشره. الأقعس: خروج الصدر للكبر. انظر: اللسان، مادة: رفل، طرف، قعس.

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري - ﷺ ، كتاب الجهاد، ١٨/٤. ورواه أبوداود (٢٤٨٥)، كتاب الجهاد، باب في ثواب الجهاد، ٥/٣. ورواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ماجاء أي الناس أفضل، ١٨٧/٤.

(٣) سورة فاطر، آية ١٠.

وَتفُوزُ بِبَعْضِ مَاتَرجُو))[1]، فهو ترغيب ليدفع بنفسه لمخالطة الناس، ويحملها على شق غبارهم؛ لعله ينجو ويفوز ببعض مايرجو.

وهانحن أولاء نجد الزمخشري يحث في مقامة أخرى على جهاد النفس أيضاً يقول: ((ياأبا القاسم شَهْوتُك يَقْظَى فَأنِمْها، وشَبابُك فُرصَةٌ فَاغْتَنِمْها))[2] فجاهد نفسك ضد الشهوة وخاصة في مرحلة الشباب؛ لأن الشيطان يسول لك أن تركن إلى الطاعة عند كبر السن، لذا كان الزمخشري يركز على هذه المرحلة – الشباب – ففيها النشاط كعيدان تخفق، وأخذ يصف الإنسان في فترة الشباب فهو كالغصن الأخضر، واستعار له أوصافه من مثل قوله: عودك الريان، وظلك الفينان، وقد يهتز ليناً وحلاوة، وقوتك كقوة وشجاعة عمرو بن معد يكرب الذي كان يعدل ألف فارس، لهذا عليك أن تغتنم فترة الشباب قبل أن يشيب الرأس، وتكف عن الخبث والخلاعة، وأن تحذر الشيطان بعدم الركون إليه واتباع خطواته، والبعد عن تخييلاته التي منها؛ ترك التعبد والطاعة والانقياد لله في الصغر ففي الكبر متسع لذلك، ولجأ إلى أسلوب المفارقة فبعد أن وصف الشباب، أتى لكبر السن بأوصاف منها: ((حتَّى يَنْحَنِي غُصْنُ القَامةِ، ويَبْرقَ ضِلْعُ الهَامَة، وتَرى التَّنُّومة ثَغَامة))[3] أي أبيض الشعر الفاحم وحين قال: ((فَإنْ صَاحَ بِكَ وَاعظٌ فَلاأسمعَك))[4] فهو دعاء من إبليس على الواعظ، وينهي مقامته بتعجبه من تلك النفس التي تستلذ الوقوع في حيل ومكائد الشيطان.

وهذا مؤلف ((تلبيس إبليس)) يحذر من إبليس وتسويفه للمرء، فيقول: ((وكم قد خطر على قلب العاصي أن يتوب فلايزال إبليس يثبطه ويقول: لاتعجل وتمهل في النظر، فيسوفه فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة، كما قال الشاعر:

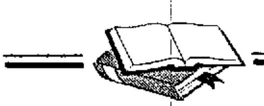
---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٩–٣٠.

(٢) المقامة (٤): الارعواء، مقامات الزمخشري، ص ٣٧.

(٣) المقامة نفسها،ص٤٠،التنومة:نبات أسود،ثغامة:نبات أبيض.انظر:اللسان، مادة : تنم، ثغم.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.



لاتعجل الذنب لما تشتهي ** وتأمل التوبة من قابل))[١]

والزمخشري يحذر منه ويحض على مجاهدته، لذا أظهر لجهاد النفس في مقاماته صوراً شتى، ولبيانها أساليب متعددة، قصد إلى التنوع في تناولها، وبسط أفكارها ومعانيها، وذلك لتبصير من له بصر سليم وإضاءة الطريق لكل من عشى عن الطريق، فها هو ذا في مقامته الثامنة يدعو كل نفس تواقة إلى حب الدنيا والانغماس فيها إلى الحذر منها والبعد عنها، فهي كالجمرة إن تعلقت بالأطراف أحرقتها وكقطرة الماء المغلي إن أصابت من الجسد موضعاً أصابته، فمن ذا الذي يقوى على الاحتمال أو يستكين إلى قسوة الألم، هذا أمر الدنيا، والآخرة إلى جوارها لاتقاس ولاتوصف، فلاتلتفت -يرحمك الله- إلى الدنيا التفاتة راغب،((فَنَارَ اللهِ حَسْبُكَ مَاسَمِعتَ مِنْ فَظَاعةِ وَصفِها وهَوْلِهِ،وكَفَاكَ فِيهَا مَاقَالَهُ الصَّادِقُ المصَدَّقُ في قَولِهِ))[٢]، وماتحذيره منها، ودعوته لمجاهدة النفس للابتعاد عنها إلا لأن((عَذابُها أَبدٌ سَرمَد، لَيْسَ لَهُ مُنْتَهَى ولَا أَمَدٌ))[٣].

وفي مقامة أخرى حث الزمخشري على أن يجاهد نفسه بالليل والنهار، وركز هنا على الليل، فيعودها على السهر في جنب الله فيقول : ((وَخَلِّهَا والبُكَاءَ وإنْ قَرِحَتْ مَآقِيهَا، وابْكِ على مَاحَمَلْتَ مِنْ أَوْزارِكَ وخَطَايَاكَ، ومَا رَحَّلْتَ مَعَ أشياعِ الجهلِ مِن مَطَايَاك))[٤]، فأراد أن لايترك عضواً من أعضائه، إلا ويسخره في جهاده مع نفسه فالعين هنا تسهر وتبكي على مافرطت النفس في جنب الله، فتعين تلك النفس على الوصول لمبتغاها في طاعة الله واجتناب نواهيه.

---

(١) ابن الجوزي، ص ٤٠٤، دار الكتب ، بيروت، لبنان .

(٢) مقامة الحذر، شرح مقامات الزمخشري، ص ٥٨، ت: يوسف بقاعي .

(٣) المقامة نفسها، ص ٥٨-٥٩.

(٤) المقامة (٣١): التهجد، شرح مقامات الزمخشري، ص ١٨٩.

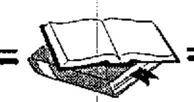
وها هو ذا في مقامة ثانية يذكر أن الإنسان يحمل نفسه فوق طاقتها من الذنوب والآثام، بدل أن يجاهدها على ترك تلك الأوزار والخطايا فيقول: ((لَوْ تَأَمَّلْتَ حقّ تأمّلٍ لقلّ تأميلُكْ، ولم يكْثُر تحامُلُكْ عَلى نَفْسِك وتَحْمِيلُكْ، لاَتزالُ تتحامَلُ عَليْها وتحمّلها ثِقَال الخَطِيئات والأوْزَار، إلاّ أنَّكَ إذَا اسْتَحْمَلتَ الطاعةَ قُلتَ ضعيفٌ لايَقْوَى علىَ هذِه الأوْقَار))[1]، فلجأ إلى أسلوب المفارقة ليبين كيف أن الإنسان يحمل نفسه من المعاصي مالاتتحمله، وأما في الطاعات فيركن إلى ترديد ((أنهَا ضَعِيفَةٌ، لاتقْوى عَلى ذَلِك)).

أما في مقامة ((المراقبة)) فأبان أن عليه أن يتعهد نفسه ويجاهدها عن الوقوع في المعاصي، بتذكيره أن الله يراقبه في كل أعماله، وأن هناك ملكين يكتبان كل صغيرة وكبيرة فيقول: ((ثُمَّ لاَتراقِب اللهَ ومُعَقباتَهُ، ومَاأَعدَّ لِلمُجْرِميْنَ مِنْ مَعاقَباتِه، ألَيْس المَلَكُ الحَافِظ أحقُّ بتَحَفُّظِك، والمَلكَانِ الحَفِيظَانِ لتَنفّسِكَ وتَلفّظِكَ، وَهَبْ أنَّ أحَداً مِنَ الملائِكَةِ والثَقلَيْن لاَيَراك، وأنَّ اللهَ قَدْ غَطّاكَ مِنْهم بِسِتْرِه وَوَارَاكْ. أليْس هُو وَحْدَهُ أجَلُّ مِن الخَلاَئِق وأعْلى))[2].

وها هو ذا الزمخشري في مقامته المسماة: ((النهي عن الهوى)) يشير إلى ذلك ويبين أن الإنسان إذا عرض له أمر يتنازعه قبل اتخاذ قرار الخير أو الشر؛ الخير: ممثلاً في العقل، والشر: يمثله الميل لهوى النفس، هذه النفس التي تحبذ غالباً أن يكون القرار إلى جوارها، لكن ليس كل ماتتوقه النفس يكون على صواب ويكون الرشد دليلها إلى تنفيذه، بل ربما الغي هو المصاحب له، لهذا عقد الزمخشري هاهنا موازنة بينهما وهي إحدى الأساليب المقنعة لتسير في طرق الحق، والهدى، لأنك حين توازن بين الحق والباطل، والرشد والضلال، والخير والشر، عندها – ومن منطلق محبة الإنسان لنفسه – ستختار ماينفعك، وتبتعد عما يضرك ... وهذا مانخلص إليه حين نقرأ هذه المقامة والتي بينت النتيجة التي ستعود عليك إذا ماركنت إلى هوى النفس ... فيقول: ((وَإنْ

(١) المقامة (٣٦): النصح، شرح مقامات الزمخشري، ص٢١٣-٢١٤.

(٢) المقامة (٣٧)، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢١٩.



كَانَ الهَوَى فِفرَّ منهُ فِرارَكَ مِنَ الأَسَدِ، واحْذَرْهُ حِذارَكَ مِنَ الأَسْوَدِ»[1]، ولن تصل لتلك النتيجة ما لم تجاهد نفسك جهاداً مضنياً؛ لتصل بها إلى بر الأمان، لأنها مجبولة على حب الدنيا ومافيها.

لعلك لحظت أن الزمخشري كان جل تركيزه على جهاد النفس، إلا أنه أشار إلى جهاد العدو بالسيف فقال: «كُنْ في حِمايةِ حَقيقةِ دِينِكَ، والذَّبِّ عنْها بِسَيْفِك ويَمينِك، أحْمَى مِنْ رَبيعةَ بنِ مُكدَّم أخِي بَنِي فِراس. ذَاكَ الليْثُ الهَزَّامُ الغَرَّاسُ حَمَى الظَّعَائن وهو طعينُ اليُمْنى في مأبِضه مشْغُول الكفِّ عَنِ السَّيْفِ وَمقْبِضه، حمَاهَا وطَعْنتُه رشَّاشَة وبعدَ أنْ لمْ تبقَ لهَ حَشَاشه إلَى أنْ بلغَتِ المأْمَنَ وَنجَتْ، ولَمْ تنلْ منْها بنُو سُلَيم مَارجَتْ»[2]. فقد حث هنا على الجهاد من أجل حماية الدين، والذب عنه بالعدة والعتاد، فقال: وكن في حمايتك له أحمى من ربيعة بن مكدم، وقصة ذلك أنه كان بين بني سليم ابن منصور وبني فراس بن مالك بن كنانة تدارؤ؛ قتل بنو فراس من بني سليم رجلين وودوهما، ثم خرج بعد ذلك نبيشة بن حبيب في ركب من قومه يطلبون دماءهم، فلقوا نفراً من بني فراس فيهم ربيعة بن مكدم ومعهم ظعن لهم، فطعنه نبيشة في مأبض يده، فلحق بالظعن وهو يستدمي، فقال: أوضعن ركابكن حتى تنتهين إلى أدنى الحي، فإني لمكاني وسوف أقف دونكن ولن يقدموا عليكن لمكاني، فاعتمد في رمحه وهو واقف على متن فرسه حتى بلغن مأمنهن، ولقد مات ومايقدم عليه فما علم أحد حمى حقيقته ميتاً غيره وهو غلام له ذؤابة ضرب المثل «أَحْمَى مِنْ رَبيعةَ بن مُكدَّم»، فأراد الزمخشري بذكر هذه القصة أن يحث على أن يجاهد المسلم دون عرضه وماله لقوله - ﷺ - : «**من ردّ من عرض أخيه رد ا الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[3]،وإن كان قد صرح قبلاً بالحث على حماية الدين والجهاد

---

(١) المقامة (٤٠)، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٣٧، ت: يوسف بقاعي .

(٢) المقامة (٥٠): أيام العرب، شرح مقامات الزمخشري، ص٣١٢-٣١٤.

(٣) رواه الترمذي عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- ، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الذب عن عرض المسلم، ٣٢٧/٤، وقال حديث حسن .

دون مساسه بأذى.

ولما لجهاد النفس من أثر، حث عليه كثير من الكتاب والدعاة، وهذا أحدهم يقول: ((بدون الجهاد الذي يصقل النفس، ويصفي الروح، ويغير كل شيء في حياة الإنسان المؤمن، ويجعل المسلم متبوعاً لاتابعاً، ورأساً لاذيلاً، ومغيراً لامتغيراً حسب الأهواء والشهوات،بدون هذا النوع من الجهاديسمى الإنسان مسلماً فقط وليس مؤمناً، ويعتبر اسماً لامسمى له، ولافتة لاتعبر عن حقيقة، وصورة لاروح لها ولاجوهر))[١].

وهذا **ابن الجوزي** قد وعى هذه الحقيقة لذا نراه تمثلها في إحدى مقاماته[٢] فبين كيف أن الإنسان إذا لم يجاهد نفسه قبلاً وواجه العدو فالهروب من لقاء العدو هو النتيجة الحتمية لذلك .

فها هو ذا راويه يرى أن يذهب إلى القتال، وفضله على القعود، ووجد رفيقاً له، وأعطانا بذلك مثلين: الأول: للمقاتل، والثاني: للهارب، اللذين توجها إلى الكتيبة التي بدأ بوصفها قائلاً:

أخلاط كلهم يحمل السيف والرمح وليس معهم من لاسيف ولاترس معه، وجمهور القوم من الشباب، ورحل المقاتل والهارب ضمن من رحل .

ثم انطلق يصف لنا المعركة واشتباك القوم فيها، وكان الجمع في مقام من يهرب من كل شيء.

أما الآلات المستخدمة في الحرب فكان لها نصيب من الذكر، فهذه المناجل[٣] تحصد الرّءوس وانيات الكبداء[٤] تكابد منها الأكباد والكبد.

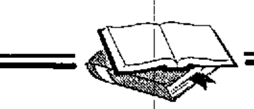
---

(١) انظر:الجهادوالفدائية في الإسلام،د.حسن أيوب،ص٢٧-٣٣،ط٢،بيروت،١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٢) مقامة (١٢): الغزاة، مقامات ابن الجوزي، ص ٩٨.

(٣) الفؤوس ، انظر: اللسان، مادة : نجل .

(٤) القوس . انظر : اللسان، مادة :كبد .



ولما كان غير مجاهد لنفسه دخلته الرعدة، ومن فزعه صار يمشي كالأعرج، ومن الخوف صار كمن لاسلاح معه، فعاد ليصاحب الضعاف والجبناء وفارق الصناديد، فأنبه رفيقه وأخذ يبكته، ويقول له هناك فرق بين الذي يتشبه بمن لاقوة له بالشجاع، فرد عليه معللاً لسبب هروبه : لايقوى ذو الهيبة اليوم على العبوس، ولايحمل السيف المقيد ... ووثب على فرسه وعاد هارباً، وكأنه لم يسمع لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١).

أما الآخر الذي ذكر في المقامة فقد وعى تلك العواقب(٢) فلم يعد إلا بعد انتهاء الحرب التي أخذ يصفها للهارب .

صيح : ياخيل الله اركبي، فاستمروا في القتال فلاتسمع إلا صوت الطعن، وضرب السيف، والخيل تدور والضجيج يشتد وكذا الشخير والكرير، ولما بدأوا الطعن إذا به نافذ، أما السيوف فكأنها أيدٍ تصافحت، والشهادة كأنها إنسان يهتف، والسهام ألبت، وشبه الموت بالإنسان «فَفَغَرتِ المنَايا أَفْوَاهُها»(٣)، وشبه مفارقة الروح من البدن بالديار التي يفارقها أهلها « فَإِذَا ديارُ الأبدانِ مِنْ الأَرْواحِ قَدْ فرغت»(٤).

ولما كان ابن الجوزي يود إظهار أهمية الجهاد، ويظهر الندم على تركه، بدأ يصف أعضاء الأموات كيف كانت قبلاً، وما آلت إليه عقب المعركة فقال الراوي لرفيقه الهارب :

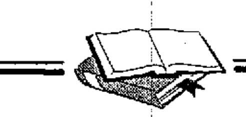
---

(١) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

(٢) عواقب التولي يوم الزحف، والتى عدها الذهبي الكبيرة الحادية عشرة من الكبائر، انظر: كتاب الكبائر وتبيين المحارم، ت: محي الدين مستور، ص٦٤، والزواجر عند اقتراف الكبائر، الهيثمي، ١٦٣/٢.

(٣) المقامة نفسها، ص ٩٩ .

(٤) المقامة نفسها، ص ٩٩-١٠٠.



خضبت الدماء الوجوه التي صبرت على برد الماء وقت الإسباغ للوضوء، والرؤوس طارت التي طالما أطرقت وقت الأسحار، والرجل التي قامت للصلاة فصلت من مكانها، واليد التي رفعت بالدعاء وقعت، والبطن الذي تحمل مشقة الصيام شق، والكبد التي تكبدت ظمأ الهجير فريت، والعين التي تساعد الحزين أخذها طائر في منقاره، أما الخيول فقد عادت بدون أصحابها بل وطئتهم تحت حوافرها بعد أن كانوا على ظهورها، ولحومهم تقاسمها عقبان السماء، وسباع الأرض، أثر كل هذا الوصف في نفس الهارب وقال له : أبكيت بما وصفت العيون، فروح قلبي، يذهب كربي، فقال أخبار الروح :

أرواح الأخيار في دار السلام آمنين، يشربون بكأس شراب المنى، ثم يشير إلى ماينتظر الشهداء عند الله فهم أحياء عند ربهم يرزقون أما حالهم بعد موتهم فمنزلهم أحسن منزل، ولونهم لون الدم، وريحهم ريح المسك. وقد بين الله للناس أنهم شهداء في كتابه العزيز وهم مسرورون باتصال ماله انفصال، وفرحهم بجمع الوصال، ووقوفهم حول العرش بالسلام مفتخرين بعملهم الصالح، وبأنهم بذلوا المال والنفس في سبيل إعلاء راية الحق، ولهذا فنهايتهم الخلود في النعيم؛ لأنه لايستوي القاعد بالقائم، فيقال هم :

((قَدْ بذلتُم النفُوسَ وَهي الْغَاية، فَاخْلدوا في نَعِيمٍ مَالَه نِهَاية))(١) .

لذا فالجزاء كبير تنقطع أكباد الذين لايخوضون غماره حسرة على عدم الذهاب. وهذا ماحدث لمرافقة الذي قال : ((قَدْ عَمِلَ فيّ هَذَا الكَلاَم وَلاَعمل الكِلاَم، وَلَقَدْ ندّمنى علَى مانَدّمني من التقاعدُ))(٢).

فوصل بذلك أبوالتقويم إلى مايريده من إقناعه بالعودة إلى القتال وهو لو لم يصلح له نفسه لما عاد، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾(٣).

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٠١.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٠٢.

(٣) سورة فصلت، آية ٤٦.



وفي آخر المقامة سأله الرفيق : جاهدت فأين الغنيمة؟

فرد عليه : يكفي أنني سلمت من هزيمة.

ثم استشهد ببيتي شعر لقيس بن الملوح تدلل على أنه يغشى الوغا ويعف عند المغنم .. ثم سأله قائلاً: ماالحكمة في أن الشهداء لايغسلون ولايصلى عليهم؟

فأتى الرد بالدليل العقلي كعادة أبي التقويم : ((إنما يُغْسَّلُ الوسخ لاَ الطيِّبُ والريحَ ريحُ المسِك، وإنما يُشفَّعُ في المذنبِ ليجَار مِن العذابِ. والقوم عَلَّقوا نُشَّابَ الشهادةِ على دُور الأبدانِ، فلَمْ يَقْرَبْها يومئذٍ حسابٌ وَلَاعِقاب))[1].

وصدق الرسول الكريم حين قال : ((**كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل ا لله فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر**))[2]. وقال أيضاً: ((**مامن مكلوم يكلم في سبيل ا لله إلا جاء يوم القيامة، وكلمه يدمي: اللون لوم دم، والريح ريح مسك**))[3].

أما في المقامة المسماة : ((ذم الدنيا ومدحها))[4]، فنرى ابن الجوزي يذكر حال كل من يجاهد بالسيف، وفي الوقت نفسه يذكر جهاد النفس، فإذا راويه ضل الطريق ووجد ومن معه عابداً أنقذهم مما هم فيه وسمعه يذم الدنيا، فانبرى يرد عليه ويوضح له أنها قرى للضيف إلى أن يصل إلى دار القرار، ويبدأ باعطاء صور ممن على الدنيا؛ كـ((الشّهيد يبذلُ للموتِ نَفْسهُ))[5]، ذاكراً قصص بعض الأنبياء؛ إبراهيم، يوسف،

---

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) رواه الترمذي برقم (١٦٢١) عن فضالة بن عبيد – رضي الله عنه –، كتاب فضائل الجهاد باب ماجاء في فضل من مات مرابطاً، ١٦٥/٤ وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه –، كتاب الجهاد، باب من يخرج في سبيل ا لله، ٢٣/٤.

(٤) المقامة (٢٦) لابن الجوزي، ص ٢١٢-٢١٨.

(٥) المقامة نفسها ، ص ٢١٥.



أيوب، عيسى، يحى ... ((محمد -ﷺ- يشدّ الحجرَ مِن الجوعِ وَأَصْحابُهُ يَهْجُرون بالَّليلِ الهجُوع، يبذلونَ أنفسَهُمْ في الجهادِ للسّيوفِ، ويتَسابقون إلى التلفِ والحتوفِ، وكمْ فيهم مِن صَائِمٍ قَدْ أَضْنَاهَ الصَّوم ...))(١).

فقد بين كيف جاهد كل من أولئك الأنبياء وآخرهم سيدنا محمد ﷺ؛ لإعلاء كلمة لا إله إلا الله، وأصحابه جاهدوا بأنفسهم وأموالهم حيث وضح جهاد النفس الذي هو الخطوة الأولى لجهاد العدو: ففي السلم : الصيام، والقيام، وترك مايشتهون رغبة بما عند الله ((وَكَمْ فِيهم مِن صَائِمٍ قَدْ أَضْنَاهُ الصَّوم، وقَائِمٍ قَدْ أَضْنَاهُ تركَ النَّوم. ينهضُ مِن فِرَاشِهِ إلَى الماءِ الْبَاردِ وَيُبَادِر، وَيَهْجُرُ لَذِيذَ المشْتَهَىٰ مِن الهوىٰ في الهوَاجِر، وَيُؤْثِرُ بِمَا هُوَ مُحْتَاج إليهِ، وَيُقْلِقُهُ خوفُهُ وَلاَخَوْف عَلَيه، تعرض عَلَيهِ الدُّنيا حَلاَلاً فيخافُ عَلَى عَزْمِهِ انحلالاً فيقولُ لِدَاعي الهوىٰ : لا . لا.))(٢).

وابن الجوزي حين ذكر ((الشَّهيد الَّذي يَبْذُلُ للموتِ نَفْسَهُ)) لعله تمثل قوله -ﷺ- حين أتاه رجل وسأله: أي الناس أفضل؟ فقال : ((**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**))(٣).

أما جهاد النفس فقد كان له النصيب الأكبر عند ابن الجوزي، فقد حض عليه في أكثر من مقامة، فها هو ذا يقول في إحداها: ((خَلَوْتُ بنفْسِي في بعضِ الأَيَّامِ، فعاتبتُها على النقضِ والإبْرَامِ، ولمتُها على إيثارِ النَّقْصِ عَلَى التَّمَامِ، وقلْتُ: لماذَا اذْهَبْتِ الأيامَ في الآثام، وَمَاتحبينَ إحْرَام الإحْرَام، إقدامُك في الإقدامِ عَلَى المعَاصِي قَدْ دَامَ... فَمَا أعَارَتْني السَّمعَ وَلَا الطَّرفَ، وكأنَّهُ ماقُبِلَ مِمّا قُلْتُ حَرْف، فَاسْتعديتُ بالعقلِ عَليْها...))(٤).

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢١٦.

(٢) المقامة والصفحة نفسها .

(٣) سبق تخريجه في ص ١٩٤ .

(٤) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، مقامات ابن الجوزي، ص٧٧.

ثم بين السبب للحاكم (العقل) لماذا هو يشكوها إليه؟ موضحاً الأعمال التي تميل النفس إليها فقال: ((تدنَّسُ بالزَّللِ بُردي، وَتحملني عَلَى مايُردي ... إنْ أيقظتها تناعستْ، وإنْ قدّمْتُها تقاعَسَتْ، وإنْ عَاهَدْتُها غَدرتْ، وإن أصْعَدتُ بِهَا انحدرتْ... تَسْعَى فيمَا يوجب زَمَنَهَا مما لَايرُوق ...، لو بدتْ لها عجوزٌ جَحمَرِش هامتْ، وَلَو رأتْ ليلةَ القدرِ تجوُز لَنَامَتْ، تختارُ لَذَةَ ساعةٍ وإنْ أثمرتْ لَها شناعة... أُكَلَةٌ، شُرَبةٌ ... سُهرَة في الْهوَى ... ضُجَعة، ضُحكَة، قُعدة عَنْ الخيرِ...، هُمَزة للناس، لُمزَةٌ... يَنْقَضي زمانها وَلَاتستعيدُ إلَّا لهواً أو دُعَابة ...))(١).

((ثُمَّ احتدّ الحِجاجُ، وامتد اللَّجَاجُ فقالَ العقلُ: اسمعَا معاً فإيثارُ اللَّفْظِ غلطٌ، أنتِ أيَّتها النفسُ المعاتَبةُ الملُومة، بلْ أنتِ المعاقَبة المذمومة، إذْ لَاتتحركُ جارحَةٌ إلاّ بإنهَاضِك، ولاتتوركُ بارحَةٌ إلاّ بأغراضِكِ ... وكفُّكِ يمشي على قدرِ إطلاقِكِ، فكفك أنتِ ملاّح المركب لَامَنْ يرْكَب ... فَلَاتلومي رَاكباً خَافَ الغرقَ مِنْ تَفْرِيطك... فَلَمَّا نكتَ قَلْبها بهذه النكت بكتْ، فَقَالَ لَهَا: هَكَذَا فكُوني، أَطْلِقي حَبيسِ الدَّمعِ وَلَاتَصُوني...))(٢).

وزاد في لومها وأبان الطريق الصحيح لها، فرغب، ورهب إلى أن قالت النفس: ((أَعْلِمني بملءِ الأوبة، وَعَلّمني شُروطَ التَّوبةِ))(٣) فكان أن حثها على ترك الصحبة الضالة والاستعانة بالعزم والإنابة.

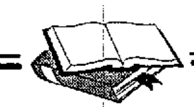
لقد أشار ابن الجوزي فيما سبق إلى بعض مايعين النفس على مجاهدتها إلا أن هناك بحثاً كاملاً عن كيفية مجاهدة النفس وتقويمها، تقول صاحبته : ((إن مجاهدة النفس وإخضاعها للسير إلى الله، وكبح جماح شهواتها، وملذاتها وركونها إلى الدنيا، واجتذابها إلى طريق الله – عز وجل– وإلى بذلها لكسب رضا الخالق سبحانه، واجتناب سخطه، وغضبه، أمر عسير على النفس، لما جبلت عليه من حب الانطلاق

---

(١) المقامة نفسها، ص ٧٨-٧٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٨٣-٨٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ٨٦.



والسير وراء ماتمليه عليه غرائزها وشهواتها وأهواؤها من الميل إلى متع الحياة الدنيا الفانية كما قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(١).

وإن علاج النفس من هذه الأدوار الفتاكة لايتم إلا عن طريق اتباعها ماأنزل الله إليها من الإيمان بالله، والشعور بالمسؤولية أمام الله، وإدامة التفكر في خلق الله، والتمسك بالدين والاعتزاز به، والصبر على تنفيذ كل ذلك حتى تتحقق لها السعادة الدنيوية والأخروية وتحظى برضوان الله ونعيمه وجناته))(٢).

وإلى مثل هذا يشير في مقامة أخرى فنرى ابن الجوزي يوضح أن النفس جوهدت فكفت عن اتباع الهوى، وأما السبب فهو رؤيتها للشيب وقد كسى رأسها، فأخذ الهوى يذكرها عقود العهود، فقالت النفس : ((فَأَنْتَ تأسف إذ فارقتك، وأنا آسى إذ وافقتك، كم قد تبعتك إلى زلةٍ فقدتني، ومافقدتني ... فقال الهوى:... قد كنا بقدم واحدة نسعى، وبعينٍ واحدةٍ نرى، فما هذا الصبر الذي عنّ عنا وعرى))(٣).

إلا أن النفس قد اتعظت وخافت حين رأت الشيب، فكانت كمن كان في إغفاءة ثم أفاق، والذي جعلها تستيقظ هو ماقاله :

* حط المشيب رجله في شعري *

لذا أعلنت التوبة ثم ((انفجرتْ عيونُ عُيُونِها، ... خَرَّوَا لله سُلْطانُ اللّهـو...، وخَشُنَ العيش اللذيذُ، ... وفرغَ إناءُ اللّذة ...))(٤).

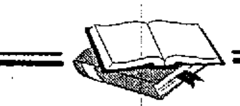
---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤.

(٢) انظر: جهاد النفس وثمراته في ضوء الكتاب والسنة، فائزة أحمد سالم بافرج، بإشراف د.الشريف منصور بن عون العبدلي، ١/٢٣٥-٢٣٦، مخطوط مقدم لنيل درجة الماجستير إلى جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، الكتاب والسنة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٣) المقامة (١٤): في الشيب، مقامات ابن الجوزي، ص ١١١.

(٤) المقامة نفسها، ص ١١٢.



وحين احتكما (النفس والهوى) إلى شيخ، ((قَالَ: أَما أَنْتَ أيُّهَا الهوى فَقَدْ أَحْرَجَكَ فَقْدُ اللَّذات، وأَما أَنْت أيتُّها النَّفسُ فَقَدْ أَزْعَجَكِ خَرَّابُ اللّذاتِ، أَيُّها الهوى وَكَمْ جنيْتَ مِنْ جنايةٍ؟ وكَمْ نقلتَ قبيحكَ إِلَى الغَوَاية في الرِّوايةِ؟ فَابْك عَلَى تفريطك في أمرك، بَاقِي عمرك لعلك تستدرك. وَأَنْتِ أيتُّها النفسُ في ندبلكِ الطلل، عِلةُ عجيبةٌ مِن العللِ، وَنعِمَ ماذكرت مِن قُربِ الأَجَل، وَلكِنْ في القصدِ خَللٍ، ... وَإِنَّما ينْبَغِي أَنْ يكونَ بُكاؤكَ لموافقةِ الطَّبع في مخالفةِ الشَّرع، وَلَتبديدِ الْبَذْرِ في زَمَنِ الزَّرْعِ...))(١).

نعم فلتبك النفس؛ لأنها أطاعت الهوى، فضاع شباب العمر في ارتكاب المعاصي، والعودة بعد انقضاء زمن القوة في عمر الإنسان -الشباب- إلى جادة الحق، وقد أبان ابن الجوزي ذلك بقوله : ((ولكن في القصد خلل)) لأن مجاهدة النفس للهوى فقط أثناء رؤية الشيب، فيه خلل، وكان الأولى مجاهدتها في سن الشباب، ولأنه خالف الشرع حين وافق هواه وانقاد للهوى.

وفي مقامة ثانية نرى ابن الجوزي يجعل النفس هي الملك في البدن، ووزيرها العقل، ثم يذكر أن النفس مشغولة باللهو لاتلقي للعقل بالاً، فيقول عن النفس بعد أن طاف داخلها: ((فنظرتُ إِلَى القلبِ فإِذَا هُو مُنقلِبٌ، فَتأملتُ مَسْكَنهُ فَإِذَا هُو بالقلبِ قَدْ خَرِبْ، فقلتُ: لآلاتِ الحسّ لَو عَرفت الحُراس لما عُوقبَ الأَساس))(٢).

ثم انطلق بنا إلى العقل الذي اعتزل ونأى عنهم لأنهم كما قال : ((يَعرِفون قَدْرِي، وَلَايمتثِلُون أَمْرِي))(٣)، ويمثل العقل أبوالتقويم كسائر مقاماته الذي رد حين سئل كيف يقهره عدوه (الهوى) فقال: ((جُنْدُهُ أَكثر، قُلْتُ: مَنْ جُنْده؟ قَالَ: الْحَواسُّ كُلُّها))(٤).

---

(١) المقامة نفسها، ص ١١٦-١١٧.

(٢) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٢٩.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٣٠.



ولما سئل: ((فَلِمَ جندُ الهوىٰ أكثر؟قالَ: ((لأَنَّ جامكيتَه للعسكر نَقْد، وجَامكيتي حَوَالة، والنَّفس مولعةٌ بحبِّ الْعَاجل، ثُمَّ قَالَ: هُوَ لَايرَى إلاَّ الحالةَ الحاضرةَ وَلَايتأملُ عاقبةَ الآخرة، وَخَوْفي أَنَا في العواقبِ مِن الذُلّ، قيدَ لي عَن الانبساط وَغُلّ...))[١].

ثم وضح لنا كيف نجاهد نفساً كهذه، ران الهوى على قلبها فبدأ لذلك بالقلب وقال: ((فَصِحْتُ بالقلبِ فنهضَ، وَوَبّخته فَامْتَعَض))[٢].

وتعاون العقل والقلب على تمرد النفس واستعدا لحربها بالطعن والضرب واستحضر العزم فحضر وتبعه الجزم فانتصر، وسجنت النفس وقيدت فقال العزم: ((لَابُدّ مِن الرِّفقِ وَالحلمِ. فقالَ: ماأتعدى فَتوَى العِلْم، أنزلها في مطمورةِ التواضُع، وقيّد جَوَارِحها بقيودِ الكفِّ، واضْربها بسياطِ الجوعِ، ففعلَ بِهَا ذلكَ فَلَانَ جَنْبُها))[٣].

إذن فقد أعطى ابن الجوزي الطريقة التي يمكن أن نسوس بها النفس ونخضعها، فلايترك لها الحبل على الغارب، فتنصاع وتطأطيء للعقل .

وفي مقامة أخرى يجعل ابن الجوزي الخصومة قائمة بين العقل والهوى أما النفس فهي الحكم، وأما سبب الخصومة؛ فهي أن العقل يقف بالمرصاد للهوى ولاينقاد له، فهذه صورة صحيحة لمن جاهد نفسه حق جهادها، وسار بها إلى الطريق القويم، وبعد بها عن زلل الشيطان غير المستقيم، ومع ذلك فإن ابن الجوزي أراد أن يظهر لنا أن النفس وإن تغلبت على هواها، فإنها تظل تنازعك دوماً وأبداً فكن من الميل إلى الهوى على حذر، لأنها لاتأنس أن تكون كما جاء على لسان الهوى في شكواه للنفس ضد العقل: ((قَدْ حَرَفَ مِزَاجي بما يَحْميني ... وَإنْ لَذَّ لي طعامٌ، قَالَ: أمْسِكْ، وإنْ لَاحتْ نظرةٌ، قَالَ: اغضضْ، وإنْ عَرَضَتْ كلمةٌ، قَالَ: اسْكُتْ، وإنْ

(١) المقامة نفسها، ص ١٣١، الجامكة: رواتب خدام الدولة، تعريب جامكي وهي مركبة من جامة أي قيمة، ومن كي وهي أداة النسبة. انظر: لسان المعجم الذهبي، محمد التونسي، ص١٩٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٣٣.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٣٤.



أَردتُ حركةً، قالَ: اسكنْ كُلَّمَا عَلقتْ يَدي بمحبوبٍ جَذَبهُ مني، وَكُلمَّا رَكَنْتُ إلى مطلوبٍ أَخَذَه عَنّي...))(١).

كما أنه أبان أن العقل الراجح هو الذي يسير النفس، ويطغى على الهوى فقال يشيد بذلك على لسان العقل نفسه : ((أيشكُّ في قَدْرِي مَنْ يَدْرِي؟، أَنَا أَبُوالتقويم، وَمني يَصْدرُ التَّعليم ... أَنَا الَّذي أخرجتُ الحُكمَاءَ والعلمَاءِ إلى فَضَاءِ الفَضَائِل ... ذنبي إليه أَنَّهُ إِذَا انتصبت لَهُ شَهْوَةٌ أَوْ سَهوةٌ من الفاني أَلْفَاني قَدْ نصبتُ لهما مِيزَاني ووزنتُ عاجلَ مَسَرتِّهما بآجلِ مَضَرتِّهما ...))(٢).

وكمعتاد أبي التقويم يقدم الحجة العقلية، فيتغلب في نقاشه على مناقشه، لذا انصاع الهوى، ((وقالَ: أيتُّهَا النَّفْسُ التي وَكَلَهَا في الخصومةِ وَوَلّي أبانت حُجّتي، قالت: نعم، فَولّى))(٣).

وفي مقامة أخرى أبان ابن الجوزي أن عمره فنى وهو يجاهد نفسه بالعلم والعمل وكان عدته في ذلك الصبر، ومعينه الأول العقل؛ لذا قال العقل للنفس حين اشتطت في ذكر مناقبها التي حباها الله إياها:((ويحكِ إنَّما تنالين هَذِهِ المنَاقِب بَعْدَ الرياضةِ، وَفي آخرِ مَرَاتِب الصَّبرِ عَلَى الراضةِ، وَلَوْلَا تقويمُ التَّعليمِ لكنتُ كالحيوانِ البهيمِ، تَالله لولَا التثقيفُ مَامَهرَ مُهْرٌ، وَلولاَ الصَّبر عَلَى التضميرِ مَانُوِّه للغراب ذِكْرٌ))(٤).

ولما وجدت النفس في كلامه الصدق، طلبت منه النصح لتخرج من دائرة اللهو فقال لها : ((انزعي عنْ أَحْوالِ المخرنشِم، وأنزعي ثيابَ المخْرَنطِمْ، ودعي طبعكِ البليد، وَارْدَعِي خُلقكِ اللحِز، وَدَعي توانيكِ المقْعَنْسِس، وَأسْرعي إسراعَ مُسْتعلجٍ مُسْتَعجل، وَاشْرعي في الاعتذارِ إلَى رَبكِ عَنْ شغلكَ عَنْهُ بكَ))(٥).

---

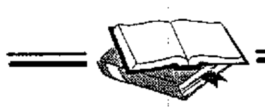
(١) المقامة (٢٨): في ذم الهوى، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٢٤.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٣٠.

(٤) المقامة (٤٣): في مخاطبة العقل للنفس، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٥٠.

(٥) المقامة نفسها، ص ٣٥٣، المخرنشم: المتكبر، المخرنطم: الغضبان المتكبر، اللحز: الضيق والبخل، المقعنسس: المتأخر، انظر: اللسان، مادة: خرشم، خرطم، لحز، قعس.



هذه نفس وضح لها الطريق الصحيح فامتثلت، وسارت فيه فكان أول ذلك السير القويم بتوجيهها إلى العبادات فها هي ذي : ((نهضتُ لامتثالِ أَمْرِ الآمر عَلَى قدَم الجدّ، وَتطهرتْ بماءِ الذلّ مِنْ دَرَنِ الكبر، واستقبلتُ قِبلةَ الْقَصدِ إلى صلاحِ الأَمْرِ، ووضعَتْ جبهةَ التَّواضعِ في مسجدِ الانكِسارِ، وتلتّ في صلاةِ وَصلها وإنْ كُنّا لخاطئين ثُمَّ تلَتْها إنّي ظلمتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُليمان لله ربِّ العالمين))(١).

وهذه نفس ثابتْ ورجعتْ إلى الله، فلن يكون لها، ولا لغيرها من النفوس العائدة إلى الله إلا قوله : ﴿ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٢).

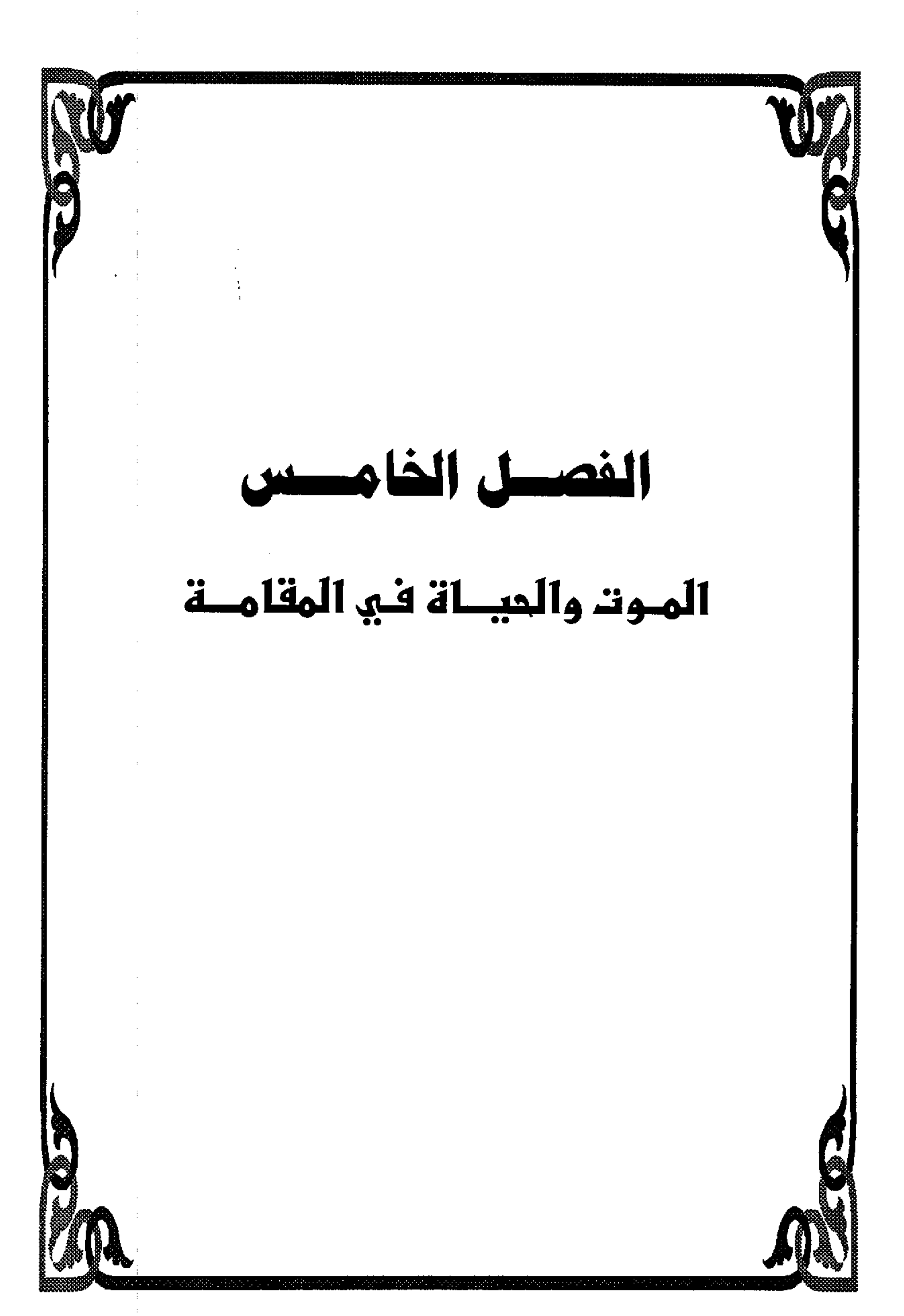
ونخلص إلى أن الجهاد قد ظهر في المقامات بأنواعه، جهاد ضد الأعداء بالسيف، وجهاد النفس وكيفية الوصول إليه، وجهاد المجتمع إلا أن الجهاد في ساحات الوغى لايقارن إذا ماقيس مع جهاد النفس فكل أصحاب المقامات أخذ منهم جهاد النفس نصيب الأسد، أما الآخر فإن لم تكن مقامة واحدة فقط، كانت تشير إليه إشارة عابرة ليس إلا؛ كإشارة الحريري في مقامته (الحرامية)، والزمخشري في مقامته (أيام العرب)، إلا ابن الجوزي فهو الذي أفرد مقامته المسماة (الغزاة) في جهاد الأعداء من بين سائر كتاب المقامة الذين تناولهم البحث. ونضيف إليه البديع إن أردنا ألا نهضمه حقه في مقامته (القزوينية) إلا أن البديع لم يذكر أنه لقي أعداءه الروم وحاربهم، وإنما طلب أن يمد مستمعوه له يد المساعدة بالمال؛ ليحصل على العدة والعتاد، ويلتقي بعدها بأعدائه، وأعداء الإسلام وهم : الروم .

إلا أنه لابد من التنويه إلى أن أصحاب المقامات – هنا – لم يعطوا الجهاد حقه من الذكر، فقد كانت البلاد تموج وتضطرب وكانت الحروب وعلى رأسها الحروب الصليبية مما عاصروه، ولكن لانجد شيئاً يذكر عنها، وكأنها لم تعكس بظلالها السوداء على المجتمع الذي يمثله هؤلاء المقاميون فيسطروه لنا ضمن ماسطروا في هذه المقامات.

---

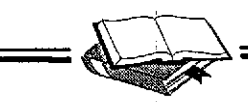
(١) المقامة نفسها، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٥٤، سورة يوسف، آية : ٩٢.



الفصل الخامس

الموت والحياة في المقامة



الحيـاة :

تعلق الروح بالبدن واتصاله به، أو هي الصفة التي يكون الموصوف بها ذا علم وقدرة، وهي الأصل في النعم إذ لولاها لم يتنعم أحد في الدنيا، ولم يكن ثواب ولاعقاب في الآخرة،فإن الله تعالى جعل الدنيا دار حياة ثم دار موت،وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء(١).

أما الموت :

فقد جاء في السفينة الماخرة : ((إن حقيقة الموت كما قال العلماء –رحمهم الله تعالى– أخذاً من النصوص الشرعية، والبراهين العقلية هو أنه ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهراً وباطناً ومفارقة، وحيلولة بينهما، وتبدل من حال إلى حال، وانتقال من دار إلى دار))(٢).

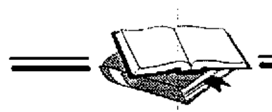
وأصحاب المقامات أبانوا كلاً من الحياة والموت في مقاماتهم، وقد ذكر **البديع** في مقامته الأهوازية صورتين أو قل مشهدين للإنسان؛ الأول الانغماس في الدنيا: مشهد الرفقة مع الراوي عيسى بن هشام الذي قال: ((فأَفَضْنَا في العِشْرة كيْفَ نَضَعُ قَواعِدَها. والأُخُوَّةِ كيف نُحْكِمُ مَعَاقِدَها والسُّرورِ في أيِّ وَقْتٍ نَتَقَاضَاهُ والشُّرْبِ في أيِّ وقْتٍ نَتَعاطاهُ. والأنسِ كيفَ نَتَهاداهُ وفائتِ الحظِّ كيفَ نَتلافَاهُ والشَّرابِ مِنْ أينَ نُحَصِّلُهُ والمجلِسِ كيف نُزَيِّنُهُ))(٣).

واستعدوا للذهاب لينتقلوا من الشراب إليه ... فهذا أحد مشاهد الإنسان في دنياه الذي لايتمنى أن تنقضى الساعة التي يعيشها أو ينغصها عليه منغص كما حدث لهذه الرفقة التي جاءها : ((رَجُلٌ في طِمْرينِ في يُمْناهُ عُكَّازةٌ. وعلى كتِفَيـــهِ جِنازةٌ

(١) انظر: السفينة الماخرة إلى البرزخ والدار الآخرة، حامد بن محمد العبادي، ص١١-١٢، مطابع الصفا، ط(٣).

(٢) رده صاحب السفينة الماخرة، ص١٥، إلى بشرى الكئيب، السيوطى، ص٢٢، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، وهو كذلك.

(٣) المقامة (١١): الأهوازيّة، لبديع الزمان الهمذاني، ص ٦٦، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد.



فتطيَّرنا لما رأينا الجَنَازَة، وأعْرَضْنا عنها صَفْحاً، وطوَيْنا دُونَها كَشْحَاً»[١].

أما المشهد الثاني فهو على النقيض من الأول: مشهد الإنسان بعد أن أصبح لاحول له ولاقوة، محمولاً على الأكتاف، موضوعاً على تلكم العيدان (النعش)، منقولاً إلى تلكم الوهاد (المقابر).

وهذه خاتمة المطاف لخلق الله: الموت، لكن لما كان استقبال تلك الرفقة للجنازة بالنفور، تحول الرجل إليهم بعد أن صاح بهم صيحة كادت الأرض تنفطر، والنجوم تنكدر وقال: « لترونَّها صُغْراً،ولتركَبُنَّها كَرْهاً وَقَسْراً. مالكم تَطَيَّرون مِنْ مطيَّةٍ رَكِبَها أسْلافُكُمْ، وَسَيَرْكَبُها أخْلافُكُمْ، وتتقذَّرون سَرِيراً وَطِئَهُ آباؤُكُمْ، وَسَيَطؤُهُ أبناؤُكُمْ، أمَا والله لتُحْمَلُنَّ على هذهِ العِيدَانِ، إلَى تِلكُمُ الدِّيدَانِ، ولَتُنْقَلُنَّ بِهذِهِ الجيادِ، إلى تِلْكُمُ الوِهادِ، ويْحَكُمْ تطيَّرون، كأنكم مخيَّرونَ وَتَتَكَرَّهُونَ، كأنَّكم مُنَزَّهُونَ، هل تَنْفَعُ هذه الطِّيرةُ، يافَجَرَةُ؟»[٢].

لماذا كرهوا ذكر الموت وتطيروا حين رأوا تلكم الجنازة، أما سمعوا قول النبي -ﷺ-: « **يكره ابن آدم الموت، والموت خير له من الفتنة**»[٣]، وأي فتنة أعظم من فتنة الدنيا لاسيما في زمن كثرت فيه الفتن والملهيات وعمت فلافرار ولانجاة منها إلا بالموت الذي هو راحة له من مصائب الدنيا وهمومها. فعن أبي قتادة ﷺ قال: مر على النبي -ﷺ- بجنازة فقال: «**مستريح ومستراح منه**» فقالوا يارسول الله: ماالمستريح وماالمستراح منه؟ فقال: «**العبد المؤمن يستريح من تعب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والشجر والدواب**»[٤].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «مامن بر ولافاجر إلا والموت خير له من الحياة إن

---

(١) المقامة نفسها، ص ٦٧.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦٧-٦٨.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٥/٤٢٧.

(٤) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الجنائز، باب ماجاء في مستريح ومستراح منه، ٢٠/٧ بنحوه، والنسائي (١٩٣٠)، كتاب الجنائز، باب ٤٨، استراحة المؤمن بالموت، ٤٨/٤.



كان براً فقد قال تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾[(١)]، وإن كان فاجراً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَايَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[(٢)].

نعم، تطيروا لكن بعد ذلك اتعظوا بمقولة الرجل عن الموت، بل عشقوا لفظه، وشاءوا الزيادة فقال لهم : «إنَّ وراءَكُم موارِدَ أنتم وارِدُوها، وقد سِرَّتُم إليها عِشْرين حِجَّةً... وَمِنْ فَوقِكُمْ مَنْ يَعْلَمُ أسْرارَكُمْ، ولو شَاء لهتكَ أسْتَارَكُم، يُعَامِلُكُمْ في الدُّنيا بِحِلْمٍ، ويقْضِي عَلَيْكُمْ في الآخرة بِعِلْمٍ، فليكنِ الموتُ مِنْكُمْ على ذُكْرٍ، لئلَّا تَأْتُوا بِنُكْرٍ، فإنكُم إذا استَشْعَرْتُمُوه لم تَجْمَحُوا، ومتى ذَكَرْتُمُوه لم تَمْرَحُوا، وإن نسِيتُموهُ فَهُوَ ذَاكِرُكُم، وإنْ نمتُمْ عَنْهُ فهو ثائِرُكُمْ، وإنْ كَرِهْتُمُوه فَهُوَ زَائِرُكُمْ»[(٣)].

وقد علل البديع طلبه منهم: «فليكنِ الموتُ منكُمْ على ذُكْرٍ؛ لئلَّا تأتُوا بِنُكْرٍ...»[(٤)].

وقيل في كتاب مختصر منهاج القاصدين: «كلنا قد أيقن بالموت،ومانرى له مستعداً وكلنا قد أيقن بالجنة ومانرى لها عاملاً فعلام تفرحون؟ وماعسيتم تنتظرون؟.

الموت : فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير أو بشر فيااخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً»[(٥)].

وقد ذكر بديع الزمان الهمذاني في مقامته «الموصلية» صورة من الصور التي نهى عنها الإسلام من قبل أهل الميت وهي : شق الجيوب ولطم الخدود ... قال على لسان الراوي عيسى بن هشام حين وصل معه أبوالفتح الإسكندري للموصل «دُفِعْنَا إلى دَارٍ قَدْ مَاتَ صاحِبُها، وقامت نَوادِبُها، واحْتَفَلْتُ بقومٍ قد كوى الجَزَعُ قلوبَهُمْ، وشَقَّتِ الفجيعَةُ جيوبَهُمْ .. ونِساءٌ قد نَشَرْنَ شُعُورهُنَّ، يَضْرِبْنَ صُدُورَهُنَّ، وشَدَدْنَ

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٩٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٧٨.

(٣) المقامة نفسها (١١) الأهوازيّة، للبديع، ص ٦٨-٦٩.

(٤) المقامة نفسها، ص ٦٨-٦٩.

(٥) للشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، ص ٣٨٤.



عُقُودَهُنّ، يَلْطِمْنَ خُدُودَهُنّ))(١).

وهذا ماكن يفعلنه النساء إذا مات لهن ميت في الجاهلية، وحين جاء الإسلام حث على الصبر لمن مات له ميت، وحذر من الجزع عليه فقال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(٢)، ومن قوله تعالى في الحث على الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله -ﷺ- قال: ((**يقول الله - تعالى-: مالعبدي المؤمن عندي جزاء: إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه - إلا الجنة**))(٤).

أما في الترهيب من الجزع على الميت: فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -ﷺ-: ((**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوة الجاهلية**))(٥).

أما في مقامة ثانية فقد ذكر بعض مايحدث للإنسان بعد موته، وأولها وضعه في القبر فقال: ((إنَّ بَعْدَ الحدَثِ جَدَثاً))(٦)، وبين كيف أنهم بعد أن كانوا فوق الأرض أصبحوا في بطنها، وكيف أنهم كانوا يعيشون في دور واسعة وأصبحوا في حفر تضمهم تحت التراب قائلاً في ذلك :

((فَهُمْ في بطونِ الأرْضِ بَعْدَ ظُهُورِهَا ** محاسِنُهُم فِيها بَوَالٍ دَوَاثِرُ

---

(١) المقامة (٢١)، ص ١٦٨، ت: فاروق سعد، ص١١٣-١١٤، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد.

(٢) سورة البقرة، آية ١٥٥.

(٣) سورة الزمر، آية ١٠.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٤٢٤)، كتاب الرقاق، باب (٦): العمل الذي يبتغى به وجه الله، ٢٤١/١١ . ورواه أحمد في مسنده، ٤١٧/٢.

(٥) رواه البخاري (١٢٩٧)، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شقّ الجيوب، ١٠٣/٢ بلفظ "من لطم الخدود..."، ورواه مسلم(١٠٣)، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشقّ الجيوب، ٩٩/١.

(٦) المقامة (٢٦): الوعظيّة، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٧٠.

خَلَتْ دُورُهم منْهُمْ وَأَقْوَتْ عِرَاصُهُم ** وسَاقَتْهُــم نَحْوَ المنايَا المقَــادِرُ
وَخَلوا عَن الدُّنيــا ومَاجَمَعُــوا لَهَــا ** وضَمَّتْهُمُ تَحْتَ التُّرابِ الحفائِرُ»[١].

كما ذكر بالوحشة التي ستنتابهم في القبر من جراء العزلة فقال :

« وَحَلوا بِدَارٍ لاتزاورَ بينَهُــمْ ** وَأَنَّى لِسُكَّانِ القُبُورِ التَّزاوُرُ »[٢]

كما أشار إلى البعث بعد الموت فقال :

« كأنَّا نَرى أَنْ لَانُشُور، وَأَنَّنــا ** سُدًى، مالَنا بعد الْفَنَاءِ مَصَائِرُ»[٣]

فأراد أن هذا الذي يتكالب على الدنيا ويحرص عليها، ويعتقد أنه وجد في هذه الحياة بلاراعٍ يكفيه،وأنه لن يصير إليه فيحاسبه، فهذا كأنه لايدين بالبعث ولايؤمن به.

ثم يتعجب ممن يخشى الموت فيقول: « ألا تعجبون ممن ينام وهو يخشى الموت، ولايرجو الفوت»[٤]، وكأنه لم يسمع لقوله -ﷺ-: « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

وقال ابن عمر : « إذا أمسيت فلاتنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلاتنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن قوتك لضعفك»[٥].

أما **ابن ناقيا** فقد أعطانا صورة من أقبح الصور التي قد يتعرض لها الميت ألا

---

(١) المقامة نفسها، ص١٧٢، بوالٍ: جمع بال وهو الخلق الرث، الدوائر: الهوالك، أقوت: خلت وأقفرت، العراص: المنازل الضيقة الصغيرة، انظر: اللسان، مادة: بول، دار، قوت، عرص.

(٢) المقامة نفسها ، ص ١٧٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٧٧.

(٤) المقامة نفسها ، ص ١٧٦.

(٥) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٤١٦) عن عبدا لله بن عمر - رضي الله عنه- في كتاب الرقاق، باب (٣): قول النبي -ﷺ-: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، ٢٣٣/١١، وابن ماجه تحت رقم (٤١١٤) في كتاب الزهد، باب(٣): مثل الأنبياء، ١٣٧٨/٢، بنحوه، والإمام أحمد - رضي الله عنه- في مسنده، ٢٤/٢، ٤١، ١٣١.



وهي نبش قبره، فها هو ذا بطل مقاماته، يقوم بهذا الفعل الشنيع، وماذلك إلا ليسلبهم أكفانهم فيقول على لسان الراوي: «تتبعتُهُ عَلَى الأثرِ وإذَا بــهِ قَدْ اقتحمَ مَنَازِلَ أَهْلِ البِلَى وَسُكَّانَ الثَّرَى لَايَرْقُبُ فِيهِمْ ذِمَةً وَلَايرحمُ لَهُمْ رُمَّةً، فجعلَ يطأُ الأجْدَاثَ وَيحرِقُها، وَيَشْتَامُها وَيَنْتَشِقُها، حَتىَّ وقعَ عَلَى ضَالَتِهِ وَأَدْرَكَ دَفِينَ ليلَتِهِ، فرأيْتُ مِنْهُ العجبَ العُجَاب في سَفْيِّ تلكَ الأحْجَار وَالـتُّرَاب؛ حَتَّى وصلَ إِلى الْبَائِسِ، فِي ذَلِكَ القعرِ الدَّامسِ، فَخَرّجَهُ مِنْ ضَرِيحِهِ، ونَبَذَهُ عَلَى صَفْحِهِ، فَسَلَبَ أكفانَهُ وَحَطَّمَ أَرْدَانَهُ، ثُمّ عَادَ فَكَرْبَسَهُ وَتَنَاوَلَ حَجَراً فَرَسَّهُ، وهَالَ عَلَيه ذَلِكَ التُّرَاب وَالأَحْجَار وَوَلَى...»[(١)].

هذا رجل بدأ بفعل قبيح اتبعه أفعالاً أخر أقبح، فأولها بدأ بنبش القبر، ثم سرق الكفن، ومن ثم حطم أردانــه، وأعـاده إلى قـبره وكأنـه لم يفعـل شيئاً، بـل و لم يؤنبـه ضميره، ولاارتاعت نفسه من سوء فعله، فإذا به يرد على الراوي متأولاً على ا لله حين لامه على فعله فقال: «قَدْ قَـالَ صَـاحِبُ الشَّـرعيةِ اطْلبُـوا في خِبَايَـا ٱلْأَرْضِ»[(٢)] فقـال الـراوي راداً باستغراب واستهجان: «وَيْحَكَ يَعْنِي في اسْتِخراجِ النَّبَـاتِ لَافي نَبْـشِ الأَمْوات، فَقَالَ: لَسْتَ بِالتَّأويلِ أَوْلَى مِني أنَـا اليَشْكَرّي...»[(٣)]، وكـان علـى الشـاهد لهذه المناظر أن يشكوه ليقام عليه الحد، وهو قطع اليد لقوله-ﷺ- لأبـي ذر: «**كيـف أنت إذا أصاب الناس موت يكـون البيـت فيـه بـالوصيف**» يعـني القـبر، قلـت: ا لله ورسوله أعلم أو ماخـار ا لله ورسـوله، قـال: «عليـك بالصـبر» أو قـال «تصـبر» قـال أبوداود: قال حماد بـن سـليمان بقطـع النبـاش؛ لأنـه دخـل علـى الميـت بيتـه»[(٤)]، وفي حديث آخر ذكر اللعن بدل القطع، لقول عمرة بنت عبدالرحمن: «**لعن رسول ا لله -ﷺ- المختفي والمختفية. يعني نباش القبور**»[(٥)].

أما **الحريري** فقد أورد ذكر الموت والحياة معاً في الغـالب، لكـن ترغيـب عـن الدنيا وترهيب بذكر الموت، ففي المقامـة الصنعانية نجـد الحريـري يذكـر علـى لسـان

(١) المقامة (٢) من المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٣-٤ من المخطوط.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤.

(٣) المقامة والصفحة نفسها .

(٤) رواه أبوداود (٤٤٠٩)، كتاب الحدود، باب في قطع النباش، ١٤٢/٤.

(٥) رواه مالك بن أنس - ﷺ- في الموطأ، (٤٤)، كتاب الجنائز، باب(١٥)، ٢٣٨/١.



الراوي الحارث بن همام أنه دخل نادياً رحيباً، والناس مجتمعون حول رجل يعظ مذكراً بالموت وأن مآل الإنسان إليه، ويرغبهم بالبعد عن الدنيا الفانية فيقول :

((أَتَظُنُّ أَنْ ستَنفَعَكَ حَالُكَ إِذَا آن ارْتِحالُك، أَوْ يُنْقِذُك مَالُكَ حِينَ تُوبقُكَ أَعْمالُكَ، أَوْ يُغْنِي عنْكَ نَدمُك، إِذَا زَلَّتْ قَدمُكَ أَوْ يَعْطِفُ عَلَيْك مَعْشَرُكَ، يَومَ يَضُمُّكَ مَحْشَرُكَ... أمَا الحِمَامُ ميعَادُك فمَا إعْدادُك، وبالمَشِيب أَنْذَارُك، فَما أَعْذارُك، وَفي اللَّحْدِ مَقِيلُكَ فما قِيلُكَ، ... طَالَمَا أَيقَظَكَ الدَّهْرُ فتَنَاعَسْتَ، وجَذبَكَ الوَعْظُ فتقَاعَسْتَ... وأَذْكَرَكَ الموْتُ فتنَاسَيْتَ، وأَمْكَنَكَ أنْ تُواسِي فَمَا آسَيْتَ ...))(١).

فقد حذر من الوقوع في المعاصي عن طريق التذكير بالموت، وعذاب القبر، فالموت هو الميعاد الذي ينتهي إليه الناس، والعمل الذي أعدوه هو مقياس نعيمهم أو شقائهم، فمن سار في دنياه لاهياً عن العمل الصالح بالدنيا وشهواتها، فلاأقل من أن يكون كبر السن هو المنذر له للعودة إلى جادة الصواب، وعبر عنه بانتشار الشيب في رأسه؛ وليصل إلى تأثير أكبر في موعظته أضاف إلى ذلك بذكر اللحد الذي سيكون أول دار ينزله الميت بعد موته، والمقر الأخير للإنسان، ((فإن الله تعالى بحكمته وقدرته جعل الدور ثلاثاً : دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والبرزخ هو الذي أراده الله تعالى بقوله : ﴿**وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾(٢)، أي أمامهم حاجز بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث وهو في اللغة الحاجز بين الشيئين من وقت الموت إلى يوم القيامة ومن مات دخله))(٣).

وفي مقامته الساويّة يحث الحريري على زيارة القبور، لأن ذلك يزيل ماران على القلوب من قسوة فقال: ((آنسْتُ مِنْ قَلْبِي القَسَاوةَ حِينَ حَلَلْتُ سَاوَة، فَأَخَذْتُ بالخَبَرِ المَأْثُور في مُدَاوَاتِها بِزِيَارةِ القُبُور))(٤)، والخبر المأثور قوله -ﷺ-: ((**نهيتكم عن**

---

(١) المقامة (١) ، شرح مقامات الحريري، ٢٠-٢١، ت: يوسف بقاعي .

(٢) سورة المؤمنون، آية ١٠٠.

(٣) السفينة الماخرة إلى البرزخ والدار الآخرة، حامد العبادي، ص٥٩، وأرجعه لتفسير ابن كثير، ٢٥٦/٣، طبعة مصطفى الحلبي وهو كذلك، ولسان العرب،لابن منظور، والقاموس، للفيروزآبادي، مادة: برزخ.

(٤) المقامة (١١)، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٨٣.



زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرة))(١).

ثم أبان أنهم يعمدون أثناء حفر القبر إلى اللحد تأسياً برسول الله -ﷺ- الذي قال: ((**اللحد لنا والشق لغيرنا**))(٢).

أما الحريري فقال: ((فَلمَّا صِرْتُ إلى مَحَلَّةِ الأَمْوات، وكِفَاتِ الرُّفَات، رأَيْتُ جَمْعاً عَلى قَبْرٍ يُحْفَر، ومَجْنُوزٍ يُقْبَر، فانْحَزْتُ إِلَيْهِم مُتَفكّراً في المَآل مُتَذكِّراً مَنْ دَرَجَ مِنَ الآل، فلمَّا أَلْحَدُوا المَيِّت ...))(٣).

ثم أخذ يصف حال أولئك الناس الذين لايبالون بمن دفن تحت التراب، ولايتفكرون بحالهم قبل أن يكون القبر مآواهم الأخير عندها سيندمون ولات ساعة مندم، فقال: ((لِمِثْلِ هَـذَا فليَعْمَلِ العَامِلُون، فادَّكِروا أيُّها الغَافِلُون، وشَمِّروا أَيُّها المُقَصِّرون... مَالكُم لايَحْزُنُكم دَفْنُ الأَتْرابِ، ولايَهُولُكم هَيْلُ التُّراب، ولاتَعْبأُون بِنَوازِلِ الأَحْدَاثِ، ولاتَسْتَعِدُّونَ لِنَوازِلِ الأَجْدَاث، ولاتَسْتَعْبِرونَ لِعَيْنٍ تَدْمَع، ولاتَعْتَبِرونَ بِنَعْيٍ يُسْمَع، ولاتَرْتَاعُون لإِلْفٍ يُفْقَد، ولاتَلْتاعُونَ لِمَناحَةٍ تُعْقَدْ...))(٤).

إن كل هذه الأفعال تصدر من أهل الميت فعيونهم تذرف العبرات، والنساء ينعين، ومن لوعتهن ينحن على موتاهن، إلا أن البكاء بدون صوت هو الجائز، لما أثر عن الرسول -ﷺ- أنه أخذ بيد عبدالرحمن بن عوف، فانطلق به إلى ابنه إبراهيم، فوجدوه يجود بنفسه، فأخذه النبي -ﷺ- فوضعه في حجره فبكى فقال له عبدالرحمن: أتبكي؟ أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا. ((**ولكن نهيت عن صوتين**

---

(١) رواه أبوداود – عن ابن بريدة -رضي الله عنه- (٣٢٣٥)، كتاب الجنائز، باب في زيارة القبور، ٣/٢١٨.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنه-(١٠٤٥)، كتاب الجنائز، باب (٥٣)، ٣/٣٦٣. ورواه أبوداود (٣٢٠٨)، كتاب الجنائز، باب في اللحد، ٣/٢١٣.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٨٣-٨٤.



أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة، خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان»[١]، أما النعي والمناحة اللذان ذكرهما الحريري فهما مكروهان لقوله -ﷺ-: «**من نيح عليه عذب بما نيح عليه**»[٢].

وفي النعي أن « حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قال: إذا مت فلاتؤذنوا بي، إني أخاف أن يكون نعياً، فإني سمعت رسول الله -ﷺ- ينهى عن النعي»[٣].

ونعود إلى الحريري فإذا بطل مقاماته يبين حال أهل الدنيا مع الميت فيقول: «يُشيِّع أحَدُكُم نَعْشَ الميِّتِ، وقَلْبُه تِلقَاءَ البَيْتِ، ويَشْهدُ مُوَاراةَ نَسِيبِه وَفِكْرُهُ في اسْتِخْلاص نَصِيبِه ويُخَلِّي بَيْنَ وَدُودِه ودُودِه ثُمَّ يَخْلُو بِمِزْمَارِه وَعُودِه ... وضَحِكتُم عِنْدَ الدَّفْنِ ... وتبَخْتَرتُم خَلفَ الجنَائِز ... وأَعْرَضْتُم عَنْ تَعْدِيد النوَّادِبِ، إِلىَ عِدَادِ المَآدِبِ، وعَنْ تحرُّقِ الثَّواكِل إلى التأنّقِ في المآكِل ... حتّى كأَنَّكُم قَد عَلِقْتُم مِنَ الحِمَام بِذمَام أو حَصَلْتُم مِنَ الزَّمَانِ على أَمَان ... أو تحَقّقْتم مُسَالمةَ هَاذِمِ اللَّذات ...»[٤].

ومن ثم قال أبياتاً من الشعر ذكر في بعضها حال الإنسان حين يوضع في قبره:

« كَأنِّي بِكَ تَنْحط * إِلى اللَّحْدِ وتَنْغَط * وقَد أَسْلَمك الرَّهْط
إِلىَ أضْيق مِنْ سَمّ
هُنَاكَ الجِسْمُ ممْدُود * لِيسْتاكِلَهُ الدُّودْ * إِلى أَنْ يَنخَر العُود
ويُمْسِي العَظْمُ قَدْ رَمّ

---

(١) رواه الترمذي (١٠٠٥) عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه -، كتاب الجنائز، باب(٢٥)، ٣٢٨/٣ وقال حديث حسن .

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: مايكره من النياحة على الميت، ١٠٢/٢. ورواه الترمذي تحت رقم (١٠٠٠) عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - كتاب الجنائز، باب(٢٣)، ٣٢٥/٣.

(٣) رواه الترمذي (٩٨٩)، كتاب الجنائز، باب (١١): ماجاء في كراهية النعي، ٥٨/٤ . ورواه ابن ماجه(١٤٧٦)، كتاب الجنائز، باب (١٤): ماجاء في النهي عن النعي، ٤٧٤/٢، بلفظه.

(٤) المقامة نفسها ، ص ٨٤ .



وَمِنْ بَعْدُ فَلَا بُـــدّ * مِن العَرْضِ إِذَا اعتُدّ * صِرَاطٌ جِسرُهُ مُـــدّ
عَلَى النَّارِ لمنْ أَمّ»(١)

وفي هذا إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ -صلى رسول الله -ﷺ- حين دخل مصلاه فرأى أناساً كأنهم يكتشرون، قال: «**أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى الموت، فأكثروا من ذكر هادم اللذات الموت. فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربة، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود، فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم وصرت إلي فسترى صنيعي بك، قال: فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة. وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لامرحباً ولاأهلاً أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم وصرت إلى فسترى صنيعي بك قال: فيلتئم عليه حتى تلتقي عليه وتختلف أضلاعه، قال: قال رسول الله -ﷺ-: بأصابعه، فأدخل بعضها في جوف بعض. قال: ويقيض الله له سبعين تنيناً لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ماأنبتت شيئاً مابقيت الدنيا فينهشنه ويخدشنه حتى يفضي به الحساب، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»**(٢).

وأما في قول الحريري : * صِرَاطٌ جِسرُهُ مُدّ * :

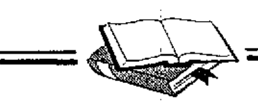
فيشير بذلك إلى الصراط المنصوب على متن جهنم، ورد في وصفه أنه أدق من الشعر وأحد من السيف(٣).

---

(١) المقامة نفسها، ص ٨٦.

(٢) رواه الترمذي عن أبي سعيد - رضي الله عنه- (٢٤٦٠)، كتاب صفة القيامة، باب (٢٦)، ٤/٦٣٩-٦٤٠.

(٣) الصراط : أصله الطريق الواسع وسمي بذلك لأنه يسترط السابلة أي يبتلعهم إذا سلكوه.
وشرعاً :جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون.انظر:شرح العقيدة الوسطية، د.محمد خليل هراس،ص١٢٦ ، مراجعة:عبدالرزاق عفيفي،المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط٣.



وفي مقامة ثانية أشار بأبيات من الشعر إلى رجل قد مات بعد أن مرض، ويحتاج إلى من يعينه؛ لتكفين هذا الميت فقال:

« وهَا هُو اليَوْمَ مُسْجىً فَمَنْ ** يَرغَبُ في تكْفين مَيْتٍ غَرِيب

ثُمَّ إِنَّه أَعْلَن بالنَّحِيب، وبَكَى بُكَاءَ المحِبّ عَلى الحبَيب ولمَّا رَقَأتْ دَمْعتُه، وانْفَثأت لَوْعتُه، .. فَطِفِقَ القومُ يأْتَمِرونَ فيمَا يَأْمُرون .. فَتوهَّم أَنَّهم يتَمالَأونَ عَلَى صَرْفِهِ بِحِرْمان ... فَفَرطَ مِنه أنْ قَال ... مَاهَذا الارْتِياء، الَّذِي يأبَاهُ الحيَاء، حتَّى كَأَنَّكُم كُلفتُم مشقَّةً لاشُقَّةً، أو استُوهِبْتُم بَلْدةً لابُرْدة، أو هَزَزتُم لِكسْوَةِ البيْتَ لاَ لتكْفِينِ الميِّتِ ...»[1]، فكان لابد أن يعينوه على تكفين هذا الميت، لأن النبي -ﷺ- قال: « **إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه**»[2].

فالمراد بالتحسين بياضه ونظافته وسبوغه وكثافته لاكونه ثميناً[3]، أما كون الكفن أبيض لقوله -ﷺ-: « **البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم**»[4].

كما نهى – عليه الصلاة والسلام – عن المغالات في الكفن؛ لأن على بن أبي طالب قال لعامر لاتغال لي في كفن، فإني سمعت رسول ا لله -ﷺ- يقول: «**لاتغالوا في الكفن فإنه يسلبه سلباً سريعاً**»[5].

---

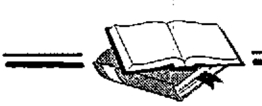
(١) المقامة (٢٠): الفارقية، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ١٥٢-١٥٣. رفأت دمعته: انقطعت، انفثأت لوعته: سكنت حرقته، الشقة: الثوب غير المخيط، انظر: اللسان، مادة: رفأ، فثأ، شقق.

(٢) رواه أبوداود (٣١٤٨) عن جابر بن عبدا لله – رضي الله عنه- كتاب الجنائز، باب في الكفن، ١٩٨/٣. ورواه النسائي في كتاب الجنائز، باب الأمر بتحسين الكفن، ٣٣/٤.

(٣) شرح الحافظ جلال الدين السيوطي على سنن النسائي: ٣٣/٤-٣٤.

(٤) رواه الترمذي (٩٩٤) عن ابن عباس – رضي الله عنه-، كتاب الجنائز، باب (١٨)، ٣٢٠/٣. ورواه النسائي بلفظ: «البسوا ... فإنها أطهر وأطيب»، عن أبي المهلب سمرة – رضي الله عنه-، كتاب الجنائز، باب أي الكفن خير، ٣٤/٤.

(٥) رواه أبوداود (٣١٥٤)، كتاب الجنائز، باب كراهية المغالات في الكفن، ١٩٩/٣.

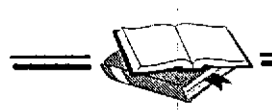


وفي مقامته الأخيرة نجد بطل الحريري يذكر حياته وكيف عاشها، ويرجو العون من أهل البصرة ليغيرها، ويستعد للحياة الآخرة فيقول مصوراً مافعله طوال أيامه بعد أن مدح أهل البصرة :

«أَنَا الَّذِي أَنْجَدَ وأَتْهَم، وأَيْمَنَ وأَشْأَمَ، وأَصْحَرَ وأبْحَر، وأَدْلَجَ، وأَسْحَر، نَشَأْتُ بِسَرُوج، وَرَبيتُ على السُّروج، ثم وَلجْتُ المَضَايق، وفَتَحْتُ المغَالق، وَشَهِدتُ المَعَارِك، وأَلَنْتُ العَرَائك واقْتَدْتُ الشَّوامِس وأَرْغَمْتُ المعَاطِس وأذَبْتُ الجوَامِد ... سَلُوا عنِّي المشَارِقَ والمغَارِب ... واستَوْضِحُوني منْ نَقَلة الأَخْبَار، ورُواة الأَسْمَار، وحُدَاةِ الرُّكْبَان، وحُذَّاقِ الكُهَّان لِتعلَمُوا كَمْ فَجٍّ سَلكْتُ، وحِجَابٍ هَتَكْتُ، ومَهْلكةٍ اقْتحمْتُ، ومَلحَمةٍ ألحَمْتُ، وكَم ألْبَابٍ خَدَعت، وَبِدعٍ ابْتَدعْتُ، وفُرَصٍ اخْتَلَسْتُ، ... وكَامِنٍ اسْتخْرجْتُه بالرُّقَى وحَجَرٍ شَحَذْتُه حَتَّى انْصَدع، واستَنْبطْتُ زُلَالَهُ بالخُدَع، ولكِنْ فَرط مافرطَ والغُصْنُ رَطِيب ... فَأَمَّا الآن وقَدْ استَشَنَّ الأَدِيم ... فليسَ إلاَّ النَّدَمُ إنْ نَفَع»[1].

فهذه حياة إنسان منذ ولد في سروج وتربى على سروج الخيول وسافر كثيراً، فلم يترك مكاناً إلا وقد وطأه قدمه، فذهب لنجد وتهامة واليمن والشام عبر الصحراء والبحار في دلجة الليل وسحر الصباح، ويعرف من العلوم الكثير فهو خبير في نقل الأخبار وراوٍ للسمار، وحاد للركبان، وحذق كالكهان؛ إلا أن ذلك كله وظفه للشر؛ فهو قد هتك الحجب وخدع ذوي الألباب، وابتدع البدع، واختلس الفرص بطرق غير شرعية منها : الرقى، والخدع ... هذه الحياة التي عاشها هذا الرجل بصورة مغايرة لما استخلفه الله لها، «فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال : صلى بنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً صلاة العصر بنهارٍ ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: **إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء** ... فكان فيما قال : **ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته**، ... **ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من**

(١) المقامة (٥٠): البصرية، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص٤١٧-٤١٨.



يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ... ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض، قال : وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء؟ فقال رسول الله -ﷺ-: **ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**»(١).

ولكن الندم على مافرط في جنب الله جعله يطلب منهم أن يدعوا له فقال: «ولَسْتُ أَبْغِي أعْطيتكُم، بَلْ اسْتدعِي أدْعيَتكُمْ ... فادْعُو الله تَعالى بِتَوْفِيقِي للمَتَابِ، والإعْدادِ لِلمآبِ، فإنّه رَفِيعُ الدّرَجَات مُجِيبُ الدّعَواتِ، وهُوَ الّذِي يَقبَلُ التّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ويَعْفو عَنِ السَّيئاتِ، ثم أنشد :

أسْتغْفرُ الله مِنّ ذُنُوبٍ ** أفْرطْتُ فِيهِنَّ واعْتديْتُ
كَمْ خُضْتُ بَحْر الضّلالِ جَهْلاً ** ورُحْتُ في الغيّ واغْتديْتُ
فَليْتَنِي كُنْتُ قَبْل هَذا ** نِسْياً ولَم أجْنِ ماجَنيْتُ
فالموْتُ للمُجْرمِينَ خَيرٌ ** مِنَ المسَاعِى الّتِى سَعيْتُ
يَاربِّ عفْوا فأَنْت أَهْلٌ ** للعَفْو عَنّي وإنْ عَصيْتُ»(٢)

واستجاب الله لدعائه، وأصبح أبوزيد المعروف، وقد لبس الصوف، ونبذ صحبة الأصحاب، وانتصب في المحراب، وألفى ممن سيماهم في وجوههم من أثر السجود، يجتهد في التقرب إلى الله بالأوراد، ويظل في قنوت وخشوع، وسجود وركوع، وإخبات وخضوع، ويقيم ليله متهجداً إلى الفجر، ويتوجه إلى الله تسبيحاً،

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٧)، كتاب الرضاع، باب(١٧): خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ٢/١٠٩٠، ورواه الترمذي(٢١٩١)، كتاب الفتن، باب (٢٦)، ٤/٤٨٣-٤٨٤. حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (٤٠٠٠)، كتاب الفتن، باب(١٩): فتنة النساء، ٢/١٣٢٤، بلفظه، وأحمد في مسنده، ٣/١٩/٦١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤١٩-٤٢٠.

طالباً الاستغفار بصوت نادم رقيق، مستعيناً بدموع تلاها بكاء ولابكاء يعقوب جاعلاً الموت نصب عينيه، كما نصح الحارث حين عزم على مفارقته فقال: «وقلتُ أَوْصِني أيهَا العَبْدُ النَّاصِح، فَقالَ: اجْعلِ المَوْتَ نُصْبَ عَيْنيكَ، وهذَا فِراقُ بيني وبَيْنك»[1]؛ لأن من يجعل الموت أمام ناظريه، يتذكر أن هذه الحياة الدنيا، ماوجد فيها إلا لتكون قنطرة يجتازها بالعمل الصالح إلى الحياة الآخرة التي هي مثواه الأخير، جنةً كانت أو ناراً، مروراً بضمة القبر والعرض الذي قال فيه :

«وَيْحَكِ يَانَفْسُ احرِصِي ** عَلَى ارْتِيَادِ المَخْلَصِ
.... ** ....
وأَنَّ مَثْوَاكِ غَدَا ** فِي قَعْرِ لَحْدٍ بَلْقَعِ
آهاً لَهُ بَيْتَ البِلَى ** والمَنْزِلَ القَفْرَ الخَلاَ
وَمَوْرِدَ السَّفْرِ الأُلَى ** واللاحِقِ المُتَّبِعِ
بَيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَه ** قَدْ ضَمَّهُ واسْتُودِعَه
بَعْدَ الفَضَاءِ والسَّعَة ** قِيدُ ثَلاَثِ أَذْرُعِ
.... ** ....
وبَعْدَه العَرْضُ الَّذي ** يَحْوِي الحَيِيّ والبَذِي»[2]

أما **الزمخشري** فغالباً مانراه في مقاماته يحث على ترك الحياة الدنيا وزينتها، ويلجأ إلى ذلك عن طريق المقابلة بينها وبين الحياة الآخرة، ومآل الإنسان – إذا ماانساق إلى الأولى وترك التفكير في الثانية – إلى الخسران، والعاقبة الوخيمة، كما نراه في مقامته المسماة «الزاد» يحث على التزود من الدنيا بالعمل الصالح استعداداً ليوم القيامة وإلا سيندم حين لاينفعه الندم فسيقول حينئذ : «فَياحَسْرَتا لَوْ أَنَّ ياحَسْرتَا

(١) المقامة نفسها، ص ٤٢٦-٤٢٧.
(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢٤ – ٤٢٥ .



تُغْني، وَيَاأَسفَا لَوْ أَنَّ يَاأَسفَا تُجْدِي»[١].

وقد أطلق في مقامته هذه عدة صفات للدنيا، فقال: إنها: غدارة، وغرارة، ختالة، وختارة، ثم قال : « قَضِّ فِيهَا أَسْرعَ مَاتَقْضِي أَهمَّ أَوْطَارِكَ. إنَّ أَهَمَّ أَوْطَارِكَ فِيهَا تَزَوُّدَكَ منها»[٢]. وبعد ذلك بين ان الإنسان في هذه الدنيا كالمسافر عليه أن يستعد قبل الرحيل، وإلا أصابه الجوع والظمأ، وكذا الإنسان الذي لايتزود بالصالح من الأعمال سيكون حاله كهذا الجائع، الظمآن، ولعله هنا تمثل قول الرسول -ﷺ-: «**ماأنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة**»[٣].

وسار على نفس الخطى في مقامة «الزهد» فنراه يحث على رفض الدنيا، وليزيد في الاقناع بين أن الله قد أبغضها ومقتها، ولما كان المسلم الحق حريص على أن ينال رضا الله سار على النهج نفسه ممثلاً في أنبيائه وأوليائه في البغض والمقت لها، وكذا كل مسلم .. ثم بدأ يدلل على طلبه لها بالرفض بأن الله لم تزن عنده جناح بعوضة، مشيراً إلى قوله -ﷺ-: « **والذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله -عز وجل-، من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ماسقى كافراً منها شربة**»[٤].

أما قوله -ﷺ-: «من هذه» يقصد شاة شائلة[٥] برجلها، حين مر - عليه السلام- فقال من معه: نعم، فقال الحديث السابق: «والذي نفسي ...».

ثم بدأ الزمخشري يزهد في الدنيا بأن أطلق عليها «الفانية» وأخذ يصفها وصفاً دقيقاً، ويبين كيفية الخلاص من مغرياتها والذي لايكون إلا لمعتصم بالله، فمن وصفه قوله :

---

(١) المقامة (٥)، شرح مقامات الزمخشري ، ص ٤٤، ت: يوسف بقاعي.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢، ت: يوسف بقاعي.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ١/٣٩١-٤٤١.

(٤) سبق تخريجه في ص ٢٨ .

(٥) الشائلة من الإبل: التي أتى عليها من حملها، أو وضعها سبعة اشهر فخف لبنها، أما قوله: شائلة برجلها: أي رافعة رجلها من الانتفاخ. انظر: اللسان، مادة : شأل.



((إنْ رَاقكَ رُوَاؤُها الجميل ، فَمَا وَراءَهُ مُشوَّهٌ ، مَاهِي إلَّا سُمٌّ دُعَافٌ بالعسَلِ مموَّه، مُنَغَّصة المسارِّ لم تخلُ مِن أذَى ، مَطْرُوقة المشَارِب لم تصْفُ مِنْ قَـذَى، مَعَ كُـلِّ استِقامةٍ فيهَا اعوِجَاج. وَفي كُلِّ دَعَةٍ من المَشَقَّةِ مِزَاج))[١].

وإن كنت تريد الحصول على طيباتها فـ:((شَهْدُها مشْفُوع بإبَرِ النَّحْل، رُطَبُهَـا مَصْحُوبٌ بسُلَّاء النَّخْلِ، أمَام الظَّفَرِ بِغَنِيمَتِهَا الاصْطِلاءُ بِنَارِ الحَرْبِ. قَبْل اعتِنَاقِ سَيبْها مُعَانَقَة ابناءِ الطَّعْنِ والضَّرْب))[٢].

وبعد ذلك بدأ يضع الفروض التي ربما تـرد إلى ذهنـك فقـال : ((هبْهَـا مروقَـةَ المشَارِب. مُصفقَة مِن الشَّوائِبِ . قَدْ صَفتْ لِصَاحِبِها كُلَّ لذّةٍ . وَأظَلَّتْهُ سـحابَةُ اللَّهْـو هَاطِلة مُرِذَّة))[٣].

وعلى فرض أنها هكـذا فيكفـي أن ((تَيقُّـنَ المسْرورِ بِزَوالِ مَـاهُو فِيـهِ مُنَغِّصـاً لِسرورِهَا. وَزَاجِراً للعَاقِل أنْ يَلْوِي عَلَى غُرورِهَا))[٤].

ويستمر الزمخشري في هـذه المقامـة مبينـاً أن الدنيـا لاتـزال بزخرفهـا تدعـو للانغماس، والانجراف تجاهها، واللبيب هو الذي لايلبي داعـي الشـهوة، بينمـا مدعـى الهوى يجيب، وانطلق بعد ذلك يمدح من اعتصم بحبل الله وسار على الصـراط القويـم فهذا رغم أنه رث اللباس، وغير مشتهر في الدنيا فإنه معروف في السماء، وكأنه تمثل لقول عبدا لله بن مسعود – رضي الله عنه-: ((كونوا جدد القلوب، خلقان الثيـاب، تخفـون في الأرض، تعرفون في السماء)). ويقول عنه :

((إذَا العيونُ اجتلتَهُ في بَذَاذَتـهِ ** تَعْلُو نَواظِرُهَـا عَنْه وَتَقْتَحِمُـه
مازالَ يَسْتحِقرُ الدُّنْـيَا بِهِمَّتِـهِ ** حَتَّى ترقتْ إلى الأُخْرى به هِمَمُه

(١) المقامة (٦)، شرح مقامات الزمخشري، ص ٤٥-٤٦، ت : يوسف بقاعي .
(٢) المقامة نفسها، ص ٤٦، ت: يوسف بقاعي، السلاء: شوك النخل، والواحدة سـلاءة، انظر: اللسان مادة: سلا
(٣) المقامة نفسها، ص ٤٧، ت: يوسف بقاعي، مرذة: التـى أتـت بـالرذاذ، وهـو الضعيـف مـن المطر، انظر: اللسان، مادة: رذ .
(٤) المقامة نفسها، ص ٤٨، ت: يوسف بقاعي .



فَذاكَ أعظَمُ مِنْ ذِي التَّاجِ مُتَكِئاً ** عَلَى النَّمارِق مُحْتَفاً بِهِ حَشَمُه))[١]

فوضح في هذه الأبيات أن عيون الناس تتجاوز مثل هذا الرجل لأنه؛ باذ الهيئة كأنهم لم يسمعوا حديث رسول الله -ﷺ-: ((**البذاذة من الإيمان**))[٢].

وفي حديث آخر : أنه دخل على رسول الله -ﷺ- رجل باذ الهيئة تعلو عنه العيون فضرب بيده على كتفه وقال : ((**هذا خير من الدنيا ومافيها**))[٣].

في مقامته (٢٦) أخذ يعدد نعم الله على عبده في هذه الدنيا فمنها: الأفلاك المسخرة، والكواكب المسيرة، والقمر ، والشمس، والسحاب والأرض المذللة لراكبها، ساكنة لتصلح للمشي في مناكبها، ممهدة، موطدة عليها الجبال الراسيات، وبحران أحدهما عذب والآخر أجاج، وحب ، ونوىً، وأخيراً أشار إلى قصة خلق الإنسان، فقال: ((ونُطْفَة هِي بَعدُ تِسْعةِ إنْسَان، لَهُ قَلْبٌ وبَصَرٌ ولِسَان، فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُ غَرائِبُ حِكَم يَعْجزُ اللسانُ الذَّلِيقُ أنْ يَحْصُرَها ويُحْصِيها، ويَعِزُّ عَلَى الفَهْمِ الدَّقِيقِ أَنْ يَبْلُغ كُنهَهَا ويَسْتَقْصِيها))[٤].

وماعدد كل هذه النعم إلا ليدلل على أن وراءها حكيم قدير، عليم خبير و((تَتصرفُ هذِه الأشْياءُ عَلى قَضَائِه ومَشِيئَتِه، ويتَمَشَّى أمْرهَا عَلَى حَسَبِ إمْضَائِه وتَمْشِيتِه. وَهِي مُنقَادَةٌ مُذْعِنَة لِتَقْدِيره وتَكْوِينهِ ... وَهذِهِ كُلّهَا مُحدثَاتٌ عَنْ عَدَم))[٥].

وبعد هذا عليك ألا تنساق وراء الشيطان،فيستهويك ويستغويك فأنت أيها الإنسان وجميع ماعندك عطاؤه أي الله تعالى.

---

(١) المقامة نفسها، ص ٤٩، ت: يوسف بقاعي.
البذاذة : ترك التكلف في الملبس والمطعم، تعلو : علت عنه العين : إذا نبت عنه، متكئاً : إشارة إلى قوله تعالى: ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾. (الطور ٢٠)، النمارق: الوسائد الصغيرة يتكأ عليها، انظر: اللسان، مادة: بذ، علا، مرق.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١١٨) في كتاب الزهد، باب (٤): من لايؤبه له، ١٣٧٩/٢ بلفظه.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٦٨/٦.

(٤) التوحيد، شرح مقامات الزمخشري، ص١٥٩-١٦٠، ت: يوسف بقاعي.

(٥) المقامة نفسها، ص ١٦٠، ت: يوسف بقاعي .



وسار الزمخشري في مقامة ثانية على نفس الخطى التي بدأها في المقامة السابقة ((التوحيد))، لكنه ركز فيها على نعمة من نعم الله على الإنسان في هذه الحياة الدنيا ألا وهي (خلقه) : منذ أن وضع في ((صُلْبٍ طَاهِرٍ، وتَرائِبِ أُمٍّ لم تكُنْ بِعاهِر، ثُمَّ حطَّكَ إلىَ رَحم نقيَّة، وأَجَنَّكَ فِيْ بَطنِ أُمٍّ تقيَّة. ثُمَّ أَطلعَكَ حَيواناً سَوِيَّ الأَطرافِ. وإنْساناً سَليمَ الجَوارِحِ والأَعْطاف))[1].

ثم بدأ يعدد نعم الله على الإنسان ليكتمل ويصبح سوياً فرزقه السمع، والبصر، والفؤاد، وقبل ذلك أنزله للدنيا الفسيحة بعد الضيق الذي كان في بطن أمه، وبين كيفية رعاية الأم لطفلها العاجز عن النهوض لصغر سنه، فتحتضنه وترعاه وترحمه، وتحرص على راحته ..

انتقل بعد ذلك للفترة التي تلي السابقة لخلق الإنسان، وهي تتمثل في قوله: ((جَعلَ أسْنانكَ في مغَارِزهَا مرَكّبة،وصيَّرهاَ علَى مَراتِب الحكْمَةِ مُرَتَّبة ودبَّر فِي فِيكَ للأصواتِ مَدارِج.وللحُروف المبْسُوطة مَخَارِج،وأطْلقَ لِسانكَ فتكلَّمْتَ،وعلَّمكَ طرُقَ البَيَان فتعلَّمْتَ . ولقَّنكَ الشَهادَتينِ وحفَظَّكَ مابيْنَ الدّفتَيْن، وهَداكَ النَّجْديْن))[2].

وأكمل لك بعض نعمه -عز وجل- عليك فبين الحق من الباطل لتسير في ركاب الأول وتبتعد عن الثاني، ((ثُمَّ خَوَّلكَ مِنْ جَزَالةِ الفَضْل مَاحلَّق علَى هَامِ أَمَانِيك. وَلَمْ تطْمح إليْه ظنُونُ عَشِيرتِكَ وأَدانِيك وَرفَع لَك فِي ذَلِك صِيْتاً صَيِّتاً. وحُسْن ذِكْر يَضْمنُ لكَ الحياةَ مَيّتاً))[3]، وأنعم عليك بالعيش الواسع والبال الفارغ، والمشرب الرافه، والمركب الفاره ...

بعدها علل الزمخشري سبب عطاء الله للإنسان كل تلك النعم في الدنيا فقال: ((إنَّما أَوْلاَكَ مَاأولاكَ لِتَنظُرَ فِي وُجُوهِ نَعْمائِه مُفكّراً. وتَتَوفَّر عَلى مَحَامِدِه مُتَشكّراً))[4].

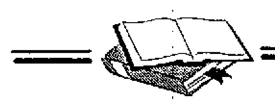
---

(١) المقامة (٣٤): الشكر، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٠١، ت: يوسف بقاعي .

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٠٣-٢٠٤، ت: يوسف بقاعي، الدفتين: المصحف، النجدين: الخير والشر، انظر: اللسان، مادة: دفف، نجد.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٤-٢٠٥، ت : يوسف بقاعي .

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٠٥، ت: يوسف بقاعي .



حقاً هل فكر في تلك النعم وشكر المنعم ؟

لا ... بل خلد إلى الشيطان ونزغاته، وأوغل في التصابي ونشواته، يسد مسامعه عن النصيحة، ويزداد في شروره، والله مطلع على ذلك كله ويستره له ولايفضحه أمام الناس بل يزيده من كرمه الواسع عليه. فعلى الإنسان أن يرى ربه في نعمه التي لاتحصر ولاتحصى مهما دقت: من صرخة الوضع إلى أنة النزع.. عمر طويل طويل، قصير قصير، نقطة المراجعة فيه هي الأربعين فهي من أواخر الإنذارات التي توصل إلى أنة النزع كما بين ذلك الزمخشري فقال: ((هَـذَا إِلَى أَنْ بلَغْتَ الأَرْبعينَ أَوْ نَيَّفْتَ عَلَيْهَا وهِي الثَّنِية التِّي عَلى الأَرِيْبِ العَاقِل إذَا شَارفَها أن يَرْعَوِي. وَعَلَى اللَّبِيب الفَاضِل إِذَا أَنَافَ عَلَيْها أن يَسْتوِي))[1].

ولعل للإنسان جواذب كثيرة قبل الأربعين يلهيه فيها الأمل والرجاء لكن بعد الأربعين إذا لم يغلب خيره شره فلارجاء فيه لأنها فرصة إمهال مابعدها فرصة، ومع هذا فالله ((شَاءَ أنْ يسُوق نَحْوكَ النّعمَةَ بِكَمالِها وتَمامِهاَ، وأَنْ يحدُوكَ ويَهْدِيهاَ إِلَيْك مِنْ خَلْفِها وَأَمامِها فَأَذاقكَ مِنْ بلاَئِهِ مَسَّةً خَفِّيفةً))[2]، فوقعت و لم تصمد أمام هذا البلاء الذي كان بمثابة زجرة لتستيقظ من رقاد غفلتك فكانت لك أنجع موعظة ((وَلمْ يكُن لكَ بدُ مِّن أنْ تعوذَ بِحقْوِي الإنابَة والاَرْعِواء ... فَأَفْرَغ عَلَيْك ذُنُوباً مِنْ رَحْمَتِهِ ... وَأَخذَ إلى المَرَاشِد بِيَدك ... وتَابَعَ عَلَيْك أَلطَافَهُ الزَّائِدة في إِيقَانِك ... فَبِشُكرِ أيَّةِ نِعمةٍ تنهضُ أيهُّا العبدُ العَاجز؟))[3].

حقاً إن الأمر يستحق الشكر، بل قدرة العبد على الشكر تستحق شكراً آخر أن مكنه الله من الشكر .

وقد بين الزمخشري في مقامة أخرى نوع البلاء ليقف الإنسان عند لحظة من لحظات ذلك البلاء عندما حرم من نعمة الصحة والحركة والرؤية قائلاً:

---

(١) المقامة نفسها مقامة (٣٤) الشكر، ص ٢٠٧، ت: يوسف بقاعى .

(٢) المقامة والصفحة نفسها .

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٨-٢٠٩.



« ... فرماك عزن قدرته بسهم من سهامه ليقفك، وعضك بمغمز من بلائه ليثقفك، ومسك بضر أن عرى عظامك وأنحفك، فأي دثار من صحة اليقين ألحفك، كذلك الدواء الإلهي النافع والشفاء السماوي الناجع فيما وسع كل شيء من رحمته. ولايعد ولايحصى من نعمته، لئن ظللت أيام الغابر من عمرك صائماً، وبت لياليه قائماً؛ لتشكر ماأطلق لك من هذه اليد البيضاء، وخولك من هذه النعمة الخضراء، لبقيت تحت قطرة من بحرها غريقاً في التيار. وتحت حصاة من طودها مرضوض الفقار»[١].

وقد أشار – عليه السلام – إلى ذلك كله فقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي –رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– بصق يوماً في كفه فوضع عليها اصبعه ثم قال : «**قال الله تعالى : ياابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك. فمشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي، قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة؟**»[٢].

وانتقل الزمخشري في مقامة أخرى ليبين حال الإنسان في الدنيا لو اصابه ألم ما، وكيفية تصرفه إزاء ماحوله من جراء انشغاله، فلايعود يفكر في خطب مهم، ولايرفع رأساً لحبيب ملم، أو يلقي سمعاً إلى ماتتهاوى إليه الأسماع، وتتقاذف نحوه القلوب والطباع، يتساوى في هذا الانشغال الناس جميعاً حتى لو كان ممن يعطف الأعنة باصبع، ويتبسط في مهاب الرياح الأربع؛ لشغله التألم عن كبرياء السلطان، ولقد بين نوع الألم هنا فقال : « احرز نفسك إن تعلقت ببعض أطرافها جمرة. أو أصابته من الماء المغلي قطرة ... كلتاهما هنة يسيرة ومدة إيلامها ساعة قصيرة»[٣].

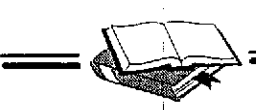
هذه الجمرة في الدنيا لاتساوي مثقال ذرة من نار الله التي عذابها سرمد في الحياة الآخرة بعد الممات، فلو تبصر المؤمن واحتكم إلى تلك اللحظة التي أصابته فيها

---

(١) المقامة (١٣): المنذرة، ص ٨٠–٨١، ت: يوسف بقاعي.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ٣/٦٠٦، وئيد: صوت شدة الوطء على الأرض، التراقي : عظام بين ثغر النحر والعاتق ، انظر : اللسان، مادة : وأد، رقى.

(٣) المقامة (٨): الحذر شرح مقامات الزمخشري، ص ٥٦–٥٨، ت: يوسف بقاعي، الهن والهنة كنايتان عن المذكر والمؤنث من الأجناس، انظر: اللسان، مادة: هنن.



الجمرة أو القطرة، وجعل النار ممثلة قدام ناظريه كأنه يشاهد عينها، وكأنه لابرزخ بينه وبينها أما النتيجة التي ستصل إليها، والتي أراد الزمخشري أن تصلنا هي : ((لاتلتفتْ إلى الدنيا التفاتة راغب، ولاترتاحْ لأجل ماتعطيك من عجالة الراكب، ولاتفطن لكراتها ودولها أساءت أم سرت. ولا لأيامها ولياليها أعقت أم برت))[1].

ولماذا طلب عدم الالتفات إلى الدنيا؟ لأنها كما قال -ﷺ-: ((**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**))[2].

أي أن كل مؤمن مسجون، ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة، والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ماأعد الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ماحصل في الدنيا مع قلته، وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد. قاله النووي[3].

واستمر الزمخشري في مقاماته على التنفير من الدنيا، وعدم التشبث بها، وهذا ماحداه في المقامة التاسعة: أن يذكر الإنسان بما يحدث له بعد مماته فقال : ((ياأباالقاسم قد رأيت العصرين : (الليل والنهار) كيف يقرضان الأعمار. ويهدمان العمارة والعمار ويُسكنان الديار غير بناتها. ويورثان الأشجار جناة بعد جناتها. ويُملكان صاحبة الغيران غيره. بعد ماكان يتهالك عليها غيره. ويقسمان مادوخ في اكتسابه القرى والمدائن. وأقفل عليه المخابيء والمخازن))[4].

---

(١) المقامة نفسها، ص ٥٩-٦٠.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٩٥٦) عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، كتاب الزهد والرقائق، ٢٢٧٢/٤، وأحمد في مسنده، ٣٢٣/٢، ٣٨٩، ٤٨٥. والترمذي برقم (٢٣٢٤)، كتاب الزهد، باب (١٦): ماجاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ٥٦٢/٤. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢٨٩/١٠.

(٣) انظر: ذم الدنياللحافظ بن أبي الدنيا، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص١٤.

(٤) المقامة، الاعتبار، شرح مقامات الزمخشري، ص ٦٠-٦١. ت: يوسف بقاعي .



ولما كان هذا هو مآل الإنسان في خاتمة حياته فلماذا يتكالب على الدنيا وينغمس في ملاهيها؟ لذا نجده قد حض قائلاً : ((فرُوَيْدَك بعضَ هَذَا الحِرْص الشَّدِيد على تَشْيِيد البِنَاءِ الجدَيد ... وإيَّاكَ والكَلَف بِبيْضَات الخُدُوَر وَقَسماتِهِن المشَبَّهة بالبُدورِ. وأنْ تُعَلِّقَ همَّتَكَ بأعلاقِ الأمْوال... واستَنْظِرْ نَفْسَكَ إنْ تقاضَتْكَ إيثَار الملاهي. واستَمْهلها إنَّ طَالبَتْكَ بارتكابِ المنَاهِي، إلى أنْ يتفضَّل عليكَ ذُو الطَّولِ والمنَّة بالوصولِ إلى دَارِ الجنَّة))[1] فقد حذر أكثر ماحذر في الدنيا من النساء، وجمع الأموال، فالزمخشري حذر مما حذر عليه الصلاة والسلام، روى أبوسعيد قائلاً: صلى بنا رسول الله -ﷺ- العصر، ثم قام فخطبنا فقال في خطبته : ((**ألا إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء**))[2].

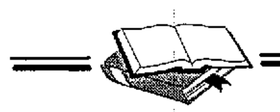
أما **ابن الجوزي** لايذكر الحياة الدنيا إلا محذراً منها، وذاماً لها فها هو ذا في المقامة (٢٦) يذمها ويمدحها، فأما الذم فجاء على لسان أحد المسافرين الذين أرهقهم السفر، ولم يجدوا إلا أبا التقويم ينقذهم بعد الله مما هم فيه فقال :

((بئسَ نصيبُ منْ قنعَ من النصيبِ بهذِهِ الدَّار. أولَيْسَ النَّصَبُ قَدْ انْتَصَبَ حَوْلَها وَدَارَ. إنَّها لَظِلَال سُرورٍ مدتْ عَلَى ظِلَال غُرور. تمامُها نَاقِصٌ. وَدَوامُها وَاقِصٌ، وَسماؤُها وَامِضٌ، وَبَلاؤها غَامِضٌ، كَمْ قَدْ درستْ حسناً. وَأَخْرَستْ لسناً، وَنَكَّسَتْ ذَقِناً، وَبلّدَتْ لقناً. كَمْ عَقَدَتْ عُقَداً وأحلتْ حَلَّها، وكَمْ نَقَدَتْ نَقْداً فَاستَلَبَتْ مِنْ حَلِها. كَادَتْ تَغْنى ثُمّ كَادَتْ، وَعَادَتْ تُصْبى ثُمّ عَادَتْ، وَتظهرُ المحبةَ وقدْ عادَتْ. إنْ أضحكتْ في أفراحِهَا شَهْراً. أبكَتْ في أتراحِها دَهْراً. تُعْطِي تَفَارِيقَ وَتَستَرْجِعُ جُملَا. وترضعُ أَفَاوِيقَ وَتقطعُ عجلاً. يُوَاتِي خَيْرُها إنْ وَاتَى لُمعاً. ثُمَّ يأْتي شَرُّها ضُحَىً أو بياتاً دفعاً. عُيونُها بَابلية، كَمْ تفتحُ بَابَ بليةٍ ولاَحيلةً كَحيلةٍ مِنْ عينٍ كحيلةٍ.

خطبتَ يَاخَاطِبَ الدُّنْيا مُشَمّرةً ** في ذبحِ أَزْوَاجِها الصّيد الغَرَانيقِ

(١) المقامة نفسها، ص ٦١-٦٣.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٩ .



كَمْ مِنْ ذَبيحٍ لَهَا مِنْ تَحتِ ليلةٍ أن ** زُفت إليهِ بمعزافٍ وَتَصْفيــــقِ

كَمْ أفردتْ. مَنْ أرفدتْ. كَمْ أخمدَتْ مَنْ أخدمتْ . كَمْ أفقرتْ مَنْ أرفقـتْ. كَمْ فارقتْ مَنْ رافقتْ. كَمْ ساعٍ إليها سَعْيَ الرخ ردتـه معكوساً رَدّ الفَرازِيـن أفٍّ لعاشقها مَعَ شدّة مَرَاشِقِهَا. إنّها لأقبحُ من مَزْبلة قمّام. وأعذرُ مِنْ تَاءِ تمتام:

ميّزتَ بينَ جمالِهَا وَفعالِهَـــا ** فإذَا الملاحةُ بالقباحةِ لَاتفِـي

حلفتْ لَنا ألاّ تَخونَ عُهودَنا ** فَكأنَّها حلفتْ لَنَا ألاّ تَفِي»[1]

لكن أبا التقويم اعترض على ذمهم للدنيا وقال إنما الـذم للذاتهـا فمـا هـي إلا: «مِهادٌ موضوعٌ، وسَقْفٌ مرفوعٌ، وشَمْسٌ وقمرٌ وَزُروعٌ، وثمرٌ وَمِيَاهٌ تجـري وَرَكَـائِب تَسْرِي، وَمَطَاعِم تحفظُ الأبدانَ وَمَعَادِن لحاجاتِ السّكّان. زَادٌ يبلّغ في أسْفارِ الأعمارِ. وقِرًى للضيفِ إلى أَنْ يَصِلَ إلى دارِ الْقرَار. وَطهَـرةٌ ترحـض بالرياضـةِ العيـب، ودليـلٌ يَدُلّ حَاضِرُه عَلَى الغيبِ. حُكّتْ فِيهَا جَوَاهِرَ الْفضلاء فبـانتْ، وظهـرت بهـا فضـائِلُ العلمَاء فزانتْ. ليلُهَا يصلحُ لمناجاةِ القوم. وَنهارُها لِلتعبّدِ وَالصَّومِ، والعلم مبثوثٌ يَدُلّ المهتَدين وَيُوَاصِلُ الحاجاتِ لإيثارِ المسَاكِين ... وَمحمد -ﷺ- يَشُدّ الحجرَ مِنْ الجـوعِ وأصحابُه يهجرونَ بالليل الهجُـوع ... وَكَـمْ فيهـم مِـن صَـائمٍ قَـدْ أضنَـاهُ الصَّـومُ ... تَعْرِض عليهِ الدنيا حَلَالاً فيخافُ عَلَى عزمِهِ انحلالاً، فيقولُ لِداعي الهوى : لا. لا. أَفِي هَذَا شيء يوجبُ الذَّم ... وَإنَّما المذمومُ مِنْ الدّنْيا فِعلُ الجاهلِ، والذنـبُ في الشـرقِ لَا للماءِ بلْ للنّاهلِ. يجمعُ إبلَ الأَمْوَال مِنْهَا وَيلزمها وَيتركُهَا لِغيرِهِ هَنيئاً وَقَدْ التزمَهَا، فإذَا نُودِي بالرحيلِ ذمَّ المُنَاخَ وَقَدْ كَانَ يمكنهُ التأهُبُّ مُنْذُ أَنَاخ، وَقَدْ ضُربَت لَهُ الأمْثَـال... فهلْ غرتِ الدّنْيا سَاكِنَهَا، وَقَدْ خرّبَـتْ مَسَـاكِنَها، وَلَقَـدْ وَعظَـتْ قَاطِنَهَـا. إذْ فَرّغَـتْ مَعَاطِنَها. فَأيّ لوم لِمن خَوّف وَحَذّر، تَا لله لَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَر».[2]

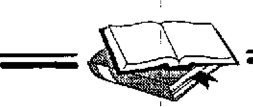
وها هو ذا في مقامة أخرى يقـول علـى لسـان أبـي التقويـم : «بَادِرْ بالعافيـةِ الْعَافية، وَاغْتَنمْ في العيشَةِ الصَّافِية، الْعَطيّة الضَّافِية، فستسفى عَلَى قبرِكَ سَافِية، وَتُنْصَبُ موازينُكَ نَاقِصةً أَوْ وَافِية **﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَاتَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾**[3].

---

(١) في ذم الدنيا ومدحها، ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) المقامة نفسها ، ص ٢١٤-٢١٧.

(٣) سورة الحاقة ، آية ١٨.



فقالَ السائِلُ : قَدْ تملكني عِشْقُ الدّنْيَا فأذلّني ، فقالَ :

وَكُنّا نعشقُ الدّنْيا قديماً ** وَلكنْ لاَسَبيلَ إلى الوِصَالِ

ويحكَ تعزَّ عَنْ الدنَا تَعزّ، أَنتَ تحزنُ إِذَا فقدْتَهَا وَمَايساوِي الميتُ البكاء، إِذَا بقي لكَ مِنْ الدّنيا مَايفُوت، فلاَتيأسْ عَلَى مَايفُوت ... ويحكَ إنّه مَنْ طَلّق الدنيا بصدقِ عزمٍ كرهتِ الآخرةُ أَنْ يبيتَ عَزَباً فعجّلتْ الخِطبة، فقالَ: كم أُطلّقها وأُطْلِقُها وتعودُ إِلى البيتِ؟ قالَ: علمتُ منكَ السِّر يحيّة فوكّلْ العزمَ وقد بِتَّ أَنْتَ مَشْغُولاً عَنْ عالَم القلبِ بعالم النَّفْسِ، وعنْ مطلوباتِ الرّوح بشهواتِ الحِسِّ. إِنّمَا همّتكَ بيتٌ قدْ شِيد، أو بيتٌ مِنْ نشيد تعجب بِبَرْدَه، وتحجب برده، وتستوطيء موطيءَ الكَسَلِ، وإبرُ النّحلِ دُونَ الْعَسَلِ»[١].

وابن الجوزي يقرن الدنيا بالآخرة، ويذكر أن الأولى هي الفانية، وأنها موضع العمل، وأنها جواز المرور للآخرة، وأنها محفوفة بالشهوات والميل للهوى، فيقول : «مَنْ عرفَ تصرُّفَ الأيامِ، لمْ يغفلْ عَنْ الاستعدادِ للحمام، إِنَّ قُربَ المنية ليضحك مِنْ بُعْدِ الأُمنيةِ، مَاجَرَى عبدٌ في عنانِ أَمَلِهِ، إلاّ عَثَرَ بِأَجَلِهِ»[٢].

وأشار إلى أن الصبر هو عدته ليكبح نفسه ضد هواه، فقال : «الْهَوى والصَّبر ضَرّتان، فاختِرْ أَحْسَن الضَرَّتين، فمَايمكنُ الجمعُ، وَمَنْ دَامَ بهِ الخُمَار في ديارِ الْهَوى، لَمْ تَصْحُ عينُه إلاَّ في منازلِ البِلَى ... يَامُقيماً علَى الهوى وَلَيسَ بمقيم، يَامُبذراً في بضاعةِ الْعُمْرِ مَتَى يُؤْنَسُ مِنكَ رشدٌ، يَاأكمه البصيرةِ... يَاطويلَ الرُّقَادِ، وَلاَنَومَ أَهْلِ الْكَهْف...»[٣].

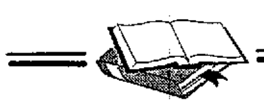
فهذه حال إنسان جرفته الدنيا، ونسي الآخرة، ومثله من عاش عيشة بعيدة عن الله، ثم أدرك نفسه وبدأ يبحث عن الطريق السوي؛ لتعود حياته أدراجها إلى الحق إلا أن توبته غير نصوح، فيعود سيرته الأولى فها هو ذا يقول: «مكروبٌ تضايقتْ حَالُه، ومحزونٌ تقطعتْ حِبَالُه، سيَّرتَ في تضييعِ البَطَالةِ عُمْرِي، وَقَدْ تحيرتَ

---

(١) المقامة (٢١): في ذم البخل، مقامات ابن الجوزي، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، مقامات ابن الجوزي، ص ٩٣.

(٣) المقامة والصفحة نفسها .



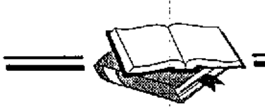
في جميعِ أَمْرِي، لَا أَنا مِنْ الصَّادِقِين في طلبِ الأُخْرَى، وفقدُ القلبِ مصيبةٌ أُخرى، مَـرّ في إبدالِ سُعودي بالشّرْزَمي، وَأَمرُّ مِنْهُ قُعودي عَنْ الخـيرِ وزَمـنِي، كلمّـا بنيـتُ قـاعدةَ توبةٍ هُدمَتْ، وَكلمَّا وَجدْتُ عزيمَةَ أوبةٍ عُدِمَتْ))(١).

إلا أن أباالتقويم بين له أن الطريق التي سلكها في تقويم حياته الدنيوية لم تكـن قائمة على أساس متين، فقال له: ((لو صحَّ منكَ الهوىَ أرشدت للحيلِ، ثُمّ أَنْتَ ترفعُ البناءَ بلَا أساس، وتملأُ الإناءَ ثُمَّ تُبدِّد الْكَاس))(٢).

لكن الإنسان إن عرف علته، سهل عليه الوصول إلى العلاج، وتعلم نبذ حـب الدنيا،و((قال الحسن:لو لم تكن لنا ذنوب إلا حب الدنيا خشـينا أن يعذبنـا ا لله،وقـال رجل لإخوانه:تعالوا حتى نستغفر ا لله من شيء لايستغفر الناس منه، حب الدنيـا))(٣). لذا عرف الراوي من أبي التقويم كيفية العلاج؛ وهو نبذ الدنيا وحب الآخرة والعمـل بكل مايوصل إليها فقال: ((فَإِنَّ هَذِهِ السَّاعة التي أبصرْت فيها أمْري، هي التي أحسِبُها مِنْ عُمري))(٤).

وها هو ذا يحذر في مقامة ثانية من جعل حياته للهو فيقول: ((اعْلَمُـوا أنَّ حيـاةَ الْفَاجرِ فضيحةُ الدهرِ، لأنَّ الدّنُيا همتُه، واللّـذة نهمتـُه، يبيعُ الآجـل الأجـلّ بالعـاجلِ الأَقلّ. يلبسُ ثيابَ الحرِّ علَى جسدِ عَبْدٍ، قَدْ أنضاهُ الحرص وأضْنَاه الطّلَـب ... يُسَافِرُ إِذَا عَامَلَ إلى بلاد الغِشّ ولاينزل إلاَّ خَانَ مَـنْ خَـان ... تجـودُ بـالعمرِ في اللّهـو جُـودَ حَاتم، وتبخلُ بفعلِ الطّاعة بخلَ الحاجِب، وَتمشي بالكِبْرِ أزهَى مِن طَـاووس، وتلـجّ في غرضِكَ لجاجَ الخنفساء، ... وتعِدُ بالتوبةِ وَعْدَ عرقوب، والزمـانُ يـأْكُل عمـركَ أكـلَ السُّوس، وَكَأَنَّكَ بالموتِ أَسْرع مِن طرفٍ يستلبُكَ وأنْتَ أخيبُ من القابضِ عَلَى الماءِ، فيحُلّكَ قبراً أوحش مِـن بومـةٍ تُلقـى فيـه، أذلّ مِـن نَعْلٍ، فتنـدم عَلَـى التفريـطِ ندامَـةَ الكُسَعِي ثُمّ ترجع يومَ حَشْرِكَ بِخُفَي حُنَين))(٥)، فهذا حالُ إنسان عاش حياته الدنيويـة

(١) المقامة (١٥): في الخائفين، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٠.
(٢) المقامة والصفحة نفسها .
(٣) ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا، ص ١٣٢.
(٤) المقامة نفسها، ص ١٢٦.
(٥) المقامة (١٧): في المواعظ، مقامات ابن الجوزي، ص ١٣٦-١٣٧.



بتلك الصورة، فحياته في الآخرة لن تكون إلا كمن رجع بخفي حنين، وقد قال - ﷺ-: ((**من كانت الدنيا همه جعل الله فقره في قلبه، وشتت عليه أمره، ولم يأته فيها إلا ماكتب له، ومن كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة**))(1).

ولما كانت ((الحياة: معنى يفيد الحيوان والحس والتحرك، وتستعار الحياة في مواضع تدل عليها القرينة، وذكر أهل التفسير أن الحياة في القرآن على خمسة أوجه:

الخامس منها : حياة الأرض بالنبات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ**﴾(2)))(3).

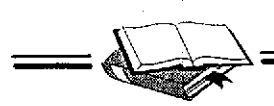
فقد أشار ابن الجوزي إلى هذا الوجه في إحدى مقاماته حينَ أشاد به بطل مقاماته لجمع كان يجلس في بستان يستمتع بمنظر الرياض الغناء، ويتكيء على خمائل الخضرة، يسمعون فيه من الأصوات مارق وراق: من قمري وهدهدٍ وشقراقٍ، فقال أبوالتقويم لهم : ((أَرَاكم قَدْ افترشتم بِسَاطَ الرَّاحَةِ في هـذِهِ السَّاحة ... ومانقّبتم عَنْ المبتدأ وَالمنتهى ... تَفكّرُوا في الأَرْضِ إذَا تأيّمتْ مِنْ زوجِ القِطر، وَوَجدتْ لفقدانِ إنفاقِهِ مسّ الجدْبِ، كيفَ تُحدّ في ثيابٍ تَرَى الأرضَ خَاشعةً ... مدّتْ أكفَّ الطلبِ تستعطي زكاةَ السّحابِ، فهبتْ الجنوبُ مِنْ جناب اللّطف، فسحبتْ ذَيلَ النَّسيم عَلَى صَحَاصِح الصَّحَارى، فتحركت جوامِدُ الجلامِد، وأنتبه وسْنَانُ العيدَانِ لقبولِ تلقيح اللّواقح، فلبسَ الجوّ مِطرفَهُ الأدْكَن، وَأرْسَلَ خَيّالة القطر شَاهِرة أسيافَ البرقِ، فينذرُ بالقادمِ صَوْتَ الرّعدِ، ويقومُ فَرَاش الهواء فيرشّ جَيْش النَّسِيم، فيستعيرُ والسَّحابُ جفون العُشَّاق وأكفّ الأَجْوَاد فتتملّى الأوديةُ أنهاراً، كُلَمّا مسّتها أكفُّ النَسمَةِ حَكَى سِلسَالَهَا سَلاسَل الفضّة ... ثُمّ لايزالُ السَّحابُ يَسقى ذَرَّ البَذرِ ... هَلْ لاَحَظَ

---

(1) رواه ابن ماجه (٤١٠٥) عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه-، كتاب الزهد، باب (٢): الهم بالدنيا، ١٣٧٥/٢،بنحوه .ورواه الترمذي(٢٤٦٥) عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٣٠)، ٦٤٢/٤. وقال حديث حسن.

(2) سورة فاطر، آية ٩ .

(3) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، ت: محمد عبدالكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٢٥٣-٢٥٤.



فِكركُمْ هَذِهِ النِّعم ... هَلْ علّقتم قلوبَكم بحُبِ الصّانع ... وَيَحَكُمْ إذَا رأيتُمْ ميِّت الزرع قَدْ عَاشَ بالقطرِ، فابكُوا عَلَى قلوبِكُمْ الميتة، لما وَجَدَ الغيثُ الزرعَ قَابِلاً للحياةِ أَعَاشَهُ زَمَانا، ومَاوَجدتْ المواعظُ قلوبَكُمْ قَابِلةً للنّصحِ، فِلَهَذَا تَأَخَرَ البعثُ، لَوْ تدبّرتم الغصنَ اليابس كَيْفَ عاشَ؟ لحارَ الذّهن لذلكَ وَطَاش، غيرَ أَنَّكُمْ ... ترونَ الثَّمرَ وسيماً، مليحَ الصّورةِ والسِّيما، وتنسون أنه يصير هَشِيمًا، فلو تلمحتمُ العواقبَ تلمَّح مُراقِبْ ... فاعْبرُوا في مَعبرِ الاعتبارِ فلستم بسُكان، وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهي الحيوان»[١].

ومع أن ابن الجوزي ذكر الوجه الخامس للحياة؛ وهو حياة الأرض بالنبات، فإنه جعل من تلك الحياة مثالاً لحياة الإنسان على وجه تلك الأرض، فقد جعل على سطحها ليزرع أعمالاً صالحة ثم يحصد مازرعه، حين ينتقل للحياة الأخرى؛ لأنها حياةمابعدها حياة، ودار استقرار إما إلى جنة وإما إلى نار.

وأشار ابن الجوزي إلى الوجه الأول من الحياة وهو «نفخ الروح» في المقامة الثالثة والأربعين فقال: « أما بدايتُكَ فَنطفةٌ مَذِرَة»[٢] ثم ذكر أن كل الموجودات في الحياة سخرت للإنسان فقال على لسان النفس : «كُلّ مخلوقٍ في الدّنيا وَموجُود، لأجلي سَمتِ السَّماءِ، وَمِن جراي جَرى الماء، ولتمهيدِ مَوْضِعي وضعتْ الأرضُ، وَلِغَرَضِي مُدّ طُولها وَالْعَرض، و... لمقَاصِدي خُلقتِ النِّيران، وَلمنَافِعي أَشْرَقَ النيّران، ولمصَالحي دَارَ الْفَلَك، ولمَّا عَانَدني إبليسُ هَلَك...»[٣].

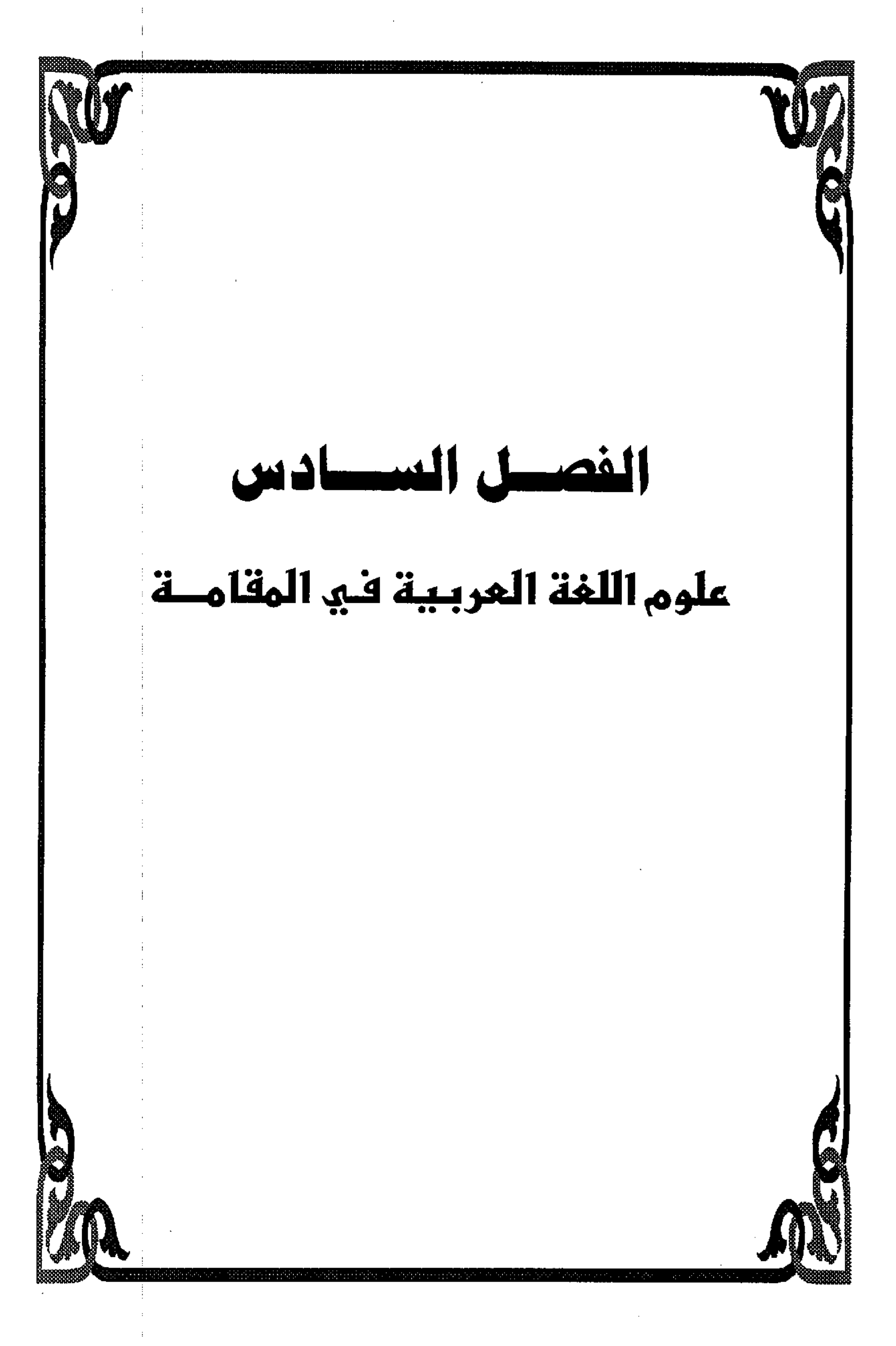
وبهذا نخلص أن المقاميين ذكروا الحياة بوجوهها الخمسة التي ذكرت في القرآن، من نفخ الروح بالخلق الأول، ومن إحياء الموتى بعد خروج الأرواح، وبمعنى الهدى وبمعنى البقاء، وأخيراً حياة الأرض بالنبات، واعظين بذلك الإنسان؛ ليجعل من الحياة دار قنطرة إلى الدر الآخرة بعد الموت الذي أوضح صوره كتاب المقامات من بداية وضع الإنسان في القبر وضمه إياه، ثم مروره على الصراط، وأخيراً قراره في دار نعيم أو عذاب يمثلهما : الجنة و النار. وأيضاً كان الوعظ هو منطلقهم لتوضيح ذلك لأنه لاواعظ كالموت .

---

(١) انظر: المقامة (٢٣): في الربيع، مقامات ابن الجوزي، ص ١٩١-١٩٤.

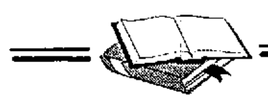
(٢) في مخاطبة العقل للنفس، ص ٣٤٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٤٩-٣٥٠.



الفصــــل الســـــادس

علوم اللغة العربية في المقامـــة



إن للغة العربية أهميتها منذ أن جعلها ا لله لسان العرب الذي تتحدث به فيما بينها؛ وذلك لأن ا لله قد هيأها لتكون اللغة التي نزل بها آخر الكتب السماوية، ألا وهو كتاب ا لله الكريم ذلكم القرآن العظيم، فخلدت بخلوده، وأصبحت الناطق الرسمي لكل من أراد أن يتلو القرآن، حتى لمن لايستطيع التحدث بها، فحفظت -هذه اللغة العربية_ من الضياع، بل ازدادت انتشاراً بين العالم أجمع؛ بانتشار الإسلام منذ ظهوره إلى يومنا هذا .

وقد قيل عن اللغة العربية: الإنسان يمتاز، وإنما العلم بالتعلم، والتعلم باللغة، واللغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول، وأدعى إلى التأثير، وفي صورتها وأجراس كلمها بعذوبة النطق، وسهولة اللفظ والإلقاء، والخفة على السمع. وإن للغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح، والجواد القارح، يعرف ذلك من أخذها بحق، وجرى فيها على عرق، فكان من مفرداتها على علم، وضرب في أساليبها بسهم، وحملت إلى الأمم التي كان للغاتها في العلوم قدم، ولم يحملوهم عليها بالإلزام، ولا بالتعليم العام وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغات أخرى في زمن قريب لم يعرف في التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم، وتعميمها بالتعليم العام، وضروب الترغيب والترهيب، كانت لغة أميين وثنيين جاهليين، فظهر فيها أكمل الأديان، فكانت له أكمل مظهر، وتجلى لها العلم فكانت له خير مجلس، وصارت بذلك لغة الدين والشريعة، وعلوم العقل والطبيعة[(١)].

ولأن جل كتاب المقامة – إن لم يكن كلهم – على معرفة تامة بأهمية هذه اللغة – اللغة العربية –، وعلى دراية بعلومها، وفنونها؛ انطلقوا ليعبروا بها، ناقدين مرة، وواعظين مرات، مستخدمين في ذلك الشعر، والنثر، ومتعمقين في مصطلحات لايعرفها إلا علماء النحو والصرف، والقافية، والعروض، ومن له باع في علوم البلاغة: من بيان ومعانٍ وبديع، وعلى هذا فسأقسم حديثي عن المقامات كالتالي :

---

(١) انظر: أسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقاهر الجرجاني، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، ص و – ز، طبعة دار المعرفة بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .



النحو:

ولنبدأ بعلم النحو ، والذي قعد وقنن بالقرآن، يقول في ذلك د.أحمد مكي الأنصاري: ((القرآن الكريم هو الحجة البالغة، وهو أوثق مصدر في الوجود، ولهذا كان لزاماً على النحويين واللغويين، وعلى العالم أجمع، أن يعدلوا قواعدهم، وينسقوها مع منهج القرآن الكريم ... ويجب أن يكون القرآن هو المصدر الأول في كل تقعيد أو تقنن ... سواء أكانت هذه القوانين علمية، أم دينية، أم اجتماعية بوجه عام، فالقرآن دستورنا الخالد، وهو صالح لكل زمان ومكان ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾[(١)]))[(٢)].

وها هو ذا **الحريري** في مقامته القطيعية يورد مسائل في النحو، جاء فيها أن الحارث بن هشام كان يجلس مع جماعة يتسامرون، ودخل عليهم أبوزيد فأنشد أحدهم:

((فَإنْ وَصْلاً ألذ بهِ فَوَصْلٌ ** وإنْ صَرْماً فَصَرْمٌ كَالطلاقِ))[(٣)]

وتتساءل الجماعة : لم نصب الوصل الأول، ورفع الثاني؟

فأقسم بتربة أبويه أنه نطق بما اختاره سيبويه، ويختلفون، ويجيب أبوزيد: ((إنه ليجوز رفع الوصلين ونصبهما، والمغايرة في الإعراب بينهما، وذلك بسبب اختلاف الإضمار، وتقدير المحذوف في هذا المضمار))[(٤)]، وجوز سيبويه الأوجه الأربعة، واختار نصب الأول ورفع الثاني على تقدير ((إن كان عمله خيراً فجزاؤه خير)). فتنصب الأولى على أنها خبر كان، وترفع الثانية على أنها خبر مبتدأ محذوف))[(٥)].

ويلقي أبوزيد أسئلة على الجماعة، وتبلغ هذه الأسئلة اثنى عشر سؤالاً تدور كلها حول مسائل نحوية، وجاء من هذه الأسئلة: ((فَمَا كلمةٌ هِي إنْ شِئْتُمُ حَرْف

---

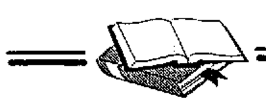
(١) سورة الأنعام، آية ٣٨.

(٢) نظرية النحو القرآني، ص ١٠ ، مطابع أبوالفتوح، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط١، ١٤٠٥هـ

(٣) المقامة (٢٤)، مقامات الحريري، ص ١٨١.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٨١-١٨٢.

(٥) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٥.



محبوب، أو اسم لما فيه حرف حلوب؟))[١].

وجوابها الذي ورد بعد انتهاء المقامة: لفظة نعم، فقد تأتي حرف جواب وقد تأتي اسما، والنعم تطلق على الإبل ومنها الحرف وهي الناقة الضامرة[٢].

والسؤال الثاني : ((أي اسمٍ يتردد بين فردٍ حازم وجمع ملازم؟))[٣].

وجوابه : سراويل، قال بعضهم: هو واحد وجمعه سراويلات، وقال آخرون: هو جمع واحده سروال[٤].

وأما السؤال الثالث: ((أية هاءٍ إذا التحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل؟))[٥].

وجوابه : الهاء اللاحقة بالجمع في مثل : صيارفة وصياقلة، فينصرف عند التحاق الهاء به لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية[٦].

وهكذا يستمر في الأسئلة التي يكشف في النهاية عن معمياتها بعد أن ينال العطايا، يقول د.يوسف نور:((هذه إحدى طرق التعليم، والتي رأينا فيها الحريري يسير في بلاغته على نهج المحدثين الذي آثروا الصنعة واستخدام البديع، ولكنه ذو طابع خاص في إحكامه لصنعته، وكفى أن مقاماته فد أخملت ماعداها من أساليب البيان، واعتبرت نموذجاً عالياً في هذا الباب يدلنا عليه كثرة الشراح، والدارسين لمتونها))[٧].

أما **الزمخشري** فنراه في مقامته (٣٩) يوصي بالعودة إلى منابع الإسلام الصافية والتي تتركز في كتاب الله الذي راعى الطبيعة البشرية، وماجبلت عليه من ميول، والذي يحرص أن يصل إلى النفس من منافذ التأثير فيها، ومن هنا يستفيد صاحب المقامة من كل ذلك فيتجه إلى الوجدان باعتباره وعاء الشعور الإنساني، ومجمع

---

(١) انظر: المقامة نفسها، ص١٨٢.
(٢) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٦.
(٣) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٢.
(٤) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٦.
(٥) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٢.
(٦) انظر: المقامة نفسها، القطيعية، ص ١٨٦.
(٧) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٨٤.



غرائزه؛ ليثير فيه حب القرآن مع عرض نماذج لما سيترتب على الاستجابة وعدم الاستجابة؛ ليصل بالسامع إلى حالة التوازن المطلوب فيجعل منها نماء في إيمانهم، وهو في هذه المقامة يعمد إلى جملة من أساليب التأثير حتى يصل هداها إلى أعماق النفوس، منها:

- صور التشبيه الكثيرة فهو حبل الله ... وهو سيف سقاط ... وهو جبل عاصم.. وهو بحر لجي .. فيقول : ((وهُو حَبْلُ اللهِ المتين، وصِرَاطُهُ المسْتَبِين...))(١).

وهو في هذا يستقي من القرآن الكريم، فقد قال تعالى في ذلك: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾(٢)، أو قوله تعالى: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ**﴾(٣).

وفي قول الزمخشري: ((جَبلٌ يَعْصِمُ من اعْتَصَم بمعَاقِلِهِ))(٤)، فهذا التشبيه للقرآن قد وجد في كتاب الله، لكنه جاء على لسان ولد سيدنا نوح حين أراد أن ينجو بمن معه من الطوفان فقال: ﴿ **سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**﴾(٥).

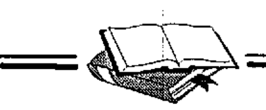
وقال -ﷺ-: ((**كتاب الله، فيه نبأ ماكان قبلكم، وخبر مابعدكم.. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم..**))(٦).

ومنها: قوافي السجع البسيط البعيد عن التكلف والتي تعرض كتاب الله في مشاهد زاخرة بالحركة موحية للنفوس بالانفعالات والمشاعر؛ لتصل إلى النفس البشرية فتزيل عن بصيرتها مايدفعها إلى نور الحقيقة.

كما أن تصدير المقامة بهذا الأمر يخلق جواً من الجدية والاهتمام((اجْعَلْ كِتَابَ اللهِ يُنْجِيكَ))(٧) ليتلقى بعد ذلك مجموعة الآداب المتعلقة بتلاوة القرآن والعمل به.

---

(١) مقامة الفرقان، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٢٧ .
(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٣.
(٣) سورة آل عمران، آية ١١٢.
(٤) المقامة نفسها، ص ٢٢٧.
(٥) سورة هود ، آية ٤٣.
(٦) رواه الترمذي (٢٩٠٦)، كتاب فضائل القرآن، باب ١٤، ٥/١٧٢-١٧٣.
(٧) المقامة نفسها ، ص ٢٢٦.



وماذلك إلا لأن الخيرية في تعلمه، لقوله -ﷺ-: ((**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**))(١).

ثم أثار الانتباه وركز على بلاغة القرآن فقال: ((إِنْ عـدَّتْ عجَائِبُ البِحارِ لَمْ تُعَدّ عَجَائبه ... كُلّمَا ذَهبتَ بِفِكْرِكَ في بَلاغتِه الَّتي حَصرَت دُونَها البُلغَاءُ حتَّى سَحرتْ من فَصاحَتِهم البَبغَاءَ. ونَظَرتْ في سَلامَةِ سَبْكه المستغرَب. وسلاسَةِ مَائِه المُسْتعذَب. ورَصَانة نَظْمِه المُرصَّف. ومَتَانَةِ نَسْجِه المفُوّف، وغَرَابةِ كِنَايتِه ومجَازِه. ونُدْرةِ إِشْبَاعِه وإيجَازِه. ورَوعَةِ إظْهارِه وإضْمَارِه. وبَهْجَةِ حذْفِه وتَكْرارِه. وإِصَابة تعْرِيفه وتَنكيره. وإِفَادةِ تقْدِيمه وتأْخِيره. ودَلالَة إيضَاحِه وتَصْريحه. ودِقَّة تَعْرِيضه وتلْويحِه وطَلاوَةِ مبَاديه ومقَاطِعه وفُصُوله ووصُولِه. وماتنَاصر فِيْه مِن فُرُوع البَيَانِ وأُصُولِه. ارتَدَّ فَهْمُكَ وغراره كهَام ومدْراره جهَام. حَيْرةً في أُسْلُوبه الَّذي يكَادُ يَسلُبُ بحُسْنِه العَاقِل فِطنتَه وهُو يَزيدُه فِطْنَه))(٢).

ومنها: الترغيب في الوصول إلى أعلى المراتب بتعهد القرآن وتفهم معانيه، وفيه إشارة إلى البعد عن اللحن في القول فيقول :

((فَحادِثْ لِسَانَكَ بِدراسَتِه حتَّى تَرِقّ عذْبته ومَرّنْه علَى تِلاوَتِه حتَّى لاتطوَّعَ لغَيْره أَسلتُه. وتَعمَّده بمتلُوه مِن اللّسِن مَاسَاعدتْكَ عَليْه المِكنة، وترفَّعْ له بمخارِجِ الحُروفِ عَنْ ارْتِضاخِ اللُّكْنة. واقرأهُ مُرَتَّلاً كالتَّرتِيل في بَعْضِ الأَسْنانِ والتَّفْلِيج في نُور الأقحُوانِ. واجْتَنِب مالايؤمَن في الهذّ والهَذْرَمَة من اللَّحْن والخَضْرَمة. واجْتَهد أنْ لاتقرأَ إلاّ وضَميرُك مَقاوُدُ لِلسَانِك. وتبْيُنُك مساوقُ لبيانِك. لاتمرَّ عَلى جُملةِ إلاّ عَاقِداً

---

(١) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥٠٢٧) عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه- في كتاب فضائل القرآن، باب (٢١): خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ٧٤/٩ بلفظه. ورواه الترمذي تحت رقم (٢٩٠٧)، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه- وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تحت رقم (٢٩٠٩)، كتاب فضائل القرآن، باب (١٥): ماجاء في تعليم القرآن، ١٧٣/٥-١٧٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٢٨-٢٣١.

بِمعنَاها تَأملكَ وتَفكـرَك. عَاكِفاً علَى مُؤدّاهَـا تَفهمَك وتَبصّرَك. مُجيلاً في حَقِيقَتِها بَصِيرتَك وَنظَرك. مُمْتاَحاً مِنْها مَواعِظك وعِبرَك))[1].

وماذلك إلا لأن القرآن وتعلمه، يجعل من قارئه ذا معرفة ودراية بأمور الديـن؛ لاشتماله على كل ماأمر به الإسلام إجمالاً بعضه وتفصيلاً بعضه الآخـر، فيصل الخير إلى قارئه، ومعلمه؛ لأنه أصبح فقيهاً في الدين، يقول – عليه السلام –: ((**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**))[2].

أما في مقامته التي تحمل اسـم (النحـو)، ففيهـا حـث للنفـس مستعملاً ألفاظـاً نحوية مثلاً:

– يتهمها بالعجز أن تكون كهمزة الاستفهام الـذي ذكـر مـن صفاتهـا (الضعف) ومع ذلك تتصدر الكلام، وضعف همزة الاستفهام لأنه لاعمل لها لكونها دخلت على الاسم والفعل وأخذت صـدر الكـلام لأنهـا تدخـل على الجمـل لتعطي معناها فيها وتنقلها من الأخبار إلى الاستفهام. لـذا وجـب وقـوع حـروف الاستفهام قبل الجملة المستفهم عنها، فيقول : ((لَيْتَك أشْبهْتَها متقدِّماً في الخيْرِ معَ المتقدِّمـين. و لم تشبهْ تَأخُّرك حرفَ التأْنيثِ والتَّنْوين))[3].

إذن هو حث على أن تكون (النفس) في المقدمة كهمزة الاستفهام، ويظهر أثر القرآن واضحاً في ذلك ، فقد قال تعالى : ﴿**أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾[4]، وقال أيضاً : ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[5].

وفي ذلك أيضاً قال – ﷺ –: ((**اليد العليا خير من اليد السفلى**))[6].

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤٥)، عن ابن عباس – رضي الله عنه – ، كتاب العلم، باب(١)، ٥/٢٨.

(٣) المقامة (٤٦)، ص ٢٥٨-٢٥٩، شرح مقامات الزمخشري.

(٤) سورة المؤمنون، آية ٦١.

(٥) سورة الواقعة، آية ١٠.

(٦) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥٣٥٥) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – كتـاب النفقـات، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، وبداية الحديث: ((أفضل الصدقـة مـاترك غنىً، واليـد العليا...)) ٩/٥٠٠.



ولاتتأخر كحرف التأنيث، والتنوين لأن ((المتقدِّمُ في الخيرِ خَطرُه أتمّ، وديدَنُ العربِ تقدِمةُ ماهُو أهَمّ))[١].

وماتأخر حروف التأنيث والتنوين إلا لأنها دلائل على أحوال الكلم.

- يستحث على أن يضارع ((الأَبْرارُ بِعَمل التّوابِ الأوّابِ، فالفِعْل لِمضارعَتِه الاسمَ فازَ بالإِعْرابِ))[٢].

وفي ذلك يقول تعالى حاثاً على التوبة : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[٣].

- يود أن يكون عمله للخير في الخفاء كإخفاء الضمير المستكن (المستتر)؛ لأن العمل في الخفاء يجمع :

* النجـاة .

* الاستعصام كما استعصمت الواو من القلب بالإدغام، وإنْ قِيل: من أين كان الإدغام مؤثراً في ترك القلب؟

قلت : لأن الإدغام يذهب بالمدة التي في الواو والياء حتى لايبقى فرق بينهما مدغمتين وبين الحروف الصحاح.

ويقول تعالى في الحث على إخفاء الصدقة : ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[٤].

كما أن الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - **يحث على إخفاء الصدقة حتى إذا تصدق بيمينه يخفيها من شماله**[٥].

---

(١) المقامة (٤٦): ص ٢٥٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٢٢.

(٤) سورة البقرة ، آية ٢٧١.

(٥) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب (٣) ومن سورة البقرة، ٥/٢٠٥.



وحث على التفكير في أمور الدين مستعملاً لذلك الفعل المضارع (يكون) مسبوقاً بلا الناهية ومتصلاً بنون التوكيد الثقيلة، للدلالة على أهمية الأمر المطلوب فزاد توكيده بتلك النون فقال: ((ولايكُونَنّ ضَميرُكَ عَنْ الهمّ الدّيني سَالِياً كَما لَايكُونُ أفعلُ مِنَ الضَّمِير خَالياً، وعَوِّضْهُ مِن تِلْكَ السَّلْوة ذَلِك الهمّ كَمَا عُوِّضَتِ الميمُ مِنْ حرفِ النِّداءِ في اللَّهُمّ))(١).

وفي عدم الإهتمام بالدنيا، يقول الرسول -ﷺ-: ((**من كانت الآخرة همه جعل ا لله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وآتته الدنيا، وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل ا لله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ماقدر له**))(٢).

ويقول تعالى في ذلك الحث: ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(٣).

فقد استعمل في هذه الموعظة:

- (أفعل) لايخلو قط من ضمير منوي فيه، ولاينفك عن استناده إليه.

- (اللهم) فالميم هنا عوض عن حرف النداء (يا)، فمعنى العوض أن يقع نقصان في الكلمة فيجبر بزيادة.

- يحث على الاستمرار في العمل الصعب؛ مرضاة لله كما تقف بنو تميم على التشديد كقولهم في فرج وخالد وعمر: فرج وخالد وعمر.

- الثبات على الدين الحق كثبات الحركة البنائية، وهي على ضربين: ضرب لازم كحركة أين وكيف وهؤلاء، وعارضة كحركة من عل؛ لأنك تقول: من عل ويارجل لأنك تقول: يارجلاً خذ بيدي، فإنما قال: التي لاتزول إرادة للبنائية اللازمة دون العارضة ليجعل الثبات أصيلاً.

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٦١، شرح مقامات الزمخشري، يوسف بقاعي.

(٢) سبق تخريجه، ص ٢٣٦.

(٣) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.



ويقول سبحانه وتعالى في الثبات على الدين الحق : ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

– شبه المتأرجح بين مذهبين كالهمزة الواقعة بين بين، ثم وجه نظره إلى الأيام والليالي كيف تعتقب على ماتحت السماء؛ كاعتقاب العوامل المختلفة على السماء فهي عرضة للخوافض والروافع والنواصب، كذا حوادث الدهر ونوائبه لاتترك شيئاً إلا استهدفته.

يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(٢).

– وعليك بالصبر فيما عزمت عليه وصممت، ولاتقصُرْ عما في الفم من جَلَادَةِ ميمه، والفم: أصله فوه بفتح الواو فحذفت لامه فبقيت الواو متعقباً لحركات الإعراب، فأبدلوا من الواو حرفاً أجلد منها وهي : الميم واختاروها لمقاربتها لها في المخرج.

وفي الحث على الصبر قال تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٣).

إلا أن الزمخشري حين لجأ إلى هذا الأسلوب في وعظه عمد إلى نهج مغاير لنهج الوعاظ؛ الذين يقصدون به العامة قبل الخاصة، بأسلوب بسيط، بينما الأسلوب الذي انتهجه الزمخشري هنا صعب مغلق لن يفهمه إلا فئة معينة من العلماء، وربما نجد له العذر في كونه يخاطب نفسه في كل المقامات بقوله « ياأبا القاسم»؛ لذا خرج هذا الوعظ بصورة لايفهمها إلا من كان في مستوى الزمخشري ذاته، وبذلك فقدت المقامة جزءاً من أهميتها الوعظية، فالوعظ للعامة لا لخاصة الخاصة، وقد نلتمس له العذر

(١) سورة البقرة ، آية ١٣٢.
(٢) سورة الحج، آية ١١.
(٣) سورة الشورى، آية ٤٣.

فربما أخرج هذه المقامات لنفسه؛ تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[(١)].

والتزاماً بمبدأ المحاسبة المتمثل في قول عمر: ((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا))[(٢)]، فأعطانا بذلك صورة واضحة، عالية المستوى حين خص نفسه بالوعظ في خمسين مقامة، فحقق الصورة التي أرادها الإسلام من المسلم في أنه يعظ نفسه كما يعظ غيره فطبق مبدأ القدوة.

أما **الأسواني** فقد ذكر بعض علوم العربية، وأبان فضلها وفوائدها من خلال المناظرة التي قامت بين أصحاب العلوم المختلفة، والذي كان من بينهم عالم باللغة، وآخر بالنحو، وثالث بالفرائض، ورابع بالبديع، وخامس بالشعر، وسادس بالهندسة،... والجبر، ... والموسيقى، ... الخ. وهذا النحوي يقول :

((النَّحو أَعْلَى العلومِ منزلةً، وَأعجلها منفعةً،وَلَولاَهُ مَاعُرِفَ الخطأُ مِن الصَّوابِ في الكلامِ، وهو مِنَ العلومِ بِمنزلةِ الملح مِنْ الطَّعامِ، بهِ يتوصلُ إِلى كَلامِ ربِّ الْعَالمين، وَأَخْبَارِ سَيِّد المرسلين - صَلَواتُ الله عَلَيهِ وَعَلَيْهِم أجمعين - وَمَنْ جَهِلَهُ مِنْ الفُقَهاءِ لَايأْمَن أَنْ يأثمَ في فتاويهِ وَيلحنَ فِيمَا يرويهِ))[(٣)].

غير أن العالم بالشعر لايستكين لما يسمع دون أن يفصح عن نفسه، بعد أن سمع الثاني يؤيده، ولكنه يستدرك بأن منزلة النحو من علم اللغة كمنزلة الأعراض من الذوات فيقول :

((أَرَاكُمَا ضَرَبْتُمَا عَنْ عِلْمِ الشّعرِ صَفْحاً، وَطَوَيْتُم دُونَهُ كَشْحاً،وَهُو ميدَانُ الْعَرب؛ لأَنَّه المنبه عَلَى حكمتِها وَلسانِ الْفَصَاحةِ وَترجُمَانِهَا، وَعِلْمَا النَّحو واللّغة لَهُ خَادِمَان، وَبعدَهُ حَاذيان وَقَدْ فضّلَه رسولُ الله -ﷺ- قدماً بقوله: ((إنَّ ((مِنَ الشَّعر لحكما)) وَأهلَه أَقلُ النَّاسِ هَماً، وَأَنْفَذُهم حكماً، لَأَقْوالهُم مَقْبولَة، وَمُؤنهم مَحْمُولَة،

---

(١) سورة الشمس، آية ٩ .

(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني، ٥٢/١، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م، وصفة الصفوة، لابن الجوزي، ٢٨٦/١.

(٣) مخطوط المقامة ص ١.



تَرْهَبُ مِنْهم المحال، ولايستحسنُ منهمْ إلاَّ المحالَ، وَلَايخافونَ سَطْوَةَ قَادِرٍ، وَلَايَخْشَون مِن برٍّ ولافَاجِر، إنْ مَدَحُوا الكلبَ ألبسُوه فخراً، أو هَجَوْا المسكَ صَيّروه شراً)) [١].

إذن **فالأسواني** أكد حقيقة مهمة بينت الفائدة من علم النحو، فبدونه لن يعرف الخطأ من الصواب في الكلام، ولن يهجر لسانه اللحن في القول أثناء قراءته لكتاب الله وسنة نبيه -ﷺ-.

أما **ابن الجوزي** فقد أراد في مقامته (٢٤) أن يبين ولعه بإعراب النحو، فأطلق على هذه المقامة عنوان ((في شيء من اللغة))، وأبان الكثير فيها، ولم يلجأ إلى استعمال الألفاظ النحوية بطريقة الزمخشري؛ بل جعل لمقامته قصة دارت حول رجل نزل في ضيافة شيخ له ولدان، وكلهم ذوو معرفة باللغة، ودراية بالإعراب، وظهر ذلك متمثلاً في اختصام الولدين لوالدهما، كل واحد يشكو من الآخر بفصاحة لسان، ولما بين الضيف أنه طالب علم؛ قدم ولديه فبدأ الأول بذكر الكثير من معارف اللغة وأبدع، وأكمل الثاني وأبدع، وعرف الرجل الضيف أن الشيخ هو : أبوالتقويم العالم بكل علم متين [٢].

وقد أظهر **ابن الجوزي** هنا لوناً من ألوان الوعظ يحث فيه على ضرورة الرجوع إلى اللغة العربية والبعد عن اللحن، لأن اللحن مما تنكره العرب، وتعيبه من أهله، فهذا عمر بن الخطاب أتى على قوم يرمون رشقاً لهم، فأساؤوا الرمي، فقالوا: ياأمير المؤمنين نحن قوم متعلمين، فقال عمر: لإساءتكم في لحنكم شر من إساءتكم في رشقكم أو رميكم، رحم الله أمرأ أصلح من لسانه، وقال عمر أيضاً: ((تعلموا العربية، فإنها تضثبت العقل)).

وقد قيل للحسن: إن لنا إماماً يلحن، فقال: أخروه.

وقال الأصمعي : إن أخوف ماأخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي -ﷺ-: ((**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من**

---

(١) مخطوط المقامة ص ٢.

(٢) انظر: ص١٩٨ من مقامات ابن الجوزي.



النار))(١)؛ لأنه لم يكن يلحن فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه، فهؤلاء الصحابة والتابعون ومن بعدهم من أعلام الحديث وحفاظ الأثر، كل منهم يحض على تقويم اللسان وإعراب الكلام، ويذم اللحن، ويهجن أهله، وعلى هذا مضى من لم نذكره منهم، حيث كانوا في كل عصر وزمان(٢).

كما أن الخطابي جعل العلم بالإعراب أحد الأبواب الثلاثة التي لامندوحة لطالب العلم من معرفتها، فيقول: ((وملاك الأمر فيما تمس بهم إليه الحاجة منها معرفة أبواب ثلاثة: وهي أمثلة الأسماء، وأبنية الأفعال، وجهات الإعراب، فإن من لم يحكم هذه الأصول لم يكمل لأن يكون واعياً لعلمٍ، أو راوياً له، وبالحري أن يكون مايفسده منه أكثر مما يصلحه...))(٣).

أما أبرز ماظهر في هذه المقامة السالفة الذكر من المعارف اللغوية فتتلخص فيما يلي:-

ذكر أصوات الحيوانات من مثل قوله : ((إِذَا رَغَا البعيرُ، وصهلَ الفرسُ، وشحجَ البغلَ، وناجتْ النَّعْجة، وثغتِ الشَّاةُ، وهدَرَ الحمامُ، وزَقَا الدِّيكُ))(٤).

كما أشار إلى فصاحة الأعشى والكميت فقال: ((وأنَا مِن الحَرِّ والجُوعِ كَمَيْتٍ، فَأَنْسَاني المضيفُ بِفَصَاحِتهِ الأَعْشَى وَالكُمَيْت))(٥).

بين متى تقال الكلمة، وذلك بوضعها في مكانها الصحيح فيقول: ((لايقولُ العربُ مائدةٌ إلاَّ إذَا كَانَ عليها طعامٌ وإلاَّ فَهَي خِوَان. ولايقالُ لِلعَظْمِ عَرْقٌ إلاَّ إذَا كانَ عليهِ لحمٌ، ولَاكأسٌ إلَّا إذَا كَانَ فِيهَا خمرٌ، وإلاَّ فهَي زُجَاجَة. ولَاكُوبٌ إلاَّ إذا كَانَتْ له عُروةٌ وإلاَّ فهو كُوزٌ. ولَارُضَابٌ إلاَّ إذَا كَان في الفمِ. ولَا أريكةٌ إلاَّ لِلسَّرِيرِ

(١) رواه البخاري(٢٩١)، كتاب الجنائز، باب: مايكره من النياحة على الميت، ١٠٢/٢، ورواه مسلم(٤) عن المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- في المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله، بلفظ متعمداً، ١٠/١.

(٢) انظر: غريب الحديث، للخطابي، تحقيق عبدالكريم العزباوي، ٦٠/١-٦٤، ط١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة.

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٣.

(٤) المقامة نفسها، والصفحة نفسها.

(٥) المقامة نفسها، ص ١٩٨.



عَليهِ قُبّة . ولارَيْطة إلاّ إذَا كانتْ بلَا لفقين،وَلَاخِدْرَ إلاَّ إذَا كَانَ فيهِ امرأةً، وَلَا للمرأةِ ظعينةً إلَّا إذَا كَانَتْ في الهودجِ، وَلَاقلَم إلَّا إذَا كَانَ مَبْرياً، وَلَاعِهن إلَّا إذَا كَانَ مَصْبُوغاً، ولارَكِيَّة إلَّا إذَا كانَ فيهَا ماءً، وَلَاخاتمَ إلَّا إذَا كَانَ عليهِ فص، وَلَا رُمح إلَّا إذَا كَانَ لَهُ زُج وَسِنان، وَلَالطيمة إلَّا للإبلِ التي يحملُ عَلَيْهَا الطيب والبز، وَلَابدنة إلَّا للتي تجعَلَ لِلنَّحر))[1].

ثم سأل الضيف أحد الولدين عن بعض تصرف العرب، فذكر منها:

((نَأْتي إِلَى اللفظةِ فنغيّر حركتها تارةً فيختلفُ مَعْنَاها كالحِمل والحَمْل والرُّوح والرَّوح.

وتارةً نوقع التغيير بالإعجام؛ كالنّضْح والنَّضْخِ، وَالْقبْضَةِ وَالْقبْصَة، وَالْمضمضةِ وَالمصْمَصة.

وتارة نقلبُ حرفاً مِنْ الكلمةِ وَلَايتغيَّر معناهُ فنقولُ: أنبضَ في الْقوسِ وأنضبَ، واضمحَلّ وامضحلَّ، وماأطيَبَهُ وأيطبَهُ، وَبطيخَ وَطَبيخ، وَجَبذَ وَجَذَبَ، وخَزِن اللّحم وخَنَزَ، ودقمَ فاهُ بالحجرِ ودمقَهُ...

وتارةً نضعُ للشيءِ الواحِدِ أسْماء مِنْ غيرِ تغييرٍ يَعتريهِ، فنقولُ: السّيف والمهند والصّارم))[2].

((ونغيّر الاسمَ بتغير يعتري فنقولُ لمن نزل في الرَّكِيّ يملأ الدلو: مايح، وللمستقي مِنْ أعلاها : ماتِحٌ))[3].

((ونضعَ للشيءِ الواحِدِ اسماً يختلفُ باختلافِ محاله، فنقولُ لمنْ انحَسَرَ الشّعْرُ عَنْ جَانبي جبهتِهِ: أنزع، فإذَا زَادَ قليلاً قُلْنَا: أجْلَح، فإذا بلغ الانحِسَارُ نصفَ رأسِهِ قَلْنَا: أجلَى وأجْلَهُ، فإذَا زادَ قليلاً : أصْلَعْ، فإذَا ذهَبَ الشّعر كُلّه قُلْنَا: أجصّ))[4].

---

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠١.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٠١-٢٠٢.



« ونقولُ : صدرُ الإنسانِ ونُسميه من البعيرِ الكركرَة، وَمنْ الأسَدِ الزَّور، ومنْ الشّاة القَصّ، ومنْ الطائرِ الجؤجؤ، ومنْ الجرادِ الجوشَن»(١).

« ونفرّقُ في الشهواتِ فنقولُ : جائعٌ إلى الخبزِ، وَقَرِم إلى اللّحمِ، وَعَطْشَان إلى الماءِ، وَعَيْمان إلى اللبنِ، وَقرِد إلى التَّمرِ، وَجَعْمر إلى الفاكهةِ، وَشَبِقٌ إلى النّكاح»(٢).

أما الصبي الآخر فقد أكمل مابدأه أخوه فقال : «إنَّا لنفرقُ في نظرِ الإنسانِ إلى الشيءِ ، فإذَا نظرَ بمجامعِ عينيهِ، قلْنَا: رَمَقَهُ. فإذَا نظرَ إليهِ مِنْ جَانبِ أُذُنِهِ، قلْنَا: لَحظَهُ، فإذَا نظرَ إليهِ بعجلٍ، قلْنَا: لمحَهُ، فإذَا رَمَاهُ ببصرِه معَ حدّةٍ، قلنا: حدَجهُ، فإنْ نظرَ إليهِ نظرَ المعجبِ أوْ الكَارِه، قلْنَا: شفَنَهُ. فإنْ أعادَ لحظَ العداوةِ قلْنَا: نظرَ شَزَراً، فإنْ كانَتْ نظرةَ محبةٍ، قلْنَا: نظَرَ نظرةَ ذي عُلَقٍ، فإنْ كَسرَ عينه في النَّظرِ، قلْنَا : دَنْقَشَ، فإنْ فتحَ عينيه وجعلَ لَايطرف قلْنَا: شَخَصَ، فإنْ أدامَ النَّظَر مَعَ سُكُونٍ قلْنَا: أسْجَد»(٣).

«ونفرّقُ في أسماءِ الجماعاتِ فنقولُ : كوكَبَةٌ مِنْ الفرسانِ، وَكَبْكَبَةٌ من الرجالِ، وجوقة مِنْ الغِلمان، وَثُلةٌ مِنْ النساء وَرَعِيلٌ مِنْ الخيْلِ، وصِرْمَةٌ مِنْ الإبلِ، وَقَطِيعٌ مِنْ الْغنَم، وَسِرْبٌ مِنْ الظّباءِ، وَعرْجَلَةٌ مِنْ السّباع، وَعصابةٌ مِنْ الطّيورِ، ورِجْلٌ مِنْ الجرَادِ، وَخَشْرمٌ مِنْ النَّحْلِ»(٤).

«ونفرّقُ مِنْ اسم اللينّ فنقولُ : ثوبٌ لين، وَرُمْحٌ لَدْن، وَلحمٌ رَخْص، وَريحٌ رُخَاءٌ، وَفراشٌ وَثيرٌ، وَأَرْضٌ دَمِثَةٌ»(٥).

«وَنَقُولُ في الأمرِ : وَهْن، وَفي الثّوبِ: وَهْيٌ، وَفي الحسابِ: غَلَتٌ، وَفي غيرهِ غَلَط، وَمِنْ الطَّعام بَشَم، وَمِنْ الماء بَغَرٌ»(٦).

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٠٢.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢٠٣.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.

«ونفرقُ في المنازلِ فنقولُ للمنزلِ مِن المدرِ: بيت، وَمِنْ الوبرِ: بجادُ، وَمِنْ الصُّوف: خِبَاء، وَمِنْ الشَّعر: فُسطاط، وَمِنْ الغَزْل: خَيْمة، وَمِن الجلودِ: قِشعُ، ونقولُ: وَطَنُ الإنسانِ، وعَطَنُ البعيرِ، وَعرينُ الأسَدِ، وَوِجَارُ الذئبِ، وَكِناس الظَّبي، وَعُشّ الطَّائِر، وقريةُ النَّملِ، وَكور الزّنَابيرِ، وَنَافقاءِ اليَرْبُوع»[1].

« ونقولُ لمَا يَصنعهُ الطَّائرُ علَى الشجرِ: وَكْر، فإنْ كَانَ علَى جبلٍ أَوْ جدارٍ فَوَكْن، وَإِنْ كَانَ فِي رِكنّ، فعُشّ، وإنْ كَانَ عَلَى وجهِ الأَرْضِ فَأُفْحُوصَ، وَالأُدْحَى للنَّعامِ خَاصة»[2].

وعند الفراق والوداع بين له الشيخ الفروق في الأطفال: «كُلُّ وَلد سبُعٍ جِرْو، وَولد ذي الريشِ : فرخ، وَولد كلّ وَحشيةٍ : طفل، وولد الفَرس: مُهر وَفَلُوّ، وَولد الحِمار: جَحش، وَعَفْر ، وَولد البقرةِ: عِجْل، وَولدِ الظَّبيةِ: خِشفُ، وَولد الضّب: حِسْل، وَولد الأرْنب: خِرْنق، وولد النَعامِ: رَألُ، وَولد النَّاقة: حُوار، وَولد الثَّعْلَب: هجرس، وَولد الدِّبِ : الديسم، وولد الخنزير: خِنّوص، وَولد اليربوع والفَارَة: دِرْص، وَولد الحية: حُرَيْش، وَولد الأسَد: شِبْلُ»[3].

ونخلص إلى أن هذا الضيف حين سأل الصبيين لم يكتما علمهما، بل انبرى كل واحد منهما يفرغ مافي جعبته من علم، دلل على سعة معرفتهما، يقول رسول ا لله -ﷺ-: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه ا لله بلجام من نار يوم القيامة**»[4].

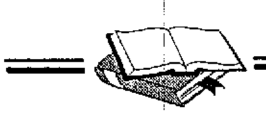
كما أن ابن الجوزي حين ذكر لنا تلك العلوم على لسان الفتى الأول والثاني، كأنه يحثنا على طلب العلم، الذي حث عليه قبله رسول ا لله -ﷺ- فقال: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك ا لله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في**

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٤.

(٤) رواه أبوداود (٣٦٥٨) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، ٣٢١/٣. والترمذي (٢٦٤٩)، كتاب العلم، باب ٣، ٢٩/٥.



الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولادرهماً ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر))[١].

العروض:

هو ((ميزان الشعر، وهي ترجمة عن ذوق الطباع السليمة، وفوائدها ثلاث: إحداها: أنه يستعين بها من خانه الذوق، وثانيتهما: أنه يعرف بها مفارقة القرآن للشعر ومعانيه له، وثالثتها: أنه يعلم بها مايجوز في الشعر ممالايجوز فيه))[٢].

ولم يتعرض أحد من المقاميين لهذا العلم سوى الزمخشري الذي عَنْوَنَ إحدى مقاماته به، لكنه استعمل مصطلحاته ليس للحث على تعلمه وإنما ليعظ نفسه. ولذا قال: ((إنَّ الهدى في عُروضٍ سِوَى عِلم العَرُوض في العلم والعمل بالسُّنَنِ وَالْفُروضِ))[٣].

فبين كيف يبلغ أسباب الهدى وذلك: بالعلم، وبالعمل بالسنن والفروض.

ثم أخذ يحث على الإعراض عن الشعر، إذا كان يبغي صنوف الخير وضروبه، وأن ينطق بكلمة تفصل بين الحق والباطل بدل النطق بقريض الشعر، يقول في ذلك: ((مَاأَحْوَج مِثلَكَ إلى الشُّغْل بتعديلِ أفاعِيله، عن تعديلِ وزنِ الشعرِ بتفاعيله، من تَعَرَّض لابتغاءِ صُنُوف الخيرِ وضُروبهِ، أعرضَ عنْ أعاريضِ[٤] الشِّعْرِ، وأضْرَبَ عَنْ ضروبِه،

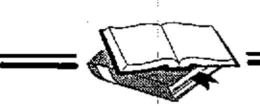
---

(١) رواه أبوداود (٣٦٤١) عن أبي الدرداء - رضي الله عنه -، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٣/٣١٧. والترمذي (٢٦٨٢)، كتاب العلم، باب ١٩، ٥/٤٨-٤٩.

(٢) عروض الورقة، أبونصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ص٥٤، تحقيق: د.صالح جمال بدوي، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

(٣) المقامة (٤٧):شرح العروض، مقامات الزمخشري، ص ٢٦٦، ت: يوسف بقاعي.

(٤) الأعاريض : جمع العروض الذي هو آخر المصراع الأول على غير قياس، ويحتمل أن يكون جمع أعروضة، انظر: اللسان، مادة : عرض .



ماتصنعُ بالضُّرُوب[١] وَالأعاريضِ في الكلامِ الطَّويلِ العَريضِ في صِنَاعَةِ القَريضِ، وَوراءَ ذلكَ حَيْلُولَةُ الجَرِيضِ،لأنْ تنطقَ بكلمةٍ فَاضِلَةٍ بينَ الحقِّ والباطِل فاصِلَة، خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقِكَ في بيانِ الفاضِلَةِ وَالفَاصِلَة[٢]» [٣].

وأكمل الزمخشري وعظه مستعملاً المصطلحات العروضية فحث على تقوى الله ومراقبته، والخوف من عقابه، وترك المعاقبة[٤] المعروفة في علم العروض، فقال: «عليكَ بتقوى اللهِ ومُراقَبتِهِ، ولتُرْعَدْ فرائِصُكَ خَوْفَ مُعَاقَبَتِهِ، ودَعْ مايَجْري من المُعَاقَبَة والمراقبةِ بينَ الحرفين، وَعَدِّ عَنْ الصَّدْرِ والعَجُزِ والطَّرَفين، ماضَرَّك إذا تمَّ ووفَرَ دِينُكَ وَسَلِم[٥] وصَحَّ[٦] يَقِينُكَ، واتَّصفا بالوفُورِ[٧] والاعتدالِ[٨]، وتَخَلَّصَا عنْ الانْتِقاصِ[٩] والاعتلالِ[١٠]» [١١]، فيريد من نفسه قبل القارىء لمقاماته أن يتمم دينه، ويصحح يقينه، ويتصف بالاعتدال، ويبتعد عن النقص والإعلال، وإن كنت حريصاً على أن

---

(١) الضرب: مصراع العروض الثاني كالعروض للأول، وقيل سمي بالضرب الذي هو أسفل الخباء أو رفرفه الذي تضربه الريح. انظر: اللسان، مادة: ضرب.

(٢) الفاصلة : اسم لشيئين : ثقيل وخفيف نحو ضربا ومثاله: متفا من متفاعلن أو علتن من مفاعلتن، والفاصلة: اسم لسبب ثقيل ووتد مجموع نحو ضربتا ومثاله: فعلتن، وهو من فروع مستفعلن، ويقال للفاصلة: الفاصلة الصغرى، وللفاصلة: الفاصلة الكبرى، وقيل سميتا بذلك لأنهما فصل بين السبب والوتد بالحركة التي في آخر السبب الثقيل،انظر:اللسان،مادة :فصل.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٤) المعاقبة بين ساكني السببين المتجاورين أن يثبت أحدهما أو كلاهما ولايذهبا معاً، انظر: اللسان، مادة : عقب.

(٥) السالم : الجزء الذي خلا من الزحاف، انظر: اللسان، مادة : سلم.

(٦) الصحيح : العروض أو الضرب الذي سلم من الانتقاص. انظر: اللسان ، مادة: صحح.

(٧) الوافر: البحر الذي كرر فيه مفاعلتن ست مرات، سمى بوفور حركاتها. انظر: اللسان، مادة: وفر.

(٨) الاعتدال: أن يستوي المصراعان من خلف بين أجزائهما، انظر: اللسان، مادة: عدل.

(٩) الانتقاص : الحذف اللازم، انظر: اللسان، مادة : نقص .

(١٠) الاعتلال:أن يخالف العروض والضرب الحشو بسلامة أو بزحارف، انظر:اللسان، مادة:علل.

(١١) المقامة نفسها، ص ٢٦٧-٢٦٩.

تكون من أهل الفضل والحزم فعليك ألا تهتم ، ولاتفكر في مصطلحات العروض التي أورد معظمها إن لم تكن كلها من مثل : الخرم[١] والخزم[٢]....الخ.

القافية :

وهذه لم يتناولها أحد من المقاميين عدا الزمخشري الذي اتخذ مقامته الثامنة والأربعين والتي تحمل اسم ((القوافي)) مرتعاً لإظهار معرفته بمصطلحات هذا العلم، إلا أنه كدأبه في بقية مقاماته، جعل منها منطلقاً لوعظ نفسه، والآخرين، فقال: ((استغنِ بكلماتِ اللهِ الشّافية، عن التكلُّمِ في حدودِ القافية ... واذْهَلْ عن المتكاوسِ[٣] منها والمتَدارِك[٤]، بِتكاوُسِ ذُنُوبِكَ ...))[٥].

وبعد ذكره للكثير من مفردات هذا العلم الذي سخره لوعظه كما فعل في المقامة السابقة، أكد أن هذا العلم لاينفع صاحبه عند الله، يقول في ذلك: ((ولاتحسِبْ أنَّ مَنْ لايَعرفُ نَفاذاً[٦] ولاتوجيهاً[٧]، لم يكنْ عِنْدَ اللهِ وَجِيها))[٨].

---

(١) الخرم: نقصان حرف من الوتد المجموع الواقع في الصدر، انظر: اللسان، مادة: خرم

(٢) الخزم : نقيض الخرم وهو زيادة في الصدر خاصة حرف أو حرفان أو ثلاثة أو أربعة، شبه بخزم أنف البعير، وهو أن تزاد الحلقة التي تسمى الخزامة. انظر: اللسان، مادة: خزم.

(٣) المتماوس : كل قافية توالت فيها أربع متحركات بين ساكنين، وذلك نحو فعلتن. انظر: اللسان، مادة: موس.

(٤) المتدارك: كل قافية توالى فيها متحركان بين ساكنين نحو متفاعلن. انظر: اللسان، مادة: درك.

(٥) شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٨٣-٢٨٥، ت: يوسف بقاعي .

(٦) النفاذ : حركة هاء الوصل التي للإضمار، لأن نفاذ الخروج ومضاره بهذه الحركة. انظر: اللسان، مادة: نفذ.

(٧) التوجيه: حركة الحرف الذي إلى جنب الروي المقيد. انظر: اللسان، مادة: وجه .

(٨) المقامة نفسها، ص ٢٨٦.

النقـد :

لما كانت معظـم المقامـات قـد تنـاولت الكثـير مـن موضوعـات فنـون الآداب العربيـة المتمثلـة في ؛ فـي الشـعر والنـثر، فقـد عمدنـا إلى إضافـة النقـد إليهمـا، وأول مايصادفنا أثناء قراءة مقامات **بديع الزمان الهمذاني** نقده الجريء لأدبـاء آخريـن؛ نقـده للجـاحظ ، وهـذا مـالفت أنظـار دارسـين آخريـن لهــذا الفــن - فــن المقامــات -، كالدكتور/يوسف نور الذي قال: «لم يكن بديع الزمان مجرد ثائر اجتماعي، بل كـان إلى جانب ذلك ممثلاً لمدرسة أدبية جديدة عقد لها لواء الانتصار في القرن الرابـع علـى وجه الخصوص، تلك هي المدرسة التي نادى أبوتمـام بمبادئهـا الأولى في القـرن الثـاني، ومنذ ذلك العهد وهي تعاني من عنــت الخصـوم الذيـن اعتبروهـا خطـراً علـى طريقـة العرب. وماكان لتلك الطريقة أن تنتصر انتصاراً ساحقاً في القرن الثاني، بل كان لابد لها من أن تسلك طريقها الوعر وتقاوم في إصرار، حتى يكتب لها الانتصار.

وهاهي المقامات الأدبية تعتبر النموذج الكلاسيكي الذي تبلور فيه هذا الإتجاه، الذي غدا رمزاً لأساليب المجددين، لقد ذهـب بعـض الكتـاب إلى القـول بـأن انتصـار الصنعة في القرن الرابع كان بسبب جهل الحكام الأعاجم بأساليب الكتابة واكتفـائهم بما يحدث في داخل الأساليب من إيقاعات، وهذا رأي غير صحيـح؛ لأن انتصـار هـذا المذهب كان نتيجة طبيعيـة للصـراع بـين المقلديـن والمجدديـن، والـذي يحسـم في كـل الظروف لصالح المجددين. وعليه، فقد كان لامفر لبديع الزمان من أن يدافـع عـن هـذا الانتصار في مقاماته، وذلك مافعله من خلال النقد المرير الذي وجهه إلى الجاحظ على لسان بطله أبي الفتـح الاسـكندري»[1]، وقـد بـدأ هـذا القـول الدكتـور/ أحمـد أمـين مصطفى حين قال عن البديع الهمذاني: «عبر في هذه المقامة عن رأيه في النـثر ومذهبـه في النثر، وهو رأي مطابق لخصائصه الفنية في جميع كتاباته، وهـو هنـا ينقـد الجـاحظ، ويعيب طريقته، ويشيد بالطريقة الجديدة، ومذهب التصنع وفي هذه المقامة يظهر أيضاً إقبال الناس على الأدب، واهتمامهم بنقده حيــث تعقـد المجـالس الأدبيـة، ويـدلي كـل أديب بدلوه فيها، ويبدأ النقد بالإشادة بالجاحظ في قضايا عامة كمـا هـو الشـائع بـين

---

(١) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص١٠٤-١٠٥.



الناس))[١]، حيث يقول: ((فَأَخَذْنَا في وَصفِ الجاحظِ وَلسنهِ، وَحسن سَننهِ في الْفَصَاحةِ وَسَننه))[٢]، ثم يبدأ بديع الزمان في الطعن على الجاحظ - على لسان أبي الفتح الاسكندري - حيث يقول : ((ولو انتقدتُم لَبَطَل مااعتقدتُم))[٣] ثم يفصل المآخذ التي يخذها على الجاحظ، وتتلخص في أنه يكتب النثر ولاينشيء الشعر، وهذا في رأيه تقصير في مجال الأدب، والأديب الكامل من يجمع بينهما، ثم يعيب على الجاحظ أنه قليل الاستعارات قريب المأخذ لايهتم بالبديع ولايتأنق في أسلوبه، وفي ذلك يقول :

((إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، و لم يزر كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً؟ قلنا؟ لا، قال: فهلموا إلى كلامه فهو بعيد الاشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله، فهل سمعتم له لفظةً مصنوعةً، أو كلمة غير مسموعةٍ؟ فقلنا : لا))[٤]، ويعلق د. يوسف نور على ذلك بقوله: ((وكما نرى فإنه يعيب على الجاحظ نفوره من التصنيع والتصنع، وجنوحه إلى الاسترسال والسهولة، غير أن اختيار بديع الزمان للجاحظ كنموذج ينقد من خلاله أساليب القدماء لم يحالفه التوفيق؛ لأن الجاحظ قمة في ذاته، وهو نسيج وحده، وأسلوبه لايعتبر ممثلاً لطرائق القدماء. لقد جنح الجاحظ إلى اسلوب الاسترسال؛ لأن عمق القضايا التي تناولها وكثرتها لايسمحان له بصرف ذهنه وإعماله في الصنعة والتصنيع، وانتصار مذهب الصنعة في القرن الرابع لايعني نهاية مذهب الجاحظ؛ لأنه انتصار وقتي جنح إليه المجددون، ولكنهم سرعان ماارتدوا مرة أخرى لطريقة الجاحظ الملائمة لأساليب الكتابة النثرية أكثر من غيرها من أساليب الصنعة. وقد استمرت طريقة الجاحظ إلى عصرنا الحديث حيث طورها الكتاب في ألوان الكتابة المعاصرة))[٥]، إلا أن د.أحمد أمين مصطفى كان رده وتعليقه أقرب إلى الصواب حيث قال :

---

(١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، ص ٧٢-٧٣.

(٢) المقامة (١٥): الجاحظية، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ٨٦.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٨٧-٨٨، معتاصه : بديعة ، انظر: اللسان، مادة: عوص.

(٥) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٠٥.



((وآراء بديع الزمان هنا فيها كثير من المجافاة للحقيقة، فليس من الضروري للأديب أن يجمع بين الشعر والنثر، ولايغض من شأن الجاحظ أنه لم يقل شعراً رائعاً، ثم إن الأسلوب المرسل الذي نراه عند الجاحظ لايقلل من قيمته الفنية أنه لايهتم بالاستعارات ولايتكلف السجع والمحسنات، فالأديب ابن عصره، ولم يكن هذا التكلف للسجع والمحسنات قد شاع بين الأدباء في عهد الجاحظ، وليس هذا التكلف للمحسنات مما يوضع في الميزان عند النقد فقد يرجح الأسلوب المرسل على الأسلوب المسجوع، ولكن بديع الزمان يزن الأمور بميزانه، ويصدر الأحكام النابعة من معتقداته))[١].

وأما الدكتور/ عبدالملك مرتاض فقد حدد الهدف من هذه المقامة بقوله : ((الطعن في الأدباء، والغض من مكانتهم في الأدب العربي، وهو مايمكن أن نطلق عليه أيضاً ((النقد الهدام))؛ وتجده متجلياً في المقامة الجاحظية، فلم يكن البديع يرمي إلى نقد الجاحظ نقداً موضوعياً خالياً من الأنانية والهوى. فقد جرد الجاحظ من أن يكون بليغاً، وأديباً يستحق تلك السمعة الخارقة التي لايزال يستبد بها في النوادي الأدبية ... ونحن زعمنا أن الهدف من هذه المقامة لم يكن نقداً، وإنما كان طعناً وثلباً وهدما؛ لأن البديع كان يريد أن يجرد الجاحظ من كل فضل، ويهدم سمعته الأدبية في حين أن الحق هو غير ذلك))[٢]، وقد علق في الهامش بقوله: ((نعى الباحثون جميعاً على البديع رأيه هذا، وثاروا عليه))[٣].

((غير أننا – والكلام للدكتور/ يوسف نور عوض – مع ذلك نقف مع بديع الزمان في نقده لطريقة الجاحظ الاستطرادية في المقامة المضيرية، فهو وإن لم يصرح فيها بنقده المباشر للجاحظ فإن القاريء يدرك أن المقصود من ورائها طريقة الجاحظ الاستطرادية، والمقامة لاتتعرض للمسائل الأدبية ولكنها تتعلق بدعوة وجهت لعيسى

---

(١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) فن المقامات في الأدب العربي، ص ١٨٠-١٨١.

(٣) المرجع والصفحة نفسها، وقد أحال د/مرتاض إلى كتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف، ط٥، ص٢٥٢-٢٥٣، وشرح مقامات البديع لمحمد عبده، ذيل ص٧٦ (بيروت)، بديع الزمان الهمذاني، لمارون عبود، ص٣٤، وهي كذلك.



ابن هشام وجمع من الناس قدمت فيها وجبة المضيرة، فإذا بالاسكندري يقف ويذم تلك الوجبة ويلعنها، وسببه في ذلك أنه لبى من قبل دعوة أحد التجار لوجبة المضيرة وفي الطريق أخذ التاجر يحدثه عن زوجته وأصلها وطبائعها ثم استطرد الحديث عن متجره ثم منزله ومافيه من طاق وباب وأوانٍ وظل يخرج من موضوع إلى موضوع فيما هو صارف النظر عن الوجبة فما كان من الاسكندري إلا أن التمس الفرار والرجل يصيح من ورائه: ((ياأبا الفتح المضيرة)) فتعلق الصبيان به ظناً منهم أن المضيرة لقب له، فرمى أحدهم بحجر كان سبباً في إدخاله السجن عامين فأقسم ألا يأكل المضيرة.

والمقامة تروي حالة الملل والضجر التي تعتري الإنسان من عدم التركيز على الموضوع الأصلي، والانشغال بما دونه من الجزئيات غير المطلوبة، وتلك هنة حفل بها الأسلوب الجاحظي، وسببها في الواقع عدم معرفة الكتاب الأقدمين بمن فيهم الجاحظ ((بوحدة الموضوع)) في المقالة أو البحث الأدبي وقد حرص الهمذاني على التزام وحدة الموضوع في مقاماته))(١).

وفي مقامة ثانية نرى البديع ينقد آخرين غير الجاحظ، وكان للدكتور/ أحمد أمين مصطفى رأى في ذلك النقد فقال :

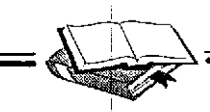
((ناقشت المقامات بعض القضايا الأدبية التي كانت مطروحة آنذاك، وأبدت فيها آراء، غير أن هذه الآراء لم تكن دائماً على درجة من الوضوح والتعليل، فقد تأتي بجملة وأحكاماً عامة، وقد تأتي أحكاماً مفصلة وعلى وجه من النقد الموضوعي كما نرى في المقامة القريضية، وفيها يقول على لسان عيسى بن هشام : ((فَجَلَسْنَا يَوْماً نتذاكَرُ القريضَ وأهلَهُ، وتِلْقَاءنا شابٌّ قَدْ جَلَسَ غيرَ بعيدٍ يُنْصِتُ وَكأنَّه يَفْهَمُ، وَيَسْكُتُ وَكأنَّه لايعلَمُ...، فَدَنَا وَقَالَ: سَلُوني أُجِبْكُم، واسْمَعُوا أُعْجِبْكُم، فَقُلْنا: ماتقولُ في امريء الْقَيْسِ؟ ....))(٢).

ويستمر هذا الحوار حول طرفة وجرير والفرزدق، ثم ينتهي حول المحدثين من

---

(١) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٠٦.

(٢) المقامة (١): القريضية، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٠-١٢.



الشعراء والمتقدمين منهم، ويقول هذا الأديب أو أبوالفتح الإسكندري : ((المتقدِّمُون أشرفُ لفظاً، وأكثرُ من المعاني حظاً، والمتأخِّرون ألْطَفُ صُنْعاً وأرَقُّ نَسْجاً))[١].

وهذه آراء صائبة سواء مادار منها حول الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين ولكنا مع ذلك لانرى تطبيقاً لهذا النقد على نتاج الشعراء، ولاعيب في ذلك فليس المقام مقام نقد أدبي مفصل، وإنما هي لمحات عامة يبديها بديع الزمان على لسان أبي الفتح، ولانستطيع أن نقول: إن بديع الزمان كان ناقداً أديباً كالآمدي والجرجاني مثلاً، وإنما هوأديب مرهف الحسن نافذ البصيرة له رأيه الأدبي الذي يعبر عنه، وأهم مانراه في هذا النقد الأدبي أنه يهتدي لصدق العاطفة وأثرها في جودة الشعر؛ فهو يقول عن النابغة: ((ويثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب))[٢] فهو يقول عن إحساس صادق، ولذلك فهو يجيد في هذه المجالات لأنه صادق العاطفة))[٣].

لكن للدكتور/ عبدالملك مرتاض رأي آخر، فهو يجد أن الهمذاني، لم يأت في نقده لأولئك الشعراء – في مقاماته – بجديد، فيقول عن ذلك :

((ويردد أحكاماً كانت قيلت قبله في هؤلاء الشعراء ... ولو أراد إلى النقد الحق، أو الطعن أو الغض من أقدار هؤلاء الشعراء، لما عدمه الكلام الذي يقول، فقد كان لاذع اللسان، مر القلم حين يصرف همه إلى شيء لايحبه، أو حين ينصب العداء لأديب من الأدباء، بسبب أو بدون سبب. ومناظرته الخوارزمي وإهانته إياه في عقر داره أحد البراهين على مانزعم.

وقد قارنا بين ماجاء في القريضية بما ورد في طبقات الشعراء لابن سلام، والشعر والشعراء لابن قتيبة، فلم نجد فرقاً كبيراً يذكر.

يقول البديع مثلاً في امريء القيس : ((هو أوَّلُ من وقَفَ بالديار وعرصَاتِها، واغتَدَى والطَّيرُ في وكُنَاتِها، وَوَصَفَ الخَيَلَ بِصِفَاتِهَا))[٤].

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٥ .

(٢) المقامة نفسها، ص ١٣.

(٣) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، ص ٦٩-٧٠.

(٤) المقامة (١) القريضية، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٢.



ويقول في هذا الشاعر نفسه ابن سلام: ((سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، منها استيقاف صحبه، والبكاء على الديار ... وشبه الخيل بالعقبان والعصي))(١).

والشبه ظاهر بين القولين . وشبيه بذلك ماقاله ابن قتيبة حول امرىء القيس أيضاً: ((أنه أول من فتح الشعر واستوقف، وبكى في الدمن ... وهو أول من شبه الخيل بالعصا. فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف))(٢).

وإذن فالبديع لم يزد على أن ردد أحكاماً نقدية كانت معروفة عند النقاد، ففهمنا من ذلك أنه أراد أن يجمع طائفة من هذه الأحكام ويضمنها مقامته القريضية لغاية تعليمية، إلا إذا قال قائل: إنما أراد البديع إظهار المامه بالأحكام النقدية وإظهار براعته في شمول الإطلاع على جميع الأساليب الشعرية وماعتورها من تطور عند فحول الشعراء، فإن ذلك لايمتنع عقلاً))(٣).

وأشار إلى مثل هذا د/ يوسف نور عن المقامة القريضية، فقال: ((وللهمذاني لون آخر من النقد الأدبي لا نشك في غايته التعليمية فهو لا يأتي فيه بشيء جديد، بل يكتفي بتدوين الآراء النقدية، والأدبية المتداولة لدى جمهرة النقاد والأدباء وقد أورد هذه الطريقة في مقامته القريضية))(٤).

ولابن الجوزي رأي في النقد، لكنه ليس بجديد فقد ردد ماهو مقول في عصره كقوله:

((أَشْعَرُ النَّاس امرؤ القيس إذَا غَضِبَ ، والنَّابغَةُ إذَا رَهِبَ، وَزُهَيْرٌ إذَا رَغِبَ، وَالْأَعْشَى إذَا طَرِبَ))(٥).

(١) طبقات فحول الشعراء، ص٤٦، طبعة دار المعارف بمصر .

(٢) الشعر والشعراء، ١/٦٨.

(٣) فن المقامات في الأدب العربي، ص ١٨٢-١٨٣.

(٤) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٠٦.

(٥) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، مقامات ابن الجوزي ، ص ٢٥٨ .



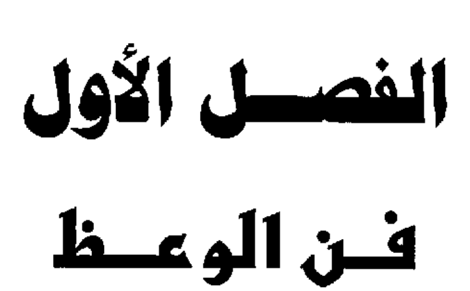
الباب الثاني

ملامح الفن الإسلامي في المقامة

"دراسة فنية"

الفصل الأول : فن الوعظ.

الفصل الثاني : الأسلوب.



الفصل الأول

فن الوعظ

ويشمل :

- **الرمزية .**
- **القص .**
- **الواقعية.**



إن الوعظ من أخص خصائص المقامات، وهو من الأفكار التي اهتم بها كتاب المقامة، ولا سيما أولئك الذين جاءوا بعد البديع الذي لم يكتب سوى مقامتين اثنتين موضوعهما الوعظ، ولكنهما ذوات أهداف سلبية في بعض جوانبهما لما يمكن أن ينشأ عنهما من تواكل في المجتمع؛ لأنها كانتا تدعوان في معظم الحالات إلى نبذ الدنيا، وعدم السعي من أجل الحصول على المال، والتحذير من الموات الذي قد يفاجئهم في أية لحظة، بينما الوعظ يجب أن يذكر بالآخرة، ويحث على الصدق، وحب الخير للناس، والتحذير من الشر وما ينشأ عنه.

إذن فوعظه كان يدعو غالباً إلى نبذ الدنيا نبذاً تاماً، وفي ذلك تهرب من الحياة الذي ينشأ عنه تأخر الأمة، واضطراب أحوالها، وفساد أمرها، وضعف كيانها... ثم بين أن هؤلاء الواعظين أنفسهم لم يكونوا يسعون سعياً مشروعاً للحصول على أرزاقهم، والأسوأ منه أنهم ربما دعو الناس إلى التحلي بالفقر وعدم السعي والكد من أجل حياة كريمة رغيدة كما فعل البديع في مقامته الوعظية: «ألا وإن الدنيا دار جهاز، وقنطرة جوازٍ ... فلا تلبسوها»[1].

فهو يدعو هنا إلى الفقر، وينهي عن الغنى؛ لأن الفقر كان حلية الرسول ﷺ، مع أن النبي كان شديد السعي كثير الكد، ونسي أن فقر النبي ﷺ كان فخراً له، لأنه لو شاء لكان أغنى الناس[2].

وأتى الحريري وعالج نحو ست مقامات في الوعظ أو أكثر، وقد سار على خطى البديع نفسه.

ولكن ما إن جاء الزمخشري حتى خص مقاماته الخمسين كلها بالوعظ.

وكذلك فعل ابن الجوزي. وكان لوعظهما طرق شتى منها اللجوء إلى الرمزية؛ لتحقيق الهدف من وراء ذلك الوعظ.

---

(١) ص ١٦٩، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.
(٢) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، عبد الملك مرتاض، ص ٣١٩، ٣٢١.

الرمزيـة :

الرمز عند العلماء علامة تدل على شيء له وجـود قـائم بذاتـه. وقـد اسـتخدم الرمز في كثير من المجالات رغبة في الإيجاز.

أما الرمز عند الأدباء والنقاد فهو وسيلة للتعبير عن التجـارب الأدبية المختلفـة بوساطة الرمز.

وقد دعي هذا الاتجاه بالمدرسة الرمزية؛ وذلك لأن هذه الحركة الأدبية اتخـذت من الإشـارة واللمـح أداة للتعبيـر عـن الانطباعـات النفسـية، وأحلتهـا محـل الأسـلوب الحقيقى المباشر الذي يستعمله الأدباء.

وقيل : إن الرمزية هي : ((اتّجـاه غيـبي خـاص بطريقـة إدراك العـالم الخـارجي، وبالوجود الذهني الذي ينحصـر فيـه الوجـود الفعلـي، واتجاه بـاطني وهـو السـعي إلى اكتشاف العقل الباطن وعالم اللاوعي، واتجاه لغـوي خـاص بـالبحث في وظيفـة اللغـة وإمكانياتها ومدى تقيدها لعمل الحواس وتبادل تلك الحواس ...))[1].

ونحن نلاحظ أن الرمز لم يتخذ معنى اصطلاحياً إلا منذ العصر العباسي: عصر التحول الظاهري في الحياة العربية الاجتماعية والعقلية، وعصر النهضة العلمية الأدبيـة، وقد جنحت الحيـاة في العصـر إلى صـور مـن التعقيـد، وتعرضـت لألـوان مـن الكبـت والضغط[2].

---

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، د.نجيب الكيلاني، ص ١١٣-١١٤، مؤسسة الرسالة، بـيروت، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) انظر: الرمز والرمزية في الأدب العربي، د.درويش الجندي، ص٤٣، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة .

بدء الرمزية في المقامات :

لما كان تردي الأحوال الاقتصادية سبباً في كثرة المستجدين ولاسيما في بلاد فارس، ذلك بأن النزعة الكسروية الطاغية القديمة ظلت مسيطرة إلى حد كبير على مشاعر العلية من القوم هناك، والفوارق الإجتماعية كانت أكبر ظهوراً وتمكناً في هذه البيئة منها في أي بيئة أخرى من بيئات العالم الإسلامي،ولاسيما بعد أن حكم في بلاد فارس البويهيون.

فقد أوحت هذه الحالة إلى بديع الزمان الهمذاني بذلك اللون من القصص المعروف بالمقامات[(١)] ...، وهي كما نعرف تدور حول الكدية والاستجداء غالباً، وقد تبعه الحريري في ذلك الفن.

ويظهر أن بديع الزمان قد جعل بطله أباالفتح الاسكندري رمزاً للرجل العالم الفاضل الذي تقسو عليه ظروف الحياة فتضطره إلى الإنحدار في هذه الكدية اضطراراً[(٢)]، ولابد من التنويه إلى أن الرمزية التي اتكأ عليها هذا البحث، هي الرمزية التي تقوم على الكناية، لا الرمزية كما هي في المصطلحات الغربية .

فمن تلك الرمزية عند **الهمذاني** نجده رمز إلى الدينار دون أن يصرح به كما في مقامته " البلخية " يذكره على لسان البطل (أبوالفتح الاسكندري) ويطلبه من الراوية عيسى بن هشام ويصفه قائلاً: ((إذا أرْجَعَكَ اللهُ سَالماً مِنْ هَـذَا الطَّرِيق، فاستصحِبْ لِي عَدوّاً فِي بُرْدَةِ صَدِيق، مِـن نجَارِ الصُّفْر، يَدْعُو إلى الكُفْر، ويَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ، كَدَارَةِ العَيْنِ، يَحُطُّ ثِقَلَ الدَّيْنِ، وُيَنَافِقُ بِوَجْهَين))[(٣)].

فوصفه للدينار بأنه عدو في ثياب صديق كون ظاهره يخدع ويأخذ بالألباب، فإذا اغتر به المرء قلب له ظهر المجن، أما قوله: يدعو إلى الكفر: لأن من تعامل بالدينار في غير وجوه الحل ربما انحدر إلى الكفر، ويرقص على الظفر: لأن عادة النقاد من

---

(١) انظر: الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، ص ٣١٦. عن الأدب في ظل بني بويه، ص٢١٥، محمود غناوي الزهيري، مطبعة الأمانة بمصر، ١٩٤٩م، وهو كذلك.

(٢) المرجع نفسه، ص٣١٧، عن الأدب في ظل بني بويه، ص ٢٣٤.

(٣) المقامة الثالثة، ص٢٢، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد.



الصيارفة أن يجعلوا الدينار فوق أظفر إبهامهم ويضربون بتأن لينكشف لهم حاله، وهو مستدير كدارة العين، وينافق بوجهين : لأن على كل من وجهيه نقوشاً ليست على الوجه الآخر، فهو يشبه المنافق الذي يلقاك بوجه ويلقى عدوك بوجه، وفي هذا إشارة إلى صنف من الناس قد ذكرهم رسول الله - ﷺ - بأنهم شر الناس، عن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال رسول الله -ﷺ- : ((**شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ**))[1].

إذن فقد وعظ البديع عن طريق الرمز، فقوله: ((ينافق بوجهين)) رمز إلى مايفعله المال بالناس.

وفي مقامةٍ أخرى وعظٌ رمز إليه بقوله على لسان بطله: ((ياقَوْمُ مامِنْكُمْ إلَّا مَنْ يَلحَظُني شَزْراً ... قَدْ وطَّأَ لِيَ الفَضْلُ كَنَفَهُ، ورَحَّبَ بِي عَيْشٌ،وثَماني بَيْت، ثُمَّ جَعْجَعَ بِي الدَّهْرُ عن ثَمِّهِ ورَمِّهِ ... وَنَشَزتْ عَلَيْنَا البِيضُ وشَمَسَتْ مِنَّا الصفْرُ،وأَكَلَتْنا السُّودُ، وحَطَّمَتْنا الحمرُ،وأَنْتَابَنَا أَبُومالكٍ،فما يَلْقانَا أَبُوجابر إلا عَنْ عُفْرٍ،وهـذِهِ البَصْرة ماؤُهَا هَضُومٌ،وفقيرُها مَهْضُومٌ، والمرءُ من ضِرْسِهِ في شُغْلٍ،وَمِنْ نَفْسِهِ فِي كلٍ فكيف بمن:

يُطوِّفُ مايُطَوِّفُ ثُمَّ يَأْوِي ** إلى زُغْبٍ مُحَدَّدَةِ العُيُونِ

كَسَاهُنَّ البِلَى شُعْثاً فتُمْسِي ** جِيَاعَ الناب ضامِرَةَ البُطُونِ

وَلَقَدْ أَصْبَحْنَ اليومَ وسَرَّحْنَ الطَّرفَ في حَيٍّ كَمَيْتٍ، وَبَيْتٍ كلا بَيْتٍ، وَقَلَّبْنَ الأكُفَّ على لَيْتَ، فَفَضَضْنَ عُقَدَ الضُّلُوعِ، وأفَضْنَ مَاءَ الدُّمُوعِ...))[2].

---

(١) رواه البخاري في فتح الباري (٦٠٥٨) في كتاب الأدب، باب(٥٢): ماقيل في ذي الوجهين، ٤٧٤/١٠ بنحوه. ومسلم (٢٥٢٦) في كتاب البر، باب (٢٦): ذم ذي الوجهين وتحريم فعله، ٢٠١١/٤ بلفظه. والترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه- في كتاب البر، باب (٧٨)، ٣٧٤/٤، وقال حديث حسن صحيح.

(٢) المقامة (١٣): البصرية، لبديع الزمان الهمذاني، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٧٥-٧٦، ثمه ورمه: قليله وكثيره، البيض: الدراهم. شمست : نفرت واشتد جماحها، الصفر: الدنانير، السود : الليالي المهلكة ببردها وشدتها. الحمر: السنون المجدبة، زُغب: جمع أزغب، والمراد الأطفال الصغار، شعث: غبر، انظر: اللسان، مادة: ثمم، رمم، بيض، شمس، صفر، سود، حمر، زغب، شعث.

فهذا وعظ بين فيه أن الإنسان لايبقى على حال؛ لأن دوام الحال من المحال؛ لذا فلتعمل لغدك، فقد كان قبل الآن قد وطأ له الفضل كنفه: كناية عن سعة العيش، ثم قال: ((جعجعَ بي الدّهر عَنْ ثمّه وَرَمّه)): أي أهانني وأذلني، وصب علي جام غضبه، وأنزل بي محنه وشدائده، والمعنى: إن الحال قد تغيرت وانقلبت اليسرة عسرة، وأضحى الغنى فقراً. ثم انتقل لذم أهل البصرة فلم يصرح بذلك، وإنما رمز إليه بقوله: وهذه البصرة ماؤها هضوم. أي يشرع في هضم الأكل، ورجل مهضوم: غير مرعي الجانب ولامنظور إليه، ومن نفسه في شغل: أي أنه قد ألهاه أمر نفسه وتحصيل قوته عن النظر إلى غيره، وأنه يتعب في ذلك، فكيف يكون حال من يسعى لنفسه وعياله؟

وقال في المقامة الشامية على لسان إحدى زوجتي الإسكندري: ((أيّدَ ا لله القاضي هُوَ أكذبُ من أَمله وَأسْمجُ من عمدهِ، وَأَكْثر في اللوم من حيلهِ وَأَشد في الشؤمِ من دغله وَأَفْسَد عشرةً من سَفَلَة، وا لله لقدْ صَادفت مِنْ فِيهِ صَقراً، وَمَن يدهِ صَخْراً، وَمن صدره سم خياطٍ لَايرشح بقيراطٍ. وَلَقدْ زففتُ إليهِ بَدَناً كالديباجِ، وَوَجْهاً كالسّراجِ، وَعيْناً كعينِ النِّعاج، وَثَدْياً كحقِّ الْعَاج، وَبَطْناً كظهرِ الهمْلَاجِ، وَحصناً ضَيقَ الرّتاجِ، خَشن المنهاجِ، حار المزاجِ، صَعْب العلاجِ، ولكنْ كيفَ ألدُ وَهُوَ لاينجزُ مَايعد، وكيفَ يُنْجزُ مَايعدِهُ وَهُو لايجدِهُ، وَيجهد لَو لَمْ يخنه الْوَتَد))[1].

فإلام كانت ترمز؟ ولماذا لم تصرح؟

التأدب في حضرة القاضي منعها من التصريح فكنت، والقاضي عرف ماتريد الوصول إليه، فقال للرجل: ((رَمَتْكَ بِالعُنّة، وَنَسَبتكَ إلى الأُبنة))[2].

وفي قوله : ((وانتَابنَا أَبُومالكٍ، فَمَا يَلْقَانا أَبُوجَابرٍ إلاَّ عَنْ عفرٍ))[3].

فإنما كنى بأبي مالك عن الفقر، وبأبي جابر عن الخبز[4].

---

(١) المقامة (٢٥)، لبديع الزمان الهمذاني، ت: فاروق سعد، ص ١٩٤، ط١، بيروت.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٩٥.

(٣) المقامة (١٣): البصرية، ص ٧٦، عفر: أي لايزورنا إلا في كل حين مرة، انظر: اللسان، مادة: عفر.

(٤) شرح مقامات بديع الزمان، ت:محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٧٦.



وقوله :

«آوِي إلى بَيْتٍ كقيدِ شِبْرِ ** خامِلٍ قَدْرٍ وصَغِيرِ قِدْرِ»(١)

المعنى أنني أسكن داراً صغيرة لاتكفي، أضف إلى أني غير مشهور، ولاصيت لي، وآنيتي التي أطبخ فيها طعامي صغيرة، كل هذه كنايات عن شدة الفقر واضمحلال حاله.

وكنى بقوله : * أَطْلِقْ من اليدِ خَصْراً *(٢)

عن تطامنه له، وتواضعه، وعدم الاستعلاء، ويتبع ذلك اهتمامه بشأنه، وعنايته بقضاء مايريده منه، وذلك أن أصل من يضع يديه على خاصرتيه يكون تياهاً، مستعلياً، ومثل هذا لايبالي بالناس، ولايلتفت إلى رغباتهم، ولايأبه لشؤونهم.

وفي المقامة نفسها يقول : «فتبِعتُهُ حَتَّى صارَ إلى أُمِّ مثواهُ»(٣).

فكنى عن امرأته بقوله : «أم مثواه»، لأنها موجودة حيث يقيم، أو لأنها تحمله على الإقامة.

وقال يصف نهيدة مكللة بعجوة خيبر: «كأنَّ نواها ألسُنُ الطَّيْرِ»(٤)، فألسن الطير صغيرة، وإذا كانت الثمرة كبيرة، ونواتها صغيرة كان أكثرها غذاء، فالعبارة كناية عن ذلك، وليس عظمها ، ولاضخامتها ناجماً عن كبر النواة، بل إن معظمها وأكبر مافيها جسم يؤكل.

وقوله : «أضْلَلْتُ إبِلاً لي، فَخَرَجْتُ في طَلَبِها، فَحَلَلْتُ بوادٍ خَضِرٍ»(٥)، فحين وصف الوادي بقوله: خضرٍ فكناية عن كثرة نباته، واعشيشاب أرضه.

(١) المقامة (١٦): المكفوفية، ص٩٢، قدر: مكانه، قدر: آنية الطبخ، اللسان، مادة : قدر.

(٢) المقامة (١٩): الساسانية ، ص ١٠٩.

(٣) المقامة والصفحة نفسها، المثوى: الإقامة، انظر: اللسان، مادة : ثوى.

(٤) المقامة (٣٤): النهيدية، ص ٢٤٥.

(٥) المقامة (٣٥): الإبليسية، ص ٢٥٣.

وقوله : ((حتى أَردفَ الليلُ أذنابَهُ))(١) هو كناية عن اشتداد الظلمة، واحتباك الغسق.

وقوله: ((كُنْتُ وأنا فتىُّ السِّنِّ أشُدُّ رَحْلِي لِكلِّ عَمَايةٍ، وأركُضُ طِرْفِي إلى كلِّ غَوَايَةٍ))(٢). أراد الملاذ المردية والشهوات المهلكة، وشد الرحل إليها كناية عن اقترافها والخوض في مضمارها، ومثل ذلك الفقرة بعدها.

وقوله : ((وُنبِذَتْ خَلْفَه الحصَيَّاتُ، وكُنِستْ بَعْدَهُ العَرَصَاتُ))(٣)، يريد أن من عادتهم أنه إذا نزل بهم من لايحبون، يرمون الحصى خلفه متى ارتحل، وكأنهم يعنون عدم عودته، والاستخفاف به كما لاتعود الحصاة ولايعبأ لها، وكذلك إذا مات الميت كنسوا بعده فناء الدار إياساً من رجعته وتنظيفاً للدار من بعده، وكنى بهما عن أنه لايؤوب .

وقوله : ((فَقَبَضْتُ من كِيسِي قَبْضَةَ اللَّيْثِ، وبعثْتُها إليهِ، وقُلْتُ: زِدْنَا سُؤَالاً، نَزِدْكَ نَوَالاً))(٤). فالليث يقبض على معظم أجزاء فريسته، وذلك كناية عن الكثرة.

وفي قوله : ((وملكَتْهُ سَوْرَةُ الأَسَدِ، فخانَتْهُ أرضُ قَدَمِهِ، حَتَّى سَقَطَ لِيَدِهِ وَفَمِهِ))(٥)، المعنى أن رعبه من الأسد وهيبته له تملكا عليه قلبه، فتراخت مفاصله، واضطربت أعضاؤه حتى ليخيل للرائي أن الأرض لم تثبت به، ومثل هذا في التعبير قولهم عند اشتداد الخوف: ((ساخَت الأرضُ تحتَ قَدَميهِ))، وقوله: ((سَقَطَ لِيَدِهِ

---

(١) المقامة (٣٦): الأرمينية، ص . ٢٧٩، أردف الليل أعجازه : استتبعها، وجعل بعضها يتلو بعضا، انظر: اللسان، مادة : ردف .

(٢) المقامة (٥): الكوفية، للهمذاني، ص ٣١، الفتاء : طراءة السن وحداثته، العماية: احتجاب القلب عن إدراك صالحة، انظر: اللسان ، مادة: فتى ، عمى .

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٣.

(٤) المقامة والصفحة نفسها، نوالاً: النوال : العطاء ، انظر: اللسان، مادة : نول.

(٥) المقامة (٦): الأسدية، للهمذاني، ص ٣٨، السورة: الحدة، ومثلها السوار، انظر: اللسان، مادة: سور.

وَفَمِهِ»: كناية عن انكبابه على وجهـه. وفي قولـه: «وسِرْنَا حَتَّى إِذَا ضَمِرَتِ المزادُ، وَنَفِدَ الزادُ أَوْ كَادَ يُدْرِكُهُ النَّفادُ»[1].

ومعنى ضمور قربة الماء : لصوق الجلد ببعضه كما يكون في هزال الحيوان لعدم وجود مايباعد بين بعضه وبعض، فهو كناية عن فقدان الماء، والمراد أنهم صاروا في حالة شديدة، وبذا يكون الهمذاني قد عمد للرمز في كل ماسبق ليعظ، لكن هدفه من وراء ذلك الوعظ الوصول إلى المال.

أما **ابن نباتة**، فعمد كغيره من كتاب المقامة إلى الرمز عن طريق الكناية كما في قوله : «وَقَدْ أَمْهَلْتُكُمْ حَتَّى يتهلهـلَ ثَوْبُ اليوم، وَيُقَارِبُ مَحل النَّوم»[2] كناية عن الانتظار مدة كافية.

وفي قولـه: «فَلَمَّا انْقَضَى الأَجَل، وَقَدْ تَسَاوَى في عَدَمِ الجَوابِ البُطءِ وَالعَجَل»[3]، فكناية عن الصمت المطبق نتيجة لعدم المعرفة، ولذا رمز لذلك بالعبارة السابقة.

وفي قوله : «شَمَّرَ لِرَحيلِهِ الذَّيل»[4]، فالكلمة العربية الزاخرة بالمعاني جعلته يعمد لذلك الرمز ويكني عن الاستعداد، والتأهب للانطلاق في رحلته، بتلك الجملة.

وابن ناقيا لجأ مثله إلى الرمز بالكناية من مثل قوله: «اقْتَحَمَ مَنَازِلَ أَهْلِ الْبِلَى، وَسُكَّانَ الثَّرَى»[5]، فكنى بذلك عن قبور الموتى، ورمز لها بتلك العبارة.

وفي قوله : «كَشَفَتْ الظَّهِيرةُ عَنْ سَاقِهَا»[6]، فرمز بذلك إلى الظهور، اذن فمعرفته بعمق المعاني؛ جعلته يسعى لاستخدامها.

---

(١) المقامة نفسها، ص٣٩، الضمور: الهزال، المزاد: جمع مزادة: وهى قربة الماء، نفد: فني، انظر: اللسان ، مادة: ضمر، زاد ، نفد.

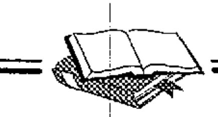
(٢) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٩ من المخطوط .

(٣) المقامة نفسها، ص ١٠.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (٢): من المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٣.

(٦) المقامة (٣): من المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٦ .



أما الرمز عند **الحريري** فنجده في المقامة الثالثة المسماة الدينارية[(١)] قد وصف الدينار وصفاً دقيقاً رغبةً في الحصول عليه، وقد حصل بالفعل على الدينار الأول بعد مدحه إياه، وعلى الثاني بعد ذمه إياه، هذا المدح والذم للدينار والمفارقة بينهما أظهرت مزايا الدينار لمن ينعم بوجوده بين أصابعه، ومساوئه كذلك، فهل أراد الحريري بذلك وصف الدينار حقاً؟.

الدينار ماذكر هنا إلا رمزاً، ليعظ به، فقد يمكن أن يكون نعمة على الإنسان، وعلى النقيض من ذلك فقد يكون نقمة أيضاً، وقد عقد الشريشي فصلاً في مدح الشيء وذمه، وقال: ((ونريد أن نأتي بفصل في مدح الشيء وذمه على حكم مامدح الحريري الدينار وذمه، ونبين مذهب العرب وأهل الأدب في ذلك، فقد ألف ابن رشيق فيه كتاباً ...، وقال أبوعثمان الجاحظ: العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره، فإن ابتلي به فخر به، ولكنه لايفخر به لنفسه من جهة ماهجا به غيره، فافهم هذا؛ فإن الناس يغلطون على العرب، ويزعمون أنهم يمدحون بالشيء الذي يهجون به، وهذا باطل؛ ليس شيء إلا وله وجهان، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين.

قال ابن رشيق: وأكثر ماتجري هذه المدائح والمذام على جهة المنافقة، لاعلى جهة المناصفة، ومن باب المسامحة لامن باب المشاحة، وإلا فالشيء لايوافق ضده، فيكون الحسن قبيحاً في حالة واحدة، والمدح ذماً لمعنى واحد، لكن لكل شيء - كما ذكر الجاحظ- مساويء ومحاسن ...))[(٢)].

وقد رمز الحريري وكنى عن تغير الأحوال وذهاب المال قائلاً: ((انْظُروا إِلَى مَنْ كانَ ذَا ندىً ونَدَىً، وجِدَةٍ وَجَداً، وعَقَار وقُرَى، ومَقَارٍ وَقِرىً، فَما زَالَ بِه قُطُوبُ الخُطُوبِ، وحُروبُ الكُروبِ، وشَررُ شَرِّ الحَسُودِ، وانْتِيابُ النُّوَبِ السُّود، حَتّى صَفِرتِ الرّاحَةُ، وقَرِعَتِ السَّاحَةُ، وغَارَ المنْبَع، ونَبَا المرْبَعُ، وأَقْوى المجْمَع، وأَقَضّ المضْجَع، واستَحَالتِ الحَالُ، وأَعْوَلَ العِيالُ، وَخَلتِ المَرَابِطُ، وَرَحِمَ الغَابِطُ، وأَوْدَى

---

(١) ص١٣٢، ت: يوسف بقاعي.

(٢) شرح مقامات الحريري ، للشريشي، ١٥٤/١.



النَّاطِقَ والصَّامِتَ، وَرَثى لَنَا الحَاسِدُ والشَّامِتُ ...»[1] إلى آخر ذلك من الألفاظ التي كنى بها عن سوء حاله الذي بالغ في وصفه فقال: إنه ينعل بمالاينتعل، ويغتذي بما ليس بغذاء، مما جعل الراوي بن همام يبرز ديناراً ليختبر مقره، وقال به: «إِنْ مدَحته نَظْماً، فَهُوَ لَكَ حتْماً»[2] فأنشد في الحال :

أَكْرِمْ بِهِ اصْفَر رَاقَتْ صُفْرَتُه ** جَوَّابَ آفاقٍ تَرامَتْ سَفْرَتُه
مَأْثُورَة سُمْعَتُه وشُهْرَته ** قَدْ أُودِعَت سِرَّ الغِنَى أسرّتُه

فرمز إلى الدينار بالحال الذي يؤول إليه الإنسان متى كان هذا الدينار في قبضته فبه يسفر عن أخلاق الرجال، ومن ملكه ملك الغنى، وصال به على زمانه وينوب عن الإنسان في المضايق وينصره، وكم من غضبان شديد الغيظ، مثل حاكم يصول بصاحب جناية ويهدده، فإذا رشي بالدينار، وبعث إليه سراً أزال غضبه، وسكنت حدته، إذن هو بذلك رمز إلى المجتمع الذي كان يعيش فيه الحريري، ومايفعله الدينار في أفراده. هذا حين مدحه وكذا بين حالهم أيضاً حين ذمه قائلاً:

«تَبّاً لهُ مِنْ خَادِعٍ مُماذِق ** أَصْفُر ذِي وَجْهَيْن كالمنَافِق
يَبْدو بِوَصْفين لِعَيْنِ الوَامِق ** زِينَةِ مَعْشُوقٍ ولَوْنِ عَاشِق
وحُبُّه عِنْد ذَوِي الحقَائق ** يدْعُو إِلَى ارْتِكابِ سُخْطِ الخَالِق
لَوْلَاهُ لم تُقْطع يمينُ سَارِق ** ولابَدتْ مظْلمةٌ مِنْ فَاسِق»[3]

والمسلم الحق من جعل الدينار يقربه إلى الله تعالى بما يعمله به من صدقة وعطف على الفقراء والمساكين، لا أن ينجرف وراء جمعه، فكلما ملك ديناراً حلم بجمع آخر حتى يتكدس لديه المال، وليرى من الدينار وجهه الحسن المتمثل في الإنفاق قربةً إلى الله؛ **لأن من يتقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه**

---

(١) المقامة (٣): الدينارية، للحريري، ت: الشريشي، ١/١٣٢.
(٢) المقامة نفسها، ص ١٣٨.
(٣) المقامة نفسها، ص١٤٩، المماذق: لايصافي الود، الوامق: المحب، انظر: اللسان، مادة: مذق، ومق.

ذراعاً تقرب إليه باعاً... أوكما قال رسول ا لله -ﷺ- عن ربه[١]، ووصفه بوجهين؛ لأن النقوش تختلف على الوجهين، وقد وصف رسول ا للهﷺ ذا الوجهين بأنه شر الناس، فقال: ((**شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**))[٢]، فالدينار له معنى في ظاهره غير مافسر به، وهذا هو مبعث الجمال في هذه المقامة لأن جمال الرمز قائم على عمقه،وعلى عظمة الفكر فيه غير أن الوضوح أيضاًأساسي ولكن ((هذا الوضوح لايتناقض مع مافي الرمز من إبهام منشؤه عمق الحالة النفسية المعبر عنها، وهو إبهام يعتمد المتلقي في كشفه على الحدس، ويزول تدريجياً مع التأني والمعاودة))[٣]، لذا فإن الرمز يحتاج في فهمه إلى التعمق والتأني ومعاودة قراءته والتفكر فيه. ((فالمرء لايتذوق العمل الفني إلا إذا كان متأملاً ومشاركاً في الوقت نفسه))[٤]. وهذا مايحققه الرمز ويوجده في قرائه فيصنع منهم شركاء للكاتب في خلق العمل الفني وإيجاده[٥].

وقال الحريري في مقامة أخرى على لسان الراوي الحارث بن همام: ((فَلَمَّا وَعَيْتُ مَادَارَ بينهما، تقتُ إِلى أَنْ أعرفَ عينَهما، فلمَّا لَاحَ ابنُ ذُكَاء، والْحَفَ الجَوَّ الضَّياءُ..))[٦]. فيقال للصبح : ابن ذكاء؛ لأنه من ضوئها، وأراد أن الصبح غطى نواحي السماء بضوئه.

---

(١) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٧٤٠٥)، كتاب التوحيد، باب (١٥): قول ا لله تعالى (ويحذركم ا لله نفسه) وقوله جل ذكره (تعلم مافي نفسي ولاأعلم مافي نفسك) ٣٨٣/١٣. ومسلم تحت رقم (٢٦٧٥)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب(١)، الحث على ذكر ا لله تعالى، ٢٦١/٤، بنحوه. وابن ماجه عن أبي ذر - رضي الله عنه -، كتاب الأدب، باب(٥٨)، ١٢٥٥/٢.

(٢) سبق تخريجه في ص، ٢٦٨.

(٣) الرمز والرمزية، د. محمد فتوح أحمد، ص ٤٥، دارالمعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م.

(٤) الكناية في ضوء التفكيرالرمزي،مخطوط رسالة ماجستير،بإشراف د.لطفي عبدالبديع،ص١٤٨ عن مشكلة الفن، د. زكريا إبراهيم، ص٢٢٨، دار مصر للطباعة، القاهرة، وهو كذلك.

(٥) المرجع والصفحة نفسها.

(٦) المقامة (٤) من مقامات الحريري، شرح الشريشي، ١٧٢/١-١٧٣، ابن ذكاء: الصبح، ذكاء: الشمس، انظر: اللسان، مادة : ذكا.

ورمز إلى البلاغة بذكر سحبان في قوله : ((سَمَرتَ بِالكُوفة ... مَعَ رُفْقَـةٍ غُـذُوا بِلبَان البيَان، وسَحَبُوا على سَحْبَان ذَيْلِ النّسْيَان))(١).

ورمز إلى قصة موسى في قوله : ((وأنَا ذُو مَجَاعَـةٍ وبُوسَـى، وجِـرَاب كَفُـؤاد أُمّ مُوسَى))(٢)، ليدلل على القلق الذي انتابه من جراء الجوع الذي ولد البؤس، وكذا كل رمز لجأ إليه الحريري وظفه؛ ليخدم بطل مقاماته، فما وعظه به إلا ليحصل على المال.

أما الرمز عند **الزمخشري** فقد ظهر في مقامته الثالثة حين بين أن المشقة في الدنيا يعقبها نعيم دائم في الجنة، ولكن النفس تواقة إلى تنفيذ ماتشتهيه فإن فعل كان بذلك قد ترك الحق إلى الباطل، ولما أراد أن يعظنا بألا نسير في هذا الطريق لجأ إلى قوله:((أيْن عِلّتك فِي أنْ تَشْرُد شُرَاد الظّلِيم عَنْ رِضْوانِ اللهِ ودَارَ النَّعِيم، هَيْهَاتَ لاَعُذرَ ولَاعِلّةَ ...أيّها العَاقِل لايُعْجِبنّك هَذَا المَاءَ والرَّوْنَق فإنّهَ صَفْوٌ مَخْبُوٌ تَحْته الرّنَق))(٣).

فحين أراد أن يحثنا على التمسك بالرضوان وعدم الشرود منه،رمزلذلك بذكر شراد الظليم وهو ذكر النعام فيقال: ((أشرد من ظليم)) للدلالة على الجبن، ولما أراد وعظنا بعدم الاغترار بالدنيا والحياة فيها، رمز إلى ذلك بـ((الماء)) فأراد بالماء البهاء ومنه ماء السيف لفرنده وهو مستعار من الماء المشروب،وهذا مثل لزهرة الدنيا وزخارفها.

وفي مقامته الخامسة حث على التزود بالعمل الصالح من الدنيا،وكنى عن الذي يخرج منها (الدنيا) بدون زاد للآخرة بعبارتين هما قوله : ((ولَيْسَ فِي مِزْوَدِك كَفٌّ سَوِيقٍ يَفْثَأ مِنْ سَوْرَةِ طَوَاك، ولَافِي أَدَوَاتِك جُرْعةُ مَاءٍ تُطْفِي مِنْ وَقْدةِ صَدَاك))(٤).

فلم يقصد بذلك حقيقة ماذكر: فليس المقصود طعام السويق، ولاالمقصود جرعة الماء إنما أراد أن يكني بهما عن الشيء القليل، وكعادة الزمخشري في مقاماته معظمها إن لم تكن كلها يحذر من الدنيا ورمز لذلك بقوله: غدارة، غرارة، ختالة، ختارة، حتى تتعظ النفس ولاتنسى أنها كمسمياتها، ووصفها فهي غدارة غرارة.

---

(١) المقامة (٥) من مقامات الحريري، شرح الشريشي، ١٨٩/١.

(٢) المقامة نفسها، ٢٠٢/١.

(٣) مقامة الرضوان للزمخشري، ص ٢٤.

(٤) مقامة الزاد، للزمخشري، ص ٣٢.

أما مقامته السادسة ففيها وصف دقيق للدنيا قصد من وراء ذلك الوعظ ليزهد فيها، ثم بين كيفية الخلاص من مغرياتها، ولايكون ذلك إلا لمعتصم بـا لله، واستعمل ليصل إلى الغرض من وراء وعظه ذلك طرقاً عدة منها :

حين أراد التذكير بأن الدنيا لاتدوم أبداً وصفها بكلمة الفانية في قوله: ((مَـالَكَ لاترفضُ هذِهِ الفانيةَ رَفْضَاَ. ولاَتَنْفُضُ يديكَ عَنْ طلبِها نَفْضَاً))(١)، ورمز لها بكلمة أم الغرور، فقال: ((.... تبرجتْ لهم الدُّنْيا وتزينتْ بأبهجِ زِينتِها، وتحلَّتْ بِأَبْهَى حِليتها... لم يذهبْ عليهم أَنهَّا أُمّ الغُرورِ لَا أُمُّ السُّرورِ، وَأنهَّا إذَا تَبَخْتَرَتْ حَيَّرَتْ...))(٢). وليزيد في التنفير منها قال: ((ولَوْلَا اسْتِيجَابُها أَنّ تكونَ مَرْفُوضةً، لَوزَنَتْ عنْدَ ا للهِ جَناحَ بَعُوضَة))(٣). مشيراً بذلك لقوله -ﷺ-: **((لو كانت الدنيا تزن عند ا لله جناح بعوضةٍ ماسقى كافراً منها شربة ماء))**(٤).

وإمعاناً منه في الحث على عدم الركون إليها قال عنها : ((شَهْدُهَا مشْفُوعٌ بِإِبرِ النَّحْلِ ... اذكرْ المرواني وَمَا مُنِيَ بهِ مِنْ خُطةٍ عَلَى رأسِهِ مَصْبُوبة. حينَ غُصّتْ بحبَّةِ الرُّمانِ حبَّابتهُ المحبُوبة))(٥).

فحين ذكر المرواني وهو يزيد بن عبدالملك بن مروان وقصته مع جاريته حبابة التي غصت بحبة رمان، فهو لم يذكرها اعتباطاً إنما أراد أن يرمز لنا ماوراء القصة من دلالة تاريخية، ودلالتها أن الدنيا لاتصفو لبشر يوماً حتى من يملك المال والجاه والسلطة عليه أن يتيقن أن مافيها زائل ... زائل .

ومن أقوال الزمخشري فيها : ((أنْتَ بينَ أمريْن لـذَّةَ ساعةٍ بَعْدَها قَرْعُ السِّنِ، والسّقُوطُ في اليدِ))(٦).

---

(١) مقامة الزهد، للزمخشري، ص ٣٣.

(٢) المقامة (٣٥): الأسوة للزمخشري، ص ١٧٢.

(٣) مقامة الزهد، للزمخشري، ص ٣٣.

(٤) سبق تخريجه، ص ٢٨ .

(٥) المقامة (٦) الزهد، للزمخشري، ص ٣٤-٣٥.

(٦) المقامة (٣): الرضوان، ص ٢٣.

فيقال للنادم، قرع سنه وسقط في يده، وأكل كفه، وعض أنامله وبنانه، من باب الكناية لأنه يرادف الندم.

وكذا في قوله : ((وَلَهَزَ القَتِيرُ لِدَاتِكَ))[١].

وهذا الكلام من باب الكناية؛ لأنه إذا شاب أقرانه في السن فهو من الشيب.

وفي قوله : ((نُصِبَتْ لكَ غايةٌ فتجشَّمْ في ابتِدارِها النَّصب، وأَحْرِزْ قَبْلَ أَنْ يُحرِزَ غيرُكَ القَصَبَ))[٢].

فذكر الزمخشري القصب : وذلك حين كانوا يغرزون في رأس الغاية التي يجري نحوها قصبة فمن سبق أخذها، فلذلك قالوا للسابق: أحرز القصبة، واستولى على القصبة، وهو من باب الكناية.

وفي قوله : ((وتَضِبُّ لُكِل مُتَمِنّي لِثَاتُه))[٣]. ضب لثاته لكذا: كناية عن الشره إليه والحرص عليه، يقال: جاء تضب لثاته .

وقوله : ((ولايُهمّك إلاَّ دَنَسُ رَدْنَيْك وَجَيْبك))[٤]. أريد بدنس الثوب تلطخ النفس بالعيب، وخص الجيب والردن لأنهما أول مايتدنس، وإنما كنى عن دنس النفس بدنس الثوب؛ لاشتماله عليها، والتباسه بها، وكما يقال: الكرم في برده والجود تحت جلده.

وفي مقامة أخرى كنى الدنيا بعبارتي ((أم السُّرُور)) و ((أم الغُرُور))[٥].

وكنى الموت بـ((أم قشعم)) لوقوع النسور على القتلى، والقشعم المسن من النسور في قوله : ((وشَكْلاَن عنْدَه قُشْعم الطَّيْر وفَرْخُهَا))[٦].

---

(١) المقامة (٧): الإنابة ، ص٥٣، القتير: رؤوس المسامير، اللدة: من ولد كالعدة من وعد، ثم قيل لدة الرجل طن وافق ميلاده ميلاده، تسمية بالمصدر. انظر: اللسان، مادة : قتر، لدد .

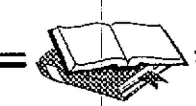
(٢) المقامة (١٤): الاستقامة، ص ٨٢، النصب: التعب، انظر: اللسان، مادة: نصب .

(٣) المقامة (١٦): القناعة، ص ٩٣.

(٤) المقامة (١٩): العزلة، ص ١١٠.

(٥) المقامة (٣٥): الأسوة، ص ٢١١.

(٦) المقامة (٣٨): الموت، ص ٢٢٣.



وكذا في قوله: ((وإنِ اسْتُطيرَ صاحبُكَ، وثارَ ثائِرُه، فَولِّه مِنْكَ ساكِناً طَائِرُه))(١). فسكون الطير كناية عن الطمأنينة، لأن الطائر ينفر من أدنى حس، ولايقر إلا على مالايستريب به.

استدعاء الشخصيات الذاتية من القرآن والتاريخ:

يلجأ الزمخشري للرمز ذي الدلالة التاريخية، ليرمز بها ويوظفها في وعظه ليس في هذه المقامة فحسب، حين استدعى شخصية المرواني بل نراه في مقامته المسماة القناعة، يعود إليه مرة أخرى، لكنه يرمز هاهنا عن طريق القصة، قصة قارون، فالإنسان كل مانال مالاً، أو جاهاً، أو سلطة طمع في النيل أكثر، وطلب أزود، ولايقنع بما رزقه الله إياه، ويشكره على ماأولاه من النعم، يقول الزمخشري: ((ثُمَّ إنَّه مَع أنَّ يسَارَه لايفْضُله يَسَار، ولايضْبَط حسْبَان مايَمْلِكُ يمينَ ولايَسارْ... مَفَاتِحه لاتَنُوء بالعُصْبَة أولِي القُوَّةِ، علَى أنَّه أَوْفَر مِنْ قَارُونَ سَعةً وثَرْوَة))(٢).

فما الذي يرمز إليه حين أشار إلى قصة قارون؟

ماذلك إلا ليدلل على أن الإنسان مهما وصل إلى أعلى المراتب، وأصبح غنياً بل زاد في غناه بما يملكه على ثروة قارون، لايقنع و((لَيْسَ لَهُ إذنْ حَدٌ يَنْتَهِي إِلَى مَطْلَبِه، وَلا أَمَدٌ يَتَوقَّفُ وَراءَ مَرْغَبِه))(٣).

فأين العظة هنا؟ تكمن وراء القناعة و((القَانِعُ قَد قَدَرَ مبْلَغ حَاجَتِه وَبَيَّنه، ومثل مِقْدَارِ إربِهِ وعَيَّنَهُ))(٤). فالقناعة .. القناعة .. لكن تيقن الزمخشري بأن الإنسان الجاهل يظن أن ماله من صنع نفسه، جعله يعود مرة أخرى، وفي مقامة أخرى ليرمز عن هذا الجاهل بقصة قارون فقال: ((مَنْ يَعمَلْ مَايُوجِبُ عُقوبَة قَارُونَ لَمْ يَأْمَل مَثُوبَة مُوسَى

(١) المقامة (٤١): التماسك، ص ٢٤٢.
(٢) مقامة (١٦): القناعة، للزمخشري، ص٧٤.
(٣) المقامة نفسها، ص ٧٦.
(٤) المقامة والصفحة نفسها.



وهارون))[١]، عقوبة قارون متمثلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ....﴾[٢].

ويستمر الزمخشري في وعظه عن طريق الرمز ذي الدلالة التاريخية، ولكنه هنا في مقامة ((القناعة)) حين ذكر الضعيف القانع بحاله إذا أطفأ حدة جوعه فكأنه ((حَازَ النَّعِيمَ بِحَذَافِيرِه وأصْبَحَ أَثْرَى مِن النُّعْمَان بعَصَافِيره))[٣].

فقوله : أثرى من النعمان : أي أغنى منه، وعصافير النعمان: إبل أدم كانت له وقد أجاز النابغة بمائة منها بريشها، ورعاتها، وكلبها، وظعينتها، حين أنشده عينيته في اعتذاره إليه، وهي من نتائج فحل اسمه عصفور وكأنه سماه عصفوراً؛ تفاؤلاً ليكثر نتاجه، فإن العصفور سفاد نثور، وكانت للنعمان أربعة فحول: عصفور وداغر وشاغر وذو الكليتين[٤].

واستعمل الرمز نفسه في مقامة أخرى لدلالة أخرى فقال : ((يَاأَبَاالْقَاسِم ضُرُوبُ السَّخَاءِ جَمّة ... وليْسَ السَّخَاء ... أنْ يَتلقّى الضّيفُ بِكُوس العَقِير... وَيجَازِ زِيَادَ بالبريَّاتِ مِن الصَّدفِ النُّعْمَانية))[٥].

فهو هنا يحث على التصدق وأخرج مافعله النعمان مع النابغة باعطائه تلك النوق من دائرة السخاء. فالتصدق إنما يكون كما قال : ((تُصِيبُ بِهَا عِبادَه الَّذِيْن إنَّما اسْتَقرضَكَ مِنْ أَجْلِهم ونَبَّهكَ بِذَلِكَ عَلَى نَباهَةِ فَضْلِهم وتَعَمَّدَ بِهَا المتعفّفِيْنَ. ولَاترْزَأ

---

(١) المقامة (٣٦): النصح للزمخشري، ص ١٧٥.
(٢) سورة القصص ، من آية ٧٦-٨١.
(٣) المقامة (١٦): ص ٧٧ .
(٤) انظر الهامش ص، ٧٧.
(٥) المقامة (٣٣): التصدق للزمخشري، ص ١٦٠-١٦١، الكوس : أن يعرقب البعير فيمشي على ثلاث، انظر: اللسان، مادة : كوس .

نَصِيبَ المتَكَفِّفِينَ))(١).

ويستمر الزمخشري على رمزه بالدلالات التاريخية، ويستدعي الشخصيات، حيث يرمز بقصة فرعون وتشييده لذي الأوتاد؛ ليتعظ من يسير سيرته في أن العاقبة الوخيمة هي خاتمته، فيقول في مقامته(٢٠): ((يَكْفِيكَ من الرّوَاقِ المزخرَفِ وبسَاطِهِ الموشّى. كُنْ كأنه كنَاس الوحْشِي يَسعُ الفَقِير وَمَايصْلِحه في يومِهِ وَليلتِهِ.. لعمرُكَ إنَّ ماتِرِمّه الورقَاءُ مِن ثَلَاثَةِ أَعْوَاد. وَماشَيَّدَهُ فِرْعَون ذَو الأَوتَادِ سِيَّانَ عِنْدَ مَنْ فكَّرَ في العَوَاقِبِ))(٢).

وقصة فرعون ذكرت في القرآن الكريم باللفظ نفسه الذي استعمله الزمخشري هنا في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾(٣). وقوله تعالى : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾(٤).

وذكر فرعون مصاحباً بقوله ذي الأوتاد لأنه كما قال الطبري: ((عنى بذلك الأوتاد التي توتد من خشب كانت أو حديد ... ووصف بذلك لأنه إما أن يكون كان يعذب الناس بها ... وإما أن يكون يلعب بها، فأكثروا في البلاط المعاصي، وركوب ماحرم الله عليهم، فصب عليهم ربك سوط عذاب. قال العذاب الذي عذبهم به سماه سوط عذاب))(٥).

فالزمخشري أراد أن هذه العاقبة هي عاقبة كل عاصٍ، مرتكب لما حرم الله فليتعظ من فكر أن يسير في هذا الطريق، فتلك هي العاقبة والخاتمة.

وها هو ذا يكمل في المقامة نفسها قوله: ((وإنّ أردتَ التزيُّنَ من الثّيابِ بأَسْنَاهَا ومن الحللِ بحسنَاهَا، فَأيْنَ أَنْتَ من الحلّةِ التي لايَعْبأ لَابِسُها بنسيجِ الذّهَبِ عَلَى عِطْفَى

(١) المقامة نفسها، ص ١٦٣.
(٢) العفة، ص ١٠١.
(٣) سورة ص ، آية ١٢-١٤.
(٤) سورة الفجر، آية ١٠-١٣.
(٥) جامع البيان، ٣٠/١١٤-١١٥، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

بعضِ الملُوك. وكأنّهُ في عيْنِهِ سُحْق عبَاءة عَلَى كَتِفي صُعْلُوك. ومَاهِي إلاّ لِباسُ التّقْوى الّذِي هُو اللّباس . لباسٌ تَلْقى فيهِ ا للهَ وَتلْقَى فِيمَا سِواهُ الّناس ... وتَذكّر مَابَلغكَ مِن قولِ الحسَنْ. ومَاجَرى لهُ مِن الحَسْناءِ في الثّوْبِ الحَسَن. وماستَجمه من العَبْرة. وَوَجَم علَيهِ مِن العِبْرة . وأمَّا المقرطَقْ فخلّه لإخْوانِ الفِئَة المشْرِكَة. هُمْ أَصحابُ المؤتَفِكة))[1].

فما ذكر قصة الحسن مع الحسناء؛ إلا ليذكر ويعظ الناس بأن التزين بلباس التقوى هو الأجدى، والأبقى فهذا الحسن البصري – رحمه ا لله – يروي أنه مر على قبر جديد، وعنده امرأة حسناء في أحسن اللباس تبكي عليه، فوقف متعجباً من حالها، فسألها؟ فقالت: هذا زوجي، وماكان أحد أحب إليه مني ولالباس يراني فيه أحب إليه من هذا اللباس، فقلت أزور حبيبي في أحب اللباس إليه، فانتزع الحسن العبرة من كلامها وغشي عليه، فعكفت عليه المارة حتى أفاق[2].

أما المطرطق فخله لاخوان الفئة المشركة وهم أصحاب المؤتفكة : من قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ**﴾[3]. ((أي جاء من قبل فرعون من الأمم المكذبة بآيات ا لله كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط بالخطيئة، وقوله والمؤتفكات بالخاطئة يقول والقرى التي أئتفكت بأهلها فصار عاليها سافلها بالخاطئة يعني الخطيئة، وفي قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى**﴾[4] قال أهواها من السماء رمى بهم من السماء أوحى ا لله إلى جبريل عليه السلام فاقتلعها من الأرض ربضها ومدينتها ثم هوى بها إلى السماء ثم قلبهم إلى الأرض ...))[5].

ونسير مع الزمخشري في مقامة أخرى فنراه يعظ مبيناً كيفية موالاة الأصدقاء وذلك؛ بمحبة من يحب، ومعاداة من يعاديه، وأما المقياس فهو حبه لله تعالى، أما البعيد عن رضى ا لله فالبعد عنه أولى، وذكر قصة حاطب ابن أبي بلتعة رمزاً لكل من يوالي

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٠٣-١٠٤، سحق : خلق، سجمه: أساله، يصمك:يعيبك، انظر: اللسان، مادة: سحق، سجم، صم.

(٢) انظر: هامش، ص١٠٣.

(٣) سورة الحاقة، آية ٩ .

(٤) سورة النجم، آية ٥٣.

(٥) جامع البيان، ١٩/٣٣-٣٤.

غير الله فقال : ((ثُمَّ انظُرفي أَيِّ مَنْزِلةٍ منَ الله يَراك . وبأَيِّ صِفَةٍ يَصِفُك مَنْ ذَرَاك. إنْ وَاليتَ مَنْ لَيسَ لِربِّكَ لوَلي . أَوْ صَافَيْتَ مَنْ لَيْسَ لِلأَوْلِياء بِصَفِي ... ولْيكُنْ مِنْكَ عَلَى بَالٍ مَانَقَم اللهُ مِنْ حَاطِب . ومَاكَاد يَقعُ بِه مِنَ المعَاطِبْ))[1].

فالزمخشري أراد أن يرمز من وراء تلك القصة إلى من يوالي الله ورسوله ثم يتوانى ويوليها لغيرهما، فلينتظر عاقبةً كعاقبة حاطب.

ولما أراد الزمخشري أن يحث على العمل لجأ لضروب شتى منها ضرب المثل؛ ليعظ عن طريقه فيحتاط الإنسان، ولايقع فيما وقع فيه أصحاب تلك الأمثال كقوله: ((فَلْيَسْمُرِ السُّمَّارُ بِه وبدِقَّةِ تَصْرِيفِه، لابِسِنِمَّارٍ وغَرابةِ تَرْصِيفِه))[2].

فسنمار من الروم وكان بناءً مجيداً هو الذي بنى الخورنق للنعمان فلما أتمه رقى به معه ليريه صنعته، فتعجب من مهارته في عمله وتنقيته في بنائه فقال له: أيها الملك أعجب من هذا كله أني أعرف في هذا البناء حجراً إن نزع تزعزع كله، فخاف أن يطلع بعض أعدائه على مكان الحجر وقيل غار أن يبتنى لغيره مثله. فأمر فرمي به من رأس الخورنق فهلك. فضرب جزاء سنمار مثلاً في عقوبة المحسن، وقيل السنمار في

---

(١) مقامة (٢٢) : الولاية ، للزمخشري، ص١١٢-١١٣، حاطب: حاطب بن أبي بلتعة، الذى أراد عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه لنفاقه. فقال رسول الله ﷺ ((ياعمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم)).

رواه البخاري في فتح الباري (٦٠٥٨)، كتاب المغازي، باب (٤٦): غزوة الفتح، ومابعث به حاطب بن أبي بلتعه إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي -ﷺ-، ١٥٩/٧، وأحمد في مسنده، ٨٠/١، ١٠٥، ١٠٩/٢، ٢٢٥، ٣٥٠/٣.

ونزلت سورة الممتحنة في شأنه. انظر: أسباب النزول، للنيسابوري، عالم الكتب، بيروت، ص ٣١٤-٣١٦، واسم أبى بلتعه عمرو بن عمير بن سلمه وكنيته أبوعبدالله مات وعمره ٦٥، انظر ترجمته: أسد الغابة لابن الأثير، ٣٦٢/١، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

المعاطب: المهالك، انظر: اللسان، مادة : عطب.

(٢) المقامة (٢٥): العمل، للزمخشري، ص ١٢٢-١٢٣.

كلام العرب الذي لاينام بالليل، والسنمار اللص وكأنه من السمر والنون مزيدة. والمقصود به هنا، الرجل الذي ضرب به المثل(١).

وضرب مثلاً آخر في قوله : ((أَو القَوافِي فَإبْداعُهُ فِيهْا يُلَقِّطُك ثَمَرَاتِ الغُرابِ. وإغرابُه فِيهْا يَحْثُو التُّرابَ فِي وَجُوه أَهْلِ الإغْرابِ. أَوْ الشِّعْر فَزِيادُهُ وحَسَّانُه.. وَلوْ سَمِع قَولُ قَائِلٍ منْ صُحْبَانِهِ سُحْبَانُ بنُ وَائِلٍ لا سْتَقبلَ مِنَ الدَّهْش ... إن عِلْماً بِلاَ عَمَلٍ كَقَوْسٍ بِلاَ وَترٍ حَامِلُها حَيْران مُرْتَبِك في العَمَايةِ. لايَهْتَدِي وإنْ كَانَ ابنُ تِقْنٍ إلى وجْهِ الرِّمَايَة... أغْدُ عَاقِداً بَيْنَ عِلْمِكَ وعَمَلِكَ صِهْراً وسُقْ إلى العَمَلِ مِنْ اجْتِهَادِك مَهْراً))(٢).

فقوله : ثمرات الغراب : فهو مثل في الطيب المنتقى؛ لأنه لايأكل من الثمر إلا أعلاه وأينعه، أراد أن قوافيه منتقاه من إلمامه بالشعر الذي أشار أنه فيه زياد وهو: النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت وفي البلاغة هو : سحبان بن وائل المعروف بها... كل تلك المعارف والعلوم لو كنت ملماً بها لن تنفعك مالم تعمل بها لأن العلم بلاعمل كالقوس بلا وتر تورط حاملها بها رغم معرفته بالرماية التي رمز لها بقوله: وإن كان ابن تقن: وهذا هو عمرو بن تقن ضربت به العرب المثل في جودة الرمي. فقالوا: ((أَرْمَى مِن ابْن تِقْنٍ))(٣).

إذن كل تلك الأمثال استعملها رموزاً ليصل إلى مبتغاه من وراء وعظه، وهو الحث على العمل بما تملك من علم.

ويقول الزمخشري في مقامته (٣٨): ((ياأبا القاسم لَقَدْ صَحِبت طَوِيلاً رِجالات قَوْمِك. وكَأَنك رأَيْت خَيَالاتٍ فِي نَوْمِك تَلَقَّطَتْهُم أَيْدِي المنُون فُرَادَى ومثْنَى... أَيْنَ

(١) انظر كتاب الأمثال، ابن سلام، ص ٢٧٣، ت: د. عبدالمجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط(١)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م

(٢) المقامة نفسها، ص ١٢٣-١٢٦.

(٣) انظر: كتاب الأمثال، ابن سلام، ص٣٦٩، ومجمع الأمثال، الميداني، ٣١٥/١، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار القلم، بيروت، لبنان.



جدَّكَ بعدَما حَلَب أشْطُرَ الزَّمانِ . وجَمَعَ هُنَيْدة نَصْر بن دَهْمَان. وكُلُّ مَنْ نفس لَهُ وعَمر أدْرَكَه سِنانَ المَوْتِ فدَمَّر». أراد أن يعظ بالموت هنا فلجأ إلى رموز منها : -

- حلب أشطر الزمان : فحلب الدهر أشطره: مثل في الرجل المنجد الذي مارس الأمور وذاق أحوال الدهر وخبرها. مثل الدهر بالحلوب وجعل كأنه حلب جميع أخلافها الأربعة القادمين والآخرين لم يترك منها، والمعنى حلب شطري أخلافه وزاد حلب شطر ثالث وذلك مالايكون ولكن قصدت المبالغة في استقصاء الحلب ونحوه.

- وجمع هنيدة نصر بن دهمان : بمعنى وعاش مائة سنة وهو مقتبس من قول الشاعر:

«وَنَصْرُ بن دَهْمَان الهُنَيْدَةَ عَاشَها ** وَخمسينَ عَاماً ثُمَّ قوم فَانْصَاتا
وَعَادَ سَوادُ الرَّأس بَعْدَ بَيَاضِهِ ** وَعَاوَدَهُ شَرْخ الشباب الذي فَاتا
وَرَاجَعَ عِلْماً بَعْدَ جَهْلٍ وَحِكْمَةً ** وَلَكِنَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَا كُلّه مَاتَا»[1]

وهنيدة اسم للمائة من الإبل، كما أن أمامة اسم للثمانين منها. فاستعارها للمائة من السنين وهي الاستعارة اللفظية استعمل تلك الرموز؛ ليدلل أن الإنسان سواء المحنك الذي خبر الزمان، أو الرجل الذي عمر طويلاً فالنهاية هي الموت، ولا واعظ كالموت الذي لايترك الصغير، ولا الكبير، وقد كنى الموت بـ«أم قشعم» وأشار إلى ذلك في قوله الزمخشري: «سِيَّانِ عِنْدَ المَوْتِ شَيْخُ القَوْم وشَرخُها، وشَكْلان عنْدَه قشْعم الطَّيْر وفَرْخُها، ولايتخطَّى مُحدّثاً ليعْرج علَى مَعْمَر ... بَلْ يسُوقُهُما بِسَوْطٍ واحِدٍ..»[2].

كني الموت بـ«أم قشعم» لوقوع النسور على القتلى ، والمحدث: الصادق الحدس. كأنما يحدث بالكائن قبل كونه، وعن النبي -ﷺ-: «**إن في كل أمة محدثين**

(١) انظر: هامش، ص ١٨٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٤، القشعم: المسن من النسور، انظر: اللسان، مادة: قشعم.

وإن عمر منهم»[١]. كما قال: «**إن السكينة تنطق عن لسان عمر**»[٢].

ويستمر الزمخشري في وعظه قائلاً: «أَيْنَ مَن انْتضيتَ مِنْ صُلْبهِ، ثُمَّ أغْمَدَكَ الهَوَى فِي قَلْبهِ، فكُنْتَ أحَصّ بفؤَادِهِ مِن سَوادِهِ ... أباكَ وَأبي إلاَّ كُلُّ خَيْر لكَ وفيكَ. وربَّاكَ وحَبَاك مَاقَدِر عَلَيْهِ مِنْ مبَاغِيكَ ... ولقَّحَ ذِهْنَكَ بِالعِلْمِ وَالأدبِ تَلْقِيحاً . اختلَسَهُ الحمام قبلَ أنْ يخلسَ عَارِضَهْ، وَهُيّجَ قَبْلُ أنْ يهيجَ بَارِضُهْ ... تقدموكَ فَرَاطاً إلى وردٍ لايصدرُ عَنْهُ وَارِدُه ... مَاهُوَ إلاَّ العطشُ القَاتلُ دونَ الرِّي. وإنْ تَطَايَرَ إليهِ الوُرَادُ كَالقَطَا الكُدْرّي. وَمَا أنْتَ لأعقابِهِم وَاطٍ. وعَلَى آثارِهِم خَاطٍ»[٣].

يريد : أن فكر أين والدك، وأعمامك وأخوالك من العشيرة لقد تقدموك أي سبقوك واختلسهم الموت، وأنت ستلقى المصير نفسه فأنت لأعقابهم واط، وأما في قوله : « وإنْ تطايرَ إليهِ ٱلوَرَادُ كَالقَطَا الكُدْرِيّ».

القطاة : لم ترد اسم نفسها، ولكن الناس سموها بالحروف التي تخرج من فيها[٤]، صوتت وحدها قطا قطا، وقطا: ثقل مشيه، والماشي قارب في مشيه[٥].

تقول العرب : «أصدق من قطاة» وصدقها أن لها صوتا واحداً لاتغيره، وصوتها حكاية لاسمها تقول : قطا قطا[٦].

---

(١) رواه البخاري في فتح الباري رقم (٣٦٨٩)، كتاب فضائل الصحابة، باب(٦): مناقب عمرو بن الخطاب - رضي الله عنه-، ٧/ ٤٠، ولفظ الحديث: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن في أمتي أحد فإنه عمر». ومسلم(٢٣٨٩) في فضائل الصحابة، باب(٢): من فضائل عمر - رضي الله عنه-، ٤/ ١٨٦، ولفظه: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم». والترمذي عن عائشة - رضي الله عنها- تحت رقم (٣٦٩٣)، كتاب المناقب، باب ١٨، ٥/ ٦٢٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ١/ ١٠٦.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٨٥-١٨٦.

(٤) الحيوان، للجاحظ، ٥/ ٥٧٩، ت: عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة : قطا.

(٦) الحيوان، للجاحظ، ٥/ ٥٧٩، عن : أمثال الميداني، ١/ ٣٨٦، وهو ليس كذلك بل في ١/ ٤١٢، طبعة دار القلم ، بيروت ، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد.

و((أهدى من قطاة)) : أهدى، من الهداية، وذلك أنها تهتدي في المجاهل وتعرف مواضع الماء، وتقول العرب أيضاً: ((أنسب من قطاة)) لأنها تنتسب حين تصوت باسم نفسها[١].

والزمخشري رمز بالقطا لأن الإنسان لايزور الموت بل هو المزور وبعد موته مافي دنياه إلا عمله الصالح، فالإنسان يظل يعمل في حياته إلى أن يحين أجله كالقطا الذي يمشي بتثاقل.

ورمز بالحيوان في مقامة أخرى حين قال : ((ياأبا القاسم العَجَبُ مِنْكَ تعمَلُ عَملَ الشِّرارِ، وتَأْمَلُ آمالَ الأَبْرارِ .. سَتَعْلَمُ عِنْد مُعَايرَة الأَعْمَالِ ومَثَاقِيلِها ... أنَّ عَمَلكَ مِن الخِفية في مَهَبِّ الرِّيحِ أَخَفّ، ومِنْ لاَشَيْءَ في العَدِدِ أطَفّ. أطْمَعُ مِن أشْعَب، وأَحْمَقُ مِن تَيْس أَشْعَب، مَنْ يَعْمَلْ مَايُوجِبُ عُقُوبةَ قَارُون. لَمْ يأمَلْ مثُوبَة مُوسَى وهَارُون))[٢].

فقد رمز بتيس أشعب ليدلل على غباوته، فالعرب تقول: ((ماهو إلا تيس في سفينةٍ)) إذا أرادوا به الغباوة. و((ماهو إلا تيس)) إذا أرادوا به نتن الريح[٣].

وفي المقامة نفسها رمز بحيوان آخر : هو الفيل فقال: ((لاتَزَالُ تَتَحَامَلُ عَلَيْهَا (النفس) وتُحَمِّلها ثِقَال الخَطِيئَاتِ والأَوْزار إلاّ أَنَّكَ إذ اسْتَحْمَلتَ الطَّاعَة قُلْتَ ضَعِيفٌ لايَقْوى عَلَى هَذِه الأَوْقار. فأَنْتَ عَاصِياً أقوى قُوةً مِنَ الفِيْل. ومَحْمُولاً عَلَى الطَّاعَةِ أضْعفُ مِنْ رأيِ الفِيْل))[٤].

ذكر الفيل هنا ليرمز إلى قوته[٥]، أما كلمة فيل الثانية فهي من قوله: فأل رأيه يفيل فيولة وفيلةً : أخطأ وضعف[٦]، فالزمخشري حين رمز بتلك الحيوانات، يعرف مدلولاتها المعنوية، لذا وعظ بها..

---

(١) الحيوان، للجاحظ، ٥٧٩/٥، عن : ثمار القلوب ٣٨١-٣٨٢.
(٢) مقامة (٣٦): النصح، للزمخشري، ص١٧٥.
(٣) الحيوان للجاحظ، ١٥٠/٢.
(٤) ص ١٧٦.
(٥) الحيوان، للجاحظ، ٦٥/٧، ١٠٥، ١٣٨، ١٧٨.
(٦) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة : فأل .

أما **الأسواني** فنجد الرّمز عن طريق الكناية لديه قليلاً جداً، بل لايكاد يذكر إلا في موضعين كقوله : ((طَالَتْ بهِ مدّة الانتِظَارِ وضَوّج َبيْتُ النّهارِ))[١]، فكنى عن طول الانتظار، والتململ منه بذلك.

وكقوله : ((فألْفَيْنَاهُ قَدْ اتخذَ اللّيلَ جملاً))[٢]، كناية عن الركوب والانطلاق في جنح الظلام، وفي ذلك دلالة على درايته بمعاني العربية ورموزها .

أما **ابن الجوزي** فيدرك قيمة الرمز حتى جعل بطله أبا التقويم رمزاً للعقل الذي يكون له الحكم حين النظر في الكون والطبيعة، وقد قيل:((ولما كان ابن الجوزي يعظم شأن العقل تعظيماً كبيراً، ويوليه عناية خاصة، دفعه هذا الأمر إلى أن يجعل العقل بطلاً لمقاماته، ورمز له ((بأبي التقويم)) لأنه وحده قد أبى التقويم فهو معتدل بنفسه لايحيد ولايزل، ولايميل لهوى ولايجنح لحيف، فأحكامه صائبة دائماً،وآراؤه موفقة أبداً))[٣].

ومن أمثلة لجوئه للرمزية في مقاماته واستدعاء الشخصيات الذاتية قوله : ((أيْنَ مَنْ لَعِبَ وَلَهَا، وَكسبه الهوى وَلَهَا، وجَدَّ في طلبِ الدنيا وَلَهَا، مَضَى العَمران، وَذَهَبَ الزّهْدَمان، وَتلفَ الأَحْوَصَان، فَأينَ الْعَامِران، ألهاهُمُ الحجران، وغَرّهم صُفْران، وأبْطَرهم الأَحْمَرَان. وسَرّهُمْ الأهْيَعان، فأَبْلاَهم الملَوان، وَصَرَعَهُم الصَّرعَان))[٤].

وأراد بـ((العمرين)): عمرو بن جابر، وبدر بن عمرو، وأما الزهدمان فهما: زهدم وقيس، والأحوصان: الأحوص بن جعفر، وعمرو بن الأحوص، والعامران: عامر بن مالك، وعامر بن الطفيل، ورمز بقوله : الحجران إلى الذهب والفضة، وإلى الأصفران: بالذهب والزعفران، والأحمران: الشراب ، واللحم، والأهيعان: الطعام والشراب، والملوان: الليل والنهار، والصرعان: الغداة والعشي[٥].

---

(١) المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ١١.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) انظر: ابن الجوزي ومقاماته المخطوطة، عرض وتحليل ، للدكتور: علي جميل مهنا، ص٢٦٧، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج١، م٢٨ (ربيع الآخر- رمضان)١٤٠٤هـ.

(٤) المقامة (١٣): في النهي عن النظرة، مقامات ابن الجوزي، ص ١٠٨-١٠٩.

(٥) انظر المقامة نفسها، ص ١١٠.



وفي قوله: ((مَـنْ يُفَـاصِح الخنسَـاء إذَا تَسَـهّدتْ، وَمَـنْ يُصَـافِحُ رَابعـة إذَا تَزَهّدتْ))(١)، رمز ذودلالة تاريخية، فالخنساء وهي : تماضر بنت عمرو بن الحارث بـن الشريد، من أشهر شواعر العـرب، وأجـود شـعرها في رثـاء أخويهـا صخـر ومعاويـة، أدركت الإسلام فأسلمت(٢)، ورمز إليها ليشير إلى فصاحتها، وأما رابعة وهي: رابعـة العدوية بنت إسماعيل أم الخير، مولاة آل عتيك ، ولدت بالبصرة، وتوفيت بـالقدس سنة ١٣٥هـ(٣) ورمز إليها ليشير إلى تنسكها وتزهدها الذي عرفت به. وفي هـذا حث ووعظ للقاريء؛ ليتخذهما نبراساً وقدوة في الفصاحة، والأخرى في الزهد.

وفي مقامة ثانية رمز إلى النفس بالملك، وإلى العقل بوزير هذا الملك، فقال: ((إنَّ مَلكَ البدنِ النَّفْس، وَوَزيرُه الْعَقل، وَالملكُ مشغولٌ عَنْ وزيرِه بزيرِه، وَلَايَسْلُكُ سبيلَهُ في تدبيرِه))(٤)، ليدلل بذلـك علـى أن هـذا الملـك ((البـدن)) لايسـير أمـوره إلا بمشـورة الوزير ((العقل))، فيعظ بذلك من طرف خفي كـل إنسـان أن يتسـم برجاحـة العقـل، حتى يستطيع أن يسير بالبدن في الطريق الصحيح، دون الوقوع به في المهالك.

وفي مقامة أخرى أجرى حواراً بين النرجس والورد قـائلاً: ((فـالنرجسُ يقـولُ: أفضلُ مافي الدّنْيا الذهَبُ والفضـةُ، وقَـدْ جَمَعَهمـا لَوْنـي، وَالعُيـونُ المـلاحُ بِـي يشـبهها قَوْمي، قالَ: والوردُ يجيبُ ذكرتَ مكّارَيْن، إذَا سَرَّاً غَرَّا، وإذَا خَتَـلا قَتَـلاَ، وَلَاخَيْرَ في التشبيهِ بِشَرَك تخنق حبّتُـه، وَلَابمحبـوبٍ يُعْشَـقُ يَهلـكُ في عشـقهِ أحبّتَـهُ ... فـالنَّرجسُ يقولُ: صُفْرَتي تحكي لَوْنَ المتعبدين، وَعيني سَاهِرةٌ كعيونِ المتهجدين، وَأَنْتَ أيُّهَا الوردُ طُول اللّيلِ كالنّائمين، قَالَ الوردُ: ... العنكبوتُ تنسجُ وَلَكـنْ لاقزّاً، لَوْنُـك بـاصفرار الموتى أشبَهُ مـن ألـوانِ العُبّـادِ... أنَـا في خـدر الاجْتِمَـاع إلى حيـنِ الانتفـاع، فَلاأبـرزُ للخُطـاب إلاَّ وَقْـتَ الخِطَـاب ... وَأَنْـتَ كبغـيّ تتـبرّجُ وتتبهـرجُ طَلَبْـاً للنِّفـاقِ، ... فالنرجسُ يقولُ: أَنَا سهلُ المـأخذِ لمنْ جَنَـاهُ، وشـوكُ الـوردِ يَمْنَـعُ جَنَـاهُ ... فـالنَّرْجسِ يقولُ: أَنَا سبقْتُكَ إلى الوجودِ، والسَّبق أَحْمَدُ، قالَ الورُد: قَدْ سَبَقَ الأنبياءُ وتقدَّمَ أَحْمَدُ،

---

(١) المقامة (١٤): في الشيب، مقامات ابن الجوزي، ص١١٦.

(٢) انظر: أعلام النساء، رضا كحالة، ١/٣٠٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، والأعلام، للزركلي، ٢/٦٩.

(٣) انظر: الأعلام ، للزركلي، ٣/٣١، وفيات الأعيان، لابن خلكان، ١/١٨٢.

(٤) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.



أَنْتَ تنظرُ نظرَ الدَّهش المبهوتْ، وإذَا فارقتَ الماءَ ليلةً تَمُوتْ، وَمَتَى سُلِبتْ رُوحكَ ذَهَبَتْ رِيحكَ، فَرَحَلْتَ عَقِيماً، لاتخلف نَسْلاً وَأَنَا إذا ذَهَبَتْ طَرَاوتي، بقيتْ رَائِحتي، وَغَسَلْتُ الوجُوه طولَ السَّنةِ بِدَمعتي))[1].

فرمز بالنرجس إلى الإنسان الذي يغتر بالشكل الخارجي دون النظر إلى الداخل، إلى مابين الحنايا، ورمز بالورد إلى مايوافق شكله مضمونه، بل حتى بعد مغادرته يترك أثراً حسناً لدى جلسائه، فيندمون على فراق خلقته وخلقه.

أما في مقامته المسماة ((في ذم الدنيا ومدحها)) لم يرد ذم الدنيا أو مدحها لذاتها، وإنما رمز إلى ذم لذاتها فيقول في ذمها : ((بئسَ نصيبُ مَنْ قنعَ مِنَ النصيبِ بهذِهِ الدَّار، أَوَ لَيْسَ النصبَ قَدْ انْتَصَبَ حَوْلَهَا وَدَار، إِنَّها لَظِلال سُرور، مُدَتْ علَى ظِلَالِ غُرور، تَمَامُهَا نَاقِصٌ، وَدَوامُهَا وَاقِصٌ، وَسَمَاؤُها وَامِضٌ، وَبَلاَؤُها غَامِضٌ، كَمْ قد درستْ حَسَنا، وأَخْرَسَتْ لَسِنا، ونكّستْ ذَقِناً وَبلّدتْ لَقناً، كم عَقدتْ عَقْداً وأحلّتْ حَلّها، وكمْ نقدتْ نَقْداً فاستلَبَتْ من حَلّها، كَادتْ تُغْني ثُمّ كادتْ، وَعَادتْ تُصبى ثُمّ مَاعَادتْ، وتظهرُ المحبّة وقَدْ عَادَتْ، إنْ أضحكتْ في أفرَاحِها شَهْراً، أبكتْ في أَتْرَاحِها دَهْراً، تُعْطي تَفَارِيق وَتَسْتَرْجِع جُملا...))[2].

فكل هذا الذم؛ ليظهر للذي ينخدع بها، ويركن إليها، وإلى ملذاتها أن خاتمته قبيحة، وعاقبته وخيمة، فرمز إلى ذلك بوصف الدنيا بتلك الصفات، حتى يتوقى المسلم من الركون إليها، وليجعلها دار مرور، لادار قرار، وليعمل فيها بكل مايجعله يعيش سعيداً في تلك الدار الآخرة.

وفي مقامة أخرى يلجأ ابن الجوزي إلى الرمز عن طريق قصص الحيوان، فيقول: ((لما شُقّ خِتامُ نافجةِ النبوّة فَملأتْ الأرضَ رِيحُها استنشَقَها أهلُ العافية، فوصلتْ إلى خياشيم سَلْمَانَ في فَارس، وصُهيبٍ في الروم، وَبِلَالٍ في الحبشةِ، وَكَانَ ابن أُبيّ مزكوماً فَمَا نفعَهُ قُرْبُ الدّارِ، ثُمّ قالَ: الصفاءُ والكدرُ في أصلِ الوضعِ، ضعفُ

---

(١) المقامة (٢٣): في الربيع، مقامات ابن الجوزي، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) المقامة (٢٦): مقامات ابن الجوزي، ص٢١٣، اللقن: الذكى، انظر: اللسان، مادة: لقن، حلها: الأولى: عهدها، والثانية: امتلكها، انظر: اللسان، مادة حلل .

عَيْنِ الخَّفاشِ ليست برمَدٍ، وَحِدّة نظر الهدهُدِ خِلقة ...))(١).

فرمز لضعف أو حدة النظر عند الخفاش والهدهد إلى أن ذلك أصل خلقهما الله عليه، وكذا الشريعة السمحاء ظاهرة للعيان لمن قد كتب الله له السلامة في الدنيا والآخرة فينضوي تحت لوائها، دون أن يكون لقربه من الرسول -ﷺ- أو بعده صلة بذلك، إلا من شرح الله صدره للإسلام.

ورمز بالحيوان في مقامة أخرى في قوله : ((والنملةُ إذَا نبتَ جَنَاحُهَا، ثبتَ احتياجُها))(٢). فرمز بالنملة إلى النفس التي لاتستغنى عن العقل أبداً في اتخاذ قرار ما، في قوله: ((تَا لله لَوْلَا التثقيف مامَهَر مُهْرٌ، وَلَوْلَا الصَّبر عَلَى التضمير مَانُوِّه لِلغرَاب ذِكْرٌ))(٣).

فرمز بهما ليظهر للنفس أنها لولا التعليم لما قومت، وكذا المهر، والغراب، ورمز إلى حيوانات كثر في قوله : ((العنكبوتُ مِنْ حِينَ يُولَدُ يَنْسِجُ لنفسهِ بيتاً، ولايقبلُ مِنَّةَ الأُم، والحيّة تطلبُ مَاحَفَرَهُ غَيْرُهَا إذْ طَبْعُهَا الظلم، وَالعُصْفُور إذَا أُوذِي صَاح، فَاجْتَمعتْ العصافيرُ تضربُ مَنْ آذاه، وَإذَا وقعَ فَرْخُها طرنَ حَوْلَهُ ليعلِّمنهُ الطيران، والنَّملة إذَا عجزتْ عَمَّا تحملُهُ أَعَانَهَا النَّمْلُ، فَإذَا وَصَلْنَ بالمحمولِ إلى بيتها رَفَعْنَهُ عَلَيْهَا، والغرابُ يتبعُ الجيفَ، والأسد لَايأكلُ الغابَّ، وَالكَلْبُ يبصبص ليطعَمَ، والفيلُ لَايأكلُ حَتّى يُتمَلَّق...))(٤).

كل هذه رموز لما تفعله بعض الحيوانات، أراد بها الإشارة إلى بعض مايصير من الإنسان فمنهم من هو كالحية يحب أن يحصل على مايريد دون كد وتعب، ومنهم كالعصفور يستغيث إذا تعرض للأذى فيجد من ينجده ، وهكذا ...

هذه بعض مارمز إليه ابن الجوزي عن طريق الحيوانات وقد قال د.عبدالملك مرتاض في ذلك :

---

(١) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٥٧.

(٢) المقامة (٤٣): في مخاطبة العقل للنفس، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٤٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٥٠.

(٤) المقامة (٤٨): في ضرب الأمثال وحكم الحيوان، ص ٣٩٨-٣٩٩.



« مما يدلل على عمق تفهمه لقيمة الرمز ساق - ابن الجوزي - في مقدمة مقاماته بعض قصص الحيوان التي تنطوي على مدلولات معنوية، نجد فيها إدراكاً يتجاوز حدود الفهم المسطوح ... وربما ساعدته النزعة الصوفية على فهم قيمة الرمز وأهميته كأساس لاغنى عنه في التعبير البلاغي»[١].

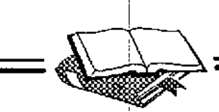
ونخلص إلى أن البحث لايدعي أنه أعطى الرمز حقه فما هي إلا رؤيا خرج بها من وراء الكناية، لأن ترجمة الرمز ونثر كل معطياته من المحال، ومن العسير القول عن رمز من الرموز أنه يعني كذا وكذا فحسب، وإلا لما كان موحياً، إذ للطاقة الإيجابية الموجودة فيه بقصد الرمز لذاته، وفي هذا تكمن قيمته وأهميته، فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء وهذا مركز التقاء الرمز بالكناية بمعناها اللغوي، فكلاهما لايحللان الواقع، بل يكثفانه ويتيحان للوعي اشتقاق عالم لاحدود له، ويعتدان باللفظ في تركيبه اللغوي الذي لايخضع لمقاييس عقلية، بل إن التركيب اللفظي إنما هو رمز أدبي يستلزم مستويين: مستوى الصور الحسية التي يتخذها الرمز قالباً له، ومستوى الحالات المعنوية التي يرمز إليها بهذه الصور الحسية .

وكتاب المقامة حين عمدوا إلى الرمز عن طريق الكناية لم يكن ذلك الاستخدام جديداً، فقد كانت موجودة في الشعر الجاهلي، وهي كذلك موجودة في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فهناك الكثير من الآيات القرآنية بعد البحث في مضامينها واستشفاف مافي طياتها من أبعاد وآفاق معنوية تحملها الألفاظ والتراكيب، والتجاوز بها عن الإشارية والفرضية في الكلمة، والرقي بها عن مستوى العلامة إلى مستوى الرمزية الدفينة فيها، نجدها مثلاً على ذلك، كقوله تعالى في صفة المسيح عليه السلام: **﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾**[٢].

لو أننا ألقينا نظرة إلى القرآن الكريم واستطلعنا السياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن الله - عز وجل - عندما أراد أن يؤكد بشرية عيسى عليه السلام وأمه، ونفي فكرة الألوهية التي زعم النصارى انتساب عيسى - عليه

---

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٢٠٢.
(٢) سورة المائدة، آية ٧٥.



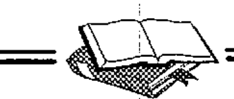
السلام- إليها، نعته وأمه بأكل الطعام مثلهما كمثل سائر البشر. فأكل الإنسان للطعام رمز للحاجة والعوز؛ لاستمداد الطاقة والقدرة، والافتقار إلى ا لله وقدرته.

وأما الأحاديث النبوية الشريفة فهي مليئة كذلك بالكنايات التي ترمز إلى ماخلفها من مثل قوله -ﷺ- : ((رويدك سوقك بالقوارير))[1]. يـر يـد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير .

وهكذا لحظنا في كل ماتقدم أن الكلمة تزخر بمعان أوسع وأعمق، فهي رحم خصب بالمعاني، وكلما تعاطفنا معها أسرعت في الكشف عن معالمها، وتوالد التضام بين أجزائها المبعثرة. وبالكلمة التي لاتعرف التجريد أو القيود أو الحدود يكون فتح هذا العالم وامتلاك كنوزه وثرواته. إنَّ لكلِّ كلمةٍ قيمةً ودوراً ينبيهما أصحاب اللّغة عليها، وتتجاذبها تجاربهم ورؤاهم وخبراتهم في هذا العالم المتماوج بين صعود وهبوط، فأصحاب المقامات حين استخدموا الرمز جعلوه يدور حول ألفاظ تخدم في الغالب هدف بطل مقاماتهم، فالدينار مثلاً – لدى الهمذاني والحريري له تفسيران، الظاهر منهما يمثله العطاء أو الوصول إلى المال، فمن يملكه – الدينار- يكون الغني والجاه لديه، ومن لايملكه فالفقر والعوز يجعلانه يسعيان للحصول عليه، فهو كالمنافق له وجهان، إلا أن ابن الجوزي والزمخشري يرمزان إليه، ليعظا به، فما هو إلا قنطرة توصل الإنسان للعمل الصالح؛ بانفاقه في وجوه البر والصلاح؛ لأَنَّ الدنيا لاتدوم على حال، ومن هذا المنطلق يحثان على عدم الركون إليها، كما اتكأ الزمخشري على استدعاء الشخصيات القرآنية والتاريخية؛ ليوظفها في وعظه فيكون أدعى للتأثير، وتبعه في ذلك ابن الجوزي الذى رمز عن طريق قصص الحيوانات هو وسابقه، لما تنطوي على مدلولات معنوية نجد فيها إدراكاً يتجاوز حدود الفهم المسطوح.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٣) في كتاب الفضائل، باب (١٨): رحمة النبي -ﷺ- للنساء بدايته: ((ياأنجشه! رويدك..)) ١٨١١/٤.



القص :

استخدم الكثير من الدعاة الأوائل من الصحابة والتابعين أسلوب القصة في دعوتهم، بل ان منهم من اقتصر عليها في دعوته ومنهم الصحابي : ((تميم الداري[١]، والتابعي: محمد بن كعب القرظي[٢]، والإمام سعيد بن جبير[٣]، والإمام الحسن البصري[٤]))[٥].

وهذا **ابن الجوزي** يبدأ مقاماته بقصص الأنبياء فيأخذ منه المقامات الخمس الأول لم يسبقها إلا مقامة واحدة ذكر فيها بعض القصص على لسان الحيوان.

---

(١) هو تميم بن أوس بن خارجة، الصحابي الجليل الذي أسلم سنة تسع، كان من حفظة القرآن ومن العباد، سكن بيت المقدس،
انظر: ترجمته في الاستيعاب، ابن عبدالبر، ١٨٦/١. الإصابة، ابن حجر، ١٨٦/١، صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٧٣٧/١.

(٢) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، أبوحمزة التابعي المدني، كان ثقة عالماً كثير الحديث، كان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه السقف فمات هو وجماعة تحت الهدم سنة ١١٨هـ.
انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ٤٢٠/٩، ط١، ١٣٢٦هـ. شذرات الذهب، ابن العماد، ١٣٦/١. صفة الصفوة، ابن الجوزي، ١٣٢/٢.

(٣) هو سعيد بن جبير الوالبي، الكوفي المقريء الفقيه، كان عابداً من أئمة العلم، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ. انظر ترجمته في : البداية والنهاية، ابن كثير، ٩٦/٩-٩٩. تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٧٦/١. صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٧٧/٣. طبقات المفسرين،للداودي، ت: علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ١٨١/١.

(٤) هو الحسن بن يسار البصري، أبوسعيد إمام أهل البصرة، وهو من سادات التابعين وفضلائهم جمع العلم والزهد والورع والعبادة، ت سنة ١١٠هـ.
انظر ترجمته في : صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٢٣٣/٣. طبقات المفسرين،للداودي، ١٤٧/١. وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٣٥٤/١.

(٥) كتاب القصاص والمذكرين، ابن الجوزي، ص ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٤٨، ت: د.محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

ولما كان ابن الجوزي على علم بأهمية القصة في القرآن الكريم فقد سار على نفس خطاه فبدأ أول مابدأ بها، ومن منطلق هذه الأهمية وفي ضوئها نقول:

إن أغراض القصة في القرآن الكريم تصب كلها مجتمعة في القلب، لتعمل فيه الإيمان وترسخ أصوله، لذا وجدنا القصة مقترنة الخطى بالعبرة الجليلة والعظة الغالية.

((فالقرآن كتاب دعوة أولاً وقبل كل شيء وفي تضاعيف القصص لأخبار الأولين يزداد غرض الدعوة وضوحاً ويتبين منهجها الذي تحدو البشرية إليه، لايختلف وإن اختلفت العصور، ومن هنا كانت أهمية القصة للداعية.

فتثبيت العقيدة، وترسيخ قوائمها في أفئدة المؤمنين من خلال الأحداث القصصية الغابرة من أعظم أغراض القصة القرآنية ، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(١)))(٢).

لذا يقول ابن الجوزي في مقامته المسماة : ((في وصف قاص)): ((وقَعَ اختيارُ الوسامِ عَلَى سماعِ القصص، فَقَالَ لهم أبوالتقويم : إنَّها لَأَوْفَى الأَقْسَام، وَأَوْفَر الحصص، ... وَابتدأ بعدَ الأذْكَارِ بِقصةِ أَبي الْبَشَرِ فقالَ: لما خَلَقَ ا لله تَعَالَى آدم أَلْقَاهُ كاللَّقى فلمَّا نفخَ فيهِ الرُّوحِ ماتَ الحاسدُ فَرقا، ثُمَّ أمرَ الملائكةَ بالسجودِ، فَتطهرُوا مِنْ غَدِيرِ لَاعِلْمَ لنا، وغُودرَ الغادرُ بَخْساً لِكبرِ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، فَلمَّا جَرَى عَلَى آدم القدرُ بالزللِ نَزَل... فقيلَ لَهُ: لاتحزنْ لِقولي:اهبطْ مِنْهَا فلكَ خلقتُها، اخرجْ مِنْهَا إِلَى مزرعةِ الآخِرَة...))(٣).

فقد بدأ ابن الجوزي وعظه بذكر قصة خلق سيدنا آدم، وأمر ا لله للملائكة بالسجود، فقوله: ((فتطهروا من غدير لاعلم لنا)) يشير ابن الجوزي فيه إلى قوله تعالى:

---

(١) سورة هود، آية ١٢٠.

(٢) روائع الاعجاز في القصص القرآني/ محمود السيد حسن، ٦١-٦٣، المكتب الجامعي الحديث، إسكندرية.

(٣) المقامة الثانية : في وصف قاص لابن الجوزي، ص ١٤-١٥، ت: د.محمد نغش.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(١).

ثم ذكر قصة (آدم) مع إبليس الذي رفض السجود، فقوله: ((وغُودِرَ الغادرُ بخساً لكبرٍ أنَا خيرٌ مِنْهُ)): يشير بذلك إلى قوله تعالى :﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(٢).

أما قوله : ((لاتَحْزَن لِقَوْلي:اهبطْ مِنْهَا)) فيشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾(٣).

وبعد ذكر قصة آدم لم يترك ابن الجوزي السبب الذي دعاه إلى ذكرها، فانبرى يعظ قائلاً: ((اخْوَاني إيَّاكم وَالذّنُوب فَإنَّها أذلتْ عَزيزَ اسْجُدُوا))(٤) يعني به إبليس الذي عصى أمر ربه فأذله، ((وأخرجتْ مُنقْطَع اسكنْ استراحَ إلى بعض الْعَنَاقيد فإِذَا بهِ فِي العَنَاقِيد)) يقصد آدم في قوله تعالى : ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا...﴾(٥). فلما عصى ربه أخرجه منها.

فالوعظ كان من وراء ذكر ابن الجوزي لقصة آدم وإبليس معه.

أما أبرز ماظهر في هذه القصة من عناصر فهي :

١- الشخصية :

والتي يقصد بها ((كل شخصية حقيقية أو اعتبارية، وقعت منها أحداث، وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دوراً في القصة كالملائكة والجن، والطيور كالهدهد، والحشرات كالنملة، ثم الأناسي من نساء ورجال))(٦).

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٢.

(٢) سورة ص، آية ٧٦، الأعراف، آية ١٢.

(٣) سورة طه، آية ١٢٣.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٦.

(٥) سورة البقرة ، آية ٣٥.

(٦) الفن القصصي في القرآن، د. محمد أحمد خلف الله، ص ٢٦٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٧٢م.



والرجال :

أ – منهم رسل وأنبياء كآدم ونوح وهود وصالح ... الخ.

ب – ومنهم أفراد عاديون كإخوة يوسف، أوملوك ووزراء كفرعون وهامان.

والشخصية التي برزت هنا شخصية سيدنا آدم وزوجه فقال : ((وابتدأ بعد الأذكار بقصة أبي البشر، فقال لما خلق ا لله آدم ألقاه كاللقى ...))[1].

ومن ثم إبليس من دون بقية الملائكة، وقد استقى ابن الجوزي قصته من ((قصص القرآن الذي يهدف إلى التأثير بالشخصية، فهي عنصره البارز فيقدم:

أ – نماذج للقدوة، كما فعلت الملائكة التي أطاعت أمر ربها حين أمرها بالسجود فيقول: ((ثم أمر الملائكة بالسجود))[2].

ب – أو لعرض مباديء الدعوة، وبيان خطوات حركتها ومايحدث في سبيلها من صراع... وإبراز يد القدرة وهي تضع الأحداث))[3].

ويعلق على ذلك أحدهم قائلاً: ((لقد شاء ا لله بذلك أن يبقى القرآن في تقنينه للحياة من خلال البشر والأحداث أفقاً تطلع عليه، وتظهر شموس ونجوم هؤلاء الأنبياء، والذين تتمثل في حياتهم ومجاهداتهم سنن ا لله وقوانينه التي تحكم حياة المجتمعات، وتتدافع بآثارها حركة التاريخ، وهم من آدم حتى محمد ذرية بعضها من بعض))[4].

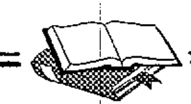
---

(١) انظر المقامة (١): نفسها، ص ١٤.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) منهج القصة في القرآن، محمد شديد، ص ٨٠-٨١، شركة مكتبات عكاظ، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٤) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، ص ٢١٨، دار الجيل، بيروت، ط ١٩٧٨م.



٣ – الأحداث :

هي الوقائع التي تجري في القصة ، ويدور حولها عنصرا الحوار والأشخاص حيث الصلة بينهما «أقوى من أن يدلل عليها أو يلفت الذهن إليها؛ ذلك لأنهما العنصران الرئيسيان في كل قصة، فنحن لانستطيع أن نتصور شخصاً من غير أحداث تلم به، أو تقع عليه إلا أن العنصر البارز في تكوينها هو عنصر الحوادث، حتى إن الأشخاص قدبتهم، وتجعل عامة غامضة، لكن ذلك لايدفع إلى التسليم بخلو القصة من هذا العنصر، مهما يبرز غيره من العناصر»[١].

ولما كانت القصة المذكورة في هذه المقامة هي إحدى قصص القرآن الكريم، فلن نجد غرابة إذا كان حديثنا هنا عن القصص القرآني الذي نرى بصماته واضحة ليس بالإشارة فقط بل باللفظ حين قال ابن الجوزي: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»[٢] من قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٣].

والحدث هنا : خلق الله لآدم أولاً ثم تتوالى الأحداث.

وطبيعة الأحداث في القصص القرآني مختلفة يوضحها «السبب الذي من أجله اختيرت هذه الأحداث بعينها دون غيرها، والقرآن نفسه يدلنا على هذه الأسباب حين يقول: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾، وحين يقول: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وحين يقول ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾»[٤].

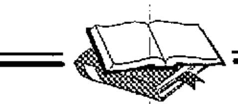
---

(١) الفن القصصي في القرآن، د. محمد أحمد خلف الله، ص ٢٩٠.

(٢) المقامة الثانية :في وصف قاص ءلابن الجوزي، ص ١٤.

(٣) سورة طه، آية ٧٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢٥، والآية الأولى في النص من سورة هود آية ١٢٠، والثانية من سورة الأعراف، آية ١٧٦، والثالثة من سورة يوسف، آية ٣.



٣ – الحــوار :

إن الحوار في هـذه القصـة الـتي هـي مـن قصـص القـرآن – في ضـوء الشـمول الإلهي، وسنن ا لله الهادية – هو ((كلام أوحى ا لله بـه على ألسـنة الأنبيـاء، ليكـون في الإخبار عما وقع منهم في مراحل الدعوة السابقة وعصورها تقنيناً شاملاً ودلالاتهـا في علم الإنسان وعلم التاريخ، حواراً لكل العصور، ولكل الأجيال والشعوب، وهو يعلـو فوق حدود الزمان والمكان، ليبقى في سمع الدهر بشيراً ونذيراً لكـل مـن ألقـى السـمع وهو شهيد، وهو بهذه الرؤيا العلمية ليس مجرد أحاديث أفراد عن الهدى والضـلال في نطاق رؤية الفرد كما هو في القصـص التـاريخي، وليـس هـو الصناعـة للمواقـف وفـن تخليق الكلمات كما هو في قصص الخيال))[١].

وعلى هذا فالحوار عنصر مهـم في القصـص القرآنـي، تـأتي أهميتـه مـن كـون القرآن ((جعل كل قضاياه سبيلها الحوار، وجعل كل خلافه مع أعدائـه ومخالفيـه قائمـاً على الحوار. ولم يجعل من القوة سبيلاً قط إلى التعامل مع المخالفين، وإنما جعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق؛ لتكون أيضاً وسيلة إلى إعادتهم إلى الحق))[٢].

لذا نجد كثيراً من قصـص القـرآن كـان الحـوار فيـه العنصـر المهـم إن لم يكـن العنصر البارز، وهو موجود على كل حال في كـل قصـة تعـددت شـخصياتها كقصـة خلق آدم، وقصته مع إبليس التي بين أيدينا في المقامة نفسها .

((وطريقة القرآن في تصوير الحوار تقوم علـى أسـاس الروايـة، فيحكـي القـرآن أقوال الأشخاص ويصدرها بقوله : قال أو قالا أو قالوا))[٣].

((وهذا التصدير يلفت الذهان إلى أمر خاص بالحوار في القصص القرآني هـو: أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين فقط فقد يكون بين كثرة))[٤].

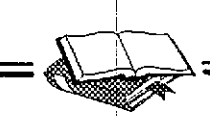
---

(١) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية، والمسرح، أحمد موسى سالم، ص٢٢٤-٢٢٥.

(٢) أسـلوب المحاورة في القـرآن الكريـم، د. عبدالحليـم حفنـى، ص ٥، الهيئـة المصريـــة العامـــة للكتاب، ط(٢)، ١٩٨٥م

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، د. أحمد محمد خلف ا لله، ص ٣٠٣.

(٤) من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، د. السيد تقي الدين، ص١٩١-١٩٢.



وفي حوار قصة خلق آدم، استغرق في أشكال المجاهدة والإصرار عرض لذلك الموقف الذي يوجز في أقوال مقننة، تصادم موقف الطاعة لله بموقف الرفض الذي فيه الاستكبار والباطل بل والتمادي فيه إلى درجة طلبه - أي إبليس - من الله أن يمهله ليعمل على غواية أولاد آدم ... إلا أن الطابع العام للحوار يظل كما هو في اختلاف العاطفة بين المتحاورين، فقد بقي المستكبرون على ماعرف عنهم من قسوة وجبروت ممثلاً في إبليس، ومضت بقية الملائكة بما تحمله في قلبها من المحبة والطاعة لله لتنفيذ ماأمرت به فامتثلت وسجدت حين طلب منها ذلك .

قال ابن الجوزي: «لَمَّا خَلَقَ الله تعالى آدم كاللّقى ... ثُمّ أمرَ الملائكةَ بالسجود، فتطهرُوا مِنْ غَدِيرِ لَاعِلْمَ لَنا، وَغُودرَ الغادرُ بَخْساً لكبرِ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ... فقيل لَهُ: لاتحزنْ لِقولي:اهبطْ مِنْها ... فنمتْ هينمةُ الملائكةِ بعبارةِ نَظَرِ الْعَاقِبَة فَنَشَرُوا مَطوى أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فيها»[1].

٤- الزمان والمكان :

عنصر الزمن في القصة بشكل عام له مكانته، حيث «تقوم القصة الناجحة عليه، فتطلع بذلك العنصر في الوقت الذي تستدعيه الأحوال، كما تبعده عن مجال الرؤية في الوقت المناسب»[2].

ومن هنا كان العنصر الزمني في القصة القرآنية لايجيء إلا بحسب مقتضيات الحال، فحينما يكون له أهمية في رسم الصورة المعطاة يجيء القصص به، وحينما لايكون له أهمية من ذكره، أو أن ذكره وعدمه سواء، فلايذكر.

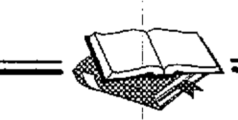
وحين نقول إن الزمن لم يجعل محوراً دائماً ترتبط به أحداث القصة القرآنية «فليس معنى هذا أن الأحداث لاترتبط برباط الزمن، وإنما معناه أن تسلسل الأحداث في القصة يخضع للغرض أو المقصد الذي من أجله نزلت القصة»[3].

---

(١) المقامة الثانية: «في وصف قاص» لابن الجوزي، ص ١٤-١٧، ت: د. محمد نغش.

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، ص ٨٢-٨٣، دارالفكر العربي.

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، د. محمد أحمد خلف الله، ص ٢٩٤.



وكذلك المكان:فهو لايقل أهمية عن غيره من العناصر،إلا أن الأمر- كما يقول الأستاذ الخطيب- «لايلتفت إلى المكان ولايجرى له ذكرا، إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثر في سير الأحداث أو يبرز ملامحها، أو يقيم شواهد العبرة والعظة منها»(١).

وفي ضوء ذلك وجدنا الحدث في قصة خلق آدم قد عرض مقروناً بالمكان ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(٢)؛ لأن له مجالاً في سير الحادثة، فتعلق الغرض بذكره كما في قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(٣).

وفي المقامة نفسها انتقل لذكر قصة هاروت وماروت فقال: «نقّبُوا عَنْ خيارِ نقبائِكم، فانتقوا مَلكَ الملكُوت، وَمَارُوا فَمَا رَأَوْا لمثلها مثلَ هَارُوت وَمَارُوت، فَأَبَّا لسفرِ البلاء بالبلهِ، فَمَا نَزَلَا حَتَّىٰ نَزَلَا مِنْ مَقام العصمةِ، فَنَزَلَا مَنْزِلَ الدَّعوى، فَرَكِبَا مَركَبَ البشريةِ، فمرتْ عَلَى المرْأين امرأةٌ يقالُ لَهَا الزُّهرَة، بيدِها مِزْهَرُ زَهْرِ الشَّهوة، فغنتْ الغانيةُ بِغُنَّة أغنّ، وَرَنَّتْ قيانُ الهوى، فَهَوَى الصَّوْتُ في هوةِ قلب قلبيهما، فقلبتهما عَنْ تَقْوَى التَّقْوِيم، فَانْهَارَ بِناءُ عَزْمِ هَارُوت، وما رَهمٌّ حزم مَاروت فَأَرَادَها عَلَى الردى، فَرَاوَدَها ومَاقَتَلَ الهوى نَفْسًا فَودَاها فبسطتْ نِطْعَ التنطع عَلَى تختِ التخيير: إِمّا أَنْ تُشْرِكَا، وَإِمَّا أَنْ تَقْتُلَا، وإِمَّا أَنْ تَشْرَبا، فظنَّا سُهولةَ الأمرِ في الخمرِ، ومافَطِنَا أنَّه أمرُّ الأمْرِ، فلمَّا امتدّ سَاعِدُ الخلافِ فسقَى فسقا، فَدَخَلَا سككَ السّكرِ فزلّا في مزلقِ الزّنا، فَرَآهما مَعَ الشَّخصيةِ شخصٌ فَقَتَلَاه، ثُمَّ اسْتَفَاقا بَعْدَ أَنْ وقعتِ المشَابكة، فَفَشَتْ فتنتُها في فئةِ الملائكةِ، فَاتّخذُوا لتلكَ الواردةِ وِرْداً مِن تضرع: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾»(٤). أشار بذلك إلى قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾(٥).

---

(١) القصص القرآني، ص ٩٢.

(٢) سورة البقرة ، آية ٣٥ .

(٣) سورة البقرة، آية ٣٠.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٧، وفي مخطوط ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي جميل مهنا، ص١٨٥، قوله: (ففشت فتنتهما).

(٥) سورة الشورى، آية ٥ .

وقصة هاروت وماروت كما ذكرت هنا في هذه المقامة من الإسرائيليات، فقد «روى السيوطي في الدر المنثور، في تفسير قوله تعال ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾(١) : روايات كثيرة وقصصاً عجيبة(٢).

والغريب أن يذكر ابن الجوزي قصة هاروت وماروت في هذه المقامة على هذا النحو من الإسرائيليات، والأغرب من ذلك قول د. محمد أبو شهبة: « وقد حكم بوضع هذه القصة الإمام: أبوالفرج بن الجوزي(٣)، ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما، فهو كافر با لله العظيم(٤)، ... وكذلك: حكم بوضع المرفوع من هذه القصة: عماد الدين بن كثير(٥)، وأما ماليس مرفوعاً: فبين أن منشأه روايات إسرائيلية – أخذت عن كعب وغيره وألصقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام ...

أقول – والكلام مازال للدكتور أبو شهبة – «وهذا الذي قاله العلامة ابن كثير هو : الحق الذي لاينبغي أن يقال غيره ...

والعجب : أن الإمام ابن جرير(٦): حوم حول ماذكرناه في تفسير الآية ثم لم يلبث أن ذكر ماذكر، ... وعلى القارئ أن يحذر من هذه الإسرائيليات سواءً وجدها في كتاب تفسير، أو حديث، أو تاريخ، أو مواعظ، أو أدب ...»(٧).

وقد أشار الذهبي(٨)، وكذا الزرقاني(٩)، إلى أن الطبري يكثر من ذكر الروايات الإسرائيلية في تفسيره.

أما ابن كثير(١٠) ت سنة ٧٧٤هـ فقد كان ينبه إلى مافي التفسير المأثور من

---

(١) سورة البقرة، آية ١٠٢.
(٢) ١/٩٧-١٠٣، وانظر جامع البيان لابن جرير، ١/٣٦٢-٣٦٧.
(٣) اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، ١/٨٢، دار المعرفة، بيروت، ط(٣)، ١٤٠١هـ.
(٤) روح المعاني، ١/٣٤١، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
(٥) البداية والنهاية، ١/٣٧.
(٦) جامع البيان، لابن جرير، ١/٣٥٩-٣٦٠.
(٧) الإسرائيليات والموضوعات،د.محمدأبوشهبة، ص١٦٤-١٦٥،مكتبة السنة،ط(٤)،١٤٠٨هـ.
(٨) انظر: التفسير والمفسرون، ١/٢١٥.
(٩) انظر: مناهل العرفان، ١/٤٧٦، دار الفكر، بيروت.
(١٠) انظر: مناهل العرفان، ١/٢٤٥.



منكرات الإسرائيليات، كما أثبتنا في قصة هاروت وماروت، وبعد قصة هاروت وماروت أتى ابن الجوزي بقصة نوح التي تبدأ بالأمر بالإنذار الذي استغرق عمر أجيال «فقال أنذر الخلق ألف سنة إلا خمسين عاماً»[1] مستقاة من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، ومن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[3]

إن نوحاً – عليه السلام – معه الحق، وقومه معهم الباطل، وتحمل كل التفاصيل حين يعلن موقف الرفض فتأتي النهاية، يقول ابن الجوزي: «فغربتْ شمسُ الأنظارِ، فادْهمّتْ عقابُ العِقابِ، فلمّا انسدلتِ الظلمةُ، وفاتَ النّورُ، فَارَ التَّنور، فتخلف خلّفَ نُوح، خلف مِن ولدِهِ، فمدّ يدَ الحنوّ ليأخُذَه بيدِهِ: يَابني ارْكَبْ مَعَنَا، فقيلَ: إنّه قدْ أهلكَ، إنّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ»[4]. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[5].

أما من تخلف عنه والذي مد إليه يد الحنو ليأخذه بيده، يابني اركب معنا: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[6].

ويطوى بقية الحوار إلى نهايته، «فقيل إنه قد أهلك، إنه ليس من أهلك»، ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[7].

والقصة ينتقى منها مقطع العبرة والعظة، والتي تكاد تكون في جميع قصص القرآن؛ ذكر النهايات. إلا أنه هنا بعد ذكر القصة لايفوته أن يستفيد من أعظم مافيها – وكلها عظيم – وهي حقيقة الولاء، والبراء، فنوح حينما تتحرك فيه جوانب الأبوة، وشفقة النبوة يعلمه الله كيف تقنن هذه المشاعر، وممن تتصل، ولمن تصرف

---

(١) المقامة والصفحة نفسها.
(٢) سورة نوح، آية ١ .
(٣) سورة العنكبوت، آية ١٤.
(٤) المقامة والصفحة نفسها.
(٥) سورة هود، آية ٣٧-٤٠.
(٦) سورة هود، آية ٤٢.
(٧) سورة هود، آية ٤٦.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فكل صلة بعيدة عن صلة العقيدة فهي ميتة (سلمان منا آل البيت) بإيمانه، وابن نوح ليس منه بكفره .

ثم ينتقل بنا إلى قصة عاد التي يغفل فيها المسميات والأشخاص ويبقى الحدث؛ تطوى فيه سجلات الحوار، والزمان والمكان إلى النهاية المحتومة للرفض العاجز بجهلٍ لحقيقة قدرة الله، يؤكد ذلك عدم إدراكهم لحقيقة الأمر حتى حين رؤيتهم للريح المرسلة.

((أقلّ مافعلَ بعادٍ بِعَادْ، عَادَ عليهم الهوى فامتدّ المقصوُر سحبَ سَحَابُ العذابِ ذَيلَ الإدبارِ، بإقباله إلى قبالتهم فَظَنُّوه لما اعترَضَ عارضَ مطرٍ، فصاحَ بُلْبُلُ البلبالِ: بلْ هُوَ مَااسْتَعجلتمْ بهِ فراحتْ ريحُ الدَبّور لكي تَسِمْ الأَدْبَار، بكَيٍّ الإِدْبَار)).

وهكذا يمضي إلى قوله : ((وَلَاأقلعتْ حَتّى قَلَعَتْ قلُوع قِلَاعهم، فدامتْ عَلَيهم آفَةَ وَدَاء، لايَقْبَلُ فداء، سَبْعَ ليالٍ وَثَمانيةَ أَيامٍ حُسُوما))(١).

وفي ذلك يقول تعالى واصفاً لهذه الريح: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾(٢).

نهاية تحمل في طياتها الترهيب والتخويف من واقع محتوم يرشد إلى الأخذ بالحيطة،مع مايقرره من التفكير والعقل السليم الذي ينبغي أن يتخذ من أجل السلامة.

ويستمر ابن الجوزي في ذكر قصص الأنبياء فيأتي بقصة النبي صالح – عليه السلام– يستعرضها من بدايتها ((فإنْ رأيتَ أَنْ تجودَ بقصةِ ثمود، فقالَ لما أَعْرَضُوا عَنْ كَلّ فعْلٍ صَالِح، بَعَثَ إِلَيهمْ لِلإصلاحِ صَالِح))(٣).

وهذه أخذ من قوله تعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٤).

---

(١) المقامة نفسها: الثانية في وصف قاص، ص ١٨.

(٢) سورة الحاقة، آية ٦-٨.

(٣) المقامة الثانية نفسها، ص١٩.

(٤) سورة الأعراف ، آية ٧٣.

وتطوى الأحداث إلى الإشارة للآية التي جاءهم بها : ((فَاحتَجّ عليهمْ نَاقِه هَوَاهُم بطلبِ نَاقَة، فَخَرجتْ مِن صَخْرةٍ صَمَّاء تقبقب، وفُصلَ عَنْهَا فصيلٌ يَرْغُو، فقالَ: جَاءَكم الْوَحي لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ))[(١)].

وهذه يلخصها القرآن حين قال على لسان صالح – عليه السلام–: ﴿**قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[(٢)].

وعلى الرغم من أن هذه الآية كانت تحذرهم من عدم تنفيذ أوامر الله فإنهم قابلوها بالتحدي والهزء ((فضَرَبَ أَشْقَاهم بِعطن، فَتَعَاطى فَصُبَّ عَلَيْهُمْ صَبٌ صَاب صَاعِقَة))[(٣)] وفي هذا إشارة سريعة لما نزل عليهم من عذاب : ﴿**فأخذتهم صعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون**﴾[(٤)].

ويأتي بعد ذلك بقصة لوط بعيداً عن بداياتها كما وردت في القرآن الكريم بإرسال لوط – عليه السلام، والتفصيل ببشاعة جريمتهم الخلقية، والمحاورات الطويلة بينه وبينهم، واستنصاره بربه، ونزول الملائكة مروراً بسيدنا إبراهيم – عليه السلام– وتبشيره بإسحاق – عليه السلام–، ثم الإخبار عن الأمر الثاني ممثلاً في نزول العذاب على قوم لوط – عليه السلام–؛ لتأكيد النهاية والتي تبدأ من زيارة الملائكة في صورة البشر الضيفان لسيدنا لوط – عليه السلام–: ((جَاءَهُ ضيفٌ فَأَقْبلُوا إليهِ يُهْرَعُون، فَدَافَعَ بِمشورةِ هَؤلاءِ بَنَاتِي، وَبتقاهِ فَاتقُوا الله، وبسؤالِ فَلَاتُخزونِ في ضَيْفِي، وَبتوبيخ أَلَيْسَ مِنْكُمْ))[(٥)].

---

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) سورة الشعراء، آية ١٥٥-١٥٦.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) سورة فصلت، آية ١٧.

(٥) المقامة الثانية نفسها، ص ١٩.

كل ذلك يجمعه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾(١). ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ، قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ، قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ، قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾(٢).

ويطوى بقية الحوار ليصل إلى النهاية ((فَاحْتَملَ جبريلُ قُرَى مَنْ جَنَى عَلَى قَرَا جَناحيه فَلَمْ يَكسرْ وقتَ رَفعهمُ إنَاء، ولَمْ يُرَقْ وَقتَ صُعُودِهم مَاء. فَلمَّا سمعَ أهلُ السَّماءِ نُباحَ كِلَابهم، اسرعتْ كَفُّ القلا بِهْم فِي انْقلَابهم، تَا للهِ لَقَدْ ضَكْضَكَ العذابُ عَلَيْهم فَضَعْضَعَهُمْ فَتضعضعوا، وانْقَضَّ يقضهِ وَقَضيضهِ فَقَضْقَضَ عِظَامَ عَظَامِهِم وفصَّلَها فتقطعوا، وَسَارَ بِهمْ في طرفَسَان العقابِ إلى عَوْطَبِ العَطَبِ فَاهْرمَّعوا))(٣).

هذه النهاية التي خلدتها آيات القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٤). ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾(٥). ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٦).

ويستمر ابن الجوزي في ذكر قصص الأنبياء في المقامة التالية ويذكر قصة إبراهيم – عليه السلام– منذ بدايتها البعيدة عن القرآن الكريم حين يقول: ((لما خَاضَ المخاضُ في خَضْم أُمِّ إبراهيم، خرجتَ مِن خَيْفِ الخوف إلى حَيِّزِ التحيّز تهيم، فَوَضَعْتُهُ في نهرٍ قَدْ يبس، وغطته بِالحلفا لِيلتبس))(٧).

(١) سورة الحجر، آية ٦١-٦٢.

(٢) سورة الحجر، آية ٦٧-٧١.

(٣) المقامة والصفحة نفسها .

(٤) سورة هود، آية ٨٢-٨٣.

(٥) سورة الحجر، آية ٧٣-٧٤.

(٦) سورة الأعراف، آية ٨٤.

(٧) المقامة الثالثة: فيما سبق، لابن الجوزي، ص ٢٦، ت: محمد نغش.

هذه بداية المقامة عند ابن الجوزي، أما البداية الحقيقية فهـي مـن المواجهـة الـتي تمت بينه وبين النمرود: ((فَلمَّا ترعرعَ أَحْضرَهُ نمرود، فأُحضرَ في ميـدانِ الدليـلِ، فَأَرَاه قمرَ الهدَى في حجهِ رَبّي الذي يُحْيي وَيُميـت، فَقَابلَهُ بِسَـهَا السَّهو في ظلامِ أَنَا أُحْيي وأُميت، فَسوّدَ وَجْهَ جبهتِهِ بفَحمةِ الإِفْحَام، فَأَلقاه كاللقَّـاه علَى عجُـز العجـزِ بآفـات فأت بِهَافبُهت))[١].

وهذا اقتباس من نص القرآن الكريـم الواضـح : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[٢].

ثم ماكان من أمر المواجهة بينه وبين قومه عندما كسر أصنامهم في يوم عيدهم تأكيداً على عجزها فقال: ((ثُمَّ دخلَ عَلَى الأصنامِ وَقْتَ الفراغِ فَرَاغَ عَلَيْهم))[٣].

يقول الله تعالى في ذلك : ﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾[٤].

ثم المقطع المتعلق بعقوبته على مافعل: ((فجـردوه مـن بُـرْدِ بَـرْدِ العـدل إلى حرِّ حرِّقُوه فسبقَ بريدُ الْوَحي إلى النَّـارِ بِلسَـانِ التَّفْهِيـم: يانَـارُ كُونِـي بَـرْداً وَسَـلَاماً عَلَـى إِبْرَاهيم))[٥].

إلا أن الآيات من أولها تقول : ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ**﴾[٦].

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٦-٢٧.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٨.
(٣) المقامة نفسها، ص ٢٧.
(٤) سورة الصافات، آية ٨٨-٩٣.
(٥) المقامة نفسها والصفحة.
(٦) سورة انبياء، آية ٦٨-٧٠.



وانطلق بعد ذلك ليذكر هجرة إبراهيم – عليه السلام– فقال: ((ثُمّ إنّه هَاجَرَ بإسماعيل وَهَاجَر فَأَلْقَاهُمَا بمكة، ورجّع لما رَجَع إنّي أسْكنتُ مِن ذريتي بوادٍ غَير ذِي زرعٍ فَعَطِشَا فتلّوى إسماعيل على رَمَض رَمَضان الصّوم، فسعتْ المرأةُ بأقدامِ الصَّفَا، بينَ المَرْوَةِ وَالصَّفا، فَكُلّمَا أطلتْ الطَّلّةُ علَى طَلَل توكف طلٌّ. رَوْح ينقعُ الغُلّة فنزلَ جبريلُ ليزيلَ النَّازِلَة، فَهَيأ نُزُلَ النزيهِ، فَزَمزم ماءُ زَمْزَم، وَنزَّ نزّاً))(١).

ثم ماكان من أمر ابتلائه واختباره فيكون صفي الله وخليله، وكان المقدم من مثله أن يذبح ابنه بما أوحي إليه فصدق ماكان، وصدق الإيمان، يقول صاحب المقامة:

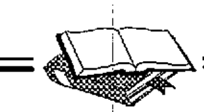
((فَلَمّا كَابدَ الخليلُ وَحْشَة فُرَاقِهِ، ابتَلَي بذبح إسْحَاقهِ، بينَا هُمَا عَلَى تَـلٍّ وَتَلّه وَجَاءَ بشيرٌ قَدْ صَدّقْتَ الرؤيا فَارتَدّ أَعْمَى الحزْنِ بَصِيرا))(٢).

يقول تعالى: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ**﴾(٣).

وهكذا يسير ابن الجوزي في وعظه معتمداً على القصص، يتكيء عليه؛ ليبلغ مايريد، ويصل به إلى أبعد الأثر، فبعد أن انتهى من قصص الأنبياء السابق ذكرهم، عرج على قصة شعيب(٤)، ويوسف، وأيوب، وموسى(٥)، وداود، وسليمان، وعيسى – عليهم السلام–، وقصة أصحاب الكهف(٦)، ومحمد – ﷺ – وسيرته العطرة ابتداء بولادته ورضاعته مروراً على حادثة شق الصدر وخروجه للتجارة، ومقابلة الراهب بحيرا، ثم تكليفه بالرسالة(٧) مع عرض معجزته.

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧–٢٨.
(٢) المقامة نفسها، ص ٢٨.
(٣) سورة الصافات، آية ١٠٢–١٠٦.
(٤) انظر: المقامة الثانية، ص ٢٠.
(٥) انظر: المقامة الثالثة، ص ٣٠–٣٧.
(٦) انظر: المقامة الرابعة: ص ٣٩–٤٥.
(٧) انظر: المقامة الخامسة والسادسة، ص ٤٦–٥٢.



ولعلك لحظت أن ابن الجوزي في مقاماته هنا واعظ يتعامل مع مكامن التأثير في النفس ليعمل فيها الإيمان، ويرسخ أصوله؛ ولذا وجد القصص مقترن الخطى بالعبرة الجليلة، وقد نجح – رحمه الله – من خلال تعريجه على الأحداث القصصية الغابرة مستفيداً من قصص القرآن الكريم، الذي كان له عظيم الأثر في تثبيت العقيدة، وترسيخ قوائمها في أفئدة المؤمنين، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(١).

مستعيناً بقصص الأنبياء، وغير الأنبياء، مركزاً على تصوير نهاياتهم نتيجة كبرهم وتكذيبهم، بعد أن أدرك أن الزمن يمضي، والناس يقطعون الطريق كأن لم يكن شيء مما كان.

الإعراض وقسوة القلوب تجمع الجميع في دائرة واسعة، تنتهي مثل هذه النهايات التي ألقى عليها كل انتباهه من بين كل الأحداث بمواقعها الحاسمة، وماورد فيها من انفعالات صارمة، وحركات عنيفة لابد أن توقظ الإحساس. فملامح التأثير بآيات القرآن الكريم واضحة قوية، معتمداً على ماورد فيه من أحداث متخلصاً من الاستطرادات الطويلة، فكل نقط الدائرة فيها مشدودة برباط وثيق إلى محورها الوعظي الأصيل الذي يثير القلق الغامض والخوف، بعد أن غمر جوانب الاسترخاء في النفوس حتى لاتطمئن إلا بالإيمان.

هكذا عرض ابن الجوزي قصصه، والتي هي قصص القرآن الكريم متكئاً منذ البداية، – وهو يضع الخطوط الأولى لمقاماته – على ملامح الشخصيات التي يجمعها الكبر والعناد، وينتقي لهذه الشخصيات – غالباً – النهايات فقط من بين جميع الأحداث، فهو لايلبث حين يقف عند خطوط القصة الأولى حتى يشير إلى خطوطها الأخيرة في حياة أقوام تستقبل الدعوات بانفعال وانفجار ثم فناء وزوال، وكانت جميع الأمم السابقة تضطرب بين هاتين الخطتين حتى الصراع بين الخير والشر .

---

(١) سورة هود، آية ١٢٠.

وها هو ذا **الزمخشري** قد اعتمد القصة في مقاماته؛ متتبعاً أحداثاً ماضية واقعة، سواء من القرآن الكريم، أم السنة المطهرة، أم مما ألفه العرب وشاع بينهم من القصص بعيداً عن القرآن، والسنة، يعرض منها مايرى عرضه، سواء بالإشارة أم الرمز مكتفياً بما اشتهر عنها وعرف، أم بالتفصيل الذي يصل بـه إلى موطن العبرة والعظة مدركاً مدى تأثيرها في النفوس؛ وعليه فليس بغريب إذا وجدنا الإشارة إليها مقترنة الخطى بمقاماته المتعددة؛ لأن مقامات الزمخشري وعظية أولاً وقبل كل شيء، وفي تضاعيف قصصها وأخبارها يزداد غرض الوعظ وضوحاً إن كان وعظاً، أو الوصول إلى أهداف أخرى إن كانت هي غرضاً من وراء هذه المقامة. يتضح ذلك من خلال التعقيبات على ماورد سواء كان يحمل في طياته ملامح الترغيب أم الترهيب .

ومن هنا كانت القصة إحدى وسائل أصحاب المقامات للوصول إلى غاياتهم، معتمدين على واقعية أحداثها، مع التأكيد على أن ماأورده ابن الجوزي كان بهدف التربية في المقام الأول .

ولعل سائلاً يسأل: كيف نثبت ذلك خاصة عند ابن الجوزي الذي ثبت عنه ذمه للقصص والقصاص حين قال : ((إن القصص مذموم، والتذكير والوعظ محمودان))[١].

لكن الجواب يأتي في استدراكه الذي أورده في نفس الكتاب حين قال: ((إن القصص لايذم لنفسه، والقصاص لايذمون من حيث هذا الاسم، لأن الله – عز وجل– قال: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ**﴾[٢]، وقال ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾[٣]، وقال ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ**﴾[٤].

ولأن في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر، وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتبع، فإذا كان القصص صدقاً ويوجب وعظاً؛ فهو ممدوح، وإنما كره بعض السلف

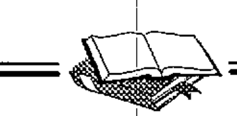
---

(١) كتاب القصاص والمذكرين، ص ٥٠.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٧٦.

(٣) سورة يوسف، آية ٣.

(٤) سورة آل عمران، آية ٦٢.



القصص؛ لأن في القرآن والسنة من القصص مايكفي عن غيره. وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي: ((وإنما كان تذكير السلف ووعظهم بالقرآن والفقه، والتخويف والتشويق، وإنما أنكروا الميل إلى القصص عن القرآن والفقه، أو أن يقص من لايعلم، ولهذا قال علي – عليه السلام – للقاص: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: نعم، قال: قص، ولما كان القصص يشغل في الأغلب عما هو أهم منه – من العلم–، وكره مايشغل عن العلم خلق من السلف))[1].

وعلى هذا فالقصص المذموم هو : الخارج عن قصص القرآن والسنة، وهو ليس بعامة، وإنما الذي يعتمد منه على الكذب والمبالغة، الشاغل عن قراءة القرآن، ورواية الحديث والتفقه في الدين، المفسد لقلوب العوام.

وإذا أردنا أن نقف بعد ذلك أمام القصص في المقامات لدراسته، وتطبيق عناصر القصة المتعددة، سواء كان ذلك في اعتمادها على الشخصية، أم الحدث، أم مايدور فيها من حوادث مع تعلقها بالزمان والمكان المعين، وهو مايطلق عليه عناصر القصة، فلن نجدها بصورها البارزة ومراحلها المتعددة، فقد يبرز في إحدى المقامات عنصر دون بقية العناصر، لما لهذا العنصر من صلة في تحقيق الهدف المقصود من إيراد القصة في ذلك الموضوع .

ومن هنا فلاوجود لكل العناصر في موضع واحد من المقامة. وإن كان الملاحظ أنها تعتمد كثيراً على إبراز عنصر الشخصية، مع اختفاء بقية العناصر، حتى بأحداثها، اعتماداً على أن مجرد ذكر الاسم؛ كإيراد اسم فرعون، وقارون يكفي لإدراك مغزى الكلام، مع التأثر بإيحاءات الاسم المرتبط بأحداث مشهورة، معروفة، دون الالتفات إلى المقومات التاريخية، فالأمر غني بنفسه، فذكر الاسم هو الإيماءة لمحل العظة والعبرة.

ولذا كان المذهب العام – عند الزمخشري – يكاد يكون في العرض غير المباشر، أو الاكتفاء بالجزء اليسير الذي هو موضع الشاهد، وإن كان الأمر – كما أسلفت– غني بنفسه فمجرد ذكر قارون، نجد أن قصته مرتبطة بكثرة المال، والغنى الفاحش الذي يطغى.

---

(١) كتاب القصاص والمذكرين، ص ١٥٧-١٥٨.

هذا الغنى الذي يعنى في تصويره ماأورده الزمخشري في مقامته السادسة عشرة من أن «مفاتحه لاتنوء بالعصبة أولي القوة، على أنه أوفر من قارون سعة وثروة»[١] متأثراً فيها بالقرآن الكريم[٢] الذي اكتفى من أحداث قصته بهذا الجزء الذي يغني عن غيره، مؤكداً على وجوب القناعة. أو ذكر فرعون في مقامته العشرين «وماشيده فرعون ذو الأوتاد»[٣] مكتفياً بذلك، دون إضافات، لكن العظة والعبرة تحققت من وراء ذكر الاسم فقط، حيث يرد على الذهن قصته، والنهاية التي سطرها القرآن الكريم، فلم ينفعه تشييده للبناء، وتكبره، وعناده وإصراره على الكفر، يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**﴾[٤]، ويقول في ذكر نهايته: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ...**﴾[٥].

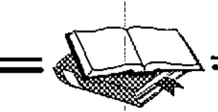
فالعبرة يجب أن تكون ماثلة أمام الناس، والآية يجب أن تكون قريبة من كل من تسول له نفسه أن يحذو حذو فرعون الأول، فيطغى ... ويفسد في الأرض - ويحكم بأمره .. ويتحكم في الرعية ...

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن المصير الذي سيلقونه بعد غرقهم جزاء عنادهم، كفرهم، وجحودهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[٦].

كما استفاد الزمخشري من قصص السنة والسيرة في مقامته الثانية والعشرين، وهو يشير إلى قصة حاطب بن أبي بلتعة[٧]، والتي تحمل تجربة تربوية تكفي وتغني وحدها عن خطبة في حقيقة الولاء والبراء معتمداً على شهرتها؛ فالقصة معروفة والإشارة إليها

---

(١) القناعة، ص ٩١-٩٢، ت: يوسف بقاعي.
(٢) في قوله تعالى : ﴿إن قرون كان من قوم موسى فبغى عليهم وءاتينه من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوة﴾ سورة القصص، آية ٧٦.
(٣) العفة، ص ١٢٤.
(٤) سورة غافر، آية ٣٦.
(٥) سورة يونس، آية ٩٠ .
(٦) سورة غافر، آية ٤٦ .
(٧) انظر ترجمته ص ٢٨٣ من البحث .



كافية لاستثارة النفس فتنطلق من استرخائها جرياً وراء أحداث القصة والتي احتوتها كتب السيرة.

أما الإشارة إليها في هذه المقامة فحين يقول : ((ولْيَكُن مِنْكَ عَلَى بَالٍ مَانَقَم اللهُ مِنْ حَاطِب. ومَاكَاد يَقَعُ بِهِ مِنَ المَعَاطِب))(١). والقصة وردت في السيرة كالتالي:

((إن النبي – ﷺ – لما أراد أن يغزو، مكة عام الفتح دعا الله تعالى أن يعمى الاخبار على قريش فكتب إليهم حاطب يعلمهم بما يريده رسول الله – ﷺ – من غزوهم، فأعلم الله رسوله بذلك فأرسل علياً، كما روى ذلك علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – حين قال: بعثنا رسول الله – ﷺ – أنا والزبير بن العوام والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها فأتوني به. فخرجنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: مامعي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتجردن الثياب. قال: فأتينا به رسول الله – ﷺ – فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي – ﷺ – فقال ماهذا ياحاطب؟ قال:لاتعجل علي يارسول الله إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من نسب فيهم أن اتّخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، ومافعلت ذلك كفراً وارتداداً عن ديني، ولارضاء بالكفر، فقال رسول الله – ﷺ – صدق، فقال عمر: دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله – ﷺ –: إنه قد شهد بدراً فما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم.

قال : وفيه نزلت هذه السورة: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾**(٢)))(٣).

كما أن الزمخشري اعتمد على نوع آخر من القصص بعيد عن القرآن والسنة،

(١) المقامة (٢٢): الولاية ، للزمخشري، ص ١٣٩.

(٢) سورة الممتحنة، آية ١.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ١/٣٦١-٣٦٢.



كالمرواني في المقامة السادسة حين يقول : ((اُذْكُرْ المرْوَاني وَمَا مُني به مِنْ خُطةٍ عَلَى رَأسِهِ مَصْبُوبة. حِينَ غَصَّتْ بِحَبّةِ الرُّمان حَبّابته المحبُوبَة))(١).

وكسنمار في المقامة الخامسة والعشرين، حين ذكر شهرته في البناء، فقال: ((فَلْيَشْمُر السُّمَار بهِ وبدقّةِ تَصْريفهِ. لابِسِنّمار وَغَرابَةِ تَرْصِيفه))(٢).

ومايعنينا هنا أن الزمخشري ذكر قصة على حسن الاتقان في العمل، والمهارة في الصنع، كما ذكر ابن تقن الذي اشتهر بحسن الرماية فقال في المقامة نفسها: ((إنَّ عِلْماً بِلَاعَمَل ، كَقَوسٍ بلَاوَتَر. حَامِلُهَا حَيْران مُرْتَبِك في العَمَايَةِ. لَايَهْتَدِي وإنْ كَانَ ابْنُ تَقْنٍ إلى وَجْهِ الرِّمَاية))(٣).

وقد قصر الزمخشري مقامته الخمسين على القصص المعروف بأيام العرب، معتمداً على الإشارة فقط إلى الأسماء كناية عن شهرة صاحبها، كحصين بن ضرار، وشتير بن خالد ...الخ، وهي شخصيات حقيقية تبرز ويظهر من ورائها عنصر الحدث من غير ترتيب للحوادث، وإنما هو يستوطن عند موضع العظة والعبرة، كما في القصص التالية التي ذكرها هنا، وهي في قوله : ((يَاأَبَا القَاسِم: اسْتَنْكِفْ أَنْ تَشْتَرِي المتاعَ القَلِيل الفَانِي بالملكِ الكبيرِ، والنَّعيمِ الخالدِ. فَقَدْ اسْتَنْكَفَ أَنْ يَدْفَعَ ابنَهُ عُتْبَةَ بِحُصَينِ بنُ ضِرار شُتَيْرُ بنُ خَالِد. وقَدْ عُرِضَتْ عَلَيهِ ثَلاثٌ، وقيلَ لَهُ: اختِرْ. فَلَمْ يَرْضَ

---

(١) الزهد، للزمخشري، ص٤٦-٤٧.
والمرواني: هو يزيد بن عبدالملك بن مروان اشترى جارية اسمها حبابة بأربعة آلاف دينار. وبلغ من استهتاره أنه لهى بها عن تدبير الخلافة؛ فبناهم في لهوهم إذ أخذت حبابة حبة رمان فرمت بها في حلقها، فغصت بها، وكانت فيها نفسها، وكذب الله دعوة الفاسق حين كذب من قال: لاتصفو الدنيا لبشر يوماً. ومات بعدها بسبعة أيام، انظر: ص٢٧٧ - ٢٧٩ من البحث.

(٢) العمل، ص ١٥٠.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٥٣-١٥٤.

إِلاّ أَنْ يُعْطَى أَعْوَرَ بِأَعْوَر»[(١)].

والعظة من القصة: التحذير من الغبن في الاختيار، والمنطق يقول: لايعطى أعور إلا بأعور.

كما ذكر قصة معاوية بن عمرو بن هاشم بن حرملة فيقول في المقامة نفسها: «ولاتجْعل الدُّنْيا لَكَ مُونِيسة. فإنَّها لَا -أُمَّ لَكَ- مُومِسَة. تجُرُّ عَلَى طَالِبِهاَ مِنْ جَهْد البَلَاءِ مَاجَرَّتْه أَسْمَاءَ عَلَى راكِبِ الشَّيْماءِ . وعَلَى هَاشِمٍ ودُرَيْد ابْنَيْ حَرْملَة. مِنْ وَقْع السّنَان ونُفوذِ المعْبلَة»[(٢)].

واستمر الزمخشري يذكر القصة تلو القصة، فذكر قصة علباء الجشمي[(٣)]، وقصة ذي الكف الأشل[(٤)]، وحمران بن ثعلبة[(٥)]، ومالك بن الصمة[(٦)]،

---

(١) ص٣٠٢-٣٠٣.
وقصة ذلك: «أن عتبة بن شتير بن خالد بن نفيل بن عمرو بن كلاب، قتل حصين بن ضرار بن عمرو الضبي أبا زيد الفوارس، وزيد الفوارس حينئذ حدث لم يذكر في غزوة غزاها بنو ضبة، فأغار أبوه ضرار على ابن عمرو بن كلاب يطلب ثأره، فأُسِرَ شتيراً وأفلتَ عتبة، وشتير شيخ أعور، فقال له: اقتلك مكانه. قال: نعم، فأمر ابنه أدهم بن ضرار بقتله. فنادى شتير يالعامر! أصبر بضبي؛ أي بسبب ضبي. يضرب في حلول البلاء بالشريف من الوضيع، فسيرها مثلاً.» انظر: شرح مقامات الزمخشري، يوسف بقاعي ، ص ٣٠٣.

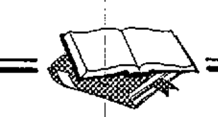
(٢) المقامة نفسها، ص ٣٠٣-٣٠٤.
فالمومسة: المرأة الفاجرة من الومس، وهو الكلام الخفي، واسم بغي كانت في بني مرة بن سعد بن ذبيان. والشيماء: فرس معاوية بن عمرو بن الشريد، وهو أخو الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد، وهاشم ودريد: رجلان من ساداتهم. انظر: شرح المقامات: ص٣٠٤-٣٠٥. المعبلة: من النصال. انظر: اللسان، مادة : عبل.

(٣) انظر : المقامة نفسها ، ص ٣٠٤-٣٠٦ وقصته فيها

(٤) انظر: المقامة نفسها، ص ٣٠٦-٣١٠.

(٥) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١٠.

(٦) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١١-٣١٢.



وربيعة بن مكدم[(١)]، وهكذا ظل يذكر حوالي ثماني عشر قصة[(٢)].

واختار الزمخشري في مقامته الخمسين هذه أحداثاً بعينها من تاريخ أيام العرب وقصصهم، وقعت لأشخاص يذكرهم بصفاتهم الواضحة بما فيها من نقائص وضعف وقتال، حرصاً على الحياة، مع الوصول إلى مصائرهم المحتومة التي انتهوا إليها؛ ولذا جاء السرد ليرسم الصورة المباشرة لشخصيات ثبت وجودها من خلال ماقامت به من أحداث. ورغم أنهم أفراد من الناس يعيشون تحت حكم القضاء والقدر فإنها تحمل الكثير من الآثار، وتستثير من الناس الانفعال، وكان الغرض هو التخويف، وتثبيت الخشية في النفوس، خاصة ماورد في نهايتها من تعقيبات مستعيناً بضرب الأمثال. فكان الاختيار موفقاً من الناحية الفنية ومن الناحية التربوية.

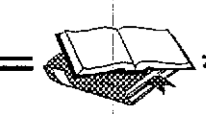
أما **بديع الزمان الهمذاني** فقد عول في قصصه على الواقع التاريخي كما في المقامة الصَّيْمَرية؛ فيقول: حَدَّثنا عِيسى بنُ هِشَامٍ قَال: قال مُحَمَّدُ بنُ إسْحَاقَ المعرُوفُ بأبي العَنْبَسِ الصَّيْمَرِي*: إنَّ ممَّا نَزَل بي مِن إخْوانـي الذيـن اصطفيْتُهُـمْ وانتخبتُهُـمْ وادَّخرْتُهُم للشدائِدِ مافيه عِظَةٌ وعبرةٌ وأدَبٌ لمن اعْتَبَرَ واتَّعَظَ وتأدَّب»[(٣)]، وعليه فقد ساق القصة للعظة والعبرة كما ذكر آنفاً . وفحوى القصة أن الصيمري هذا أقبل من الصيمرة التي ينتسب إليها، إلى مدينة السلام ومعه المال الوفير، واتخذ لنفسه صحبة من علية القوم ينادمونه ويآكلونه ويشاربونه إلى أن نفد ماله، وتفرقوا عنه فتألم فما وجد من هؤلاء الإخوان الذين لايجتمعون إلا على الخوان، فخرج يلتمس المال الذي جمعه بكل حيلة، فعادوا يعتذرون مما بدر منهم، فأوهمهم أنه صفح عنهم، وأعدلهم في اليوم التالي طعاماً وشراباً إلى أن سكروا، وأبلغ غلمانهم أنهم بائتون عنده، ثم أرسل إلى المزين الذي أطعمه وسقاه وأعطاه دينارين، فحلق في ساعة خمس عشرة لحيةً، فصاروا

(١) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١٢-٣١٤.

(٢) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١٤-٣٢٩.

(٣) المقامة ٤٢، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٣٣٣.

(*) أبوالعنبس الصَّيْمَري ت سنة ٢٧٥هـ: محمد بن إسحاق بن إبراهيم ابن أبي العنبس بن المغيرة بن ماهان، كان شاعراً أديباً، مطبوعاً، ذا ترهات، وله تصانيف هزلية نحو الثلاثين، وكان نديماً للمتوكل. انظر: معجم الأدباء، للحموي، ٥/٤٠٦- ٤٠٧.



جرداً مردا، وجعلت لحية كل واحد منهم مصرورة في ثوبه ومعها رقعة مكتوب فيه العظة والفائدة التي قصدت منها القصة وهي : ((مَنْ أَضْمَرَ بصديقِهِ الغَدْرَ وتَرْكَ الوَفَاءِ، كان هذا مكافأتهُ والجزاءَ))(١)، ثم جعل كل واحد منهم في صنان، وأرسل خلف الحمالين الذين استأجرهم غلامه فحملوهم إلى منازلهم، فلما أصبحوا رأوا في أنفسهم هماً عظيماً حبس كل واحد منهم في داره، خوف معرفة الناس لقصتهم، وكان من بينهم كاتب الوزير ابن عبيدا لله* الذي حين علم بتلك النادرة ضحك ضحكاً كاد يأتي عليه، وبعث إلى أبي العنبس بخمسين ألف درهم جزاء له على فعلته الظريفة.

وفي ختام المقامة أضاف الهمذاني، ووضح العظة، فقال: ((وإنما ذَكَرْتُ هذا ونبَّهْتُ عَلَيْهِ؛ ليُؤْخَذَ الحَذَرُ من أبنَاءِ الزَّمَنِ، وتُتْرك الثِّقَةُ بالإخوانِ الأنْذَال السَّفَلِ، وبفُلان الورَّاق النَّمَّامِ الزَّرَّافِ الذي يُنكِرُ حَقَّ الأدَبَاءِ، ويَسْتَخِفُّ بِهِمْ، ويستعيرُ كُتُبَهُمْ لايَرُدُّهَا عَلَيْهِمْ))(٢).

وإلى مثل ذلك عمد البديع حين ذكر قصة بشر بن عوانة العبدي، فقال: ((كان بِشْرُ بْنُ عَوَانَةَ العَبْدِيُّ صُعْلُوكاً ، فأَغَارَ على رَكْبٍ فيهِمُ امرأةٌ جميلةٌ، فتزوَّجَ بِها، وَقالَ: مارأَيْتُ كاليَوْمِ))(٣)، ويستمر الحوار بينهما، لتظهر له أن ابنة عمه فاطمة أجمل منها، فيخطبها من عمه، فيرفض، فتستمر الشهور والسنون، وبشر يفتك بمن يلقى من قومه؛ ليستجيب عمه لطلبه، فأراد أن يردعه عن فعله، لذا طلب منه مهراً لها ألف ناقة من نوق خزاعة، وتلك الحيلة؛ لأن الطريق للوصول إلى تلك النوق فيه مخاطر تكمن في أسد وحية، فلما تغلب على الأسد أرسل بأبيات من الشعر لابنة عمه يفخر بشجاعته، فندم العم على منعه تزويجها، وخشي أن تناله الحية، فقام في أثره، ووجده مع الحية التي تغلب عليها فيعودان معاً، فيعترض سبيلهما فتىً من الفرسان الشجعان،

---

(١) المقامة نفسها، ص ٣٧٠.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٧٣.

(٣) المقامة (٥١): البشرية، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد، ص ٤٤٩-٤٥٣.

(*) القاسم بن عبيدا لله(٢٥٨-٢٩١هـ)هو والد أبي جعفر محمد بن القاسم الذي استوزره الخليفة العباسي (القاهر)، واستوزر أبوه عبيدا لله للخليفة (المعتضد) كما استوزر هو له أيضاً سنة ٢٨٨هـ. انظر: الأعلام، الزركلي، ٥/١٧٧.

وتقع معركة يتغلب فيها الفتى الفارس المجهول على بشر بـن عوانـة، ويتضـح في آخـر الأمر أن هذا الفارس لم يكن إلا ابنه من تلـك المـرأة التى أرشـدته لجمـال ابنـة عمـه، فيتنازل عن الزواج بها ويزوجها لابنه[1].

ولعلـك لحظـت أن الحبكـة القصصيـة كـانت في كلتـا القصتـين متماسـكة، لاتفكك فيها، رغم أن حوادثهـا كـانت تسـير سـيراً بطيئـاً، فهنـاك وقـت من الزمـن استغرقه الصيمري في التنقل بين البلـدان لجمـع المـال، ومـن ثـم العـودة، وتدبـير تلـك النادرة مع خلانه غير الأوفياء. وكذا الحال في قصة بشر بن عوانة الـتي كـان التوقيـت فيها يسير سيراً بطيئاً منذ بدء خطبته لابنة عمه، والموافقة التي لم يحصل عليهـا إلا بعـد مرور سنوات، والوقت الذي استلزمه؛ ليفـي بشـروط عمـه، ويحضـر المهـر، ومـن ثـم مقابلته بابنه الذي تنازل له عن الزوجة التي حبس نفسـه وأعمالـه، ليصـل إليهـا. فهـل نعتـبر ذلـك خلـلاً اجتـاح حبكتـه القصصيـة في آخرهـا، أو هـو عنصـر المفاجـأة أراد الهمذاني أن يظهره لنا في آخر القصة؟ وإن يكن هذا، فكيف تحولت عاطفته نحـو ابنـة عمه في لحظات، أم أن حب الابن هو الذي يطغى على ماسواه من عواطف؟؟!

أما عن الشخصيات فنلحظ أن البحـث اختـار شـخصيتين متنـاقضتين؛ ليدلـل على أن البديع تعـرض لمعظـم الشـخصيات الـتي كـانت تقـع عليهـا عينـه في مجتمعـه؛ فالأولى شخصية – الصيمري- وهو من عليـة القـوم مليئـة بـالحب والعطـاء، في بدايـة القصة؛ لأنه جمع من ظنهم مثله في الخلق، فأعطى، وأنفق بسخاء، لكن الأيام كشـفت عن أنهم خلاف ذلك، فتفرقوا؛ حين قبض ماله، وفي هذه القصـة تظهـر لنـا شـخصية الخادم الذي يعين سيده في تنفيذ مايريد، دون أن يراجعه، وشخصية المزيـن أو الحـلاق الذي أغراه بالطعام والمال، لتنفيذ أصل الخطـة، فحلـق لخمسـة عشـر رجـلاً في سـاعة واحدة دون تردد، وبدون أن يسأل نفسه هل أصحاب هذه اللِّحى موافقون أم لا؟ لكن الطمع في الحصول على المال هو الذي أعماه، إلا أن أهم شخصية في هذه القصة.. هو الصيمري نفسه – كمـا أسـلفنا –؛ فهـو لم يأبـه بعـد أن انتقـم منهـم لمـا يحـدث لـه، فالشخصيات التي تعرض لها كان في إمكانها إيذاؤه، ككاتب الوزير، ولكن تفكيره في تنفيذ ماعزم عليه، لم يجعله ينظر للعواقب –وربما فكر– ولكن فكرة الانتقام كانت لها

(١) انظر: المقامة نفسها، ص ٤٥٢-٤٨٤.

الغلبة والانتصار، ونسي أن العفو من شيم الكرام، والعفو عند المقدرة خاصة، وكان في مقدوره أن يعفو؛ لكن البديع جعل القصة كلها والطرفة في الانتقام منهم، والأطرف في الكيفية التي لجأ إليها.

والثانية شخصية بشر في القصة الثانية، كانت للص من اللصوص، ظهرت بالصورة التي كان عليها الفتاك و الصعاليك، شخصية جريئة، شجاعة، لاتهاب الموت في سبيل تحقيق ماتطمح إليه، حتى لو كان في سبيل ذلك أن تتعرض لأهلها وقبيلتها بالقتل والإيذاء، كما فعل بشر بن عوانة حين رفض عمه الموافقة على زواجه من ابنة عمه – فاطمة –، وكذا ظهرت الشجاعة مع الجرأة لهؤلاء الفتاك منذ بداية القصة؛ حين تعرض الأب لقافلة وبنى بأجمل بناتها، وأما قمة الشجاعة ففي قتاله للأسد، ومن ثم الحية. لكن أفضل ماأظهرها حين عمد البديع إلى مايسمى بأسلوب المفارقة فجعل الشجاعة تظهر في صورتين، صورة الأب ومن ثم الإبن، الذي جعل شجاعة والده كالظل، بل قل لاشيء، فقد خرج بعد عراكه معه وقد امتلأ جسد الأب بالجراح والطعن، وكان في إمكانه أن ينهي ذلك بالقتل ، لكنه اكتفى لتنتهي القصة بتلك الخاتمة. إلا أن من أجمل الشخصيات هنا شخصية العم التي ظهرت منذ ذكرها بصورة الأب الذي يخاف أن يرمي بابنته في التهلكة، حتى وإن كان الطالب لها ابن عمها، الذي كان له السبق في الحصول عليها كمعتاد العرب آنذاك وقد كانت نعم الشخصية؛ لأنه لم يعط ابنته لابن أخيه رغم ماتعرضوا له من الإيذاء، تنفيذاً لأوامر رسول الله -ﷺ-: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**»(1).

وهذا خلقه ودينه سيء، فهو قاطع طريق، إلا أن شخصية الأب بما جبلت عليها من حدب وعطف تأبى إلا أن تظهر، وقد ظهرت هنا حين سمع أبيات الشعر من ابن أخيه بعد قتله للأسد، فخاف عليه من الحية، فلحق به، بعد أن عادت الرحمة تتغلغل بين حنايا صدره، وهكذا حال الآباء. أما شخصية المرأة التي ظهرت هنا -في هذه القصة- فبدت أنها لاتنسى ثأراً لها، فقد حولت أنظاره لابنة عمه، والابن الذي أنجبته منه ربته، وعلمته، وأطلقته في أثر أبيه.

---

(1) رواه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب ماجاء في فضل النكاح، ١/٥٩٢.



أما الحوار فقد كان جلياً بين شخصيات القصتين؛ ففي الأولى يأخذ حظه بين الصيمري وغلامه، كمستوى الحوار الذي يحصل بين سيد ومسود، وكذا يتسم بالرقي حين يظهر بين الوزير وأحد حاشيته ومن ثم قوله: ((وا لله لقد أصاب وماأخطأ فيما فعل، ذروه ، فإنه من أعلم الناس بهم))[1].

وفي الثانية أيضاً لاتخلو من الحوار، كالذي بين بشر بن عوانة والمرأة التي بنى بها، ويظهر فيه مكر ودهاء المرأة التي تستطيع بأسلوبها أن تصل إلى ماتريد، والذي غذت ابنها، وربته عليه، ويظهره الحوار الذي دار بينه وبين والده كقوله: ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يابشر إنْ قتلتَ دودةً وبهيمةً تملأُ ماضِغَيْكَ فَخْراً؟ أنتَ في أمانٍ إنْ سَلِمْتَ عملكَ. فقالَ بشرٌ: من أَنْتَ لا أُمَّ لكَ؟))[2].... وهذا الحوار يظهر عدم التأدب في الحديث من الابن مع أبيه، لكن من أين يأتي التأدب من ابن أبوه لص، وأمه حاقدة؟؟!

أما العقدة فتختلف في القصتين، فالأولى تقوم على حب التطلع لمعرفة ماسيؤول إليه حال الرجال بعد أن يستيقظوا من نومهم، فيجدوا أنفسهم وقد انتقلوا من دارالصيمري إلى دورهم، ومن ثم اكتشاف حلق لحاهم.

وفي الثانية تقوم العقدة على الصراع النفسي العنيف، لمعرفة المصير الذي سيسير إليه بشر بن عوانة، وقد ذهب لقتال الأسد، ومن ثم الحية، وأخيراً، ربما يلهث القاريء لمعرفة خاتمته، وقد ظهر هذا الفارس لقتاله ونال منه بينما بشر لم يصبه بأي أثر...

وهذا **الحريري** نجد معظم قصصه تقوم على الحيلة، إن لم تكن كلها، حتى مقامته الصورية التي يمكن أن نزعم أنه استقاها من قصص آل ساسان، وحياتهم والتي كان لها نمط واضح، صورته هذه المقامة، فلهم رئيس، وملاك، وشروط في الزواج، تقوم على أن يتزوج المكدي، مكدية مثله، ويحق له أن يضع شروطه فيها كأن تكون ماهرة في التكدي، سليطة اللسان ... الخ، يقول الحريري على لسان المملك: ((هَذَا أبُو الدَّرَّاج، ولاَّجُ بنُ خَرَّاج، ذُو الوَجْهِ الوَقَاح، والإفْكِ الصُّرَاحِ والهَرِيْرِ والصِّيَاح،

---

(١) المقامة الصيمرية، ص ٣٧٣.

(٢) المقامة البشرية، ص ٤٨٠-٤٨١.



والإبْرام والإلْحَاح، يَخْطُب سَليطَةَ أَهْلِها، وَشَرِيْطَة بَعْلِها، قَنْبَس بِنْتَ أبِي العَنْبس، لمَا بلَغَهُ مِن التِحَافِها بإلْحَافها، وإسْرَافِها في إسْفَافِها، وانْكِماشِهَا عَلَى مَعَاشِهَا وانْتِعاشِهَا عِنْد هِرَاشِها...»[1].

فهذه أوصاف أهم شخصيتين في المقامة العروس والعريس، فهل هناك أغرب من هذه الأوصاف؟ المعروف أن تخطب المرأة لمالها، أو لجمالها، أو لحسبها، أو لدينها، ويقول الرسول -ﷺ-: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[2].

أما المهر فلاأغرب منه، حيث يقول: «وقَدْ بذلَ لَهَا مِن الصَّدَاق شلَّاقاً وَعُكَّازاً، وَصِقَاعاً وَكَرَّازاً...»[3].

وبالنظر للشخصية الثالثة في هذه القصة فيمثلها الشيخ الذي عقد هذا العقد، والذي اشترط الصهر أن يكون: «جال وجاب وشب في الكدية وشاب»[4].

وبالنسبة للزمان والمكان فقد وضحهما الحريري فقال: «تُقْتُ إلى مصرَ تَوقَان السَّقِيم إلَى الأَسَاة»[5]، ثم حدد وخصص زيادة ليظهر أنه مكان سيعقد فيه عقد زواج؛ ووصف المكان بعد وصوله إليه فقال: «فأَفْضَيْنا بَعْد مُكَابَدةِ العَنَاء، إلَى دَارٍ رَفِيْعَةِ البِنَاء، وَسِيْعَة الفِنَاء، تَشْهَد لِبَانِيْها بِالثَّرَاءِ والثَّنَاءِ ... رَأَيْتُ دَهْلِيزَهَا مُجَلَّلاً بأَطْمَارٍ مُخَرَّقة، وَمُكَلَّلاً بمَخَارِف مُعَلَّقة، وَهُنَاكَ شَخْصٌ عَلَى قَطِيفَة، فَوْقَ دَكَّةٍ لَطِيفَة ...

---

(١) المقامة (٣٠)، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٣١. هراشها: مخاصمتها، انظر: اللسان، مادة : هرش .

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الاكفاء في الدين، ٩/٧. ورواه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- تحت رقم(٥٣)، كتاب الرضاع، باب (١٥)، ١٠٨٦. ورواه عن جابر -رضي الله عنه- تحت رقم(٤٥)، ١٠٨٧/٢. والترمذي في كتاب النكاح، باب(٤)، ٣٩٦/٣ وقال حديث حسن صحيح. وأبوداود تحت رقم(٢٠٤٦)، كتاب النكاح، ٢١٩/٢.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٣١، شلاق: هو شبه المخلاة، صقاع: رداء يوضع على رأس المرأة، انظر: اللسان، مادة : شلق، صقع .

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٣٠.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢٢٨، الأُساة: جمع الآسي وهو الطبيب، انظر: اللسان مادة: أسى.



فولجتُ الـدَّارَ ... فـإذَا فيْهَـا أرائـكُ منقُوشَـةٌ، وَطَنَـافِسُ مَفْرُوشَـةٌ، وَنمَـارِقُ مَصْفُوفَـةٌ، وَسُجُوفٌ مَرْصُوفة))(١).

والحبكة القصصية تلمحها منذ بداية المقامة، حين ارتحل الراوي من مدينة المنصور إلى بلدة صور، ثم إلى مصر، ومن ثم توالت الأحداث، فإذا به يجد جماعة، ويسأل عن وجهتهم، وحين يعلم أنهم شهود في حفل زواج لحق بهم، ولكن الندم مالبث أن بدأ ينتابه، للذى شاهده من القوم، خاصة حين بدأوا يتناولون الطعام بعد إتمام خطبة النكاح، وهنا تبلغ العقدة أوجها، فكيف سينسل من بينهم؟ ولما واتته الشجاعة لمحه شيخهم، وهنا لاتملك إلا أن تنتظر لترى ماحدث له، وماالمصير الذي سيؤول إليه؟ ولكن لاينفع الندم لات ساعة مندم، فلم يجد إلا البكاء وسيلةً له، لعله يخرجه من المأزق الذي وضع نفسه فيه، والطمع الذي جره إلى هذا الموقف، فما هو إلا طفيلي حضر بدون دعوة، ظناً منه كما قال: ((سرتُ مع الفُـرّاطِ، لأفُوزَ بحلاوةِ اللُّقَاط، وأحُـوزَ حلواءَ السِّمَاط))(٢)، لكن كربه قد فرج ، بعد أن أرسل البكاء مدراراً،وعرف في شيخهم أبازيد السروجي فآكله وجالسه طوال مدة إقامته في مصر.

ومع أنَّ القصة كانت على لسان الراوي، فإن للحوار نصيباً فيها، كذاك الذي قام بين الراوي والشيخ حين أراد أن يفر الحارث بن همام من الزحف، وينسلت من الصف فقال له الشيخ: ((إلى أينَ يَـابَرِم؟ هَـلاَ عَاشَـرْتَ مُعَاشـرةَ مَنْ فيـهِ كَرَم. فَقَـالَ الحارثُ: والذي خَلَقَهَا طِبَاقاً وَطَبقَهَا إشْرَاقا، لاَذُقْتُ لِمَاقَا، ولا لمست رقاقاً))(٣).

ونخلص إلى أن القص عند ابن الجوزي والزمخشري اعتمد على قصص الأنبياء، لكن ابن الجوزي اتكأ من بداية عرضه للقصص على ملامح الشخصيات التي يجمعها الكبر والعناد، وينتقى منها النهايات فقط، وكذا الزمخشري الذي كان يكتفي بذكر اسم الشخصية، فيصل إلى موطن العبرة والعظة، لأنه يدرك مدى تأثيرها في النفوس،

---

(١) المقامة نفسها، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٢٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٣٢، برم: بخيل، ولئيم، لماقاً: قليلاً، رقاقاً : خبزاً، انظر: اللسان، مادة: برم، طبق، رقق.

إلا أن ابن الجوزي أضاف إلى قصص الأنبياء القصص على لسان الحيوان، وأضاف الزمخشري بعض قصص السنة النبوية، ومما ألفه العربوشاع بينهم كأيام العرب، ينتقى منها مقطع العبرة والعظة، أما عن عناصر القصة فلن نجدها بصورها البارزة ومراحلها المتعددة، فقد يبرز في إحدىالمقامات عنصر دون بقية العناصر، لما لهذا العنصر من صلة في تحقيق الهدف المقصود من إيراد القصة في ذلك الموضوع. وأبرز عنصر ظهر هو: عنصر الشخصية، بينما عنصر الحوار، والزمان والمكان والحبكة القصصية قلما تظهر، وان ظهرت فلكى تخدم الوعظ الذي كان نصب أعينهم .. أما الحريري والهمذاني، فقد عول الأخير منهما على الواقع التاريخي، وشخصيات تعكس المجتمع الذي يعيشه، ومعظم عناصر القصة موجودة لديه إنْ لم تكن كلها بينما الحريري تقوم قصصه على إبراز عنصر الحيلة من قبل شخصياته.

الواقعـية :

إن مصطلح ((الواقعية)) من المصطلحات الفضفاضة التي تختلف مفاهيمها باختلاف ميادين النشاط الإنساني من جهة، وباختلاف اتجاهات النقاد والأدباء ومنظري الأدب من جهة أخرى.

إلا أن عباس محمود العقاد كان أقرب إلى الصواب في نظرته للواقعية حين قال: ((إن الواقعية لاتجرد البشرية من أحلامها، ولاتجرد الدنيا من محاسنها، فلايعاب الأدب الذي يصور لنا الإنسان على حقيقته، والدنيا على حقيقتها، وما وراء ذلك فهو وراء الواقع في الحس وفي العقول))[(١)].

((والفن الإسلامي فن منفتح على شتى المذاهب الفنية، مادامت منسجمة في اتجاهها وتفاصيلها مع حركة الكون والإنسان الإيجابية في سبيل الحق والعدل الأزليين، وفي إطار الجمال المبدع، بعيداً عن التزييف والكذب والتناقض. إنه مرن بحيث يتسع لكل المذاهب، ويزيد عليها في سعة نظرته الكونية وعمقها وشمولها ... إنه واقعي حين يعلن ثورته الانقلابية على كل القيم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وعلى كل الطواغيت لاتقرها وحدانية الله، والتي يأباها التحرر الوجداني للإنسان المسلم، ذلك التحرر الذي يبدأ من أعماقه لينتهي بالكون ... واقعي حين يصرخ في وجوه القوى المتسلطة التي تعذب الإنسان بالظلم الاجتماعي، وبالتناقض الطبقي بشتى مستوياته، ويخنق حريته والاستهانة بكرامته .. واقعي حين يعبر عن لحظات الضعف البشري أمام شتى المغريات))[(٢)]، ((ولكنه لايسلط عليها الأنوار باعتبارها لحظة الانتصار، ولكن باعتبارها لحظة الضعف))[(٣)].

---

(١) دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، ص ٣١، مكتب غريب، الفجالة، مطبعة دار العالم العربي.

(٢) في النقد الإسلامي المعاصر، د. عماد الدين خليل، ص ٤٠-٤١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(٢)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٣) منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص ٦٦-٩٤، دار الشروق، بيروت، ط(١)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م

ومن هذا المنطلق الإسلامي للواقعية، يبدأ البحث يرصد الواقعية في المقامات، وذكر بعض النماذج لها، وسيكون التركيز أكثر على الواقعية الإسلامية، ولتكن البداية مع **الهمذاني**، مراعين في ذلك التسلسل التاريخي، رغم أن القاريء قد يعترض أساساً على وجود واقعية إسلامية في مقامات قامت أصلاً على الكدية التي نهى عنها الإسلام، فما بالك بكل تلك الحيل التي عمدوا إليها للحصول على مايريدون!!، إلا أن عذرنا يكمن في أنهم عاشوا عصراً من عصور الإسلام، وفي مجتمع إسلامي، فلانعدم أن نجد واقعاً إسلامياً هنا أو هناك، وهذا ماستثبته الدراسة -إن شاء الله-.

وهذا راوي مقامات الهمذاني يتنقل من بلد إلى آخر، وكذا البطل، ويبين سبب هذا الانتقال أو **السفر** فمرة يطلب الحاجة كما في المقامة السجستانية حين قال: ((حَدَا بي إلَى سِجِسْتَانَ أَرَبٌ))[1]، وأخرى بسبب هوى في النفس، وحب للسفر ليس إلا، كما في مقامته التي قال فيها: ((كنتُ وأنا فِيْ السِّنِّ أشُدُّ رَحْلِي لكلِّ عَمَايَةٍ، وأرْكُضُ طِرْفِي إلى كلِّ غَوَايَةٍ))[2]، وفي أخرى يقول: ((اتَّفَقَتْ لي حاجَةٌ بِحِمْصَ فَشَحَذْتُ إليها الحِرْصَ))[3]، وقد يشد الرحال هرباً كما في قوله: ((لما نَظَّفَني الغِنَى بفاضِلِ ذَيْلِهِ، اتُّهِمْتُ بمالٍ سَلَبْتُهُ. أو كَنْزٍ أَصَبْتُهُ، فَحَفَزَني اللَّيْلُ، وسَرَتْ بي الخيلُ، وسَلَكْتُ في هَرَبي مَسَالِكَ لم يَرُضْها السَّيْرُ ... وَبَلَغْتُ أَذْرَبِيجانَ ..))[4].

وقد يكون سبب سفر راوي الهمذاني القيام بأداء نسك الحج، كما قال في إحدى مقاماته: ((بَيْنَا أنا بمدينةِ السَّلامِ، قافِلاً من البلدِ الحرام))[5]، وقوله: ((لَمَّا قَفَلْتُ من الحجِّ فِيمَنْ قَفَلَ))[6]، وقوله: ((لما أردتُ القُفُولَ من الحجِّ))[7]، وربما كان السفر

---

(١) المقامة (٤): شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٢٥.

(٢) المقامة (٥): الكوفية، ص٣١.

(٣) المقامة (٦): الأسدية، ص٣٥-٣٦.

(٤) المقامة (٨): الأذربيجانية، ص٥٣.

(٥) المقامة (٢٠): القِرْدِيَّة، ص١١١.

(٦) المقامة (٢٣): الحلوانية، ص٢٣٢.

(٧) المقامة (٤٦): الصفرية، ص٤٠١.

للتجارة ويظهر ذلك في قوله : ((لما قفلنا من تجارةِ إرمينيَّةَ أهْدَتْنا الفلاةُ إلى أطْفَالها))[١]، وفي قوله: ((لما جَهَّزَ أبُوالفتحِ الإسْكَنْدرِيُّ ولَدَهُ للتِّجارَةِ، أقْعَدَهُ يُوصِّيه))[٢].

وقد يكون السفر لطلب العلم كما في قوله : ((طُفْتُ الآفاقَ حَتَّى بَلَغْتُ العِراقَ، وتَصَفَّحْتُ دَواوينَ الشُّعَراءِ))[٣].

وكذا الحال بالنسبة لباقي كتاب المقامة؛ فيندر أن يكون راويهم أو بطلهم من غير محبي الأسفار، أو حاثاً عليها كما في مقامة ابن نباتة السعدي الذي حثهم على شد الرحال إلى طلب العلم عند العلماء، وذكر لهم واحداً منهم، فقال: ((إنه كما علمتم، وخلاف ماظننتم، فهو العالم والعالم، والغيث الهامل، والحبر العابد، والخير العايد... فإذا وصلتم حماه ، ووجدتم من نوره وهداه فبشراكم))[٤].

لأن كل من سافر، وكان مطلبه العلم والدين أو الكفاية؛ للاستعانة على الدين، كان من سالكي سبيل الآخرة، إلا أن لسفره شروطاً، وآداباً إن أهملها كان من عمال الدنيا، وأتباع الشيطان، وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بأعمال الآخرة، والسفر أقسام:

القسم الأول : السفر في طلب العلم .

القسم الثاني: أن يسافر لأجل العبادة من حج أو جهاد.

وفي الحديث : ((**لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى**))[٥].

القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش، وذلك أيضاً

---

(١) المقامة (٣٦): الأرمنية، ص٢٧٩.

(٢) المقامة (٤١): الوصية،، ص٣١٦.

(٣) المقامة (٢٨): العراقية، ص١٨٦.

(٤) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ١١ من المخطوط.

(٥) رواه البخاري برقم (٦٤٥)، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٥٦/٢، والإمام أحمد في المسند، ٢٣٤/٢-٢٧٨.

حسن، فالفرار مما لايطاق، من سنن الأنبياء والمرسلين، وقد كان من عادة السلف -رضي الله عنهم- مفارقة الوطن خيفةً من الفتن.

القسم الرابع : السفر هرباً مما يقدح في البدن أو في المال؛ كغلاء السعر، أو مايجري مجراه[1].

وكل هذه الأقسام وردت عند الهمذاني، ماعدا الأخير منها.

أما **ابن ناقيا** فراويه كثير التنقل غير أنه لم يحدد السبب، وفي ذلك يقول: ((حَدَّثني بعضُ البادية قَالَ: مررْتُ بعينٍ جَارِيَةٍ، في ظلِّ دَوْحَةٍ ضَافيةٍ، بِأَرْضٍ موحشةِ الْأَثرِ، وَأَنَا عَلَى جَنَاحِ السَّفَر))[2]، ويقول: ((حَدَّثني بعضُ الشَّاميين، قَالَ: يممْتُ الْعِرَاق في بعضِ السّنين، فَانْتَهيْتُ إِلى مدينةِ السَّلمِ وَالنَّفَقةِ))[3].

على خلاف **الحريري** الذي وضح أنه يعلم فوائد السفر، ولذلك فهو يحب السفر والتنقل، يقول في ذلك: ((كُنْتُ في عُنْفُوانِ الشَّبَابِ، وَرِيعَانِ العَيْشِ اللُّبَابِ، أقلي الاكتِنَان بالغَابِ، وَأَهْوَى الانْدِلَاق مِن القِرابِ؛ لِعَلْمِي أَنَّ السَّفَر يَنْفُجِ السُّفْر، ويُنْتِج الظَّفَر، وَمُعَاقَرة الوَطَن تَعقِر الفِطَن، وَتَحقِر مَن قَطَن))[4]. ففي قوله : ((إنَّ السَّفَر يَنْفُجُ السُّفْر...)) إشارة إلى فوائد السفر. لأن السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مرغوب إليه.

ومن فوائده : علمه - أي الإنسان- بآيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر . قال عليه الصلاة السلام: ((**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**))[5].

---

(١) انظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) المقامة (١)، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ١.

(٣) المقامة (٣)، المقامات العشرة، لابن ناقيا، ص ٦.

(٤) المقامة (٣١): الرملية، للحريري، شرح الشريشي، ٣/٤. السفر: قطع المسافة، السفرة: طعام المسافر، انظر: اللسان، مادة : سفر.

(٥) رواه الترمذي (٢٦٤٧) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه- في كتاب العلم، باب (١): فضل طلب العلم، ٢٩/٥، قال: هذا حديث حسن غريب.

وهذا **الأسواني** يحث على السفر ويذكره، بل افتتح به مقامته، فقال: «كُنْتُ في عنفوانِ عُمْرِي وَرَيعَانِهِ، وَشَرْخِ شَبَابي وَعيسانه، أشتاقُ إلى الاغتراب شَوْقَ الغريب إلى الإياب، وَأصْبُو إلى مفارقةِ الجناب، وَأرَى مُلَازمةَ الوطنِ، مجلبةً للأفن، وَمشبّهة لأدْرَاع الكفن، حَتّى فلَوتُ الفلوات تَشْرِيقاً وَتغريباً، وَأبدتُ قُوَى البيدِ آساداً وَتأويباً، وكنتُ لاأحطّ بوادٍ ولاأنزلِ بحضرٍ ولابوادٍ إلّا صِرْتُ عَلَماً لعلمائِهِمْ وَفضلائِهِمْ، وَمَعْلَماً لأدبائِهم...»[1].

ولعل السبب واضح في حبه للأسفار؛ ألا وهو حب العلم والاستزادة منه.

أما أجمل ماقيل عن السفر فهو ماذكره **ابن الجوزي**؛ لأنه سفر إلى الله -عز وجل- حيث يقول فيه: «جلستُ معَ الفكرِ بنادٍ مِنْ الأنديةِ، فَلَاحَ ركْبٌ بِوادٍ مِنْ الأوديةِ، فَقُمْنَا لنستبينَ الحال، فإذَا ركبانٌ علَى الرّحَالِ، فنظرْنَا فإذَا العقلُ قَدْ نفرَ في نفرٍ، فقلتُ: إلى أين؟ قالَ: السّفر، فقلتُ: هَلْ تصح لي معكَ صحبةٌ؟ فقالَ: اغربْ ياقليلَ الصّبرِ علَى الغربةِ»[2] فقد أراد أن تكون صحبته في السفر صحبةً حسنةً، وهذا مايجب على المسلم أن يفعله، لو نوى على السفر؛ لأن الصديق لايظهر على حقيقته إلا في السفر، فهذه أول العدة التي يعدها المسافر. لأن للمسافر آداباً من أول نهوضه إلى آخر رجوعه؛ ومنها : أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولايأخذ لزاده إلا الحلال الطيب، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه، ولابد في السفر من طيب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار مكارم الأخلاق. وأن يختار رفيقاً فلايخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق، وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي، ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولايعرف الرجل إلا برفيقه، وقد نهى رسول الله -ﷺ- أن يسافر الرجل وحده، وقال: « **إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»[3].

---

(١) المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ١ من المخطوط .

(٢) المقامة (٨): في السفر إلى الله – عز وجل – مقامات ابن الجوزي، ص ٦٤.

(٣) رواه أبوداود (٢٦٠٩) في كتاب الجهاد، باب القوم يسافرون يؤمر أحدهم عن حديث أبي سلمة عن أبي هريرة – رضي الله عنه–، ٣٦/٣، وأحمد في مسنده عن عبدا لله بن عمرو – رضي الله عنه–، ١٧٧/٢.



وإنما يحتاج إلى الأمير؛ لأن الآراء تختلف في مصالح السفر، ولانظام إلا في الوحدة[١].

وكل هذه الآداب طبقت في مقامة ابن الجوزي، يقول في ذلك: ((فنهضتُ نهضةَ غَشمشم، وقمْتُ قِيامَ من شمَّ عِطرَ مَنْشَم، وَجَمعتُ مَتَاعَ المشرَى في أَفيقي،... واستبدلْتُ مِنْ فريقي رَفيقي، فلمَّا انتظمني سِلْكُ صحبته، أسَرَني مَلْكُ محبته:

فصرتُ أفرشُ خَدِّي في طَريقكم ** ذُلاً وأسحَبُ أجْفَاني عَلَى الإبَرِ

فَلَمَّا قطعْنَا في قطعٍ مِن اللَّيلِ ... سألتُ صَاحبي عَن المقصدِ، فقالَ: بَلَدُ الْقَلْبِ... هُو مسْكَنُ الرّبِ فلمَّا أرشدَني أنْشَدَني :

يَاحَبّذَا جبلُ الرَّيان مِن جَبَلٍ ** وَحَبّذَا سَاكِن الرّيّان مَنْ كَانَا))[٢]

فابن الجوزي بين واقع مجتمعه الذي يميل إلى السفر، بل ويلتزم بآدابه.

والحريري واقعي؛ لذا اختار بطله من الواقع، يقول في ذلك د.جابر قميحة: ((وواقعية شخصية أبي زيد ليست محل اتفاق المؤرخين؛ فابو الحسن القفطي مثلاً يذهب إلى أن اسم أبي زيد السروجي مخترع، أما اسمه الحقيقي فهو المطهر بن سلار، وكان بصرياً نحوياً لغوياً صحب الحريري، واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به[٣].

ويقطع الدكتور غنيمي هلال أن أبازيد السروجي شخص حقيقي باسمه ورسمه، وأنه هاجر من ((سروج)) حينما أغار عليها الصليبيون[٤]، ولم يقدم الدكتور غنيمي دليلاً واحداً يؤيد به ماذهب إليه))[٥].

ويكمل الدكتور جابر رأيه مبيناً مدى واقعية شخصية البطل أبي زيد فيقول: ((ونحن نستبعد أن تكون شخصية أبي زيد حقيقية، وحتى لو افترضنا أنها حقيقية فإن

---

(١) انظر: موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦٥-٦٦، الريان: جبل بالحجاز. انظر: اللسان، مادة: رين.

(٣) انظر: إنباه الرواة، القفطي، ٢٧٦/٣، وفيات الأعيان لابن خلكان، ٦٤/٤.

(٤) انظر: الأدب المقارن ، ص ٢٢١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.

(٥) التقليدية والدرامية ، ص ١٩، دار المعارف، القاهرة.



دروها لايزيد على تنبيه الحس الفني عند الحريري، وأن الحريري مأأخذ منها ومن واقع حياتها إلا خطا أو خطوطا عريضة، ويبقى مانفثه على لسانها – على فرض واقعيتها الوجودية يجعلها أقرب إلى الشخصية الروائية المخترعة منها إلى الشخصية التاريخية الحقيقية))(١).

هذا بالنسبة لشخصية بطل مقامات الحريري، فإذا ماانتقلنا إلى مقاماته نفسها نجده في المقامة (١٢) يذكر واقعة إسلامية، وأخرى غير إسلامية؛ أما الأولى فتظهر في أن الركب المسافر قبل أن ينطلق في سفره لجأ كما يلجأ المسلمون عادة إلى **الاستخارة**، فقال: ((وانتدوا بِبَابِ جَيْرون لِلاسْتِخَارةِ))(٢).

والرسول -ﷺ-حث المسلم على ألا يخطو خطوة إلابعد أن يستخير ا لله،وقد علمنا كيفية ذلك،قال-ﷺ-:((**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل:اللهم إني استخيرك بعلمك،وأستقدرك بقدرتك،وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولاأقدر،وتعلم ولاأعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري،فاصرفه عني،وأصرفني عنه،واقدر لي الخير حيث كان،ثم رضني به**))(٣).

ويسمي حاجته عند قول : إن هذا الأمر، ولاتكون الإستخارة إلا في الأمور المباحة، إذ الواجبات مأمور بها، والمحرمات منهي عنها، فلايطلب أبداً الخيرة في أي أمر يفعله، ولافي آخر أمر بتركه(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) الدمشقية، شرح الشريشي ٣٧/٢، انتدوا: اجتمعوا، باب جيرون: من أبواب دمشق، وجيرون هذا: هو جيرون بن سعد بن عاد، وهو الذي بنى دمشق، ونقل إليها الرخام، وسماها إرم، وعلى هذا نقلت الأخبار، وأن ارم ذات العماد هي: دمشق، انظر: معجم البلدان، الحموي ١٩٩/٢، والاستخارة: أي طلب الخيرة، واستخرت ا لله: سألته أن يهب لي الخيرة، اللسان، مادة: ندى، خير.

(٣) رواه البخاري عن جابر – رضي الله عنه –، باب الدعاء عند الاستخارة، ١٠٨/٨.

(٤) منهاج المسلم،أبوبكر جابر الجزائري، ط٧،دارالشروق جده،ط٧ (١٤٠٨هـ-١٩٨٧م).

ثم بين الحريري في المقامة نفسها واقعاً إسلامياً يتجلى في لجوء المسلم إلى **الدعاء**، الذي استخف به مستعمو بطل المقامة غير أن أباالفتح الإسكندري، رد عليهم مبيناً فوائد الدعاء، فقال: «مابَالُكُم اتَّخَذْتم جِدِّي عَبَثاً، وجَعَلْتُم تِبْرِي خُبْثاً! ولَطَالَمَا وا للهِ جُبْتُ مَخاوِفَ الأَقْطارِ، وَولَجْتُ مَقَاحِمَ الأَخْطَار، فَغَنِيتُ بهَا عَنْ مُصَاحَبة خَفِير، واسْتِصْحَاب جَفِيرٍ»[(١)].

يريد أنه استغنى عن كل ذلك بالدعاء في كل نواحي الأرض التي قطعها... ثم طلب منهم أن يبدأوا بأم القرآن في الليل والنهار، ومن ثم يردّدونَ خلفه بلسان خاضع وصوت خاشع:

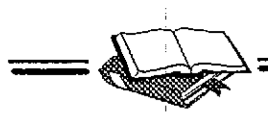
«اللهُّم يَامُحْيِي الرُّفَات، ويادَافِع الآفاتِ، وياوَاقِي المخَافَات، ويَاكَرِيم المكَافَاة، ويامَوْئِل العفَاة، ويَاوَلِيّ العَفْو المعَافَاة، صلّ عَلَى مُحَمدٍ خَاتم أنبيائِك، ومُبَلّغ أَنْبَائِك، وعَلى مَصَابِيح أُسْرتِه، ومفَاتِيح نُصْرتِه، وأَعِذْنِي مِنْ نَزغَاتِ الشَّياطِين، ونَزَواتِ السَّلاَطِين، وإِغْنَاتِ البَاغِيين، ومَعانَاةِ الطَّاغِين، وعُدْوانِ المعَادِين، وغَلَب الغَالِبين، وسلب السَّالِبين، وحِيَل المحْتالِين، وغِيلْ المغْتَالِين، وأَجْرني اللَّهم مِن جَوْرِ المجَاوِرين، ومجَاوَرةِ الجَائِرين، وسَطْوة الجبّارِين، وكُفَّ عنِّي أكُفّ الضَّائِمين، وأَخْرِجْني مِن ظُلُمَاتِ الظَّالِمين، وأَدْخِلني في عِبادك الصَّالِحين. اللَّهُم حُطْنِي فِي تُربَتِي، وغُرْبَتِي وغَيْبَتِي، وأَوْبَتِي ونَجْعَتِي، ورَجْعَتِي، ... واحْفَظْنِي في نَفْسِي ونَفَائِسي، ... وهَبْ لِي عَافِيَةً غَيْرَ عَافيةٍ، وارْزُقْنِي رَفَاهِيةً غَيْرَ وَاهِيةٍ، ... ولاتُظْفِر بِي الأَعْدَاء، إنَّكَ سَمِيع الدُّعَاء»[(٢)].

والدعاء الذي ذكر أنه مستجاب صادق فيه لأن الأدعية المصاحبة بالإخلاص والتضرع ينتفع بها إن شاء الله، وهذا مايجب أن يكون عليه واقع المسلم «الخضوع، والتضرع إلى الله، وحسن الرجاء فيه، وصدق الظن، وانتظار الخير على يقين من جهته وفضله؛ وهو بهذا المعنى خلق من أخلاق القرآن المجيد، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، ومما يدل على جلال

---

(١) المقامة نفسها(١٢): ٢/٤٤، مقاحم: مهالك، جفير: جعبة السهام، انظر: اللسان، مادة: قحم، جفر.

(٢) المقامة نفسها، ٢/٤٨، ٥٠.



مكانة الدعاء أن الرسول -ﷺ- قال: ((**الدعاء مخ العبادة**))[(١)].

ولقد جاء الأمر الإلهي بالدعاء في مواطن كثيرة من القرآن الحكيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾[(٢)].

وفي تفسير هذه الآية دقيقة من الدقائق ينبغي ملاحظتها، وهي أن القرآن الكريم ذكر مادة ((يسألونك)) في عدة مواضع، وبعد إيراد هذه المادة يطلب من رسول الله -ﷺ- أن يتولى الرد على سؤالهم بما يوحيه الله، أما حين جاء السؤال في هذه الآية فإن الله لم يطلب إلى رسوله أن يتولى الإجابة على السؤال، بل تولى الله تعالى بذاته القدسية الإجابة على سؤال العباد، ولعل الحكمة في ذلك هي الإشعار بأن من يدعو الله لايحتاج إلى وسيط بينه وبين الله، فالله سبحانه يجيب الداعي بلاوساطة أو شفيع))[(٣)].

ولقد كان بطل مقامتنا على علم بذلك، وموقناً به؛ لذا أقسم قائلاً : ((أُقْسِمُ بالسَّماءِ ذَاتِ الأبراجِ، والأرضِ ذَاتِ الفِجَاجِ، والماءِ الثَّجَاجِ، والسِّراجِ الوَهَّاجِ، والبَحْرِ العَجَّاجِ، وَالهواءِ العجاجِ، إنَّها لمنْ أَيمنِ العُوَذِ، وَأَغْنَى عَنْكُم مِنْ لَابِسي الخُوذ، مَنْ دَرَسَها عندَ ابتِسَام الفَلَق، لم يشفقْ مِنْ خطبٍ إلى الشَّفَق، ومَنْ نَاجَى بهَا طَلِيعةَ الغسقِ، أَمِنَ ليلتَهُ مِنْ السَّرق))[(٤)].

لقد علمهم هنا أن هذه الأدعية لمن أفضل الرقى، بل وتكفيهم عن لبس الدروع. فهم أحوج مايكونون لها، وقد انقطع بهم الطريق، ولاملجأ إلا التوجه إلى الله كما علمهم، ومضطرين إليه اضطراراً.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك - ﷺ- في كتاب الدعوات، باب (١): ماجاء في فضل الدعاء، ٤٥٤/٥ وقال: حديث غريب، والإمام أحمد في مسنده، ٢٧١/٤ من حديث النعمان بن بشير - ﷺ-: ((الدعاء هو العبادة)).

(٢) سورة البقرة ، آية ١٨٦.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن. د. الشرباصي، ٢٩/٦-٣٢.

(٤) المقامة نفسها (١٢): للحريري، شرح الشريشي ٥١/٢.



والدعاء قسمان اضطراري، واختياري؛ فالاضطراري كما في حالة أصحاب هذه المقامة: هو الالتجاء إلى القوة الغيبية عند تقطع الأسباب بالإنسان، وسد منافذ الرجاء بالسعي ...

أما القسم الثاني من الدعاء، وهو الاختياري، فيذكر رشيد رضا أنه من الأعمال التي تزيد في الإيمان، وتدعمه كسائر العبادات المطلوبة في الدين، وليس أثراً طبيعياً له، ولولا ذلك لما كان للتكليف به معنى، إذا قال العبد: اللهم وَسِّعْ علي في الرزق، يتذكر أن سعيه في طلب الرزق من أسبابه التي هداه الله تعالى إليها بالحواس[1].

ولذا نجد الحريري يقول على لسان الراوي: ((فَتَلَقَّنَاهَا حَتَّى أَتْقَنَّاهَا، وَتَدَارَسْنَاها، لِكَيْلا لانَنْسَاها))[2].

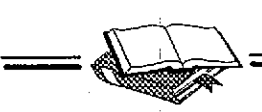
وقد طبق الحريري على بطل مقامته هذه بعض آداب الدعاء، والتي أجملها الغزالي في الإحياء، التي منها : خفض الصوت، والتضرع والخشوع[3] في قوله : ((لِيَقْرأ كُل مِنْكُم أمُّ القُرْآن، كُلَّمَا أَظَلَّ المِلْوَانِ: (الليل والنهار)، ثُمَّ لِيَقُل بِلِسَانٍ خَاضِعٍ، وَصَوْتٍ خَاشِعٍ...))[4].

وافتتح الدعاء بذكر الله تعالى، فقال: ((اللَّهُم يَامُحْيِي الرُّفَاتِ، ويادَافِع الآفاتِ... ويَاوَلِي العَفْو والمُعَافَاة ...))[5].

ثم صلى على النبي -ﷺ- في قوله : ((صلِّ عَلَى محمَّد خَاتَمِ أَنْبِيائك، وَمُبَلِّغ أَنْبَائك، وعَلى مَصَابِيح أُسْرته ...))[6].

---

(١) انظر: موسوعة أخلاق القرآن، د. الشرباصي، ٣٨/٦.
(٢) المقامة نفسها، ٥١/٢.
(٣) انظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ١-٢، ١٣٨-١٤٠. وموسوعة أخلاق القرآن، د: أحمد الشرباصي، ٤٠/٦-٤١.
(٤)(٦) المقامة (١٢) للحريري، ٤٧/٢-٤٨.
(٥) المقامة نفسها، ٤٨/٢.



كما ظهر إلحاحه في الدعاء كما مثلت أول المقامة، وكما ذكر ابن قيم الجوزية الذي سئل في رجل ابتلى ببلية، فكان رده : «ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال ماأنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء... ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يغضب عليه**»... وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الله يحب الملحين في الدعاء»[1].

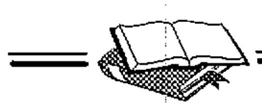
أما الواقعية غير الإسلامية الموجودة في المقامة السالفةفهي : تصوير الحريري لبطل مقاماته وهو يشرب الخمر، ويستمع إلى جانب ذلك للغناء المصاحب بالعود، لذا لم نخض فيه، وننتقل لنرى الحريري يظهر لنا واقعاً يمثل الواقع الإسلامي في مقامته الرابعة المسماة «الدِّمياطيَّة»، فيقول على لسان الراوي الحارث بن همام الذي سمع رجلاً ذا صوت جهير يقول لرفيقه الذي يسامره: «كَيْفَ حُكْمُ سِيرَتِكَ مَعَ جِيلِكَ وجِيْرَتِكَ؟ فَقَالَ: أَرْعَى **الجَارَ**، وَلَوْ جَارَ، وأَبْذُلُ الوِصَالَ، لِمَنْ صَالَ، وأَحْتَمِلُ الخَلِيطَ، ولَو أَبْدَى التَّخْلِيطَ، وأَوَدُّ الحَمِيمَ، ولَوْ جَرَّعَنِي الحَمِيمَ، وأُفَضِّلُ الشَّفِيقَ، عَلَى الشَّقِيقِ، وأَوْفِي للعَشِيرِ، وإِنْ لَمْ يُكَافِئ بالعَشِيرِ، وأَسْتَقِلُّ الجَزِيلَ، للنَّزِيْلِ وأَغْمُرُ الزَّمِيلَ، بالجَمِيلِ،وأُنْزِلُ سَمِيرِي، مَنْزِلَةَ أَمِيرِي، وأُحِلُّ أَنِيْسِي، مَحَلَّ رَئِيْسِي، وأُودِعُ مَعَارِفِي، عَوَارِفِي، وأُولِي مُرَافِقِي، مَرَافِقِي، وأُلِيْنُ مَقَالِي، للقَالِي، وأُدِيمُ تَسْآلِي، عَنِ السَّالِي، وأَرْضَى مِنَ الوَفَاءِ، باللِفَاءِ، وأَقْنَعُ من الجَزَاءِ، بأَقَلِّ الأَجْزَاءِ، ولاأَتَظَلَّمُ، حِيْنَ أُظْلَمُ، ولاأَنْقِمُ ولَو لَدَغَنِي الأَرْقَمُ»[2].

أول مابدأ به الرفيق لسميره رداً على جوابه: قوله: «أرعى الجار»: وهذا هو واقع المسلم أن يرعى جاره، صحيح أنه «لاتربطنا بالجار قرابة أو صداقة، ومع ذلك

---

(١) كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، ص٢-٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ١/١٦٢-١٦٤، الحميم الثانية: الماء الحار، العشير : العشر، عوارفي : أعطياتي، المرافق: المنافع، القالي: المبغض، اللفاء : الشيء القليل. الأرقم: الثعبان المنقط. انظر: اللسان، مادة: حمم، عشر، عرف، رفق، قلى، لفى، رقم.



فهو من أقرب الناس إلينا؛ لأنه أول من يصل إلى سمعه بكاؤنا أو ضحكاتنا، وأول من يسرع لمشاركتنا أفراحنا، وأتراحنا لذلك فرض علينا الإسلام حسن معاملته والسهر على راحته ومعاونته))(١).

قال الله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ...**﴾(٢).

((فالجار ذي القربى: هو الذي قرب جواره أو من له مع الجوار قرب أو اتصال بنسب، أو الذي قرب مكاناً أو ديناً أو نسباً.

والجار الجنب: هو الذي بعد جواره أو الجار الذي لاقرابة له، أو الجار البعيد مكاناً أو ديناً أو نسباً))(٣).

ولو لم يكن للجار اهتمام لما استحق عناية الله سبحانه وتعالى به لدرجة أنه يرسل سفيره جبريل -عليه السلام- إلى النبي -ﷺ- ليوصيه بالجار،حتى ظن من كثرة تكرار الوصية به أنه سيورثه، قال عليه الصلاة والسلام: ((**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**))(٤).وروي أن النبي-ﷺ- قال: ((**والله لايؤمن، والله لايؤمن، والله لايؤمن**))، قيل: من يارسول الله؟ قال: ((**الذي لايأمن جاره بوائقه**))(٥).

أكد - عليه السلام - ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لايؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره، فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضاه وحض العباد عليه.

---

(١) آداب المجتمع في الإسلام، محمد جمال الدين رفعت، ص ٧٠، عني بطبعه ونشره: عبدالله إبراهيم الأنصاري، مطابع الخليج، الدوحة، قطر.
(٢) سورة النساء، آية ٣٦.
(٣) حق الجار ، طه عبدالله العفيفي، ص ١٠، سلسلة الحقوق(٦)، دار الاعتصام، القاهرة.
(٤) رواه البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- كتاب الأدب،باب الوصاة بالجار عن الرسول -ﷺ- مازال جبريل يوصني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه،١٢/٨،ورواه الإمام أحمد،٨٥/٢.
(٥) رواه البخاري عن أبي شريح - رضي الله عنه -، كتاب الأدب، باب إثم من لايأمن جاره بوائقه، ١٢/٨. ورواه مسلم (٧٣) من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ: ((لايدخل الجنة من لايأمن جاره بوائقه))، كتاب الإيمان، باب(١٨): بيان تحريم إيذاء الجار، ٦٨/١.



إلى جانب أحاديث نبوية شريفة كثيرة كلها تحض على حسن الجوار، وقد وعى الحريري ذلك، وطبقه أفراد مجتمعه، فنقل لنا بدوره ذلك.

ومن واقع الحريري الذي أبانه لنا في مقاماته **إقامة الدروس في المساجد** بعد الصلاة، كما في مقامته المسماة ((المغربية)): ((حكى الحارث بن همام، قال: شَهِدْتُ صَلاةَ المغْرِب، في بعْضِ مَسَاجِد المغْرِب، فلمَّا أَدَّيْتُها بفَضْلِهـا، وشَفَّعْتُها بنَفْلِها، أخذ طَرْفِي رُفْقةً قَد انْتَبَذُوا نَاحِيـة، وامْتَازُوا صَفْـوةً صَافِيـةً، وهُـمْ يَتَعَاطُونَ كَأْسَ المنَافَثَة، ويقْتَدِحُون زِنَاد المُبَاحَثة، فَرَغِبْت في مُحَادثَتِهم، لِكَلمةٍ تُسْتفاد، أَو أَدَبٍ يسْتزاد))[١].

وهذا الواقع الذي صوره الحريري هنا ليس بجديد؛ فمنذ عهد الرسول الكريم -ﷺ- والدروس تقام في المساجد مابين أداء الصلوات جماعة، وكذلك أداء تحية المسجد بإقامة ركعتين، وقبلها السلام على من يجلس في المسجد، كما فعل أبوزيد في هذه المقامة: ((فَلَمْ أَجْلِس إلاَّ لمحْةَ بَارِق خَاطِفٍ ... حتَّى غَشِينَا جَوَّابَ، عَلَى عَاتِقِه جِرَاب، فحيَّانَا بالكَلِمتين، وحَيَّا المسْجِد بالتَّسْلِيمتَين))[٢].

فقوله : حيانا بالكلمتين : السلام عليكم، فهذا الواقع هو ماكان عليه المسلمون من **إفشاء السلام**، ((وتعاليم الإسلام تدعو إلى نشر السلام، والتودد بين الناس، فتفرض على المسلم حينما يلتقى بآخر أن يجيبه قائلاً : السلام عليكم، وتلزم الآخر بأن يجيبه قائلاً: وعليكم السلام))[٣].

قال تعالى : **﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾**[٤]. وقال -ﷺ-: ((**والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولاتؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على عمل إذا عملتم تحاببتم؟)) قالوا بلى يارسول الله، قال: ((أفشوا السلام بينكم))**[٥].

---

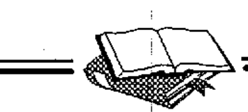
(١) المقامة (١٦): للحريري، شرح الشريشي، ٢/١٩٣.

(٢) المقامة نفسها، ٢/٢٠٣.

(٣) آداب المجتمع في الإسلام، محمد جمال الدين رفعت، ص ٩٧.

(٤) سورة النساء، آية ٨٦.

(٥) رواه مسلم(٩٣) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- كتاب الإيمان، باب (٢٢): بيان أنه لايدخل الجنة إلا المؤمنون..،١/٧٤ بلفظ: ((لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا...)). وقد رواه الترمذي (٢٦٨٨) كتاب الاستئذان، باب(١) : ماجاء في إفشاء السلام، ٥/٥٢، وابن ماجه(٣٦٩٢)، كتاب الأدب، باب(١١): إفشاء السلام، ٢/١٢١٧-١٢١٨. وأبوداود (٥١٩٣) في كتاب الأدب، باب في إفشاء السلام، ٤/٣٥٠. وروى الإمام أحمد نحوه من حديث الزبير بن العوام - رضي الله عنه- ١/١٦٥، ١٦٧. وأخرجه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- بلفظ ((... لاتدخلون .. ولاتؤمنون..)) ٢/٤٤٢.



وعنه -ﷺ-: «**يسلم الراكب على الماشي، وإذا سلم عن القوم واحد أجزأ عنهم**»[١].

وأما عن تحية المسجد، فعن أبي قتادة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إذا دخل أحدكم المسجد، فلايجلس حتى يصلي ركعتين**»[٢].

وحين قال: «فَلَمّا أَدّيْتُها بِفَضْلِها - صَلاَة المَغْرِب - وشَفَعْتُها بِنَفْلِها»[٣] فهو قد امتثل لأوامر الإسلام، وفيه حث ووعظ على التمسك بالصلاة جماعة، وعدم ترك النافلة؛ لقوله -ﷺ- في فضيلة الجماعة: «**صلاة الجمع تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**»[٤].

ولما كان أبوزيد - بطل مقامات الحريري - أراد الحصول على مبتغاه عمد إلى **السؤال**، وليحقق ماأراده من السؤال لجأ إلى أسلوب استعطاف نفوسهم الرحيمة في تفريج الكرب، كعادة المسلمين الذين يحبون الله ورسوله -ﷺ- فيمتثلون للأوامر، فهذا الرسول الكريم -ﷺ- يحث على إدخال السرور على قلب المسلم من أخيه المسلم، فيقول : «**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه**»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢١٦٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، كتاب السلام، باب(١): يسلم الراكب على الماشي بلفظ: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير» ١٧٠٣/٤. وزاد الترمذي: «ويسلم الصغير على الكبير» في حديث (٢٧٠٣)، كتاب الاستئذان، باب(٤): ماجاء في تسليم الراكب على الماشي، ٦١/٥. وروى الإمام أحمد بعضه من حديث فضالة بن عبيد(١٩/٦).

(٢) رواه مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب استحباب تحية المسجد بركعتين وكراهة الجلوس قبل صلاتهما، وأنهما مشروعة في جميع الأوقات، ١٥٥/٢.

(٣) المقامة نفسها، ٢٠٣/٢.

(٤) رواه مسلم (٦٥٠) عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنه - في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٤٥٠/١. كما رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٦٦/٢. وابن مالك في الموطأ في فضل صلاة الجماعة، ص ٢٨٥، ٢٨٦.

(٥) رواه مسلم (٧١) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- بزيادة: لأخيه أو قال لجاره، كتاب الإيمان، باب (١٧): الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم مايحب لنفسه، ٦٧/١. ورواه الإمام أحمد، ١٧٦/٣، ٢٠٦، ٢٥١ بنحو ذلك.

وقد استغل أبوزيد ذلك، فقال للحضور في المسجد : ((ياأُولِي الأَلْبَاب، والفَضْل اللُّبَاب، أَمَا تَعْلَمُون أَنَّ أَنْفَس القُرُبَات، تَنْفِيس الكُرُبَات، وأَمْتَنُ أَسْبابِ النَّجَاة، مُواسَاة ذَوِي الحَاجَاتِ، وإِنِّي وَمِنْ أَحَلَّنِي سَاحَتكُم، وأَتَاح لِي اسْتِمَاحَتكم، لِشَرِيْدُ مَحَلٍّ قَاصٍ، وبَرِيْد صِبيةٍ خِمَاصٍ، فَهَل في الجَمَاعةِ، مَنْ يفْثأَ عنّا حُمَيَّا المجَاعَة؟))[١].

وأما عن موقف الإسلام من السؤال فقد سبق وأن تناولناه في الفصل الثاني، فيكفي أن نشير إلى قول الرسول -ﷺ-: ((**من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم، ومن سأل وله مايغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع، وليس عليه لحم**)) وفي لفظ آخر: ((**كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه**))[٢].

وفي المقامة ((المغربية)) وإن كان الشكل العام لها مباراة في تنظيم الدرر الأدبية فإن مضمونها حث ووعظ على فضائل حض عليها الإسلام،كقوله:((لُمْ أخاً مَلَّ))، و((كَبِّرْ رَجَاء أَجْرِ رَبِّك)) أي عظم الكبير وقدمه على نفسك، و((مَنْ يَرُبُّ إِذَا بَرَّ يَنِمْ)) أي: إذا كان البر من الناس يمشي بالنميمة فمن يرب فعلاً جميلاً ويصلحه، و((سَكِّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكِسْ)) أي سكت النمام تكن عاقلاً، و((لُذْ بِكُل مُؤَمِّلٍ، إذَا لَمَّ وَمَلَكَ بَذَل))، وقوله:

أُسْ أَرْمَلاً إِذاَ عَرَا ** وارْعَ إِذاَ المَرْءُ أَسَا[٣]

أي : إن قصدك فقير فصله، وإن أخطأ عليك صاحب فلاتقطعه، وارع حق **الصحبة**. وفي حق الصحبة، واختيار الصديق أحاديث لرسول الله -ﷺ- وضعها الحريري في اعتباره فخرجت على النحو السابق، ومن ذلك قوله عليه السلام: ((**المؤمن آلف مألوف، ولاخير فيمن لايألف ولايؤلف**))[٤].

---

(١) المقامة نفسها (١٦): المغربية، ٢/٢٠٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ١/٣٨٨، ٤٤١، ٤٤٦، ٤/١٨١.

(٣) انظر: المقامة (١٦)، للحريري، ٢/٢٠٨، ٢١١.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢/٤٠٠، ٥/٣٢٥.



وقوله -ﷺ-: ((**من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً؛ إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه**))(١).

كما ((أنه لايصلح للصحبة كل إنسان، قال-ﷺ-: ((**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**))(٢).

ولابد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته، وجملتها أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولاحريص على الدنيا. أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصل... وللأخوة الصحيحة حقوق، فلأخيك عليك حقٌ في المال، وفي الإعانة بالنفس، وفي اللسان، والقلب، وفي العفو، وفي الدعاء، وفي الوفاء والإخلاص، وفي التخفيف، وفي ترك التكلف والتلكيف، وذلك يجعلها ثماني جمل))(٣).

ولعلك تلحظ أن بطل مقامات الحريري بعد أن يحتال ليحصل على مايريد يذهب تاركاً وراءه مايدلل على أنه أبوزيد، وفي هذه المقامة أرسل مع الغلام قوله: ((وقلْ لهم عَنّي: إنَّ السَهَر في الخُرَافاتِ، لِمنْ أَعْظَمِ الآفاتِ، ولَسْتُ أُلغِي احْتِراسِي، ولاأَجْلِبُ الهوَسَ إلى رَاسِي))(٤).

فقد قرر واقع بعض الأدباء في عصره، وهو سهرهم على نظم الدرر، والمباراة في إظهار مقدرتهم كما في بداية هذه المقامة، إلا أنه بين أن واقع المسلمين يجب ألا

(١) رواه الإمام أحمد من حديث عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت قال رسول الله -ﷺ-: ((من ولاه الله من أمر المسلمين شيئاً فأراد به خيراً جعل له وزير صدق فإن نسي ذكره وإن ذكر أعانه))٦/٧٠.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ: ((الرجل على دين خليله...)) الحديث، كتاب الزهد، باب (٤٥)، ٥٨٩/٤.

(٣) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ١٩٩-٢٠١.

(٤) المقامة المغربية، نفسها، ٢٣٢/٢. الخرافات: أحاديث اللهو والأباطيل. وقيل: الخرافة الحديث المستملح في الكذب. وقيل: كان خرافة رجلاً صالحاً سبته الجن، فرأى منهم عجائب فحدث بها، فيقال في كل حديث يستغرب: كأنه حديث خرافة. انظر: شرح الشريشي للمقامة، ٢٣٢/٢.



يكون في السهر على الخرافات، كما أطلق عليها؛ لأنها من أعظم الآفات، نعم والمسلم عليه السهر في طاعة الله: من قراءة للقرآن، ومن صلاة تهجد وقيام، وذكر لله -جل علاه- قال عليه الصلاة والسلام-: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله – عز وجل- إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»[١].

وفي هذه المقامة نرى الحريري يذكر من واقع مجتمعه الذي يطبق على الواقع الإسلامي، **حب العلم والعلماء**، وتشجيعهم وإن لم يكن ذلك ينطبق على الجميع ففي المقامة السادسة والعشرين، كان على أبي زيد دين، وأصر صحبه على الحصول على الدين، ولجأ إلى والي الجرائم؛ لما بلغه من أفضال الوالي وفضله، وحضر مع غريمه إلى باب أمير طوس وأنشأ رسالة رقطاء، قائلاً فيها: «أَخْلاقُ سَيدنَا تُحَب، وبِعقْوَتِه يُلَبّ، وقُربُه تُحَف، ونأيُه تَلَف، وخُلّتُه نَسَب، وقَطِيعَتُه نَصَب ... هَذا ثُمَّ شِرْبُه بَرَض؛ وقُوتُه قَرْض ... وقَدْ قَلِق لِتوَغُّر غَرِيم غَاشِم، يَسْتحِثُّه بِحق لازِم؛ فإنْ مَنَّ سَيِّدُنا بكَفِّه، بِهِبَات كَفِّه، تَوَشّح بَمجْدٍ فَاق، وَباَء بأَجْرٍ فَكّي مِنْ وَثَاق...»[٢].

فأعجب بها الأمير، وأمر بقضاء دينه، قال أبوزيد: «فلمَّا اسْتَشَف الأَمِير لآليها، ولَمحَ السّر المُودَع فِيْها، أَوْعَز فِي الحَالِ بقَضَاءِ دَيْني، وفَصل بَيْن خَصْمِي وبَيْنِي، ثم اسْتَخْلصِنِي لمكَاثَرتِه، واخْتَصّنِي بأَثْرتِهِ، فَلبِثْتُ بضْع سِنِين أَنْعَمُ فِي ضِيَافَتِه، وأَرْتَع فِي رِيف رأْفَتِه...»[٣].

فلو لم يكن الأمير يقدر العلم وله دراية بالأدب، لما أعجب برسالته الرقطاء، ولما قضى دينه، وجعله يلازمه، وينزل في ضيافته.

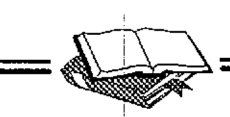
وفي مقامة أخرى رحل الحارث مع أبي زيد، فوجد أن راحلته تجد في سيرها،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث طويل لأبي هريرة – رضي الله عنه- كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب(١١): فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، ٢٠٧٤/٤. كما رواه ابن ماجه بطوله في المقدمة برقم(٢٢٥)، باب(١٧): فضل العلماء والحث على طلب العلم، ٨٠/١. ورواه الإمام أحمد بطوله في مسنده، ٢٥٢/٢.

(٢) المقامة ، الرقطاء، للحريري، شرح الشريشي، ٢٧٤/٣-٢٩١.

(٣) المقامة نفسها، ٢٩٥/٣.



فسأله عنها فأخبره أنه استعرضها من حضرموت، وكابد في الحصول عليها الموت، وبعد فترة ضاعت منه، وبحث عنها طويلاً إلى أن سمع ذات يوم صوتاً يسأل عن صاحب مطية ضاعت منه، فوصفها أبوزيد، وطالب بها إلا أنه أعرض عنه، وقال له: لست بصاحب لُقطتي، وطلب أن يذهبا إلى حكم هذا الحي البريء من الغيّ، وذهبا وعاد لوصفها مرة ثانية، فأخرج الرجل نعلاً، وقال إنه يوافق ماوصفه أبوزيد إلا أن الحكم الذي لجأ إليه ، لديه معرفة تامة بالألفاظ ودراية بالمعاني والأدب، فحكم له بها... عندها مدح الحارث الأدب ، فقال : «فأَخَذْتُ أُسْهِبُ فِي مَدْحِ الأَدَب، وأفضل ربه عَلَى ذِي النَّشَب، ... فَلَمَّا أَفْرَطْتُ فِي العَصَبية، للعُصْبة الأَدَبِية، قَالَ لي: صَهْ، واستِمع مِنّي، وافْقه :

يقولُونَ : إنَّ جَمال الفَتَى ** وزينَتَهُ أَدَبٌ رَاسِخُ
فأمّا الفَقِير فخَيْرٌ لَهُ ** مِنَ الأَدب القُرْصُ والكَامِخُ»[1]

بين حال الأدب والأدباء في عصره، حيث إنه لاينفع أهله إذا كانوا فقراء، وأعطى أمثلة حين وصلوا إلى قرية ، فسأل أبوزيدغلاماً لم يبلغ الحنث بعد أن حياه تحية المسلم :

«أيبَاعُ هَاهُنا الرُّطَب بالخُطَب؟ قَال: لَا وا للهِ. قَالَ: ولَا البَلَح بالمُلَح؟ قَالَ: كَلاَّ وا للهِ، قَالَ: ولا الثَمر بالسَّمَر؟، قَالَ: هَيْهاتَ وا للهِ. قَالَ: ولاالعصَائد بالقَصَائِد؟ قَالَ: اسْكُتْ عَافَاكَ ا للهُ. قَالَ: ولَاالثرَائِد بالفَرائِد؟ قَالَ: أيْنَ يُذْهَبُ بِكَ أَرشَدكَ ا للهُ! قَالَ: ولَاالدَّقِيق بالمعْنى الدَّقِيق؟ قَال: عُدْ عَنْ هَذا أَصْلَحكَ ا للهُ! ... ولمحَ الغُلامَ أنَّ الشَّوْطَ بَطِين، والشَّيْخ شُوَيْطِين، فَقَالَ لَهُ: ... أمَّا بِهذَا المَكَانِ فلَايُشْتَرَى الشِّعْر بشَعِيرة، ولاالنَّثر بنُثَاره، ولاالقَصَصُ بقُصَاصَة، ولَاالرِّسالةُ بغُسَالة، ولاحِكَمُ لُقْمَان بلُقْمة، ولاأَخْبَار المَلاَحِم بلحْمَة. وأمَّا جِيل هَذَا الزمَّان، فمَا مِنْهم مَنْ يَميح، إذَا صِيْغَ لَهُ المَدِيح، ولَامَنْ يُجِيزُ، إذَا أنْشَد لهُ الأَراجِيز، ولَامَنْ يُغِيثُ، إذَا أَطْربَه الحَدِيثُ، ولَامَنْ يَمير، ولوْ أنَّه أَمِير. وعِنْدَهم أنَّ مَثَلَ الأَدِيْب، كالرَّبْع الجَدِيب، إنْ لَمْ تَجُد الرَّبْعَ دِيمَةٌ، لم تكنْ له قِيْمَة، ولاَ دَانَتْهْ بَهِيمة. وكَذا الأَدَبُ، إنْ لَمْ يعضُدْه نَشَبٌ، فَدرْسُه نَصَبٌ،

---

(١) المقامة (٤٣): البكرية، للحريري، شرح الشريشي، ١٢٣/٥.



وتحزنه حصب ... فقال لي أبوزيد: أعلمت أن الأدب قد بار، وولت أنصاره الأدبار؛ فبؤت له بحسن البصيرة، وسلمت بحكم الضرورة. فقال: ... واعلم أن الأسجاع لاتشبع من جاع»[١].

فنلحظ أن الحريري بين في المقامة نفسها ضدين، مدح للأدب ومن ثم ذمه، أو قل ليس ذما، إنما محترفها لايجد مايسد جوعه؛ لنفق بضاعته وكسادها، ربما لأن هذا العلم أراد به عرض الدنيا، لقوله -ﷺ-: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل، لايتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»[٢].

وفي المقامة (٤٥) رمت زوجة أبي زيد السروجي زوجها بالعنة ، أمام القاضي تلميحاً لاتصريحاً، فرد عليها قائلاً:

«وملت عن حرثي لارغبة ** عنه ولكن أتقي بذره
فلاتلم من هذه حاله ** واعطف عليه واحتمل هذره»[٣]

وعجب القاضي من فصاحتها فأمر لهما بألفين من الورق، وبعد خروجهما سأل عنهما فعرف أنه خدع بهما، فما هما إلا أبو زيد وزوجه، فأرسل ليرجعهما، ولكن أبا زيد أرسل مع الرسول يطلب منه ألا يعقب جميله بالأذى، فقال القاضي: «قاتله الله، فما أحسن شجونه، وأملح فنونه، ثم إنه أصحب رائده بردين، وصرة من العين وقال له: سر سير من لايرى الالتفات، إلى أن ترى الشيخ والفتاة، فبل يديهما بهذا الحباء، وبين لهما انخداعي للأدباء»[٤].

---

(١) المقامة نفسها، ١٢٧/٥-١٣٥، يمير، يميح: يعطي، ديمة: المطر الدائم، انظر: اللسان، مادة: مار، ماح، ديم.

(٢) رواه أبوداود بإسناد صحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه- في كتاب العلم، باب(١٢): في طلب العلم لغير الله تعالى، ٣٢٣/٣، وابن ماجه في المقدمة، باب (٢٣): الانتفاع بالعلم والعمل به، ٩٢/١، ومسند أحمد، ٣٣٨/٢.

(٣) الرملية، للحريري، شرح الشريشي، ١٩٥/٥.

(٤) المقامة نفسها، ٢٠١/٥-٢٠٢، الشجون: الفنون والطرق، العين: الذهب والفضة، انظر: اللسان، مادة : شجن، عين.

فرغم أن خدع، فإنه قد أعجب بفصاحتهما، ومعرفتهما بالألفاظ والكنايات والاستعارات؛ مما جعله يفيض لهما في العطاء، بدل أن يصر على استرجاع الألفين اللّذين وهبهما إياها؛ لأنهما حصلا عليها بالخديعة. إن هذا يدلل على تقدير هذا القاضي للعلم وأهله.

وفي مقامة أخرى للحريري يورد لنا أبوزيد معلماً للصبيان، وظهر أثر تأديبهم، ثم قال يمدح العلم والتعلم:((أَمَا إِنَّ التَّعْلِيم أَشْرف صِنَاعَةً، وأَرْبَح بِضَاعة،وأَنْجح شَفَاعَة وأفْضَل بَرَاعَة،ورَبه ذُو إِمْرَةٍ مُطَاعة،وَهَيْبة مُشَاعَة،وَرعِيةٍ مِطْواعة،يتَسيْطَر تَسيْطر أَمِير، وَيَرَتَّبُ تَرتِيبْ وَزِير، ويتَحكّم تَحكُّم قَدِير، ويتَشَبَّه بِذِي مُلْكٍ كَبِير، إِلاّ أَنَّه يَخْرَف فِي أَمدٍ يَسِير، ويتَّسِم بحُمْقٍ شَهير، ويتَقلّب بِعَقْلِ صَغِير، ولايُنَبّئكَ مِثْلُ خَبِير))[1].

لم لايكون رأيه في التعليم هكذا؟ وا لله سبحانه وتعالى، يقول: ﴿**قل هل يستوى الذين يعلمون والذي لايعلمون**﴾[2]، ويقول: ﴿**يرفع ا لله الذي ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجت**﴾[3].

ويقول -ﷺ-: ((**إن ا لله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النحلة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**))[4].

ومن فضائل التعليم ماروي عن رسول ا لله -ﷺ- قوله لعلي - ﷺ-: ((**لأن يهدي ا لله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**))[5].

وفي الأثر أحاديث كثيرة تحث على طلب العلم، كقوله -ﷺ-: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل ا لله به طريقاً إلى الجنة))[6].

---

(١) المقامة (٤٦): الحلبية، للحريري، شرح الشريشي، ٢٥٦/٥.
(٢) سورة الزمر، آية ٩.
(٣) سورة المجادلة، آية ١١.
(٤) رواه أحمد في مسنده، ١٩٦/٥.
(٥) رواه مسلم (٣٤) عن سهل بن سعد - ﷺ-، كتاب فضائل الصحابة، باب (٤): من فضائل علي بن أبي طالب - ﷺ-، ١٨٧٢/٤.
(٦) رواه البخاري كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ٢٦/١-٢٧، ومسند أحمد، ٢٥٢/٢-٣٢٥، ٤٠٧.

يقول الحريري في مقامته (٢٩) على لسان البطل أبوزيد السروجي، موجهاً الخطاب للراوي الحارث بن همام: ((قَدْ عَلق بِقَلْبِي أَنَّ تَصَاهُرَ مَنْ يأسُو جِرَاحَك، ويَرِيشَ جَنَاحَك، فقُلْت: وكَيفَ أَجْمَعَ غُلٍّ وقُلّ، وَمَن الَّذِي يَرْغَبُ في ضُلّ بْنِ ضُلّ! فَقَالَ: أَنَا المُشِير بِكَ وإليْك، والوَكِيل لَكَ وعَليْك، مَعَ أنَّ دِيْنَ القَومِ جَبْرِ الكَسِير، وفَكّ الأَسِير، واحْتِرام العَشِير، واسْتِنْصَاحُ المُشِير، إلاَّ أَنَّهُم لَوْ خَطَبَ إليهِمْ إبْرَاهيمُ بْنُ أدْهَمْ أوْ جَبَلةُ بنُ الأَيْهَم؛ لَمَا زَوّجُوه إلاَّ عَلَى خَمْسِمائَة دِرْهَم، اقْتِداءً بِمَا مَهَر الرَّسُول -ﷺ- زَوْجَاتِه، وعَقَد بِهِ أَنْكِحَة بَنَاتِه، عَلَى أنَّكَ لَنْ تَطَالَبَ بِصَدَاق، ولاتَلْجَأ إلى طَلاَق. ثُمّ إنِي سأَخْطُبُ فِي مَوْقِف عَقْدِك، ومَجْمع حَشْدِك...))[1].

فهنا **حثه على الزواج**، والإسلام في واقعه كذلك؛ لقوله تعالى: **﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾**[2]. ولقوله -ﷺ-: ((**النكاح سنتى، فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني**))[3].

ولأن صداق بنات رسول الله -ﷺ- كان أربعمائة درهم أو خمسمائة[4]، وكذا كان صداق أزواجه -ﷺ-[5].

فإلى هذا الحكم أشار بطل مقامتنا أبوزيد السروجي في أن أهل واسط يلتزمون السير على هدي الرسول الكريم -ﷺ-، فلايزوجون بناتهم إلا على هذا المهر، وقد

---

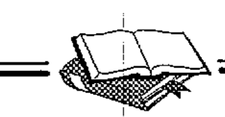
(١) المقامة الواسطية، للحريري، شرح الشريشي، ٣/٣٧٧.

(٢) سورة النور، آية ٣٢.

(٣) رواه مسلم (١٤٠١) من حديث أنس - رضي الله عنه - أن نفراً من أصحاب الرسول -ﷺ- قال بعضهم: لاأتزوج النساء، وقال بعضهم: لاآكل اللحم، وقال بعضهم: لاأنام على فراش، فحمد الرسول وأثنى عليه ثم قال: ((مابال أقوام قالوا كذا وكذا؟ ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))، ٢/١٠٢٠. وروى الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنه - بهذا المعنى، ٢/١٥٨.

(٤) رواه مسلم (١٤٢٦)، كتاب النكاح، باب(١٣): الصداق وجواز كونه تعليم القرآن، ٢/١٠٤٢. وابن ماجه (١٨٨٦) في كتاب النكاح، باب(١٧): صداق النساء، ١/٦٠٧.

(٥) انظر: منهاج المسلم، أبوبكر جابر الجزائري، ص ٥٤٧-٥٥٠.



صرح هو بذلك بقوله: ((اقْتِدَاءً بما مَهَر الرَّسُول...)) وفي هذا وعظ ونهي عن المغالاة في المهور، وليكن رسول الله -ﷺ- قدوتنا، وكذا ((صحبه الكرام الذين تزوج بعضهم على نواة مِنْ ذَهَب يقال قيمتها خمسة دراهم، وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة - رضي الله عنه- على درهمين ثم حملها هو إليه ليلاً، فأدخلها من الباب ثم انصرف، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها))(١).

أما ماطبق من آداب النكاح وسننه في هذه المقامة :

١- ((الخطبة، وهي أن يقول: إن الحمد لله ، نستعينه ، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلامضل له ...))(٢). لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: ((**إذا أراد أحدكم أن يخطب لحاجة من نكاح أو غيره فليقل الحمد لله ...**))(٣).

أما أبوزيد فقال: ((الحَمْدُ لِلهِ المَلِكِ المَحْمُود، المَالِكِ الوَدُود، مُصَوِّر كُلِّ مَوْلُودٍ، ومآل كُلِّ مَطْرُود... اعْمَلوا رِعَاكُمَ اللهُ أَصْلَحَ الأَعْمَال، واسْلُكُوا مَسَالِكَ الحَلالِ،... وصَاهِروا لُحَمَ الصَّلاَح والوَرَع، وصَارِمُوا رَهْط اللَّهْو والطَّمَع، ومُصَاهِرُكُمْ أَطْهَرُ الأَحْرارِ مَوْلِداً، ... وهَا هُو أَمَّكُم، وحَلَّ حرَمكُمْ، مُمْلِكاً عَرُوسَكُم المكرَّمَة، ومَاهِراً لهمَا كَمَا مَهر الرَّسُولُ أُمَّ سَلَمة، وهُو أَكْرَمُ صِهْرٍ أُودِعَ الأَوْلاَد، وَمُلِّك مَاأَرَاد... ولَهُ الحَمْدُ السَّرْمَد، والمَدْحُ لِرسُوله مُحَمَّد))(٤).

٢- الوليمة : لقوله -ﷺ- لعبدالرحمن بن عوف لما تزوج: ((**أولم ولو بشاة**))(٥)، والوليمة : طعام العرس، ويجب حضور من دعي إليه، لقوله -ﷺ-:

---

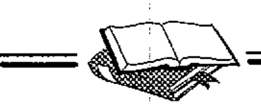
(١) موعظة المؤمنين...، محمد جمال الدين القاسمي، ص ١٦٦.

(٢) منهاج المسلم، أبوبكر الجزائري، ص ٥٥١.

(٣) رواه ابن ماجه (١٨٩٢) عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه-، كتاب النكاح، باب(١٩): خطبة النكاح، ١/٦٠٩ بنحوه.

(٤) المقامة (٢٩): الواسطية، للحريري، بشرح الشريشي، ٣/٣٩٢، ٣٩٦.

(٥) رواه مسلم(١٤٢٧) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه-، في قصة زواج عبدالرحمن بن عوف كتاب النكاح، باب (١٣):الصداق...،٢/١٠٤٢. ورواه الترمذي(١٠٩٤) في =



«من دعي إلى عرس أو نحوه فليجب»(١).

ويرخص في عدم حضورها إن كان بها لهو أو باطل، قال علي - رضي الله عنه- : صنعت طعاماً فدعوت رسول الله -ﷺ- فجاء فرأى في البيت تصاوير فرجع(٢). ويدعى لها الفقراء كالأغنياء، لقوله -ﷺ-: «شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها، ويدعى إليها من يأباها»(٣)(٤).

كما في هذه المقامة التي قال فيها: «ثُمَّ أَخَذَ فِي مُوَاعَدَةِ أَهْلِ الخَانْ، وإِعْدادِ حَلْواءِ الخُوانِ... أذن في الجَمَاعة: ألاَ احْضُرُوا فِي هَذِه السَّاعة، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا إِلاَّ مَنْ لبىَّ صَوتَه، وحضَر بيْتَهُ. فلمَّا اصْطَفوا لَدَيْهِ، واجْتَمعَ الشَّاهِدُ والمَشْهُودُ عَليه»(٥).

٣- إعلان النكاح بدف، وغناء مباح، لقوله -ﷺ-: «**فصل ما بين الحلال والحرام، الدف والصوت**»(٦).

٤- الدعاء للزوجين، وقد دعا لهما أبوزيد قائلاً : « فَلَمَّا فَرغَ مِن خطْبَتِهِ البَدِيعةِ النِّظَام، العَرِيَّة مِنَ الإِعْجَام، عَقَد العَقْدَ عَلَى الخَمْس المِئِين، وقَالَ لِي: بالرِّفَاءِ والبَنِين، ثُمَّ أَحْضَرَ الحَلْوَاءَ الَّتِي كَانَ أَعَدَّهَا، ...»(٧).

= كتاب النكاح، باب (١٠): ماجاء في الوليمة، ٣/٤٠٢، والموطأ (١١٤٦) كما روى الإمام أحمد نحوه في مؤاخاة الرسول -ﷺ- بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع - رضي الله عنهما-، ٣/١٠٩، ٢٠٥، ٢٧١.

(١) رواه مسلم (١٠١) (٩٨) عن ابن عمر - رضي الله عنه-، كتاب النكاح، باب (١٦): الأمر باجابة الداعي إلى دعوة، ٢/١٠٥٢-١٠٥٣. ورواه أحمد في مسنده، ٢/٢٢، ٦٥.

(٢) رواه ابن ماجه بسند صحيح في كتاب الأطعمة، باب (٥٦) ٢/١١١٤.

(٣) رواه البخاري ، كتاب النكاح ٢٥، ومسند أحمد، ٢/٢٤٠، ٢٦٧، ٤٠٥، ٤٩٤.

(٤) انظر: منهاج المسلم، أبوبكر الجزائري، ص ٥٥١.

(٥) المقامة نفسها (٢٩)، ص ٣٩٠.

(٦) رواه الترمذي (١٠٨٨)، كتاب النكاح، باب ماجاء في إعلان النكاح من حديث محمد بن حاطب الجمحي - رضي الله عنه- ٣/٣٩٨، ورواه الإمام أحمد في مسنده، ٣/٤١٨.

(٧) المقامة نفسها، ٣/٤٠٠، الرفاء: السكون والالتحام، وهو من رفأت الثوب؛ إذا ضممتُ بعضه إلى بعض، ومن رفوت الرجل إذا سكنته، انظر: اللسان، مادة : رفأ.



فقيل له: بالرفاء والبنين: أي بالاتفاق مع الزوجة، ووجود البنين مما يكون منها.

وتزوج عقيل بن أبي طالب فقيل له: بالرفاء والبنين، فقال: قال رسول الله -ﷺ-: ((**إذا رفأ أحدكم أخاه فليقل: على الخير والبركة، بارك الله لك وبارك عليك**)) وفي رواية أخرى عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: إن النبي -ﷺ- كان إذا رفأ الإنسان -إذا تزوج- قال: ((**بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في الخير**))[١].

وتعرّض الحريري أيضاً للخصال المطيبة للعيش التي لابد من مراعاتها في المرأة؛ ليدوم عقدُ النكاح، وتتوفر مقاصده في مقامته البكرية، فقال على لسان الراوي الحارث بن همام: ((كُنْتُ عَزَمْتُ حِيْنَ أتْهَمْت، عَلَى أنْ أتَّخِذَ ظَعِينةً لتكُونَ لِي مُعِينة، ... وبتُّ ليْلتِي أُنَاجِي القَلْبَ المعذَّب ... إلَى أنْ أجْمَعت عَلَى أنْ أسْحِر، وأُشَاوِر أوَّلَ مَنْ أُبْصر ... فانْبَرَى لِي يافِع، فِي وجْهِه شَافِع، فتيمَّنْتُ بمَنْظَرِه البَهِيجْ، واسْتَقْدَحْتُ رأيَهُ فِي التَّزْوِيج. فقَالَ: أوتبْغِيها عَواناً، أمْ بِكْراً تُعانى؟ فقُلْت: اخْتَرْ ماتَرَى، ... فقَالَ: إلي التَّبْيين، وعَلَيْكَ التَّعْيِين، فاسْمع أنا أفْدِيك، ... أمَّا البِكْرُ فالدُّرَّة المخْزُونَة، والبَيْضَة المكْنُونة، ... لمْ يَدَنِّسها لَامِس، ولااسْتَغْشَاها لَابِس، ولامَارَسَها عَابِث، ولاوكَسَها طَامِث ... ثُمَّ هِي الدُّمْية المُلَاعِبة، واللُّعْبة المُدَاعِبة، والغَزَالةُ المُغَازِلَة، والْمُلْحَة الكَامِلة...))[٢].

فقد تحدث هنا عن خصلة واحدة هي (البكارة) من خصال ثمان هي: الدين، والخلق، والحسن، وصفة المهر، والولادة والبكارة، والنسب، وألا تكون قرابة قريبة[٣].

قال عليه السلام ((لجابر)) وقد نكح ثيباً: ((**هلّا بكراً تلاعبها وتلاعبك**))[٤].

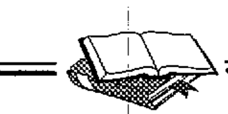
---

(١) رواه الترمذي (١٠٩١) عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، كتاب النكاح، باب ماجاء فيما يقال للمتزوج وقال حديث حسن صحيح، ٣/٤٠٠.

(٢) المقامة (٤٣): شرح الشريشي، ٥/١٠٠-١٠٣.

(٣) انظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ص١٦٤.

(٤) رواه مسلم (١٤٦٦)، كتاب الرضاع، باب (١٥): استحباب نكاح ذات الدين، ٢/١٠٨٦. ورواه الترمذي (١١٠٠)، كتاب النكاح، باب (١٣): ماجاء في تزويج البكر، ٣/٤٠٦، المسند، ٣/٢٩٤. وفي رواية: ((فأين أنت من العذارى ولعابها)).



ولما تخير بين البكر والثيب قال الحارث لأبي زيد: «فَهَلْ تَرى أَنْ أَترَهَّبَ، واسْلُكَ هذَا المَذْهَبَ؟ فانتهَرَنِي انْتِهَارَ المؤَدِّبِ، عِنْدَ زَلَّةِ المتَأَدِّبِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْلَكَ! أَتَقْتَدِي بالرُّهْبَانِ، والحقُّ قَدْ اسْتَبَانَ! أُفٍّ لَكَ ولِوَهْنِ رأيك، وَتبًّا لَكَ ولأُولئِكَ، أَتُرَاكَ مَاسَمِعْتَ بأَنَّ لارَهْبانية في الإِسْلام، أو ماحُدِّثْتَ بمَنَاكِحِ نَبيِّك عَلَيْه أَزْكَى السَّلام، ثُمَّ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ القَرِينَةَ الصَّالِحةَ تَرُبُّ بَيْتَكَ، وتُلَبِّي صَوْتَكَ، وتَغُضُّ طَرْفَكَ، وتُطِيبُ عَرْفَكَ، وبِهَا تَرى قُرَّةَ عَيْنِكَ، ورَيْحَانَةَ أَنْفِكَ،... فكَيْفَ رَغِبْتَ عَنْ سُنَّةِ المُرْسَلِين، ومُتْعَةِ المتأهِّلِين وَشِرْعَةِ المحْصَنِين ومَجْلَبَةِ المالِ والبَنِين ...»[1].

فيحث بماحث عليه الإسلام وهو الزواج فهذا رسول الله-ﷺ- يقول لعطاف ابن وداعة الملالي:«**ياعطاف ألك امرأة؟ قال:لا، قال: فأنت إذا من أخوان الشياطين، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم،وإن كنت منا فسنتنا النكاح**»[2].

وذكر الحريري واقعاً إسلامياً، بل هو ركن من أركان الإسلام في مقاماته؛ ليدلل على مجتمع مسلم حريص على تطبيق شرائع الله؛ ألا وهو الركن الخامس في الإسلام: **الحج** ، ذكره مرة عرضاً وأخرى تفصيلاً، ففي مقامته المسماة الرملية قال : «لمَّا خيَّمْت بالرَّمْلة، وأَلقَيْت بِهَا عَصَا الرِّحْلة، صادَفْت بِها رِكَاباً تُعَدّ للسُّرَى، وَرِحَالاً تُشَدّ إِلى أُمّ القُرَى، فَعَصفَتْ بِي رِيْحُ الغَرام، واهْتَاجَ لِي شَوْقٌ إِلى البَيْتِ الحَرام ... فَلمْ نَزَلْ بَيْنَ إِدْلاَجٍ وتَأْوِيب، وإِيْجَافٍ وتَقْرِيب، إِلَى أَنْ حَبَتْنَا أَيْدِي المطَايَا بالتُّحْفَةِ، فِي إِيصَالِنا إِلى الجُحْفَة، فَحَلَلْنَاهَا مُتأَهِّبِين للإِحْرام، مُتَباشِرِيْن بإِدْرَاك المَرَام ...»[3].

قال الله عز وجل : ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[4]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه**»[5].

---

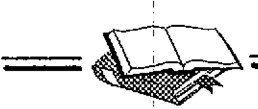
(١) المقامة نفسها (٤٣)، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ١٦٣/٥، ٥٥.

(٣) المقامة (٣١): شرح الشريشي، ٣/٤-١٥.

(٤) سورة الحج، آية ٢٧ .

(٥) رواه البخاري في كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ١٤١/٢. ورواه مسلم(١٣٥٠) من حديث أبي هريرة - ﷺ- بلفظ: «من أتي هـذا البيت ...». وفي رواية: «من حج فلم يرفث...» الحديث،كتاب الحج، باب (٧٩):فضل الحج والعمرة...، ٩٨٣/٢. وأخرجه =



وينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وأن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، وإن ضاق صدره صبره.

والحريري هنا ، جعل الراوي الحارث بن همام يطبق بعض أركان الحج الأربعة من إحرام، وطواف، وسعي، ووقوف بعرفة، وإن ركّز على بعضها، وأشار إلى البعض الآخر، كما أنه ذكر القيام بواجباته التي أولاها: **الإحرام من الميقات**: وحدد الحريري الميقات الذي أحرموا منه في قوله: ((إِلَى أنْ حَبتْنَا أَيْدِي المَطَايَا بالتُّحْفَة، في إِيصَالِنا إلى الجُحْفَة، فحَللنَاها مُتأهِّبين لِلإحْرام...))[١] ووعظه به قائلاً: ((فوالَّذِي شَرَع المنَاسِكَ للنَّاسِك ... لاتُغْنِي لِبْسَةُ الإِحْرامِ، عَنْ المُتلبِّس بالحَرَام))[٢] كما وعظ بثاني الواجبات وهو : **التجرد من المخيط** : حيث لايلبس المحرم ثوباً ولاقميصاً ولابرنساً، ولايعتم بعمامة ولايغطي رأسه بشيء أبداً، كما لايلبس خفاً ولاحذاء لقوله -ﷺ-: ((**لايلبس المحرم الثوب ولا العمائم ولا السراويل ولاالبرانس ولاالخفاف، إلا من لم يجد نعلين فليلبس خفين وليقطعهما من أسفل الكعبين**))[٣].

فذكر ذلك واعظاً : ((ولايَنْفَع الاضْطِباَع بالإِزَار، مَع الاضْطّلاَع بالأَوْزَار))[٤]. كما استعمل بعض الألفاظ الخاصة بسنن الحج ومحظوراته؛ ليؤثر وعظه في مستمعيه.

فقال: ((فوالَّذِي شَرَحَ المَنَاسِكَ للنَّاسِك ... لايُجْدِي التقرُّبَ بِالحلقِ، مَعَ التَّقلُّبِ في ظُلّمِ الخَلْق، ولايَرْحَضُ التنَسُّكُ في التَّقْصِير، دُونَ التَّمسُّك بالتَّقْصِير، ولايَسْعد بِعَرفة غَيْرُ أَهْلِ المعْرِفة ولايزْكُو بِالخَيْف، مَنْ يَرْغَب في الحيْف، ولايَشْهَد

= الترمذي (٨١١)، كتاب الحج، باب (٢): ماجاء في ثواب الحج والعمرة، ١٧٥/٣، وابن ماجه (٢٨٨٩) في كتاب المناسك، باب (٣): فضل الحج والعمرة، ٩٦٥/١، والإمام أحمد في المسند، ٢٢٩/٢، ٤١٠.

(١) المقامة (٣١) نفسها، ١٥/٤.

(٢) المقامة نفسها، ١٧/٤.

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس ٧٧، باب السراويل ١٤، ٣٨/٧. والترمذي برقم (٨٣٤)، كتاب النكاح، باب (١٩): ماجاء في لبس السراويل والخفين للمحرم، ١٩٥/٣.

(٤) المقامة نفسها، ٤/ ١٧.



المَقامَ إلاّ مَن اسْتقام ، ولايَحْظَى بقَبُول الحُجَّـة، مَنْ زَاغَ عَـن المَحَجّة، فَرحِـم الله امْـرأً صَفا، قَبْلَ مَسْعَاه إلى الصَّفَا ... وفَاضَ بِمعْرُوفِه، قَبْلَ الإفَاضَةِ من تَعْرِيفه ... وأنشد:

مالحَجُّ سَيْرُكَ تأويباً وإدْلاجاً ** ولا اغْتِيامُكَ أجْمَالا وأحْدَاجا

الحجُّ أنْ تَقْصِد البيتَ الحرامَ علَى ** تجريدِكَ الحَجَّ لاتقْضِى بِه حَاجَا

وتَمْتَطِى كَاهِلَ الإنْصَافِ مُتّخِذَا ** رَدْعَ الهَوى حَادِياً والحَقَّ مِنْهاجَا

وأنْ تُواسِى مَاأُوتيتَ مَقْدِرَةً ** مَنْ مدَّ كفّاً إلى جَدْوَاكَ مُحتَاجَا

فَهـذِه إنْ حَوتْهَا حِجَّةُ كَمُلَتْ ** وإنْ خَلا الحَجُّ مِنْهاكَان إخْداجا»[(١)]

وبعد : فقد أورد الحريري ذكر الحج في المقامة (٤٥) على لسان زوجة تحتكم إلى القاضي من زوجها قائلة :

«يَاقَاضِى الرَّمْلَةِ يَاذَا الَّذي ** في يَدِه التَّمْرَةُ والجَمْرَه

إليْكَ أَشْكُو جَوْرَ بَعْلِى الَّذي ** لم يَحْجُجِ البَيْتَ سِوَى مَرَّه

ولَيْتَه لمَّا قَضَى نُسْكَه ** وخَفَّ ظَهْراً إذْ رَمَى الجَمْرَه

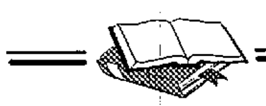
كَانَ عَلَى رأي أبِى يُوسُفِ ** في صِلَةِ الحِجَّةِ بِالعُمْرة

هَذا عَلَى أنّى مُنْذُ ضَمَّنِى ** إليْه لَم أعْصِ لَهُ أمْرَه»[(٢)]

و لم تقصد بكل ماذكرته عن الحج من كونه أداه مرة واحدة، ورميه للجمرات إلا ظاهر الكلام، حتى حين ذكرت أحد وجوه أداء الحج والعمرة الثلاث، وهو (القران)، فإن أبا زيد زوجها كان على رأي أبي يوسف في صلة الحج بالعمرة،

(١) المقامة نفسها (٣١)، ٤/١٩-٢٠، يرحض: يغسل، اعتيامك: اختيارك، احداجا: جمع حدج، وهو مركب من مراكب النساء. انظر: اللسان، مادة : رحض، غنم، حدج.

(٢) المقامة (٤٥): الرملية، للحريري، شرح الشريشي، ١٨٦/٥.



وأبويوسف* في ذلك مخالف لمالك – رضي ا لله عنهما – في أن القران في الحج أفضل من الإفراد، وهو مذهب علي بن أبي طالب –ﷺ– ووجوه أداء الحج والعمرة ثلاث: الإفراد ، والقران ، والتمتع(١).

وفي آخر مقامة ترى الحريري يصور لنا واقعاً إسلامياً يمثله ندم أبي زيد على مافرط في جنب ا لله، فتاب وأقلع عما كان يرتكبه من معاصٍ، **والتوبة** ((فيها معنى الرجوع والعودة : وفيها معنى طلب الوقاية، والبعد عن شر مايخافه الإنسان في المستقبل من سيئات أعماله، وعرفها العلماء بأنها الرجوع إلى ا لله تعالى: بالتزام فعل مايحب، وترك مايكره))(٢). قال تعالى : ﴿**وتوبوا إلى ا لله جميعاً أيُّهاالمؤمنون لعلكم تفلحون**﴾(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام : ((**التائب من الذنب كمن لاذنب له**))(٤).

والحريري حين جعل بطل مقاماته يندم، ويستغفر ويتوب في آخر مقامة له، سار على خطى المسلمين الذين يذنبون، ومن ثم يتوبون ، والتوبة واجبة على الدوام فإن الإنسان لايخلو عن معصية، وإن خلا عن معصية بالجوارح، لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر ا لله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم با لله تعالى

(١) انظر: موعظة المؤمنين، محمد القاسمي، ص ١١٥.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ٢/٥٣.

(٣) سورة النور ، آية ٣١.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد: باب ذكر التوبة، ٢/٢٩١.

(*) هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصاري، ولد سنة ١١٣هـ، كوفي صاحب أباحنيفة فغلب عليه، حتى قالوا أبويوسف أبوحنيفة ، أول من دُعِي بقاضي القضاة في الإسلام.

انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ١٤/٢٤٢. مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، ٢/١٠٠-١٠٧. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، النجوم الزاهرة، تغرى بردى، ٢/١٠٧.

وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولايسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، ولهذا قال النبي -ﷺ-: «**إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة**»(١).

قال الحريري على لسان بطله يطلب من أهل البصرة أن يعينوه على التوبة بالدعاء.

«سَلُوا عَنّي المَشَارِق والمَغَارِب ... لتَعْلَمُوا كَمْ فَجٍّ سَلَكْت ... ولَكِنْ فَرَطَ مافَرَط، والغُصْن رَطِيب ... فأَمَّا الآن وقد استَشَنَّ الأَدِيم ... فلَيْس إلاَّ النَدَم إنْ نَفَع، وتَرْقِيع الخَرْقِ الذَّي قَدْ اتَّسَع ... سِلاَحُ النَّاسِ كُلُّهُم الحَدِيد، وسِلاَحُكُم الأَدْعِيَة والتَّوْحِيد ... ولَسْتُ أَبْغِي أَعْطِيتكم، بَلْ أَسْتَدْعِي أَدْعِيتكُمْ ... فادْعُوا الله بِتَوْفِيقِي للمَتَابْ، والإِعْدادِ لِلمآب، فإِنَّه رَفِيْعُ الدَّرجَات، مُجِيبُ الدَّعوات، وهُوَ يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِباده ويَعْفو عَنِ السَّيئاتِ ثُمَّ أَنْشَد :

أَسْتَغْفِر اللهَ مِنْ ذُنُوبٍ ** أَفْرطْتُ فِيهِنَّ واعْتَديْتُ
كَمْ خَضْتُ بَحْر الضَّلالِ جَهْلاً ** ورُحْتُ فِي الغَيّ واغْتَديْتُ

....

فَليْتَنِي كُنْتُ قَبْل هَذَا نِسْياً ولَمْ أَجْنِ ماجَنيْتُ

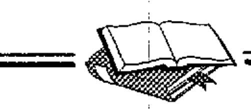
....

يَارَبّ عَفْوا فَأَنْتَ أَهْلُ ** للعَفْو عَنّي وإنْ عَصَيْتُ

قالَ الراوِي : فطَفِقَت الجَماعَة تَمُدُّه بالدُّعَاءِ، وهُوَ يُقَلِّب وجْهَهُ فِي السَّمَاءِ إلى أن دَمعَتْ أَجْفَانُهُ، وبَدَا رَجَفانُه، فَصَاحَ : الله أكْبَرَ بانَتْ أَمَارَةُ الاسْتِجَابة، وانْجَابَتَ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني بلفظ: «إني ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة»، كتاب الذكر والدعاء ..، باب (١٢): استحباب الاستغفار والاستكثار منه، ٤/٢٠٧٥.



غِشَاوَة الاسْتِرَابَة فجُزِيْتُم ياأهل البُصَيْرة، جَزاءَ مَنْ هَدَى مِنَ الحَيْرَة»[(١)].

فكيف تمت الاستجابة التي قالها؟

متى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾[(٢)].

« وقد أوجزت الشروط التي يلزم توافرها في صحة التوبة، فذكر أنها: ترك الذنب لقبحه، والندم على مافرط فيه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ماأمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شروط التوبة في الشرع، ويبدو أن هذا هو المراد من «التوبة النصوح» التي ذكرها القرآن الكريم في سورة التحريم»[(٣)]، حيث قال: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...**﴾[(٤)].

وقال عليه السلام: «إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار، ولمسيء النهار إلى الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[(٥)].

ولعلم الحريري أن التوبة تبدأ بالاستغفار،ولعلمه أن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم، وأحنُّ على عبده من الوالدة على ولدها، وأنه سبحانه: ﴿**يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾[(٦)]. جعل بطله أبازيد يبدأ به فقال:

* أستغفر الله من ذنوبٍ *.

---

(١) المقامة (٥٠): البصرية ، للحريري، شرح الشريشي، ٥/٣٥٣-٣٥٩.

(٢) سورة الشورى، آية ٢٥.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ٢/٥٨.

(٤) سورة التحريم، آية ٨ .

(٥) رواه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- بلفظ: إن الله عز وجل بسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار...» الحديث، كتاب التوبة، باب(٥): قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة، ٤/٢١١٣. ورواه الإمام أحمد، ٤/٣٩٥، ٤٠٤.

(٦) سورة الزمر، آية ٥٣ .

ولذا نراه يسير ببطله في هذه المقامة على نفس الخطى التي كان يسيره فيها في باقي المقامات، ففي البداية حين طلب منهم أن يدعوا الله معه؛ ليغفر له ويتوب عليه كان ذلك ليحتال ويحصل على المال، ولكن الله استجاب دعوته، ودعوتهم فتاب كما ذكر على لسان الراوي الحارث بن همام :

((لَقَدْ أَغْرَبْتَ فِي هَذِهِ النَّوْبَة، فَمَا رأيكَ فِي التَّوْبَة، فَقَالَ: أُقْسِم بعلاَّمِ الخَفِيَّات، وغفَّارِ الخَطِيَّات، إنَّ شَأْنِي لَعُجَاب، وإنَّ دُعَاء قَوْمِكَ لمُجَابْ، فَقُلْتُ: زِدْنِي إفْصَاحاً ... فَقَالَ: وأَبِيْكَ لَقَدْ قُمْتُ فيهم مَقامَ المُرِيب الخَادِع، ثُمَّ انْقَلَبْتُ مِنْهُم بِقَلْب المنيب الخَاشِع، فطُوبَى لِمَنْ صَغَتْ قُلُوبُهم إليْه، وَوَيْلٌ لِمَنْ بَاتُوايدْعُونَ عَلَيْه ثُمَّ وَدَعَنِي وانْطَلَق... فَلَمْ أزلْ أعانِي لأَجْلِهِ الفِكَر، وأتَشَوَّف إلى خِبْرَةِ مَاذَكَر، وكُلَّما اسْتَنْشَيْت خبَرَه مِنَ الرُّكْبَان ... فَحَكَوا أنَّهم ألمُّوا بِسَرُوج ... فرأَوْا أبَا زَيْدِها المعْرُوف، قَدْ لَبِس الصُّوفَ، وأمَّ الصُّفُوفَ وَصَار بِهَا الزَّاهِد المَوْصُوف، فَقُلْتُ: أتَعْنُون ذَا المَقَامَات، فَقَالوا: إنَّه الآن ذُو الكَرامَات ... فارْتَحَلْتُ رِحْلَة المُعِد، وسِرْتُ نَحْوَه سَيْرَ المجُد، حتَّى حَلَلتُ بِمَسْجِده، وقَرارَةِ متعبَّده، فإذاَ هُوَ قَدْ نَبَذَ صُحْبَةَ أصْحَابِه، وانْتَصَبَ فِي مِحْرابِه، ... وألْفَيْتَه بِمَن سِيْمَاهُم فِي وجُوهِهِم مِنْ أثَرِ السُّجُود، ولمَّا فَرَغَ مِنْ سُبْحَتِه، حَيَّاني بِمُتَسَبِّحتِه...))[1].

والحريري في مقامته الأخيرة جعل بطل مقاماته يتوب ويطلب المغفرة من الله كحال أي مسلم يذنب، فاستجاب الله الدعوة، حتى إننا نرى أبازيد من الزهاد في آخر المقامة، لايترك الصيام والقيام فيقول الراوي عنه :

((وَلَمْ يزَلْ فِي قنُوتٍ وخُشُوع، وسُجُود ورُكُوع، وإخبَاتٍ وخُضُوع، إلَى أنْ أكْمَل إقَامَة الخمْسْ، وصَارَ اليَوْم أمْس ... ثُمَّ نَهضَ إِلىَ مُصَلاَّه وتَخَلَّى بِمنَاجَاةِ مَوْلاَه، حتَّى إذا التَمَع الفَجْر، وحَقَّ لِلمُجْتَهِد الأَجْر، عَقَّبَ تَهَجُّدَهُ بالتَّسْبِيح...))[2].

وننتقل إلى المقامة (٤٧) فنرى الحريري يذكر لنا واقعاً إسلامياً فيقول :

---

(١) المقامة نفسها (٥٠): البصرية، للحريري، ٥/٣٥٩-٣٦٤.

(٢) المقامة (٥٠): للحريري شرح الشريشي، ٥/٣٦٥.



((حكى الحارث بن هُمَام؛ قَال: احْتَجْتُ إلى **الحِجَامة**، وأَنا بحجْر اليَمامَة، فأُرْشِدْتُ إلى شَيْخ يحْجُمُ بلَطَافة، ويُسْفر عَنْ نَظَافَة))[١].

والرسول ﷺ حث على الحجامة فقال: ((**خير ماتداويتم به الحجامة والفسط**))[٢]. وقال -ﷺ-: ((**إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شربة عسل، أو شرطة محجم، أو لذعة من نار، وماأحب أن أكتوي**))[٣].

وعن ابن عباس قال: ((احتجم النبي -ﷺ- وهو محرم))[٤].

وبين الحريري سبب التداوي بالحجامة وأصحابها، فقال على لسان الفتى: ((إنْ يَكُن سَببُ تَعنُّتِك، نِفَاقَ صَنْعَتِك، فرَمَاها اللهُ بِالكَسَاد، وإفْسَاد الحُسَّاد، حتَّى تَرى أفْرغ مِنْ حَجَّام سَابَاط، وأَضْيقَ رِزْقاً من سَمّ الخِيَاط، فقالَ لهُ الشَّيْخ: بَلْ سَلَّطَ اللهُ عليْكَ بَثْرَ الفَم، وتبيُّغَ الدَّمْ؛ حَتَّى تُلْجأَ إلى حَجَّام عَظِيم الاشْتِطَاط، ثَقيل الاشْتِراط، كَلِيلِ المِشْراط، كَثِيرِ المُخَاط والضُّرَاط))[٥].

فأما قوله : ((بَثْرَ الفَم، وتَبيُّغَ الدَّم)) فهذا سبب ذهابه للحجام للتداوي.

وأما قوله : ((أفْرغ مِنَ حَجَّام سَابَاط))، فساباط حجام كان تمر به الجيوش

---

(١) الحجرية، شرح الشريشي، ٢٥٨/٥.
الحجامة: من الحجم: أى المص، يقال : حجم الصبي ثدى أمه إذا مصه، والحجام: المصاص، ويقال للحاجم حجام؛ لامتصاصه فم المحجمة، والمحجمة: قارورته، والمحجم: مشرط الحجام. انظر: اللسان، مادة حجم.

(٢) رواه البخاري (٥٦٩٧) عن أنس - رضي الله عنه -، كتاب الطب، باب الحجامة من الداء، ١٥/٧، بلفظ ((إن أمثل ماتداويتم به الحجامة...))، الفسط: عود يجاء به من الهند، يجعل في الدواء والبخور، انظر: اللسان، مادة: فسط.

(٣) رواه البخاري (٥٧٠٢) عن جابر بن عبدا لله - رضي الله عنه - كتاب الطب، باب الحجامة من الشقيقة والصداع، ١٥/٧.

(٤) رواه البخاري (٥٦٩٥) كتاب الطب، باب الحجم في السفر والإحرام، ١٥/٧، ومسند الإمام أحمد، ١٨٥/٥ بلفظ ((احتجم في المسجد)).

(٥) المقامة نفسها (٤٧)، ٢٧٦/٥.

فيحجمهم نسيئةً من الكَساد حتى يرجعوا، فضربوا به المثل[١].

وأصحابها وهم الحجامون فقد ذكر نوع منهم وهو : ((عَظِيم الاشْتِطَاط، ثَقِيلِ الاشْتِراط، كَلِيْلِ المِشْرَاط، ...)) وذكر هنا الأداة : وهي المشرط، ووصفه بقوله: ((كليل)).

ونخلص إلى أن الحجامة مما عرف به العرب قديماً، وحث النبي -ﷺ- على التداوي بها. وذكرها الحريري كواقع يلجأ إليه المسلمون في مجتمعه آنذاك.

وفي مقامة الحريري "السَّاوية" يقول على لسان الراوي الحارث بن همام : ((آنَسْتُ مِنْ قَلْبِي القَسَاوة، حِيْنَ حَلَلْتُ سَاوة، فأَخَذْتُ بالخَبَرِ المأْثُور، في مُدَاوَاتِها بِزِيَارة القُبُور))[٢].

فالواقع الإسلامي يحث على **زيارة القبور** حين يشعر الإنسان بالقساوة رانت على قلبه كما فعل الحارث هنا؛ لأنه لاواعظ كالموت لقوله -ﷺ-: ((**كفى بالموت واعظاً**))[٣]، وروي عنه أنه قال : ((**أكثروا من ذكر هاذم اللّذّات**))[٤].

وأما قوله : الخبر المأثور، أي المحدث به، فهو قوله -ﷺ-: ((**عودوا المرضى، واحضروا المقابر، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة**))[٥].

ثم ذكر الحارث قوله: ((فلمّا صِرْتُ إِلى محلّةِ الأَمْوَاتِ، وكِفَاتِ الرُّفَاتِ، رَأَيْتُ جَمْعاً عَلَى قَبْرٍ يُحْفَر، ومجْنُوزٍ يُقْبَر،...فلمّا أَلْحَدوا الميِّتَ، وفاتَ قولُ لَيْتَ...))[٦].

---

(١) انظر: اللسان، مادة : حجم.

(٢) المقامة (١١)، شرح الشريشي، ٣/٢.

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الزهد، باب ذكر الموت، ٣٠٨/١٠.

(٤) رواه الترمذي (٢٣٠٧) من حديث أبي هريرة - ﷺ- في كتاب الزهد، باب (٤): ماجاء في ذكر الموت، ٥٥٣/٤، وقال: حسن غريب. وابن ماجه(٤٢٥٨)، كتاب الزهد، باب (٣١): ذكر الموت والاستعداد له، ١٤٢٢/٢.

(٥) رواه البخاري في كتاب النكاح ٧١، باب حق إجابة الوليمة والدعوة، ١٤٣/٦. ورواه أحمد في مسنده، ٢٣/٣، ٣١، ٤٨، ٣٩٤، ٤٠٦.

(٦) المقامة نفسها، ٣/٢.

ففي قوله: ((ألحدوا الميت)) إشارة إلى اقتدائهم بفعله عليه الصلاة والسلام في قوله: ((**اللحد لنا والشق لغيرنا**))(١)، واللحد أفضل ، وإن كان الشق جائزاً.

وهذا **ابن الجوزي** يشير إلى زيارة القبور، ولمسها ولثمها، فقال: ((كُنتُ قليلَ الصبرِ عَنْ زيارةِ المَشَاهِدِ، كأَنَّنِي عندَ القبرِ لصَاحِبِهِ مُشَاهِدٍ، فَقَوى شَوْقى إِلَى إبراهيم ابن أدهم ...، فَأَحْببتُ أَنْ أَلمسَ وَأَلْثمَ قَبْرَهُ...))(٢).

فزيارة القبور مستحبة لأنها تذكر بالآخرة، وتنفع الميت بالدعاء والاستغفار له، لقوله -ﷺ-: ((**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فأنها تُرقق القلب، وتُدمع العين، وتُذكّر الآخرة**))(٣).

أما زيارة النساء فلم يختلف أهل العلم في حرمة كثرة تردد المرأة على المقابر لزيارتها، لقوله -ﷺ-: ((**لعن ا لله زوارات القبور**))(٤).

وبعضهم أجاز ذلك لما ثبت أن عائشة – رضي ا لله عنها– زارت قبر أخيها عبدالرحمن، فسئلت عن ذلك، فقالت: ((نَعَمْ كَانَ قَدْ نَهَى عَنْ زِيارةِ القبورِ، ثُمّ أمرَ بزيارتها(٥)))(٦).

أما لمس القبر ولثمه فلايجوز، وقد أورد ابن الجوزي في أكثر من مقامة نزولَه بالمقابر، وإقامَتَهُ عندها كما في المقامة (٣٣)، حين قال: ((بالمقابرِ اللَّيلة أنزل، رأيْتُ كُلّ مَنْ مَاتَ لَهُ عزيزٌ يضربُ عِنْدَ القبرِ خيمةً فأنَا أندبُ مَعَ القومِ قَلْبي، ثُمَّ أشَارَ إلى أهلِ القبورِ وقَالَ: كَمْ لهمْ دُيونٌ في ذمةِ الكرامِ، كُلَّمَا طَالَتْ أيامُها رَبَتْ، فأقَامَ وَقَالَ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب (٥٣) ٣٦٣/٣، وقال حديث حسن ، اللحد: هو الحفر في جانب القبر الأيمن، والشق هو الحفر في وسط القبر، انظر: اللسان، مادة: لحد، شقق .

(٢) المقامة (٣٢): في ذم البخل، لابن الجوزي، ص ٢٥٢، ٢٥٥.

(٣) سبق تخريجه، ص ٢١٨.

(٤) رواه الترمذي في كتاب الجنائز، باب(٦١): ماجاء في كراهية زيارة القبور للنساء، ٣٧١/٣. وأحمد في مسنده، ٣٣٧/٢، ٣٥٦.

(٥) رواه الحاكم في كتاب الجنائز، ٣٧٦/١.

(٦) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ص ٣٩٥.

لَابَرَاح، وَجَعَلَ يَبْكِي إِلَى الصَّباح...))(١).

أما قولي لايجوز؛ لأنه ((لايحل القعود على القبر ولا الاستناد إليه، ولا المشي عليه، لما رواه عمرو بن حزم قال: رآني رسول الله -ﷺ- متكئاً على قبر فقال: ((**لئن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده، خير له من أن يجلس على قبر**))(٢).

والقول بالحرمة مذهب ابن حزم، لما ورد فيه من الوعيد قال: وهو قول جماعة من السلف، منهم أبوهريرة، ومذهب الجمهور أن ذلك مكروه))(٣).

وأبرز ماأظهره ابن الجوزي في الواقعية الإسلامية؛ كيفية التعامل مع الحزن، **والوعظ بالموت** الذي يلج إليه كثيراً. ففي مقامته (٣١) بين واقعاً يصدر من أفراد مجتمعه آنذاك، ويحدث في واقعنا اليوم وهو التفجع، والتوجع حين يموت لنا ميت، فلانصبر، ولانحتسب عند الله، فهذا مات له طفل صغير، ولم يلتفت للمعزين، بل يردد ويعدد: ((ذَهَبَ جَاهِي وَعِزِّي))(٤).

وحين أحضرو أباالتقويم حثه بما يجب أن يكون عليه المسلم حين يُرزأُ بمصيبة فيتحلى بخلق الصبر، قال: ((إِذَا قِيسَ الجزعُ بالصبرِ، فالصَّبرُ أَوْلَى، غَيْر أنَّه إنَّما يكونُ عِنْدَ الصَّدمةِ الأولى))(٥). وهذا ماحث عليه رسول الله -ﷺ- في قوله : ((**الصَّبْرُ عندَ الصَّدمة الأولى**))(٦)، وإشارة إلى حديث رسول الله -ﷺ- في أن الطفل الميت يشفع لأبويه، فقال أبوالتقويم موجهاً خطابه إلى صاحب المصيبة:

---

(١) مقامة: التصدق لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٢٤.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه- في كتاب الجنائز، باب(٣٣)النهى عن الجلوس على القبر والصلاة عليه، ٢/٦٦٧.

(٣) فقه السنة، السيد سابق، ١/٥٥٣، ط(٨)، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٤) في التعازي، لابن الجوزي، علي المهنا، ص ٤٠٢.

(٥) المقامة نفسها، ص ٤٠٤.

(٦) رواه مسلم (٩٢٦) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه-، كتاب الجنائز، باب (٨): في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، ٢/٦٣٧.

((فإنْ كنتَ تبكيهِ طلابًا لنفعِهِ ** فقد نالَ جَنّات الخلودِ مُسَارِعا
وإنْ كُنْتَ تبكي أنَّهُ فاتَ عَـوْدُه ** عليكَ بنفعٍ فهو قَدْ صَارَ شَافِعَا))(١)

ثم لجأ إلى أسلوب التضاد، ليمعن في وعظـه، فينفـر مـن الجـزع، ويحث على الصبر فقال: ((الجزع لايرد الغائب، ولكن يسر الشامت، ثم إنه زيادة في العذاب، لأنه مصاب يضاف إلى مصاب))(٢). وقال:

((مَنْ يتمنَّ العمرَ فليتّخذْ ** صَبراً عَلَى فقدِ أحِبائِـهِ
ومَنْ يعاجَلْ يرَ في نَفسِـهِ ** مَايَتَمَنَّاهُ لأَعْدائِـهِ))(٣)

فقال له صاحب المصيبة: لقد نفعتني بما أسمعتني، ولقد كنت في حضيض الجزع فرفعتني فزدني ... فقال:

((اعلمْ أنَّ الهبات ذَاهِبات ... أينَ الذين كانتِ الألسن تَهْذِي بهـم لِتهذيبهـم، ...فَباتوا في القبورِ وُحدانا، لاأنيسَ لغربتهم، أين أهلُ الودادِ الصَّافي في التَّصافي... لَقَدْ نَادَى الموتُ أهلَ الغَوالِي والقصور العَوالي السَّوافي، تَأهّبُوا لِقدومـي... رَحَـلَ ذو المـالِ وَمَاأوْصَى في تفريقِ كَدَرٍ أَوْ صَافي، وَلقي في مَرّة أمراً مُراً لاتبلغهُ أوْصَافي ... انقطعـتْ آمالهم ... آلتْ قُبورهم إلى الخرابِ ... أيُّها العاقلُ التفت عَمّـا لديـكَ شُغْلاً بما بـينَ يديكَ، وانظرْ لنفسِكَ وَمَاعليكَ ... فقالَ المصابُ سـليتني أجـزلَ ا لله جـزاكَ ... أيُّهَـا الشيخُ عُدْ إليّ غَداً وهو الثَّالث ...)(٤) فحضـر وصـار مجلـس تذكـير نهـاهم فيـه عـن التسويف، والتأخر في إعلان التوبة.

وأبوالتقويم حين طلب منه المصاب الحضور بقوله: ((عُدْ إليّ غداً وهو الثَّـالث)) لبى وحضر لكونه يعرف الشرع، فالحداد ثلاثة أيام، أما ماعدا ذلك فيخرج عن نطاق ماأمر به الإسلام متمثلاً في قوله -ﷺ- ((**لاتحد المرأة على ميت فوق ثـلاث إلا علـى**

---

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٠٦.

(٤) المقامة نفسها، ص ٤٠٦-٤٠٧.



زوج، فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا»[١] بقي أن نعرض لموقف الإسلام من بكاء المصاب، الذي كان يصاحبه تعداد على فقد ابنه، وهذا يحرم لقوله -ﷺ- يحرم النواح، والصراخ على الميت: «**إن الميت ليعذب ببكاء الحي**»[٢]. وقوله: «**من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة**»[٣].

وكان -ﷺ- يأخذ البيعة على النساء ألا ينحن، قالته أم عطية - رضي الله عنها- عن رسول الله -ﷺ- قال: «**إني بريء من الصالقة والحالقة والشاقة**»[٤].

أما البكاء فلابأس به، لقوله -ﷺ- لما توفي ولده إبراهيم: «**إن العين لتدمع والقلب يحزن، ولانقول إلا مايرضي ربنا، وإنا بفراقك ياإبراهيم لمحزونون**»[٥].

وبكى -ﷺ- لموت أُمامة بنت ابنته زينب. فقيل له يارسول الله، أتبكي، أو لم تنه عن البكاء؟ فقال: «**إنما هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٦].

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل من مات له أولاد صغار، وفي مقامتنا هذه كانت مصيبة الرجل في فقد طفل، وكأنه لم يسمع قول الرسول -ﷺ-:

---

(١) رواه البخاري في فتح الباري (١٢٨٢)، كتاب الجنائز، باب(٣٠) : إحداد المرأة على غير زوجها، بنحوه، ٣/١٤٦، والإحداد : ترك الزينة من لباس وكحل، وحناء وطيب. انظر: اللسان، مادة حدد.

(٢) رواه البخاري عن أسامة بن زيد - رضي الله عنه- كتاب الجمعة، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، ٢/١٠٠.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٩ .

(٤) رواه البخاري عن أبي موسى - رضي الله عنه-، كتاب الجمعة، باب قول النبي -ﷺ- بريء من الصالقة والحالقة والشاقة، ٢/١٠٣.

(٥) رواه البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه-، كتاب الجمعة، باب قول النبي ﷺ: إنا بك لمحزونون، ٢/١٠٥.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (١٨) عن ابن عمر - رضي الله عنه- كتاب الجنائز، باب(٩): قول الرسول -ﷺ- الميت يعذب ببكاء أهله عليه، ٢/٦٣٩.

«أولاد المؤمنين في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة»[(١)]. وقال عليه السلام: **«مامن مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»**[(٢)].

أما **الزمخشري** فقد بين في مقامته الثانية الواقعية الإسلامية؛ لأنها تبين الطريق الذي يجب أن يسلكه المسلم في حياته من طرق شتى ألا وهو طريق التقوى فقال: «ألاَ إنَّ الأَحْجَى بِكَ أنْ تَلُوذَ بالرُّكْنِ الأقوى ولاَرُكْنَ أقْوَى مِنْ رُكْنِ التَّقْوَى. الطُّرُقُ شَتَّى... الجَادَّةُ بَيِّنَة، والحُجَّةُ مُتَّضِحَة... والحَنِيفِيَّةُ نَقِيةٌ بَيْضَاء، والحَقُّ قَدْ رُفِعَتْ سُتورُه، وَتبلّج، فَسَطَعَ نُورُه فَلِمَ تُغالِطُ نَفْسَك، وَلِمَ تُكَابِرُ حِسَّك، ليْتَ شِعرِي مَاهَذا التَواني والمواعِظُ سَيْر السَّوانِي»[(٣)].

إذن فطريق المسلم واضح، ألا وهو طريق الملة الحنيفية، وهي ملة الإسلام نسبت إلى الحنيفة، وهو الذي مال عن جميع الأديان الباطلة إلى دين الحق، وقد وصفها بأنها بيضاء من قول النبي -ﷺ-: «**قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لايزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عُضُّوا عليها بالنواجذ...**»[(٤)].

أما في مقامته المسماة «الارعواء»[(٥)] فيطلب من واعظٍ ألا ينصاع إلى الشهوة، وخاصة في مرحلة الشباب؛ لأن الشيطان يسول للمرء أن يركن إلى الطاعة عند كبر السن، وهذا تصوير لواقع كثير من الناس، ومنهم المسلمون أيضاً، يمد لهم الشيطان الأمل في أن الغد مايزال أمامهم يستطيعون أن يعبدوا الله، ويطيعوه، ويمتثلوا لأوامره، أما الآن وهم صغيرو السن، فعليهم أن يغرفوا من ملذات الدنيا، ولكن ماهكذا يكون

---

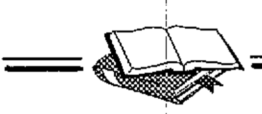
(١) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة - رضي الله عنه- كتاب الجنائز، ١/٣٨٤.

(٢) رواه البخاري عن أنس - رضي الله عنه- في كتاب الجمعة- باب فضل من مات له ولد فاحتسب، ٩٢/٢.

(٣) مقامة التقوى، للزمخشري، ص ٣١-٣٣.

(٤) رواه ابن ماجه تحت رقم(٤٣)، في المقدمة، باب (٦)، ١٦/١.

(٥) المقامة (٤) للزمخشري، ص ٢٦.



حالُ وواقعُ المسلم بل على النقيض من ذلك، وهذا مافعله الزمخشري حين قال: ((ياأباالقاسم شَهْوتُكَ يَقْظَى فأَنِمْها، وشَبَابُكَ فُرْصَةٌ فاغْتَنِمْهـا قَبْلَ أَنْ تَقُولَ قَدْ شَابَ القَذَال. وسَكَتَ العُذّال))[1].

ثم أخذ يصف الشباب وهم في عز قوتهم، فقال: ((وعُيُون الغَوانِي، إِلَيْكَ رَوانِي، وَعُودُك رَيَّان... وَفِي عَمْرو قُوّتك بَسَالة))[2].

فعمرو أراد به عمرو بن معد يكرب، وكان يعد بألف فارس، وجعل لقوته عمراً من بديع المجاز وبارعه.

ومما جعل لوعظه أثراً بالغاً؛ لجوؤهلأسلوب المفارقة؛ فبعد أن وصف حاله في الشباب، بين كيف يكون حين يرتحل عنه، فقال: ((علَى رِسْلِك حتَّى يَنْحَنِي غُصْنُ القَامِة، ويَبْرقَ ضِلْعُ الهَامَة، وتَرى التَّنُّوَمة ثُغَامة))[3].

وفي الحديث : ((تكسفت الشمس على عهد رسول ا لله -ﷺ- حتى آضت كأنها تنومة))[4]. وفي الحديث: ((**أتي بأبي قحافة، وكأن رأسه ثغامة**))[5].

شبه الشعر الفاحم بالتنومة ، والأبيض بالثغامة.

فحين يعظ ويذكّر بحال الإنسان في كبر سنه، يرعوي ويتيقظ من الوقوع في حبائل الشيطان.

وبيّن ابن الجوزي في مقامته (٣٣) واقع مجتمعه آنذاك في تنفيذ الركن الرابع من أركان الإسلام، وهو **الصوم** فقال : ((أهلَّ رمضان فقمْتُ عَجِلاً أَحْضِرُ إلىّ عَبْدَي... فإذَا بهِ أبوالتقويم... وقلْت: أَفْطِر عِنْدي هذِه الأيام، أَحْياكَ ا لله أَلْفَ عامٍ،

---

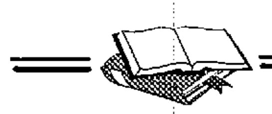
(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٦-٢٧.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٨.

(٤) رواه أحمد في مسنده، ١٦/٥، ١٧، التنومة: نبات أسود، انظر: اللسان، مادة: تنم.

(٥) رواه مسلم (٧٨، ٧٩)، كتاب اللباس، باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة... ١٦٦٣/٣ .وأحمد في مسنده،١٦٠/٣، ٣١٦ .الثغامة:نبت أبيض، انظر: اللسان، مادة : ثغم.



فقالَ: مِثْلُكَ من حازَ ثوابَ صَومِي ... فكانَ طُول النَّهارِ يبثني ذِكْرَ العلومِ، وَفي اللَّيـلِ يحثني أَنْ أَقومَ))[1].

فحين قال: أهـل رمضـان، أراد ثبـت دخـول رمضـان لأن؛ ((دخـول رمضـان يكون بأحد أمرين: أولهما: كمال الشهر السابق. وثانيهما: رؤية هلاله. لقولـه تعـالى: ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾[2]. وقول الرسـول -ﷺ-: ((**إذا رأيتـم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فافطروا، فإنْ غُمَّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين يوماً**))[3].

وحين قال: ((مِثْلُكَ مَنْ حَازَ ثَوابَ صَوْمي)).

فهـل حـاز ثـواب صومـه؟ كيـف والرسـول -ﷺ- يقـول: ((**قـال ا لله -عـز وجل-: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلايرفث ولايصخب، فإن سابه أحد أو قاتلـه، فليقـل: إنـي صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند ا لله من ريح المسـك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه**))[4].

أما المراد من قوله: ((حاز ثواب صومي)) فهو الذي قاله - عليه السلام-: ((**من فطر صائماً، كان له مثل أجره، غير أنه لاينقص من أجر الصائم شيء**))[5].

أما قول ابن الجوزي : ((كانَ طُولَ النَّهارِ يبثني ذِكْرَ العلومِ، وَفي اللَّيلِ يحثني أَنْ أَقومَ))، فهو امتثال لقوله -ﷺ-: ((**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفرَ له ماتقدم من**

(١) في وداع رمضان، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤١٩.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨٥.

(٣) رواه مسلم (١٠٨٠)، عن عبدا لله بن عمر -رضي الله عنه-، كتاب الصيام، باب(٢): وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، ٢/٧٦٠.

(٤) رواه مسلم (١٦٣) عن أبي هريرة -رضي الله عنه- في كتـاب الصيام، بـاب(٣٠): فضـل الصـوم، ٢/٨٠٧.

(٥) رواه الترمذي عن زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه- في كتـاب الصوم، بـاب (٨٢)، ٣/١٧١ وقال حديث حسن صحيح .



ذنبه»[(١)]. وقوله – عليه الصلاة والسلام-: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصوم: رب منعته الطعام والشراب بالنهار، ويقول القرآن، منعته النوم بالليل فشفعنا به**»[(٢)].

ويستمر ابن الجوزي في مقامته هذه للرد على من سأله: «ماالحكمةُ في تَشْريع الصَّوم، وَا الله غَني عَنْ تجويع القوم؟ فقالَ: أذاقَ الغنيَّ في هَـذا الشَّـهر، مَايذوقُهُ الفقيرُ طَوالَ الدَّهر، ليحثَّهُ بمسَاوَاته عَلَى مواسَاته، وَكذلكَ أمر بِالتَّعرِّي عِنْدَ الإحرام، ليذكر عُريَ الفُقراءِ الْكِرام»[(٣)].

وهاهوذاقد وعى حديث رسول ا الله -ﷺ-: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه**»[(٤)]. فقال: «لَيْسَ الصَّوم صَومَ جماعة الطَّغام، عَنْ الجماع والطَّعَام، إنما الصَّومُ صَوْمُ الجوارح عَنْ الآثام، وَصَمتُ اللّسانِ عَنْ فُضولِ الْكَلام، وَغضَّ العيْنِ عَنْ النَّظرِ الْحَرام، وَكفُّ الكَفّ عن أخذِ الحُطَام، ومنع الأقدام عَنْ قبيح الإقدام، ويحكَ إنَّ المطلوبَ مِن الصوم التقللُ لِيسبقَ المضَمَّر»[(٥)].

« عن عمر بن الخطاب: ليس الصيام من الشراب والطعام وحده، ولكنه من الكذب، والباطل، واللغو.

وعن جابر بن عبدا لله: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب، والمأثم، وَدَعْ أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك، ولاتجعل

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٣)، عن أبي هريرة - رضي الله عنه- كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب(٢٥): التغريب في قيام رمضان وهو التراويح، ٥٢٣/١.

(٢) رواه أحمد عن عبدا لله بن عمر - رضي الله عنه-، بسند صحيح، ١٧٤/٢.

(٣) المقامة نفسها (٣٣)، ص ٤١٩.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (١٩٠٣)، كتاب الصوم، باب (٨): من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، بلفظه، ١١٦/٤، عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، والترمذي في كتاب الصوم، باب (١٦)، ٨٧/٣.

(٥) المقامة نفسها (٣٣)، ص ٤١٩.



يوم فطرك ويوم صومك سواء))[١].

لكن ابن الجوزي بين واقع مجتمعه حيال الصوم فإذا ((هُم يستوفون وَقْت الإفطارِ الجِمْلَ، ويجعلون السَّحُورَ عِلَاوةً، فيقفُ جمل التعبُد، المرادُ مِن التجويعِ خُلُوفُ الفمِ، وَالذي عِنْدَهم جُشَاء التُخَم، يصبحون وَبِهمْ مِنْ الطعَام بشَمٌ، وَمِنْ المَاءِ بَغَرٌ، جَاعوُا بالنَّهارِ ومايفهمون كيفَ صَامُوا، وَشَبِعُوا باللَّيلِ فَنَامُوا وَمَاقَامُوا))[٢].

ونقيض صوم هؤلاء صوم السلف فقد كانوا ((ربما تَنَاوَلوا وقتَ الإفطارِ رَغِيْفاً وَتمرة، فيُردفونَ بمثل ماحَجُّوا به عُمرةً))[٣].

إلا أن بطل مقامات ابن الجوزي أبا التقويم كان يطبق مـاأمر بـه الشارع في صيامه وقيامه، فإذا هو يقول لرفيقه: ((قَلّل واختصر، فبهِ عَلَى النّومِ تنتصر، فَلَمَّا صَلّيْنَا التراويحَ نامَ، وقالَ خُذْ مِنْ سَاعةِ القيامِ، فَلمَّا ذَهَبَ نصفُ اللّيلِ أيقظني وَقَالَ: احْفَظْ هَذَا الوقت وَلَاتقُلْ أحْفَظَني، ويحكَ هَذَا الشَّهرُ رَبيع التُقَى ... فقمْنَا ، فَصَلَّيْنَا مَاقَضَى الله لنا، ثُمَّ اسْتَغفَرْنا ...))[٣] فهؤلاء الذين قال ابن الجوزي عنهم: ((يصبحون وَبِهمْ مِنْ الطّعام بَشَمٌ)) لم يستفيدوا من فوائد الصوم الروحية، والاجتماعية، والصحية، ((فمن فوائده الروحية: أنه يعود الصبر ويقوي عليه، ويعلم ضبط النفس، ويساعد عليه، ويوجد في النفس ملكة التقوى ويربيها التي هي العلة البارزة من الصوم، في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٤].

ومن فوائده الاجتماعية : أنه يعوّد الأمة النظام والاتحاد، وحب العمل والمساواة، ويكوّن في المؤمنين عاطفة الرحمة وخلق الإحسان، كما يصون المجتمع من الشرور والمفاسد.

ومن فوائده الصحية: أنه يطهر الأمعاء ، ويصلح المعدة ، وينظف البدن من

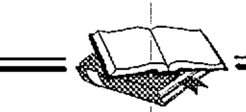
---

(١) معجم فقه السلف، محمد المنتصر الكتاني، ٣/٧٧-٧٨، جامعة أم القرى، المركز العالمي للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٣) المقامة والصفحة نفسها .

(٤) سورة البقرة ، آية ١٨٣.



الفضلات والرواسب، ويخفف من وطأة السمن وثقل البطن بالشحم))[١].

وأما قول ابن الجوزي:((لَوْ كَانَ الشِّبعُ قَدْ مَنَعَ،ماكَانَ السَّحور قَدْ شَرَح))، فهو للدلالة على أهمية السحور ((التي أجمعت الأمة على استحبابه، ولاإثم على من تركه؛لأن الرسول -ﷺ- قال: ((**تسحروا فإن في السحور بركة**))[٢]، وقوله -عليه السلام-: ((**عليكم بهذا السحور، فإنه هو الغذاء المبارك**))[٣]. وسبب البركة: ((أنه يقوي الصائم، وينشطه ويهون عليه الصيام))[٤].

وقال ابن الجوزي في المقامة نفسها: ((وَكُنتُ إذَا تنبهت يعظني، وَإِذَا رقدت يُوقظني، فتروَّحَتْ بهِ روحي طول شَهْر الصَّوم، ووددت أَنَّهُ كَانَ ألف يوم فَلَمَّا جَاءَ العشرُ الأخيرُ شَمَّرَ عَنْ الذّيلِ، وَجَدَّ في التَّعبُدِ طولَ اللَّيلِ بِأَنين يُعلق، وَحَنين يُحرق، وَصُعَدَاء تُخرِق، وَكَانَ يخفي أَكْثَر أمْره ويَسْرِقُ، فَزَاحَمَ بعبادتهِ الأولياء الأَفرادَ، وتَحرّى بكثرةِ تعبُّدِهِ اللَّيالي الأفرادَ، وَكَانَ يقولُ:رمضان كالخاتم، وليلةُ القدرِ فصُّه المضِيء...))[٥].

فقد ورد في باب الجود، وفعل المعروف، والإكثار من الخير في شهر رمضان والزيادة من ذلك في العشر الأواخر منه -قول السيدة عائشة -رضي الله عنها-: كان رسول الله -ﷺ-: ((**إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر**))[٦].

---

(١) منهاج المسلم، أبوبكر الجزائري، ص٣٨٥-٣٨٦.

(٢) رواه البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، في كتاب الجمعة باب بركة السحور، قول الرسول -ﷺ- ((تسحروا فإن في السحور بركة))، ٣٨/٣.

(٣) رواه النسائي ، عن المقداد بن معد يكرب - رضي الله عنه- في كتاب الصيام، باب (٢٦): تسمية السحور غذاء، ١٤٦/٢..

(٤) فقه السنة، السيد سابق، ٤٥٥/١-٤٥٦.

(٥) المقامة (٣٣)، ص ٤٢١.

(٦) رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها.، كتاب العمرة، باب قول النبي -ﷺ-: ((إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله)) ٦١/٣.

وفي رواية لمسلم: ((**كان يجتهد في العشر الأواخر مالايجتهد في غيره**))(١).

وقيل: كان -ﷺ-: ((**يحي ليالي رمضان، وإذا كان العشر الأواخر أيقظ أهله، وكل صغير وكبير يطيق الصلاة**))(٢).

أما قوله: ((رمضانُ كالخاتمِ وليلةُ القدرِ فصُّه المضيء))، فلأن ليلة القدر أفضل ليالي السنة لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾(٣).

أي العمل فيها: من الصلاة، والتلاوة، والذكر، خير من العمل في ألف شهر، ولأن فيها ليلة القدر التي يستحب طلبها في الوتر من العشر الأواخر من رمضان، فقد كان النبي -ﷺ- يجتهد في طلبها في العشر الأواخر من رمضان. وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**))(٤).

أما قول ابن الجوزي: ((فَـأي شَـيءٍ في الاعتكـافِ مِنْ المصْلَحةِ؟ فقـالَ: إنَّما الاعتكافُ سَمْحة))(٥).

فهو ممايعيشه المسلم في واقعه أيام رمضان؛حيث إن الكثير منهم يسير على نهج الرسول الكريم -ﷺ- الذي كان يعتكف وخاصة في شهر رمضان، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: **كان رسول الله -ﷺ- يعتكف العشر الأواخر من رمضان**(٦).

---

(١) رواه مسلم برقم (١١٧٥) عن عائشة - رضي الله عنها-، كتاب الاعتكاف باب قول الرسول -ﷺ- ((يجتهد في العشر الأواخر مالايجتهد في غيره))، ٢/٣٨٢.

(٢) رواه مسلم برقم(١١٧٤) عن عائشة - رضي الله عنها-، كتاب الاعتكا ف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان عن الرسول -ﷺ-، ٢/٣٨٢.

(٣) سورة القدر، آية ١-٣.

(٤) رواه البخاري (٢٠١٧) عن عائشة - رضي الله عنها- في كتاب العمرة، باب قول النبي -ﷺ- ((تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان)) ٣/٦٠.

(٥) المقامة نفسها (٣٣): في وداع رمضان، ص ٤١٩، علي مهنا، سمحه: مكرمة، انظر: اللسان، مادة: سمح.

(٦) رواه البخاري (٢٠٥٢)، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، ٣/٦٢.

ثم ذكر ابن الجوزي أنه لم يفرح بقدوم العيد؛ لحزنه على فراق رمضان فقال:

«النّاسُ بالعيدِ قَدْ سُرُّوا وقَدْ فَرِحُوا ** ومَافَرِحْتُ بهِ والواحدِ الصّمدِ

....

وَقُلٍ : انْقَضَى شَهْرُ الصّيام وِوُدّنا ** باقٍ عَلَى مَرِّ اللّيالي ماانْقَضَى»[1]

ثم قال : «رَأَى النَّاس يتبخترون في ثِيابِهم، فقالَ مَاعِنْدَهم خَبَرٌ مِنْ ثَوابِهم، إنْ كَانُوا قُبِلُوا فَأَينَ الشّكرُ، وإنْ كَانُوا طُرِدُوا فَأَينَ الحزن؟ ...»[2].

وماحزنه على شهر رمضان إلا لما فيه من مزايا وفضائل، منها، قوله -ﷺ- لما حضر رمضان: «**قد جاءكم شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه الشياطين، فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حُرِم**»[3].

وعنه – عليه السلام – يقول عن رمضان: «**تغلق أبواب النار، وتفتح أبواب الجنة، وتصفد فيه الشياطين، وينادي فيه ملك: ياباغي الخير أبشر، وياباغي الشر أقصر، حتى ينقضي رمضان**»[4].

يقول ابن الجوزي في مقامته (٣٩) يرد على من قال له: «أَرَاكَ خَلِياً مِنْ المَالِ، فضحكَ لذلِكَ حَتَّى مَالَ، فقلت: لَو تعرضت لنوالِ الأغنياءِ، فقَالَ هذهِ أقوالُ الأغبياءُ، وأنشد:

لَامُوا عَلَيَّ تجنبي ** أموالَ أهلِ الرّيبِ

وَحَاوَلُوا مِنّي أَن ** أجعلَ فَضْلِى مَكْسَبِى

(١) المقامة نفسها، ص ٤٢٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢٢.

(٣) رواه النسائي في كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، عن أبي هريرة – رضي الله عنه –، ١٢٩/٤. ورواه أحمد في مسنده، ٣١٢/٤، ٤١١/٥.

(٤) رواه النسائي في كتاب الصيام، باب: فضل شهر رمضان، وسنده جيد عن عتبة بن فرقد، ١٣٠/٤. ورواه أحمد، ٢٣٠/٢، ٢٨٥، ٤٢٥.

أفٍّ لِعلمي ولمـا ** حصَّلته من أدبِ
إنْ زانني وَشِنْتُه ** إنّي إذًا عين الغبي
أَبعد ماأعزّني ** أذلّه بالطلب
يَرزقني مَنْ كَانَ لي ** من قبل أُمّي وَأَبي

ثُمّ قَالَ ....:
الحمدُ لله الذي ** ألهمني قَنَاعَتي
لَو لَم أكنْ مقتنعًا ** لانتشرتْ شَنَاعَتي
وَمَاسؤال النَّاس مِنْ ** شَأني وَلاَصِنَاعَتي
وَقَدْ تزينت بمَا ** تبلغه استطاعَتي
وَلَيْسَ عِنْدي حِيلة ** إنْ كسدتْ بضاعَتي

ثم قال : وهل المقصود إلاَّ دَفع الوقت، فقلتُ لَهُ: صَدَقْتَ، فأنشدَ:

إذَا رضيتُ بميسورٍ مِنْ القوتِ ** بقيت في النَّاسِ حُرّاً غَيْرَ ممقوتِ
ياقوتَ يومي إذا مادَرّ خِلفُكَ لي ** فلستُ آسى عَلَى دُرٍّ وياقوت»(١)

فابن الجوزي يحث في كل ماسبق على **القناعة**، وكذا في مقامة أخرى، حيث قال: «ويحكَ تعز عَن الدّنا تَعز أَنْتَ، تحزن إذَا فَقَدْتَهَا، وَمَايساوي الميتُ الْبُكَاء، إذَا بَقِي لكَ مَايقُوتُ، فَلاَتيأس عَلَى مَايَفُوت...»(٢).

فهو رغم عدم وجود المال لديه لفقره، فإنه يرفض أن يسأل نوال الأغنياء، وبين هو سبب ذلك قائلاً : «هَذِهِ أقوالُ الأغبياءِ» وقال:

---

(١) في الوعظ، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٧٩، ٤٨٠.

(٢) المقامة (٢١): في ذم البخل والطعام، لابن الجوزي، علي مهنا، ص٣٣٤، وذكر البيتين الأخيرين المذكورين في المقامة (٣٩) نفسيهما في ص(٤٨٠).



الحمـــدُ للّـهِ الـذِي ** ألهمَنــي قَناعَـــتي

.....

وَمَاسُؤال النَّاس مِـــنْ ** شَأْني وَلاَصِنَاعَـــتي

فهو لايفتقر إلا إلى ا لله، والفقر ضد الغنى ... والمسلم الحقيقي لايذل نفسه لاحتياجه إلى شيء مما في أيدي الناس، ولكنه يجد لذة كبرى في الاحتياج إلى ا لله، والشعور بافتقاره دائماً إلى مولاه. والإحساس المستمر بعدم الاستغناء عن ا لله. حتى مع الاستغناء المادي بين الناس. فالفقر المراد في هذا المجال هو عين الغنى با لله؛ لأن العبد إن ذل لبارئه ومولاه، فهو غني عزيز على من سواه .

وهذا الفقر إلى ا لله – عز وجل– هو ماأورده ابن الجوزي في مقامته هذه حين قال:

يَرْزُقني مَنْ كَانَ لي ** مِنْ قَبْلِ أُمي وَأَبي

لأنه يعلم أن النفس الإنسانية ليست له، وإنما هي ملك لله، «وفضيلة الافتقار إلى ا لله لاتنافي السعي والعمل والكسب الطيب الحلال، فمهما ملك المرء من رزقه الصافي فإنه يظل شاعراً بحاجته إلى ربه، ومولاه ومفتقراً إلى عونه وهداه. وقد يقال: كيف يمدح الفقر والنبي – عليه السلام – يقول في دعائه: «أعوذ بك من الفقر»، ويقول الإمام علي – كرم ا لله وجهه-: «كاد الفقر أن يكون كفرا»؟

ويجيب الغزالي : بأن الفقر الذي استعاذ منه الرسول هو فقر المضطر»[1].

وينتقل ابن الجوزي ليبين الواقعية المتمثلة في **العزلة** التي كان الكثير من أفراد مجتمعه يعمد لها فقال : «عُزْلَـةُ المرءِ عِزٌ لَهُ، فقلتُ لَهُ: أَجِلْ عَلَى سَمْعِي إِحْدَى فَوَائِدِها، وَأَجِلْ عَلَى بَصَرِي إِحْدَى فَرائِدِهَا فَقَالَ: ... الخَلْوةُ سِكْرٌ في وجهِ ماءِ التَّفْرِيطِ يمنعُ المستقبل ... وَلَقَدْ جنيتُ مِنْ ثمرِ غرسِ الخلوةِ، كُل ثَمَرة حلوة... فَلَمَّا خرجتُ عَنْهُ إلى مخالطةِ الخلقِ وَمُعَاناةِ المكتسب مُثّل لي آدمُ قَدْ أُخرجَ مِنْ الجنةِ، فنصبَ للنَصَب... فلقيتُ أَباالتقويم ... فَقَالَ كَفَى بِالمرءِ إثماً أَنْ يُضيّع مَنْ يقوت،

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن، د.أحمد الشرباصي، ١٥٧/٤-١٥٨.

فبكيتُ لما قالَ... فقلْتُ: فكيفَ لَاأنْدُب تَضييع مَا إليهِ أُنْدَب، وتضييع العُمُر فيما يؤكل ويشرب، فقالَ: لَقَدْ أبطنتْ لكَ النفسُ مكيدةَ شرٍّ دَفَنَتْهَا في الخيرِ، وَكَمْ مِنْ كَلمةِ حَقٍّ أريدَ بِها باطل، وَسوءٍ يلحقُ المرءَ وَهُوَ عَنْهُ غَافِل، إنَّما المراد: اعتزالُ المعتدين لامفارقةُ أهلِ الدِّين المتعبدين، فأمَّا طلب العُزْلَةَ عَنْ الكل. فإنَّه رأى صُلْبٌ ضلّ، فَإِنَّ الكسبَ للعيالِ أشد العبادتين، والرفقُ بالأطفالِ أقْوى المجاهدتين ... أَتظُنّ الزَّاهدَ مَنْ بَنَيَ رِباطا، وَتَأَخرّ عَنْ كَسْبِ الدّنيا وَتَبَاطَا، ينتظرُ فتُوحاً مَاتعبَ في تحصيلِها... وَكَانَ ابن أدهم ينظرُ المحاقِلَ، وَهَلْ يَرْضى بِأَوْسَاخِ النَّاسِ عَاقِل...))[1].

إلا أن موقف ابن الجوزي من العزلة ظهر واضحاً، حين قال: ((فأمَّا طَلَبُ العزلةِ عَنْ الكل فَإِنَّه رأي صُلْبٌ ضلّ))، لاختلاف الناس في العزلة والمخالطة، أيتهما أفضل، مع أن كل واحدة منهما لاتنفك عن فوائد، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة، كما أن من السلف من آثر العزلة لفوائدها؛ كالمواظبة على العبادة والفكر، وتربية العلم، والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة؛ كالرياء، والغيبة، والسكوت عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع للأخلاق الرديئة، والأعمال الخبيثة من جلساء السوء، وغير ذلك .

وأما أكثر السلف فذهبوا إلى استحباب المخالطة، واستكثار المعارف، والإخوان، والتآلف، والتحبب إلى المؤمنين، والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى. وإن فوائد العزلة يمكن نيلها من المخالطة بالمجاهدة، ومغالبة النفس[2].

وحجة من اختار المخالطة، قول النبي -ﷺ-: ((**المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من الذي لايخالط ولايصبر على أذاهم**))[3].

---

(١) المقامة (١٩): في الخلوة، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٣١٧-٣٢٠، المحاقل: جمع محقلة: مزرعة، انظر: اللسان، مادة : حقل.

(٢) انظر: موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ٢٣٣.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٣٢) عن ابن عمر -رضي الله عنه- كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ١٣٣٨/٢، والترمذي (٢٥٠٧) كتاب صفة القيامة، باب (٥٥)، ٦٦٢/٤-٦٦٣ بنحوه، وأحمد في مسنده، ٤٢/٣، ٢٦٥/٥.

واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾(١).

وحجة من اختار العزلة، قولهم: قيل يارسول الله ، أي الناس خير؟ قال: ((**رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**))(٢). وفي حديث عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال : قلت : يارسول الله ماالنجاة؟، قال: ((أمسك عليك لسانك، ويسعك بيتك، وابك على خطيئتك))(٣).

وبعد، فإن الحكم على العزلة مطلقاً بالتفصيل نفياً وإثباتاً ، خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الغائب بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

وفي مقارنة أخرى بين ابن الجوزي الهيئة التي يكون عليها من اختار العزلة، فقال: ((عندنَا فقيهُ الْبَلَدِ، وَسَيّدُ السَّندِ، اجْتَازَ للعزلةِ في حِلتِنَا وَانْفرَد، فَمَا يُخَالِطُه مِنْ مَحلتنا أَحَد، يَقْنَعُ مِنَ التَّمر بِالحَشَفِ، وَمِنْ المَاءِ بالنَّشَفِ، وَيؤثرُ الزُّهدَ وَالقَشَفْ... فوصلْنَا إِلى خِباءٍ عَلَى ماءٍ سيح، فَإِذَا شيخٌ عَلَيهِ سيح، صبيحُ الوجهِ مليحُ الشيبةِ، عليهِ نَورُ النورِ، وَهيئةُ الهيبةِ.. فقلْتُ لَهُ: أَمَا في هَذَا العَالِمِ مَنْ يبني لك بَيْتاً فتأويه، إنّ العَالِمَ يبني لِنفسه بَيْتاً هُوَ جَوَابُ فَتَاوِيه...))(٤).

فربما أراد أن العالم يبنى له بيت في الجنة بأعماله الصالحة، وبعده عما حرم الله، وفي المقامة السابقة بين ابن الجوزي موقفه من العزلة، إلا أنه هنا جعلها واقعاً مثله أبوالتقويم؛ فهو ذو إلمام بكل العلوم، فيقول: ((سَرِدْتُ عليهِ عويصَ المشْكِلاَت،

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٥.

(٢) رواه البخاري فتح الباري تحت رقم (٢٧٨٦)، كتاب الجهاد، باب(٢): أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله بنحوه، ٦/٦. ومسلم برقم(١٢٢، ١٢٣، ١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه –، كتاب الإمارة، باب (٣٤): فضل الجهاد والرباط، ٣/١٥٠٣-١٥٠٤. وأحمد في مسنده، ٣/٥٦.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٠٦) كتاب الزهد، باب (٦٠)، ٤/٦٠٥، وقال حديث حسن.

(٤) المقامة (٣٧): في العزلة، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٥٨-٤٥٩.



واعتمدتُ صعبَ التخليصِ مِنْ المهمات، فَمَا وَقفَ فِي مُشْكِلة، وَلَاصدفَ عَنْ معضِلة، بلسانٍ كيعبوبِ النَّهرِ، في بلاغةٍ أحسن من جيوبِ الزَّهرِ، فقلتُ لَهُ: كيفَ مَنْ عُلُومُه هَذِهِ الْبَوَادي، في هَذِهِ البَوَادِي، أَمَا سَمِعْتَ في الحديثِ عَنِ المصطفى أَنَّهُ قَالَ «**مَنْ بَدَا جَفَا**»(١)، **فَقَالَ: مَاتعرَّبْتُ وَلَاتغربت، وإنما هَرَبْتُ ممن جَرَّبْت...**»(٢).

إذن سبب عزلته هروبه ممن خالط من الناس، فهم على خلاف مايظهرون من بداية القراء والمحدثين ومروراً بالفقهاء، والحكام، والقضاة، والمذكرين، منتهين بالتجار، والمتزهدين، فأراد بعزلته التخلص من المعاصي التي يتعرض لها الإنسان بالمخالطة، والخلاص من الفتن والخصومات، والخلاص من شر الناس، فيقول:

« أَلَا إِنَّ إِخْوَاني الذينَ عَهِدْتُهم ** أَفَاعِي رِمَالٍ لاتقصر في لَسْعِي
ظننتُ بِهِمْ خَيْراً فَلَمَّا بَلَوْتُهم ** حَللتُ بوادٍ مِنْهم غير ذِي زَرْعٍ

... كنتُ آمرهم باخلاصِ الأَسْرار، في الإعلانِ والإِسْرَار، فَتطَايرَ إِلَيّ الشَّرار مِنْ أولئكَ الأَشْرار، فَأَنَا أدعوهم إِلَى النَّجَاةِ وَيدعونَني إِلى النَّار، ... قلتُ: فكيفَ التَّخلصُ مِنْ هَذَا الزَّمان الظلم جَهلُهُ، الظَّالِم أَهْله؟ قَالَ: انظرْ، فإنْ وجدتَ العَالِم دَيِّناً عَاقِلاً، وَإِلَّا فَاجْعَلْ نصيب العَالَم والعَالِم مَعاً قِلى ... إنْ أردتَ العُلُو فَارْتَقِ درجَ التقوَى، وإنْ شِئْتَ العزّ فضعْ جبهةَ التَّواضعِ ...، فقلْتُ لَهُ: تَصَدَّقْ بصحبتِكَ عَلَيّ، فقالَ: الوحدةُ أَحَبُّ إِليّ...»(٣).

إلا أنه مع عزلته لم يمنع عن الناس خيره وعلمه، «فقالُوا لَهُ: هَذَا غريبٌ قَدْ جَاءَ وَلَهُ مَسَائِل، فقالَ: لِيسأَلْ مَاشَاءَ كُلّ سَائِل»(٤).

وبعدُ فهناك واقعيَّةٌ أظهرها ابن الجوزي في مقاماته، ألا وهي **صوفية** زمانه وشطحاتهم، من خلال تجربته معهم، فقد عمل خادماً لهم، كما قال:

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – حديث حسن، ١٦٧/٢.
(٢) المقامة نفسها، ص ٤٥٩.
(٣) المقامة نفسها، ص ٤٦٠-٤٦٣.
(٤) المقامة نفسها، ص ٤٥٩.

((فلَمْ أزلْ خَادِماً لهمْ زَمَنَا ** حَتَّى تيقنتُ أنَّهم بَطَلَـه))(١)

... قلتُ : الخبرُ عَنهُمْ بِخَبِير أَوْ تَخْيير، قَالَ: لَا وَا الله بَلْ بِخَبرِ خَبِير...))(٢)

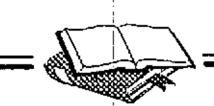
((والتصوف: حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي عقب اتساع الفتوحات، وازدياد الرخاء الاقتصادي، كردّة فعل مضادة للانغماس في الترف الحضاري، مما حمل بعضهم على الزهد الذي تطور بهم حتى صار لهم طريقة مميزة معروفة باسم ((الصوفية))؛ إذ كانوا يتوخون تربية النفس، والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة ا الله بالكشف، والمشاهدة لاعن طريق التقليد، أو الاستدلال لكنهم جنحوا في المسار بعد ذلك، حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة))(٣).

ثم أخذ يبين ابن الجوزي كيف ينخدع الشخص بظواهرهم التي هي عكس أفعالهم كما حدث معه، فقال: ((غَالَطُوني بِأَعْمَالِ الصَّلاحِ، ثُمَّ خَالَطُونِي بِأَعْمَالٍ قِبَاح، يسمونَ مَنَاخَ البطالةِ الرِبَاطَ، وَيخوضون في الجهالةِ إِلَى الآباط، فربَاطُهم نَصَب أَرْكان النصب، وأَفْعَالهم خفضٌ لَارفعٌ ولَانَصب، انقطَعُوا عَنْ الجمَاعَاتِ في المسَاجِدِ، وَجَروا عَلَى سَنن مُخالف للسُنن مُعَانِد ، طَهَاراتهم إذَا تَأملتَ وسواس، وَالطّهَاراتُ عِندَهم كَالأنجاسِ، يُغلِفون الأقدامَ لِلمَشْي عَلَى القطيفةِ، ولَو قَطَعَ بِطَهارتها الشَّافِعي وَأَبُو حنيفة، بَعُدوا عَنْ كلَف الكسبِ وَقَعَدُوا عَنْ الْفُتُوحِ، ... يختالون في لباسِ الزّهاد، وَيَحتَالون عَلَى النَّاسِ في المرادِ، قَدْ جمعُوا التدليسَ بألوانِ الْخرق، وَرَقعُوا الجديدَ لَاالدريسَ الخلِق فقدْ لبسُوا للنفاقِ جِلْدَ حيَّة، وَلَبَّسوا بحيلٍ كُلّهَا في النفاقِ حيّة، يَتقربُونَ بالتعرّي الكثيف إلى الملوكِ ... يتناولونَ مِنْ أَفانينِ الطّعام، وَيَأْكلونَ أَكْلَ المجانينِ الطَّغام ... المغنىَ والزّير زَائِران، فَإذَا جنّ الليلُ اجتمعتْ مِنْهُم الجموعُ في السموعِ، وَحَاديهم الأمْرد أحسنُ مِن الشموعِ، ينقرُ بِأَطْرافِ الأنامل دُفّ الجلَاجِلِ... وَتسمعُ مِن تلفيقِ التّصفيق، مَايعملُ عَملَ حريقِ الرّحيق، وأَشْعَارِ المجنون

(١) المقامة (٤٠) في صوفية الزمان، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٨٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٨١.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص٣٤١، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.



وأضرابُهُ تُقَال...»[(١)].

هذا الذي وصفه ابن الجوزي عن الصوفية لم يكن هو حالهم حين ظهروا، بل كان لهم أصول وقواعد «وأصول طريقهم سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق»[(٢)].

وقد ذكر ابن الجوزي ذلك في مقامته هذه فقال: «فقلْتُ: أَوَ عَلَى هذِهِ النكرى عَفَا أَوَائِلِهِم؟ قالَ: لاَ وَا للهِ .. لَقَدْ تعبَّدَ في الجاهليةِ عِنْدَ الكعبةِ بَنُو صُوفَه وكانتْ جماعتهُم بِالطرائقِ الصَّعبةِ مَوْصُوفة، فَاسْتعمل مِن قدماءِ هَؤُلاَءِ خلائِقُ مِنْ تلكَ الخلائِقِ المعروفة. ثُمَّ حملُوا بِالرَّأْيِ المشَاق عَلَى الجسومِ لَا بِالعلومِ المأْلُوفةِ.. وَكَانُوا يُشيرونَ إِلَى الحقِّ بِالعشقِ والمحبةِ، وَيتكلّمونَ في الْعُلومِ بِمَا لاَيُسَاوي حبة، فَجَاءَ المتأخرونَ يقنعونَ مِنْ اللّباسِ بالصورةِ، ويرفعونَ لاَعَنْ ضرورة، وَيَسْتبدلونَ بجوعِ أولئكَ الشِّبع، وَقَصَدُوا بِأَفْعالِهم الرّياءَ وَالشَّنَع... كَانَ الزُّهدُ في بواطنِ الْقُلُوبِ فَصَارَ في ظواهرِ الثيابِ، كَانَ مَشَايخهم في القديمِ أربابَ قَدَمٍ، والمريدُ مِنْهُم حينئذٍ صَاحِب أَلَمٍ. فذهبَ القدمَ والألمُ كَانُوا يتشبهونَ بأَصحابِ الصُّفة، ويقنعونَ مِن القوتِ بمقدارِ اللقفة، كَانَ التَّصوفُ عندَ أولئكَ حرقة، فصارَ اليومَ عندَ هؤلاءِ خرقة...»[(٣)].

ونلحظ أن ابن الجوزي أشار هنا إلى بداية تأسيس الصوفية، فذهب إلى أن الصوفية نسبة إلى رجل يقال له صوفة ظهر في العصر الجاهلي.

ثم يقول في المقامة نفسها ذاكراً بعض مدارس الصوفية:

«فناديتُ يَاقوم مَنْ تَعْبُدُون ** فَكُلٌّ أَشَارَ بقدرِ الوجُودِ
فَبعضٌ أَشَارَ إلى نَفْسِهِ ** وأَقْسَم مَافوقها مِنْ مَزيدِ
وَبَعْضٌ إلى خرقة رُقِّعتْ ** وبعضٌ إلى ركوة من جلودِ
وآخرُ يَعْبُدُ أهواءه ** وَمَاعَابِدٌ للهوى بِالرشيدِ

(١) المقامة نفسها، ص ٤٨١-٤٨٢.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٣٤٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٨٤-٤٨٥.

وَمجتهـــد وقتُـــه ربَّـــه ** فَـإنْ فـاتَ بـاتَ بليـل عَنيـدِ
وَذو كَلف باسْـتَمَاع السَـما ** ع بينَ البسيط وبـين النشـيدِ
يئــنُّ إذَا مَــامضت رَنَّـــة ** وَيَـزْأَرُ مِنْهَـا زَئِـيرَ الأسـودِ
....
فَيَـا للرجـال أَلاَتعجبـون ** لِشَـيْطانِ إخْوَانِنـا ذَا المرِيـدِ
....
وأقسـم مَـاعَرَفوا ذَا الجَـلالِ ** وَلاَ أثبتـوهُ بِغَـيرِ الجُحُـودِ
ثُمَّ قالَ: وَلَقَدْ أَرشدني من أنشدني:
أَرَى جِيلَ التّصوفِ شَرَّ جِيـل ** فقلْ لهمْ: وَأَهوِنْ بالحلولِ))[1]

ومدارس الصوفية :

مدرسة الزهد، ومدرسة الكشف والمعرفة، وزعيم هذه المدرسة الإمام أبوحامد الغزالي، ومدرسة وحدة الوجود؛ ومدرسة الاتحاد والحلول .

وقد وجدنا لهذه المدارس ذكرًا في مقامته السابقة.

وها هو ذا ابن الجوزي يذكر في مقامته نفسها بعضاً من شطحات الصوفية، فيقول: ((ينكسُ أحدُهم رَأْسه وَيغمض عينيهِ، وَيتزمل أَحلاَسَهُ، كَأَنَّهُ يُوحَيَ إليهِ، فَإذَا أُلْقِيَ فِي رُوعهِ وسواسٌ عَوّل عليهِ، فيُصبح لإسناد واقعِهِ يُرْبي، وَيصيحُ حَدّثني قَلْبي عَنْ رَبِّي، يمنعون مِنْ قراءةِ القرآن وَسَمَاع الحديثِ، وَهَذَا يُنبِيء عَنْ باطنٍ خبيثٍ، كُلّ العلومِ الشّرعيةِ عندَهم حِجاب، وَالهذيان في علمِ الصّوفيةِ لُبَاب، ويعتقدونَ أَنَّ الدعاءَ عندَ السّماع مُجَاب، فهمْ عَلَى الحقيقةِ ذِئابٌ في ثيابِ، سَتَرُوا ظَوَاهِرَهُمْ بالرقاعِ وَعُيوبُ البواطنِ أَكْثر))[2].

---

(١) المقامة نفسها(٤٠)، ص ٤٨٦.

(٢) المقامة نفسها (٤٠)، ص ٤٨٣.



يقول ابن تيمية: ((وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، أو لقبورهم، أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى ... وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء والمشائخ والملوك وغيرهم فإنه منهي عنه))[١].

ومن شطحات الصوفية بأن سلك بعضهم طريق تحضير الأرواح معتقداً بأن ذلك من التصوف، كما سلك آخرون طريق الشعوذة والدجل، وقد اهتموا ببناء الأضرحة، وقبور الأولياء، وإنارتها، وزيارتها، والتمسح بها، وكل ذلك من البدع التي ماأنزل الله بها من سلطان، ويأتي بعض المنتسبين إلى التصوف بأعمال عجيبة وخوارق[٢]. يقول ابن تيمية: ((وأما كشف الرؤوس، وتفتيل الشعر، وحمل الحيات، فليس هذا من شعائر أحد من الصالحين، ولامن الصحابة، ولامن التابعين، ولاشيوخ المسلمين، ولامن المتقدمين، ولامن المتأخرين))[٣].

إذن فماذكره ابن الجوزي من شطحاتهم بعيد عن الإسلام كما بينه ابن تيميه.

وفي مقامته (٣٩) نرى ابن الجوزي يظهر لنا واقعاً إسلامياً من خلال تلبية أفراد مجتمعه لأداء فرض **الصلاة** فيقول: ((دخلْنَا المدينةَ، وإذَا مُنَادِي الجمعَة فأجبْنَا، وَتَأهبْنَا، وَقرَّبْنَا، فلمَّا جَزَمْنَا ماالتزمْنَا مِنْ الغرضِ...))[٤].

والغرض الذي لبى مناديه هو صلاة الجمعة لأنها واجبة لقوله تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾**[٥].

ولقوله -ﷺ-: **((الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض))**[٦].

---

(١) فتاوى ابن تيميه، كتاب التصوف، ص٥٠٤، ٥٠٦.
(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، ص ٣٤٩-٣٥٠.
(٣) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف، ص ٤٩٤.
(٤) في الوعظ، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٧٣.
(٥) سورة الجمعة، آية ٩ .
(٦) رواه أبوداود برقم(١٠٦٧) عن طارق بن شهاب - رضي الله عنه -، في كتاب الصلاة، باب (٢٠٩): الجمعة للمملوك والمرأة، ١/٢٨٠.

وحين قال ابن الجوزي ((وإذا منادي الجمعة فأجبنا، فتأهبنا وقربنا...)) فهو امتثال لقوله -ﷺ- الذي حث على التأهب بعد الإجابة لنداء الصلاة، وبين كيفية هذا التأهب فقال : ((**لايغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ماستطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلايفرق بين اثنين، ثم يصلي ماكتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له مابينه وبين الجمعة الأخرى**))[١].

وحين قال : (قربنا) لعله أراد قوله -ﷺ-: ((**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قدم بقرةً، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضةً، فإذا خرج الإمام، حضرت الملائكة يستمعون الذكر**))[٢].

وفي مقامة أخرى بين ابن الجوزي واقعاً إسلامياً يعيشه أفراد مجتمعه ألا وهو أداء **صلاة العيد** والاستعداد له بلبس الثياب الجديدة فقال : ((فَلَمّا طلعَ الفجرُ رُحْتُ إلى المصلّى وَرَاح، فَرَأىٰ النَّاس قَدْ تزينُوا، فقالَ: الدّنيا ملح العيد وإنَّما تَصْلُحُ للأَطْفَالِ، لاتقفنّ في الطَّريقِ عَلَى لَهْوٍ فَمَا تأمن فَوْتَ الصَّلاةِ ...))[٣].

أما هو فمن حزنه على فراق رمضان لم يلبس إلا الثياب البالية فقال: ((فَلَمّا خرجَ الخلقُ إِلى مَنْ خلقَ يومَ العيدِ، لبسَ الخَلِقَ...))[٤].

وهذا مخالف للسنة التي يستحب لها في صلاة العيدين الغسل والتطيب، ولبس أجمل الثياب تمشياً معها، لقول الحسن السبط، ((أمرَنَا رسولُ اللهِ -ﷺ- في العيدين

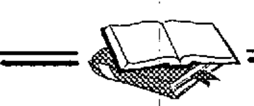
---

(١) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٨٨١)، كتاب الجمعة، باب (٤): فضل الجمعة، بلفظه، ٢/٣٦٦.

(٢) رواه مسلم تحت رقم (٨٥٠) عن أبي هريرة - رضي الله عنه- كتاب الجمعة، باب (٢)، ٢/٥٨٢. ورواه الترمذي، كتاب الصلاة، باب ماجاء في التكبير إلى الجمعة، ٢/٣٧٢، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) المقامة (٣٣): في وداع رمضان، على مهنا، ص ٤٢٤.

(٤) المقامة نفسها، ص ٤٢١.



أن نلبس أجود مانجد، وأن نتطيب بأجود مانجد، وأن نضحي بأثمن مانجد))(١).

ثم إن صلاة العيدين سنة مؤكدة واظب النبي -ﷺ- عليها وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا لها(٢).

كما بيّن ابن الجوزي أن صلاة العيد بلا آذان فقال: ((بَادِرْ آجلًا مَانَدْرِي مَتَى يَفجأ، فَصَلاةُ العيدِ بِلَا أذان))(٣)، ((لأن النبي -ﷺ- صلى العيد بغير أذان ولاإقامة، وكان يخطب خطبتين يفصل بينهما بجلسة))(٤).

وأشار ابن الجوزي أيضاً إلى أن أفراد مجتمعه يذبحون الذبائح في العيد؛ تمثلاً لسنة رسول الله -ﷺ- الذي خطب فقال: ((**إن أول مانبدأ به من يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل فقد أصاب سنتنا**))(٥).

قال ابن الجوزي: ((أَنِسَ الذبَاحُ بالدمِ، لَو علمت النَّحَائِرُ أَينَ المذهب ماتبخترتْ في الطريقِ، ... فلمَّا رَأى الذَّبَائح قَالَ وَاعجباً مِن تَفَاوتِ الرِّجَال...))(٦).

ويستمر ابن الجوزي في تصوير واقع مجتمعه المسلم الذي يسير على سنن الرسول الكريم -ﷺ- في أداء **صلاة الاستسقاء** فها هو ذا في مقامته (٤٧) يقول :

((أقلعَ الغيثُ فانقلعَ الزرعُ، وعبس الثرى وييسَ الضَّرعُ، ... فَمَا زِلْنَا نعجُّ لِلبلاءِ، وَنَضّج بالدعاءِ، والسّماء لاتزدادُ إلاَّ صَحْواً وانقشاعاً، فَكَانَ الجدبُ دَحْواً في البوادِي مشَاعاً، فانْتَدَبَ شيخٌ يُنَادي في البلدِ لَيْلاً وَنَهاراً، استغْفُروا رَبكم إنّه كانَ غَفّارا، يُرْسِلِ السَّماءَ عليكمْ مِدْرَارا، ثُمّ عَلاَ يَوْماً عَلَى منبرٍ وَذَكّر، وَأَمَرَ بِالمعروفِ،

---

(١) رواه الحاكم، في كتاب الأضاحي، ٤/٢٣٠.

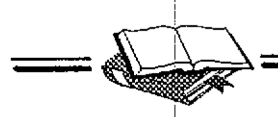
(٢) فقه السنة، السيد سابق، ٣١٧/١.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) رواه البيهقي في سننه الكبرى، عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه -، كتاب صلاة العيدين، باب: لاأذان للعيدين، ٣/٢٨٤.

(٥) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٩٥١)، كتاب العيدين، باب (٣): سنة العيدين لأهل الإسلام بلفظه، ٢/٤٤٥.

(٦) المقامة نفسها (٣٣)، ص ٤٢٤.



ونهى عَنْ المنكرِ، وَقَالَ: يَاقوم اخرجوا مِنْ المظالمِ، ولينزع عَمّا هُوَ عَلَيهِ الظالم، ثُمّ ليخرجَ الدّاني، وَالقاصِي، لعلنا نُجَاب ... فإذَا بهِ قَدْ برزَ إلى المصلّى بحليةٍ خاشعةٍ، وقالَ للنّاسِ: الصّلاةُ جَامِعة ...، ثُمّ صَلَّى مثلَ صَلاةِ العيدِ، وَقَرأ فِيْهَا آياتِ الوعيدِ، ثُمّ أسرعَ إلى المنبرِ فجلسَ، ثمّ قامَ أسرعَ مِنْ نفسٍ، فَكَبّر، وَقَرأ، وَصَلّى عَلَى الرّسولِ، ورفعَ يديهِ يسألُ المسئولَ السئول، فحفظتُ مِنْ جملةِ مايقولُ : اللّهم إنَّكَ تعلمُ جدبنَا، فجدْ بِنَا، أغثْنَا فقدْ أمحلْنَا، ... اللّهم اسْقِنَا سَحَاباً مُكَفْهراً... ثُمّ استقبلَ القبلةَ، وحوّلَ الرّداء، وقالَ: اللّهم حَوّل الدّاء... فجرتْ مِن العيونِ عيون ... وهو مِنْ قلقهِ وبكائهِ في عجابٍ، يخافُ علَى دعائهِ أنْ لاَيُجاب ... فهبّتْ رَيْدَانةُ جَنُوب ... فانبعثتْ بهَا الْغَمَائِم ...))[1].

فحين قال ((استقبل القبلة وحول الرداء)) متمثلاً بفعل الرسول -ﷺ- فعن عبدا لله بن زيد ((أن النبي -ﷺ- استسقى، فقلب رداءه))[2].

وحين قال ابن الجوزي : ((فكانَ الجدبُ، ثُمّ عَلاَ يوماً علَى منبرٍ وَذَكّر...))، فهو يحذو بفعله الرسول الكريم -ﷺ-، فعن أنس -رضي الله عنه- قال: ((بينما رسول ا لله -ﷺ- يخطب يوم الجمعة إذ جاءه رجل فقال: يارسول ا لله قحط المطر، فادع ا لله أن يسقينا. فدعا، فمطرنا، فما كدنا أن نصل إلى منازلنا، فما زلنا نمطر إلى يوم الجمعة المقبلة. قال: فقام ذلك الرجل - أو غيره - فقال: يارسول ا لله ادع ا لله أن يصرفه عنا، فقال رسول ا لله -ﷺ-: حوالينا ولاعلينا. قال: فلقد رأيت السحاب يتقطع يميناً وشمالاً، يمطرون ولايمطر أهل المدينة))[3].

وكذا في قول ابن الجوزي: ((ورفعَ يديهِ يَسْأَلُ المسئولَ السئول))، ((كان الرسول -ﷺ- لايرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء، وإنه يرفع حتى يرى بياض إبطيه))[4].

---

(١) في الاستسقاء، ص ٥٤٥-٥٤٧، علي مهنا .

(٢) رواه البخاري (١٠١١)، كتاب الاستسقاء، باب تحويل الرداء في الاستسقاء، ٣٤/٢.

(٣) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (١٠١٥)، كتاب الاستسقاء، باب(٨): الاستسقاء على المنبر، بلفظه، ٥٠٨/٢.

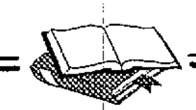
(٤) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (١٠٣١) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه-، كتاب الاستسقاء، باب (٢٢): رفع الإمام يده في الاستسقاء، بلفظه، ٥١٧/٢.

الفصــل الثانــي

الأســـلوب

ويشمل :

- المعجم اللغوي.
- الصياغـــة.
- الصـــورة.



المعجم اللغوي :

يعتمد أسلوب المقامة في صياغته بوجه عام، على اصطناع الغريب، والتأنق في اختيار الألفاظ، وبالرغم من أن مقامات **البديع** كانت في معظمها ذات أسلوب سلس، فإننا نجد المقامات الأخرى التي كتبت بعده على طريقته، تصطنع مفردات تعد في الوقت الراهن – على الأقل – مهملة.

إلا أن مقامات البديع لم تخل أيضاً من بعض الغريب . أما الغريب الذي نقصد إليه هنا، فهو نوعان اثنان :

أولهما: غرابة المعاني نفسها. وهذه الغرابة لاتأتي إليها من كونها عميقة المغزى، بعيدة الغور، كما نجد في بعض الكتابات التي تقرر مسائل فلسفية عليا، وإنما تأتي إليها من كون الألفاظ التي صبت فيها هذه المعاني، غريبة في حد ذاتها، فغربت المعاني، واضطربت اضطراباً شديداً نتيجة لغرابة الألفاظ.

ثانيهما: غرابة اللفظ، ونقصد بغرابة اللفظ هنا، تلك المعاني المألوفة التي عبر عنها كاتب المقامة بألفاظ غريبة كان في غنى عنها بما هو معروف متداول بين الكتبة والأدباء[١].

وأكثر المقامات غريباً عند البديع المقامة النهيدية، والحمدانية، فها هو ذا يقول في المقامة النهيدية :

« حَدَّثنا عِيسى بْنُ هِشَام، قَالَ : مِلْتُ مع نَفَرٍ من أَصْحَابي إلى فِنَاء خَيْمَةٍ أَلتَمِسُ القِرىٰ من أَهْلِها، فخَرَجَ إلينا رجُلٌ حُزُقَّةٌ، فقالَ: مَنْ أَنتمْ ؟ فقُلْنا: أضيافٌ لم يذُوقُوا مُنْذُ ثَلاثٍ عَذُوفاً، قالَ: فَتَنَحْنَحَ ...، ثُمَّ قال: فما رأيكُمْ يافِتْيانُ في دَرْمَكٍ كأنَّها قِطَعُ السَّبائِكِ تُجَرْثِمُ على سُفْرةٍ خَرْتَيَّةٍ بها ريحُ القَرَظِ، فَيثِبُ إليها مِنْكُمْ فَتى رفيفٌ، لَبِقٌ خَفِيفٌ، فَيَعْجُنُهُ من غَيْرِ أن يَرْجُفَهُ أو يَخْشِفَهُ فيزيلُهُ دون مَلْكٍ ناعمٍ، ثُمَّ يَلُتُّهُ بالسَّمَارِ أو المَذْقِ لَتّاً غَزيراً، ثُمَّ يَعْمَدُ إليه فيلويهِ ويَدَعُهُ في ناحية الصَّيْداء، حتى إذا تَخَّ من غير أن يَتْرُزَ، عَمَدَ إلى قَصَدِ الغَضَا، فأَشْعَلَ فيه النَّارَ فلمَّا خَبَتْ نارُهُ، مَهَّدَ

(١) انظر: فن المقامة في الأدب العربي، د. عبدالملك مرتاض، ص٣٦٧-٣٦٨.

لِقُرْمُوصِهِ، ثُمَّ عَمَدَ إلى عجينِهِ فَفَرْطَحَهُ بَعْدَ ماأنْعَمَ تلويثَهُ، ثُمَّ دَحا بِهِ عَلَيْها، ثم خَمَّرَهُ، فلمَّا قَفَّ وقَبَّ أحال عَلَيْهِ من الرَّضْفِ مايتلقي به الأُوَارَانِ، حَتَّى إذا غطَّاهُمَا على المَلَّةِ المشاكِهةِ بطبقٍ وتفلَّج شِقَاقاً، وَحَكى قِشْرُها رُقَاقاً، واحمِرارُها احمرارَ بُسْرِ الحِجازِ المشهورِ بأمِّ الجُرْذَانِ، أوْ عذْقِرِ بْنِ طابٍ شُنَّ عليها ضَربٌ بَيْضاء كالثلجِ إلى أوَانِ رَسُوخِها في خِلالِ الدِّهانِ، ويشرَبُ لُبُّ الدَّرْمَكِ ماعَلَيه من الضَّرْبِ، قُدِّمَتْ إليكم فتلَقَّمُونَها لَقْمَ جُوَيْنٍ أو زُنْكَلٍ، أفتشتَهُونَها يافِتْيانُ؟))(١).

لعلك لحظت أن كثيراً من ألفاظ هذا النص يضطرب بها المعنى ويتعسف، لأن البديع حاول أن يستخدم ألفاظاً غريبة جداً لمعان معروفة ألفاظها، وقد كان بوسعه أن يستغني عن هذا الغريب، ولكنه نزع إليه ومال.

ويبدو أنه اصطنع الألفاظ الغريبة في هذه المقامة بالذات، لعامل فنّي بحت، فقد زعم عيسى بن هشام أنه مال مع نفر من أصحابه إلى فناء خيمة بالبادية، والحال أن الأعراب البادين لايتحدثون إلا بمثل هذه اللغة .

فقد كان البديع يستخدم الألفاظ في مقاماته تبعاً لمقتضى الحال، فإذا كان الموضوع بدوياً فيه أعراب، فهو الغريب من اللفظ، وإذا كان الموضوع حضرياً تدور حوادثه بين أهل الحاضرة، فهو السهل المعروف منه.

وماكان البديع سيستخدم مثل هذه الألفاظ الغريبة لو تناول هذا الموضوع نفسه على نحو آخر، وكان مكانه المدينة لا البادية، وأبطاله حضريين لابدوا.

فالبديع إذن كان مضطراً من الناحية الفنية إلى مسايرة حال موضوعاته في استخدام ألفاظ المقامات، وإلا فقد كان في سعةٍ من أن يعتاض عن ((حزقة)) بالقصير، و((عدوف)) بشيء من الطعام، وعن ((تجرثم)) بتجتمع، و((حرتيةٍ بها ريح القرظ)) بسفرة معتنى بها وجديدة؛ لأن الحرتية: نسبة إلى الحرت، وأصله قطع الشيء مستديراً ودلكه، وأراد الذي بولغ في العناية به، والقرظ: ثمر يدبغ به، والمعنى أن رائحة الدباغ لاتزال عالقة به، كناية عن جدتها. وعن ((يثب)) يظفر أو يقوم، و((رفيف)) حسن

---

(١) المقامة النهيدية، ص٢٤٤-٢٤٩، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني: محمد محي الدين عبدالحميد.



الخلق، و((لبق)) حاذق، و((يرجفه)) يحركه بعنف، و((يخشفه)) يسيء صنعه بوضع ماء كثير، يجعله قطعاً كمخشوف الرأس أي مفضوخها، و((يلته)) يخلطه، و((السمار)) اللبن الحليب إذا خلط بالماء، و((المذق)) اللبن الحامض، و((الصيداء)) الأرض الغليظة، و((تخ)) ظهرت فيه الحموضة، و((يتزز)) ييبس ويشتد، و((قصد الغضا)) أغصانه، و((مهد)) هيأ، و((قرموصه))، فالقرمص، والقرماص: موضع خبز الملة، وهي الرماد الحار والجمر، و((فرطحه)) عرضه، و((تلويثه))، فأصل اللواث: الدقيق يذر على الخوان تحت العجين، ولوث: فعل منه، أي وضع اللواث، و((أنعم)) صيره ناعماً، و((دحا)) بسط، و((خمره)) غطاه، و((قف)) يبس وجف، و((قب)) ارتفع، و((الرضف)) الحجارة المحماة، و((الأوار)) النار، والتقاء الأوارين: تقابلهما، و((الملة)) الجمر، و((المشاكهة)) المشابهة، و((تفلج)) تشقق، و((بسر)) التمر قبل أن يصير رطباً، و((أم الجرذان)) نوع مشهور من التمر، و((عذق بن طابٍ)) نخل بالمدينة، و((الضرب)) العسل، و((جوين وزنكل)) رجلان شديدا النهم كثيرا الأكل[1] ... وهكذا إلى الآخر.

ولكن ألفاظ أهل البادية ذات طابع خاص، فأراد البديع أن تكون ألفاظه معبرة عن مقتضى الحال.

ولسنا ندري أجاء ذلك من حيث كان يشعر، أم من حيث لم يكن يشعر؟؟، ولكن لاأحد يستطيع أن ينكر أن البديع لم يأخذ قط في تدبيج هذه المقامة، بعين الاعتبار بعض النواحي الفنية؛ فهذا أمر طبيعي يدركه كل كاتب، ولو كان من كتاب العهود القديمة، وإلا فلم وجدنا البديع يستخدم في المسجد من الألفاظ مايلائم هذا المكان المقدس؟، ويصطنع في الحمام مايوافق أصحاب الحمامات من الألفاظ، ومايدور على ألسنتهم منها؟، وهلم جرا؟

بيد أن ألفاظ مقامات البديع لم تكن غريبة في معظمها . إذا استثنينا مقامات

---

(١) انظر: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٢٤٦-٢٤٩. واللسان، مادة: خرق، عدف، جرثم، حرت، قرط، وثب، رفف، لبق، رجف، خشف، لتت، سمر، مذق، صيد،تخخ، تزر، مهد، لوث،دحح، خمر، قفف، قبب، رضف، أور، ملل، شكه، فلج، بسر، ضرب.

قليلة منها النهيدية، والحمدانية(١).

وفي مقامته البغداذية التي أنشأها على لسان راويه «عيسى بن هشام»، انظر إلى مافي المقامة من غريب الألفاظ: «الأزاذ، السَّوادي، القَرَم، الجُوذَبات، السُّمَّاق، اللَّوزِينج، الصَّارّة، يَفثَأ»(٢)، ومع غرابتها فقد اتضحت معانيها من السياق، ومرت على الآذان - في جو القصة - مر النسيم .

وفي بعض المواقف كان بديع الزمان يورد الألفاظ الغامضة، ويطرح الأسئلة المحيرة، ثم يعود إلى الإجابة عنها، دلالة على أنه كان يعرف غموضها، ويقصد إليه، ثم يعود إلى تفسيرها بعد أن يذهل الناس، ويملك إعجابهم وينتزع اعتراضهم بتفرده، ومن ذلك ماجاء في المقامة الحمدانية، حين طلب سيف الدولة الحمداني من أبي الفتح أن يصف الفرس فوصفه في ألفاظ غامضة وصفات محيرة، ومن وصفه :

«هُوَ طويلُ الأُذنين، قليلُ الاثْنَيْن، واسعُ المراثِ، لَيِّنُ الثَّلاثِ، غَليظُ الأكْرُع، غامضُ الأرْبعِ، شَدِيد النَّفْس، لطيفُ الخمسِ، ضيِّقُ القَلْتِ، رقيقُ السِّتِّ، حديدُ السَّمْعِ، غليظ السَّبْعِ، دقيقُ اللِّسَانِ، عريض الثَّمَانِ، مديد الضِّلْعِ، قصير التِّسْعِ، واسِعُ الشَّجْرِ، بعيدُ العَشْرِ»(٣).

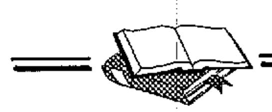
وواضح أن بديع الزمان لديه خبرة بالخيل،وواسع الثقافة اللغوية، فقد استطاع أن يتدرج في أوصافه من الاثنين إلى العشرة، وأتى لكل عدد بما يناسبه في الوصف، وعندما توسل إليه عيسى بن هشام أن يفسر ماقال، لبى طلبه، ومماجاء في ذلك: «فقلت: ... فما معنى قولك: قصير التِّسع؟ قال: قصير الشَّعْرَةِ، قصيرُ الأُطْرَةِ، قَصيرُ

---

(١) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، د. عبدالملك مرتاض، ص ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) المقامة (١٢)، ص ٧٠-٧٣. الأزاذ: نوع من التمر الجيد، السوادي: رجل من ريف العراق، القرم: الشهوة البالغة، الجوذبات: رغيف يخبز وفوقه طائر وقطعة لحم، السّماق: حب صغير أحمر حامض يعتبر من المشهيات، اللوزينج: نوع من الحلوى يتخذ من الخبز، ويسقى بدهن اللوز ويحشى بالنقل، الصَّارة: شدة الحر، يفثأ يكسر ويخفف.
انظر: اللسان، مادة: زاذ، سود، قرم، جوذ، سمق، صرر، فثأ.

(٣) المقامة (٢٩)، ص ٢٠٨-٢٠٩.



العسيبِ، قصير القضيبِ، قصيرُ العَضُدينِ، قَصيرُ الرُّسْغَينِ، قصيرُ النَّسَا، قصير الظَّهْرِ، قصير الوظيفِ))(١).

وهكذا يفسر سائر الأوصاف، غير أن هذا التفسير يحتاج إلى تفسير آخر، فقصير الشعرة: رقيقه فهو أجرد، والأطرة : ماأحاط بالظفر من اللحم، والعسيب: عظم الذنب، والعضدين عند الإنسان مابين المرفق والكتف، وعند الفرس مابين الكتف والركبة، والرسغين: المستدق بين الحافر والوظيف من يد أو رجل، والنسا: عرق يخرج من الورك ويصل إلى الحافر، والوظيف : مستدق الذراع والساق(٢).

وبديع الزمان متأثر باللغة الفارسية، وكان يجيدها ويترجم منها وإليها منذ كان صغيراً، ونراه يورد ألفاظاً فارسية، ويتأثر بالصياغة الفارسية أحياناً، وفي المقامة الصيمرية يقول: ((نتغذّى بالجدايَا الرُّضَّعِ، والطَّباهِجَات الفارسيَّةِ... وَنُقْلُنَا اللوزُ المقشَّرُ، والسُّكَّرُ والطَّبَرْزَدُ))(٣)، والطَّباهِجَاتِ: فارسي معرب ضرب من اللحم المقلي، والطَّبَرْزَدُ، السكر معرب.

ومن التأثر بالصياغة الفارسية قوله : ((وَهَبْ أنَّ هذا الرأسَ ليْسَ، وأنَّا لم نَرَ هذا التَّيْسَ))(٤).

فقوله : هذا الرأس ليس : أي غير موجود، ويقول د. مصطفى الشكعة : إن هذا التعبير مأخوذ من الفارسية(٥).

((وكان بديع الزمان بذيء اللسان، غائر الخصومة، يتضح ذلك من مقاماته، وقد أكد لنا أنه قاموس شتائم يعي منها مالايعيه غيره، وذلك في المقامة الدينارية، حيث يعلن عيسى بن هشام أنه سيتصدق بدينار على أشحذ رجل في بغداد، فيدعي أبوالفتح الإسكندري ذلك لنفسه، وينازعه فيه رجل آخر، فيطلب عيسى بن هشام أن

---

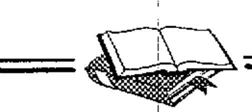
(١) المقامة نفسها، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) انظر: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٢١١-٢١٢.

(٣) المقامة الصيمريّة، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٤) المقامة (٣٣) : الحلوانيّة ، ص ٢٣٦.

(٥) بديع الزمان، ص ٧٤.



يشتم كل منهما صاحبه،ومَنْ غَلَبَ فله الدينار، فيقول أبوالفتح «يابَرْدَ العجُوز... ياوسَخَ الكُوزِ، يادرهماً لايجُوزُ ... ياسَنَةَ البوسِ، ياكوكبَ النُّحُوسِ، ياوَطْأَ الكابوسِ، ياتُخْمة الرءوسِ...»[١].

ويمضي على هذا المنوال في سباب طويل قبيح، ثم يرد الآخر فيقول: «ياكَلْبَاً في الهِراش، ياقِرْداً في الفِراش ... يادُخَان النِّفْط، ياصُنَان الإبطِ، يازَوَالَ الملكِ، ياهِلالَ الهُلْكِ...»[٢].

والغريب أن عيسى بن هشام أو بديع الزمان يعلق، فيقول: «فوا للهِ مَاعَلِمتُ أيَّ الرجُلين أُوثِرُ؟ ومامِنْهُما إلا بَدِيع الكَلَام»[٣] »[٤].

ويعمد البديع إلى الألغاز، واللغز لغة: حفرة اليربوع، واليربوع يلغز حجرته: أي يحفرها ملتوية مشكلة[٥]، ثم نقل هذا إلى معنى ذي شبه به، فقيل للذي يعمي كلامه: ألغز في كلامه ولغز.

وفي الألغاز التي أوردها بديع الزمان في مقاماته نرى استعارات رائعة مبتكرة، تدل على خصب الخيال، والقدرة على التصرف في المعاني وفي الصور، ومن ذلك قوله في المقامة البلخية يلغز عن الدينار: «فاستصحِبْ لي عَدوّاً في بُرْدَةِ صَدِيق، مِنْ نِجَار الصُّفْرِ، يدعُو إلى الكُفْرِ، وَيَرْقُصُ على الظُّفْرِ، كدارَةِ العَيْنِ، يَحُطُّ ثِقَلَ الدَّيْنِ، ويُنَافِقُ بِوَجْهَيْنِ»[٦].

وقد يأتي الحوار الأدبي في صورة ملغزة يتحير لها السامعون، ثم يجيب عنها فيكشف الأسرار ويحلّ الرموز، ويزيل الحيرة ويتملك الإعجاب كما في المقامة «العراقية والشعرية فنرجح أن يكون مرماهما تعليمياً، فقد أثار البديع أسئلة كثيرة في

---

(١) المقامة، ص ٣٧٥-٣٧٦.

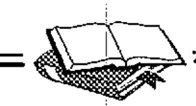
(٢) المقامة نفسها، ٣٨٥.

(٣) المقامة نفسها، ٣٨٨.

(٤) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي ، د. أحمد أمين مصطفى، ص ١٠٨-١٠٩.

(٥) أساس البلاغة، للزمخشري: مادة لغز.

(٦) المقامة (٣)، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد، ص ٢٢.



المقامة العراقية على طريقة تعليمية مكشوفة»[١]، حيث يورد أسئلة متتابعة محيرة يقف أمامها السامعون مدهوشين، ويسألونه تفسيراً لها، فيجيبهم حول أنواع من الأبيات الشعرية:

« أمّا البيتُ الذي سَمُجَ وضْعُهُ، وحَسُنَ قَطْعُهُ فقولُ أبي نُوَاسٍ :

فبِتْنَا يَرانَا الله شَرَّ عِصَابَةٍ ** تُجَرِّرُ أذيال الفُسُوقِ ولافَخْرُ

وأمّا البيتُ الذي لايَرْقَأ دمعُهُ فقول ذي الرُّمَّةِ :

مابال عَيْنِكَ منها الماء يَنْسَكِبُ ** كأنَّهُ من كُلى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ؟

فإنَّ جوامعَهُ: إمَّا ماءٌ، أو عَيْنٌ أو انسِكَابٌ، أو بَوْلٌ، أو نَشيئَةٌ، أو أسْفَلُ مَزَادةٍ، أو شِقٌّ، أو سَيَلانٌ.

وأمَّا البيتُ الذي يثقُلُ وَقْعُهُ فمِثْلُ قَوْلِ ابن الرُّومي :

إذا مَنَّ لم يَمْنُنْ بمَنٍّ يَمُنُّهُ ** وَقَالَ لِنَفْسي: أيُّها النَّفْسُ أمْهِلِي

وأمَّا البيْت الذي تَشُجُّ عرُوضُهُ، ويأسو ضَرْبُهُ فمثل قَوْلِ الشَّاعر:

دلَفْتُ له بأبيضَ مَشْرَفِيٍ ** كما يَدْنُو المصَافِحُ للسَّـــلامِ

وأمَّا البيْتُ الذي يَعْظُمُ وعِيدُهُ، وَيَصْغُرُ خَطْبُهُ فمثالهُ قولُ عَمْرو بن كُلْثُوم:

كأنَّ سُيُوفَنا مِنَّا ومِنْهُـمْ ** مَخَارِيقٌ بأيْدِي لاعِبِيـــنَا[٢]»

وفي هذا النقد دقة وتوضيح، حيث تظهر الاتجاهات المتنوعة للنقد الأدبي في نقد بديع الزمان، فنرى الاتجاه النفسي في حديثه عن النابغة، ونرى الاتجاه الخلقي في نقده لأبي نواس، ونرى الاتجاه اللغوي في نقده لابن الرومي، ونرى الاتجاه المعنوي في

---

(١) فن المقامات في الأدب العربي، عبدالملك مرتاض، ص ١٨٣.

(٢) مقامات بديع الزمان الهمذاني ص١٩١-١٩٦، الكلى : جلدة تحت المزادة، جوامعه: أي مايحتمل أن يجمعه البيت من المعاني، النشيئة: السحابة، المن : ذكر النعمة، دلفت له: أي سرت إليه، المخاريق: جمع مخراق وهو المنديل يلف ليضرب به. انظر: اللسان، مادة: جمع، نشأ، منّ، دلف، خرق.

نقده لعمرو بن كلثوم(١).

واستخدم الألغاز في غاياته التعليمية أيضاً في المقامة الشعرية، وموضوعها أن عيسى بن هشام كان في رفقة من أصدقائه في بلاد الشام يتذاكرون الشعر، فإذا بفتى يتسمع إليهم، وقد أثار ضجرهم، فأبعدوه عنهم، ثم عاد إليهم، وطلب منهم أن يسألوه في المعميات، فانهالت عليه الأسئلة وهو يجيب، وحين أفرغوا مافي جعبتهم شرع هو في سؤالهم بقوله: « عَرِّفُوني أيُّ بيتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وشَطْرُهُ يدفَعُ؟ وأيُّ بيتٍ كُلُّهُ يَصْفَعُ؟ وأي بيتٍ نصْفُهُ يَغْضَبُ؟ ونِصْفُهُ يَلْعَبُ؟ وأيُّ بيتٍ كُلُّهُ أجْرَبُ؟ وأيُّ بيتٍ عَرُوضُهُ يُحارِبُ، وضَرْبُه يُقَارِبُ؟ ...»(٢).

فظن القوم أن كل هذه المعاني جود تحتها ولامعاني تحتها، غير أنه عطف وأجاب على خمس قضايا منها، وترك لهم إعمال النظر في غيرها .

ونراه يستخدم طريقة مشابهة في مقامته المغزلية وفيها نرى فتيين يدخلان على عيسى بن هشام يتشكيان له، قالا الأول : « دَخَلَ هذا الفَتَى دَارَنَا، فأخذ فَتَجَ سُنَّار برأسه دُوارٌ، بِوَسَطِهِ زُنَّارٌ، وفَلَكٌ دَوَّارٌ، رخيمُ الصَّوتِ إنْ صَرَّ، سريعُ الكَرِّ إنْ فَرَّ، طويلُ الذَّيْلِ إنْ جَرَّ، نحيفُ المنطَّق، ضعيف المقرْطَقِ... الخ فَقَالَ الفَتى : نَعَمْ – أيَّدَ الله الشيخَ – لأنه غَصَبَني عَلَى :

مُرَهَّفٍ سِنَانُهُ ** مُذَلَّقٍ أسْنَانُهُ
أولادُهُ أعْوانُهُ ** تفريقُ شَمْلٍ شانُهُ
مواثِبٌ لصاحِبِهْ ** مُعَلَّقٌ بِشَارِبِهْ
مُشْتَبِكُ الأنْيَابِ ** في الشَّيبِ والشَّبَابِ
حُلْوٌ مليحُ الشَّكْلِ ** ضاوٍ زهيدُ الأكْلِ
رامٍ كثيرُ النَّبْلِ ** حَوْفَ اللُّحى والسَّبْلِ

(١) انظر: فن المقامة بين البديع والحريري .. والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص٧١-٧٢.
(٢) المقامة (٤٤): ص ٣٨٩-٣٩٠.



فقلتُ للأوَّلِ: رُدَّ عليهِ المشْطَ ليردَّ عَلَيْكَ المغْزَلَ»[(١)].

وهكذا نرى الأوصاف الأدبية في صورة ألغاز بصورة مشرقة تعكس مظاهر الطبيعة والحياة كوصف المشط والمغزل .

أما **ابن نباتة** فقد سار على خطى البديع في كتابة مقامته، في اللجوء إلى الغريب، فأنت لاتستطيع أن تقرأها دون أن تعود إلى القواميس؛ لمعرفة لفظة هنا وأخرى هناك، وإن كان الغالب عليها هو السلاسة، وقد ذكر ابن نباته سبب ذلك؛ وهو أن بطله وضع من أول المقامة إلى آخرها؛ ليظهر بصورة من له معرفة ودراية بالألفاظ، وتمكن من العبارات، لذا كان هو الحكم، وهو الفيصل في إصدار الأحكام على مايقوله المنشدون حسناً كان أو قبيحاً، يقول ابن نباته في مقامته: «فَاسْتَحْسَنَ القومُ رِوَايتَهُ، وَأعْجَبَتْهُم دِرَايته، فقالَ السَّائِلُ السَّابِقُ: للهِ دَرّ مَوْلاَنا لَقَدْ أَتى بعبارةِ لَفْظِهِ الفَائِق، بما أدهشَ العقولَ، وَحَيّرَ ألبابَ الْفُحُولِ»[(٢)].

أما مايدلل على ذكره للغريب فقوله :

« قَالُوا فَالْوَرْدُ أَحْمرُهُ عَليهِ مزود ** وَمفتحاً بِالطيبِ ثَوْبٌ مُذَهّبُ

وَكَذاكَ أبيضُــهُ كَأنَّ قَميصَهُ ** وَهو المطّيب لِلنسيمِ مُطَيّبُ»[(٣)]

ومع هذا نجد ابن نباته نفسه يعيب على من يلجأ إلى ذلك، وينقده على لسان بطل مقامته، بعد أن رأى استحسان الحاضرين للبيتين السابقين، فيقول: « إِنَّه أَقْرَبُ إلى ركوبِ الوعرِ السّهلِ، وَأَخُو الحلمِ يُظَنُّ بهِ الجهلُ، وإلاّ فَمَا موجبُ هَذا التَّحَرِّي، وَالأَوْلَى التَّنصلُ مِنْهُ والتَّبري»[(٤)].

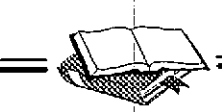
---

(١) المقامة (٣١)، ص٢٢٥-٢٢٦، الفنج: دابة يتخذ من جلدها فراء، السنار: السنور وهو الهر، المنطق: مكان النطاق، المقرطق: مكان القرطق وهو ثوب ذو طاق واحد، حوف : يأتي من حوافيها، السبل: السبلة وهي ماعلى الشارب من الشعر. انظر: اللسان، مادة : فنج، سنر، نطق، حوف، سبل.

(٢) مقامة ابن نباتة السعدي، ص١ من المخطوط.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣ .

(٤) المقامة نفسها، ص٤.



ومن بعض ماذكر من الغريب، قوله: ((فتحققَ الشّيخُ وُجودَ إحجامي، مَعَ عَدم إسْرَاجي وَإلجَامِي، فقالَ: مَاهَذَا التَّخَلُّف عَنْ التخلّقِ بأخلاقِ الْقَوم))(١).

وواضح من خلال المقامة أن ابن نباته له معرفة واسعة بالشعر، بل قُل بالعلوم كلها، ولاأدل على ذلك من طرحه الاثنتيعشرة مسألة لكل متخصص فيهابسؤال، إلا أنهم لم يعرفوا الإجابة عليها،يقول في ذلك:((فلمّا انقضَى الأجل،وقَدَ تَسَاوى في عدم الجوابِ البطءِ وَالْعَجل،...شَمَّرَ لرحيلهِ الذّيل، وقَالَ: قَدْ زِدْتكم عَلَى الأَجْلِ اللّيل))(٢).

والأسئلة التي أوردها محيرة؛ لذا لم يجب عليها؛ دلالة على أنه يعرف غموضها، ويقصد إليه، و لم يفسرها – كما كان يفعل البديع – ليذهل الناس، ويملك إعجابهم، وينتزع اعترافهم بتفرده.

ومن أسئلته : ماكلماتٌ متفقٌ عَليّها معَ خلّوهَا مِن حروفِ الإعراب، وَهي موجودَة في كلامِ فُصَحاءِ الأَعْراب؟ ماقافيتان اتفقتا في بيتٍ مَعَ اختلافهما في الردفِ والتجريدِ، والروي والإطلاقِ والتقييدِ؟ ماالأسماءُ التي اتفقَ فيها المذكرُ والمؤنثُ، والأبُ واحدٌ في التعريف؟ ماالحقيقةُ؟ وماتشتملُ عليهِ مِنْ الطّرائق؟ وَمَا المجازُ ، وَمَاتحتهُ مِن الحقائقِ؟ مَاالمعنى الذي لَهُ وَجْهَان يحسنُ أحدهما إلى الاختيارِ، ويقبحُ الآخر في الاضطرارِ؟ مَامثلُ قولِكَ اطلبْ مَحَجة؟(٣)

وكذا **ابن ناقيا** عمد إلى الغريب كسابقيه – الهمذاني، وابن نباته – تحدياً كما أشار إلى ذلك في مقدمة مقاماته فقال: ((هذهِ حكاياتٌ أَحْسَنَّا العِبَارةَ فِيهَا، وَهذّبْنَا ألفاظَها، وَمَعَانِيها، وَجَلَوْنَهَا في حُلَى الْبَلاغَةِ عَلَى سَامِعِيهَا، وَرَاويها،وَقَدْ سَلَكَ بعضُ المتقَدّمينَ هَذَا المذهب في مثلها؛ رِيَاضةً لِلخاطرِ، وَتحدّياً للقريحةِ غَير نَاثِلِ)).

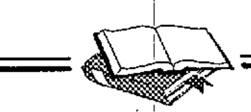
وقد قصد ابن ناقيا أن يورد الغريب في مقاماته، بدليل أنه يعود فيذكر تفسيراً لتلك الألفاظ الغريبة في نهاية بعض مقاماته، فيقول: ((تفسير ألفاظ من هذه المقامة))، ذكر ذلك في نهاية المقامة الثانية، وفي نهاية المقامة الثالثة قال: ((تفسير مواضع من هذه المقامة)).

---

(١) المقامة نفسها، ص ٦ .

(٢) المقامة نفسها، ص ١٠.

(٣) انظر: المقامة نفسها، ص ٨ .



وهذا بعض مما جاء من الغريب، فها هو ذا يقول: ((فَنَاوَلْنَاهُ ذَنُوباً من الطّعام، فنضحَ عَلَى سوامح لخصه، وَجَوارح قَنْصِهِ، ثُمّ حَنَا عَلَى ركبتيه، وَجَرْدَبَ بيدَيه))[١]، فيقال: جردب بيديه: إذا ستر بها الأخرى فأكل، قال الشاعر :

إذا ماكنت في قوم تهاوى ** فلاتجعل يمينك جردبانا

ويقول في مقامة أخرى : ((أعينوا السائل المبتلى، والزمن الأعمى، ولو بثعروق التمرة))[٢]، فثعروق التمرة: قمعها .

وكذا **الحريري** استخدم – كسابقيه – في صياغة أسلوب مقاماته لغة متينة أنيقةً أحياناً، وغريبة ثقيلة أحياناً أخرى؛ إلا أن الغريب من أبرز خصائص أسلوبه، حتى غدا هذا الكاتب مضرب الأمثال في هذا المجال .

والحق أن أسلوب الحريري ليس عسير الفهم ولاغامض المعنى حين كان يكتب طبيعياً. وإنما الغرابة كل الغرابة، والغموض كل الغموض، حين كان يطلب من الأمر مستحيله، فيتعلق بفنون من القول غريبة في حد ذاتها، كأن يأتي بكلام يقرأ من أوله كما يقرأ من آخره، كما نجد ذلك في المقامة المغربية وهذا مايسميه البلاغيون بالقلب[٣]، أو كأن يبالغ في التجنيس، وهذا كثير لايأتي عليه الحصر، وإنما نمثل بالمقامة الفراتية، أو كأن يغرق في طلب التورية ونحوها.

ومن قوله في المقامة المغربية: ((كَبِّرْ رَجَاء أَجْرِ رَبِّك))، ((مَنْ يَرُبُّ إِذَا بَرَّ يَنُم))، ((سَكِّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكِسْ))[٤]، فهذا شيء يكتب ولايقرأ، أو أنه يكتب ويقرأ لبذخ عقلي بحت، ولكنه لايستطيع أن يتبوأ من أي قلب، مهما بلغ من حرمان الذوق الأدبي الأصيل، ومهما وصل في الفهم والذكاء والقدرة على هضم المعاني والأفكار، فهي ألفاظ أغرب من متن ((مختصر الخليل)) و((ألفية بن مالك))، يقول د:عبدالملك مرتاض : ((فمثل هذه العبارات التي كان يضمنها الحريري مقاماته، على أنها سمو

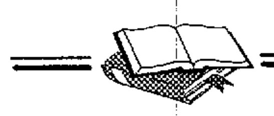
---

(١) المقامة (٣): المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٧ من المخطوط .

(٢) المقامة (٤)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٩ من المخطوط .

(٣) انظر: علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص٤٢، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

(٤) المقامة (١٦)، ص ١٢٣، تحقيق: يوسف بقاعي .



العبقرية، لاتصلح للصبيان، ولاللنساء، ولا للرجال، ولا للعلماء باللغة أنفسهم، لأنهم لايجدون فيها معنى ذا بال. فإذا كان الحريري إنما جاء ببعض هذا ليدل على طول باعه في الغريب ويبدي براعته في فتق أسرار المهمل والممات، وفي استغلال العناصر اللغوية على اختلاف طرقها وتشعب دروبها، فقد كان غنياً عن هذا، بما كتب في بعض مقاماته الأخرى، من أدب رفيع أصيل.

وإذا كان إنما جاء به ليرينا أنه قادر على أن يأتي بما لم يكد يأتي به الأوائل من الكتاب العرب، فقد أخطأ وحرم التوفيق؛ لأن عبقرية الأدباء لاتتفاوت في الإغراب والتعمية على الأفهام، والتضليل على العقول، ولكن عبقريتهم تتفاوت في القدرة على الإفهام، وحسن التبيين، وجودة التصوير، وسهولة التعبير))[1]، وأرى أن رأي الدكتور مرتاض فيه نوع من المبالغة.

وها هو ذا الحريري يقول في المقامة السنجارية : ((وكلّما رأى مِنّي ازْدِيَاد الاعْتِيَاص، وارْتِيَاد المَنَاص، تَجَرَّم وتَضَرَّم، وحَرَّقَ عليَّ الأُرَّم))[2]، فكل من الاعتياص، وتجرم، والأرم، ألفاظ غريبة، لأنها تضطر المرء إلى التفكير في أصول مشتقاتها؛ إذ كان ((الاعتياص)) آتيا من عاص الشيء عياصاً وعوصاً إذا اشتد، وتأبى.

وأما ((تجرم)) فإنها تقف أمامك عقبة كأداء في سبيل الفهم؛ لأن التجرم يكون لمعنيين مختلفين، أحدهما : اكتساب الذنب بمحض الإرادة الشخصية. وثانيهما: الاحتياط من الوقوع في الأثم. وأقربهما وجهاً في هذا المقام المعنى الأول. يفسر ذلك وجود ((تضرم)) الذي يدل على استعار الغضب، واشتداد الغيظ.

أما ((المناص)) فيستعمل غالباً مع ((لا)) النافية للجنس، ولايكاد يتجاوز به غير ذلك، على حين أن الحريري اصطنعه في نحو آخر من القول فنبا بعض النبو، فغرب على الأفهام، وثقل بعض الثقل. إلا أن ذلك كله لايقاس بلفظ ((الأرم)) الذي لايماثله غرابة أي لفظ في العربية.

فقد شق على الشراح فغدوا يضطربون في تفسيره كل مضطرب، ومرد ذلك

---

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) المقامة (١٨): ص١٣٩، تحقيق: يوسف بقاعي.



أن أصل وضعه اللغوي يدل على عدة معان أهمها: الأنيـاب، والأضـراس، والحجـارة، والأصابع. والمراد به هنـا الأضـراس، أو الأنيـاب، لأن الرجـل إذا اشـتد غيظـه، صـك أسنانه صكاً حاداً.

ولكن من العسير جداً علـى القـاريء العـادي أن يـدرك معنـى الأرم في عبـارة الحريري لأول وهلة، وبدون أن يستشير أمهات المعاجم العربية[1].

ونقول : إن لجوء الحريري، وسواه من كتاب المقامة، إلى الغريـب، سمـة بـارزة لديهم جميعاً من وجهة نظر أي قاريء في عصرنا الحاضر، للبون الشاسـع بين عصرنـا وعصرهم، ودخول كثير من المفردات غير العربية على لغتنا، فلايكاد قاريء الآن يقرأ قصيدة من قصائد العصور الأولى؛إلا ويعود إلى المعاجم العربية لمعرفة بعض المعاني،فمـا بالك بمن تعنّ وبحث عن الغريب ليضعه بـين ثنايـا مقاماتـه كـالحريري،ولاينطبـق هـذا القول على كل مقاماته،بل البعض منها،والبعض الآخر على مستوى كتاب عصره آنذاك.

ولما كان الحريري ذا علم وفير، وسعة اطلاع لامثيل لها، ودراية بالغة ودروبهـا تجده يكتب مقامة تقـرأ مـن آخرهـا، كمـا تقـرأ مـن أولهـا، كمـا في المقامـة المغربيـة، والقهقرية، ومما يدل على سعة معرفته باللغة، وألفاظها، ذكره للكثير من أسماء الخمـر، فمرة قال: ((مطا الكميت)): سميت كميتـاً لأنهـا حمـراء إلى الكمتـه، و((الخندريـس)): الخمـر القديمـة، ((والصهبـاء)): الخمـر الـتي عصـرت مـن عنـب أبيـض[2]، والعقـار[3]، والمدام[4]، والسلاف: الخمر العتيقـة، ماسـال منهـا مـن غـير أن تعصـر، وهـي أفضـل الخمر، وبنت الخابيـة، والطـلاء[5]، والعجـوز[6] مـن أسمـاء الخمـر، والغيـداء[7]، وهـو المسكر المتخذ من الذرة .

---

(١) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، د.عبدالملك مرتاض، ص٣٦٩-٣٧٠.

(٢) المقامة (٤٨): الحرامية، ٣٠٧/٥، شرح الشريشي.

(٣) المقامة نفسها، ٣٠٦/٥، شرح الشريشي.

(٤) المقامة نفسها، ٣٠٨/٥، شرح الشريشي.

(٥) المقامة (٤٤): الشتوية، ١٥٧/٥، شرح الشريشي.

(٦) المقامة نفسها، ١٦١/٥، شرح الشريشي.

(٧) المقامة نفسها، ١٦٣/٥، شرح الشريشي.

كما اشتملت مقامات الحريري على طائفة ضخمة من الألغاز، التي تناولت في معظمها ألغازاً لفظية، وقد يأتي هذا الإلغاز في النثر،أو في الشعر، ومن ذلك قوله يصف الدينار مادحاً ثم ذاماً، وفي ذمه يقول في مطالع أبياته:

«تباً لَهُ مِنْ خَادِعٍ مُمَاذِق ** أصْفَرَ ذِي وَجْهينِ كالمُنَافِق
يَبْدو بِوَصْفَين لِعَيْن الوامِقِ ** زِينَةِ مَعْشُوقٍ ولَوْنِ عَاشِق»[1]

ومن ألغازه قوله في المقامة القطيعية:« فَما كَلِمَة هِي إنْ شِئْتُم حَرفُ محبُوب، أو اسْمٌ لِما فِيه حَرْفُ حَلُوب»[2] المقصود بها كلمة(نعم)، إن أردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهي حرف، وإن عنيت بها الإبل فهي اسم والنعم تذكر وتؤنث، ويطلق على الإبل، وعلى كل ماشية فيها إبل، وفي الإبل الحرف، وهي الناقة الضامرة، سميت حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف، وقيل : إنها الضخمة تشبيهاً لها بحرف الجبل[3].

وقوله :«وأيّ اسْمٍ يتردّد بيْن فَرْدٍ حَازِم، وجَمْعٍ مُلاَزِم»[4].أما الاسم فهو: سراويل، قال بعضهم هو واحد، وجمعه سراويلات. فعلى هذا القول هو فرد، وكنى عن ضمه الخصر بأنه حازم،وقال آخرون:بل هو جمع واحده سروال،مثل شملال وشماليل،وسربال وسرابيل،فهو على هذاالقول جمع.ومعنى قوله ملازم :أي لاينصرف، وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع ثالثه ألف، وبعدها حرف مشدد أو حرف أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لنقله وتفرده دون غيره من الجموع بأن لانظير له في الأسماء الآحاد[5]. ونكتفي من الأحاجي والألغاز النحوية بهذا.

ومن الألغاز قوله في مقامة أخرى أورد فيها عشرين لغزاً، كل لغزٍ منها يتناول مضموناً لغوياً في بيتين اثنين:

---

(١) المقامة (٣): الدينارية، ص ٣٢، مماذق: لايصافي الود. انظر: اللساف، مادة : مذق.
(٢) المقامة (٢٤)، ص ١٨٢.
(٣) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ١٨٦.
(٤) المقامة نفسها، ص ١٨٢.
(٥) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ١٨٦ .

((يَامَنْ سَما بِذَكَـــاءٍ ** ـِفي الفَضْلِ وارِي الزِّنَادِ
مَاذَا يُماثِـــلُ قَوْلـــي ** جُــوعُ أُمِدَّ بِـــزادِ))(١)

فمثل : جوع أمد بزاد : طوامير(٢).

واللغز الثاني ، قوله :

((ياذَا الَّذي فَاقَ فَضْلاً ** ولمْ يُدَنِّسْـــه شَـــيْنُ
مامِثْلُ قولِ المُحَاجِـــي ** ظَهْـرٌ أَصَابته عَـــيْنُ))(٣)

فمثل : ظهر أصابته عين : مطاعين(٤).

واللغز الثالث ، قوله :

((يامَنْ نَتَائِجُ فِكْـــرِه ** مِثْلُ النُّقُودِ الجَائِـــــزَهْ
مامِثْلُ قَـــولِكَ للَّـذِي ** حاجَيْتَ صَادِفَ جَائِزه))(٥)

فمثله : الفاصلة(٦)، يقول د. عبدالملك مرتاض: ((فإن المراد بهذا أن يجد القاريء عبارة تؤدي معنى ((صادف جائزه)) بلفظ واحد فقط، وقد مثل الحريري لذلك نفسه، بهذه العبارة ((الفاصلة)).

ووجه الحريري في ذلك، فيما يبدو، أن ((ألفا)) بمعنى وجد، و ((صلة)) بمعنى جائزه أو عطيه، فـ((الفاصلة)) إذن تماثل كل المماثلة، في رأي الحريري، ((صادف جائزة)).

والحق أن هذا الوجه لايعدم تعسفاً وتكلفاً، بل ضلالاً؛ لأن أصل معنى

---

(١) المقامة (٣٦): المالطية، ص ٢٧٨.
(٢) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.
(٣) المقامة والصفحة نفسها.
(٤) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.
(٥) المقامة والصفحة نفسها .
(٦) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.

((الفاصلة)) إنما هو الحائلة التي تحول بين شيئين، ومنه الإشارة المعروفة في الكتابة لأنها تفصل بين جملتين. أما إذا أردنا إلى ((الفاصلة)) بقطع همزة الألف، فإن ذلك يعني كلمتين اثنتين ومعناهما ظاهر، وهو الفاصلة، أي ألفا عطية. أما أن يريد الحريري إلى ((الفاصلة)) في صورتها هذه الاسمية، ثم يزعم أنها تؤدي معنى : ((صادف جائزة)) فإن ذلك لايخلو من تعسف ظاهر.

لأن الفعل الذي يؤدي معنى صادف أداء تقريبياً، إنما هو ((ألفى)) بالألف المقصورة، فإن الألف إذا مدت، ينتج عنها مثنى ألفٍ مرفوع مضاف، فالمعنى إذن: ((الفاصلة))، وهو غير ((صادف جائزة)) واحدة.

فحل اللغز من هذه الناحية فاسد لايستقيم.

وكيف يمكن أن نحمل فعلاً ما لايحتمل، فنغير صورة كتابته المعروفة لندلل به على شيء لايؤديه؟ فإن الأفعال الرباعية المعتلة إنما تكتب بالألف المقصورة. وقد عدل عن كل ذلك في صورة هذا اللغز الذي وجدناه متعسفاً. إن لفظ ((ألفا)) الذي اقترحه الحريري كحلٍ للغز المراد من قوله: ((صادف جائزة)) لايعني شيئاً، ولألحح، لأن ((ألفا)) إذا كتبت بالألف، فمعناها مثنى ألف، وهو العدد المعروف الذي يعني عشر مائة، ومابعد ((ألفا)) نتيجة لذلك مضاف إليه، والمضاف إليه يكون مجروراً، وليس مفعولاً لـ((ألفى)) الذي يريده الحريري بقوله: ((الفا)).

فحل اللغز يجب أن تكون الألفاظ فيه مؤدية لوظائفها الطبيعية دون أن يطرأ عليها طاريء يشوش نظامها))(١).

ومن ألغاز هذه المقامة قوله :

((أيَا مُسْتَنْبطَ الغَا ** مِضَ منْ لغزٍ وإضْمَار
ألاَ اكْشِفْ لي مِامِثْلُ ** تَنَاوُلْ ألفَ دِينَارِ))(٢)

فمثل : تناول ألف دينار: هادية(٣)، ((وجهه في ذلك أن ((ها)) تكون اسم

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٤٢٧-٤٢٨.
(٢) المقامة والصفحة نفسها .
(٣) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.

فاعل أمر بمعنى خذ، والدية مايقدم لأهل القتيل. وقد كـان معروفـاً لديهـم أنهـا ألـف دينار. فعبارة ((هادية)) تؤدي معنى ((تناول ألف دينار)) في لغز الحريري.

ومع ذلك فإن الذي يتنـاول ألـف دينـار ويعطوهـا، ليس كـالذي ينـال الديـة ويأخذها. فقيمة الدية تختلف باختلاف القتيل، وتتغير بتغير الزمان، فهي ليسـت ألـف دينار منذ كان الناس إلى أيام الحريري، على حين أن ألف دينـار تظـل هـي هـي، وإن تغيرت قوتها الشرائية من زمان لزمان.

ولكن حل اللغز هنا مقبول إلى حد ما))(١).

ولعلك لحظت أن حكم د.مرتاض على حلول الألغاز بفساد الـرأي أو عكسه قائم على الشروح، والشروح التي تناولت مقامات الحريري كثيرة، بـل كثـيرة جـداً، وقد تتفق وتختلف، وإلا ماستظهر للقراء على اختلافها واتفاقها؛ ليجدوا جديداً فيها.

وفي مقامة أخرى قال على لسـان الـراوي الحـارث بـن همـام: ((كُنَّـا نَتَنَـاضَلُ بالألْغَاز، كَمَا يتناضَلُ يَوم البِرَاز))(٢)، فدخل عليهم أبوزيد السروجي، وعدوه فضولياً، إلا أنه قال: ((هَلُمَّ إِلَى أنْ نُلْغِز، ونُحَكِّم المُبَرِّز))(٣)، وأنشدهم ملغزاً في مروحـة الخيـش، وفي حابول النخل، وفي القلم، وفي الميل، وفي الـدولاب، وفي المزملـة، وفي الظفـر، وفي طاقة الكبريت، وفي حلب الكرم، وفي الطيار، وهذا ماأنشده ملغزاً في القلم:

((ومأمُومٍ بِهِ عُرِفَ الإمَامُ ** كَمَا بَاهَتْ بِصُحْبَته الكِـــرَام
لهُ إذْ يَرْتَوِي طَيْشَانَ صَـادٍ ** ويَسْكُنُ حِين يَعْـــرُوه الأوَامُ
ويُذْرِي حِيْن يُسْتَسْعَى دُمُـــوعاً يَرُقْن كَما يَرُوقُ الابْتِسام))(٤)

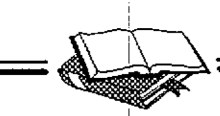
---

(١) فن المقامات في الأدب العربي، د.عبدالملك مرتاض، ص ٤٢٩.

(٢) المقامة (٤٢): النجرانية، ص ٣٢٠.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٣٢٢. الصادي: العطشان، الأوام: العطش، يذري: يسكب، يستسعى: يطلب منه السعي. انظر: اللسان، مادة : صدى، أوم، ذرى، سعى.



وفي المقامة البكرية يصف نعلاً وكأنها ناقة، ويقول: ((مَنْ ضَلَّتْ لَهُ مَطِيةً خَضْرَمِيّة وَطِيّة، جِلْدُها قَدْ وُسِم، وعَرُّها قَدْ حُسِم، وَزِمَامُها قَدْ ضُفِر، وظَهْرَها كَانَ قَدْ كُسِر ثُمّ جُبِر، تَزينُ المَاشِية، وتُعينُ النَاشِية، وتقطعُ المَسَافَة النَّائِية، وَتظَلُّ أبداً لك مُدَانِية، لاَيعَتْورُها الوَنَى، ولاَيعْتَرِضُها الوَجَى، ولاتَحوجَ إلى العَصَا، ولاتعْصَي فيمَنْ عَصَى))[1].

ومن الألغاز الشعرية قوله في المقامة الشتوية:

((عِنْدِي أَعَاجِيبُ أَرْوِيَها بِلاكَذِبِ ** عَن العِيانِ فكنُونِى أَبَا العَجَبِ
رأيْتُ يَاقَوم أقْواماً غِذَاؤُهُم ** بَوْلُ العَجُوزِ وَمَاأَعْنِي ابنَةَ العنب
وَمُسْتنِينَ مِن الأَعْرابِ قُوتُهُمُ ** أَنْ يَشْتَوَا خِرْقَةً تغنى مِنْ السَّغَب
وقَادرِين مَتَى ماسَاءَ صُنْعُهُم ** أو قَصّروا فيهِ قَالُواالذّنْبُ للحَطَب))[2]

وأراد ببول العجوز : لبن البقرة، وابنة العنب: الخمرة[3].

وهذا **النعماني** يلحظ لجوؤه إلى الغريب من بداية مقامته حيث يقول: ((حَدَّثَني بعضُ الإخوانِ، قالَ: نشتْ بي قراراتُ الكرمِ ببغدان، لِتَواتُرِ نوَب الزَّمانِ، واخْتلافِ أربابِ السُّلطان، وَأنَا يَومئذٍ ذُو غلّ قَملٍ ... فَشَحَذْتَ غرارَ العَزْمَةِ في ركوبِ غَارِبِ الغُرْبةِ...))[4].

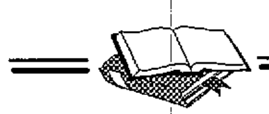
---

(١) المقامة (٤٣)، ص٣٣٢. وطية: ذلول لراكبها، العرّ: العيب، الناشية: الجارية الحديثة السن، يعتورها: يصيبها فترة بعد أخرى، الونى: الفتور والضعف، الوجى: ألم في الرجل. انظر: اللسان، مادة: وطأ، عر، نشى، عور، ونى، وجى.

(٢) المقامة (٤٤)، ص ٣٤٧. المسنتون: من أصابتهم السنة المجدبة، الخرقة: القطعة من الجراد، السغب: الجوع، القادرون : فالقادر: الطابخ في القدر هنا. انظر: اللسان، مادة: سنت، خرق، سغب، قدر.

(٣) انظر: اللسان، مادة: بول، عنب.

(٤) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ٤-٥.



فأما قوله: نشتْ : أي أخذ ماؤها في النضوب، وأما الغل: فهو جامعة توضع في العنق أو اليد، ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق: غل قمل، وأصله أن الغل عليه شعر فيقمل[١].

وانظر إلى قوله في المقامة نفسها : ((أَنَا إليكَ مُرتَكَن، وَأَنتَ ببذلِ المجهودِ في النصحِ زَكِنْ، فقالَ: مَاعَرَا؟ فقلْتُ: كُلّ العبيدِ في جوفِ الفِرَا، فقالَ: هَات ، وَدَعْ التّرَهَات... ارتد بقعةً تتخذُهَا نجعةً...))[٢].

لعلك لحظت أن بعض الألفاظ تحتاج إلى توضيح، مثل قوله زكن: أي عالم، والفرا: أي الحمار الوحشي، والترهات: الأباطيل، ونجعة: طلب الكلأ في موضعه[٣].

كما أنه يعمد إلى الألغاز في مقامته، فيقول: ((وبدت لنا الأعلام الشيرازية، وتلفت آمالنا العوارف العمادية فأنشدته مرتجزاً، وقلت له ملغزاً :

أتلكَ قبيباتَ عَنْ الحى تمتازُ؟ ** أَم الظّعنُ في أعلَى الثنيةِ تجتازُ؟

أَجِلْ نَاظِرَا، يَاسَعْدُ، بِالغورِ، وَاتّئد ** لِئلاَ يقولَ الغيدُ: سفر وَنَشازُ

وكُنْ نَاشِداً بِالدو قلبَا فنصنَهُ ** ظباءُ جَوازٍ قَدْ حَوَتْهُنّ أجوازُ

خَرائدُ أمثالِ الدُّمَى تَصْطَبِى الْفَتى ** لهنّ صُدوُرَ عَالِياتَ وَأَعْجَازُ))[٤]

لحظنا أن البديع ومن سار على خطاه بعد دراسة معجمهم اللغوي وجدناه تميز بهذه الميزة، فإما غريب، وإما أنيق من اللفظ، أما الغريب فقد استعرضنا طائفة من الأمثلة عنه، وأما الأناقة اللفظية والتي هي إحدى الخصائص اللازمة لأسلوب هذا الفن -المقامة- فهي ألفاظ في معظمها مغربلة منقحة مختارة، وموضوعة وضعاً دقيقاً في سنن الكلام.

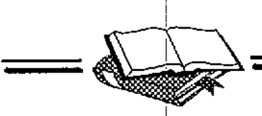
---

(١) انظر: اللسان، مادة: نش، غل.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص٦.

(٣) انظر: اللسان، مادة: زكن، فرا، تره، نجع.

(٤) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ١١.



ومقامات **الزمخشري** ومن كتب على طريقته، نجد صياغة أسلوبها تمتاز بهذه الميزة التي هي الأناقة في الألفاظ.

كما أن كثيراً من ألفاظ المقامات التي كتبت على خطى الزمخشري، ألفاظ شعرية لاينقصها إلا الوزن، ويقصد بالألفاظ الشعرية هنا، تلك الألفاظ التي تشبه في رقتها برد السحر، وانسياب الماء في الجداول الصافية. وها هو ذا الزمخشري يقول في مقامة المراشد: ((إِنَّ خِصَالَ الخَيْرِ كَتُفَّاحِ لُبْنَان، كَيفَمَا قَلَّبْتَهَا دَعَتْكَ إِلى نَفْسِهَا، وإِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدان، أنَّى وَجَّهْتَهَا نَهَتْكَ عَنْ مَسِّهَا، فَعَلَيْكَ بِالخَيْرِ إِنْ أَرَدْتَ الرُّفُولَ فِي مطَارِفِ العِزِّ الأَقْعَس، وَإِيَّاكَ والشَّر، فَإِنَّ صَاحِبَه مُلْتَفٌّ فِي أَطْمَارِ الأذلِّ الأَتْعَس. أَقْبِل عَلَى نَفْسِكَ فَسُمَّهَا النَّظَرَ في العَوَاقِب، وبَصِّرْهَا عَاقِبَةَ الحَذَرِ المُرَاقَب. ونَاغِهَا بِالتَّذْكِرَة الهَادِيَة إِلى المَرَاشِد، ونَادِهَا إِلى العَمَلِ الرَّافِع والكَلِم الصَّاعِد))[1].

إن ألفاظ هذا النص من مقامات الزمخشري، تبين لنا أن الكاتب قد انتقى ألفاظه انتقاءً دقيقاً، بحيث إن هذه الألفاظ في معظمها أصلح ماتكون لأن يقرض بها أجمل الشعر وأرقه، يقول الدكتور/ عبدالملك مرتاض: ((وتأمل هذا التعبير بوجه خاص: ((عَلَيْكَ بِالخَيْرِ إِنْ أَرَدْتَ الرُّفُولَ في مَطَارِف العزِّ الأَقْعَس، وإيَّاكَ والشَّر، فَإِنَّ صَاحِبَه مُلْتَف فِي أطمَارِ الأذلِّ الأَتْعَس)) تجد أن ((الرفول)) و((المطارف))، و((العز الأقعس))، و((ملتف في أطمار الأذل الأتعس)) من الألفاظ الشعرية التي لاتستقيم إلا لأكبر الشعراء حظاً من الطبع الصافي، والذوق العالي، إلى جانب مافي هذه الصورة من مقابلة بين الجملتين. فإنها من حيث ألفاظها صورة شعرية جميلة لايعدمها إلا الوزن.

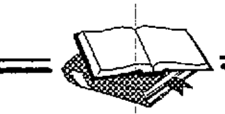
وتأمل ((ناغها)) تجده لفظاً شعرياً من ألفاظ الغزل الرقيق، وقد قال جابر بن ثعلب الطائي :

كأن الفتى لم يعرَ يوماً إذا اكتسى ** ولم يكُ صُعلوكاً إذا ماتَعَوَّلاَ
ولم يكُ ذا بُوسٍ إذا باتَ ليلةً ** يُناغي غزالاً ساجِيَ الطَّرْفِ أَكحَلا))[2]

---

(١) المقامة (١)، للزمخشري، ت: يوسف بقاعي، ص٢٥-٢٨.

(٢) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣٧٨.



أما **الأسواني** فيلجأ إلى الغريب، مما يوقع القاريء في الغموض، ومن ذلك قوله: ((أَرَى مُلاَزمةَ الوطَنِ؛ مجْلَبَةً لِلأفن، وَمشبهةً لأدْرَاع الكَفَن، حَتَّى فَلَوتُ الْفلَوات تشريقاً وتغريباً وأبدتُ قُوَى البيدِ آساداً وتأويباً ... فَلَمَّا نَزَلْتُ بالخصيبِ أَلْفيتُ بِهَا مِنْ وُجُوه الأَدَبِ وَعُيونهِ، وَيَنَابيعِ الْعِلْمِ وَعُيونِهِ مَاأَظْفَرَني قُصْوَى الطَّلَب...))[1].

أما قوله: ((مجلبة للأفن)) فأفن الرجل أفنا نقص عقله[2]. وكذلك في قوله: ((لقد طاشتْ عَنْ الغرضِ سِهَامُكم،وَكَثُرَ في الهذرِ كَلاَمُكُمْ،وَشَغلْتمُ أَنْفُسَكُمْ بِالتّرَهَات))[3].

وكذا **ابن الجوزي** الذي عمد إلى ماعمد إليه كتاب المقامة في صياغة أسلوبهم، فهي لغة متينة أنيقة أحياناً، وغريبة ثقيلة أحياناً أخرى، تأمل معي غرابة قوله : ((احذرْ إبليس هذه الطَّائفة ... إنَّ أحدَهم يكونُ أَملَقَ مِنْ سَمْلَق، فَيَحتالُ علَى الدّنيا حِيلَةَ العُمروطِ، فيصير بعدَ مصائبِ النَّصائِبِ فِي بُلَهنيةٍ مِنْ العَيْشِ وَرَفهنيةٍ. فَإذَا بِالْعَرصمِ علوكٌ قَفَاخِر، وَإنْ طلَبَ الدّنيَا بِالْقَنَا وَالدبوس))[4].

لعلك لحظت أن كثيراً من ألفاظ هذا النص تقف أمامها لغرابتها، وهي لمعان معروفة، كان في إمكانه استعمالها، إلا أنه عمد إليها عمداً، واصطنعها اصطناعاً، وكان في سعة من أن يعتاض عن ((سملق)) بالأرض القفر، وعن ((العمروط)) باللص، وعن قوله ((بلهنية)) بالنعمة، وعن ((رفهنية)) بالرفاهية، وعن ((العرصم)) باللئيم، وعن ((علوك)) بقوله سمين، وعن ((قفاخر)) بالعظيم الجثة.

وها هو ذا يستعرض مقدرته اللغوية في مقامته الأولى، فيقول : ((تَعَالَى -ا لله- عَنْ بعضيةِ مِنْ، وتقدَّس عَنْ ظرفيةِ فِي، وَتنَزّه عَنْ شبهِ كَأَن، وَتقدّسَ وتعظّمَ عَنْ نقصِ لَوْ أَنَّ، وَعَزّ عَنْ عيبِ إلاَّ أَنَّ، وَسَما كَمَالُهُ عَنْ تدَاركِ لكنَّ))[5].

---

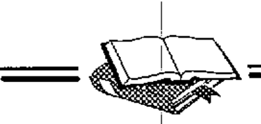
(١) المقامة الحصيبية، ص١ من المخطوط.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة أفن.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣. وانظر: معنى الترهات، ص .. ٤ من البحث .

(٤) المقامة (٤٠): في صوفية الزمان، ص ٣٢٦. وانظر: اللسان، مادة : سلق، عرط، بله، رفه، عرص، علك، قفا.

(٥) في حكم الأشياء، ص ١٣، ت: د. محمد نغش .



فابن الجوزي أراد هنا تنزيه الخالق عن التشبيه والتعطيل، والتمثيل مستعملاً معاني النحو.

ويقول «علي جميل مهنا» مشيراً إلى أن ابن الجوزي قد يعمد «إلى إتيانه بالألفاظ الغريبة التي أدت إلى تعمية المعنى في بعض الأحيان»[1]، كقوله في مقامته المسماة «في الاستسقاء»: «اللهم إنك تعلم جدبنا، فجد بنا ... اللهم اسقنا سحاباً مكفهراً، قرداً، دالحاً، مرتعناً، بعاقاً، دلوقاً، هنيئاً مريئاً، مريعاً، غدقاً، محلالاً، سجاجاً، عاماً، طبقاً، يمطرنا منه وابلاً، هطلاً، دراكاً، جلاخاً ...»[2].

فما أغناه عن تلك الألفاظ بألفاظ سهلة، بسيطة، لاغموض فيها، ولكنه يعلم ويقصد اللجوء إليه بدليل أنه عاد وشرح تلك الألفاظ، فقال: المكفهر: الذي يغلظ من السحاب ويركب بعضه بعضا، والقرد: المتلبد بعضه على بعض، والدالح: المثقل بالماء، والمرتعن: السائل، والبعاق الذي ينبعق بالماء، والدلوق: المندلق، والغدق: الكثير، والمحلال: الذي يحل ويقيم، والطبق: الذي يطبق الأرض، والهطل: فوق الرث، والدراك: المتدارك، والجلاخ: الكثير ...[3].

ونخلص إلى أن الغرابة ظاهرة أو خاصية عامة في معظم المقامات التي كتبت على خطة البديع، كمقامة ابن نباته ومقامات ابن ناقيا، والحريري، والأسواني، والنعماني، وابن الجوزي.

وتستطيع أن تقرأ من مثل هذه المقامات التي ذكرت ماشئت دون أن تعدم فيها غريباً من اللفظ يحول بينك وبين إدراك المعنى هنا وهناك، حتى ولو كنت ممن لهم باع

---

(١) أدب ابن الجوزي، أول خير عمر عيسى سراج، ص ٣١٢، بإشراف أ.د. محمود زيني، مخطوط رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية (الأدب) ١٤٠٩هـ، عن مقامات ابن الجوزي، مقدمة المحقق ص

(أ). ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي جميل مهنا، ص١٦٠. وابن الجوزي ومقاماته، المخطوطة ص٢٧٩.

(٢) المقامة (٤٧)، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٨٤.

(٣) انظر: المقامة نفسها، ص ٣٩١.

في اللغة مذكور، فلابد من وقفات عند كلمات هنا وهناك أيضاً.

كما نخلص إلى أن فن المقامة كان يعول في صياغاته المختلفة على اصطناع الغريب، أما الداعي الرئيسي لذلك، فقد كان أحياناً تعليمياً، وأحياناً أخرى بقصد التحدي، وربما جيء بالغريب بقصد إحياء ألفاظ العربية - ولكن هذا لايدخل تحت التعليم - وبعث مماتها.

إلا أن أسلوب المقامات من حيث صياغته العامة، لم يكن يعول على الغريب في جانب، والسوقي من الألفاظ في جانب آخر، بحيث تتناقض ألفاظ الصياغة المقامية تناقضاً شنيعاً بين علو وسمو، وإسفاف وإقصار، وإنما كان استخدام هذه الألفاظ في صياغة أسلوب المقامة، يتم بطريقة فنية محكمة، بحيث يُراعى في ألفاظ الصياغة التلاؤم والانسجام، فكاتب المقامة إذا أعوزه الغريب، أو عزفت عنه نفسه لسبب من الأسباب، وهذا قليل جداً، فإنَّه يعتاض عنه بالألفاظ الأنيقة المختارة على الأقل.

وهذه المبالغة في انتقاء الألفاظ الحسان، ذات الظلال الشعرية، والأجراس الموسيقية الغنية، تعتبر خاصية بارزة من خصائص صياغة الأسلوب في المقامة، وليس هذا غريباً في أسلوب يعول على السجع الملتزم الذي يشكل هو نفسه في حد ذاته، عنصراً من عناصر الشعر، ونعني به الموسيقى اللفظية ذات الرواء العجيب[1].

بقي أن نعرف المقصود بالغريب؟، وهل يعيب وجوده في المقامات؟ وهل ورد الغريب في السنة؟.

أما الغريب من الكلام فإنما هو الغامض البعيد من الفهم كالغريب من الناس، إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل، ومنه قولك للرجل إذا نحيته وأقصيته عنك اغرب عني: أي أبعد، ومن هذا قولهم: نوى غربة: أي بعيدة ... وكل هذا مأخوذ بعضه من بعض، وإنما يختلف في المصادر، فيقال: غرب الرجل يغرب غرباً إذا تنحى وذهب، وغرب غربة إذا انقطع عن أهله ... ثم إن الغريب من الكلام يقال به على وجهين : أحدهما : أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لايتناوله الفهم إلا عن بعد، ومعاناة فكر. والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من

---

(١) انظر: عبدالملك مرتاض، ص ٣٦٨-٣٧٥، ٣٧٩.

شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها، وإنما هي كلام القوم وبيانهم، وعلى هذا ماجاء عن بعضهم، وقال له قائل: أسألك عن طرف من الحرف، فقال: هو كلام القوم، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه[1].

وقد ورد الغريب في السنة، ولقائل أن يقول: ((أنى يكون في حديث رسول الله -ﷺ- وهو يقول: ((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))، أم كيف يكون في حديث صحبه وحشي، وهم كانوا أفصح الناس، سمعوا القرآن من في رسول الله -ﷺ-، وقبسوا من بيانه، وسألوا رسول الله -ﷺ- عما أشكل عليهم منه؟))[2].

فنقول: مرد تلك الغرابة، وسبب تلك الوحشة، ماأوتيه رسول الله -ﷺ- من بيان، فالله عز وجل لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها؛ ليباشر في لباسه مشاهد التبليغ، وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف، ثم أمده بجوامع الكلم التي جعلها ردءاً لنبوته، وعلماً لرسالته، لينتظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه ولايؤودهم حمله، ومن تتبع الجوامع من كلامه لم يعدم بيانها، ومنها قوله -ﷺ-: ((**سلوا الله اليقين والعافية**))[3]، فتأمل هذه الوصية الجامعة تجدها محيطةً بخير الدنيا والآخرة، وذلك أن ملاك أمر الآخرة اليقين، وملاك أمر الدنيا العافية.

ومن فصاحته وحسن بيانه أنه قد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، كقوله : ((**حمي الوطيس**))[4].

---

(١) انظر: غريب الحديث، للإمام الخطابي البستي، ص ٧٠-٧١، ت: د. عبدالكريم العزباوي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٢) غريب الحديث، للإمام أبي إسحاق إبراهيم الحربي، ص٩، تحقيق: د.سليمان العايد، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة، ط(١)، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٣) رواه أحمد في مسنده، عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، ٣/١. والترمذي برقم (٣٥٥٨)، كتاب الدعوات، باب (١٠٦)، ٥٥٧/٥ باختلاف في العبارة.

(٤) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (٢٨): في غزوة حنين، ١٣٩٨/٣. وأحمد في مسنده، ٢٠٧/١. والحاكم في المستدرك، ٣٢٨/٣ (في حديث غزوة حنين عن عباس عم النبي -ﷺ-).



ومن فصاحته وسعة بيانه أنه قد يوجد في كلامه الغريب الوحشي الذي يعيا به قومه وأصحابه وعامتهم عرب صرحاء، لسانهم لسانه، ودارهم داره، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((**ألا أنبئكم بأهل النار؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: كل جظ جعظ، قلت: ماالجظ؟ قال: الضخم، قلت: فالجعظ؟ قال: العظيم في نفسه**))[1].

إن الذي تقدم من ذكر جوامع كلامه، وضروب بيانه، يكفي سبباً لكثرة مايوجد من الغريب في حديثه، ثم إنه -صلى الله عليه وسلم- بعث مبلغاً ومعلماً، فهو لايزال في كل مقام يقومه وموطن يشهده يأمر بمعروف وينهى عن منكر، والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية، وقد تختلف عنها عباراته، ويتكرر فيها بيانه، ليكون أوقع للسامعين، وأقرب إلى فهم من كان منهم أقل فقهاً، وأقرب بالإسلام عهداً، وأولو الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يرعونها سمعاً، ويستوفونها حفظاً، ويؤدونها على اختلاف جهاتها، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدة ألفاظ، تحتها معنىً واحد، وذلك كقوله: ((**الولد للفراش، وللعاهر الحجر**))[2]، وفي رواية أخرى: ((**وللعاهر الإتلب**))[3].

وقد يتكلم -صلى الله عليه وسلم- في بعض النوازل وبحضرته أخلاط من الناس، قبائلهم شتى، ولغاتهم مختلفة، ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر لضبط اللفظ وحصره، أو يتعمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه بالمعنى، ثم يؤديه بلغته، ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد، وهذا كما يروى: ((أن رجلاً كان يهدي إلى رسول الله كل عام راوية خمر، فأهداها عام حرمت، فقال: إنها

---

(١) رواه أبوداود (٤٨٠١) عن حارثة بن وهب-رضي الله عنه-، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، ٢٤٣/٤، بلفظ: ((لايدخل الجنة الجواظ، ولا الجعظري)). رواه أحمد في مسنده، ٢١٤/٢، ٢٦٩، ٥٠٨، ١٤٥/٣، ١٧٥/٤، ٢٢٧، ٢٠٦، ٣٦٩/٥.

(٢) رواه البخاري عن عائشة – رضي الله عنها- كتاب الوصايا، باب قول الموصي لوصية معاهد ولدي، ٤/٤. ورواه مالك في الموطأ، ١٠٨٠/٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ١٧٩/٢، ٢٠٧ من حديث ابن عمرو.

حرمت، فاستأذنه في بيعها، فقال له : إن الذي حرم شربها حرم بيعها، قال: فما أصنع بها؟ قال: سنها في البطحاء، قال: فسنها»[١]، وجاء في رواية أخرى: «فهتها» وفي رواية أخرى: «فبعها» والمعنى واحد.

ولكثرة مايرد من هذا أو من نظائره يقول أبوعبيدة: معمر بن المثنى: أعيانا أن نعرف و نحصي غريب حديث رسول الله -ﷺ-[٢].

وكذا الألغاز فقد ورد استخدامها من الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، ومن ذلك: أن رجلاً أتى النبي -ﷺ- فقال: يارسول الله، احملني، وقال النبي -ﷺ- «**إنا حاملوك على ولد ناقةٍ**» قال: ومأأصنع بولد الناقة؟ فقال النبي -ﷺ-: «**وهل تلد الإبل إلا النوق**»[٣].

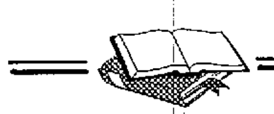
فالرسول -ﷺ- كان يعلم أن السائل لايقصد بقوله: «احملني» أن يحمله على ولد الناقة، والرسول حين ألغز بذلك، إنما أراد أن يمازح الرجل فقط دون الوقوع في الكذب.

---

(١) الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، ٣/٢٥٤، ٢٥٥، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة ، بيروت، لبنان، ط٢، وجاء فيه : الثلاثة، يعني السنّ، والهت والبع في معنى الصب، إلا أن السن في سهولة، والهت في تتابع، والبع في سعة وكثرة.

(٢) انظر: غريب الحديث، للخطابي، ص ٦٤-٦٩. وغريب الحديث، للحربي، ص٩.

(٣) رواه أبوداود في كتاب الأدب، باب ماجاء في المزاح، ٤/٣٠٠. والترمذي في كتاب البر، باب (٥٧)، ٤/٣٥٧.



الصياغة :

إن معظم المقامات – إن لم يكن كلها – صيغت بأسلوب السرد، فهذا **البديع** يبدأ مقاماته بقوله: ((حدثنا عيسى بن هشام، قال ...)) ويورد المقامة على لسان الراوية، ويتخلل ذلك حوار بين الراوية والبطل، وبعض مقامات البديع صيغت بأسلوب قصصي مثل : المقامة المضيرية، والمقامة الصيمرية، كما قال ذلك د.جابر قميحة، وأضاف: ((أما مقامته البشرية فقد صاغها بأسلوب ملحمي، وكثير من مقاماته لايعدو أن يكون لقطة تصويرية لمشهد عابر، لايزيد عن عشرة أسطر، كالمقامة القردية والمقامة الصفرية.

وأما المقامة الحلوانية فمن أجمل المقامات بناء وأرشقها حواراً، وتصلح أن تكون مسرحية فنية ذات مستوى واحد))[1].

كما أن مقاماته – البديع – نثرية، وحظ الشعر فيها قليل، بل إن من المقامات لامكان للشعر فيها نهائياً، مثل المقامة المضيرية، والشيرازية، والصيمرية، والدينارية.

ويأتي **ابن نباتة** بعده، ويكتب مقامته اليتيمة بالأسلوب نفسه، فيبدؤها بقوله: ((حدث ابن إسحاق ومن معه من الرفاق))، وتقوم على الحوار بين بطل مقامته ومن حضر في مجلسه، وهي وإن كانت نثرية، فإنها تدور حول أجمل ماقيل من شعر في فصل الربيع، وهذا هو نصيب الشعر فيها.

ويسير على الخطى **ابن ناقيا**، فيصوغ مقاماته العشر بأسلوب السرد، يلي ذلك الحوار بين بطل المقامات وهو اليشكري، والراوية الذي يختلف في كل مقامة، فهو في الأولى بعض البادية، وفي الثانية بعض الفتاك، وفي الثالثة بعض الشاميين، وفي الرابعة بعض الأصدقاء، وفي التي تليها بعض الجوار، ومن ثم بعض المتكلمين، وتليها بعض أهل الأدب، وفي التاسعة بعض الكتاب، وفي الأخيرة بعض المجانين.

ومع أنها نثرية فإن إحداها لاتكاد تخلو من الشعر، وإن كان غالباً ليس له ، وإنما يتمثل به.

---

(١) التقليدية والدرامية، ص١٣١-١٣٢.

ويأتي **الحريري** فيصوغ مقاماته – أيضاً – كالبديع بطريقة السرد والحوار، إلا أن السرد هو الغالب والسائد سيادة كاملة، فهو يبدأ كل مقامة بقوله: ((حدث الحارث بن همام))، ثم يدور الحوار بين البطل والراوية، وهي نثرية إلا أن للشعر فيها نصيباً.

أما **أبوطلحة النعماني**، فيبدأ مقامته بقوله: ((حدثني بعض الإخوان))، ويدور الحوار بين الراوية والبطل، وهي للشعر أقرب منها للنثر، حتى إن صاحب الخريدة لطول القصيدة، لم يوردها كلها، إنما يذكر أبياتاً ويقول: ((ومنها))، ثم يذكر بيتاً أو بيتين وهكذا؛ وفي ذلك يقول: ((وقد أوردت منها الأكثر، وأدنيت المعروف، وأبعدت المنكر))(١).

أما **الزمخشري** فهو يبدأ مقاماته كلها بقوله : ((ياأبا القاسم))؛ مخاطباً نفسه، واعظاً غيره، ومقاماته كلها نثرية، يتضمن ذلك بعض الشعر، إلا أنه قليل جداً، حتى إنه من قلته لم يذكر من المقامات الخمسين إلا في إحدى عشرة مقامة فقط هي المقامة: ٦، ١٠، ١١، ١٣، ١٥، ١٩، ٢٢ التي بدأها بأبيات من الشعر، ٣٠، ٣٧، ٤٠، ٤٢ كما أن مقامته الأخيرة ((أيام العرب))، صيغت بأسلوب قصصي، بلغ السبع عشرة قصة، تصلح أن تكون كل واحدة منها مشهداً تمثيلياً وآخر مسرحياً.

ويأتي **الأسواني**، فيصوغ مقامته على لسان الراوي الذي لم يذكر اسمه بل بدأها بقوله: ((كنت في عنفوان عمري وريعانه، وشرخ شبابي وعيسانه...))(٢).

ويسرد الراوي المقامة التي كان الحوار فيها بين مجموعة من أهل الاختصاص، كل يشيد ويفخر بالعلم الذي أختص فيه، أما البطل فقد كان يسمع و لم يتدخل إلا بعد مضي فترةٍ من الزمن.

والمقامة نثرية كلها، اللهم ستّةأبيات تخللتها، وكانت في مكانها.

ثم يليهم **ابن الجوزي** الذي جعل لبطل مقاماته العقل، ورمز إليه، ((بأبي التقويم))، دون وجود راوٍ مخصص كالهمذاني والحريري، أو راوٍ مختلف كابن نباته،

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر،الأصبهاني، ص ١٢.

(٢) المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ١ من المخطوط.

وابن ناقيا، وأبي طلحة النعماني، والأسواني، ومقاماته نثرية يتخللها الشعر الذي كان له نصيب كبير، حتى إن الأبيات التي ذكرت في مقاماته بلغت قرابة الألف ومائة بيت، كما قيل : « وقد اعتنى بالشعر في مقاماته، سواء ماكان من نظمه أو نظم غيره وقد بلغ به قرابة الألف ومائة بيت، فجاء معظمه رائعاً لطيفاً، واكب الأسلوب القصصي للمقامات»[1].

وبعد هذا نعرج للنظر في **أسلوب صياغة** المقامات، والوقوف عند التراكيب المقامية، أو الجمل ، في حد ذاتها.

وقد وجدنا فحول كتاب المقامة يصطنعون الجمل القصار المسجوعة، -ولن نركز على السجع الآن، ولكن نريد أن نلقي أضواء كاشفة على أسلوب المقامة- وكانت هذه الجمل القصيرة المسجوعة تنتهي بهما الصيغتان اللتان تشكلان طرفي السجعة فيها على مثال واحد في معظم الأحوال، بحيث تجمع بين السجع والمماثلة، و مايمكن أن يطلق عليه «الموازنة السجعية»، إلى جانب التزام مالايلزم في كثير من المواطن.

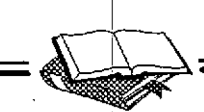
كقول **البديع** في المقامات المضيرية : «فأتَى الغُلَامَ بالخِوَانِ، وقلَّبَهُ التَاجِرُ على المكَانِ،ونَقَرَهُ بالبَنَانِ، وعَجَمَهُ بالأَسْنَانِ»[2]. فإنَّ الخوان، والمكانِ، والبنانِ، والأسنانِ، ذات ميزان واحد من حيث عدد الحروف وتماثل الصيغ، ولم يجتزيء البديع فيها بهذا التوازن وحده؛ لأنه لايشبع نهمه من الموسيقى اللفظية، لذلك صاحب الموازنة اللفظية بالموسيقى المتمثلة في السجع.

وينبغي أن نمر حتى نلحظ صورة صيغ الجمل التي كانت تشبه، أو تكاد تشبه، المصاريع الشعرية من حيث أعداد الكلمات، ومن حيث الموازين العامة، التي تأتلف منها، أرأيت أن الجمل الأربع تشكلت كلها من فعل وفاعل ومفعول به وختمت بالجار والمجرور: «بالخوان، على المكان، بالبنان، بالأسنان» تشكلاً متساوياً أو متقارباً في التساوي على الأقل، إلا الأولى منها فقد حذف المفعول به.

---

(١) أدب ابن الجوزي، أول خير عمر عيسى سراج، ص ٣١٣، عن ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي مهنا، ص ١٦٠. وابن الجوزي ومقاماته المخطوطة ٢٧٩، وهو كذلك.

(٢) ص١٣٨، شرح محمد محي الدين عبدالحميد.



السجع(١):

ولما كانت الصياغة تعتمد على الموازنة السجعية، كان لابد من البدء **بالسجع** الذي بدأ سلطانه يطغى على كتابات الكتاب منذ القرن الثالث، فلما جاء القرن الرابع، كان السجع لدى الكتاب هو المثل الأعلى الذي يحتذى(٢). ولم يكن مرد ذلك تطور الحضارة العربية وأخذها بكل رقيق لطيف فحسب، بل إن فن الكتابة في حد ذاته، كان التطور الذي عراه يغري بتحديد الأشكال الكتابية، ومنها السجع الذي ران على جميع الأساليب الفنية، بعد أن كان يرد في الكلام، من قبل ذلك، عفواً.

فكان **البديع الهمذاني** مضطراً بحكم ظروف عصره ومؤثراته العامة، إلى الانصهار في بوتقة هذا التيار الشكلي الجارف الذي كان قد أخذ يستبد بالنثر الفني استبداداً تاماً.

وقد ظل السجع مهيمناً على النثر الفني العربي نحو عشرة قرون. وقد ظلت المقامات هي مجاله الفسيح، ومرتعه الخصب؛ فقد استقبل كتاب المقامة فن السجع استقبالاً حسناً،فكان من أجل ذلك هو أخص خصائص أساليبهم في صياغة مقاماتهم.

فهذا البديع الهمذاني ترى سجعه مليحاً خفيفاً، رشيقاً، مقبولاً؛ لأن أثر التكلف عليه لايكاد يبين، ولأن الهمذاني لايجعل السجع يحول بينه وبين تصوير ماكان يبتغي تصويره من معان وأفكار، يقول د. عبدالملك مرتاض: «ولعل مردتوفيق البديع في ذلك إلى أسباب أهمها، في رأينا :

١- قرب البديع من عهد الطبع الأدبي.

٢- جودة محفوظه من الآثار الأدبية؟

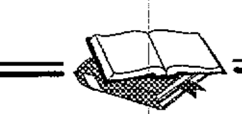
٣- خفة روحه، وظرافة طبعه.

٤- قوة ذاكرته، وسرعة حفظه، وشدة تأثره بما كان يحفظ.

---

(٢) النثر الفنى في القرن الرابع، د. زكي مبارك، ١/٦٤-١٠١.

(١) السجع، هو : تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد. انظر: الإيضاح، للقزويني، ص٥٤٧.



٥- تعبيره عن تجاربه الشخصية، في مقاماته، ووصفه لما خبر من أشياء وأحياء، فكانت مقاماته مرآة لنفسه، قبل أن تكون مرآة لمجتمعه.

فإن الكاتب إذا تناول تجاربه بالكتابة، تيسر له التعبير عنها، فيكون أسلوبه أخف، وأحلى؛ لأنه صادر فيه عن صدق الشعور، وحرارة العاطفة»[1].

ولما كان السجع أحد مقاييس البراعة الفنية لدى كتاب القرن الخامس الهجري، فإننا لانكاد نجد – عند البديع في مقاماته – جملتين غير مسجوعتين، بل إنه يلتزم السجع بين أكثر من جملتين، فها هو ذا يقول : « هل تَرَوْنَ المالَ إلا عِنْدَ البُخَلاءِ، دُونَ الكُرماءِ، والجهالِ دُونَ العُلَمَاء»[2].

وتصل السجعات إلى ثلاث، في قوله : « وأقامَ النَّاجمُ أياماً مُقْتَصِراً من لِسَانِهِ على شُكْرِ إحْسَانِهِ، ولايتصَرَّفُ من كَلَامِهِ، إلا في مَدْحِ أيامِهِ، والتحدُّثِ بإنعامِهِ»[3].

وقد يراعي هذه الموسيقى داخل الجملتين، كما نرى في المقامة التي يقول فيها: «وعلى كل حال، تَنْظُر من عال، على الكريم نظر إدْلال، وعلى اللئيم نَظَرَ إذْلال»[4] فهنا اتفاق موسيقي بين الكريم واللئيم، واتفاق موسيقي بين إدلال وإذلال، وبين حالٍ وعالٍ.

وها هو ذا في مقامة أخرى، يقول: « أيُّها النَّاسُ، إنَّكُم لم تُـتْركُوا سُدًى، وإنَّ مَعَ اليَوْمِ غَداً، وإنكُم واردو: هوةٍ، فأعِدُّوا لها ماستطعتُمْ من قُوَّةٍ، وإنَّ بَعْدَ المعاشِ مَعاداً، فأعِدُّوا له زَاداً، ألا لاعُذْرَ، فقد بُيِّنَتْ لكم المحَجَّةُ، وأُخِذَتْ عليكم الحُجَّةُ، مِنْ السَّماءِ بالخَبَرِ، ومن الأرْضِ بالعِبَرِ، ألا وإنَّ الذي بَدَأَ الخَلْقَ عَلِيماً، يُحْيي العِظَامَ رَميماً، ألا وإنَّ الدُّنْيَا دَارُ جِهَازٍ، وقَنْطَرةُ جَوَازٍ، من عَبَرَها سَلِمَ، ومن عَمَرها نَدِمَ»[5].

حين نقرأ هذه المقامة، لانكاد ننكر من أسلوبها المسجوع شيئاً، فقد كانت

---

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٤٣٦-٤٣٧.
(٢) المقامة المطلبية، ص ٤٤١.
(٣) المقامة الناجمية، ص ٢٩٧.
(٤) المقامة الخلفية، ص ٣٠١.
(٥) المقامة الوعظية، ص١٦٨-١٦٩.



كل سجعة تؤدي معنى خاصاً بها، ولم تكن السجعة الثانية خاضعة للأولى في معناها.

والسجع هنا لم يسبب عناء، ولم يعقد معنى، ولم يحل بينك وبين تتبع الفكرة العامة للمقامة بدون دوران ولاضياع بين أسجاع هائمة حيرى، بل إن المعاني كانت تنساب هادئة مطمئنة، لاقلق فيها ولااضطراب؛ لأن التكلف في اصطناع السجع -عند البديع- ضئيل قليل، فكأنه كان يصدر في تلك الأسجاع الرشيقة عن طبع لاعن تطبع وتكلف.

ولذلك لم يحل هذا السجع عنده بين التصوير البياني الرائع، والوصف النفسي الدقيق. فقد كان البديع أحياناً يتسامى بسجعه إلى ذروة الكمال السامقة.

كما أن أسجاعه لم تكن باردة، ولاثقيلة، ولاركيكة، بحيث تتعثر بها المعاني، وتدور دوراناً عميقاً، وتضطرب اضطراباً مزرياً، بل إنها كانت حارة معبرة قوية تخدم المعاني، وتنسجم مع انسيابها في الكلام، كما أن الألفاظ التي تأتلف منها هذه الأسجاع كانت موضوعة على قدر المعاني لاتزيد ولاتنقص[1].

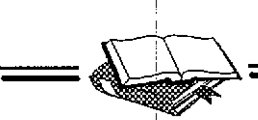
تأمل معنى قوله : ((اشتهيتُ الأزاذ ، وأَنَا ببغداذ ، وَلَيْسَ معي عَقْدٌ، علَى نَقْدٍ، فخرجْتُ أنتهزُ محالَّهُ حَتّى أَحَلَّنِي الكرْخ، فَإِذَا أنَا بسَوَادِي يَسُوقُ بالجهْدِ حِمَارَهُ، وَيُطَرِّفُ بالعَقْدِ إزارهُ، فقلْتُ: ظَفِرْنَا والله بِصَيْدٍ، وَحَيَّاكَ الله أبا زَيْدٍ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ؟ وَمَتى وافيْتَ؟ وَهَلُمَّ إِلَى البيتِ)).[2]

هل استمعت إلى موسيقى السجع، والازدواج، تنبعث هادئة، عذبة من خلال المقاطع القصيرة، والفقرات المتعادلة المتوازنة.

---

(١) انظر : فن المقامات، عبدالملك مرتاض، ص ٤٣٨-٤٤٠.

(٢) المقامة البغدادية، ص ٧٠. الأزاذ: نوع من التمر الجيد، المحال: جمع محلة، والمراد بها الأماكن التي يوجد بها الأزاذ، انتهز: أتلمس وأقصد. انظر: اللسان، مادة أز، حل، نهز. الكرخ: محل ببغداد، معجم البلدان، الحموي ٤٤٧/٤. السوادي: المراد رجل من أهل السواد، والسواد: ريف العراق وقراه. انظر: معجم البلدان، الحموى ٢٧٢/٣.



وفي مقامة أخرى يقول: ((فها نحنُ نرتضعُ مِن الدّهرِ ثَدي عقيمٍ، ونراكبُ مِن الفقرِ ظَهْرَ بهيمٍ، فَلَانرنُو إلاَّ بعينِ اليتيمِ، ولَانمدُّ إلاَّ يدَ العديمِ، فَهَلْ مِن كريمٍ؟...))[1].

وابن نباتة يخطو خطى كتاب قرنه، فيعمد إلى مايعمدون، ويطرز مقامته بالسجع منذ بدايتها، فيقول: ((حدَّثَ ابنُ إسْحَاق، ومَنْ مَعهُ مِنْ الرّفاق، قَالَ: إنَّ مما سارتْ به الركبان، وتحدّثَتْ به الأقرانُ، شَيْخٌ مِن ذَوي الأدبِ، تنسلّ إليهِ الطّلابُ مِن كُلّ حدَب))[2]، فالسجع واضح بين إسحاق والرفاق، والركبان والأقران، والأدب وحدب، والأذن لاتنفر منها بل تجدها قد وضعت في مكانها دون تكلف ولاتصنع، فأدى إلى توازن موسيقي، وصاحب ذلك تماثل، فكلمة إسحاق، ورفاق، وكذا ركبان وأقران تماثل إحداهما الأخرى في عدد الحروف، وهي ذات ميزان واحد، وهذا التماثل في الصيغ زاد في النغمة الموسيقية التي أداها السجع.

ولايلتزم ابن نباته السجع بين جملتين فقط، بل قد يلجأ إليه بين أكثر من الجملتين، والثلاث، فها هو ذا يقول: ((أيكمْ يخرقُ الحجابَ، ويفهمُ الخطأَ مِن الصَّوابِ، لِيُسْمِعَ الجوابَ، بِعَجيبِ الخطابِ))[3]، فالسجع بين الحجاب، والصواب، والخطاب، والجواب، فهي متماثلة في عدد الحروف، وقد وقعت الكلمة المسجوعة في اثنتين منها مفعولاً به: ((الحجاب، الجواب))، واثنتين مجرورة، إحداهما بحرف جر ((بالصواب))، والأخرى بالإضافة ((الخطاب)).

والسجع لم يعقد المعنى، ولم يُخِلْ به، بل القارىء ينساب خلف المعاني، فيقرؤها دونما تعب.

وابن ناقيا كسابقيه، لجأ إلى السجع؛ لأنه الحلية التي لاغنى له عنها، فمقاماته كلها تتكيء عليه، بل إن مقامة من مقاماته العشر لاتخلو منه، ولم لا وهو يمثل كتاب

---

(١) المقامة البخارية، ص ٩٦.

(٢) مقامة ابن نباتة السعدي، ص١ من المخطوط.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

عصره؟ فها هو ذا يقول من بدء مقاماته: ((والزَّمانُ صَايفٌ، والنَّهارُ رَاسِفٌ))[١]، وقوله: ((أَخْرَجَ حَنِيذاً ينضحُ أَوْ دَاكاً، وَيتَهَافَتُ نُصْحاً وإدْرَاكاً))[٢]، فلعلك تلحظ السجع بين كل جملتين في قوله : صايف وراسف، وفي قوله: أوداكاً وإدراكاً.

وفي مقامة أخرى يقول: ((فأضربَ عَنِ المراجعةِ، وَوَنّى عَنِ المدافعةِ))[٣]، ويقول: ((فرأيْتُ بعضَ شَكّه، يقومُ ببعضِ إفْكِهِ))[٤]، فهو لم يتكف بالتماثل في صيغ السجعات ((المراجعة، والمدافعة))، بل عمد إلى التماثل في الجمل، فكلتاهما جملتان فعليتان، صدرتا بفعل حذف فاعله، وانتهتا بالسجع المجرور بحرف الجر(عن)، مما زاد في إظهار الموسيقى الناتجة عن السجع.

وقد يلجأ إلى أكثر من تسجيعه كقوله : ((وإذَا شَخْصٌ قَدْ ظَهَر، لَم ينتظمْ مِثْلُهُ بسلكِ النَّظَرِ، وَلاَوَقَعَ لي أنَّهَ مِن البَشَرِ، مشتَمِلاً ضَافي الوَبَرِ، يتطايرُ مِن فَمِهِ شواظُ الشَّررِ))[٥]. فلعلك لحظت أنه اعتمد على خمس تسجيعات، لاتشعر وأنت تقرأ المقامة باختلال في المعنى مرده افتعال وتصنع وجري وراء السجعات.

ويعمد ابن ناقيا في سجعه إلى أن تكون -غالباً- متماثلة في الإعراب: الرفع، أو النصب، أو الجر، ومن ذلك قوله: ((فانخرطْتُ معهُ في سلكِ الطَّريقِ، وقَارَنْتهُ كَالرَّفيقِ))[٦]، وقوله: ((فَدَعَوْنَاهُ إلى الطَّعَامِ، فتثاقلَ عَنِ المقَامِ))[٧] فالسجع بين الطريق والرفيق، وبين الطعام والمقام، وكلها مجرورة، وعلامة جرها الكسرة.

ونجد أيضاً عند **الحريري** النهج نفسه الذي سار فيه البديع في تركيب الجملة؛ فهي متوازنة ومسجوعة، وقد يعمد للزوم مالايلزم ، فها هو ذا يقول في مقامته الأولى

(١) المقامة الأولى، من مقامات ابن ناقيا العشر، ص١.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

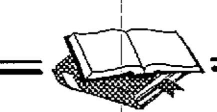
(٣) المقامة نفسها، ص ٢.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٣.

(٦) المقامة نفسها، ص ٤.

(٧) المقامة (٣): المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٧ .



(الصنعانية): «يَوَاقِيتُ الصِّلاَتِ، أَعْلَقُ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيتِ الصَّلاَةِ، ومُغَالاَةُ الصَّدُقَاتِ، آثَرُ عِنْدكَ مِنْ مُوَالاَةِ الصَّدَقاتِ، وصِحَافِ الأَلْوانِ، اشْهَى إِلَيْكَ مِن صَحَائِفِ الأَدْيَانِ، ودُعَابة الأَقْرانِ، آنسُ لكَ مِنْ تِلاوَةِ القُرآن»[1].

فبإلقاء نظرة عامة على نص الحريري نجد أن معظم الكلمات التي اختتمت بها الجمل فيه متوازنة، أي متحدة في الميزان، ومسجوعة، أي متحدة في التقفية.

بالإضافة إلى الصيغ الداخلية المتوازنة التي كثيراً ماتشبه مصاريع الشعر، وذلك نحو مانجد في قوله: يواقيت الصلات، أعلق بقلبك من مواقيت الصلاة، ومغالاة الصدقات، آثر عندك من موالاة الصدقات.

فماذا تلاحظ على هذه الصيغ التي تنتهي بها الجمل؟

إنها في كثير منها جاءت على مثال واحد من حيث وزنها، «فيواقيت» تماثل «مواقيت»، و«الصلات» تماثل «الصلاة»، و«مغالاة» تماثل «موالاة»، و«أعلق» تماثل «آثر»، و«الصدقات» تماثل «الصدقات» و«الألوان» تماثل «الأديان»، و... هلم جرا.

ونحن لانريد إلى الموازنة البديعية التي يجب أن تماثل الصيغ من حيث الميزان دون التقفية، فإن ذلك شيء آخر، وإنما نريد إلى هذه الألفاظ التي تنتهي بها جمل المقامة من حيث إنها تعول على السجع أولاً، ثم على لزوم مالايلزم في كثير من الأحوال ثانياً، ثم على تماثل اللفظين الأخيرين من الجملتين المتجاورتين ثالثاً.

ولما كان السجع هو المعتمد والمتكأ الذي يتكيء عليه كتاب المقامة -كما أسلفنا- وجدنا الحريري ومع وفرة الثروة اللغوية عنده، ومع تمكنه من ناصية اللغة فإن أسلوبه لايخلو من الثقل؛ لتعمده الإتيان بالغريب، وتوالي الجمل المعبرة عن المعنى الواحد، وتقيدها بالسجع والجناس، ومن ذلك قوله في المقامة المراغية:

«يُنَبِّيءِ تَخَازُرُ طَرْفِهِ، وتَشَامُخ أَنفِه أنَّه مُخَرنْبِقٌ لِيَنْبَاع، ومُجْرَمِّزٌ سَيَمُدُّ البَاع، ونَابِضٌ يَبْرِي النِّبَال، وَرَابِضٌ يَبْغِي النِّضَال. فلَمَّا نُثِلَتْ الكَنَائِن، وفَاءَتْ السَّكَائِن، وَرَكَدَتْ الزَعَازِعُ، وكَفَّ المُنَازِعُ، وسكَنتْ الزمَاجِر، وسَكَتَ المَزْجُورُ والزَاجِر، أقْبَلَ

---

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي، ١/٦٢.

عَلَى الجَمَاعة، ...))[١].

لعلك لحظت أن السجع عند الحريري لم يكن خادماً للمعنى، بل إنه كان لايبالي أن تضطرب المعاني، فهو لايعدل عن السجع أبداً في مقاماته؛ لذا خرجت أسجاعه في جملتها مثقلة بألوان من التكلف الشديد، فإذا هذه الأسجاع الحريرية لاتخدم المعاني، بل انها تتخذها لها سخريا.

وانظر إلى هذه السجعات في مقامة أخرى له: ((فإنَّهُ وإنْ كَانَ أَسْلفَ الجرِيمَة، وَنَمّم النَّميمة، فَمِنْ غَيْمِه انْهلّتْ هذه الدِّيْمَة، وَبِسَيْفِهِ انحَازَتْ لِي هَذِه الغَنِيْمَة، وَقَدْ خَطَر بِبالي أَنْ أَرْجِع إِلى أَشْبَالي،واقْنَع بِمَا تَسنَّى لِي،وأَنْ لاأُتْعِب نَفْسِي ولاأَجْمَالي..))[٢].

فهو لم يكتف بسجعتين أو ثلاث، بل يلزم نفسه -غالباً- بأكثر من ذلك كما لحظنا، فقد ألزم نفسه بخمس سجعات: الجريمه • النميمه – غيمه – الديمه، الغنيمه.

وكذا في الجمل التي تلتها تأمل كيف ختم كل جملة بسجعة، التزمها في الجملة التي تليها: أشبالي – تسنى لي – أجمالي .

وتأمل قوله في مقامة أخرى : ((هلاَّ انْتَهَجْتَ محجَّةَ اهْتِدائِك، وعجَّلْتَ مُعَالجَة دَائِك، وَفَللْت شباةَ اعْتِدائِك، وقَدَعْتَ نَفسَك فَهِي أَكْبَر أَعْدَائِك))[٣].

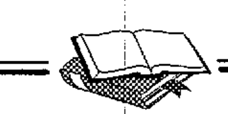
وقوله : ((وصِحَافُ الأَلْوانِ، اشْهَى إِلَيْكَ مِن صَحَائِفِ الأَدْيانِ، ودُعَابَة

---

(١) المقامة المراغية، ٢٢٥/١ شرح الشريشي .
تخازر طرفه: كسر عينيه بالنظر، وتخازر: نظر بمؤخر عينيه، مخرنبق: متهيء، وقيل: المخرنيق الساكت على السوء، لينباع : ليظهر الذي في ظنه من الشر، مجرمز: منقبض، نابض: رام، رابض: مضطجع، نثلت : نفضت وصب مافيها، الكنائن: الجعاب وهي، أوعية السهام، فاءت: رجعت، السكائن: جمع سكنية، وهي الوقار، ركدت: سكنت، زعازع: الرياح الشديدة المزلزلة، كف المنازع: أمسك المخالف. انظر: اللسان، مادة : خرز، نبع، خرق، نبض، ربض، نثل، كنن ، ماء، سكن، ركد، كفف.

(٢) المقامة السنجارية، ٣٥١/٢ شرح الشريشي.

(٣) المقامة الصنعانية، ٥٩/١، شرح الشريشى.



الأَقْران، آنسُ لَكَ منْ تِلاَوة القُرآن))[(١)].

وقوله : ((فوَجَدْتَه مُثَافِناً لتِلْميذٍ، عَلى خُبز سَميذٍ، وجِدْي حَنيذٍ، وقُبالَتهُما خَابِية نَبِيذٍ))[(٢)]،وتصل السجعات إلى ست في قوله: ((أقْسمَ بالسَّمَاءِ ذَاتِ الأبْراجِ، والأرْضِ ذاتِ الفِجَاج، والماءِ الثَّجاجْ، والسِّراجِ الوَهَّاج، والبَحْر العُجَاجْ، والهَواءِ والعَجَاج))[(٣)]، وقد يراعي هذه الموسيقى داخل الجملتين كما نرى في المقامة التي يقول فيهـا: ((الكَرَمُ - ثَبَّتَ اللهُ جيْشَ سُعُودِك - يزِينْ، واللُؤْم - غَضَّ الله جِفْنَ حَسُودِك - يشِيْن))[(٤)]، فهنا اتفاق موسيقي بين الكرم واللؤم، وإتفاق موسيقى بين سعودك وحسـودك، وبين يزين ويشين.

والنعماني اتكأ كثيراً على السجع، فلا تقرأ مقامته حتى تجده قد لجأ إليه بين أكثر من جملتين، بل من بدايتها اعتمد على أربع سجعات؛ ليدلل على طول باعه في ذلك، فيقول : ((حَدَّثني بعضُ الإخوانِ، قالَ: نَشَتْ بي قراراتُ الكرمِ ببغدانِ، لِتَواتُرِ نُوبِ الزَّمانِ، واخْتِلاَفِ أرْبَابِ السُّلطان))[(٥)]،وتلاها بخمس سجعات في قوله: ((وَأنَا يومئذٍ ذو غلٍ قمل، وَوَرْدٍ وَشَلٍ، وَقَلْبٍ وجلٍ، وَهَمٍّ متصلٍ، وَجذلٍ مُنْفَصِلٍ))[(٦)]، وأكمل بأربع سجعات في قوله ((فشحذت غرار العزمة، في ركوب غارب الغربة، والأخذ في تنفيس الكربة، وتحقيق الوثبة))[(٧)].

فالسجعات الأربع الأول: الإخوان، ببغدان، الزمان، السلطان، كلها جاءت مجرورة. وكذا السجعات الخمس: قملٍ، وشلٍ، وجلٍ، متصلٍ، منفصلٍ، كلها مجرورة

---

(١) المقامة نفسها، ١/٦٢.

(٢) المقامة نفسها، ١/٦٩، مثافناً: مجالساً، سميذ: أبيض، حينئذ: سمين مشوي، انظر: اللسان، مادة: ثفن، سمذ، حنذ .

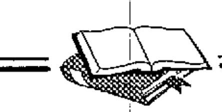
(٣) المقامة الدمشقية، ص٩٥، ت: يوسف بقاعي، الثجاج: المتدفق، انظر: اللسان، مادة:ثجج.

(٤) المقامة المراغية، ص ٥٢، ت: يوسف بقاعي .

(٥) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ٤، ٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥، الغل: جامعة توضع في العنق أو اليد، وأصله أن الغل يكون عليه شعر فيقمل، انظر: اللسان، مادة: غلل.

(٧) المصدر والصفحة نفسها، الغرار: حد السيف، انظر: اللسان، مادة : غرر.



أيضاً، ومثل ذلك في : العزمة ، والغربة، والكربة، والوثبة، فقد أدت هذه السجعات المتواليات إلى هذا اللون الموسيقي الذي تطرب له الأذن.

ونجد **الزمخشري** يسير كما سار كتاب المقامات على نفس نهج البديع في تركيب الجملة المقامية؛ فمعظم الكلمات التي يختتم به الجمل متوازنة، ومسجوعة، بالإضافة إلى التزامه الصيغ اللفظية التي تجعله يعمد إلى لزوم مالايلزم، كما في مقامته التي يقول فيها : ((يآأبا القاسم تَبَتَّلْ إلى الله، وخَلِّ ذِكرَ الخَصْر المُبَتَّل، وَرَتِّل القُرْآن، وعَدِّ عَنْ صفَةِ الثَّغْر المرَتَّل. أَدِرْ عيْنَك فِي وُجُوهِ الصَّلاح لتَعَلّق أصْلَحها. لاَفِي وُجُوه المِلاَح، لتَعْشَق أصْبَحَها))(١).

أو ليست لفظة ((تبتل)) تماثل ((رتل))، و((خل)) تماثل ((وعد))، و((الخصر)) تماثل ((الثغر))، و((المبتل)) تماثل ((المرتل)) ، و((الصلاح)) تماثل ((الملاح))، و((أصلحها)) تماثل ((أصبحها)).

ولعلك لحظت أن الصياغة في أسلوب هذه المقامة، ومعظم مقامات الزمخشري لاتقنع بالموازنة التي تتم بدون تقفية، أضف إلى ذلك لزومها مالايلزم كما رأيت في المقامة السالفة.

والزمخشري كغيره من كتاب القرن الخامس الهجري المولعين بالمحسنات البديعية، والتي على رأسها السجع الذي عول عليه كثيراً كقوله : ((كَذلِكَ الدَّوَاء الإلَهي النَّافِع، والشِّفَاء السَّمَاوِي النَّاجِع))(٢)، فلعلك لحظت الاتفاق الموسيقي بين الدواء والشفاء، بين النافع والفاجع.

والقاريء لمقامات الزمخشري، يجد سجعه لم يسبب عناء، ولم يعقد معنى، ولم يحل بينه وبين تتبع القاريء للفكرة العامة التي تدور حولها المقامة.

وتلحظ هذه الموسيقى في معظم السجعات التي يعول عليها الزمخشري، انظر قوله: ((وإِيَّاكَ أَنْ تَتَناظَر دَارَاكُما، أو تَتَرَاءى نَارَاكُمَا))(٣).

---

(١) المقامة (١٢): الطاعة للزمخشري، ت: يوسف بقاعي، ص ٧٣.

(٢) المقامة (١٣)/ المنذرة، ص ٨١.

(٣) المقامة (٢٢): الولاية، ص ١٣٨.



فهناك اتفاق موسيقي بين تتناظر ، وتتراءى، وآخر بين داراكما وناراكما.

وكذا قوله: ((أَرْضٌ مُذَلِّلَةٌ لِرَاكِبِها، مُقتّلة لِلمشْيِ فِي مَنَاكِبِها))[١]، فالاتفاق بين كلمتي مذللة ومقتلة، وقوله: راكبها ومناكبها.

وفي قوله: ((اخْتَلَسَهُ الحِمَام قَبْلَ أَنْ يَخْلِسَ عَارِضه، وَهَيَّجَ قَبْلَ أَنْ يهيْج بارِضِه))[٢]، ألست تلحظ أن هناك اتفاقاً موسيقياً مردّه تلك السجعات، فبين قوله: أن يختلس وأن يهيج، اتفاق موسيقي، وكذا في قوله عارضه وبارضه ظهر هذا الاتفاق الموسيقي.

وهذا **الأسواني** قد عمد إلى التسجيع بين كلمة الاغتراب، والإياب، والجناب في قوله: ((أَشْتَاقُ إلى الاغترابِ، شَوْقَ الْغَرِيبِ إِلَى الإيابِ، وَأَصْبُو إِلى مُفَارَقَةِ الجَنَاب))[٣]. وبين كلمة : الوطن والأفن والكفن في قوله: ((وَأَرَى مُلَازمةَ الوطنِ، مَجْلَبةً لِلأفنِ، وَمشبهة لادّراع الكفن))[٤]. وبين كلمة : تغريب وتأديب في قوله : ((حتى فلوت الفلوات تشريقاً وتغريباً، وأبدت قوى البيد إسآداً وتأويباً))[٥]. وبين كلمة تشديد وبعيد في قوله: ((فحيانا تحية تشديد، وجلس منا غير بعيد))[٥].

وبين كلمة : فتاويه، ويرويه، في قوله: ((لَمْ يأمنْ أَنْ يأثمَ في فتاويه، وَيَلْحنَ فِيمَا يَرْويه))[٥]. وبين كلمة : الناضح والفاضح، في قوله : ((مَاهَذَا الجمودُ النَّاضِح، والْفَجْرُ الْفَاضِح))[٦]. وبين كلمة : هواه واخترناه، في قوله: ((فَنَزَلْنَا عَلَى حُكْمِ هَوَاهُ، وَأَنزلْنَاهُ مَسْجِداً اخترْنَاهُ))[٦].

كل هذه السجعات دللت على اعتماده كلياً على السجع في صياغة مقامته،

---

(١) المقامة (١٦): التوحيد، ص ١٥٨.

(٢) المقامة (٣٨): الموت، ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) ص١ من مخطوط المقامة الحصيبية، للأسواني، الأفن: نقصان العقل، انظر: اللسان، مادة:أفن.

(٤) المقامة والصفحة نفسها .

(٥) ص٢ من المخطوط.

(٦) ص ١١ من المخطوط .

ولانجد بسببه إخلالاً بالمعنى.

أما عن تركيب الجملة في مقامات **ابن الجوزي**، فنجده كسائر كتاب المقامات من حيث إن معظم الكلمات التي يختتم بها الجمل متوازنة، ومسجوعة، ربما يعمد أيضاً إلى لزوم مالايلزم. فها هو ذا في إحدى مقاماته يقول: ((فَدَخَلْتُ مَدِينةً حَصِينةً، وَرَأيتُ أبنيةً رصينةً))[1]، ألا ترى أن لفظة ((مدينة)) تماثل ((أبنيةً))، ولفظة ((حصينةً)) تماثل ((رصينةً))، أضف إلى ذلك أن كلا الجملتين تصدرها الفعل الماضي متصل به فاعله الضمير البارز (التاء) فالأولى تصدرها الفعل والفاعل ((دخلت))، والثانية بقوله ((رأيت)).

وهذا مثال آخر في مقامة أخرى، يقول فيها : ((تَكَاسَلُوا عَنْ الصّلاةِ، فَإنْ صَلّوهَا نَقّصُوا، وَأَهْمَلُوا جَانِبَ الزّكَاةِ، فإنْ أَخْرَجُوها انْتَقَصُوا))[2].

فلعلك لحظت أن لفظة ((تكاسلوا)) تماثل ((أهملوا)) فكلاهما فعل اتصلت به واو الجماعة، والجملة الطلبية ((فإن صلوها نقصوا)) تماثلها جملة ((فإن أخرجوها انتقصوا)). وقس على ذلك الكثير الكثير، كقوله في المقامة نفسها يصف النار: ((عقابها عميم، وشرابها حميم، وعذابها أليم))[3].

وقوله : ((فِيهَا السّلاسلُ، وَالأغلال، وَالمقامعُ، وَالأنكال))[4].

فالتسجيع بين عميم ، وحميم، وأليم في المثال الأول. وبين السلاسل، والأغلال، والأنكال في المثال الأخير. وكذا بين أويس وقيس، في قوله: ((تَدخلُ في دثارِ أُويس، وَتَخْرُجُ في شِعَارِ قيس))[5].

وبين أشعب وتتعب، في قوله : ((ولاتكن كأشعب تتعب))[6].

---

(١) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، ص ٢٥٣ .

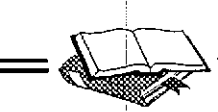
(٢) المقامة (٤٤): في الوعظ ص ٣٥٩.

(٣) ص ٣٦٠.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، مقامات ابن الجوزي، ص٧٩.

(٦) المقامة (٣٧): في العزلة، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٠٢.



وبين الجلوة والخلوة، في قوله: ((هَذِهِ حَالكنّ مَعَهُ في الْجلوةِ، فَكَيْفَ أكونُ أنَا في الخَلْوة؟))[١].

وعليه فإننا نلحظ أن المقاميين آثروا استخدام السجع لأسباب ذكرها أحدهم حين سئل: ((لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن فقال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه اسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولاضاع من الموزون عشره))[٢].

ونخلص إلى أن السجع فيه المذموم، وفيه المقبول، فالسجع المذموم هو المتكلف، وقد قيل: ((عاب -ﷺ- سجع الكهان، لما فيه من تكلف في اللفظ، وتشادق في النطق))[٣]، والرسول -ﷺ- دعا إلى التزام السهولة في الكلام، وعدم التكلف في النطق ، ونهى عن التشادق والثرثرة، فقال: ((أبغضكم إلى الثرثارون المتشدقون المتفيهقون))[٤].

وكتاب المقامة التزموا بذلك إلا البديع والحريري؛ فالتكلف في السجع ظاهر لديهم فخرجوا عما حث عليه الرسول -ﷺ- والتزمته السنة، وأوصى به رسول ا لله -ﷺ-.

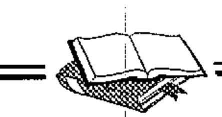
---

(١) المقامة (١٥): في الخائفين، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٥.

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ، ١/١٥٨-١٥٩.

(٣) مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د.الشحات محمد أبوستيت، ص٩، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، مطبعة الأمانة، مصر.

(٤) رواه أحمد في مسنده، ٤/١٩٣، ١٩٤ز



الجنــاس :

بين اللفظين هو:((تشابههما في اللفظ، والتام منه: أن يتفقا في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها ... فإن اختلفا في أعداد الحروف فقط، سمي ناقصاً))(١).

فإذا ماانتقلنا إلى هذا الفن عند **البديع** لمسنا منه الصميم، بل كان غالباً على أسلوبه، فإن عمد إلى مداعبة الألفاظ، وتلاعب بها رغبة في إظهار المقدرة، بدا تكلفه وسقطت رتبته.

يقول د. محمد نبيه حجاب: ((ليست هذه صفة البديع في إبداعه، وإنما هي نزوة قلب، ورياضة عقل، وخطرة نفس، وشطحة قلم، تمسك عنها القلم إنصافاً لمن أطراه الحريري والثعالبي، والحصري: ((هذا اسم - أي البديع - وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، كلامه غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً(٢)))(٣).

إذن فالبديع لم يكن يطلب الجناس بالحافٍ، وإنما كان يقع له عفواً كما يقع لأي كاتب غني التعبير، ومن ذلك قوله: ((بلغتُ الْوَطَنَ، وقضيتُ الْوَطَرَ))، فإنه لو قال: وقضيت الحاجة، أو الأرب، أو اللبانة، أو المأرب، مثلاً، لجاءت موسيقى الجملة الثانية نابية قلقة، بإزاء الأولى. فهدف هذه التجنيسة أولى له أن يكون لإقامة ((الموازنة)).

هذا إلا أن هذه التجنيسة ليست تامة، وإنما غير تامة كما هو واضح، إذ اتفق اللفظان في الواو، والطاء، واختلفا في النون، والراء، فهما من الجناس المضارع ((وهو مااختلفت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وهما متقاربان في المخرج(٤))).

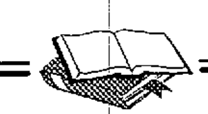
---

(١) الإيضاح ، للقزويني، ص ٥٣٥-٥٣٨.

(٢) زهر الآداب، للحصري، ص ٣٠٧، ط١.

(٣) بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص ٣٤٧، المطبعة الفنية الحديثة. ط١، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م. المطبعة الفنية الحديثة.

(٤) علم البديع، د.بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٥٣.



وكذا قوله في المقامة المضيرية :((لكنَّها أوسعُ مِـني خلقـاً، وَأَحْسَـن خلقـاً)) [١]، وبالرغم من أن هذه التجنيسة غير تامة ونوعها محرفة؛ ((لأن اللفظين اختلفـا في هيـآت الحروف أي في الحركات والسكنات)) [٢]، فإنها لاتدل على أن البديع أعيته نفسه ليـأتي بها، فهي قد تقع للناس جميعاً بدون تكلف ما.

ثم كقوله، وهو يتحدث عن مجنون:((مَاهَذا، وَا لله إلاَّ شَيْطانٌ في أَشْطَان)) [٣].

وكذا في قوله وهو يتحدث عــن بشـر بـن عوانـة:((وحَلَـفَ لَارَكِـبَ حِصَانـاً، وَلَاتزوجَ حَصَاناً)) [٤]، فبين حصان، وحصان جناس غير تام، وهو محرف، وارد بالأولى (بكسر الحاء): الفحل من الخيل والثانية (بفتح الحاء)؛ فيقال امرأة حصـان: أي عفيفـة بينة الحصانة [٥].

وقوله: ((كَمْ تُقَدِّر يَامَوْلَاي أنفقتُ عَلَى هذِهِ الطَّاقةِ؟ أنفقتُ وَا لله عَلَيْهَا فَـوقَ الطَّاقة)) [٦]، فالجناس تام بين الطاقة الأولى والمراد بها النافذة، والثانية: أي فوق القـدرة والإمكان، من قوله أطاق الشيء إطاقةً وهو في طوقه: أي في وسعه [٧]. ونوعـه جناس مماثل ((وهو مااتفقت فيـه الكلمتـان المتجانسـتان في نـوع الأحـرف وعددها وهيآتهـا وترتيبها وكانتا من نوع واحد من أنواع الكلمة اسمية أو فعليـة أو حرفيـة)) [٨]، وهمـا هنا اسمان.

وهذا **ابن نباتة** الذي سيطر التجنيس على اسلوبه كباقي كتاب المقامة، فها هـو ذا يقول في مقامته: ((وَكُلّ مَنْ نَاظِرُه انغلَبْ، وَعَادَتْ فِضَتُهُ منفضةً وَذَهبُهُ ذَهَب)) [٩].

---

(١) ص ١٢٥.
(٢) علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص١٥٦.
(٣) المقامة المارستانية، ص ١٦٠.
(٤) المقامة البشرية، ص ٤٨٤.
(٥) انظر: اللسان، مادة : حصن.
(٦) المقامة المضيرية، ص ١٢٧.
(٧) انظر: اللسان، مادة : طوق.
(٨) علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٤٨.
(٩) مقامة ابن نباتة السعدي، ص١ من المخطوط، والشطر الثاني :
* وكم مثلها فارقتها وهي تصفر * تضمين لبيت ((تأبط شرا)).

وكما في بيت من الشعر ينشئه في هذه المقامة نفسها :

ذَهَبٌ حيثُمَا ذهبْنا ، وَدُرٌ ** حيثُ درنا، وَفضةٌ في الفضاءِ[١]

فقد جنس الذهاب مع الذهب، والدر مع الدوران، والفضة مع الفضاء في بيت واحد. وكما في قوله:

وفارقتهُ والطَّيرُ صَافِرةٌ بهِ ** وَكَمْ مثلُها فَارقْتُهَا وَهي تَصْفُرُ[٢]

فالتجنيس ظاهر في قوله : صافرة، وتصفر جناساً غير تام، ونوعه ناقص «لاختلاف اللفظين في عدد الأحرف»[٢].

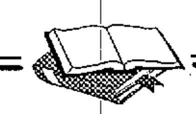
وبين التوسم والتبسم، في قوله: «ثُمَّ أطالَ في الجمعِ التَّوسم، وَأَبْدَى بعدَ العبوسِ التّبسم»[٣].

وفي قوله: «وقدْ ادعيتُمْ مادعيتم إليهِ مِنْ الإجابة، فَهَلُمُّوا إلى مَادُعيتُم، وَبيّنوا المطلوبَ مما دَعيتُم»[٤]، فقد جنس جناساً غير تام في قوله «دعيتم»، فالأولى بمعنى ادعيت الشيء: زعمته لي حقاً كان أو باطلاً، والثانية من قول العرب: لو دعينا إلى أمر لاندعينا: أي لأجبنا[٥].

وفي قوله: «فصدعَ بأَشْهَرِ لَوْنه، ولَمْ يغيّره البيتُ عَنْ لَوْنهِ»[٦]. فالجناس التام في قوله: لونه، فالأولى بمعنى هيئته التي كالسواد والحمرة. فلم تتغير، والثانية: بمعنى أنه لم يتلون فثبت على خلق واحد[٧].

وهناك جناس غير تام، مضارع في قوله: « فوجدْتُهُ كَمَنْ يشيعُ الظَّعنَ،

(١) مقامة ابن نباتة السعدي، ص١ من المخطوط، والشطر الثاني :
(٢) علم البديع ، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص١٥٤.
(٣) المقامة نفسها، ص ٨ .
(٤) المقامة نفسها، ص ٩.
(٥) انظر: اللسان: مادة : دعا.
(٦) المقامة نفسها، ص ٥.
(٧) انظر: اللسان: مادة : لون.



فَذَكَّرَني الطَّعْن»(١) فالتجنيس بين الظعن والطعن، وكذلك بين: تتعسر وتتيسر في قوله: «فجعلتُ أتوسّمُ وجُوه الأنكارِ وَهي تتيّسر، وأتوّهمُ حصولَ الأخْطارِ وهي تتعسّر»(٢)، ويظهر الجناس غير التام اللاحق وهو «ماختلفت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وكانتا متباعدتين في المخرج»(٣). في قوله أيضاً: «مَاهَذا التخلّفُ عَنْ التخلّقِ بأَخْلاَقِ الْقَوم»(٤) بين قوله: تخلف، وتخلق. وبين معترك ومشترك، في قوله: «مَاعَرَفْتُ في المعترَكِ، بغيرِ النَّظَرِ إلى خَاصِّ الأُمورِ وَالمشْتَرك»(٥). وفي قوله: «عرفانُ الحقِّ مريحٌ للنفس، وَمزيحُ اللّبسِ»(٦) فبين مريح ومزيح جناس غير تام مضارع.

وابن ناقيا يلجأ أيضاً إلى الجناس في مقاماته العشر إلا أن الجناس غير التام هو الغالب والمسيطر، أما التام فلانجده؛ إلا فيما ندر، ففي قوله: «فتناولتُ مِنْهَا هِنَايةً هَنية»(٧) جناس غير تام بين هناية وهنية، ولاصه. وهناك جناس غير تام مضارع بين يميناً وكميناً في قوله: «توجستُ حِسّاً يميناً، فتواريْتُ مِنْهُ كَميناً»(٨)، وقوله: «وهو ينشى زَادَهُ، وَكُلّ مَزَاده»(٩)، وقوله: «مَاأَشْبَهَ الجارَ بِالدّارِ»(١٠)، وقوله: «ابْشِرْ بقربِ الدَّار، وَالرَّفيق السَّار»(١١)، فالجناس غير التام بين كل من: زاده ومزاده، والجار والدار، والدار والسار.

---

(١) المقامة نفسها، ص ٥، ٦. إشارة إلى شطر البيت المشهور * ذكرنى الطعن وكنت ناسيا*.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦.

(٣) علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٥٣.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة والصفحة نفسها.

(٦) المقامة نفسها، ص٧.

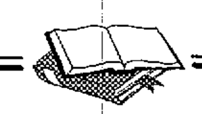
(٧) المقامة (١) ، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٢.

(٨) المقامة (٢) ، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٣.

(٩) المقامة (٣) ، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٦.

(١٠) المقامة والصفحة نفسها.

(١١) المقامة والصفحة نفسها.



أما إذا كان **الحريري** يلتزم السجع التزاماً كاملاً، حتى لانكاد نجد جملتين ملتزمتين بالسجع فإنه يهتم اهتماماً كبيراً بالجناس، حتى نراه أكثر المحسنات البديعية شيوعاً في مقاماته، وإنه ليرصف الجمل، وينشيء القصائد، ويحرص على أن يجيء في كل جملة أو جملتين، أو في كل بيت أو بيتين جناس ومن ذلك قوله يعظ ويؤنب المتعلق بالدنيا: «يَوَاقِيتُ الصِلاَت، أَعْلَق بِقَلْبِك مِنْ مَوَاقِيتُ الصَّلاة»[1]. ويقول: «أرْعَى الجَارَ وَلَو جَار، وأبْذُل الوِصَالَ لِمَنْ صَال»[2].

ولما كان الحريري كلفاً بالجناس، لم يكن يبالي أن تتعثر معاني الألفاظ، أو تثقل أسجاعه، وتسمج من أجل ذلك، إذ كان يؤمن بأن التجنيس من ألوان البديع الجميلة العالية معاً، ويدل على ذلك قوله في المقامة الشعرية: «إِنِّي مُولَع مِنْ أَنْـــواعِ البَلاغَةِ بالتَّجْنِيس، وأَرَاهُ لهَا كالرَّئِيس»[3].

فالتجنيس عند الحريري سيد المحسنات، بل رئيس أنواع البلاغة كلها، وهو رأي شخصي له، من أجل ذلك لم يرعو أن يذكر في هذه المقامة نفسها، زهاء عشرين بيتاً، كل بيت منها مشتمل على ألوان شتى من التجنيسات، التي لم تكن خفيفة مقبولة؛ لأنها لم تكن صادرة عن طبع ولكن عن تكلف وعنت. ومن ذلك قوله: «نَشَدْتُك الله، أَلَسْت الَّذِي أعارَه الدَّسْت؟ فَقُلْتُ: لاَ والَّذِي أَحَلَّكَ فِي هَذَا الدَّسْـت، ومَا أَنَا بِصَاحِب ذَلِكَ الدَّسْت، بَلْ أَنْتَ الَّذِي تَمَّ عَلَيْه الدَّسْت»[4].

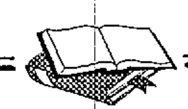
فقد قالها الحاكم بعد أن خدعه أبوزيد وهرب، مخاطباً الحارث بن همام، مكرراً من أجل التجنيس لفظ «الدَّسْت» أربع مرات في مكان واحد، وهي كلمات متفقة في الحروف، مختلفة في المعنى؛ فالأول : معرب بمعنى اللباس، والثاني: للوسادة، والثالث: كرره بلا غناء لأنه بمعنى الأول، على حين اصطنع الدست، الرابع: للقمار،

(١) المقامة (١): الصنعانية، ص٢١. ت: يوسف بقاعي.

(٢) المقامة (٤): الدمياطية، ص ٣٥. ت: يوسف بقاعي.

(٣) المقامة (٢٣)، ص ١٧٣. ت: يوسف بقاعي.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٧٨.



فقد كان أحدهم إذا أخفق في اللعب و لم يفز قيل: ((تَمَّ عَلَيْه الدَّسْت))(١).

وقد حمل الحريري فن الجناس في هذه الفقرة مالايحتمل، وجشمه مالايطيق عليه، ولكن الحريري لم يأبه لركاكة الأسلوب، إذا استقامت له مثل هذه التجنيسات المتتالة، لأنه لم يكن يرى، ولامعاصروه من النقاد، أن مثل هذه الألوان البديعية مما يذم ويعاب. وهذا دأبه، فالحريري قد ألزم نفسه باقتفاء هذا المذهب، فلم تكد تخلو مقامة من مقاماته الخمسين من فن الجناس الذي قد يأتي متكلفاً، وقد يأتي مقبولاً، كقوله: ((يَطْلُبُ جَنَى الأَسْمَار، لاَجَنْيَ الثِّمَار، ويَبْغي مَلَح الحوَار، لامَلْحَاء الحِوَار))(٢).

فقد جنس بين جنى، وجنى، والملح بمعنى الطرائف ونحوها، والملحاء وهي ((لَحْمَةُ وَسَط الظَّهْر بَيْنَ الكَاهِل والعَجْز، وهِيَ أَطْيَبُ اللَّحْم))، ثم بين الحوار، بكسر الحاء، والحوار بضمها وهو ولد الناقة قبل أن يستكمل عاما(٣).

وفي قوله : ((فَقَصَدْتُها وأَنا لاأَعْرِف بِهَا سَكناً، ولاأَمْلِك فِيْها مَسْكناً... قَادَنِي الحظُّ النَّاقِص، والجِدُّ النَّاكِص، إِلى خَان يَنْزِلُه شُذَّاذُ الآفاق، وأخْلاَطُ الرِّفَاق، وهُوَ لِنظَافَة مكَانِه، وظَرافَةِ سُكَّانِه، يُرَغِّبُ الغَرِيب في إِيْطَانِه، ويُنْسِيه هَوَى أَوْطَانِه))(٤) فقد جنس بين سكنا ومسكناً، والناقص والناكص، والآفاق والرفاق، ومكانه وسكانه، وإيطانه وأوطانه جناساً غير تام.

وفي قوله: ((فأَقْسَمْت لَهُ بالَّذِي جَعلَه مُبَارَكاً أَيْنَما كَانَ، ولَمْ يَجْعله مِمَّن خَان في خَان))(٥). يظهر الجناس التام المماثل في كلمة ((خان)) : فالأولى: من الخيانة، والثانية: الحانوت أو صاحب الحانوت، فارسي معرب، قيل الخان الذي للتجار(٦).

---

(١) انظر: اللسان، مادة : دست.

(٢) المقامة (١٦): المغربية، ص ١٢١، ت: يوسف بقاعي.

(٣) انظر: اللسان، مادة : جنى، ملح، حور .

(٤) المقامة (٢٩): الواسطية، ص ٢١٨، ت: يوسف بقاعي.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢٢٥.

(٦) انظر: اللسان، مادة : خون.

وفي قوله : ((واعْرَوْرَيت ظَهْر ابنُ النعامة، واجْفَلت نَحْوها إجْفَـال النَّعامـة))(١)، جانس بين النعامة والنعامة جناساً تاماً،فالأولى:هي فرس الحارث بن عاد،والثانية:طائر، تكون للذكر والأنثى، والنعام أيضاً بغير هاء الذكر منها الظليم، والنعامة الأنثى(٢).

وفي قوله: ((فَهلْ لَـكَ فِي رَفِيْق يَرْفِـق بِـك ويَرْفِـق، وينْفِـق عَليْـك وينْفِـق))(٣). فالجناس غير تام محـرف بـين يرفـق ويرفـق فـالأولى: مـن الرفقـة، والثانيـة: مـن الرفـق العطـف(٤)، وبـين ينفـق وينفـق، فـالأولى: بمعنـى يتخـذ لعيوبـك نفقـاً، والثانيـة: مـن الإنفاق(٥).

وفي قوله :

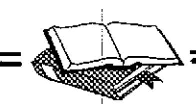
((فَمَشْغُوفٍ بِآياتِ المَثَانِي ** وَمفْتُونٍ برنَّاتِ المَثَانِي))(٦)

فآيات المثاني : آيات سورة الفاتحة، قيل لها مثان؛ لأنها يثنى بها في كل ركعـة من ركعات الصلاة، وتعاد في كل ركعة، وقيل: سميت آيات الحمـد مثـاني، واحدتهـا مثناة، وهي سبع آيات، قيل: لأنها تثنى مع كل سورة، وقيل غـير ذلـك. وأمـا المثـاني الثانية في قوله: ((رنات المثاني))، فالمثناة: هي التي تسمى بالفارسية دوبيني، وهو الفنـاء، والمثاني من أوتار العود: الذي بعد الأول، واحدها مثنى(٧).

والنعماني أيضاً سلك إلى الجناس طريقه في مقامته، مابين تـام وغـير تـام، فمـن أمثلة الثاني قوله: ((لَاحَ بِأُفقِ المرادِ، وَوِفْقَ المرادِ))(٨)، فالمراد: بفتـح الميـم المكـان الـذي يذهب فيه، ويجاء، والمراد: مايتمنى ويوافق الهوى(٩).

---

(١) المقامة (٣٩): الصورية، ص ٢٢٨.
(٢) انظر: اللسان، مادة : نعم.
(٣) المقامة (٣٣): التفليسية، ص ٢٦٠.
(٤) انظر: اللسان، مادة : رفق.
(٥) انظر: اللسان، مادة : نفق.
(٦) المقامة (٤٨): الحرامية، ص ٣٩٨.
(٧) انظر: اللسان: مادة : ثني.
(٨) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ٥.
(٩) انظر: الخريدة، ص٧، اللسان، مادة : درر.



وقوله: ((ذَهَابُ عَمَّارِهَا، وَأَخْرجَ عُمَّارها))، فالأولى يريد بها عمار المتغلبين على طرابلس الشام، وكان أول من ولي منهم طرابلس الشام، أمين الدولة الحسن بن عمار، وكان قاضي طرابلس فاستبد بالأمر فيها سنين، وملك مدينة جبيل، وعجز بدر الجمالي أمير الجيوش عن مقاومته، ولما توفي سنة ٤٦٤هـ، قام مكانه ابن أخيه...[(١)]، وعمارها الثانية: من قولهم: عُمرًا: بالضم أي عاش زماناً[(٢)].

وقوله : ((فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَلِكٌ دَلّ عَلَى مَلِك))[(٣)]، فالأولى: من المُلك والعز، والثانية: من الملائكة[(٤)]. وقوله: ((نَبَا الحدّ، وَعَثر الجدّ))[(٥)]. وقوله: ((واعتصرَ أعصرَهُ، وحَادَثَ أَحْدَاثَهُ))[(٦)]. وقوله: ((مايجب عَلَى سُعَاد إلاَّ الإسْعَاد))[(٧)]، و((فَمَا أعرفُ أَيَنَ سَلَكَ، وَلاَفي أيّ نِصَاحٍ انْسَلَكَ))[(٨)].

فلعلك لحظت أن بين الحد والجد جناساً غير تام لاحق، وكذا بين كل من: اعتصر وأعصره، وحادث وأحداثه، وبين سعاد وإسعاد، وسلك وانسلك، فقد جنس بينهم جناساً غير تام.

ولقد ضمن **الزمخشري** مقاماته أيضاً الكثير من الجناس بنوعيه التام وغير التام، يقول في احدى مقاماته: ((والَّذِي بَيْن دفَّيْه قَلْبُ هَوَاء، قَدْ تَيَاسَرَتْه الشَّهَوات والأَهْوَاءِ))[(٩)].

---

(١) انظر: الخريدة ، ص٧.

(٢) انظر: اللسان، مادة : عمر.

(٣) الخريدة، ص ١٦.

(٤) انظر: اللسان، مادة : ملك.

(٥) الخريدة، ص٥.

(٦) المصدر والصفحة نفسها.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٨) المصدر والصفحة نفسها.

(٩) المقامة (١٠): التسليم، ص ٦٦.

فهواء، وأهواء بينهما جناس غير تام، وفي المقامة نفسها يقول: ((قَدْ رَان عَلَى قَلْبِه حُبّ الدُّنْيَا رَيْنا، وزَانَهُ الشَّيْطَان فِي عيْنِهِ زَيْناَ))[١]. فالتجنيس واضح بين ران ريناً، وبين زان زيناً، إلا أنه جناس غير تام مضارع.

وفي مقامة أخرى يقول: ((تَنْقَضِي عَنْك شُهُور سَنَتِك، وأَنْتَ غَارِزٌ رَأْسَك فِي سِنَتِك))[٢]، فبين سنتك الأولى وهي من السنين، وسنتك الثانية وهي من النوم جناس غير تام محرف. وفي المقامة نفسها يقول: ((رَاكِضاً فِي تِيْه الغَيّ رَوَاحِلك وأَفْراسَك، بَطّالاً مُبْطِلاً قَدْ اصْرَرت إِصْرَاراً، وإِنْ أَعْلن لَكَ النَّاصِح أَوْ أَسر إِسْرَاراً))[٣]، لعلك لحظت أن الجمل السابقة يظهر التجنيس فيها واضحاً، في قوله: أصررت إصراراً، وأسر إسراراً، إلا أنه جناس غير تام مضارع.

وسار **الأسواني** على سنن أصحاب المقامات في اللجوء إلى الجناس، فها هو ذا قد جنس بين كلمة ((واد)) في قوله: ((وكُنْتُ لأَحَطُّ بِوَادٍ، ولأَنْزِل بَحضَر، ولَا بوادٍ إلاَّ صِرْتُ عَلَماً))[٤] على سبيل الجناس التام فالمقصود بوادٍ الأولى: نزل به المكروه وضاق به الأمر، والثانية: الوادي: كل منفرج بين الجبال والتلال[٥].

وكذا في قوله: ((قَدْ جَمَعَ فِتْياناً مَامِنْهم إلاَّ مَنْ يفضحُ بِالذَّكاءِ ابنَ ذَكَا، وَيَتَوَقَدُ لوذعيه وَذَكَا))[٦] ففي كلمة ((ذكا)) جناس تام، فالأولى لابن ذكا وهو لولد رجل اسمه ذكا، والثانية: من الذكاء والفطنة[٧].

وفي قوله: ((فردَدْنَا عَلَيهِ السَّلام وَلَمْ نَكَدْ، وَخِلْنَا أَنَّ مَجْلِسنَا قَدْ نَكِد))[٨] فقوله:

---

(١) ص ٦٧-٦٨ .

(٢) المقامة (١٣): المنذرة، ص ٨٠.

(٣) ص ٨٠.

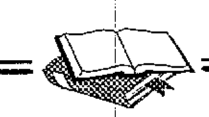
(٤) المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ١ من المخطوط.

(٥) انظر: اللسان ، مادة: ودى.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.

(٧) انظر: اللسان، مادة : ذكا.

(٨) المقامة والصفحة نفسها.



((نكد)) من الفعل كاد: بمعنى قرب من أفعال المقاربة، و((نكد)) الثانية من نكد عيشه اشتد[١]، على سبيل الجناس التام.

ولجأ إلى التجنيس في قوله: ((أيُّها المنتحل للإعرابِ، المفْتِرِي عَلَى الْأَعْراب))[٢] فبين الإعراب، والأعراب جناس غير تام محرف. وفي كلمة((قدحك)) تجنيس تام مماثل في قوله: ((خَابَ وَا لله قَدْحُكَ، وَكَبى زَنْدُكَ وَقَدْحُكَ))[٣] فالأولى من معنى اقتدح الأمر: دبره ، ونظر فيه . والثانية: من قولهم: قدح بالزند: يقدح قدحاً واقتدح: رام الإيراء به[٤].

ولما كان **ابن الجوزي** مولعاً بالجناس نراه يعول عليه كثيراً في مقاماته، كما في قوله: ((فَوَصَلْنَا بعدَ الإذن إِلَى الحِجَابِ، وَإِذَا عَلَيهِ قَهَارِمة وَحُجَّاب))[٥] فبين قوله الحجاب وحجاب جناس غير تام محرف.

وكذا في قوله: ((أقْرَحْتَ بما وَصَفْته لي المَآقي، فقالَ لي: فَاسْمَعْ الْبَاقي))[٦] فبين الماقي والباقي جناس غير تام لاحق.

وفي قوله: ((وَلَقَدْ جَنيتُ مِن ثمرِ غَرْسِ الخلوة، كُلّ ثَمرةٍ حلوةٍ))[٧] فبين الخلوة، وحلوة جناس غير تام مضارع.

وفي قوله: ((أَمَّا مَذْهَبُ أَحْمَدَ أَحْمَدُ مَذْهَب))[٨] فبين أحمد، وأحمد جناس تام فالأولى: اسم أحمد وهو هنا أحمد بن حنبل، والثانية من الحمد والثناء[٩].

---

(١) انظر: اللسان، مادة : نكد.

(٢) المقامة نفسها، ص٧ من المخطوط.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٠.

(٤) انظر: اللسان ، مادة : قدح.

(٥) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، ص ٧٧. القهرم: جمع قهرمان وهو الوكيل،وأمين الدخل والخرج، انظر: اللسان، مادة:قهرم.

(٦) المقامة (١٢): في الغزاة، ص ١٠٠.

(٧) المقامة (١٩): في الخلوة، ص ١٦٠.

(٨) المقامة نفسها، ص ١٦٣.

(٩) انظر: اللسان، مادة : حمد.



وقوله: ((كَمْ عُدْنَا مَرِيضاً وَمَاعُدْنَا، وكَمْ رَأيْنا اللّحودَ تُبْنَى وَمَاتُبْنا))[١] فقوله: عدنا وعدنا بينهما جناس تام،فالأولى من عيادةالمريض،والثانية:من العودة والرجوع[٢]، وكذلك بين تبنى وتبنا جناس تام؛ فالأولى: من البناء، والثانية : من التوبة[٣].

وكذا في قوله: ((وَلَاأريد إلَّا البِرّ، إلَى أنْ وَصَلْتُ إلَى البَرّ))[٤] فبين البر، والبر جناس غير تام محرف، فالأولى: ضد العقوق، والثانية: خلاف البحر[٥].

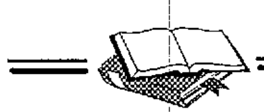
وفي قوله: ((فلاحَ لنَا خِبَاءٌ علَى شَعفٍ،فَاسْرَعْنَا إسْرَاعَ ذِي شَغَفٍ))[٦] فبين شعف وشغف جناس غير تام مضارع.

وفي قوله: ((فَخَلَتْ بدلتُنا مَعَ كثرةِ العالم، مِنْ وَاعِظٍ، وَمِن عَالِمٍ))[٧] جناس غير تام محرف فكلمة العالم الأولى بمعنى الناس، والثانية عالم: أي كثير العلم[٨].

وفي قوله: ((إنَّ هَذِهِ لِشجرةٌ وَرِيقَه، كَأنَا اغتنمُ لَفْظَ هَذَا وَرِيقَه))[٩]، فالجناس التام في كلمة وريقه، فالأولى بمعنى: كثيرة الورق، والثانية: من الريق[١٠].

وفي قوله: ((فنزلَ بِنَا فلَمْ نَزَلْ، في روحٍ مُنذُ نَزَل))[١١] جناس تام، فكلمة نزل الأولى: من الاستمرار بمعنى مستمرين، والثانية: نزل بمعنى حل وأقام[١٢].

(١) المقامة (٣٠): في المحبين، ص ٢٣٧.
(٢) انظر: اللسان مادة : عود.
(٣) انظر: اللسان، مادة : تاب.
(٤) المقامة (٢٩): في ذم إبليس، ص٢٣١.
(٥) انظر: اللسان، مادة : برر.
(٦) المقامة نفسها، ص٣١١، والشعف: رأس الجبل انظر: اللسان، مادة شعف.
(٧) المقامة (٤٤): في الوعظ، لابن الجوزي، ص ٣٥٥.
(٨) انظر: اللسان، مادة :علم.
(٩) المقامة والصفحة نفسها.
(١٠) انظر: اللسان، مادة : ورق.
(١١) المقامة(٤٥):في الأحاجي والمكاتبة والمواعظ،ص٣٦٨،والروح:الطيب.انظر:اللسان،مادة:روح.
(١٢) انظر: اللسان، مادة : نزل.



وفي قوله: ((إِنَّ بي عَيْباً اشْنَؤُه مِني وَلاَ أَرْضَاه، أعاينُ بالإيمانِ غَيْباً ثُمَّ لاَأَعْمَل بمقتضاه))[1]، جناس غير تام مضارع بين كلمة عيب وغيب.

ونخلص إلى أن ولع المقاميين بالجناس مرده ماكان يحدث من أثر صوتي لدى المتلقى، وإثارة لفكره وسمعه فضلاً عما تطويه من مقدرة لغوية لدى المقامى من حيث التلاعب بالألفاظ، ولعل هذا الولع امتداداً طبيعياً لما برر في ذلك العصر من كثرة استخدام المحسنات البديعية عند الكتاب.

(١) المقامة(٤٥): في الأحاجي والمكاتبة والمواعظ، ص ٣٦٩.

الطباق والمقابلة:

((المطابقة وتسمى الطباق، والتضاد أيضاً وهي: الجمع بين المتضادين))[١].

((المقابلة وهو: أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة ثم بمايقابلهما أو يقابلها على الترتيب)) والمراد بالتوافق خلاف التقابل[٢].

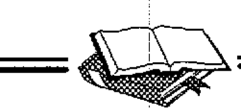
يبدو أنهما كانا في مقامات **البديع** بقدر،فهو لم يتجه إليهما إلا قليلاً.ومن ذلك قوله: ((وإذا المزاح عين الجد))[٣]، فقد جمع هنا بين المزاح والجد، وهذا شأن الطباق.

وقوله: ((فاستعنْ عليهما نَهارَكَ بالصَّومِ، ولَيْلَكَ بالنَّوْمِ))[٤]، فقد جمع بين النهار والليل. وقوله في المقامة نفسها: ((ولكن كَرَمَ اللهِ يزيدُنَا، ولاينقصُهُ وَينفعُنَا وَلَايضُرّه))[٥]، فالتضاد ظاهر بين الزيادة والنقصان، والنفع والضر. وقوله: ((أظهَرُ باللّيلِ، وأخْفَى بالنَّهارِ))[٦]. قابل في قوله هذا بين: أظهر وأخفى، وبين الليل والنهار، فقد جمع بين معنيين، ثم أتى يقابل ذلك على نحو مضاد مرتب في نفس الوقت[٧]، وهذا معنى قولنا: قابل أو المقابلة كما في قوله: ((مايحرمُ السُّكُوت إلاّ عَلَيْكَ، وَلَايَحلُّ النُّطْق إلَّا لَكَ))[٨]، فقد قابل البديع بين معنيين، هما: مايحرم السكوت إلا عليك، ولايحل النطق إلا لك. وقد تقابل يحرم مع يحل، والسكوت مع النطق، وعليك مع لك، وكلها متضادة.

وفي قوله: ((ثُمَّ ترافقْنَا حَتىَّ اجتذَبَني نَجدٌ، وَلَقِمَهُ وَهْدٌ، وَصَعدْتُ وَصَوَّبَ،

---

(١) الإيضاح، للقزويني، ص ٤٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٥.
(٣) المقامة (٢٢): المضيرية، ص ١٢٢.
(٤) المقامة (٤١): الوصية، ص ٣١٦.
(٥) ص ٣٢٣.
(٦) المقامة (٤٢) الصيميرية، ص٣٥٨.
(٧) الإيضاح، للقزويني، ص ٤٨٥.
(٨) المقامة (٣٧): الناجمية، ص ٢٨٨.



وَشَرَّقْتُ وغَرَّب))(١)، فالطباق بين نجد: وهو ماارتفع من الأرض وبين وهد: وهو ماانخفض من الأرض، وبين صعد وصوب، فالأولى: بمعنى سار مرتفعاً، والثانية سار منخفضاً، وبين شرق وغرب

وفي قوله: ((فنظَرَ ذَاتَ اليمينِ، وَذَاتَ اليَسَار))(٢)، فقد طابق بين اليمين واليسار. وقوله أيضاً: ((وَقَصَّرَ سِبَالَه، وأَطَالَ حِبَالَه، وأبْدى شَقَاشِقَه، وغطّى مَخَارِقَه وبَيَّضَ لحيتَهُ، وسَوَّدَ صَحيفَتَهُ، وأَظْهَرَ وَرَعَهُ، وَسَتَرَ طَمَعَهُ))(٣)، فقد طابق البديع بين قصر وأطال، وأبدى وغطى، وبيض وسود، وأظهر وستر.

وقوله أيضاً: ((وأنْتَ لَمْ تَغْرِسْني ليقْلَعَني غُلامُكَ، ولااشْتَرَيْتَني لِتبيعَني خُدَّامك))(٤)، فقد جمع البديع بين الغرس والقلع، وفي الثانية بين الشراء والبيع. وقوله: ((فاعتَضْتُ بالنَّوم السَّهر، وبالإقَامةِ السَّفَر))(٥)، فقد جمع بين النوم والسهر، والإقامة والسفر.

وهذا **ابن نباتة** يعمد إلى الطباق والمقابلة في مقامته، ففي قوله: ((ذَكَرَ الشَّيخُ عَبَارَتَه بمثبتِهِ ومَنْفيهِ))(٦) تضاد بين كلمة مثبت، ومنفي، وكذا في قوله: ((أيكُمْ يخرقُ الحجابَ، وَيفْهَمُ الخطأَ مِنْ الصَّواب))(٦)، فبين كلمة خطأ وصواب طباق يقوم على التضاد. وفي قوله: *يَضْحَكُ الأرضُ مِنْ بُكاءِ السَّماء *(٦).

فالضحك، والبكاء ضدان، وكذا في قوله: ((أتْحِفْنَا بإكسيرِ الحَاظِكَ لِيتَحَوَّلَ... ليلنا بالنّهارِ... وقَالَ في لفظةِ البَديعِ مَاجَرّ الرَّفِيعَ والْوَضِيعَ))(٧)، فالليل، والنهار بينهما طباق، وكذلك الرفيع والوضيع بينهما طباق: وفي قوله:

---

(١) المقامة (٤٧): السارية، ص ٤٠٥.

(٢) المقامة (٤٨): التميمية، ص ٤١٣.

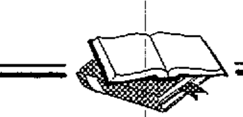
(٣) المقامة (٣٩): النيسابورية، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٤) المقامة (٣٨): الخلفية، ص ٣٠٢.

(٥) المقامة (٩): الجرجانية، ص ٥٧.

(٦) مقامة ابن نباتة السعدي، ص١.

(٧) المقامة والصفحة نفسها.



((خَليلي كَمْ رَوْضٍ نزلت فناءه ** وَفيهِ ربيـعٌ للنَّـزيلِ وَجَعْفَـر
وَفَارَقتهُ وَالطَّـيرُ صَـافِرةٌ بـهِ ** وَكَمْ مثلها فَارَقْتها وَهي تَصْفِرُ))(١)

فبين قوله: نزلت، وفارقت طباق.

وفي قوله: ((أَمَا كَانَ فيكم غيرُ هَذَا ممن يُصيبُ الحرضَ، وَيُزيلُ المرضَ، فانبسطْنَا بعدَ القبضِ))(١)، فالطباق بين يصيب، ويزيل، وبين البسط، والقبض.

وكما في قوله: ((والشّك يمحُوهُ اليقين))(٢)، فالطباق بين الشك واليقين، كما في قوله: ((هَذَا الشّيخ ليرجح فِيمَا يُوجبهُ التَّحْسِينُ وَالتقبيحُ))(٢)، فالتضاد بين التحسين والتقبيح. وفي قوله: ((إنّي أقسِمُ بمحي الميتِ لَقَدْ أَحْسَنَ))(٣)، فالمحي والميت بينهما طباق. وفي قوله:

مَنْظُومُ ذَا النَّهرِ وَمَنْثُورُه ** في ظلّهِ الممدودُ مَقْصُورُ(٤)

فبين النظم والنثر تضاد. وفي قوله:

نَسِيمٌ به يَشْفَى السَّقيم مِنْ الضَّنا ** وَيُضْحِي صَحِيحَ الجسْم وَهو عَلِيلُ(٤)

فصحيح ضدها سقيم أو عليل.

وفي قوله : ((إنَّه أقربُ مِنْ ركوبِ الوعْرِ السَّهْل، وأخُو الحِلْمِ يُظَنُّ بهِ الجهلُ))(٤)، فالطباق بين الوعر والسهل وبين الحلم والجهل.

وكذا **ابن ناقيا** فإن مقاماته لاتخلو من هذا الفن البديعي، ويظهر في قوله: ((وقرنتُ أُخْرَاه بِأُولاَه))(٥)، فالطباق بين أخراه وأولاه، وبين الجنة والنار في قوله: ((وصفَ الدّنيا وزَوالَها، وَالقيامةَ وَأَهْوَالَها، وَالنَّار وعَذَابَها والجنَّةَ وَأَكْوَابَها))(٦).

---

(١) المقامة نفسها، ص٢.

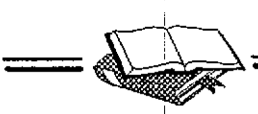
(٢) المقامة نفسها، ص ٣.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص٤.

(٥) المقامة (١)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٢.

(٦) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٤.



وفي قوله: ((خلَعَ أطْمَارَه، وَبَسَطَ إزَارَه، وَأَطْلَقَ يمينَهُ ويسارَهُ))(١) فبين اليمين واليسار تضاد، وفي قوله: ((وَدَعَوْنَاهُ إلى الطَّعامِ فتثاقلَ عَنْ المقام، حَتَّى أقسَمْنَا عَلَيهِ بحرمةِ البلديةِ، فأسرع في الجيه))(٢)، فبين تثاقل وأسرع طباق، وكذا بين أحطط ورفع في قوله: ((وأحطط عينيه، وَجَعَلَ يَرْفعهنّ كَالْقَطَى))(٣). وفي قوله: ((تزعمُ أنَّكَ أَعْمَى مبتلى، وَأَنْتَ صَحيحُ البدنِ، سَليمُ البصرِ مِنْ الصّر))(٤)، فبين البدن الصحيح والمبتلى طباق، وبين سلامة البصر والعمى طباق. وفي قوله: ((تَارةً ينهضُ كالمتأملِ، وتارةً يقعدُ كالمتململِ))(٥) فبين ينهض ويقعد تضاد. وفي قوله : ((وقد نشرتِ السَّماءُ مَطَارِفهَا... وأخذتِ الأرضُ زَخَارِفها))(٦)، فبين السماء والأرض طباق. وكذا بين الفصيح والعيّ، وبين الأفول والقفول، وبين الغروب والشروق في قوله: ((الفصيحُ الألسنِ مِنِ العِيّ الألكَنْ... حَتَّى أَذِنَ النَّهارُ بِالأفولِ وَأَعْلَنَ الظّلامُ بِالقفولِ... وَسَاوِيْنَا بينَ الغُروبِ والشُّروقِ))(٧). وفي قوله: ((وقلْنا أترَى يصيرُ هزلُهُ جِدًّا، وَبَاطِلُهُ حَقًّا))(٨)، فبين الهزل والجد طباق، وكذا بين الباطل والحق.

أما الطباق والمقابلة عند **الحريري** ، فقد كانتا في مقاماته أقل من سواهما من المحسنات ومع هذا فلهما مكان عنده؛ لحرصه على إظهار براعته اللغوية، وإن كان يتعسف النص من وراء ذلك وليس هذا بغريب عليه، فما هو إلا أحد كتاب قرن جعل الحلية اللفظية في المقدمة، انظر إليه وهو يقول في إحدى مقاماته : ((لَسْتُ أَدْرِي أَأَشْكُو ذَلِكَ النَّمّامُ أَمْ أَشْكُر؟، وأتَنَاسَى فِعْلَتَه الَّتِي فَعَلَهَا أَمْ أَذْكُر؟))(٩). فبين قوله

(١) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٦.

(٢) المقامة نفسها، ص ٧.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة (٤)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ١٠.

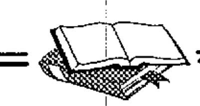
(٥) المقامة (٥)، المقامات الشعر لابن ناقيا، ص١١.

(٦) المقامة (٧)، المقامات الشعر لابن ناقيا، ص١٦.

(٧) المقامة (٩)، المقامات الشعر لابن ناقيا، ص٢٠.

(٨) المقامة نفسها، ص ٢٣.

(٩) المقامة (١٨): السنجارية، ٢/٣٥٠. شرح الشريشي.



أشكو وأشكر تضاد، وكذلك بين قوله: أتناسى وأذكر. وانظر إلى قوله في مقامة أخرى: ((تَأْمُر بِالعُرْفِ وتَنْتَهِك حِمَاه، وتَحْمِي عَنِ النُّكْر ولاَتتَحامَاه))(١). فقد قابل بين معنيين، هما : تأمر بالعرف وتنتهك حماه . تحمي عن النكر ولاتتحاماه.

فقابل تأمر مع تحمي، والعرف مع النكر، والباء مع عن، وتنتهك مع لاتتحامى، وكلها متضادة. وفي قوله: ((ولما حَلَلْتهَا حُلُول الحُوتِ بالبَيْداءِ، والشَّعْرة البَيْضَاءِ في اللَّمةِ السَّوْداء))(٢).

وهذا **النعماني** الذي لجأ إلى التضاد كثيراً، مقارنة بغيره، وعلى أنها مقامة واحدة، فقد كان الطباق مثبوتاً بين ثناياها.

ففي قوله: ((وَهَمّ مُتَّصِل، وَجَذل مُنْفَصِل))(٣)، تضاد بين هم وجذل، وبين متصل ومنفصل، ومن ثم فالجملتان بينهما مقابلة. وفي قوله: ((أستشيرُ الصَّديقَ الصَّدُوق، وأتجنَّبُ في الاستشارةِ العقوق))(٤)، فبين أستشير وأتجنب طباق، وبين الصدوق والعقوق كذلك، وبين الجملتين مقابلة.

وفي قوله: ((بذَّ كُهولَهُ، وَأَحْدَاثَهُ))(٥)، فبين الكهل والحدث طباق. وفي قوله: ((أخرج عمارها، وبقي أغمارها))(٦)، فبين خرج وبقي طباق، وبين عمار وأغمار طباق أيضاً، لأنه قصد بعمار: المعمر طويلاً، وقصد بالأغمار التي هي جمع غمر بالضم فالسكون: الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور، والجملتان بعد بينهما مقابلة. وفي قوله: ((ويشوبُ لي مَحضَ نَصِيحته، بِصَريح قَرِيحَتِهِ))(٧)، فبين يشوب، وبين محض طباق وفي قوله:

---

(١) المقامة (١): الصنعانية، ١/٦٥. شرح الشريشي.

(٢) المقامة (٢٩): الواسطية، ص ٢١٨، ت: يوسف بقاعي.

(٣) خريدة العصر، وجريدة العصر، للأصفهاني، ص٥.

(٤) المصدر والصفحة نفسها.

(٥) المصدر والصفحة نفسها.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧-٨، وانظر: اللسان، مادة : عمر، غمر .

(٧) المصدر نفسه، ص١٠، يشوب: يخلط، محض: خالص، انظر: اللسان، مادة : شوب، محض.



((اركبْ علَى البحرِ إلَى الْبَحـرِ ** وَمل مَعَ المدِّ إلى الجَـــزْرِ
وَاقصدْ إلى البصرةِ، ثُمَّ اعتمــد ** لِقَصْدِ خوزستان في البرّ))[1]

فبين البحر والبر طباق . وفي قوله :

أرَى النَّاسَ طيراً قَدْ أسفّ ومجدُه ** تحلّق في أفقِ العُلَى فَهو البازُ[2]

فبين أسف: دنا من الأرض في طيرانه[3]، وقوله: تحلق ، طباق . وفي قوله:

أقرّ لَهُ بالفضلِ سَامٍ ويَافِـــثُ ** وعجمٌ وأعرابٌ ورومٌ وأنحازُ[4]

فبين عجم وأعراب طباق، وكذا بين قوله: روم وأنحاز وهي جمع النحاز الضم والكسر، وهو الأصل[5].

أما الطباق والمقابلة عند **الزمخشري** فهو كباقي المحسنات له نصيب في مقاماته، كما في قوله: ((ولاتَفْطَن لكَرَّاتِها ودُوَلِها أسَاءتْ أمْ سَرَّتْ، ولَا لأيّامِها وليَالِيهْا أعَقّتْ أمْ بَرّتْ))[6]. ولما كان الطباق يقوم على التضاد، فإن العقوق، والبر بينهما تضاد(طباق).

وكذا كقوله: ((وماالعَيْشُ إلاَّ ضَنَكٌ وَرَغَد))[7]، وقوله في المقامة نفسها: ((فَإِذَا اعْتَورَهُ النَّعِيْم والبُوس ... لايَعْرِف الغَثَاثَة والسّمنَ إلاَّ في بَدنِه ومَاشِيَته، ولَايفْطَن لِلْقِلَّة والكَثْرة إلاَّ فِي ضَبِنَته وحَاشِيَته))[8]. بين لفظ: النعيم والبؤس طباق، وكذلك بين: الغثاثة والسمن، والقلة والكثرة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٤.
(٣) انظر: اللسان، مادة : سفف.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٥.
(٥) انظر: اللسان، مادة : نحز.
(٦) المقامة (٨): الحذر، ص ٦٠.
(٧) المقامة (١٠): التسليم، ص ٦٤-٦٥.
(٨) ص ٦٥-٦٧، ضبنته : عياله، انظر: اللسان، مادة : ضبن .

وفي قوله: ((لم تطر في هامتك، ولادبت في مفاصلك))[١]، فالطيران في الهامة، والدبيب في المفاصل من الطباق الحسن.

وقوله : ((ثم لاتطلق عنه إلا ماترى النطق من الصمت أفضل))[٢]، فقد طابق بين النطق والصمت.

وكذا **الأسواني** فلاتمر صفحة من صفحات مقامته إلا والطباق يتصدر إحدى جملها، ففي قوله: ((إنْ مَدَحُوا الكلبَ ألبسُوه فَخْراً، وَهَجوا المسْكَ صَيّروه شَراً))[٣]، فبين كلمة مدح، وهجاء طباق، ولعلك تلحظ أن بين الجملتين وجه تقارب، ففي الأولى: مدحوا، وفي الثانية: هجوا، والأولى الفعل الماضي ألبس: بفاعله ومفعوله ((ألبسوه))، وفي الثانية الفعل الماضي صار اسمه وخبره صيروه، وفي الأولى فخراً وفي الثانية شراً.

وفي قوله: ((مَنْ لَم يتعلقْ فيها بحبلِ البرهَان تَسَاوَى في حَقّهِ الطّاعةُ وَالْعِصيان، وأشْتَبه عِندَهُ الكفرُ بالإيمانِ))[٤] فالطباق بين كلمة الطاعة والعصيان، وبين الكفر والإيمان تضاد. وفي قوله: ((أجمعُوا عَلَى أَنّهُ علم ... لَايصلُ إِليهِ إِلاَّ مَنْ نظرَ بعينِ فِكْرِهِ، وأَعْمَى عَينَ هَواه))[٥]، فنظر، وأعمى بينهما تضاد. وفي قوله: ((وذلك الكَهْلُ يحملَق إليهم بصَره وَيغمضُ، ويقبلُ عليهم بوجههِ وَيعرضُ، وفي أثناءِ ذَلِكَ يبتسمُ تبسمَ الجَاهِلِ المتغَافِلِ أَوْ العَاقِلِ المتجَاهِلِ))[٥]، فبين يحملق ويغمض تضاد، وبين يقبل ويعرض، وبين الجاهل والعاقل تضاد أيضاً. وفي قوله: ((ويميتُ هَوَى النَّفس، وَيحي لَيلَتَهُ بِالدرسِ))[٦]. فبين يميت ويحي طباق. وكذا في قوله: ((مَنِ اشْتَغَلَ بحبِّ الجاهِ والمالِ، وأهملَ الاستعدادَ لِلمالِ))[٧]، فبين اشتغل وأهمل طباق.

---

(١) المقامة (١١): الصمت ، ص ٧٠.

(٢) المقامة نفسها، ص ٧٢.

(٣) ص١، من مخطوط المقامة الحصيبية، للأسواني،

(٤) ص٥، من المخطوط نفسه.

(٥) ص٦، من المخطوط نفسه

(٦) ص٧ من المخطوط نفسه.

(٧) المقامة (٩): في إيقاظ الغافلين، لابن الجوزي، ص ٧٢.



وهذا آخر كتاب مقاماتنا **ابن الجوزي** يتكيء كثيراً على الطباق في إقامة مقاماته، كما في قوله: ((نَاهٍ عَنْ المنكرِ، وَآمِر بالصوابِ))(١)، فبين كلمة آمر وناه طباق، وكذا: منكر وصواب .

وفي قوله:((يَاجَاعلينَ نَهَارَ الهدَى كَاللَّيلِ البَهيم))(٢)، فنهار وليل بينهما طباق. وفي قوله: ((ولولاَ إعزَازِه إِيّاي هُنْتُ))(٣)، فبين عز وهان طباق. وفي قوله: ((اشكُروا مِنْ العلمِ مَاأَفَدْتَكُمْ، وَاذْكُروا مَامَنَعْتكُمْ مِنْ الجهْلِ وَافَتْكُمْ))(٤)، فبين العلم والجهل تضاد. وفي قوله عن النفس : ((إنْ أيقظتها تَنَاعَسَتْ، وإنْ قدّمْتُها تَقَاعَسَتْ، وإنْ عَاهَدْتُها غدرتْ، وإنْ أصعدْتُ بِهَا انحَدَرتْ، وإنْ قمتُ قعدَتْ، وإنْ قرُبَت بعدتْ، وَإنْ أقدمتُ أَحْجَمتْ، وَإنْ أعربْتُ أعجَمَتْ، وَإنْ أوقدتُ أخمدتْ، وَإنْ شويت رَمَّدتْ، وَإنْ فسّرتُ أَبهمتْ، وَإنْ أنجدتُ أتهمَتْ، وَإنْ أيمنتُ أَعرَقتْ، وَإنْ غرّبْتُ شَرّقتْ))(٥)، فالعبارة مليئة بالتضاد، فبين اليقظة والنعاس طباق. وكذا بين الإقدام والتقاعس، وبين العهد والغدر، وبين الإقدام والإحجام، وهكذا إلى آخر العبارة.

وفي قوله: ((فبقيتُ حَياءً لَا أُمِرُّ وَلَا أُحْلَى))(٦)، فالمر والحلو بينهما طباق. وفي قوله: ((اللذة تفنى، واللذة تبقى))(٧)، فالفناء والبقاء بينهما تضاد. وفي قوله: ((وإنّما يسألُ في البعيدِ لِيقَربَ))(٨)، فالبعيد والقريب بينهما طباق. وفي قوله: ((كُلَمّا بنيتُ قاعدَةَ توبةٍ هُدِمَتْ))(٩)، فبين البناء والهدم طباق، وفي قوله: ((فَهزلْتُ فَجَدّ))(١٠)،

---

(١) المقامة (٩): في إيقاظ الغافلين، لابن الجوزي، ص٧٢.

(٢) المقامة نفسها، ص ٧٢.

(٣) المقامة نفسها، ص٧٥.

(٤) المقامة نفسها، ص ٧٦.

(٥) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، لابن الجوزي، ص٧٨-٧٩.

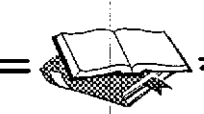
(٦) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، لابن الجوزي، ص ٨٧.

(٧) المقامة نفسها، ص ٩٢.

(٨) المقامة نفسها، ص ١٠٢.

(٩) المقامة والصفحة نفسها.

(١٠) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.



فالطباق بين الهزل والجد. وفي قوله: ((فمجلسةُ عِنْدَ الفطناءِ أَلَذُّ مِنْ الغِنَى بعدَ الفَقْرِ))(١)، فالطباق بين الغنى والفقر، أما قوله: ((مَن امتُحِنَ بِقُرْبِ مَنْ يَكْرَه، كَانَ كَمَنْ بُلِي ببعدِ مَنْ يُحِب))(٢)، فالطباق بين قرب وبعد، وبين يكره ويحب، ثم بين الجملة الأولى والثانية مقابلة.

وعليه فقد حسن أصحاب المقامات كلامهم بالمحسنات اللفظية المذكورة هنا وهى الطباق والمقابلة لأن؛ ((المتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقاً لظهور بعضها ببعض. وإن الصيغة المتقابلة تجعل الشيء كالمحسوس المشاهد))(٣).

(١) المقامة (٣٥: في وصف واعظ، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٧٦.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٧٨.

(٣) كتاب سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، دراسة وتحليل : د.عبدالرزاق أبوزايد، ص١٢٨-١٢٩، مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢م.

الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم:

فالاقتباس هو: ((أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لاعلى أنه منه))[١].

والبديع من خصائص أسلوبه كثرة الاقتباس من القرآن والشعر والأمثال وتضمينها المقامات، تمده بذلك ذاكرة قوية واعية، تختزن مايقرأ، فإذا دعا الداعي إليه انشق في الذهن، وانثال على القلم من غير جهد، أو معاناة.

وأكثر مقامات البديع حظاً من الاقتباس، المارستانية، فقد ورد فيها اقتباس كثير من القرآن بوجه خاص، باعتبار أن موضوعها الرئيسي يعالج مسألة كلامية، وهي مسألة الجبر والاختيار، ومايكتنفها من خلاف وغموض وتعقيد. فقد اقتبس فيها من قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ**﴾[٢]، فقد اقتبسها كاملة كما وردت هكذا في القرآن، ومثلها الآية التي يقول الله تعالى فيها: ﴿**مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾[٤].

وقول **بديع الزمان** في المقامة نفسها: ((وأَنْتَ ياابْنَ هِشامٍ تُؤْمِنُ ببعضِ الكِتَابِ، وتَكْفُرُ ببَعْضٍ))[٥] متضمن لقول الله تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾[٦]، ثم من قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ**﴾[٧]، فهي متضمنة في قول البديع: ((ألَمْ يَنْهَكَ الله عَزَّ وجَلَّ أن تَتَّخِذَ مِنْهُمْ

---

(١) الإيضاح، للقزويني، ص ٥٧٥.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٤، وانظر المقامة (٢٤)، ص ١٥٤-١٥٥.
(٣) سورة الأعراف، آية ١٨٦، وانظر المقامة (٢٤)، ص١٥٦.
(٤) سورة التوبة، آية ٦٥، وانظر المقامة المارستانية، ص ١٥٨.
(٥) المقامة (٢٤): المارستانية، ص ١٥٩.
(٦) سورة البقرة، آية ٨٥.
(٧) سورة آل عمران، آية ١١٨.



بطانة))(١). وفي قوله: ((اذْبَحوا في مَجْرى هَذَا الماءِ بَقَرَةً صَفْرَاء))(٢)، تضمين من قول ا لله تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾(٣)، وفي قوله:

((واضْمُمْ يَدَيْكَ لأَجْلي ** إلى جَنَاحِك عَمْدا))(٤)

تضمين من قوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾(٥)، وفي قوله: ((ولَزِمَني مُلازَمَةَ الغَرِيمِ، والكلْبِ لأصْحَابِ الرَّقِيم))(٦) من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾(٧)، فالرقيم: أصحاب الكهف الذين جرى ذكرهم في الآية من الكتاب العزيز المذكورة سابقاً، وكان لهم كلب لايفارقهم.

وهذا **ابن نباته** نجد الاقتباس والتضمين في مقاماته كغيره من كتاب المقامات، ففي قوله: ((جاء الحق وزهق الباطل...))(٨)، مقتبس لألفاظ القرآن من قوله تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(٩). و قوله: ((وبينكُمَا كَمَا بينَ هَـذَا النَّجـمِ وَالطَّارق))(١٠)، مقتبس من قوله – عز وجل-: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾(١١). و قوله: ((إنَّ الكلامَ يظْهَرُ مِن مَدلُوَلِهِ الجليلُ وَالحقيرُ، ولاَيَسْتَوِي الأعْمَى وَالبَصِير))(١٢) مقتبس من قوله تعالى:

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٥٩.
(٢) المقامة الموصلية، ص١١٨.
(٣) سورة البقرة، آية ٦٩.
(٤) المقامة (١٩): الساسانية، ص ١٠٩.
(٥) سورة طه، آية ٢٢ .
(٦) المقامة (٢٢): المضيرية، ص ١٢٣.
(٧) سورة الكهف، آية ٩ .
(٨) مقامة ابن نباته السعدي، ص ٢.
(٩) سورة الإسراء، آية ٨١.
(١٠) المقامة نفسها، ص ٤ .
(١١) سورة الطارق، آية ١-٣.
(١٢) المقامة نفسها، ص ٥ .



﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾[١]. و قوله: ((وَسَأُنبئكُمْ بِتأويلهِ ليعلمَ كَيفَ أحلّ ببعضِ جمله في تَفْصيله))[٢] مقتبس من قوله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾[٣]، و قوله: فَحَصْحَصَ حينئذٍ الحقّ، وبَانَ بينهما الفرقُ))[٤]، مقتبس من قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾[٥]. و قوله: ((فتكَرّه الجمعُ في أنّ أحدَ مِنْ يَدِهِ الخلاصَ، وَنَادَوا ولاتَ حِينَ مَنَاص))[٦]، مقتبس من قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[٧]. و قوله: ((قالَ المحبر: فكأنما جعلَ علَى القلوبِ الأكنة، ورَمَى الألسن بالخرسِ، وَإنْ كَانَتْ مُطْلَقة الأَعِنة))[٨]، مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[٩]. و قوله: ((فلمّا انقضَى الأَجَلْ، وقَدْ تَسَاوى في عدمِ الجوابِ البطءُ وَالعَجِل))[١٠]، مقتبس من قوله تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى﴾، ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾[١١]. و قوله: ((الآن قَدْ طلبْتُم الحكمةَ مِنْ أَرْبَابِها، وَأتيتُم البيوتَ مِنْ أبوابِها))[١٢]، متضمن لمعنى قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١٣].

---

(١) سورة فاطر، آية ١٩، وسورة غافر، آية ٥٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦.

(٣) سورة يوسف ، آية ٤٥.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) سورة يوسف، آية ٥١.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.

(٧) سورة ص ، آية ٣ .

(٨) المقامة نفسها، ص ٩.

(٩) سورة الأنعام، آية ٢٥، وسورة الإسراء، آية ٤٦.

(١٠) المقامة والصفحة نفسها.

(١١) سورة الأنعام، آية ٤، والآية الثانية: سورة القصص، آية ٢٩.

(١٢) المقامة والصفحة نفسها.

(١٣) سورة البقرة، آية ١٨٩.



وكذا **ابن ناقيا** الذي نجد في مقاماته الكثير من اقتباس القرن، وتضمينه في ثنايا المقامات. كما في قوله : ((كُلٌّ ذلكَ وأنَا معهُ، لأَعلمَ مستقَرَّهُ وَمُسْتَودَعَهُ))[١]، تضمين لقوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[٢]. وفي قوله : ((وقد برحَ الطَّوَى خفانَا، وَطَوَى طيّ السّجل إمعاناً، فقلتُ لِصاحبي: آتنا غَدَاَ نـا))[٣]، من قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾[٤]، وقوله تعالى : ﴿**ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**﴾[٥]. وفي قوله : ((ياأهلَ الدَّار أَمَا تعون، إنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعون))[٦]، اقتباس من قوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[٧]. وفي قوله: ((ولَمْ يلبثْ إلاَّ وهو رَابعنَا بالوصيدِ))[٨]، من قوله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾[٩]. وفي قوله: ((هَذَا صَاحبنا الذي لانريدُ بِهِ بَدَلاً، وَلاَنَبْغي بهِ حِوَلاً))[١٠]، تضمين لقوله تعالى: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا**﴾[١١].

أما الاقتباس والتضمين عند **الحريري** فنجده بكثرة، حتى إن المقامة من مقاماته ربما كانت تشتمل على خمس آيات، كما في المقامة الرازية، وتأمل قوله في المقامة

---

(١) المقامة (٢): من المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٤.
(٢) سورة هود، آية ٦ .
(٣) المقامة والصفحة نفسها.
(٤) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٤.
(٥) سورة الكهف، من الآية ٦٢.
(٦) المقامة (٤)، من المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٩.
(٧) سورة البقرة، آية ١٥٦، في المقامة والصفحة نفسها .
(٨) المقامة (٧) من المقامات العشر لابن ناقيا، ص ١٧.
(٩) سورة الكهف، من الآية ١٨.
(١٠) المقامة (١٠) من المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٢٢.
(١١) سورة الكهف، آية ١٠٨.



الصنعانية: ((وتَستَخفي من مَملُوكِك، ومَاتُخفى خَافِيَة عَلَى مَلِيْكِك))(١)، يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾(٢)، وقوله: ((وتُزَحْزِح عَن الظُّلْم ثُمَّ تَغْشَاه، وتَخْشَى النَّاس، والله أحقُّ أنْ تَخْشَاهُ))(٣) تضمين من قوله تعالى : ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(٤). وقوله: ((فَزفَرَ زَفْرَةَ القَيْظِ، وكَادَ يتميزُ مِن الغيظِ))(٥)، تضمين لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾(٦).

وفي مقامة أخرى قال: ((ثم أخذ بيدي مافي وطابه، ويعجب الحاضرين بفصل خطابه))(٧)، تضمين قوله تعالى : ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(٨)، وفيها اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٩). وفي قوله: ((واصْبِرا عَلَى كَيْدِ الزَّمَانِ وَكَدِّهِ، فَعَسَى الله أَنْ يَأْتِي بالْفَتْحِ أَو أَمْرٍ مِن عِنْدِهِ))(١٠)، فهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾(١١) . وفي المقامة نفسها يقول : ((ثُمّ لأولَيْتُه مَاهُو بِهِ أَوْلَى، ولأَرَيْته أنَّ الآخِرة خَيْرٌ مِن الأُوْلَى))(١٢)، فهو تضمين لقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾(١٣). وقوله: ((كَلَّا سَاءَ مَاتَتوهَّمُون، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

(١) المقامة (١)، شرح مقامات الحريري، للشريشي، ٥٧/١.
(٢) سورة النساء، آية ١٠٨.
(٣) المقامة نفسها، ٦٥/١. "وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه" اقتباسٌ من سورة الأحزاب، ٣٧.
(٤) سورة آل عمران، آية ١٨٥.
(٥) المقامة نفسها، ٧١/١.
(٦) سورة الملك، آية ٨ .
(٧) المقامة (٢): الحلوانية، ٨٩/١.
(٨) سورة ص، آية ٢٠.
(٩) سورة الحجرات، آية ١٢.
(١٠) المقامة (٩): الإسكندرية، ص٧٤، ت: يوسف بقاعي.
(١١) سورة المائدة، آية ٥٢ .
(١٢) ص ٧٦.
(١٣) سورة الضحى، آية ٤.

تَعْلَمَون))(١)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٢). وقوله: ((لِيَهْلِكَ مَنْ هَلكَ عَنْ بَيِّنةٍ، ويَحْيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَة))(٣) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(٤). وفي قوله: ((قَالَ ياقَوْم أَنَا أُنَبِّئكُم بِتَأْوِيله، وأُمَيِّز صَحِيحَ القَوْل مِنْ عَليله))(٥) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾(٦). وفي مقامة أخرى، قال الحريري: ((وارْتَادَ أَنْ تَصْحَبَه تُحْفَة تُلاَئِم هَوَاه، لِيُقَدِّمَها بَيْنَ يَدَيّ نَجْوَاه))(٧)، تضمين من قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾(٨). وقوله: ((فَغَشِيَنِي مِنَ الهَمّ، ماغَشِيِ فِرْعَون وجنُودُه مِنَ اليَم))(٩)، تضمين من قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(١٠). وفي قوله: ((فاقْرأ عَبَس وتَوَلّى، واغْرُبْ عَنّي وإلاّ))(١١)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾(١٢). وفي قوله: ((وشَبِّ البَذْلَ بالضَّبْط، ولاتَجْعَل يَدكَ مَغْلُولَة إِلى عُنُقِك، ولاتَبْسُطْها كُلَّ البَسْط))(١٣)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(١٤). وفي قوله: ((ولاتَيْأسْ مِنْ رَوْحِ اللهِ، إِنَّهُ لاَيَيأَسُ مِنْ رَوحِ اللهِ

---

(١) المقامة (١١): السادية، ٨٤.
(٢) سورة التكاثر، آية ٣/٤.
(٣) المقامة (٢٣): الشعرية، ص ١٧٣.
(٤) سورة الأنفال، آية ٤٢.
(٥) المقامة (٢٤): القطيعية، ص ١٨١.
(٦) سورة يوسف ، آية ٤٥.
(٧) المقامة (١٨): السنجارية، ٢/٣١٥.
(٨) سورة المجادلة، آية ١٢.
(٩) المقامة نفسها، ٢/٣١٦.
(١٠) سورة طه، آية ٧٨.
(١١) المقامة (٤٧): الحجرية، ٣٨٦.
(١٢) سورة عبس، آية ١.
(١٣) المقامة (٤٩): الساسانية، ص ٤١١.
(١٤) سورة الإسراء، آية ٢٩.

إلا القوم الكافرون»[١]، مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[٢].

وهذا **النعماني** يلجأ إلى الاقتباس والتضمين في مقامته من القرآن الكريم، فيقول: «وجاس خلالها العسكر»[٣]، تضمين لبعض ألفاظ القرآن من قوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾[٤]. وفي قوله: «وافتضضْنا عُذْرَ الكلامِ سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام»[٥]، مقتبس من قوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٦]. وفي قوله: *أعيذُ عَطَايَاهُ من المسّ ...*[٧] إشارة إلى المعوذتين في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[٩].

أما الاقتباس والتضمين عند **الزمخشري** فنجده قد اقتبس بعض الآيات القرآنية، وضمنها مقاماته، كغيرة من كتاب المقامات، ففي قوله: «إنَّ المغْتَابَ فَضَّل اللهُ فمَه يأكلُ لَحْمَ المغْتَاب ويَشْرَبُ دَمَه»[١٠]، اقتباس لمعنى الآية في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١١]. والاقتباس نفسه في مقامة أخرى، قال فيها: «فإذَا أنْشَأَ يأكلُ لحْمَ أخيه بالنقيصةِ والثَّلبِ، وَيَلَغ في دَمهِ الحَرَام وُلُوغَ الكَلْب»[١٢]. وأما الاقتباس لفظاً ففي قوله: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ

---

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) سورة يوسف، آية ٨٧.

(٣) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ٧.

(٤) سورة الإسراء، آية ٥ .

(٥) الخريدة، ص ١٠.

(٦) سورة الحاقة، آية ٧.

(٧) الخريدة، ص ١٤.

(٨) سورة الناس، آية ١.

(٩) سورة الفلق، ىية ١.

(١٠) المقامة (١١): الصمت: ص ٧١.

(١١) سورة الحجرات، آية ١٢.

(١٢) المقامة (١٩): العزلة، ص ٩٣.

أُولِي الْقُوَّةِ﴾[١]. وفي قوله: ((ومَتى يَامَنْت بِبَصَرِك إلى جَانِب تَوْبَتِك وَهِي آنَسُ جِهَةٍ وآنقها... جِهَة كأَنَّ الفَجْر المسْتَطِير تَنفَّس فِي أَعْرَاضِها))[٢]، فيه تضمين من قوله تعالى: ﴿**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾[٣]. وفي قوله: ((وأَخْف دَعَاءه فَقَد أَمَرك بالأَخْفَى، وضَرْب السّبات عَلَى الأَذَان))[٤]، الضرب على الآذان من قوله تعالى: ﴿ **فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا**﴾[٥]. وفي قوله في مقامة المراقبة: ((ماأَنْتَ وإِنْ خَلوت وحْدَك بِفَرِيد، مَعَك مَنْ هَو أَقْرَبُ إِلِيْك مِنْ حَبْل الوَرِيد))[٦]، متضمن لقول الله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[٧]. وفي المقامة نفسها يقول: ((وجَنَابَتَيْك حَفِيظَان يَتلقَّيَان))[٨]، من قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ**﴾[٩].

وهذا **الأسواني** يعمد في مقامته إلى الاقتباس والتضمين، ويظهر اقتباسه من القرآن، في قوله: ((وَحسب الحساب مِنْ الفضل المبين، قولُ ربِّ العالمين، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين))[١٠]، مقتبس من قول الله تعالى: ﴿**وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[١١]. وفي قوله: ((وأيم الله لأُرَيَنّكُم جَهْلَكم بأَنَّكم تجْهَلُون، وَليأتينكُمْ أنباءُ مَاكُنْتُم بهِ تَسْتهزؤن))[١٢]، متضمن قوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾[١٣]،

---

(١) سورة القصص، آية ٧٦، انظر مقامة (١٦): القناعة للزمخشري، ص ٩١.

(٢) المقامة (٢١): الندم، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) سورة التكوير، آية ١٨.

(٤) المقامة (٣١): التهجد، ص ١٨٨، ت: يوسف بقاعي.

(٥) سورة الكهف، آية ١١.

(٦) المقامة (٣٧)، ص ٢١٦.

(٧) سورة ق ، آية ١٦.

(٨) المقامة نفسها، ص ٢١٧.

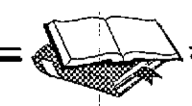
(٩) سورة ق، آية ١٧.

(١٠) مخطوط المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ٣.

(١١) سورة الأنبياء ، آية ٤٧.

(١٢) ص ٦ ، ٧ من المخطوط نفسه.

(١٣) سورة الأنعام، آية ٥.



﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(١). وفي قوله: ((فإنَّه مِنْهُ كقابِ قَوْسَين لَا بَلْ كَطَرفةِ عَيْن))(٢)، متضمن للآية في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(٣). وفي قوله: ((وأخذَ النُّعاسُ باللضم وضربَ ا لله عَلَى الآذانِ، فلَمْ يرعنا إلاّ صوتَ الآذان))(٤)، تضمين من قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾(٥).

أما **ابن الجوزي** فلايضاهيه أحد من كتاب المقامة في اقتباسه من القرآن، فمنذ بداية مقاماته إلى نهايتها لاتخلو من اقتباس للقرآن وتضمينه مقاماته، ففي قوله: ((أفي ا لله شك، فقلتُ لِنفْسِي: كيفَ شَك مَنْ شَك))(٦)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٧). وفي قوله: ((أَنَا أنبئكُم بتَأْويله))(٨)، من قوله تعالى ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون﴾(٩). ((بينَا مُتْرَفهم قَد اطمأَنّ ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾))(١٠) من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ، بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾(١١). ((وكَأَنَّكَ بالأمرِ قَدْ فصّل ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾))(١٢) من قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾(١٣). ((فمنْ نَجا جَازَ قنطرةَ الهوَىَ ﴿بتجارة لن

---

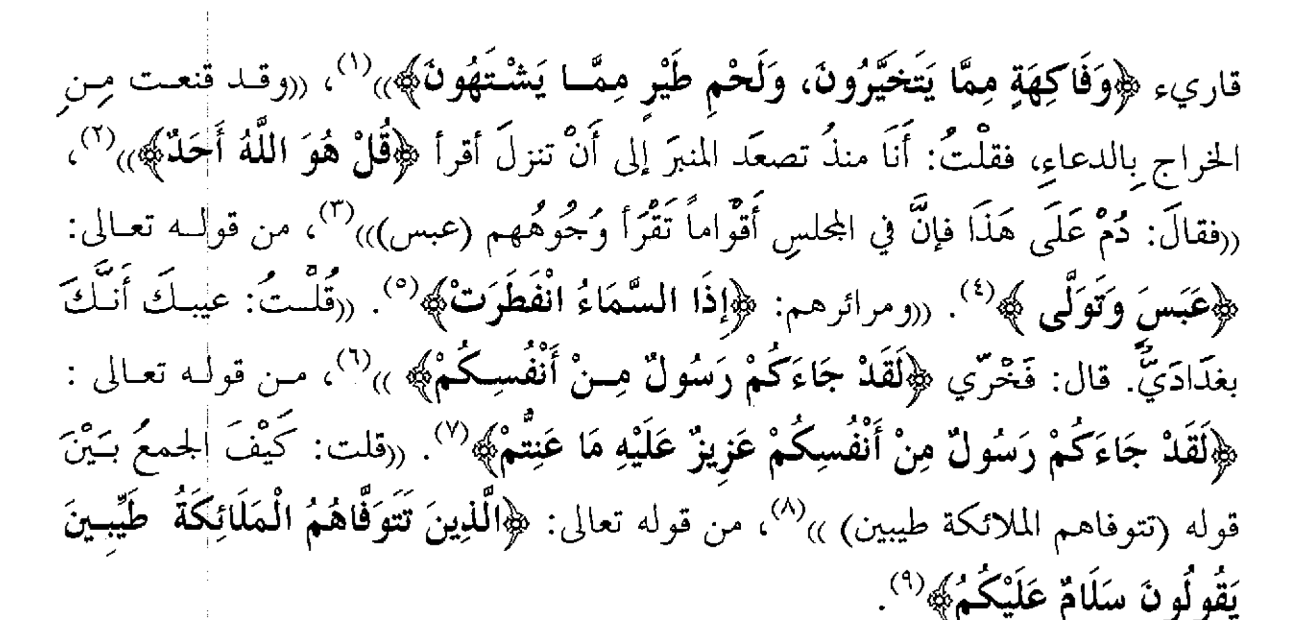
(١) سورة الشعراء، آية ٦ .
(٢) ص ٧ من المخطوط نفسه.
(٣) سورة النجم، آية ٩ .
(٤) ص ١١ من المخطوط.
(٥) سورة الكهف، آية ١١.
(٦) المقامة (١): في حكم الأشياء ص٧.
(٧) سورة إبراهيم ، آية ١٠.
(٨) المقامة والصفحة نفسها.
(٩) سورة يوسف، آية ٤٥.
(١٠) المقامة (٣٤) : في وعظ السلطان، ص ٢٧٣.
(١١) سورة الانشقاق، آية ١٤.
(١٢) المقامة والصفحة نفسها.
(١٣) سورة العاديات، آية ١٠.

تبور﴾[١]، من قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[٢]. «أتلو عليهم (هل أتى) »[٣]، من قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[٤]. «ووجوههم تقرأ ﴿عَبَس﴾»[٥]، من قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾[٦]. «وذهبتْ بالبكاءِ عينُ يعقوب وتحيّر بردّ (لَنْ) موسى»[٧]، من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[٨]. «مِنْ أولئكَ الأشرارِ. فَأَنَا أدعوهُمْ إلى النّجاةِ وَيدْعُونني إلَى النَّارِ»[٩]، من قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى﴾[١٠]. «ثمّ قالَ: يابني اعلم أنّ القرآن يحْتوي على جميعِ الوجوهِ التي تصرفتْ فِيها العربُ، فَمِنْ التجوزِ ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾»[١١]، من قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾[١٢]. «فأخذَ الشيخُ يذمُّ الإخوانَ عَلَى عَادَتهِ. ثم قال (وَمَاوَجَدْنا لأكثرهم مِنْ عَهد) »[١٣]، من قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[١٤]. «قلت ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ »[١٥].

«وَقَدْ اتفقَ الأطباءُ عَلَى أنّ النَّفَسَ البَاردَ في الأمراضِ الحارةِ عَلَامةُ التّلَفِ، فَقَرأ

---

(١) المقامة والصفحة نفسها.
(٢) سورة فاطر، آية ٢٩.
(٣) المقامة (٣٥): في وصف واعظ، ص٢٧٩.
(٤) سورة الإنسان، آية ١.
(٥) المقامة والصفحة نفسها.
(٦) سورة عبس، آية ١ .
(٧) المقامة نفسها، ص ٢٨٣.
(٨) سورة الأعراف، آية ١٤٣.
(٩) المقامة (٣٧): في العزلة، ص ٢٩٩.
(١٠) سورة غافر، آية ٤١.
(١١) المقامة (٤١): في علم القرآن، ص ٣٣٠.
(١٢) سورة الكهف، آية ٧٧.
(١٣) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، ص ٤٠٤
(١٤) سورة الأعراف، آية ١٠٢.
(١٥) المقامة والصفحة نفسها، سورة فاطر، آية ٨ .



قاريء ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾))[١]، ((وقد قنعت مِن الخراج بالدعاءِ، فقلْتُ: أنَا منذُ تصعَد المنبرَ إلى أَنْ تنزلَ أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾))[٢]، ((فقالَ: دُمْ عَلَى هَذَا فإنَّ في المجلسِ أَقْوَاماً تَقْرَأ وُجُوهُهم (عبس)))[٣]، من قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾[٤]. ((ومرائرهم: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾[٥]. ((قُلْتُ: عيبكَ أنَّكَ بغَدَادَيٌّ. قال: فَخْرِي ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾))[٦]، من قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[٧]. ((قلت: كَيْفَ الجمعُ بَيْنَ قوله (تتوفاهم الملائكة طيبين)))[٨]، من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾[٩].

نخلص إلى أن المقاميين لجأوا إلى الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، ولعل السبب في ذلك يعزى إلى إلمامهم بكتاب الله الكريم وفهمهم لمعانيه، وتدبرهم لآياته، إلا أن لابن الجوزي، والزمخشري النصيب الأكبر من تلك الاقتباسات، ويرجع ذلك ربما لنشأتهما الدينية، وحفظهما لكتاب الله، وخاصة الزمخشري الذي تشرب معاني القرآن وألفاظه، فحين كتب مقاماته فإنه لم يكن في غيبة عن حفظ آيات الله وبالتالي تضمينها، ولا أدل على ذلك من تفسيره لكتاب الله العزيز وعكوفه عليه عكوف المتأمل المدقق وكذا ابن الجوزي الذي كان الوعظ نصب عينيه، وليس هناك أفضل من القرآن ليعظ به، فكان لذلك الاقتباس أثره في تحقيق الوعظ وأحد العوامل المؤثرة منه.

---

(١) المقامة نفسها، ص ٤٠٧-٤٠٨، سورة الواقعة، آية ٢١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٠٨، سورة الإخلاص، آية ١.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) سورة عبس، آية ١.

(٥) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، ص ٤٠٨، سورة الانفطار، آية ١ .

(٦) المقامة (٥٠) : في الأخ الصادق، ص ٤١١.

(٧) سورة التوبة، آية ١٢٨.

(٨) المقامة نفسها، ص ٤١٢.

(٩) سورة النحل، آية ٣٢.



الاقتباس من الحديث الشريف :

فهذا **البديع** يعمد إليه، ففي قوله : ((أمَّا أنتَ فحقَّقَ الله آمالَكَ، وجَعَلَ اليَدَ العُلْيَا لَكَ))(١).

فاليد العليا: هي يد المعطي، والعبارة كناية عن الدعاء له بأن يكون معطياً لا آخذاً، وأصل الجملة قوله -ﷺ-: ((**اليد العليا خير من اليد السفلى**))(٢).

وفي قوله: ((وأَنْ تُسَهِّلَ لي عَلَى يَدَيْ مَنْ فَطَرَتْهُ الفِطْرةُ، وأَطْلَعَتْهُ الطُّهْرَةُ، وسَعِدَ بالدِّينِ المتِينِ))(٣). ففي قوله: فطرته: أنشأته، والفطرة هنا الدين من قوله -ﷺ-: ((**كل إنسان تلده أمه على الفطرة**))(٤). وفي قوله :

((رَغِبَ الكِرامُ إلى اللِّئا ** مِ، وَتِلْكَ أَشْرَاطُ القِيامَه))(٥)

إشارة إلى قوله – عليه الصلاة والسلام– في حديثه مع جبريل حين سأله عن علامات الساعة فقال:((**وأن تجد الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**))(٦).

---

(١) المقامة (٥): الكوفية، للهمذاني، ص ٣٤.

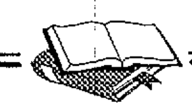
(٢) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٤٤١)، كتاب الرقاق، باب (١١): قول النبي -ﷺ- ((هذا المال خضرة حلوة)). ورواه مسلم تحت رقم (١٠٣٥)، وبدايته: ((إن هذا المال خضرة حلوة...))، وتحت رقم (١٠٣٦)، وبدايته: ((ياابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك...))، كتاب الزكاة، باب (٣١): بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، ٧١٧/٢-٧١٨.

(٣) المقامة (٨): الأذربيجانية، للهمذاني ٥٤.

(٤) رواه مسلم تحت رقم (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب(٦): معنى كل مولود يولد على الفطرة، بزيادة، ٢٠٤٨/٤.

(٥) المقامة (١٣): البصرية، للهمذاني، ص ٧٧ .

(٦) رواه مسلم تحت رقم(٨)، كتاب الايمان، باب(١): بيان الايمان والإسلام والإحسان ووجوب الايمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى .. وبدايته ((بينما نحن جلوس عند رسول الله...)) ٣٦/١-٣٨. ورواه الترمذي عن ابن عمر – رضي الله عنه–، في كتاب الإيمان، باب(٤): ماجاء في وصف جبريل للنبي -ﷺ- الايمان والاسلام، وقال: حديث حسن صحيح، ٨/٥.



وفي قوله: ((رأيتُهُ -ﷺ- في المنامِ، كالشَّمْسِ تَحْتَ الْغَمام، والبدْرِ لَيْلَ التَّمامِ، يسير والنجوم تتبعه))[١]، ولعله أراد بالنجوم جماعة أصحابه -ﷺ- أخذاً من قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((**أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم**))[٢]. وفي قوله:

((ولم أرَهُ إلا أغَرَّ مُحَجَّلاَ ** وماتَحْتَهُ إلا أغَرَّ مُحَجَّلاَ))[٣]

فأصل الأغرّ: الذي في جبهته بياض، والمحجّل: الذي في قوائمه ذلك، وينعت بهما الفاضل البالغ الغاية، كما في حديث رسول ا لله -ﷺ-: ((**أنا قائد الغر المحجلين يوم القيامة**))[٤].

وفي قوله : ((أثارتْني وَرْقَةٌ وَليمَةٌ فأَجَبْتُ إلَيْهَا للحديثِ المأْثُور عَنْ رَسُولِ ا لله -ﷺ-))[٥] ((**لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدي إلي ذراع لقبلت**))[٦].

أما عن الاقتباس من الحديث عند **ابن ناقيا** فيظهر في قوله عن الضب: ((إنَّه مِنْ طعامَ الأعرابِ، وفدَ عَلَى خوانِ النّبي -ﷺ- بعضُ الأصحابِ))[٧]، فعن ابن عباس أنه قال: ((**أكل الضب على مائدة رسول ا لله -ﷺ-، وإنما تركه رسول ا لله -ﷺ- تقذراً**))[٨]. وعن ابن عمر - ﷺ- أنَّ النبي -ﷺ- سُئلَ عَنْ أكلِ الضبّ،

---

(١) المقامة (١٠): الأصفهانية، للهمذاني، ص٦٣.

(٢) رواه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ٩١/٢، وابن حزم في الأحكام، ٨٢/٦ من طريق سلام بن سليم.

(٣) المقامة (١٤): الفزارية، للهمذاني، ص٨١.

(٤) رواه أحمد في مسنده، ٤٣١/٣، ٢٠٧/٤.

(٥) المقامة (١٥): الجاحظية ، للهمذاني، ص ٨٤.

(٦) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥١٧٨)، كتاب النكاح، باب(٧٣): من أجاب إلى كراع... بلفظه، ٢٤٥/٩. ورواه مسلم تحت رقم(١٤٢٩)، كتاب النكاح، باب (١٦): الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة، بنحوه، ١٠٥٤/٢. ورواه أحمد في مسنده، ٤٢٤/٢، ٤٧٩، ٤٨١، ٥١٢.

(٧) المقامة (١)، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٢.

(٨) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥٥٣٧)، كتاب الذبائح والصيد، باب(٣٣): الضب، بنحوه، ٦٦٣/٩. والترمذي في كتاب الأطعمة، باب(٣)، ٢٥٢/٤.



فقال: ((**لاآكله ولاأحرمه**))[١].

وفي قوله: ((وقدْ قالَ صَاحِبُ الشَّرعية: اطْلبُوا في خَبَايا الأرض، فقالَ لَـهُ: في استخراجِ النَّبَـاتِ لَافي نَبْشِ الأَمْـواتِ))[٢]، فالرسـول حـثّ علـى زرع الأرض، والاستفادة مما في حناياها فقال: ((**من أحيـا أرضاً ميتـة فهـي لـه وليـس لعـرق ظـالم حق**))[٣].

وفي قوله: ((ولجأتُ إِلَى التّعوذ بِآي القُرآن))[٤]. وقد كـان رسـول ا لله -ﷺ- يعـوذ الحسـن والحسـين ويقـول: ((**أعيذكمـا بكلمـات ا لله التامـة مـن كـل شـيطان وهامة**))[٥] ((فقالَ لها: إليكِ عَني لَسْتُ مِنْ ددٍ وَلَا دَدٍ مني))[٦][٧].

وفي قوله : ((لستُ بأولِ نبيّ خذلَهُ يَومه وَضَيّعه قَوْمُه)). وقد ورد عنـه -ﷺ- قوله: ((**إني رسول ا لله ولن يضيعني أبداً**))[٨]. وفي قوله: ((فمَا تقولُ في قولِ محمـد -ﷺ-: ((**لانبي بعدي**[٩]))[١٠].

---

(١) رواه مسلم، تحت رقم (١٩٤٣)، كتاب الصيد والذبائح، باب(٧): إباحة الضب، بلفظه، ١٥٤٢,/٣ والترمذي في كتاب الأطعمة، باب(٣)، ٢٥٢/٤، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٤.

(٣) رواه أبوداود، تحت رقم (٣٠٧٣)، عن سعيد بن زيد - ﷺ-، كتـاب الخـراج والامـارة، باب في إحياء الموات، ١٧٨/٣.

(٤) المقامة (٥)، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ١١.

(٥) رواه البخاري في فتـح البـاري، تحـت رقـم (٣٣٧١) كتـاب الأنبيـاء، بـاب(١٠)، بنحـوه، ٤٠٨/٦. والترمذي في كتاب الطب، باب (١٨)، عن ابن عباس - ﷺ- بلفظـه، وقـال: حديث حسن صحيح، ٣٩٦/٤.

(٦) المقامة (٩)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٢١.

(٧) ورد عن رسول ا لله -ﷺ- في كتاب: النهاية في غريب الحديث والأثـر، لابـن الأثـير، ت: طاهر أحمد الزواوي، ومحمود الطناحي، ١٠٩/٢.

(٨) المقامة (١٠)، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٢٢.
رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٤٨٤٤)، كتاب التفسير سورة ٤٨، بـاب(٥)، (إذ يبايعونك تحت الشجرة)، بنحوه، ٥٨٧/٨. وأحمد، ٤٨٦/٣.

(٩) المقامة نفسها، ص ٢٣.

(١٠) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٤٤١٦) كتاب المغـازي، بـاب(٧٨): غـزوة تبـوك وفي غزوة العسرة، بنحوه، ١١٢/٨. وأحمد، ٣٣٣٨/٣، ٣٦٩/٦، ٤٣٨ بلفظ ((إلا أنه ليس بعدي نبي)).

أما **الحريري** فيظهر اقتباسه من أحاديث رسول الله -ﷺ- وتضمينه مقاماته، من مثل قوله: ((وَمُغَالَاةُ الصَّدَقَاتِ، أثَرَ عِنْدَكَ مِنْ مُوالَاة الصَّدَقَات))(١)، مغالاة الصدقات: الزيادة في المهورة، والصدقات واحدتها صدقة وهي الصداق، وهذا متضمن لقول رسول الله -ﷺ-: ((**من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها**))(٢). وفي قوله: ((فازْدَراه القَوْم لطِمْرِيه، ونَسَوا أنَّ المرْء بِأصْغَرَيه))(٣) تضمين لحديث رسول الله -ﷺ-: ((**إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم**))(٤).

وفي قوله: ((أتَرَاكَ مَاسَمِعْت بأَن لَارَهْبَانِيةَ فِي الإسْلام، أَوَمَا حدِّثْت بِمَنَاكح نَبِيك عليْه أَزْكَى السَّلام))(٥) تضمين لقوله - عليه السلام - : ((**إن الرهبانية لم تكتب علينا**))(٦).

وقال سعد بن أبي وقاص: ((رد رسول الله -ﷺ- على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن لاختصينا))(٧). وفي قوله:

((فَمَشْغُوف بآياتِ المثَانِي ** ومفْتُون بِرَنَّاتِ المثَانِي))(٨)

إشارة بذلك إلى حديث رسول الله -ﷺ- حين سمى سورة الفاتحة فقال: ((**هي هذه السورة، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، الذي أعطيت**))(٩).

---

(١) المقامة (١): الصنعانية، ٦٢/١.
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ٧٧/٧، ٩١.
(٣) المقامة (٣٥): الشيرازية، ص ٢٧٢، ت: يوسف بقاعي.
(٤) رواه مسلم برقم(٣٣)، كتاب البر، باب(١٠): تحريم ظلم المسلم وخذله...، ١٩٨٧/٤، وابن ماجه برقم(٤١٤٣) عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، كتاب الزهد، باب(٩)، ١٣٨٨/٢.
(٥) المقامة (٤٣): البكرية، ص ٣٣٩.
(٦) رواه أحمد في مسنده، ٢٢٦/٦.
(٧) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب مايكره من التبتل، ٥/٧.
(٨) المقامة (٤٨): الحرامية، ص ٣٩٨.
(٩) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٤٤٧٤) في قصة عن أبي سعيد المعلى، كتاب التفسير (٦٥)، باب(١): ماجاء في فاتحة الكتاب، بنحوه، ١٥٦/٨.



وفي قولـه: ((الضَّيَافَةُ ثَلاَث))[١]، مقتبس من حديث رسول الله -ﷺ-: ((**الضيافة ثلاثة ايام، وجائزته يوم وليلة، وماأنفق عليه بعد ذلك فهو صدقة، ولايحل له أن يثوي عهده حتى يخرجه**))[٢].

وفي قوله : على لسان الراوي: ((لألحق بمنْ يَقْرُبُ مِنْ الإمامِ وَيُقَرِّبُ أفضلَ الأنعام))[٣]، تضمين لحديث رسول الله -ﷺ- عن أبي هريرة -رضي الله عنه-؛ أن رسول الله -ﷺ- قال: ((**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام، حضرت الملائكة، يستمعون الذكر**))[٤].

وفي قوله: ((فَصِلُوا حَبْلَه بالقَيْلُولةِ، وَاقْتَدُوا فيهِ بالآثارِ المنْقُولة))[٥]. فقد ورد في الأثر أن رسول الله -ﷺ- يقيل، وكذا الصحابة - رضوان الله عليهم- حتى يوم الجمعة، فعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: ((**ماكنا نقيل ولانتغذى إلا بعد الجمعة**))[٦].

فنقيل: من القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم[٧].

---

(١) المقامة (١٥): الفرضية، ص ١٢٠.

(٢) رواه البخاري عن أبي شريح الكعبي - رضي الله عنه-، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف، ٨/٣٩. ورواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الضيافة كم هو؟، ٤/٣٤٥. ورواه أبوداود كتاب الأطعمة، باب ماجاء في الضيافة، ٣/٣٤٢.

(٣) المقامة (٢٨): السمرقندية، ص ٢١٣.

(٤) سبق تخريجه، ص ٣٧٨ .

(٥) المقامة (١٩): النصيبية، ص ١٤٧.

(٦) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٩٣٩)، كتاب الجمعة، باب (٤٠): قول الله تعالى: ((فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله))، بلفظه، ٢/٤٢٧. ورواه الترمذي برقم (٥٢٥) عن سهل بن سعد - رضي الله عنه- بلفظ ((ماكنا نتغذى في عهد رسول الله ولانقيل إلا بعد الجمعه))، كتاب الصلاة، باب (٣٧٨)، ٢/٤٠٤.

(٧) سنن ابن ماجه، ١/٣٥٠، شرح حديث (١٠٩٩).

وفي قوله: ((مازَوَّجُوه إلاَّ عَلَى خَمْسُمِائة دِرْهَم، اقْتِدَاءً بِمَا مَهَر الرَّسُول -ﷺ- زَوْجَاته، وعَقَد بِه أَنْكِحَة بَنَاتِه))[1]. وقد قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: ((**ألا تغالوا صدقة النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند ا لله، لكان أولاكم بها نبي ا لله -ﷺ- ماعلمت رسول ا لله -ﷺ- نكح شيئاً من نسائه، ولاأنكح شيئاً من بناته، على أكثر من ثنتي عشر أوقية، والأوقية عند أهل العلم أربعون درهماً، وثنتا عشر أوقية أربعمائة وثمانون درهماً**))[2].

وهذا **الزمخشري** يعمد إلى الاقتباس في مقاماته من أحاديث رسول ا لله فها هو ذا يقول: ((ولَوْلاَ اسْتِيجابها أنْ تَكُونَ مَرْفُوضَة، لوَزَنَتْ عِنْدَ ا للهِ جَنَاح بعُوضَة))[3]، من قوله -ﷺ-: ((**لو كانت الدنيا تزن عند ا لله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء**))[4].

ويقول : ((وأن يُقْرى الطَّارقُ في الجَفْنَة الغَرَّاء))[5]، فالجفنة الغراء: البيضاء من كثرة الدسم والشحم، وقيل لرسول ا لله -ﷺ-: أنت سيدنا وأنت الجفنة الغراء، فقال: ((**قولوا بقولكم ولايستجرينكم الشيطان**))[6].

ويقول: ((ولاتَرْزَأْ نَصِيبَ المُتَكَفِّفِين))[7]، فالمتكفف: الذي يبسط كفه

(١) المقامة (٢٩): الواسطية، مقامات الحريري، ص ٢٢١، ت: يوسف بقاعي.

(٢) رواه الترمذي برقم(١١١٤)، عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كتاب النكاح، باب(٢٣)، ٤٢٣/٣، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) المقامة (٦): الزهد، للزمخشري، ص ٤٥، ت: يوسف بقاعي.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٤٧٢٩)، كتاب التفسير، سورة ١٨، باب(٦): ((أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم))، بنحوه، ٤٢٦/٢. والترمذي برقم (٢٣٢٠) عن سهل بن سعد - رضي الله عنه- كتاب الزهد، باب(٢): ماجاء في هوان الدنيا على ا لله -عز وجل- بلفظ : ((لو كانت الدنيا تعدل عند ا لله ...))، ٥٦٠/٤، وقال حديث صحيح.

(٥) المقامة (٣٣): التصدق، للزمخشري، ص ١٩٦، ت: يوسف بقاعي.

(٦) رواه أحمد في مسنده، ٢٥/٤.

(٧) المقامة نفسها، ص ١٩٩.



للسؤال، أو الذي يطلب مايكف به حاجته، ومنه قول رسول ا لله -ﷺ- لسعد بن أبي وقاص: ((**لئن تدع أولادك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس**))(١).

ويقول : ((وإِيَّاكَ أَنْ تَتَناظَر دَارُكُما أو تَتَرَاءى نَارُكُما))(٢)، من قوله -ﷺ-: ((**لاترآ اى نارهما**))(٣). ويقول: ((وأَعْتَقِد أنَّ الخَطْبَ ليْسَ مِنَ الَّدَد إِنَّمَا هُوَ مِنَ الإِدَد))(٤). واللدد: اللعب من قوله -ﷺ-: ((**ماأنا من ددٍ ولا الدد مني**))(٥). أي ولاشيء من اللعب مني .

وفي قوله: ((أَنْ نُعذَّبَ عَنْ آخِرِنَا، ونُكَبَّ في النَّارِ عَلَى مناخرنا))(٦). وفي الحديث الشريف: ((**وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**))(٧). وفي قوله: ((وَيَلَغُ فِي دَمِهِ الحَرَامِ وَلُوغَ الكَلْبِ))(٨)، اقتباس من حديث رسول ا لله

---

(١) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٣٩٣٦)، كتاب مناقب الأنصار، باب(٤٩): قول النبي -ﷺ-: ((اللهم أمض لصحابي هجرتهم))، وبدايته: ((الثلث ياسعد ...)) بنحوه، ٢٦٩/٧. ورواه الترمذي برقم (٢١١٦)، كتاب الوصايا، باب(١): ماجاء في الوصية بالثلث، بلفظ: ((إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة...))، ٤٣٠/٤.

(٢) المقامة (٢٢): الولاية للزمخشري، ص ١٣٨.

(٣) رواه الترمذي برقم (١٦٥٤)، عن جرير بن عبدا لله - رضي الله عنه- ابواب السير عن رسول ا لله -ﷺ-، باب(٤١): ماجاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، ٨٠/٣، وبداية الحديث: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين...)).

(٤) المقامة (٢٨): التصبر، ص ١٦٨.

(٥) سبق تخريجه ، ص٤٥٧ .

(٦) المقامة (٢٩): الخشية، للزمخشري، ص ١٧٨.

(٧) رواه أحمد في مسنده، ٢٢٧/٥، ٢٣١. والترمذي برقم (٢٦١٦) عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- كتاب الإيمان، باب(٨): ماجاء في حرمة الصلاة، ١٢/٥. وابن ماجه برقم(٣٩٧٣)، كتاب الفتن، باب(١٢): كف اللسان في الفتنة بلفظ: ((هل يكب الناس على وجوههم في النار...))، ١٣١٤/٢.

(٨) المقامة (١٩): الغزلة، للزمخشري، ص ١١٤.



-ﷺ- حين قال: ((**لايلغ أحدكم كما يلغ الكلب ...**))[١].

وهذا **الأسواني** قد ضمن مقامته بعض الإشارات إلى أحاديث رسول الله -ﷺ- مثل قوله: ((فحيّانَا تحيةَ تشديد، وجلَسَ مِنّا غيرَ بَعيد، فَرَدَدْنَا عَليهِ السَّلام وَ لَمَ نكَدْ))[٢]، ففيه تضمين لمعنى حديث الرسول-ﷺ- حين حث على رد السلام فقال: ((**لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولاتؤمنوا حتى تحابوا، أولاأدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام**))[٣]، وعنه - عليه السلام- قال: ((**يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير**))، وفي رواية للبخاري: ((**والصغير على الكبير**))[٤]. وقد استشهد بحديث رسول الله -ﷺ-: ((**إنَّ مِنْ الشّعر لحكما**))[٥]. ليوضح فضل علم الشعر على سائر العلوم[٦].

وفي قوله: ((المدحُ في المحضرِ كَالْهجاءِ))[٧]، أشار بذلك إلى قوله -ﷺ- مرة للمادح: ((**ويحك قصمت ظهره**))، وفي رواية : ((**ويحك قطعت عنق صاحبك**))[٨].

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٣٤٣١) عن ابن عمر - رضي الله عنه- كتاب الأشربة، باب(٥): الشرب بالأكف والكرع، ٢/١١٣٤.

(٢) المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ١ من المخطوط.

(٣) رواه مسلم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، كتاب السلام، باب فضل السلام والأمر بإفشائه، ٤/١٧٠٤.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري برقم (٦٢٣٢)، عن أبي هريرة - رضي الله عنه- كتاب الاستئذان، باب(٥): يسلم الراكب على الماشي بلفظه، ١١/١٥.

(٥) رواه الترمذي تحت رقم (٢٨٤٥)، عن ابن عباس - رضي الله عنه- كتاب الأدب، باب ماجاء أن من الشعر حكمة، ٥/١٣٨.

(٦) المقامة نفسها، ص ٢.

(٧) المقامة نفسها، ص ١١.

(٨) رواه البخاري في فتح الباري برقم (٢٦٦٣)، كتاب الشهادات، باب(١٧): مايكره من الإطناب في المدح وليقل مايعلم، بنحوه، ٥/٢٧٦. وأحمد في مسنده من حديث أبي بكرة الثقفي - رضي الله عنه-، ٥/٤٦، ٤٧.

وابن الجوزي يقتبس من أحاديث رسول الله -ﷺ- الكثيرة، ويضمنها مقاماته، كقوله: ((ولايتناجا اثنان دون الثالث))[١] ففيه تضمين لقوله -ﷺ-: **((إذا كانوا ثلاثة فلايتناجى اثنان دون الثالث))**[٢].

وفي قوله:((ثُلْثٌ للطَّعامِ،وثُلْثٌ للشَّرابِ، وثُلْثٌ للنَّفس))[٣]، إشارة إلى حديث رسول الله -ﷺ-: **((ماملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لامحالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه))**[٤].

وفي قوله: ((فاحْذَرُوا إعادَةَ النَّظر))[٥]، فقد حذر منه رسول الله -ﷺ- حين قال لعلي: **((ياعلي لاتتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة))**[٦].

وفي قوله : ((لايفلحُ قَوْمٌ تملكهم امْرَأة))[٧]، اقتباس من **((لا، لن يفلح قوم تملكهم امرأة))**[٨].

وفي قوله : ((اعلَمْ أنَّ تَرْكَ النِّكاحِ رَهْبَانية))[٩]، ولارهبانية في الإسلام

---

(١) المقامة (٧): في الحب وإيثار محبة الحق، مقامات ابن الجوزي، ص ٥٦.

(٢) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٢٨٨)، كتاب الاستئذان، باب(٤٥): لايتناجى اثنان دون الثالث، ٨١/١١. ورواه الترمذي عن ابن عمر -رضي الله عنه- كتاب الأدب، باب(٥٩)، ١٢٨/٥، بلفظ آخر، وقال حديث حسن صحيح. ورواه مالك، في الموطأ، كتاب الكلام باب ماجاء في مناجاة اثنين دون واحد، ٩٨٩/٢.

(٣) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، مقامات ابن الجوزي، ص ٩١.

(٤) سبق تخريجه ، ص ١٥.

(٥) المقامة (١٣): في النهي عن النظر' ، مقامات ابن الجوزي، ص ١٠٦.

(٦) رواه أبوداود تحت رقم(٢١٤٩) عن شريك - رضي الله عنه-، كتاب النكاح، باب مايؤمر به من غض البصر، ٢٤٦/٢. ورواه الترمذي تحت رقم (٢٧٧٧)، كتاب الأدب، باب(٢٨)، وقال حديث حسن غريب، ١٠١/٥.

(٧) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.

(٨) رواه أحمد في مسنده، ٤٣/٥، ٤٧، ٥١، ٦٥.

(٩) المقامة (١٩): في الخلوة، ص ١٦٣



لقوله -ﷺ-: «**إن الرهبانية لم تكتب علينا**»[١].

وفي قوله : «ربما علقتَ بالحسنِ المبين فَأَرْدَاكَ، فعليكَ بذاتِ الدِّينِ تربتْ يَدَاك»[٢]، فهو مقتبس من قوله -ﷺ-: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[٣].

وفي قوله: «أمَا سَمِعْتَ ماجَاءَ في الحديثِ عن المصطفى أنَّه قَالَ: «مَنْ بَدَا جَفَا»[٤]، فقد ورد عنه -ﷺ- أنه قال: «**من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن**»[٥].

وفي قوله: «إذَا تَزَوّجَ الرجلُ وَلَمْ يُولِمْ يُولَمْ»[٦]، فقد حث بما حض عليه رسول الله -ﷺ- حين قال لعبدالرحمن بن عوف بعد أن تزوج: «**بارك الله لك، أولم ولو بشاة**»[٧].

ونخلص إلى أن الاقتباس والتضمين من الحديث الشريف وجد لدى كتاب المقامات، لأنهم يعلمون أهميته، التي عرفت منذ عهد مبكر، إلا أنه يظهر عند ابن الجوزي، والزمخشري أكثر من بقية المقاميين يليهم ابن ناقيا والحريري.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ٦/٢٢٦ .

(٢) المقامة (٣٦): في دواء العشق، ص ٢٩٥.

(٣) سبق تخريجه ، ص ٣٢١ .

(٤) المقامة (٣٧): في العزلة، ص ٢٩٨.

(٥) رواه الترمذي برقم (٢٢٥٦)، عن ابن عباس - رضي الله عنه -، كتاب الفتن، باب٦٩، ٤/٥٢٢.

(٦) المقامة (٥٠): في الأخ الصادق، ص٤١٥.

(٧) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥١٦٧) كتاب النكاح باب(٦٨): الوليمة ولو بشاة. بنحوه، ٩/٢٣١. والترمذي برقم (١٠٩٤) عن أنس - رضي الله عنه - في كتاب النكاح، باب(١٠) ماجاء في الوليمة، ٣/٤٠٢.

الاقتباس من الشعر :

نلحظ اقتباس **البديع** لشعر غيره وتضمينه مقاماته، كما في قوله: ((فاسْتَصْحِبْ لي عَدُوّاً في بُرْدَة صَديق))(١)، أخذ هذه العبارة من قول أبي نواس :

إذا امتحَنَ الدُّنْيا لبيبٌ تكَشَّفَتْ ** لَهُ عَنْ عَدُوٍّ في ثياب صَديق(٢)

ويقول : ((فَنِضْوُهُ طَليحٌ، وعَيْشُهُ تَبْريحٌ، وَمِنْ دُونِ فَرْخَيْه مَهَامِهُ فِيحٌ))(٣)، فالجملة الأخيرة أخذها من قول عوف بن محلم :

تنوحُ وَفرْخَاهَا بحيْثُ تَرَاهُمَا ** وَمِنْ دُونِ أفْراخي مَهَامِهُ فِيحُ

وفي قوله: ((ومَنْ مَلَكَ الْفَضَلَ فليُوأَسِ، فَلَنْ يَذْهَبَ العُرْفُ بينَ الله والنَّاسِ))(٤)، مأخوذ من قول الحطيئة في قصيدة من بحر البسيط يمدح بغيضا ويهجو الزبرقان:

من يصنع الخير لايعدم جوازيه ** لَايذْهَبُ العرفُ بينَ اللهِ والنَّاسِ(٥)

وفي قوله : * وقوام مَتّى مَاتَرقّ العينُ فيهِ تَسهل *(٦)

مأخوذ من معلقة امريء القيس في وصف الفرس:

وَرُحْنَا وَرَاحَ الطرفُ ينغضُ رَأْسَهُ ** مَتّى مَاترقّ العينُ فيهِ تَسهل(٧)

---

(١) المقامة (٣): البلخية، للهمذاني، ص ٢٢.

(٢) انظر: ديوان أبي نواس، ت: أحمد عبدالمجيد الغزالي، ص٦٢١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٣) المقامة (٥): الكوفية، للهمذاني، ص ٣٣.
أما النضو فجمعه الأنضاء، وهو البعير المهزول، والطليح: التعب الذي لايقوى على السير، والتبريح: الشدة، والمهامِه: جمع مهمه وهو الصحراء، وفيح: أي متسعة، انظر: اللسان، مادة: نضو، طلح، برح، مهمه، فيح.

(٤) المقامة نفسها، ص ٣٤.

(٥) انظر: ديوان الحطيئة، ص ١٠٩، برواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، شرح: أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

(٦) المقامة نفسها، ص٤٠، والمقامة (١١): الأهوازية، ص٦، الشطر الثاني من البيت .

(٧) ديوان امريء القيس،حسن السندوبي،ص١٠٣،المطبعة الرحمانية بمصر،١٣٤٩هـ-١٩٣٠م.



وفي قوله :

«وأمّا مُجاشعُ الأرذُلــونَ ** فلم يَسْقِ مَنْبتَهُــمْ رَاجِـسُ
سَيَعْقِلُهُمْ عَنْ مَسَاعي الكِرَام ** عِقَالٌ، ويَحْبِسُهُمْ حَابِسُ»(١)

فالبيت الأخير أصله من قول جرير:

ومازَالَ مَعْقُولاً عِقَالٌ عنِ الندى ** ومازَالَ محبوساً عن المجدِ حَابِسُ(٢)

ويقول:

«وفِينَا مَقامَاتٌ حسانٌ وجُوهُهُم ** وأنديَةٌ يَنْتابُها القَـوْلُ والفِعْـلُ
على مُكْثِريهم رِزْقُ من يَعتَريهِـمُ ** وعِنْدَ المقلّينَ السَّمَاحةُ والبذْلُ»(٣)

والبيتان لزهير بن أبي سلمى من قصيدةٍ مطلعها:

صَحَا القلبُ عن سَلْمىٰ، وقدْ كَادَ لايسلو
وأَقْفرَ من سَلْمىٰ التَّعَانِيقُ فالثقْلُ(٤)

وفي قوله :

«يُطَوِّفُ مايُطَوِّفُ ثُمَّ يأْوِي ** إلى زُغْبٍ مُحَـدَّدةِ العُيُـونِ
كسَاهُنَّ البِلَى شُعْثاً فتُمْسِـي ** جِيَاعَ النَّابِ ضامِرَةَ البُطُونِ»(٥)

---

(١) المقامة (٧): الغيلانية، للهمذاني، ص ٥١.

(٢) انظر: ديوان جرير، لكرم البستاني، ص ٢٥٤ من قصيدة بعنوان «إياكم والقين» يهجو فيها الفرزدق، مجموعة ديوان العرب .

(٣) المقامة (٩): الجرجانية، للهمذاني، ص٥٧.

(٤) المقامة والصفحة نفسها، وهي في الديوان :

وفيهم مقامات حسان وجوهها ** وأندية، ينتابها القول والفعل
على مكثريهم حق من يعتريهم ** وعند المقلين السماحة والبذل

انظر: شرح شعر زهير بن أبي سلمى، أبوالعباس ثعلب، ت: د. فخرالدين قبادة، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٥) المقامة (١٣): البصرية، للهمذاني، ص ٧٦.

=

ويلحظ أن هذين البيتين هما في قول الحطيئة:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ ** زُغْبُ الحَواصِل لَامَاءٌ ولاشَجَرُ(١)

وكذا **ابن ناقيا** نلحظ فيمقاماته أنه يتمثل بشعر غيره، كما في قوله :

لَقَدْ كَانَ لي في أهلِ الْغَضَا، لَوْ دَنَا الْغَضَا
مزارٌ، وَلكنَّ الغضَا لَيْسَ دَانيا(٢)

تمثل بشعر غيره، وهو لمالك بن الريب من مرثيته لنفسه، وهي المرثية السابعة من بحر الطويل، كما قسمها صاحب الجمهرة، ومطلعها :

أَلا ليتَ شعْرِي، هَلْ أبيتَنّ ليلةً
بجنبِ الغَضَا، أُزجي القِلَاصَ النَّوَاجِيا؟(٣)

وفي قوله:

مَنْ رَاقبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَر بِحَاجتِهِ،
وفازَ بالطَّيباتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ(٤)

فإن البيت من منظوم بشار بن برد(٥).

= فزغب : جمع أزغب، والمراد الأطفال الصغار، ومحددة العيون: كثيرة الشخوص والنظر لعودته، ينتظرون مافي يده، وشعث: أي غير متغيرون؛ لعدم من يرعاهم ويحافظ عليهم. انظر: اللسان، مادة : زغب، حدد، شعث.

(١) انظر: ديوان الحطيئة، ص١٦٤، برواية الشيباني شرح أبي سعيد السكري، وهي قصيدة من بحر البسيط.

(٢) المقامة (٣): المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٦.

(٣) انظر: جمهرة أشعار العرب، للقرشي، ص٧٥٩-٧٦٠، ت: د. محمد علي الهاشمي، جـ٢، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر (٦) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية.

(٤) المقامة (٥) من مقامات ابن ناقيا، ص ١٢.

(٥) انظر: ديوان شعر بشار بن برد، جمع السيد: محمد بدرالدين العلوي، ص٦٠ وهي من بحر البسيط، من قصيدة قالها في خشابه. دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٣م.

وفي قوله : * فاحبِبْ بِهَا مقتولةً حينَ تقتل *[١]

وهذا من شعر الأخطل ، وقد ورد في ديوانه برواية :

فقلتُ اقتلُوها عنكمُ بمزاجِهَا ** فأطِيبْ بِهَا مقتولَةً حينَ تقتل

من قصيدة قالها في مدح خالد بن عبدا لله بن أسيد بن أبي العيص بن أميـة[٢]، وهي من بحر الطويل.

وتمثل بقول الجعدي:

خِيطَ عَلَى زَفْـرةٍ فَتمَّ وَلَم ** يرجعْ إلى دقـةٍ ولاهضـم[٣]

وتمثل بقول عبيد:

أفلحْ بما شِـيتَ فَقَـدْ يرديك الـ ** ضَّعف وَقَدْ يجدعُ الأريب[٤]

وبقول العباس الأحنف:

أتأذنونَ لِصَبٍ في زَيارَتِكم ** فعندكم شَهَواتُ السَّمعِ والْبَصر[٥]

أما **الحريري** فيمزج بين الشعر والنثر في مقاماته، وجميع الأبيات الواردة في

---

(١) المقامة (٦) من مقامات ابن ناقيا، ١٢.

(٢) انظر: شرح ديوان الأخطل، إيليا سليم الحاوي، ص٢٦٣، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

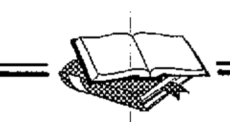
(٣) المقامة (١): المقامات العشر لابن ناقيا، ص١. وانظر: شعر النابغة الجعدي، ص١٥٦، وهو من بحر الطويل، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

(٤) المقامة (٨)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ١٩، وقد ورد البيت في الديوان برواية:

أفلح بما شئت فقد يبلغ بالـ ** ضعف وقد يخدع الأريب

انظر: ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٢٦، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٥) المقامة (٩)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٢٠، وانظر: ديوان العباس بن الأحنف، ص١٧٢، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، من بيتين بعنوان: عف الضمير فاسعد النظر.



المقامات من إنشائه ماعدا أربعة أبيات؛ منها: حين أبدى أحد الحضور إعجابه بقول البحتري:

كَأنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ ** مُنَضَّدٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاحِ(١)

امتعض وقال: يالضيعة الأدب، وأنشد بيتين ضمنهما معنى بيت البحتري السابق قائلاً :

«نَفْسِي الْفِداءُ لِثغرٍ رَاقَ مَبْسَمُهُ
وَزَانَه شَنَبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنَبِ
يَفْتَرُّ عَنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ وَعَنْ بَرَدٍ
وَعَنْ أقاحٍ، وَعَنْ طَلْعٍ، وَعَنْ حَبَبِ»(٢)

وأما قوله :

سَأَلْتُها حِينَ زَارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِهَا الـ
قَاني وَإيداعَ سَمْعِي أَطيَبَ الْخَبَرِ
فزَحْزَحَتْ شَفَقاً غَشَّى سَنَا قَمَرٍ
وساقَطَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ خَاتمٍ عَطِرِ(٣)

فهو تضمين لقول أبي الفرج الغساني الدمشقي «الوأواء الدمشقي» في قوله:

فأمطرتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ، وَسَقَتْ
وَرْداً، وَعَضَّتْ عَلَى العُنَابِ بِالْبَرَدِ(٤)

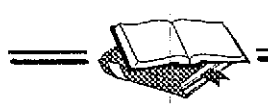
---

(١) المقامة (٢): الحلوانية، ٩٨/١، شرح الشريشي.

(٢) المقامة نفسها، ٩٩/١، شرح الشريشي، ومنه: الثغر: الأسنان، مبسمه: موضع ابتسامه، يعني الفم، الشنب: الماء القليل الجاري على الأسنان، وقيل الشنب: برد الأسنان والفم، رطب: أي طري، الطلع: أول حمل النخلة، وهو الفرخ فإذا انشق فهو الضحك، وبه تشبه الأسنان في بياضه، الحبب: تنضد الأسنان، انظر: اللسان، مادة : ثغر، بسم، شنب، رطب، طلع، حبب.

(٣) المقامة نفسها، ١١٤/١، نضو: كشف، انظر: اللسان، مادة: نضو.

(٤) المقامة نفسها، ١٠٢/١.



وهذان بيتان، الأول: للبحتري، والثاني: للوأواء الدمشقي، أما البيتان الآخران فهما لابن سكرة الهاشمي، وأولهما :

«جَاءَ الشّتاءُ وَعندِي مِنْ حَوائِجهِ

سَبعٌ إذَا القطر عَنْ حَاجَاتِنَا حُبِسَا»(١)

ويدور الشعر الوارد في مقاماته حول الغزل والوصف، والشكوى والاستجداء والفخر، والمدح، والوعظ، والتوبيخ، والخداع، والمجون، ويرد أيضاً في الحكمة والإخوانيات.

ويضمن الحريري مقاماته شطرين من أبيات الشعر، وقد يأخذ شطرة ويبقيها كما هي، كما في المقامة الزبيدية حين باع أبوزيد ابنه إلى الحارث على أنه عبد، وأنشد الغلام أبياتاً؛ منها:

عَلَى أنّي سَأُنْشِدُ عِنْدَ بَيْعِي ** أَضَاعُونِي، وأيّ فَتىً أَضَاعُوا(٢)

والشطرة الثانية من بيت لعبدا لله بن عمر الشهير بالعرجي، والبيت :

أَضَاعُونِي وَأيّ فَتىً أَضَاعُوا ** ليوم كَرِيهةٍ وَسَدَادِ ثَغْرِ(٣)

وقد يأخذ شطرة ويوردها ضمن النثر، وقد يغير فيها قليلاً وقد يبقيها كما هي، وفي المقامة الساسانية في حديث بين أبي زيد وابنه يقول الولد لأبيه: «وَلأقتدينّ بِآثارِكَ الواضِحَة، حَتّى يُقالَ: ماأَشْبَهَ اللّيلةَ بالبارحةِ.. فاهتَزّ أبو زيد لجوابهِ، وابتسمَ، وَقَالَ: مَنْ أَشْبهَ أباهُ فَمَا ظلم»(٤)، فقوله ماأشبه الليلة بالبارحة من قول طرفة، من قصيدة لعمرو بن هند يلوم أصحابه في خذلانهم إياه:

« كُلّ خَليلٍ كنتُ خَاللتُه ** لاتَرَكَ ا لله لَهُ وَاضِحَه

(١) المقامة (٢٥): الكرجية، ص ١٩٣.

(٢) المقامة (٣٤): ص٢٦٦.

(٣) الأغاني، ٣٨٨/١، الدار التونسية للنشر.

(٤) المقامة (٤٩): الساسانية، ص ٤١٣.

كُلّهم أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَـــبٍ ** مَاأَشْبَه اللَّيلة بالبارحَةِ))(١)

وقول أبي زيد: ((من أشبه أباه فما ظلم)) مأخوذمن قول رؤبة بن العجاج ضمن أبيات منسوبة له:

بأبهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ في الكرمِ ** وَمَنْ يُشَابِه أَبهُ فَمَا ظلـم(٢)

وقيل : بل هو مثل أخذه الناس من قول كعب بن زهير:

أَنَا ابنُ الذي لَم يُخزني في حَياتِهِ

قَدِيماً، وَمَنْ يُشْبِه أَبَاهُ فَمَا ظلم(٣)

وقد غير فيه أبوزيد تغييراً طفيفاً. وقد يأخذ الحريري جملة من بيت ويورها في نثره، كما نرى في المقامة البكرية، حيث يقول: ((فانْبَرَى لي يافعٌ، في وَجْهِهِ شَافِع))(٤)، فالجملة الثانية مأخوذة من قول ابن قنبر المازني:

في وجههِ شَافع يَمْحُو إِسَاءَتَهُ ** مِنْ القلوبِ وَجَيهٌ حَيثمَا شَفَا(٥)

وقد لايورد النص كما هو، وإنما نرى في أبياته آثار التضمين، ففي المقامة الساوية يقول أبوزيد، وهو يعظ:

((أَمَا نَادَى بِـكَ المـوت ؟ ** أَمَا أسمعكَ الصَّوت؟

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص١١٨، شرح الأعلم الشنتمري، ت: درية خطيب، لطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

(٢) شرح ابن عقيل، ١/٥، دار الاتحاد العربي، وانظر مجموع اشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج، ص ١٨٢، تصحيح: وليم بن الورد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(٢)، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٣) انظر: شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله -ﷺ-، جمال الدين محمد ابن هشام الأنصاري، ص٨٣، ت: د.محمود حسن أبوناجي، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط(١)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٤) المقامة (٤٣)، ص ٣٣٦.

(٥) المقامات الأدبية ، للحريري، ص ٣٥٤.

أَمَا تَخْشَى مِن الْفَـــوْت؟ ** فَتَحْتَاطَ، وَتَهْتَـم»[١]

ولعلك تلمح في البيتين قول أبي العتاهية :

«كَمْ غَافلٍ أَوْدَى به الموت ** لَمْ يأخذْ الأهبةَ لِلفـــوت

مَنْ لَم تزلْ نعـــمته قبلـــه ** زالَ عَنْ النعمةِ بِالموت»[٢]

وهذا **أبوطلحة النعماني** يقتبس من شعر غيره، ويضمنه مقامته كما في قوله:

أَخَضر الجلدة مِنْ نَسلِ العربِ ** يملأُ الدّلو إلى عقدِ الكربِ[٣]

فالشطر الأول مأخوذ من قول اللهبي كما جاء في الصحاح: الخضرة في ألـوان الناس، السمرة:

وَأَنَا الأخضرُ مَنْ يَعْرِفُـــني ** أَخْضَر الجلدةِ مِنْ بيتِ الْعَرب

والشطر الثاني ورد في الصحاح في (س ج ل)، وقال: والمساجلة: المفـاخرة، بأن تصنع مثل صنعه في جري أو سقي، واصله من الدلو، وقال الفضل بـن عبـاس بـن عتبة بن أبي لهب:

مَنْ يُسَاجِلني يُسَاجِلُ مَاجِـداً ** يَملأُ الدَّلو إلى عَقْدِ الكربِ[٤]

وهذا البيت موجود في مقامة لبديع الزمان الهمذاني وفيها يقول :

أخضرُ الجلدةِ في بيتِ الْعربِ ** يملأُ الدّلو إلى عقدِ الكربِ[٥]

وابن الجوزي رغم أنه في مقاماته يلجأ إلى الشـعر مـن منظومـه، فإنـه يعمـد إلى الاقتباس من أشعار غيره، ويضمنها بعض مقاماته، فقوله:

« هَلاّ سألتِ الخيلَ ياابنةَ مَالكٍ ** إنْ كنتِ جَاهِـــلةً بما لَمْ تَعْلَمِي

---

(١) المقامة (١١)، ص ٨٥.

(٢) ديوان أبي العتاهية، ص ٥٤.

(٣) خريدة القصر وجريدة العصر، عمادالدين الأصبهاني، القسم العراقي، ٢/٥.

(٤) انظر: الصحاح، الجوهري، مادة : خضر، سجل.

(٥) المقامة (٦): الأسدية ، للهمذاني، ص ٣٨ .

يخبركِ مَنْ شهدَ الوقيعةَ أنَّني ** أَغْشَى الوغَا، وَأعفّ عِنْدَ المغنم»[١]

فالبيتان من منظوم عنترة بن شداد[٢].

وحين عاب على العشاق تصرفاتهم تمثل بعض أشعارهم، في قوله :

« إنّي لأَجلسُ في النّادِي احدثهم ** فاستفيقُ وقدْ غَالتني الغُـــول

يَهْوِي بقلبي حَدَيث النَّفس نَحوكُم ** حَتّى يقولُ جَليسي:أَنْتَ مخبولُ»

وقوله :

« وشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الحديثِ سِوَى ** مَاكَانَ منْكِ فإنَّـــه شُغْـــلي

وأَدمتُ نَحوَ مُحدّثي نظَـــــري ** أيْ، قَدْ فَهِمتُ، وَعِنْدَكُم عَقْلِي»

وقوله:

«برَبِّك هَلْ ضَمَمْتَ إليكَ ليلَـــى ** قُبيلَ الصُّبح أَو قبلــتَ فَاهَـــا؟

وهلْ رَّفتْ عليكَ قُـــرونُ ليلى ** رَفِيفَ الأقحوانةِ في نَدَاهَـــا؟»[٣]

والأبيات كلها لمجنون ليلى[٤] .

أما الأبيات التالية فقد تمثل فيها بقول عروة بن حزام فقال:

جعلتَ لِعرّافِ اليمامةِ حُكْمَـــــهُ ** وعرّاف نجدٍ إنْ هُمَا شَفيَاني

فقالاَ: نعمْ تشفَى مِنْ الدّاء كُلّـــه، ** وَرَاحا مَعَ العُوادِ يَبْتدِرَانــي

فَمَا تَـرَكَا مِـنْ سَلْـوةٍ يعلمانِهَـا ** وَلاشَربةٍ إلاَّ وقَـــدْ سَقيَاني

---

(١) المقامة (١٢): في الغزاة، مقامات ابن الجوزي، ص ١٠٢.

(٢) ديوان عنتره، ص٢٥، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٣) انظر: المقامة (٣٦): في دواء العشق، ص٢٨٩.

(٤) ديوان مجنون ليلى، فالبيتان الأوليان، ص١٤٥، والـتي تليهمـا ص١٤٤، والأخـيرين ص٣٥، وقد ورد البيت الرابع برواية :

واديم فيه محدق نظري ** أن قد فهمت وعندكم عقلي

انظر: شرح ديوان مجنون ليلى، محمود كامل فريد، مطبعة حجازي بالقاهرة.

فقالَا شَفَاكَ ا للهُ وا للهِ مَالنا ** بما ضُمِّنَتْ منكَ الضّلوعُ يَدَانِ))[(١)]

وهذه أبيات لأبي فراس الحمداني تمثل بها في إحدى مقاماته؛ فقال:

لقـد ضَلَّ من نحوي هَـــواهُ خريـــدةٌ ** وقد زَلّ مَنْ تقضي عليهِ كعابُ
ولكنّي والحمـــــدُ للـــــه حَـــازِمٌ ** أعــز إذا ذَلّتْ لَهُنّ رقـــــابُ
ولاتملكُ الحسْـــنَاء قلبي كُلّـــــه ** وَلَو شمِلَتهْـا رقـــةٌ وشـــبابُ
وَأجْرى وَلَاأعْطِي الهوىَ فَضْلَ مِقْوَدي ** وأهفُو وَلَايخـفَى عَليّ صَـــوابُ
صَـــبورٌ، ولَـوْ لَم تبــقَ مِني بقيــــةٌ ** قئولٌ،وَلَوْ أنّ السيوفَ جَوابُ[(٢)]

وللمتنبى بيتان تمثل بهما ابن الجوزي في إحدى مقاماته، وهما:

وَمَاالدّهرُ إلاَّ مِنْ رُواةِ قَصَائِدي ** إذَا قُلْتُ شِعْراً أصبحَ الدَّهرُ مُنْشِدا
فدعْ كُلَّ قَوْلٍ غَيرَ قَـولِي فإنَّني ** أنَا الصَّائِحُ المحَكّيُّ وَالآخرالصّدَى[(٣)]

وعليه نلحظ أن كتاب المقامة، عمدوا إلى الاقتباس من الشعر، وتضمينه مقاماتهم، ولعل هذا يدلل على حافظة قوية واعية، ورغبة في حفظ التراث الشعري، وكون المزواجة بين النثر الذي أقيمت عليه المقامة وتضمينه بالأبيات الشعرية يحدث اثارة لانتباه السامعين، فضلاً عن الأثر الذي تحدثه القافية من جرس صوتي مرده بحور الشعر وتفعيلاته، هذا ماحدا بالمقاميين تضمين مقاماتهم لكثير من الأبيات الشعرية.

---

(١) المقامة والصفحة نفسها، وانظر ديوان: عروة بن حزام، ص١٢.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٩١، وانظر: ديوان أبي فراس الحمداني، من قصيدة بعنوان: ((أما لجميل))، ص١٣؛ وهي من بحر الطويل، شرح وتقديم عباس عبدالسلام، ط(١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م، دار الكتب العلمية.

(٣) المقامة (٥٠): - في الأخ الصادق- ص٤١١، انظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ناصيف اليازجي، دار القلم، بيروت، لبنان، والبيتان من قصيدة قالها أبوالطيب في مدح سيف الدولة الحمداني يهنئه بعيد الضحى سنة٣٤٢، ولكن ورد البيت الثاني برواية:

ودع كل صوتٍ غير صوتي، فإنني ** أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ص٣٨٨ .

الاقتباس من الأمثال :

لقد عمد كتاب المقامات معظمهم إن لم يكن كلهم إلى اقتباس الأمثال، وتضمينها مقاماتهم وأولهم **ابن نباتة** فهاهو ذا يقول: ((وَرُبّ إصابةٍ مِنْ غَيْرِ رَامي))[(١)]، ومن قولهم: ((ورب رمية من غير رامٍ))، أي رب رمية مصيبة حصلت من رام مخطيء، لا أن تكون رمية من غير رام؛ فإن هذا لايكون قط، وقالها الحكم بن عبد يغوث المنقري، وكان أرمى أهل زمانه، وآلى يميناً ليذبحن مهاة، فحمل قوسه وكنانته، و لم يصنع يومه ذلك شيئاً، وبات ليلته على ذلك، وأقسم ليقتل نفسه إن لم يذبحها في تلك الليلة، وخرج مع ابنه المطعم، فإذا هما بمهاة فرماها فأخطاها فقال ابنه: ياأبتى اعطني القوس، فأعطاه فرماها فلم يخطئها، فقال أبوه: رب رميةٍ من غير رامٍ[(٢)].

ومثلهما **ابن ناقيا** الذي أخذ من الأمثال وضمنها مقاماته كما في قوله: ((وأنى لك مقروع))[(٣)]، مثل وأصله : ((حنت ولاتهنت، وأنى لك مقروع))، ومعنى حنت ولاتهنت: أن غرضها: إنما كان ليجري اسمه على لسانها حنيناً إليه، لانصحاً لأبيها وتحذيراً، و((لاتهنت)) على الدعاء، أي لاهنأها الله ذلك[(٤)]، وفي رواية: ((حنت ولات هنت وأنى لك مقروع))،هنت:من الهتين وهو الحنين،ولات:مفصولة من هنت، أي لات حين هنت، فحذفت ((حين)) لكثرة مايستعمل لات معه، وقصة المثل: أن الهجمانة بنت العنبر بن عمرو بن تميم تعشق عبشمس بن سعد، وكان يلقب بمقروع، فأراد أن يغير على قبيلة الهيجمانة، فعلمت بذلك الهيجمانة فأخبرت أباها، فقال مازن بن مالك بن عمرو: حنت ولات هنت، أي اشتاقت، وليس وقت اشتياقها، ثم رجع من الغيبة إلى الخطاب؛ فقال: وأنى لك مقروع، أي من أين تظفرين به؟

---

(١) مقامة ابن نباتة السعدي، ٥ .

(٢) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص٥١، ٣١٢، مجمع الأمثال، للميداني، ص١/٢٩٩.

(٣) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٦.

(٤) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٤٨.



ويضرب لمن يحن إلى مطلوبه قبل أوانه[١].

وفي قوله: «ماأشبه الجار بالدار»[٢]، من المثل القائل: «الجار قبل الدار»[٣]، وفي رواية : «الجار ثم الدار»، ومعناه إذا أردت شراء دار فسل عن جوارها قبل شرائها[٤].

وفي قوله : «كأنه من العي لما أن تكلم باقل»[٥]،فباقل رجل ضرب به المثل في عيه،فقيل:«إنه لأعيا من باقل»،وهو رجل من ربيعة،وكان غبياً[٦]، وقيل هو من إياد، بلغ من عيه أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فمر بقوم، فقالوا له: بكم اشتريت الظبى؟ فمد يديه، ودلع لسانه، يريد أحد عشر، فشرد الظبي، وكان تحت إبطه[٧].

أما الاقتباس والتضمين من الأمثال عند **الحريري** فيلحظ في قوله :

« فراودناه على أن يعود، وأن لايكون كقدارٍ في ثمود»[٨]، تضمين لمثل؛ لأن قدار هو: عاقر ناقة صالح، وهو مثل يضرب في الشؤم فيقال: أشأم من قدار[٩].

وفي قوله: «ينزو ويلين»[١٠]، ضمن هذا المثل مقامته، وهو يضرب لمن يتعزز ثم يذل، ويقال: إن أصله أن الجدي ينزو وهو صغير، فإذا كبر لان[١١].

---

(١) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ١/١٩٢-١٩٣، عبشمس، عبء الشمس، ضوءها، فحذف الهمة، وسمى ذلك لأنه كان وسيم الوجه حسن الخلقة.

(٢) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٦.

(٣) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص٢٧٧.

(٤) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ١/١٧٢.

(٥) المقامة(٣)، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٧.

(٦) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٣٦٨.

(٧) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ٢/٤٣.

(٨) المقامة(١٨): السنجارية، ص ١٣٥.

(٩) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٣٣٢.

(١٠) المقامة والصفحة نفسها.

(١١) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٥٣، مجمع الأمثال للميداني، ١/١٢٥.



وفي قوله: ((لابساً جلد النمر))[١]، ضمن هذا المثل مقامته، ويضرب للمتقح الجريء، لأن النمر أجرأ سبع وأقله احتمالاً للضيم[٢].

وفي قوله: ((أفلت وله حصاص))[٣]، أيضاً ضمن هذا المثل مقامته وهو يضرب لمن نجا من هلكة أشفى عليها بعد أن كاد يهوي فيها، والحصاص: العدو، وقيل إنه الضراط[٤].

وفي قوله: ((لقد تحككت العقرب بالأفعى، واستنت الفصال حتى القرعى))[٥]، مثلان، الأول: ((لقد تحككت العقرب بالأفعى))، ويضرب لمن ينازع من هو أقوى منه، والثاني: ((استنت الفصال حتى القرعى))، ويضرب لمن يتكلم مع من لاينبغي له أن يتكلم معه[٦].

وفي قوله : ((تزوجت هذه لتؤنسني في الغربة، ... فلقيت منها عرق القربة))[٧]، لقيت منها عرق القربة، مثل يضرب لمن يلقى شدة من الأمر الذي يزاوله، كما أن حامل القربة يلقى جهداً حتى يعرق[٨].

وفي قوله: ((فقال عند الصباح يحمد القوم السرى، فهل ترى كما أرى))[٩]، فـ((عند الصباح يحمد القوم السرى))، مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة[١٠].

---

(١) المقامة والصفحة نفسها .
(٢) انظر: الأمثال لابن سلام، ص٣٥٣، مجمع الأمثال للميداني، ٢/١٨٠.
(٣) المقامة والصفحة نفسها.
(٤) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٢٠، مجمع الأمثال للميداني، ٢/٧٠.
(٥) المقامة (٣٧): الصعيدية، ص٢٨٨.
(٦) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٢٨٦. مجمع الأمثال، ١/٣٣٣.
(٧) المقامة (٤٠): التبريزية، ص ٣٠٤.
(٨) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٥٣. مجمع الأمثال، ١/١٦٧.
(٩) المقامة (٤٣): البكرية، ص ٣٢٩.
(١٠) انظر: مجمع الأمثال، ٢/٣.



وفي قوله: «ثم نادى ياغشمشم، ياعطر منشم، فلباه غلام كدرةغواص، أو جؤذر قناص»[1]، منشم: امرأة كانت تبيع العطر، ويضرب المثل للشر العظيم.

والجؤذر: ولد البقرة الوحشية، يضرب به المثل في الجمال[2].

وفي قوله: «فزعم أن الشيخ أشغل من ذات النحيين، وفي حربٍ كحرب حنين»[3]، فذات النحيين: مثل يضرب للمشغول دائماً[4].

وفي قوله: «وأنا فيها أصرد من عين الحرباء، والعنز الجرباء»[5]، هذان مثلان يضربان لمن يبلغ منه البرد وذلك لأن الحرباء تدور أبداً مع الشمس وتستقبلها بعينها، والعنز الجرباء لاتدفء في الشتاء لقلة شعرها[6]، وذكر بعضهم أن العنز الجرباء تصحيف المثل الأول[7].

وهذا **أبوطلحة النعماني** يقتبس من الأمثال ويضمنها مقامته كما في قوله: «استنهضته فوجدته السليك في عدوته ، وتأبط في حيلته وجرأته»[8].

والسليك بن السلكة أحد العدائين العرب الذين كانوا لايلحقون، ولاتدركهم الخيل إذا عدوا فيما زعم الرواة، ويضرب المثل به في ذلك، ويقال «أعدى من السليك»[9]، ولأمه السلكة أبيات مشهورة في رثائه رواها أبوتمام في ديوان الحماسة، وهي من مشطور المديد، وأولها :

---

(١) المقامة (٤٦): الحلبية، ص ٣٧٢.

(٢) انظر: أمثال ابن سلام، ص ٣٥٥. مجمع الأمثال، ٩٣/١.

(٣) المقامة (٤٧): الحجرية، ص ٣٨٥.

(٤) انظر: الأمثال لابن سلام، ص٣٧٤. مجمع الأمثال، ٣٧٦/١.

(٥) المقامة (٤٤): الشتوية، ص ٣٤٤.

(٦) انظر: الأمثال لابن سلام، ص٣٦٧. مجمع الأمثال، ١٨٠/١.

(٧) شرح مقامات الحريري، ت: يوسف بقاعي، ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٨) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ٩.

(٩) انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٤٧/٢.

طاف يبغي نجوة ** من هلاك، فهلك[١]

وتأبط : يريد تأبط شراً الفهمي، واسمه ثابت، وكنيته أبوزهير، وكان من العدائين المشهورين أيضاً، ويضرب به المثل في ذلك[٢]، ولتلقيبه تأبط شراً قصة مذكورة في شرح ديوان الحماسة، وهو معدود في الشعراء[٣].

وفي قوله :

((فرائد أمثال الدمى تصطفي الفتى ** لهن صدور عاليات وأعجاز))[٤]

الدمى: جمع دمية، وهي الصورة الممثلة من العاج وغيره، ويضرب بها المثل في الحسن[٥].

وكذا **ابن الجوزي** مثل باقي كتاب المقامة نجد الأمثال متضمنة مقاماته؛ ففي قوله: ((لايسلك سبيله في تدبيره، ولايعرف قبيله من دبيره، ولايفلح قوم تملكهم امرأة... فقالوا: شب عمرو عن الطوق))[٦]، فالمثل ((شب عمرو عن الطوق))، وقيل: ((كبر عمرو عن الطوق))، وصاحب المثل جذيمة الأبرش بن مالك، قاله لابن أخته عمرو بن عدي اللخمي، وكان له طوق يلبسه في الصغر، فاستهوته الجن دهراً إلى أن وجده مالك وعقيل ابنا فارج من بلقين، وهما ندمانا جذيمة، وحين أرادت أمه أن تعيد الطوق عليه، قال له جذيمة: ((كبر عمرو عن الطوق)) فذهبت مثلاً[٧].

وفي قوله : ((ثم يقلب لي ظهر المجن، ويلبس جلد النمر إذا أمر، فقد جزوني

---

(١) انظر: شرح ديوان الحماسة، للخطيب التبريزي، ١٩١/٢، عالم الكتب، بيروت.

(٢) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ٤٧/٢.

(٣) انظر: الخريدة، ص٩ عن ديوان الحماسة، لأبي تمام، ٢٦/٢ بشرح الخطيب التبريزي، وهو كذلك.

(٤) الخريدة، ص١١، الفرائد: جمع فريدة، وهي البكر لم تمس، انظر: اللسان، مادة: فرد.

(٥) الخريدة، ص ١٢.

(٦) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.

(٧) انظر: كتاب الأمثال لابن سلام، ص ٢٩٧، ومجمع الأمثال ، للميداني، ١٣٧/٢-١٣٩.



جزاء سنمار، وأنا بنيت لهم الدار»[١]، ففي قوله: «جزاء سنمار»، أي جزاني جزاء سنمار وقد كان بناء مجيداً، وهو من الروم، فبنى الخورنق الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امريء القيس، فلما نظر إليه النعمان كره ان يعمل مثله لغيره، فألقاه من أعلى الخورنق فخر ميتاً[٢]. فضربت العرب به المثل لمن يجزى بالإحسان الإساءة، ويقال: هو الذي بنى أطم أحيحة بن الجلاح، فلما فرغ منه قال له أحيحة: لقد أحكمته، قال: إني لأعرف فيه حجراً لو نزع لتقوض من عند آخره، فسأله عن الحجر، فأراه موضعه، فدفعه أحيحة من الأطم فخر ميتاً[٣].

وفي قوله : «أسمع جعجعة ولاأرى طحنا»[٤]، فهذا مثل، ومعناه: أسمع صوت رحى ولاأرى ثمرة ماتطحنه[٥].

وفي قوله : «ندماني جذيمة»[٦]، وجذيمة: هو الأبرش الملك، وكان ابن اخته عمرو بن عدي قد فقده جذيمة الأبرش دهراً، ثم إن رجلين من بلقين يقال لأحدهما: مالك، والآخر: عقيل وجداه فقدما به على جذيمة، فعظم موقعه منه، وقال: سلاني ماشئتما، فسألاه أن يكونا نديميه ماعاش وعاشا، فأجابهما إلى ذلك، فهذا ندمانا جذيمة[٧].

وفي قوله: «شنشنة أعرفها من أخزم»[٨]، وقيل: إن الشعر لأبي أخزم الطائي، وهو جد أبي حاتم أو جد جده، وكان له ابن يقال له أخزم، وكان عاقاً، فمات وترك بنين فوثبوا يوماً على جدهم أبي أخزم فأدموه فقال:

---

(١) المقامة نفسها، ص ١٣٠.

(٢) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٢٧٣.

(٣) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ١/١٥٩-١٦٠.

(٤) المقامة (١٨): في ذكر الحج، مقامات ابن الجوزي، ص ١٤٥.

(٥) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٣٢١.

(٦) المقامة (٣١): في التعازي، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٥٦.

(٧) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ١٧٢.

(٨) المقامة (٣٦): في دواء العشق، مامات ابن الجوزي، ص ٢٨٧.

إن بني ضرجوني بالدم ** شنشنة أعرفها من أخزم

ويروى «زملوني» وهو مثل ضرجوني في المعنى: أي لطخوني، يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق، والشنشنة : الطبيعة والعادة، ويروى المثل عن عمرو ابن الخطاب، قاله في ابن عباس لشبهه في رأيه بأبيه، ويقال: إنه لم يكن لقريش مثل رأي العباس، يضرب في قرب الشبه[1].

ونخلص إلى أن الأمثال وهي جمع مثل، والمثل مأخوذ من المثال، وهو: «قول سائر يشبه في حال الثاني الأول، والأصل فيه التشبيه»[2] أو هو «قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره»[3]، قد وردت في البحث، لما لها من أهيمة ترجع إلى اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بها، وهذا الاهتمام هو ماحدا بمؤلفي كتب الأمثال لتأليفها كما قال ابن سلام ذلك: «وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب، وحثنا عليه ماروينا من الأحاديث المأثورة عن النبي -ﷺ- أنه قد خبر بها، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف»[4].

وكذا فإن السبب في ضرب الأمثال ظاهر في قوله تعالى : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[5].

---

(١) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ١٤٤. ومجمع الأمثال، للميداني، ١/٣٦١.

(٢) مجمع الأمثال، للميداني، ١/٥.

(٣) الأمثال في القرآن، محمود بن الشريف، ص ١٢٢، ط٢، دار عكاظ للنشر.

(٤) كتاب الأمثال، ص ٣٤.

(٥) سورة إبراهيم، الآية ٢٥.

الصورة :

إن مصطلح الصورة من أدق المصطلحات البلاغية، ولعل أيسر تعريف ماذكره د/الطاهر أحمد مكي، فتعنى الصورة التجسيم فيقول: ((كلمة صورة تعني أصلاً التجسيم، وفي القرآن الكريم : ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾(١). وفيه أيضاً :﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾(٢).

ثم اتسع معناها في النقد الأدبي الحديث، وتحدد في الوقت نفسه، اتسع؛ لأن استخدامها لايقتصر على ماتراه العين، بل امتد إلى كل مايؤثر في أي حواسنا أو في مجموعة منها، لأن كل إحساس ينجم عنه تصور معين، وتحدد؛ لأنه على الأقل فيما يتصل بشكل الصورة يشمل الانطباعات الحسية، تجيء وليدة التشبيه أو الاستعارة، وبقية الصور البلاغية مهما كانت الحاسة التي تتجه إليها، ويستبعد الوصف المباشر حتى ولو كان حسياً))(٣).

وكلام ((الطاهر)) هذا يبين لنا انحصار الصورة في التشبيه والاستعارة، أو كما قال: ((بقية الصورة البلاغية))، كالمجاز، والكناية والأخيرة كان لها الدور في قيام الرمزية في هذا البحث؛ لذا اكتفينا بها هناك، لعدم التكرار ...

التشبيه :

معلوم أن التشبيه هو: ((الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى))(٤).

لذا كان الفن الأول الذي اكتظت به جميع المقامات على اختلاف أنواعها، وأزمانها،وأصحابها،هذاالاكتظاظ يختلف كثرةوقلة،تبعاً لأذواق الكتاب الذين دبجوها، وتبعاً لمعطياتهم الأدبية،ومواهبهم،وأخيلتهم التي يعظم حظها ويضؤل من كاتب لآخر.

وقد لحظ أن التشبيهات فيها مادية محسوسة في معظمها، وتشبيه المحسوس بالمحسوس أشيع، وعليها أغلب.

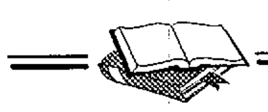
---

(١) سورة الانفطار، آية ٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ٦ .

(٣) الشعر العربي المعاصر – روائعه ومداخل لقراءته، ص ٨٢، دار المعارف، ط١، ١٩٨٠م.

(٤) الإيضاح ، للقزويني،ص ٣٢٨.



أما التشبيهات الناشئة عن التشابيه المعنوية المجردة فهي قليلة جداً. كما أن هذه التشابيه تميل إلى الاغتراف من البيئة البدوية، ومن الظواهر الطبيعية، والكونية، ثم من المرافق الحضارية الضرورية التي لها صلة وثيقة بحياة الإنسان كالشمعة، والعصى، والبلور، والجفنة، ثم بالحيوانات كالفرس، والحية ، والأسد.

وقد نوّه بنوع التّشبيه د.أحمد أمين حين قال:((لقد اهتم **البديع** كثيراً بالصورة البيانية في مقاماته، وبعض هذه الصور قديم مطروق، وبعضها جديد مبتكر))[١].

ومن التشبيهات المطروقة قوله في الجياد ((ولَمْ نَزَلْ نَفْرِي أسْنِمَةَ النِّجَادِ، بِتِلْكَ الجِيَادِ، حتى صِرْنَ كالعِصِيِّ، ورَجَعْنَ كالْقِسِيِّ))[٢] فتشبيه الجواد الذي أضناه السفر بالعصي في الدقة والضمور، وبالقِسِيِّ في تقوسها وانحنائها، قديم مطروق، وهذا تشبيه محسوس بمحسوس.

ومن التشبيهات الجديدة الممزوجة بالعاطفة قوله: ((وَتَاحَ لنا وادٍ في سَفْحِ جَبَلٍ ذِي آلَاء وأثْلٍ، كالعَذَارى يُسَرِّحْنَ الضَّفَائرَ، وَيَنْشُرْنَ الغدَائِرَ))[٣].

فكل الصور التشبيهية هنا مادية محسوسة، فهو يشبه الشجر في اعتدال قوامها، وتهدل أغصانها بفتيات يسرحن شعورهن، وهو تشبيه ممزوج بعاطفة الشاعر يكشف عن عشق بديع الزمان للطبيعة.

وفي المقامة المضيرية يشبه عين الماء في صفائها بلسان الشمعة، وهو تشبيه مادي يظهر في قوله: ((با لله ترى هذا الماء مَاأَصْفَاه! أزرقُ كعَيْنِ السِّنَّوْرِ، وصَافٍ كَقَضِيبِ البِلَّوْرِ، اسْتُقِيَ مِنَ الْفُرَاتِ، واسْتُعْمِلَ بَعْدَ البَيَاتِ، فَجَاء كلِسَانِ الشَّمْعَةِ، في صَفَاءِ الدَّمْعِةِ))[٤].

---

(١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، ص ١٠٠.

(٢) المقامة (٦): الأسدية، ص٣٦.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٦، ألاء وأثل: شجر.

(٤) المقامة (٢٢)، ص١٣٦-١٣٧، السنور: القط، والبلور: نوع من الزجاج، يضرب به المثل في النقاء والصفاء، استقي : أخذ، البيات: أي لم نستعمله إلا بعد أن ظل ليلته في إناء ليبرد ويتم صفاؤه. انظر: اللسان، مادة : سنر، بلر، سقى، بيت.



ومن التشبيهات التي لانظن أنه سبق إليها تشبيه الحريص على المال بلاعب الشطرنج يأخذ كل مامع الناس ويحفظ كل ماعنده.

ومن التشبيهات المادية قوله: ((وَسَرَّحْنَ الطَّرْفَ في حَيٍ كَمَيْتٍ، وَبَيْتٍ كلا بَيْتٍ))(١)، وفي قوله: ((كابنِ حُرَّةٍ طَلَعَ عَلَيَّ بالأمْسِ، طُلُوعَ الشَّمْس))(٢)، كما تراه في المقامة البغدادية يشبه الزبدة في رقتها وذوبانها على التنور بالكحل في سحوقته، وبالطحن في دقته، وذلك حين يصف الشواء: ((فَأَنْحَىٰ الشَّوَّاءُ بِسَاطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَنُّورِهِ، فَجَعَلَهَا كالكُحْلِ سَحْقاً، وكالطَّحْنِ دَقًّا))(٣).

ولبديع الزمان تشبيهات ضمنية(٤) يقتبسها من الشعراء السابقين أحياناً، كقوله في الأمير خلف بن أحمد:

((ياسَارِياً بِنُجُوم الليلِ يَمدَحُهَا ** وَلَوْ رَأَىٰ الشَّمْسَ لم يَعْرِفْ لها خَطَرا

وَوَاصِفاً للسَّواقي هَبْكَ لم تَزُرِ الـ ** بَحْرَ المحيطَ ألم تَعْرِفْ لهُ خَبَرا))(٥)

وهو يشبه خلفاً بالشمس وبالبحر تشبيهاً ضمنياً، والبيت الأول مأخوذ من قول النابغة الذبياني: * كأنَّكَ شمسٌ والنجومُ كواكب *

والبيت الثاني مأخوذ من قول المتنبي: * ومَنْ قَصَدَ البحرَ استقلَّ السَّواقِيا*(٦)

وهذا **ابن نباتة** يعمد كما عمد غيره من كتاب المقامات إلى التشبيه فيقول:

---

(١) المقامة (١٣): البصرية، ص ٧٦.

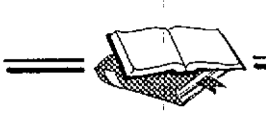
(٢) المقامة (١٤): الفزارية، ص ٧٩.

(٣) المقامة (١٢): ص٧١-٧٢.

(٤) التشبيه الضمني هو : تشبيه لايوضع فيه المشبه به في صورة التشبيه المعروفة بل يلمحان في التركيب، انظر: البيان فن الصورة، د. مصطفى الصاوي، ص٣٠، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية ١٩٩٣م.

(٥) المقامة (٤): الملوكية، ص٣٩٧، السواقي: جمع ساقية وهي فوق الجدول ودون النهر، انظر: اللسان، مادة: سقى .

(٦) انظر: فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص١٠٠-١٠١.



«ثُمّ أقبلَ إقبالَ الموانِس عَلَى المحَابِسِ وَالمجَالِسِ»[١]، حيث شبه إقبال الشيخ - بطل المقامة- عليهم بإقبال من تأنس بالجلوس معه حتى يحبسك من أنسه عن القيام عن مجلسه، والجامع بينهما الأثر الحاصل في كلٍ، ولعلك لحظت أن الطرفين حسيان، وهو من قبيل تشبيه مفرد بمفرد مقيد، وبليغ لأن الأداة والوجه محذوفان.

أما قوله :

« تَأَمّلِ الرَّوضَ وَمَاقَدْ حَوَى ** مِنْ نَهَرٍ كَالجِزْعِ أَوْ كَالعقيقِ
مُذْ فَتَحَ الخشخَاشُ أجْفَانَهُ ** مِنْ حَسدٍ خَدا لِشَقِيقِ»[٢]

فقد اتسم بتداخل الصور البلاغية، فهو أولاً قد شبه الروض وماحواه من نهر بالجزع وهو: قطعك وادياً و موضعاً عرضاً[٣]، وهكذا فالنهر يقطع هذا الروضة الغناء التي تغص بالورود الحمراء كما يقطع الطريق عرضاً بجامع قطع وسط اتساع.

وثانياً شبه الروض وقد امتلأ بالورود الحمراء بالعقيق وهو: الخرز الأحمر[٤]، وأعقب التشبيه بصورة بلاغية أخرى تمازجت فيها العناصر المستخدمة في إنشاء الصورة فهذه الاستعارة المكنية التي شبه فيها تفتح الخشخاش[٥] بفتح جفني فتاة جميلة تعلوها حمرة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو فتح الجفن على سبيل الاستعارة المكنية، وأعقبها باستعارة مكنية أخرى حيث شبه الشقيق الأحمر بفتاة جميلة خدها أحمر ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الخد على سبيل الاستعارة المكنية.

وتأمل كلمة يرمق[٦] وماتضفيه وسط هذا الجمال الطبيعي الباهر من إيحاء،

---

(١) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٢.

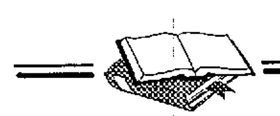
(٢) المقامة نفسها، ص ٦ .

(٣) اللسان، مادة : جزع، كما يقال: جزعة الوادي: مكان يستدير ويتسع ويكون فيه شجر يراح فيه الماء.

(٤) اللسان، مادة عقق، ويتخذ من الخرز الفصوص.

(٥) نبت ثمرته حمراء ، مادة خشش في اللسان.

(٦) يرمق : ينظر إليه، اللسان، مادة رمق .



وماتحمله النظرة من عداوة وحسد.

وفي قوله : ((وإِنْ كَانَ الرَّبيعُ وَجَهَ الزّمَانِ، فالشّتاءُ بمنزلةِ رأْسِهِ، وَسَائِرُ الْفُصُولِ بَيْنَ رَجَاءِ بِرِّهِ، وَخَوْفِ بَأْسِهِ، وَهو كَالمغترفِ مِنْ حَاصِلِ غَيْرِهِ، وَالمعْتَرِفِ بِبِرِّهِ وَخَيْرِه))(١).

فإن الصورة التي يلتقطها القاريء من الربيع هو مكانته بين سائر الفصول، فإذا جاز لنا أن نشبه الزمان (الفصول الأربعة) بإنسان، فإن الربيع يحتل أجمل مافي الإنسان، وأول مايلفت النظر إليه وهو وجهه: وجه مشرق ضحوك، أما الشتاء فهو رأس هذا الإنسان. هذه استعارة مكنية لأنه حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو الوجه، وأعقبها بصورة تشبيهية تمثل الربيع وهو المشبه، شبهه بالانسان الذي يغترف من غيره، بجامع الأخذ من الغير المقترن بالاعتراف بالفضل.

وتأمل قوله: ((إِنَّ المتظَاهِرَ بهِ قَبْلَ وُصُولهِ إلَى مَعْرفةِ مَقَاطِعِهِ، وَفُصُولِهِ، وَتَشْيِير فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ، كَالسَّاعِي إِلَى مَحَلِّ نَدَمِهِ بِقُدُومِهِ، وَالدَّاعِي اليَّارَ فِي حَالِ عَدَمِهِ))(٢).

فقد شبه المفتخر بالربيع وجماله قبل أن يسبر أغواره، ويصل إلى معرفة أصوله من فروعه، شبهه بالرجل الذي يجد ويسعى بعمل يوصله إلى الندم، بجامع الإقدام بدون تروٍ، والوقوع في مواطن الزلل، وهو من قبيل تشبيه محسوس بمحسوس.

وأعقبه بتشبيه آخر، حيث شبهه بطالب اليار(٣) مع عدم وجودها؛ بجامع السعي في طلب شيء من دون أثر له.

ومن تشبيهات **ابن ناقيا** قوله :((تَارَةً يثبُ بَأجمعهِ كَالشَّيْطَانِ))(٤)، فقد شبه هيئة وثبه كوثبة الشيطان بجامع غرابة وكراهة الهيئة الحاصلة في كلٍ .

---

(١) المقامة نفسها، ص ٧ .

(٢) المقامة نفسها، ص ٨ .

(٣) اليار: النار ، اللسان، مادة يرر.

(٤) المقامة (٢)، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٣.



وفي قوله : ((فسمعتُ بُكَاءَ الْقَـومِ وَكَـأنِي أَرَى ذَلِـكَ في النَّـومِ))[١]، فقد شبه عدم تصديقه لما يسمع بالحلم الذي يرى في النوم بجامع عدم اتضاح الرؤية في كلٍ، والطرفان حسيان.

وفي قوله : ((وقد بَرَّحَ الطَّوَى خُفَانَـا، وَطَوَى طَيَّ السِّجِلِ إمْعَانـاً))[٢]، شبه ماألحقه الجوع بالأمعاء، بطي السجل، بجامع الالتواء الحاصل في كلٍ.

وفي قوله : ((فامترقَ مروقَ السَّهْمِ، وَطَلَعَ طُلُوعَ النَّجْمِ))[٣]، شبه مروقه بمروق السهم بجامع السرعة الحاصلة في كلٍ، وشبه طلوعه بطلوع النجم بجامع الظهور والبروز الحاصل في كلٍ.

وفي قوله : ((ثُمَّ ارزَمَ ارزَامَ أُمِّ حَايلِ))[٤]، حيث شبه مصيبته بمصيبة أم ارزمت بفقد ابنها بجامع الحزن الشديد الناشيء في كلٍ.

وفي قوله: ((وأَحْطَطَ عينيهِ، وَجَعَلَ يَرْفَعهُن كَالْقَطَا، وَيلُفُهنَّ في لَظَى))[٥]، شبه رفعه لعينه برفع القطا بجامع السرعة.

وفي قوله : ((وَلَو مِن نثارَةِ الخوانِ، كَفَتِيلِ النَّواة))[٦]، فقد أظهر شدة حاجته إلى الطعام، وإن كان نزراً يسيراً بنثارة الخوان التي تشبه فتيل النواة أو ابهام القطاة بجامع القلة.

وفي قوله : ((تارةً ينهضُ كَالمتأَمِّل، وَتَارَةً يقعُدُ كَـالمتملْمِل))[٧]، شبه نهوضه بالمتأمل بجامع الترقب والقلق في كلٍ، وشبه قعوده بالمتململ بجامع عدم الثبات في كلٍ، ومثل هذا التشبيه ينبيء عن فرط قلقه، وتوجسه، وشدة ترقبه وانتظاره.

---

(١) المقامة نفسها، ص ٤ .

(٢) المقامة (٣): المقامات العشر، لابن ناقيا، ص ٦ .

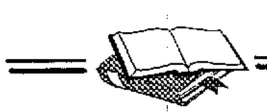
(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة نفسها.

(٦) المقامة (٤)، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص٩ .

(٧) المقامة (٥) ، المقامات العشر، لابن ناقيا، ص١١.



وفي قوله : ((فإذَا سَوادٌ مقبلٌ كَالسَّحابِ المسْبِل أَوْ الشَّيطانِ المَمَثَّل))[١]، فقد شبه قدوم الرجل وسط الظلام، ولاتبدو له هيئة ولاشكل، شبهه بسحاب متكاثف قد اشتد سواده، أو بشيطان تمثل له بجامع السواد الكائن في كلٍ.

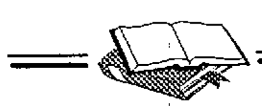
أما **الحريري** فالتشابيه في مقاماته أقل مما هي عند البديع، كما أنها ضعيفة الصور شاحبتها بحيث لم تكن حية حياتها عند البديع، وناصعة نصاعتها عنده، ربما مرد ذلك اهتمامه باللفظ. وقد أولع الحريري بلون من التشبيه معروف بالتشبيه البليغ، لأنه يعول على انتزاع الصورة البيانية بواسطة مصدر الفعل الذي تتركب منه الجملة التشبيهية.

وكان يعدل أحياناً عن هذا التشبيه البليغ الخالي من الأداة، إلى اصطناع أدوات التشبيه كالكاف وغيرها. في مواطن أخرى متفرقة، فإن تشبيهاته مع ذلك لاتعطى صورة جمالية ولابيانية واضحة كل الوضوح. فإن كانت واضحة فإن الجمال يعدمها من بعض الجوانب أو من كثير منها.

وقد كان الحريري أحياناً يعمد إلى تشبيه الصور المحسوسة بالمعقولة، بيد أن ذلك لم يكن بيناً ولاموفقاً. ثم كانت تشبيهاته في معظمها تحاول أن تستمد من البيئة، وقد أفاد بذلك د.عبدالملك مرتاض فقال: ((فهو كباقي اصحاب المقامات صوره التشبيهية محسوسة مادية في معظمها))[٢]، أما د. أحمد أمين فقد أشار إلى نوعه من جهة أخرى فقال: ((وهذه الصور بعضها مطروق كقوله في المقامة الصنعانية: ((أَجُوبُ طُرَقَاتِها مِثْل الهَائِم))[٣]، وقوله في المقامة الدمياطية: ((ارْتَضَعوا أفَاوِيق الوِفَاق))[٤] وهو تشبيه بليغ ، شبه الوفاق بالأفاويق وهي اللبن[٥].

ومن تشبيهاته قوله : ((حتّى لَاحُوا كأَسْنَانِ المشْطِ في الاسْتَوَاءِ، وكالنَّفْس

(١) المقامة والصفحة نفسها.
(٢) في المقامة في الأدب العربي، ص ٣٩٠-٣٩١.
(٣) المقامة (١): ٥٢/١.
(٤) المقامة (٤): ١٥٨/١.
(٥) فن المقامة بين البديع والحريري، والسيوطي، ص ١٩٤.



الوَاحِدةِ فِي التِئام الأَهْواء))[١]، فالتشبيهان هنا حسيان، إلا إذا اعتبرنا النفس هنا بمعنى الروح لا الشخص، فإن التشبيه الثاني معقول، وهو ماأشرنا إليه منذ قليل من أن الحريري كان يحاول أن يصطنع بعض التشابيه المعقولة.

والذي يلحظ في هذا التشبيه قياساً على تشابيه البديع، أن الحريري ذكر وجه الشبه ففصل و لم يجمل، و لم يترك الخيار للقاريء أن يتصور وجه الصورة التشبيهية على النحو الذي يريد .بنما كانت التشبيهات المفصلة عند البديع قليلة جداً.

فقد صور الحريري الأصحاب حين يبدون كأنهم أسنان المشط في الاستواء الذي يدل على التلاؤم والائتلاف، أو كأنهم النفس الواحدة في اجتماع أهوائهم، واتفاق ميولهم وأفكارهم.

ثم قوله في المقامة نفسها : ((لاَ وَا للهِ، بَلْ نَتَوازَن فِي المَقَال، وَزْنَ المِثْقَال، ونَتَحاذَى فِي الفِعَال، حَذْو النِعَال))[٢].

وقوله في المقامة نفسها: ((ثُمَّ اسْتَن اسْتِنَان الجَوَاد))[٣].

وقوله : ((فَكَان كَمَنْ قَمسَ فِي المَاءِ، أَوْ عَرجَ بِه إِلَى عَنَانِ السَّمَاء))[٤].

وقوله : ((وامْتَزَجتْ بِحاكِمِها امْتِزاجَ المَاءِ بالرَّاحِ، وتَقَويتُ بِعنَايَتِه تَقَوّى الأَجْسَاد بِالرَّاح))[٥].

فمعظم هذه التشبيهات تمت بواسطة المصدر لابواسطة الأداة، ثم إن الصور التشبيهية لم تكن من الحياة والجمال بحيث تقارن بتشابيه البديع؛ ولعل ذلك يعود إلى أن البديع لم يكن يتهالك على الصور الغريبة، ليعرضها في ألفاظ غريبة، وإنما كان يعبر عما يدور بخاطره في كثير من البساطة والحرية .

---

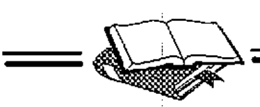
(١) المقامة (٤): الدّمياطية، ١/١٥٨.

(٢) ١/١٦٧.

(٣) ١/١٨٠.

(٤) المقامة (٧): البرقعيدية، ١/٣٠٧.

(٥) المقامة (٩): الاسكندرية، ١/٣٣٣.



فإن مثل قول الحريري : ((نَتَوازَنُ فِي المَقَالِ، وَزْنَ المِثْقَالِ، ونَتَحَاذَى فِي الفِعَالِ، حَذْوَ النِّعَالِ))، لايخلو من تعسف في التشبيه، وهو غامض لم يعطنا صورة براقة حية عن الصورة التعبيرية المرادة من التشبيه الذي هو إلحاق صورة بصورة على سبيل التلاؤم الذي يجمع بينهما، على أن تكون الصورة التعبيرية في المشبه به أقوى وأوضح منها في المشبه .

و لم تتضح الصورة التعبيرية؛ لأن القارىء لابد أن يتأمل المراد منها ويعمل فكره، فهل المراد بالتوازن هنا في الميزان؟ أي إلى هذه الآلة التي يزن بها الناس أشياءهم، أو إلى مايعينه المثقال، عند أصحاب المصارف قديماً، وهو درهم ونصف؟

ثم إن في تشبيه التكافؤ في الأعمال بين شخصين، بحالة النعال في تلازمهما واحتكاكهما، مما لايحسن ولايجمل في هذا المقام، فهو من التشبيه الردىء؛ لأن النعال ليست مشرفة في العادة، ولا الأرجل التي تنقلها. فلعل النعل أن يكون أقذر مافي لباس الانسان، لما تتعرض له من قاذورات وغبار وأوحال. فكيف يشبه التلاؤم بين شخصين بحالة نعلين متلازمين؟ صحيح أن عناصر التشبيه واضحة، ولكن هل أدت المعنى المراد بوضوح تام أيضاً، ثم هل كان هذا التشبيه من الناحية النفسية مقبولاً؟ وهل إذا شبهنا زوجين سعيدين مثلاً بحالة النعلين مما يقبله الذوق الجميل؟ مع أنهم قالوا في أمثالهم: ((أَذَلّ مِنَ النَّعلِ)).

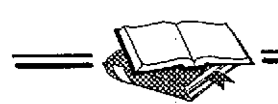
وها هو ذا في مقامة أخرى قد شبه الأصحاب حين ينظمون كلاماً كالعقد، واستعمل كل ماينظم له كالسمط، فيقول: ((فتَدَاعَيْنا ... عَلى أنْ ينظُم البَادِىء ثَلاث جُمَانَات في عُقْدِه، ثُمّ تَتَدَرّجُ الزيادَات مِنْ بَعْدِه، فيرُبع ذُو مَيْمَنتِه فِي نَظْمِه، ويسْبُع صَاحِب ميْسَرتِه عَلى رُغْمِه، قال الراوي: وكُنّا قَدِ انْتَظَمْنا عِدة كأَصَابِع الكَف... وأَفْضَت النّوبَة إِلي، وقَدْ تعيّن نَظْم السّمْط السبَاعِي عَلي))[١].

وفي مقامة أخرى: ((فزَعَم أنّه يُخزّنُ الأَسْرار، كَمَا يُخَزّنُ اللّئِيم الدّينار))[٢].

---

(١) المقامة (١٦): المغربية، ٢/٢٠٥-٢٠٨، شرح الشريشي، السمط السباعي: الخيط الذي فيه الخرز وأراد به من سبع كلمات، انظر: اللسان، مادة: سمط.

(٢) المقامة (١٨): السنجارية، ٢/٣١٣.



وفي قوله: ((وَقَلَمِه لِسَانُ الدَّوْلة، وفَارِس الجَوْلة))(١)، شبه قلم المنشيء بفارس الجولة؛ لأن كلاً منهما يكون سبباً في الهزيمة.

وفي قوله : ((أَشْهَد يا للهِ أنَّكُما فَرْقَدَا سَماء، وكَزِنْدَيْن فِي وِعَاء))(٢).

وفي قوله : ((فوَلَجْتُ الدَّارَ مُتَجَرِّعاً الغُصَص، كَماَ يَلِجُ العُصْفُور القَفَصَ))(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن التشابيه عند الحريري في معظمها من لون التشبيه البليغ الذي لايستخدم فيه الأداة، ثم إنها لم تبلغ من حيث الوضوح والحياة والقوة والجمال جميعاً، مابلغته عند البديع. كما نوه بذلك د.عبدالملك مرتاض(٤)، والرأي أن سبب ذلك التفاته الشديد واعتناؤه باللفظ دون التركيز على المعنى غالباً.

أما **الزمخشري** فالتشبيهات عنده قليلة جداً، أي أقل بكثير من مقامات الحريري، وهي في معظمها مادية محسوسة، وقد يشبه أحياناً صورة معقولة بصورة محسوسة، كما في قوله: ((إِنَّ خِصَال الخَيْر كَتُفَّاحِ لُبْنَان، كَيْفَما قَلَّبْتَهَا دَعَتْكَ إِلى نَفْسِهَا، وإِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدان أنَّى وجَهْتَها نَهَتْك عَنْ مَسِّها))(٥).

وقد يستخدم التشابيه المعنوية المعقولة؛ لأنه كان مضطراً إلى تقرير مسائل نحوية وصرفية، فمقامة النحو مثلاً اكتظت بالتشابيه اكتظاظاً، حتى إنها بلغت أحد عشر تشبيهاً، على قصر المقامة ومن ذلك قوله : ((وَمَادَّةَ الخَيْرِ أَنْ تُؤثِر العُزْلَةَ ولاَتَبْرزَ عنِ الكنّ، وتُخْفِي شَخْصَكَ إِخفَاء الضَّمِير المسْتَكِن، فَإِنَّ الخَفَاءَ يَجْمَعُ يَديْك عَلَى النَّجاةِ والاسْتِعْصَام، كَمَا اسْتَعْصَمت الوَاوُ مِنَ القَلْب بالإِدْغَام ، ولاَيكُونَنَّ ضَمِيرُكَ عَنِ الهَمِّ الدِيْنِي سَالِياً، كَمَا لاَيكُونُ ((افعل)) مِنَ الضَّمِير خَالِياً... وَقِفْ لِربِّكَ عَلَى العَمَلِ الصَّعْبِ الشَّدِيد، كَمَا تَقِفُ بَنُو تَمِيم عَلَى التَّشْدِيد، واثْبُتْ عَلَى دِيْن الحَقِّ الَّذِي لايَتبَدَّلُ ولَايَحُول، ثَبَاتَ الحَرَكَةِ البِنَائِيَّةِ الَّتِي لاتَزُولُ ولاتَكُنْ فِي التَّرجِيح بَيْن مَذْهَبَين،

(١) المقامة (٢٢): الفراتية ص١٦٤-١٦٥، ت: يوسف بقاعي.

(٢) المقامة (٢٣): الشعرية، ص ١٧٥.

(٣) المقامة (٣٠): الصورية، ص ٢٢٩.

(٤) فن المقامة في الأدب العربي، ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٥) المقامة (١): المراشد ، ص ٢٥-٢٧، ت: يوسف البقاعي.



كالهَمْزَةِ الوَاقِعة بَيْنَ بَيْنَ»[1].

فكل جملة تشتمل تقريباً على تشبيه، وهذه التشابيه تختلف باختلاف صورها التعبيرية، فهى أحياناً محسوسة، وأحياناً معقولة، وأحياناً مختلفة الطرفين؛ بحيث يكون أحدهما محسوساً والآخر معقولاً، أو يكونان نقيض ذلك.

أما الصورة عند **ابن الجوزي**، فنجدها عنده كما عند كتاب المقامات تقوم على التشابيه، إما تشبيه محسوس بمحسوس، أو محسوس بمعقول، ومن ذلك قوله :

«ثُمَّ انظر إلى آلةِ النُّطقِ، تر مخرجَ الصوتِ كالمزمارِ الكبيرِ، والحنجرةَ كقصبةِ المزمارِ، والرئة كالزقِ، والعضلاتِ التي تقبضُ على الرئةِ، ليخرجَ الصوتُ من الحنجرةِ كالأنفِ التي تقبضُ على الزقِ، حتى تخرجَ الريح من المزمارِ، والشفتان واللسان والأسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغما، كالأصابع التي تختلف على فمِ المزمارِ، فيصوغ صفيره ألحاناً»[2].

فيلحظ فيما سبق الكثير من التشابيه؛ فقد شبه الصوت كالمزمار، والحنجرة كالمزمار، والرئة كالزق، والشَّفتين واللّسان والسنان كالأصابع الموضوعة على فم كقصبة المزمار، وهي صورة متكاملة لعملية النطق لدى الانسان يقابلها صورة متكاملة لاستعمال المزمار وهي من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس.

ثم نراه في المقامة نفسها يقول : «ثُمَّ انظرْ كيفَ مَدّ الأرضَ ... أَوْدَعَ فيها المعادنَ كَمَا تُودعُ الحاجاتُ في الخزائن»[3]، ويقول: «تأمَّلْ قيامَ الشَّجرِ كُلَمَّا طالَ في السَّماءِ الفرْعُ امتدتْ العُروقُ في بَاطِنِ الأرضِ كَقِيامِ العمدِ بِالأَطْنَابِ ... ثُمَّ إنَّها تموتُ وَتحيَا، فَيَجْتَمعُ فِيهَا مِنْ العبرةِ وَأَمْرِ الملك مَايجتمعُ في الآدمِي، فهيَ في حَالَةِ يُبْسِهَا مُتَشَبِّهة بالغائِبِ، فإذَا هَمَّتْ بالقدومِ بَشَّر نَوْرُ النوَّارِ»[4].

فشبه إيداع المعادن في الأرض بإيداع الحاجات في الخزائن، وشبه طول فرع

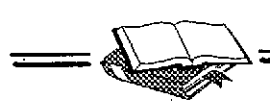
---

(١) المقامة (٤٦): النحو ، ص ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) المقامة (١): في حكم الأشياء ، لابن الجوزي، ص٩، ت: د. محمد نغش .

(٣) المقامة نفسها، ص ١٠.

(٤) المقامة والصفحة نفسها .



الشجرة وامتداد عروقه في بطن الأرض كقيام العمد بالأطناب، وييسها بالغائب، وقدومها بالنوار، وشبه الشمس بالسراج، في قوله: «خلقَ الشَّمْسَ سِرَاجاً»(١)، وشبه الطير بالسفينة في قوله : «تأمل خلق الطير فإنَّه لما قَدَّرَ له الطيران خَفَّفَ جسمه، وأدمج خلقه، واقتصر على قائمتين، وجعل له جُؤْجُؤاً محدوداً يخرقُ به الهواء، كما تخرق السفينة بجؤجؤها الماء»(٢).

وشبه السائل المنقض على الباب يسأل بالصقر، في قوله: «انقضَّ على بابي كالصقر سائل»(٣).

وفي قوله : «الكلامُ في القدر بحرٌ مَنْ خَاضَه غرقَ، عرضُه لايقطعُ بالسباحةِ ، وماؤه لايروى من عطش ، فجُز على شاطئه، واترك البحر رهواً»(٤). أراد الحث على عدم الخوض في القدر، لأنه كالبحر.

وفي المقامة نفسها يقول: «وَيحكَ إنَّه من طلَّق الدّنيَا بصدقِ عَزْمٍ كَرِهَتِ الآخرةُ أنْ يبيتَ عَزْباً فعجَّلتْ الخطبة، فقالَ: كَمْ أُطلِّقها وأُطْلِقُها وَتعُودُ إلى البيتِ»(٥)، فشبه الدنيا وتركه لها، بالمرأة التي تركها زوجها بالطلاق.

وها هو ذا في مقامة أخرى أراد أن يبين منزلة الأصحاب فشبههم بالشعر، فقال: «الأصحابُ بمنزلةِ الشَّعر. فَإنَّ مِنْهُ مَايكرمُ وَيخدمُ وَلَاينحّى كَشَعَرِ الرّأس، ومنهُ مايُقصُّ إذا طالَ كالشَّاربِ، والباقي يُستأصلُ، الصّديقُ الصدوقُ لايحتَاجُ إلى مُداراةٍ، كَحلَوى السُّكرِ تُحركُهَا في فيكَ وقَدْ عَبَرَتْ، وَمِنْ المعاشرينَ كَلحَمِ البَقَرِ يُتعِبُ الإنسانَ في مَضْغِهِ، والمِعدَة في هَضْمِه، ومنهم كالفُجل لَاينهَضِمُ أَصْلاً ... الصَّاحبُ كالرّقعةِ في الثوْبِ إذَا لمْ تُشاكِلْهُ شانتْهُ»(٦).

(١) المقامة والصفحة نفسها.
(٢) المقامة نفسها، ص ١١.
(٣) المقامة (٢٠): في الصدقة ، ص ١٦٤.
(٤) المقامة (٢١): في ذم البخل، ص ١٧٤.
(٥) المقامة نفسها، ص ١٧٨.
(٦) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمداراة، ص ١٨٦.



ومن التشبيهات الجديدة قوله: ((الموت كالموسيقى ثقيلةُ القبر، وخفيفةُ الفراقُ))(١)، فالثقيل والخفيف من مصطلحات الموسيقى.

ويلجأ ابن الجوزي إلى تشبيهات من قصص القرآن فيقول: ((رمضانُ يوسف الزمان. في عينِ يعقوب الإيمان. كانَ ليعقوبَ اثنا عَشَرَ ولداً، فما رجع بصرُه إلا بقميصِ يوسف))(٢)، فشبه رمضان ومكانه بين الشهور بمكانة يوسف واخوته عند أبيه يعقوب.

ومن أجمل تشبيهاته قوله: ((رمضانُ كالخاتم، وليلةُ القدر فصُّه المضيءُ))(٣).

وقوله: ((وَاعَجَبا أَحْوالُك تُشْبِهُ شُهورَ السَّنة، مَالَكَ في بَابِ الإيثارِ المحرم، وقلبُكَ من الذّكرِ صَفر، وَهَوَاكَ وشَهواتُكَ رَبيعَان، وكَفَّاك في البذلِ جُمادَيَان، وسمعُكَ عَنْ المواعظِ رَجَب، وَهَمُّكَ في شَبَابِه شَعْبان، فابنِ في هذَا الشهْرِ بالندَمِ مَاقَدْ وَهَى وانهَدَم...))(٤).

ومن أجمل تشبيهاته قوله : ((فالسَّماءُ تبكي بُكَاءَ المشوقِ، وَالأَرْضُ تضحَكُ ضِحَكَ المعشوق))(٥)، فشبه نزول المطر ببكاء المشوق، والأرض بضحك المعشوق.

فنخلص إلى أن المقاميين لجأوا جميعاً للتشبيهات إلا أنه عند الحريري من لون التشبيه البليغ الذى لايستخدم فيه الاداة، لكنها لم تبلغ من حيث الوضوح والحياة والقوة والجمال، مابلغته عند البديع، ولعل السبب في ذلك التلفاته الشديد، واعتناؤه باللفظ دون التركيز على المعنى غالباً .. أما الزمخشري فتشبيهاته قليلة قياساً بالحريري، ويتكيء فيها على التشابيه المعنوية المعقولة؛ لأنه كان مضطراً إلى تقرير مسائل نحوية وصرفية .. لكن أجمل التشبيهات هى تشبيهات ابن الجوزى لأنها من قصص القرآن.

---

(١) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، ص ٢٥٩.

(٢) المقامة (٣٣): في وداع رمضان، ص٢٦٢.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٦٣.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٥) المقامة (٤٧): في الاستسقاء، ص ٣٨٧.



المجاز:

قبل الولوج فيه، لابد من التنويه كتعريف مبسط له؛ لهذا «فالمجاز ضربان: مرسل، واستعارة؛ لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلا فهو مرسل»(١).

والبديع في معظم الاستعمالات التركيبية والتعبيرية يميل نحو الاستعارة والكناية، والاستعارات في المقامة قد تكون أكثر من التشبيهات التي كانت قليلة بالقياس إليها، ومن أمثلة التراكيب الاستعارية قوله في المقامة البصرية حين ينبري الاسكندري متكلماً شاكياً ضره وبؤسه للناس، قائلاً: «وَنَشَزَتْ علينا البِيضُ، وشَمَسَتْ منا الصُّفْرُ، وأَكَلَتْنَا السُّودُ، وحَطَّمَتْنا الحُمْرُ»(٢).

فالنشاز يكون للمرأة التي تتعذر على زوجها وتستعصي عليه، ولكن البديع استخدمه لاستعصاء الدراهم عليهم، ونفورها منهم، صنيع المرأة التي تفعل ذلك لزوجها حين تزهد فيه.

فقد شبه الدراهم في نشوزها وازورارها عنهم ، بالمرأة التي تعصي بعلها وتتعذر عليه، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو «نشزت»، على سبيل الاستعارة المكنية.

وقل نحو ذلك في الجملة الثانية، فهي جارية مجرى الاستعارة المكنية؛ لأن الشموس وضع أصلاً للدابة التي تمتنع عن حمل الرجل، فقد شبه البديع الدنانير الصفراء في عدم اقبالها عليهم، بالدابة الراجحة الشموس، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية أيضاً.

أما بقية الكلام فجارٍ مجرى المجاز العقلي، لأن الفعل أسند إلى غير ما وضع له

(١) الإيضاح ، للقزويني، ص ٣٩٦.
(٢) المقامة(١٣): البصرية، ص ٧٦.



في الأصل، لأن السود بمعنى الليالي، للسواد الذي يحدث في فرها وكرها، والليالي، في حقيقة الأمر، لاتأكل، فالأكل استعمل لغير ماوضع له على سبيل المجاز العقلي.

كما أن التحطيم يجب أن يكون بمعنى التكسير،والحمر -وهي السنون المجدبة- لاتكسر ولاتحطم وماينبغي لها، ففي إسناد التحطيم إلى السنين المجدبة مجاز عقلي محض، علاقته السببية، إذ بسبب مرور هذه السنين الممحلة، وقع لهم كسر معنوي، وهو هذا البؤس الناتج عن ذلك بما يحدثه من جوع، ومرض، ويأس، وشقاء ...

وهناك استعارات أخرى كثيرة منها ماذكر في المقامة الملوكية، فقد زعم عيسى ابن هشام أن سيف الدولة ممن يجب أن يحلو فيهم المدح، فأنكر عليه ذلك الاسكندري، وأنشأ يقول: وإنما المدح هنا لخلف صاحب سجستان يومئذٍ مقارناً بين سيف الدولة وخلف :

« ياسارياً بِنُجُومِ اللَّيلِ يَمْدَحُهَا
ولو رَأَى الشَّمْسَ لم يَعْرِفْ لها خَطَرَا
وواصِفاً للسَّواقي هَبْكَ لم تَزُرِ الـ
بَحْرَ المحيطَ، ألم تَعْرِفْ له خَبَرا ؟
مَنْ أَبْصَرَ الدُّرَّ لم يَعْدِلْ بهِ حَجَراً
وَمَنْ رَأَى خَلَفاً لم يَذْكُرِ الْبَشَرا»[1]

ففي هذه الأبيات الثلاثة استعارات تصريحية ظاهرة؛ لأن البديع كان يريد بنجوم الليل سيف الدولة، وبالشمس خلفا، والشمس في نورها الوهاج لاتذكر معها أضواء النجوم الخافتة. وقل مثل ذلك في البيت الثاني، لأنه لايريد بالسواقي هنا حقيقة، وإنما يشبه سيف الدولة بها، من حيث شبه خلفا بالبحر المحيط في كرمه وجوده وسعة حلمه، وعرض ثرائه.

(١) المقامة (٤٥): الملوكية، ص ٣٩٧.



أما في البيت الثالث، فنجد البديع يشبه خلفا بالدر، ثم حذف المشبه واستعار له المشبه به ليقوم مقامه بادعاء أن المشبه هو عين المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

ولعلك لحظت أن هذه الاستعارات لاتخرج عن طبيعة سنن الاستعمال العربي المألوف، من تشبيه الملك بالبحر، والشمس والدر.

ونخلص إلى أن الاستعارات سواء كانت قديمة، أم فيها نوع من الجدة فإنها في مجموعها تدل بوجه عام على البيئة وطبيعة عيش أولئك القوم.

والذي ينبغي ذكره، أن الاستعارة بمعناها الاصطلاحي في علم البلاغة، كانت قليلة في مقامات البديع.

ففي قوله: ((قَدْ كَوَى الجَزَعُ قُلُوبَهُمَ))[1]، شبه الجزع بالنار في شدة تأثيره وقوة فعله فيهم، وأسند الفعل ((كوى)) إليه على سبيل الاستعارة التخيلية.

وفي قوله: ((فَهَلْ مِنْ كَرِيمٍ يَجْلُو غَيَاهِبَ هذِهِ البُؤُوس، وَيَغُلُّ شَبَا هذِهِ النُّحوس))[2]، شبه الفقر والإملاق بليل اشتدت ظلمته، استعارة مكنية، وأسند الظلمات للبؤوس تخييلاً.

وقوله : ((وأَهْلُها مُغْتَمُّونَ لايمِلكُهُمْ غُمْضُ اللَّيلِ))[3]، فقد شبه النوم بانسان له سطوة، ونفوذ يمتلك بهما، وأسند إليه الفعل تخييلاً.

أما **المجازات** بأنواعها الاصطلاحية، فقد كانت كثيرة نسبياً، وذلك بالقياس

---

(١) المقامة (٢١): الموصلية، ص ١١٣، شرح محمد محيي الدين عبدالحميد.

(٢) المقامة (١٧): البخارية ، ص٩٦-٩٧، يجلو: ينير، غياهب: ظلمات، مفردها غيهب، يغل: بمعنى يكسر، الشبا: جمع شباه، وهي سن الرمح أو حد كل شيء. انظر: اللسان، مادة: جلى، غلل، شبا.

(٣) المقامة (٢١): الموصلية، ص ١١٨.



إلى الاستعارات، وهذه بعض الأمثلة على ذلك، كقوله : ((أشْرَقَني الخجَلُ بريقِهِ، وأرْهَقَني المكانُ بضِيقِهِ))[١].

فالخجل لايسبب الغصة، كما أن الخجل اسم مجرد لمعنى معين يدرك ولايحس، ويفهم ولايرى، لاريق له، وإنما الريق للانسان، ومن في حكمه، فالكلام كله جارٍ مجرى المجاز.

ثم إن المكان أيضاً، في حد ذاته، شيء جامد لاحياة فيه، وهو ليس قادراً على الفعل، وإسناد الفعل إليه من باب المجاز العقلي المحض، لعلاقة السببية، لأن أولئك الذين كانوا يكتظون في ذلك المكان هم الذين أرهقوه بذلك الضيق الذي سببوه في ذلك المكان فصار ضيقاً لايسع من فيه .

وقد أسند الفعلان كلاهما لغير ماوضعا له في الأصل .

وكذا في قوله : ((فَظَلِلْتُ أخْبِطُ وَرَقَ النَّهارِ، بِعَصَا التَّسْيَارِ، وأَخُوضُ بَطْنَ اللَّيْلِ، بحوافِرِ الخَيْلِ))[٢] مجاز كثير، لأن النهار لاورق له، وإنما الأوراق للشجر. فقد شخص النهار، وكأنه شجرة محسوسة ذات أوراق، فهو يضربها بعصاه.

هذه بعض الأمثلة على سبيل الاستشهاد، لأن المجاز مجال واسع ولطالما وجد فيه الكتاب والشعراء متنفسهم، وهم يفزعون إليه في كتاباتهم من أجل توضيح معنى غامض، أو تشخيص شيء مجرد، أو من أجل أغراض كثيرة قد لاتحصر[٣].

ومنها قوله: ((وَحَلَّ العمائِمَ عَنْ جَسَدِهِ))[٤]، كانت العمائم فوق رأسه فقط، فعبر عنها بالجسد تعبيراً باسم الكل عن بعض .

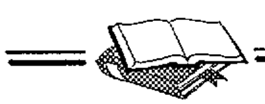
---

(١) المقامة (٢٠): القردية، ص١١٢.

(٢) المقامة (١٤): الفزارية، ص ٧٨.

(٣) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، عبدالملك مرتاض، ص٤٠٧-٤٠٩.

(٤) المقامة (٢١): الموصلية، ص ١١٧.



أما المجاز عند **ابن ناقيا** فيظهر في قولـه: ((فمـرتْ بِعَـينٍ جَارِيـةٍ))[1] مجـاز عقلـي لعلاقة الفاعلية، فقد أسند الفعل أو مافي معناه إلى غير فاعلـه؛ لأن العـين لاتجـري، بـل مجرى بها.

وفي قولـه : ((وأَنـا عَلَـى جَنَـاح السَّـفَر))[2]، شـبه السـفر بطـائر، بجـامع عـدم الاستقرار في كلٍ، ثم حذف المشبه به، وأتى بـلازم مـن لوازمـه، وهـو الجنـاح، علـى سبيل الاستعارة المكنية .

وفي قوله : ((وَقَدْ استعرتْ الرَّمْضَـاءُ))[3]، شـبه الرمضـاء بالنـار بجـامع الحـرارة الحاصلة في كلٍ، ثم حذف المشبه به، وأتى بلازم من لوازمه وهو الاستعارةعلى سـبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله : ((كَأنَّما خلعتْ عَليه الشَّمسُ سِرْبَالها))[4]، حيث شبه الشـمس بفتـاة مرتدية حلة جميلة، ثم حذف المشبه به وهو الفتاة ورمز إليه بشـيء مـن لوازمـه، وهـو خلع السربال على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله : ((قَضَى النَّهارُ نَحْبَهُ))[5]، فشبه ذهـاب ضـوء النهـار بإنسـان يمـوت بجامع ذهاب الأثر في كلٍ، ثم حذف المشبه به وهو الانسان، وأتى بلازم مـن لوازمـه، وهو قضاء النحب على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله: ((حَتَّى كَشَفَتْ الظَّهيرةُ عَنْ سَاقِها))[6]، شبه الظهيرة بانسان يكشف عن ساقه بجامع الظهور في كلٍ، ثم حذف المشـبه بـه، وأتـى بـلازم مـن لوازمـه وهـو

---

(١) المقامة (١) فن المقامات العشر لابن ناقيا، ص ١.

(٢) المقامة والصفحة نفسها .

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٣.

(٦) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٦.



الكشف عن الساق على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله : ((ضَمَّ جمعَنَا الظَّلامُ، وَأيقَظَ مِصْبَاحُنَا الظَّلام))[١]، فقد شبه ذهاب الظلام عن طريق المصباح، بانسان نائم يستيقظ، بجامع الأثر الحاصل في كلٍ، ثم حذف المشبه به وهو الإنسان، وأتى بلازم من لوازمه وهو الاستيقاظ على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله : ((وَأَمَاطَتْ النّجُومُ خِمَارَهَا))[٢]، شبه النجوم وقد كشفت عن ضوئها بفتاة تضع خمارها بجامع الظهور في كلٍ، ثم حذف المشبه به وهو الفتاة، وأتى بلازم من لوازمه وهو: اماطة الخمار على سبيل الاستعارة المكنية.

ولعلك لحظت أن معظم استعارات ابن ناقيا قامت على الاستعارة المكنية دون سواها.

أما **الحريري** فقد كان مولعاً بالاستعارة، والمجاز، ومن ذلك قوله : ((فَلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِنَاسِي، وَرَحَّلَنِي عَنْ أُنَاسِي، ونَقَلَنِي إلى كَسْرِه وحَصَّلَنِي تَحْتَ أَسْرِه، وَجَدْتُه قَعدَةَ جُثَمَةً، وأَلْفَيْتُه ضُجَعَه نُوَمَه، وكُنْتُ صَحِبْتُه بِرِيَاشٍ وَزِيّ، وأَثَاثٍ وَرِي، فَمَا بَرِحَ يَبيعُه فِي سُوقِ الهَضْمِ، وُيتْلِفُ ثَمَنَهُ فِي الخَضْمِ والقَضْمِ، إلى أَنْ مَزَّقَ حَالِي بِأَسْرِه، وأَنْفَقَ مَالِي فِي عُسْرِه، فَلمَّا أَنْسَانِي طَعْمَ الرَّاحَةِ، وغَادَر بَيْتِي أَنْقَى مِنَ الرَّاحَة..))[٣].

الحديث هنا معقود على لسان سيدة تجادل زوجها أمام القاضي وإذا تأملنا الكلام وجدنا كثيراً منه يجري مجرى المجاز.

أرأيت أن كلاً من ((اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِنَاسِي))، و((حَصَّلَنِي تَحْتَ أَسْرِه)) و((يَبِيعُه

(١) المقامة (٤)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص٨.

(٢) المقامة نفسها، ص٩.

(٣) المقامة الإسكندرية، ١/٣٥٠، ٣٥٢.



في سُوقِ الهَضْم)) و((أَنْسانِي طَعْم الرَّاحَة))، استعمالات مشتملة على مجاز، لأن الكناس للظبي، وإنما قال ذلك لأن المرأة كانت تشبه عندهم بهذا الظبي، فالعلاقة المشابهة. وقل نحو ذلك في الأسر، فإنه لايكون حقيقة إلا للجندي الذي يؤخذ من معركة قسراً، فيوضع تحت الحراسة لأجل معلوم، وإنما استعمله هنا لما بين الأسير والمرأة المحبوسة في منزلها من شبه. هذا إلى جانب أن الرجل يقوم عليها ويحرسها على نحو أو على آخر. وغاية العلاقة الشبهية هنا بين المرأة والأسير، التشنيع على زوجها، وإظهار شقائها مع هذا البعل، فهي أشبه ماتكون بالأسير المحبوس. وهذا تصوير نفسي رائع لحالة المرأة الشقية مع زوجها.

وقل نحو ذلك في قوله:((سُوقَ الهَضْم))، فإضافة الهضم إلى السوق مجاز محض.

وفي قوله أيضاً: ((أَنْسَاني طَعْم الرَّاحَة))، لأن الراحة لاتؤكل أكلاً مادياً كما يؤكل الطعام، وإنما استعمل الطعم وأضيف إلى الراحة، لما في كليهما من تذوق وتلذذ، بالرغم من أن تذوق الطعام مادي محض، والتمتع بالراحة وتذوقها أمر معنوي صرف.

وكذا في قوله : ((سَلَّتْ الصُّبح خِضَابَه))[1]، وفي هذا الكلام استعارة ظاهرة، لأنه شبه ظلام الليل الكثيف الذي يجلوه الصباح الأبلج، بالمرأة حين تسلت خضابها وتزيله من كفها، بجامع السواد في كل منهما، وبالرغم من أن الخضاب يتخذ أحياناً لوناً أحمر قانياً لا أسود.

والعلاقة بين الصورتين المشابهة. ولكن هل كانت هذه المشابهة واضحة قوية التصوير؟ إننا لانذهب إلى ذلك، فإن الخضاب مهما بلغ من السواد والحُلْكة، فإنه لايبلغ شيئاً بالقياس إلى ظلام الليل الدامس، والمعروف ن يكون المشبه به أقوى صورة من المشبه ليلحقه في الصورة المعنوية أو الحسية المراد تصويرها في ذهن القاريء.

---

(١) المقامة (٤) الدِّمياطية، ١/١٥٨.



فهل أدت الاستعارة الحريرية هنا وظيفتها على الوجه المطلوب؟ ومهما يكن من أمرٍ، فإن تقدير عبارة الحريري هو : أن الصباح سلت الظلام بنوره الفياض، كما تسلت المرأة الخضاب عن كفيها وتزيله.

والاستعارات ، والمجازات كثيرة في مقامات الحريري وماهذه إلا بعض الأمثلة على ذلك.

وفي مقامة أخرى يقول:

«أَغُوصُ في لُجّةِ البَيانِ، فأَخْـ ** ـتَارُ اللآلِى مِنْها وأَنْتَخِبُ»[1]

فذكر التبحر، واللآلى، والغوص مجازاً.

وفي مقامة ثانية يقول: «وبَرَزْتُ مِنَ الحَمّامِ بَعْد سَبْتِ راسِي، رأيْتُ غُلاماً أُفْرِغَ فِي قَالَبِ الجَمَالِ»[2]، أي خرج من الحمام بعد أن حلق رأسه كعادة أهل المشرق متى دخلوا الحمام، أفرغ : وضع ليصنع، والقالب: الذي اطبع فيه الدراهم، ودرهم مفرغ: إذا أذيبت فضته وصبت في قالبه، فيريد أن هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ في قالب الجمال.

وكذا في قوله: «هَتَفَ بِي دَاعِي الشَّوقِ إِلى رَحْبَةِ مَالِكِ بنِ طَوْقٍ»[3]، يريد أن شوقه إلى الرحبة يهيج عليه حتى سار إليها، وجعل له داعياً مجازاً.

وفي قوله : «ولاتَمَخَّضَت لَيْلِيَ عَنْ يَوْمِها»[4]، تمخضت المرأة: أضر بها وجع الولادة، وتقول تمخضت المرأة عن زوجها: إذا حملت بالولد عنه، وتمخضت بولدها: إذا تحركت به ودنت ولادتها، وإذا استعير هذا المعنى لليلة صار تمخضها عن اليوم

(١) المقامة (٩): الإسكندرانية، ١/٣٥٥.
(٢) المقامة (١٠): الرحبية، ١/٣٧٤.
(٣) المقامة نفسها، ١/٣٧٤.
(٤) المقامة (١٩): النصيبية، ٢/٣٦٠.

السابق لها، وأصله المخض بالتحريك، ومنه: مخضت اللبن مخضاً، حركته لإخراج زبده، ومخضت المرأة وتمخضت: تحرك ولدها ليخرج، ثم يستعار ذلك للأيام وغيرها(١)، كما حدث هنا في المقامة .

وفي قوله : «لَكِنْ حَدَاني القَرْم وسَوْرَته»(٢)، فالقرم: شهوة اللحم، ولكن استعير لشهوة اللبن.

وفي قوله : «والمُحَاسِبُ مُنَاقِش، والمُنْشِيءُ أَبُوبراقِش ولِكِلَيْهِما حُمَةٌ حِيْنَ يَرْقَى، إِلَى أَنْ يَلْقَى وَيَرْقَى»(٣)،حمة هو سم العقرب، فاستعير لما ينشأ عن القلمين من الأذى.

وفي قوله: « حَرَورِي بِسمُومِي»(٤)، الحرور: الريح الحارة ليلاً، والسموم الريح الحارة نهاراً، وقد يقام أحدهما مقام الآخر مجازاً.

وفي قوله : «ولمْ يَزَلْ يَسْتكْرِم المغَارِس، ويتَخَيَّر مِنَ المفَارِش النَّفَائِس»(٥)، فالمغارس : محال الغرس من الأراضي فاستعير للمرأة.

أما **الزمخشري** فقد عمد للاستعارات، والمجاز، ولكن ليست بتلك الكثرة إذا ماقورنت بسواها من الصور البيانية.

ومن ذلك قوله في إحدى مقاماته: «وشَيْطَان الشَّهْوة قَد اسْتَزَلَّكَ»(٦)، لما كانت الشهوة حاملة للإنسان على الزلة،جعل لها شيطاناً يستزل على سبيل الاستعارة.

وقوله أيضاً : «وانْتَهِ عَنْ بَعْضِ شَرَارَتِكَ، حِيْن عِيدانُ نَشَاطِك تَخْفِق»(٧)،

---

(١) انظر: شرح مقامات الحريري، للشريشي، ٣٦٢/٢.
(٢) المقامة (١٥): الفرضية، ص١١٤، ت: يوسف بقاعي.
(٣) المقامة (٢٢): الفراتية، ص ١٦٦.
(٤) المقامة (٢٧): الوبرية، ص ٢٠٦.
(٥) المقامة (٣٩): العمانية ، ص ٣٠٠.
(٦) المقامة (٢): التقوى، ص ٣٠-٣١.
(٧) المقامة (٤): الارعواء، ص ٣٧-٣٨، وانظر: اللسان، مادة: عود، خفق .



فالعيدان: جمع العود الذي يضرب به، وخفقها : اصطفاقها، واضطراب أوتارها، فيقال: خفقت العيدان، وجعل للنشاط عيداناً تخفق عن طريق المجاز، وهو من لطيف الاستعارة، وأوقعها.

وفي نفس المقامة حين أراد وصف شبابه، فجعل نفسه كالغصن الأخضر، واستعار له أوصافه فلذلك قال: ((وعُودُكَ ريّان، وظِلُّك فَيْنَان))[1]، فكأنه يخاطب الغصن، والفينان: الظليل.

وتظهر في مقامة أخرى حين قال: ((وإيَّاكَ والكَلفُ بِبيْضَاتِ الخُدُور وقَسَمَاتِهِنّ المُشَبَّهة بالبُدُور))[2]. فشبه الحسان البيض من النساء ببيض النعام، ويقال بيضات الخدور، على طريق الاستعارة وأضافهن إلى الخدور، للدلالة على أن المراد النساء.

وفي قوله : ((ولْيكُنْ عَمَلُكَ دِيمَة))[3]، استعار له اسم الديمة؛ لدوامه واتصاله، وأصل الديمة : المطر يدوم أياماً.

وكقوله: ((أهبَّ الملكُ لِفُلان قَبُولَ قبُولِه رُخاء، وأرخَى له عَزَالَي سَحَابِهِ ارْخاء))[4]، جعل للقلوب ريحاً قبولاً، ثم جعلها رخاءً لينة الهبوب طيبة.

واستعارات هذه المقامة لمن تأملها بعين البصيرة ممن تلمظ بذوق من علم البيان، غريبة ، نادرة.

فالعزلاء: فم المزادة وهي مسكبته التي في أسفلها كأنها في الأصل صفة للمسكبة، تأنيث الأعزل، والجمع عزالي، كعذاري، وبها تشبه مخارج الودق وتستعار لها فتراها واردة على طريق التشبيه تارة، وعلى طريق الاستعارة أخرى.

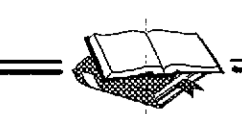
---

(١) المقامة نفسها، ص ٣٨، وانظر: اللسان، مادة : فنن .

(٢) المقامة (٩): الاعتبار، ص ٦٢.

(٣) المقامة (١٤): الاستقامة، ص ٨٤، وانظر: اللسان، مادة : دوم .

(٤) المقامة (١٨): الظلف، ص ١٠٢، وانظر: اللسان ، مادة : عزل .



وكذا قوله : ((وَرَأسٍ بالتَّاج معْتَصِب ... ويَخْضَع بخدّه لِتَعَالي جَده))[١] فالمعتصب: المتوج ويقال للملك المعتصب لتعالي جده من قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا**﴾[٢]: أي عظمته، وهو مستعار من الجد الذي هو الدولة، والبخت الذي يعظم به المجدود، ويقحم في العيون والقلوب.

وفي قوله: ((وعزة نفسٍ لاتستخذي للحملِ عَلَى الّدنية، وإنِ افترشتْ ذِرَاعَيها عَلَى صَدْرِها المنية))[٣]، فاستعار للمنية صفة السبع، فجعل لها ذراعين، وجعلها مفترشة لها.

وتظهر الاستعارة في قوله: ((جَمَعَ هُنيدة نصر بن دهمان))[٤]، بمعنى عاش مائة سنة، وهنيدة: اسم للمائة من الابل، كما أن أمامة اسم للثمانين منها، فاستعارها للمائة من السنين، وهي الاستعارة اللفظية.

وفي مثل قوله : ((وَيَرأَبُ ثأيكَ وَيصلحك))[٥]، فالرأب: الإصلاح، يقال: رأب الصدع، ثأيك: الثأي أن يتفق الخرز فتصير الخرزتان واحدة، وقد ثأى الخرز وأثاه الخارز، فاستعير للفساد.

ومن ذلك قوله : ((فعليكَ بالخير إنْ أردتَ الرُّفُول في مَطَارِفِ العزِّ الأَقْعَس))[٦]، فالعز ليس له مطارف، فيرفل فيها صانع الخير، وإنما يجري الكلام مجرى المجاز، ولكن لما كانت المطارف من الأثواب المعلمة الفاخرة، التي يلبسها الرجل الغني الغرير، فإنه أضاف هذه الأثواب إلى العز.

---

(١) المقامة (٢٤): الاخلاص، ص ١٤٦، وانظر: اللسان، مادة: عصب .

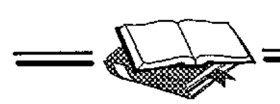
(٢) سورة الجن، آية ٣ .

(٣) المقامة (٣٧): المراقبة، ص ٢١٧.

(٤) المقامة (٣٨): الموت، ص ٢٢١-٢٢٢، وانظر: اللسان ، مادة : هند .

(٥) المقامة (٢٤): الخمول، ص ٢٥٠، وانظر: اللسان ، مادة: رأب ، ثأى .

(٦) المقامة (١) : المراشد، ص ٢٧ .



ولم يسبق الزمخشري إلى هذا التعبير، فالحريري قد سبق وقال: ((اسحَبْ مَطَارِفَ الثَّراء))[١]، فقد أضاف هنا المطارف إلى الثراء، بدل العز صنيع الزمخشري. والعز والثراء متلازمان في الحقيقة؛ لأن المرء قلما يكون ثرياً ولايكون عزيزاً، أو يكون عزيزاً ولايكون له حظ من الثراء، ولو كان هذا الثراء يتمثل في حصيلة من العلم والعقل.

والعلاقة بين العز والثراء من جهة، والمطارف من جهة أخرى، واضحة.

أما المجاز فيظهر في قوله: ((ودَعَاكَ دَاعِي الشَّهْوةِ إلى اخْتِيَاره))[٢]، جعل للشهوة داعياً مجازاً، كما جعل لها شيطاناً.

وكذا في قوله : ((أيْنَ مايقْتل بِه الطَّوى والظَمَا))[٣]، فالطوى الجوع، وقتله مجاز عن تسكينه.

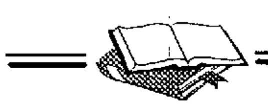
ومن أحسن ماقيل في المجاز قولـه : ((حَسْبُكَ ماأَوْضَعْتَ من مَطَايا الجهلِ في سُبُلِ الهوَى، ومَاسيَّرتَ مِنْ رِكَابِ الضَّلاَل فِي ثَنِيَّاتِ الصِّبَا، مَالكَ لاتحُلُّ عَنْهَا أحْمَالك...))[٤].

لما جعل للضلال ركاباً أتبعها ذكر الثنيات وحل الأحمال وحط الأثقال، وإلقاء الحبال على الغوارب، والضرب على وجوهها والطيران في مساربها، وهذا هو المجاز المرشح الذي لاتعثر عليه إلا في كلام الفحول .

ومن ذلك قوله : ((وإيَّاكَ أن تَتَناظَر دَارُكُما أو تَترَاءَى نَارُكُما))[٥]، فتناظر الدارين أن يتقابلان كأن إحداهما تنظر إلى الأخرى على سبيل المجاز.

---

(١) شرح مقامات الحريري، ١٢/١.
(٢) المقامة (٣): الرضوانية، ص ٣٥.
(٣) المقامة (٥): الزاد ص ٤٣، وانظر: اللسان، مادة : طوى .
(٤) المقامة (١٢): الطاعة ، ص ٧٧.
(٥) المقامة (٢٢): الولاية ، ص ١٣٨.



وكذا قوله: «حَلِّقْ عَلى هَامِ أَمَانِيِّكَ»[١]، فهذا نوع من المجاز لاتراه إلا في كلام من هو من البلاغة بالمكان الأعلى.

وفي قوله : «اخْتَلَسه الحِمَامُ قبل أَنْ يُخْلِسَ عَارِضُه، وهُيِّجَ قبْلَ أَنْ يَهيجَ بَارِضُه»[٢]، فالبارض أول مايطلع من نبات الأرض قبل أن يطول وهاج إذا يبس، وهو مجاز عن شيبه وأنه لم يبلغ أوان الشيب.

ونخلص إلى أن كتاب المقامة حين عمدوا إلى علم البيان وأولاه التشبيه، ومن ثم المجاز، يعلمون تأثير ذلك على قراء مقاماتهم، فهم كالقدماء «ينظرون إلى التشبيه على أنه نوع من الإقناع، فالمتكلم عنده فكرة أو قضية عامة غير ظاهرة، أو غير مألوفة فهو يسوقها مجردة ثم يعقب بتشبيه يوضحها، بحيث تقبل النفس، والتشبيه في هذه الحالة يقوم بغرض خطابي أو تعليمي أو خطابي تعليمي في وقت واحد، وهذا وإن كان مما لاينكر أن البلاغيين التفتوا إلى التأثير الوجداني للتشبيه»[٣].

وعلى كلٍّ فإن «علم البيان يتمثل دوره في الكشف عن الخصائص الكامنة في صور البيان، وطرق التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة كما يكشف عن أسرار التصوير البياني، وتأثيره النفسي، وعناصره التي تأتي في إطار التشبيه والمجاز والكناية»[٤].

---

(١) المقامة (٣٤): الشكر، ص ٢٠٤.

(٢) المقامة (٣٨): الموت، ص ١٢٤-١٢٥، وانظر : اللسان، مادة : برض .

(٣) كتاب سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي – دراسة وتحليل، د. عبدالرزاق أبو زيد زايد، ص٩٨، مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢م.

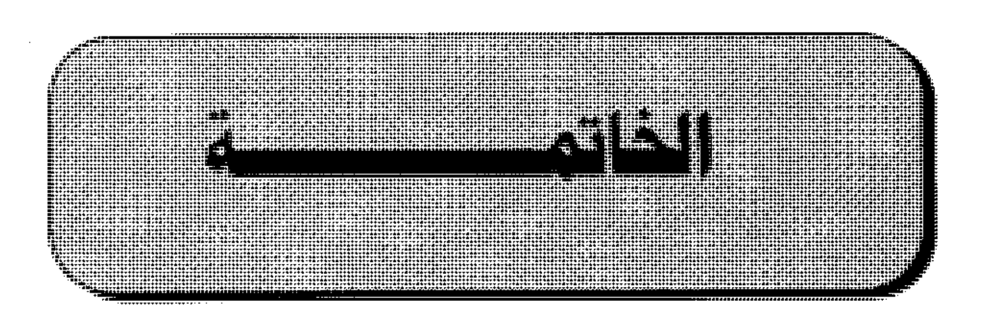
(٤) البلاغة العربية وسائلها وغايتها في التصوير البياني، د. ربيعي محمد علي عبدالخالق، ص٥، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٨٩م.

ولكن د. مصطفى الصاوي الجويني يخرج الكناية من علم البيان فيقول: ((وغاية علم البيان التعبير بصورة تعبيرية مختلفة أما البديع فغايته تحسين المعاني وزخرفة الألفاظ، ... وموضوعات علم البيان كما استقر عليها الرأي عند السكاكي وإلى اليوم هي : التشبيه والاستعارة))[١].

ولعلك لحظت أن كتاب المقامة امتلأت بالمجاز، وقد يتداخل المجاز بالاستعارة كابن نباتة مثلاً، وهذا يدل على امتزاج الصور البلاغية لديهم، في حين كانت أدوات الطبيعة هي المادة التي يستقون منها صورهم .

---

(١) البيان فن الصورة، ص ٢٠.


الخاتمــــــة

الخاتمــة

بعد الإنتهاء من البحث الذي أقيم على بابين مسبوقاً بتمهيد، وملحقاً بخاتمة التي سنجمل فيها أهم ماتوصلت إليه الدراسة من نتائج .

- ذكرت في تمهيد الرسالة تطور دلالة فن المقامة في الأدب العربي، وركزت على نشأة فن المقامة وذلك بمعرفة الأسباب التي أطلقت من أجلها لفظة مقامة، وتطور مدلولها، والبحث يؤيد ابن قتيبة الذي كان من أوائل من أطلق على الأحاديث الوعظية لفظ مقامات فنخرج بأن الوعظ قد سلم إلى المقامة، ومن ثم التأكيد على أن البديع ت٣٩٨هـ هو حامل لواء هذا الفن، ومن حاول إثبات سابقين له في هذا المضمار، فما هم إلا مشاعل أنارت له الطريق فحسب كابن دريد، وابن فارس أستاذه.

أما الباب الأول الذي كان يحمل عنوان: قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة، فيتكون من ستة فصول؛ كان الأول منها عن الأخلاق الإسلامية في المقامة حيث وجدت ضرورة التعريف بالخلق لغة واصطلاحاً، ولما كانت الأخلاق الإسلامية متداخلة حينا، متناسقة ومفصلة في بعض جزئياتها حيناً آخر، تناولنا أبرزها، فكان البدء بالزهد في الحياة والذي لم يكن عند المقاميين على وتيرة واحدة، فما نراه يحث على تركه هذا ، نجد الآخر يزهد في شيء مخالف له، وابن الجوزي هو الذي وضح الكثير من طرق الزهد - أكثر من بقية المقاميين - فبين أنه ليس من الزهد ترك السعي في طلب الرزق للأهل والأولاد، وليس منه من اهتم ببناء رباط، وليس منه ترك النكاح، كما حث على الزهد في المال، وفي المطعم، والملبس، والمسكن.

أما الزمخشري، والبديع فقد حثا على الزهد في الدنيا. بينما ذكر الحريري مفتاح الزهد؛وهو التوبة، وأشار بمجرد إشارة إلى أن هذا الزهد مما امتاز به أهل البصرة.



وثاني خلق تعرض له البحث، هو: خلق الصبر الذي وجدناه قد ورد في المقامات من أول الصبر على فقد عزيز بالموت، وثانياً بجعله صفة من صفات الرجل الحر، والاستعانة به في المصائب والملمات، وأخيراً الصبر على معاناة الوحدة، ثم إن بعض المقاميين ذكروا عاقبته، ومن ثم كيفية التحلي به وتعويد النفس عليه؛ حتى يصبح الإنسان مؤمناً صابراً وفي معية الله؛ لأن الله مع الصابرين.

ويلي الصبر خلق الشكر الذي حث عليه المقاميون ممثلاً في شكر الله، إلا أن ابن الجوزي والزمخشري ركزا على أن العبد لابد أن ينظر إلى النعم التي أنعم الله بها؛ ليزداد شكره لمنعمها عليه وزاد الزمخشري على ذلك بذكر الكيفية التي يشكر بها العبد مولاه؛ وذلك باستعمال نعمته في محبته؛ لأن من فهم حكمة الله في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر لله، أما ابن نباتة فقد أشار إلى شكر الله، ثم شكر الناس، وعلى عكسه ابن ناقيا الذي أعطى صورتين، إحداهما : لرجل يحسن إليه فلايشكر، والثانية: صورة أناسٍ توجهوا بالشكر لله؛ لأنه خلصهم من هذا الكافر لصنيع المعروف.

أما الحريري فأضاف إلى ذكر شكر الله، ثم الناس شكر الوالدين ، قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي الكرم أبانت الدراسة أن هذا الخلق حث عليه معظم المقاميين، إلا أن ابن الجوزي يذكره – غالباً – مع ضده؛ ليكون أدعى للتأثير، وأول صوره إكرام الضيف، وإطعام الطعام لمن يعرف ومن لايعرف، وإكرام السائل، كما أظهرت – المقامات – معظم مراتب الجود: كالجود بالنفس وبالرياسة، وبالراحة، وبالعلم، وبالنفع بالجاه، وبنفع البدن، وبالعرض، وبالصبر، وبالبشر والبسطة، وبترك مافي أيدي الناس، وبينت آداب الضيف مع مضيفه، وإكرام الخادم، كما أعطت صوراً للكرم ممثلة في أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وطلحة، ورغم أن ابن الجوزي عاب على بعض أهل زمانه بخلهم فإنه أشاد ببعضهم الآخر الذين كانوا يقترعون إذا نزل غريب؛ لإكرامه،



وهذا الايثار أعلى مرتبة من الجود والسخاء الذين حث عليهما كثيراً الزمخشري وبين الكيفية التي يكون بها الانسان كريماً؛ وذلك بالصدقة على الفقراء؛ لأنها صداق المال.

أما البديع الذي كان يحث على الكرم ويستغله نجده يحذر ابنه أن يتحلى بتلك الصفة ويتخلق بذلك الخلق، وعلى نقيضه الحريري الذي جعل بطله مضيفاً في إحدى مقاماته وكان نعم المضيف فأدى للضيافة حقها، كما أشارت الدراسة إلى تلبية الدعوة والحث عليها، بعيداً عن البطنة التي نفرت منها.

وفي حسن الصحبة خرج البحث بأن أصحاب المقامات حثوا عليها إما بمدحها، أو التنفير من ضدها، وفي كلٍ دلالة على العمل بمقتضاها على الوجه الصحيح، وهو التمسك بهذا الخلق الحسن وأن تجمع مابين المسلمين الصحبة الحسنة أو الأخوة، إلا أن الأخوة أعم من الصحبة، لأنه - الخلق - ينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة إلا أن لكل منها درجات، وابن الجوزي رغم أنه ينعي عدم وجود أخوة، وأصدقاء أوفياء، إلا أنه أشاد ببعض الحقوق التي التزم بها الصاحب تجاه صاحبه ومنها حق اللسان، فيسدي النصح له، ويذكره بالموت، وإلى هذا الحق أشار الزمخشري أيضاً والبديع والحريري، إلا أن البديع زاد فذكر كيفية اختيار صديق السفر، وأن لديه نوعي صحبة، صحبة دينية وأخرى دنيوية، وأما ابن نباته فقد أشار إلى اجتماع الأصحاب على كلمة واحدة ونادراً ماتختلف، وابن ناقيا يشيد بالصحبة الحسنة، وينفر من قرين السوء، بينما يحث الحريري بطريق غير مباشر على أن حق الصديق على صديقه بأن يحتمل منه ثلاثاً : ظلم الغضب، ظلم الدالة، ظلم الهفوة، وألا ينقب عن عيوبه، ويراعي حسن الصحبة، لأن من لم يرعها فقد كفرها.

أما عن خلق الوفاء فالبحث خرج بأن المقاميين أشاروا إلى نوعين من الوفاء، الوفاء بالوعد، وبالعهد وحثوا عليهما، إلا ان ابن الجوزي، نفر من ضده وهو الغدر والخيانة، وشدد على عدم الوفاء بما عاهد العبد به ربه من طاعة وشكر، وكذا عدم



الوفاء بالنذر، بينما زاد الزمخشري على ذلك بالحث على السرعة في إنجازه، أما البديع فقد ذكر الوفاء بالوعد والوفاء بالنذر وحث عليهما ، وكذا الحريري.

وآخر خلق تناولته الدراسة خلق الشجاعة الذي يقوم أساساً على ضبط النفس عند مواجهة الخطر في الظروف الأليمة فقد وضحه ابن الجوزي، وحث عليه في غمار الحروب، وفي بعض المواقف التي تحتاج شجاعة غير تلك التي يحتاجها من يدخل لساحات الوغى، إلا أن الزمخشري نوه بالشجاعة من طريق آخر، وهي الاستفادة منها في مرحلة الشباب وتوجيهها الوجهة الصحيحة في كل مايقرب العبد من ربه وحث على مايمكن أن نطلق عليه الشجاعة الأدبية، أما البديع فلم يشر إلا للشجاعة التي تعتمد على القوة البدنية في مواجهة العدو، وكذلك الحريري.

أما الفصل الثاني فقد كان عن النقد الاجتماعي ومن أبرز الصور التي ظهرت في المجتمع الذي عاش فيه أصحاب المقامات: النزعة إلى الزهد والوعظ الذي انتشر كثيراً؛ حتى نزل إلى ميدانه المتكسبون وتنافس فيه المخادعون إلى جانب الزهاد والوعاظ الحقيقيون،كما أبان ذلك بديع الزمان الهمذاني والحريري، وابن ناقيا، وعلى عكس هؤلاء: الزمخشريُّ وابنُ الجوزي اللّذان جعلا مقاماتهما ترتكزان على الوعظ الذي ليس من ورائه مأرب آخر غير الوعظ، واتكأ ومعهم الأسواني على التنفير من الدنيا، والسعي لنيل ثواب الآخرة، ويكونون بذلك قد صوروا الجانب الديني الممثل في المجالس الوعظية في المجتمع الذي عاشوا فيه وأثرتلك المجالس على مستمعيها من الناس، والتي كانت من الكثرة بمكان، بل إن طلابها أكثر حتى إنَّ الأماكن تزدحم بهم.

أما ابن نباتة والنعماني فلم يشيرا إلى ذلك ربما لكونهما لم يكتبا إلا مقامة، فلم تسعفهما ليذكرا صورة عن تلك المجالس الوعظية.

وعلى النقيض من تلك المجالس صورت لنا المقامات مجالس اللهو والمجون الممثلة في شرب المسكر المقرون بالعزف والغناء بدءاً من بديع الزمان الهمذاني، وابن نباتة، وابن ناقيا ومروراً بالحريري والزمخشري والأسواني، وانتهاءً بابن الجوزي، إلا أن



الثلاثة المقاميين الأخرين لم يكن وصفهم لمجالس اللهو والمجون، إلا ليحذروا الناس من الوقوع فيها، ويتوجهوا إلى نقيضها من مجالس الذكر والوعظ.

وانطلق البحث بعد ذلك ليظهر عقلية ذلك المجتمع من خلال المقامات فإذا هي عقلية تؤمن بالحرز كما بين لنا الهمذاني والحريري، وتؤمن بالعين كما وضح لنا ابن الجوزي وتؤمن بالشعوذة كما أظهر لنا ابن ناقيا، وتؤمن بشياطين الشعر كما ذكر الهمذاني، وتؤمن بالتطير كما بين الحريري .

أما الكدية التي كانت أبرز ماميز أفراد مجتمع الهمذاني والحريري، وابن نباته، وابن ناقيا، فقد كانت ظاهرة للعيان، وكذا الأساليب التي اتخذها المكدون، ومنها : التعامي أو ادعاء عاهة عند كل من الهمذاني وابن ناقيا والحريري أو الاستعانة بقرد يرقصه والناس يضحكون من حوله كما عند الهمذاني، وثالثة بادعاء تبدل الحال مع وجود العيال.

ومن الصور التي ظهرت نقداً للمجتمع بيع العبيد الذي كان يتم بالمناداة عليهم في الأسواق كما ذكره الحريري، وكذا الجواري الذي دلل بمجتمع الحريري على استخدام أفراده لهن مقابل مال يدفعونه أو بلامقابل.

أما المرأة فقد ذكر ابن الجوزي بعض صفاتها فمثلت صورة للمرأة في عصره فهي متبرجة ، نواحه، خائنة، لاتعرف قبلة في الغروب ولافي الشروق.

ومن الأمور التي أبرزتها لنا المقامات و لم تغفلها المساجد التي أوردها معظم المقاميين، وأبانت الدراسة أن المساجد قد تكون لغير الصلاة، فقد تعقد فيها المنتديات، وقد تكون مأوى لمن لايجد له مسكناً من المسافرين وملاذاً آمناً لمن يريد أن يبعد الشك عن نفسه، كما أنها مفتوحة ليلاً ونهاراً، وربما أنتهز المكدون المصلين فيها ليحصلوا على العطايا كما ظهر في مقامات الهمذاني والحريري خاصة، ومن فضول القول أن نركز على أن المسجد هو المكان الملائم لوعظ الناس كما كان يفعل ابن

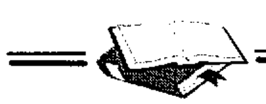


الجوزي دوماً في مقاماته قبل الصلاة أو بعدها؛ لما يجده الواعظ من استعداد نفسي لدى المصلين في تقبل وعظه.

و لم ينسوا الطعام والمطاعم، فوصفوا بعض أنواعه كما بين ابن الجوزي.

أما الفصل الثالث فكان عن الحاكم في المقامة حيث أورد له الهمذاني صوراً متعددة غير أنها تدور في فلك واحد من المعنى، وهو: السخاء والعطاء وأعطانا صورة مخالفة للأولي يمثلها قاض خبيث، وتقع مسؤلية تولى هذا القاضي للقضاء على عاتق الحاكم الذي كان عليه أن يتوخى الحيطة والحذر قبل اختياره، وكذا حاكم آخر صوره لنا الهمذاني متمثلاً في شخص حاكم لايعلم مايحدث من أمور في دائرة حكمه، بينما هناك آخر يقدر الأدب ويحترم الأدباء، وثالث يعد ولايفي بوعده، فهي صورة سيئة، والأسوأ منها البطانة التي تجلس معه فلاترشده للصواب وتعينه عليه، إذن فهي صور لقاضٍ وحاكم بعيدة عن المسلم الحق صورها لنا الهمذاني والحريري إلا حاكم سجستان فقد كان قريباً من صورة الحاكم المسلم، وكذلك ابن نباته الذي أعطى صورة للحاكم القدوة، وكذا الحريري فقد ذكر الصورة الصحيحة لحاكم يحرص على البحث عن العلماء والوعاظ لكي يستنبط منهم لأنهم خير عون له في إدارة الأمانة التي وضعها ا لله في عنقه، ومعهما النعماني، والزمخشري، والأسواني، وابن الجوزي الذي جعل حاكمه يختلف عن بقية الحكام يكمن في الدافع الذي جعل الحاكم يذهب بنفسه إلى مجلس الوعظ، وهذا هو وجه الاختلاف في صورته الجزئية عن الحاكم في المقامات الأخرى.

أما الفصل الرابع فقد كان عن الجهاد وقد ظهر في المقامات بأنواعه، جهاد ضد الأعداء بالسيف، وجهاد بالنفس وجهاد المجتمع، وكيفية الوصول إليه، إلا أن الجهاد في ساحات الوغى لايقارن إذا ماقيس مع جهاد النفس، فكل أصحاب المقامات أخذ منهم جهاد النفس نصيب الأسد، أما جهاد السيف فقد كان بالإشارة إليه إشارة عابرة ليس إلا كما فعل الحريري في مقامته الحرامية، والزمخشري في مقامته «أيام



العرب»، وابن الجوزي هو الذي افرد مقامته المسماة «في الغزاة» في جهاد الأعداء من بين سائر كتاب المقامات الذين تناولهم البحث، ونضيف إليه البديع إن أردنا ألا نهضمه حقه في مقامته «القزوينية» إلا أن البديع لم يذكر أنه لقي أعداءه الروم وحاربهم، وإنما أشار لاحتياجه للعدة والعتاد ليلقاهم.

إلا أنه لابد من التنويه بأن المقاميين -هنا- لم يعطوا الجهاد حقه من الذكر، فقد كانت البلاد تموج وتضطرب، وكانت الحروب وعلى رأسها الحروب الصليبية مما عاصروه، ولكن لانجد شيئاً يذكر عنها، وكأنها لم تكن تعكس بظلالها السوداء على المجتمع الذي يمثله هؤلاء المقاميون فيسطروه لنا ضمن ماسطروا في هذاه المقامات؟!

الفصل الخامس كان عن الحياة والموت،ووجدت الدراسةأن المقاميين أشاروا في الحياة إلى الوجوه الخمسةالموجودة في القرآن من نفخ الروح في الحيوان بالخلق، وإحياء الموتى بعد خروج الأرواح،والهدى،والبقاء،وحياة الأرض بالنبات،وذكروا الموت من أول وضع الميت في قبره إلى ذكر الصراط،وأخيراً دار القرار جنة كانت أم ناراً.

والفصل السادس عن علوم اللغة العربية، حيث تطرق المقاميون إلى بعض علومها وخاضوا فيها من نحو، وعروض وقافية باستعمال مصطلحاتها، لكن الزمخشري انطلق منها لوعظ نفسه قبل غيره.

والباب الثاني كان عن ملامح الفن الإسلامي في المقامة وهو فصلان : الفصل الأول ويشمل: فن الوعظ، وفيه: الرمز الذي اعتمد على الكناية عند البديع، وابن نباته، والحريري، والزمخشري وابن الجوزي. ليعظ به، فكل المقاميين يعلمون أن الكلمة تزخر بمعان أوسع وأعمق، فاختاروا ألفاظاً ورموزاً؛ لتخدم بكل مقاماتهم، فالهمذاني والحريري حين يرمزان بالكناية، فيعظان الناس، ليس الهدف إلا الحصول على المال، بينما الزمخشري وابن الجوزي يهدفان من وراء الرمز: الوعظ، ولاشيء سواه، كما أن الزمخشري اتكأ على استدعاء الشخصيات القرآنية والتاريخية ليوظفها في وعظه فيكون أدعى للتأثير، وتبعه في ذلك ابن الجوزي الذي رمز عن طريق قصص



الحيوانات هو وسابقه، لما تنطوى على مدلولات معنوية نجد فيها ادراكاً تجاوز حدود الفهم المسطوح.

أما القص فبعد أن عرجنا على تعريف القصة، انطلق البحث إلى بيان أبرز عناصرها: من شخصية، وحدث، وحوار، وزمان، ومكان، عند ابن الجوزي خاصة، وعند الزمخشري، والهمذاني، والحريري بصفة عامة، فخرجنا إلى أن القص عند ابن الجوزي والزمخشري اعتمد على قصص الأنبياء، لكن ابن الجوزي ينتقى منها النهايات فقط، والزمخشري يكتفي بذكر اسم الشخصية؛ ليصل إلى موطن العبرة والعظة؛ لأنه يدرك مدى تأثيرها في النفوس، إلا أن ابن الجوزي أضاف فذكر بعض القصص على لسان الحيوانات، وأضاف الزمخشري بعض قصص السنة النبوية، وبعض ما ألفه العرب وشاع بينهم كأيام العرب، ينتقي منها العظة والعبرة. أما الهمذاني فقد عول على الواقع التاريخي، وشخصيات تعكس مجتمعه، بينما الحريري قصصه تقوم على الحيلة، وبقية العناصر وموجودة معظمها إن لم تكن كلها، بينما كان العنصر البارز لدى ابن الجوزي والزمخشري هو : الشخصية بينما عنصر الحوار، والزمان والمكان والحبكة، والعقدة قلما تظهر، وإن ظهرت فلكى تخدم الوعظ الذي كان الهدف من وراء سوقهم لتلك القصص .

وأما الواقعية فبعد تعريف الواقعية الإسلامية خرج البحث بأمثلة تدل على وجودها لدى المقاميين كلهم مثلها السفر، بينما اختير الحريري من أصحاب المقامات التي أقيمت على الكدية كمثال لهم وبتقصي الواقعية وجدناها تمثلت لديه في الاستخارة، والدعاء، وحسن الجوار، وإقامة الدروس في المساجد وإفشاء السلام والصحبة، وحب العلم والعلماء والحث على النكاح، والحج والتوبة والحجامة، وزيارة القبور ومن ثم عرجنا بمثال على أصحاب المقامات التى تقوم على الوعظ، واختير ابن الجوزي، الذي ظهرت الواقعية الإسلامية لديه من خلال الوعظ بالموت، واحياء الليل والاعتكاف، والقناعة والعزلة، والصوفية وأخيراً الحرص على الصلاة والصوم كل



ذلك؛ ليحث على التمسك بما أمر به الإسلام ويتعظ من لم يجعل واقعه كواقع المسلم الحق.

والفصل الثاني عن الأسلوب فكان عن المعجم اللغوي الذي خرج البحث فيه بأن لغتهم كانت متينة أنيقة تارة وغريبة ثقيلة تارة أخرى، وخير من يمثل الأولى، الزمخشري ، والثانية ؛ الحريري. إلا أن الغرابة ظاهرة أو خاصية عامة في معظم المقامات التى كتبت على خطة البديع كمقامة ابن نباته، وابن ناقيا، والحريري، والأسواني، والنعماني، وابن الجوزي، ولعل الداعي لذلك يكون أحياناً تعليمياً، وأحياناً أخرى بقصد التحدي، وربما بقصد إحياء ألفاظ العربية .. وقد يترك المقامي الغريب – وهذا نادر – ويعتاض عنه بالألفاظ الأنيقة المختارة التى تضفي ظلالاً شعرية فتعتبر خاصية بارزة من خصائص صياغة الأسلوب في المقامة .

أما الصياغة فبعد معرفتها لدى كتاب المقامة ممثلة في السجع، والجناس، والطباق والمقابلة التى كانت من الكثرة؛ لتجعل القارىء يلجأ للمعاجم لمعرفة معاني الكلمات التى أحضرها قسراً لتوافق السجعة، أو التجنيسة، أو ليطابق به لفظة خرى، مما يشكل على القارىء لأول وهلة فيحتاج للمعاودة والمراجعة ليفهم مايقرأ كل ذلك يعكس حال العصر الذى ينتمون إليه، والاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم من الشعر والأمثال، وجد البحث أن الاقتباس الذي عمد إليه المقاميون من النوع المقبول والمباح، إلا أن ابن الجوزي، تجاوز أثر القرآن في مقاماته التضمين، والاقتباس، إلى الإفادة من منهج القرآن في الدعوة إلى ا لله تعالى، وحاول أن يستفيد من أساليب القرآن الكريم وصوره البلاغية، حيث استخدم أساليب الرمز، والنهي ، والخطاب، والاستفهام، والتكرار، ويمكن أن نطبق هذا القول على الزمخشري أيضاً.

أما الصورة ممثلةً في التشبيه، والاستعارة، والمجاز، فقد خرج البحث بأن مقامات كتاب المقامة امتلأت به إلا أنه عند الحريري من لون التشبيه البليغ الذي



لايستخدم فيه الاداة، لكنها لم تبلغ من حيث الوضوح والحياة والقوة والجمال، مابلغته عند البديع الهمذاني، ولعل السبب في ذلك التفاته الشديد واعتناؤه باللفظ دون التركيز على المعنى غالباً، أما الزمخشري فتشبيهاته قليلة قياساً بالحريري، ويتكىء فيها على التشابيه المعنوية المعقولة، لأنه كان مضطراً إلى تقرير مسائل نحوية وصرفية غير أنه لاأجمل من تشبيهات ابن الجوزي؛ لأنها من قصص القرآن، وقد نجد تشبيهاً يعقبه تشبيه آخر، وقد يتداخل المجاز بالاستعارة كابن نباته مثلاً، وهذا يدلل على امتزاج الصور البلاغية لديهم، في حين كانت الطبيعة هي المادة التي يستقون منها صورهم.

وبعد :

فلاأدعي أنني قد بلغت الغاية التي ينبغي أن يصل إليها البحث، ولكنني أقول : لقد بذلت مافي وسعي، بعد أن حرصت على ألا أكون كحاطب ليل أسير على غير هدى.

فإذا كان بعد ذلك زلة من قصور، أو غفلة، فأنا عائدة إلى الحق عندما يتبدى لي - بحول الله وقوته - مع الشكر والاعتراف بالجميل، والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



١- فهرس الآيات القرآنيـــة.

٢- فهرس الأحاديـــــــث .

٣- فهرس المصادر والمراجع .

٤- فهرس الموضـــــوعات .



١ - فهرس الآيات القرآنية

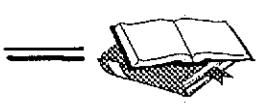






السورة ورقم الآية	رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
سورة القصص:(٢٦)		سورة الزمر:(٣٣)	
٢٩	٤٤٦	٩	٣٤٣
٧٣	٤٧	١٠	٣٩، ٤٥
٧٦	٣١٢، ٤٥١	٥٣	٣٥٣
٧٦-٨١	٢٨٠	سورة غافر:(٣٤)	
سورة لقمان:(٢٧)		٣	٤٤٦
١٤	٥١	٣٦	٣١٢
سورة الأحزاب(٢٨)		٤١	٤٥٣
٥٣	٥٩، ٦٠	٤٦	٣١٢
٥٨	١٠٩	سورة فصلت:(٣٥)	
سورة فاطر:(٢٩)		١٧	٣٠٥
١٠	١٩٤	٤٦	٢٠١
١٩	٤٤٦	سورة الشوري(٣٦)	
٢٩	٤٥٣	٥	٣٠١
سورة يس:(٣٠)		٢٥	٣٥٣
٦٠-٦١	٩٤	٤١	٩٠
سورة الصافات (٣١)		٤٣	٢٤٧
٤٩	١٤٣	سورة محمد:(٣٧)	
٨٨-٩٣	٣٠٧	٣٨	٦٥
١٠٢-١٠٦	٩٥، ٣٠٨	سورة الحجرات(٣٨)	
صورة ص:(٣٢)		١٢	٤٤٨، ٤٥٠
٣	٤٤٦	سورة ق:(٣٩)	
١٢-١٤	٢٨١	١٧	٤٥١
٢٠	٤٤٨	سورة النجم:(٤٠)	-
٧٦	٢٩٦	٩	٤٥٢
		٣٧	٩٧
		٥٣	٢٨٢



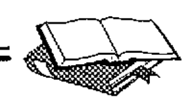


٢- فهرس الأحاديث النبوية

مطلع الحديث — رقم الصفحة



مطلع الحديث — رقم الصفحة



مطلع الحديث — رقم الصفحة



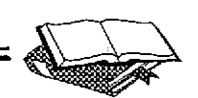
مطلع الحديث رقم الصفحة



مطالع الحديث — رقم الصفحة



مطلع الحديث	رقم الصفحة



مطلع الحديث — رقم الصفحة



مطلع الحديث | رقم الصفحة



مطلع الحديث — رقم الصفحة



٣- فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- المخطوطات:

- المقامة الحصيبية، أبوالحسين أحمد بن علي بن الزبير الغساني الأسواني، ت سنة ٥٦٣هـ، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- مقامات عبدالعزيز أبي نصر، مكتبة برلين الوطنية بألمانيا تحت رقم(٨٥٣٦).
- المقامات العشر، لأبي القاسم بن ناقيا، فاتح، اسطنبول رقم (٤٠٩٧).
- مقامات العلماء بين الخلفاء والأمراء، أبوحامد الغزالي، مكتبة برلين الوطنية بألمانيا تحت رقم (٨٥٣٧).

٢- رسائل جامعية مخطوطة:

- أدب ابن الجوزي، أول خير عمر عيسى سراج، رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة ١٤٠٩هـ.
- ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، على جميل علي مهنا، رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.
- تطور فن المقامة، د.محمدرشدي، رسالةدكتوراة-بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٠م.
- جهاد النفس وثمراته في ضوء الكتاب والسنة، فائزة أحمد سالم بافرج، رسالة ماجستير، كلية الدعوة جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- الكناية في ضوء التفكير الرمزي، نائلة قاسم لمفون، رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية جامعة أم القرى بمكة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

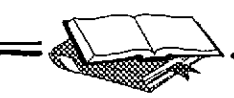
٣ - المطبوعات:

- آداب المجتمع في الإسلام، محمد جمال الدين رفعت، عبدالله ابراهيم الأنصاري، مطابع الخليج.
- الأدب في ظل بني بويه، محمود غناوى الزهيري، مطبعة الأمانة بمصر، ١٩٤٩.
- الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.
- إحكام صنعة الكلام، أبوالقاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.

- الإحكام في أصول الأحكام، الحافظ أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري، مطبعة العاصمة.
- أساس البلاغة، جارا لله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- أسباب النزول، وبهامشه الناسخ والمنسوخ، أبوالحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: أبوالقاسم هبة الله بن سلامة أبي النصر، عالم الكتب، بيروت.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب، أبوعمر يوسف بن عبدا لله بن محمد النمري القرطبي المعروف بابن عبدالبر، مطبعة السعادة، القاهرة، ط(١) ١٣٢٨هـ.
- أسدالغابة في معرفة الصحابة، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .
- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد بن محمد أبوشهبة، مكتبة السنة، ط(٤)، ١٤٠٨هـ ٠طبعة منقحة ومصححة).
- أسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقاهر الجرجاني، ت سنة ٤٧١هـ، تحقيق: هـ.ريتر، وزارة المعارف، استانبول ١٩٥٤م، تصحيح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- الإسلامية والمذاهب الأدبية، د. نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(٢)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبدالحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط(٢) ١٩٨٥م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة السعادة، ط(١) ١٣٢٨هـ.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط(٥)، ١٩٨٠م.
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الأغاني، أبوالفرج الأصبهاني، الدار التونسية للنشر.
- الأمالي، أبواسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
- الأمثال في القرآن، محمد بن الشريف، دار عكاظ للنشر، ط(٢).



- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين علي بن يوسف القفطي، ت٦٤٦هـ، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٥٧-١٩٥٨م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للإمام الخطيب القزويني، ت٧٣٩هـ، شرح وتعليق وتنقيح د.محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط(٥)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- البداية والنهاية، عمادالدين أبوالفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط(٢)، ١٩٧٧م + مطبعة السعادة.
- بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، د. مصطفي الشكعة، عالم الكتب، بيروت، ط(١)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- بشرى الكئيب بلقاء الحبيب، للإمام جلال الدين السيوطي، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ت٩١١هـ، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط(١)، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.
- البلاغة العربية وسائلها وغايتها في التصوير البياني، د. ربيعي محمد علي عبدالخالق،دارالمعرفة الجامعية، اسكندرية، ١٩٨٩م.
- بلاغة الكتاب، د.محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة، ط(١)، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥.
- البيان فن الصورة، د. مصطفى الصاوي، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، ١٩٩٣م.
- البيان والتبيين، أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية ببيروت.
- بين الخلفاء والخلعاء، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط(٣)، ١٩٨٠م.
- تاج التراجم في طبقات الحنفية، زين الدين قاسم ابن قطلوبغا، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٢م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة ١٩٧٨م، تحقيق: شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧م.
- تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط(٢)، ١٣٧٦هـ-١٩٥٨م.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة : د.عبدالحليم النجار، دار المعارف بمصر، ط(٢)، ١٩٦٨م-١٩٦٩م.



- تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن، د. محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ط(١) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تذكرة الحفاظ، أبوعبدالله شمس الدين محمد الذهبي، ت سنة ٧٤٨هـ، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط(٦)، ١٩٧٩م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار إحياء التراث.
- التقليدية والدارمية في مقامات الحريري، د.جابر قميحة، دار المعارف، القاهرة.
- تلبيس إبليس ، ابن الجوزي، دارالكتبا لعلمية، بيروت - لبنان.
- تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، حيدر آباد الدكن، ط(١)، ١٣٢٥هـ.
- تهذيب مدارج السالكين، للإمام ابن قيم الجوزية، ت ٧٥١هـ، هذبه: عبدالمنعم صالح العلي العربي، مؤسسة الرسالة، دار المنطلق، الإمارات العربية المتحدة، دبي.
- تيارات ثقافية بين العرب والفرس، أحمد محمد الحوفي، مطبعة مصر، القاهرة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- جامع البيان في تفسير القرآن، أبوجعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط(٤)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، أبي عيسى بمحمد بن عيسى بن سورة ٢٠٩-٢٧٩هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي.
- الجمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا البغدادي، ت: مصطفى الصاوي الجويني، منشأة المعارف بالاسكندرية.
- جمهرة أشعار العرب، القرشي، ت: د.محمد علي الهاشمي، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر(٦)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- الجهاد والفدائية في الإسلام،حسن أيوب، دارالندوة الجديدة، بيروت - لبنان ط(٢) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.



- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متز، نقله إلى العربية: محمد عبدالهادي أبوريدة، مكتبة الخانجي القاهرة - دار الكتاب العربي بيروت، ط(٤)، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- حق الجار ، طه عبدا لله العفيفي، سلسلة الحقوق (٦)، دار الاعتصام، القاهرة.
- حق المسلم على المسلم، طه عبدا لله العفيفي، سلسلة الحقوق(٣)، دار الاعتصام، القاهرة.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبونعيم أحمد بن عبدا لله الأصفهاني، ت٤٣٠هـ، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م.
- الحيوان، أبوعثمان عمرو بن الجاحظ، ت٢٥٥هـ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الاسلامي، بيروت ليبيا، دارإحياء التراث العربي، بيروت.
- خريدة القصر، وجريدة العصر، عمادالدين الصفهاني الكاتب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، القسم العراقي-الجزء الثاني، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، المطبعة الخيرية، القاهرة، ط(١) ١٣٠٤هـ.
- دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، عباس محمود العقاد، مكتب غريب، الفجالة، مطبعة دار العالم العربي.
- ديوان ابن نباته السعدي، أبي نصر عبدالعزيز بن عمر بن نباته السعدي، دراسة وتحقيق: عبدالأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٧م.
- ديوان أبي العتاهية .
- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتقديم عباس عبدالسلام، دار الكتب العلمية، ط(١)، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
- ديوان أبي نواس، الحسن بن هانيء، ت: أحمد عبدالمجيد الغزالي، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ديوان امرىء القيس، حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م.
- ديوان جرير، كرم البستاني، مجموعة ديوان العرب (١٦).
- ديوان حسان بن ثابت، دار بيروت، للطباعة والنشر.
- ديوان الحطيئة من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.



- ديوان شعر بشار بن برد أبي المحدثين، جمعه السيد: محمد بدرالدين العلوي، دار الثقفاف، بيروت، لبنان، ١٩٦٣م.
- ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري ٤١٠هـ-٤٧٦هـ، وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة، ت: دريه الخطيب، لطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- ديوان العباس بن الأحنف، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- ديوان عروة بن حزام، دار بيروت للطباعة والنشر.
- ديوان عنتره ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٨٧م.
- ذم الدنيا، للحافظ بن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة.
- رأي في المقامات، د. عبدالرحمن ياغي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط(١)، ١٩٦٩م.
- الرمز والرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط(٢)١٩٧٨م.
- روائع الاعجاز في القصص القرآني، محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث، اسكندرية.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، وطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.
- زهر الآداب وثمر الألباب، أبوإسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ت٤٥٣هـ، تحقيق: زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط(٤) ١٩٧٢م.
- السفينة الماخرة إلى البرزخ والدار الآخرة،حامد بن محمد العبادي، مطابع الصفا، ط(٣).
- سنن ابن ماجه، أبوعبدا لله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، ت٢٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر للطباعة والنشر.



- سنن أبي داود، أبوداود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي، ت٢٧٥هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الباز للنشر والتوزيع، المروة، مكة المكرمة.
- السنن الكبرى، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ٤٥٨هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، ت٣٠٣هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، أبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن العماد الحنبلي، ت١٠٨٩هـ، طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- شرح ابن عقيل: قاضي القضاة بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني على ألفية الإمام : أبي عبدالله محمد جمال الدين بن مالك، ت: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الاتحاد العربي.
- شرح ديوان الأخطل، ايليا سليم الحاوي، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- شرح ديوان الحماسة، الخطيب التبريزي، عالم الكتب، بيروت.
- شرح ديوان مجنون ليلى، تاريخه، علاقته بليلى، أشعاره، محمود كامل فريد، مطبعة حجازي بالقاهرة.
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، ت: د. فخرالدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط(١)، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس، مراجعة: عبدالرزاق عفيفي، المكتبة السلفية (المدينة المنورة)، ط(٣).
- شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، ت: د.محمود حسن أبوناجي، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط(١)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، أبوالفضل أحمد بن الحسين، بديع الزمان الهمذاني، ت: ٣٨٩هـ، المحقق: محمد محي الدين عبدالحميد، ط(٢).

- شرح مقامات الحريري، لأبي العباس أحمد بن عبدالمؤمن القيسي الشريشي، تحقيق: محمد أبوالفضل ابراهيم، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزي، القاهرة.
- شعر النابغة الجعدي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط(١)، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- الشعر العربي المعاصر، روائعه ومداخل لقراءته، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط(١)، ١٩٨٠م.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، شهاب الدين أحمد الخفاجي، مطبعة السعادة بمصر، ط(١)، ١٣٢٥هـ.
- صبح الأعشى، ابوالعباس احمد بن علي القلقشندي، ت ٨٢١هـ، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م.
- صحيح البخاري، أبي عبدا لله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردذبه البخاري الجعفي رضي ا لله عنه، دار إحياء التراث العربي.
- صحيح مسلم ، الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ٢٠٦-٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط(٣)، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- صفة الصفوة، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي ٥١٠-٥٩٧هـ، تحقيق: محمود فاخوري خرج أحاديثه د. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط(٣) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- طبقات الشافعية، أبوبكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين ابن محمد قاضي شهبة الدمشقي، تحقيق: د.عبدالعليم خان، دار الندوة الجديدة، ط(١٤٠٨هـ.
- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، دار المعارف بمصر.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع بن سعد، ت: ٢٣٠هـ، دار صادر، بيروت.
- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبه، القاهرة، ط(١)، ١٣٩٦هـ.
- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ناصف اليازجي، دار العلم، بيروت، لبنان.

- عروض الورقة، أبونصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: د. صالح جمال بدوي، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- عصر الدول والإمارات: (الجزيرة العربية - العراق - إيران)، د.شوقي ضيف، دار المعارف، سلسلة تاريخ الأدب العربي(٥).
- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، تحقيق: د. عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
- علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ط(١)، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م(
- عيون الأخبار، أبومحمد عبدا لله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت: سنة ٢٧٦هـ، دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، سلسلة: تراثنا .
- غريب الحديث، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، ت٣٨٨هـ، تحقيق: عبدالكريم العزباوي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة، ط ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- غريب الحديث ، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي ١٩٨-٢٨٥هـ، تحقيق ودراسة: د.سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة ط(١)، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- الفائق في غريب الحديث،للعلامة جارا لله محمود بن عمرالزمخشري،تحقيق:محمد أبوالفضل إبراهيم،علي محمد البجاوي،دارالمعرفة للطباعة والنشر،بيروت،لبنان، ط(٢).
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإمام أبي عبدا لله محمد بن اسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، ترقيم واستقصاء: محمد فؤاد عبدالباقي، تصحيح: محي الدين الخطيب، المكتبة السلفية.
- فقه السنة، السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط(٨)، ١٤٠٥٧هـ-١٩٨٧م.
- فن القصة والمقامة د. جميل سلطان، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٦٢هـ-١٩٤٣ + دار الأنوار، بيروت، ط(١)، ١٩٦٧م.
- الفن القصصي في القرآن، د. محمد أحمد خلف ا لله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط(٤)، ١٩٧٢م.



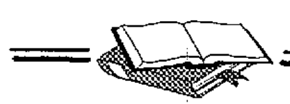
- فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، الطبعة(١) ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- فن المقامات بين المشرق والمغرب، د. يوسف نور عوض، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، العزيزية، ط(٢) ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- فن المقامات في الأدب العربي، د. عبدالملك مرتاض، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزئر، سلسلة الدراسات الكبرى، ١٩٨٠م.
- فن المقامة في القرن السادس، د. حسان عباس، دارالمعارف (ط) ١٩٨٦م.
- فن المقامة والرسالة الأدبية في الأندلس، عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجي.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط(٥)، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (١٩).
- الفوائد البهية في تراجم الحنفية، أبوالحسنات محمد عبدالحي الهندي اللكنوي، دار المعرفة، بيروت.
- فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٤م.
- في النقد الإسلامي المعاصر، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت/ (ط)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- القاموس المحيط، مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، دار الفكر، بيروت.
- قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، دارالجيل، بيروت/ ط١٩٧٨م.
- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
- كتاب الأمثال، أبوعبيدالقاسم بن سلام، ت: سنة ٢٢٤هـ، تحقيق: د.عبدالمجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط(١) ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- كتاب جمهرةالأمثال، أبوهلال العسكري، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط(١)، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- كتاب سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دراسة وتحليل: د. عبدالرزاق أبوزيد زايد، مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢م.



- كتاب القصاص والمذكرين، أبوالفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: سنة ٥٩٧هـ، تحقيق: د.محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت، ط(١) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- الكشاف، أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت: سنة ٥٣٨هـ، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ط(٣)، ١٤٠١هـ.
- لسان العرب، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المصري، ت: سنة ٧١١هـ، دار صارة، بيروت.
- مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، د. مازن المبارك، دارالفكر، دمشق، ط(٢) ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- مجمع الأمثال، أبوالفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري الميداني، ت: سنة ٥١٨هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دارالقلم، بيروت، لبنان.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نورالدين على بن أبي بكر الهيثمي، ت٨٠٧هـ، دار الكتاب، بيروت، ط(٢)، ١٩٦٧م + ط(٣)، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- مجموع أشعار العرب، وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج وعلى أبيات مفردات منسوبة إليه، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(٢)،، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمعها: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وابنه محمد، طبع بإشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ت٦٦٦هـ، دار الكتب العربية، بيروت.
- مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، تعليق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، نشر مكتبة دار البيان، دمشق ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، ط١٢٨٣هـ - مصر .



- المستدرك على الصحيحين في الحديث، محمد بن عبدا لله الحاكم النيسابوري، مكتبة النصر الحديثة، الرياض + دار المعرفة بيروت، لبنان.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد ت سنة ٢٤١هـ، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.
- معاهد التنصيص، عبدالرحيم العباس، عالم الكتب، بيروت.
- معجم الأدباء، أبوعبدا لله شهاب الدين ياقوت بن عبدا لله الحموى الرومي، ت: سنة ٦٢٦هـ، نشره أحمد فريد رفاعي، مطبعة دار المأمون، القاهرة ١٣٣٦هـ-١٩٣٨م.
- معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبدا لله ياقوت بن عبدا لله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- معجم فقه السلف، محمد المنتصر الكتاني، جامعة أم القرى، المركز العالمي للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة، أحمد بن مصطفى، طاش كبرى زاده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(١)، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- المفردات في غريب القرآن، أبوالقاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: سنة٥٠٣هـ، تحقيق: د. محمد سيد كيلاني، دار المعارف، بيروت، لبنان.
- المقامة، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط(٢).
- المقامات الأدبية، الشيخ الإمام أبي محمد القاسم ابن علي ابن محمد ابن عثمان الحريري البصري، دار الكتب العربية الكبرى مصر، ط(١).
- مقامات بديع الزمان الهمذاني، أبي الفضل أحمد بن حسين، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.
- مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم: فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(١)، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- مقامات الزمخشري، أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(٢) ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، طبعة جديدة مشروحة ومنقحة.
- المقامات، شرح مقامات الحريري، تحقيق: يوسف بقاعي، دارالكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط(١) ١٩٨١م.



- المقامات شرح مقامات الزمخشري، تحقيق: يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان، ط(٢).
- المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمذاني، د. هادي حسن جمودي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(١) ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د. الشحات محمد أبوستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط(١) ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- مقدمة في علم الأخلاق، محمود حمدي زقزوق، دار القلم، الكويت، ط ١٤٠١هـ-١٩٨٠م.
- منهاج المسلم، أبوبكر جابرا لجزائري، دارالشروق جده - السعودية.
- منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط(١)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- منهج القصة في القرآن، محمد شديد، شركة مكتبات عكاظ، ط(١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- من الوُجْهَةالأدبية في دراسة القرآن الكريم، د. السيد تقي الدين، دار إحياء الكتب العربية، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط(١)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض، ط(٢) ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- الموطأ، للإمام مالك بن أنس - رضي الله عنه-، صححه وحققه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: عاصم بهجة البيطار، دار النفائس، بيروت، ط(٣) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: على محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط(١)، ١٣٨٢هـ.
- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت + دار الكتاب العربي، القاهرة.



- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، دار الكتب المصرية، ط(١)، ١٣٤٨هـ.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، ت: سنة ٥٩٧هـ، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، دار المعارف.
- نظرية النحو القرآني، د. أحمد مكي الأنصاري، مطابع أبوالفتوح، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط(١)، ١٤٠٥هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ت: طاهر محمد الزواوي، محمود الطناحي.
- وفيات الأعيان، أبوعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ت: سنة ٦٨١هـ، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط١٣٩٨هـ + ط(١) ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.
- يتيمة الدهر، أبومنصور عبدالله الثعالبي النيسابوري، تحقيق: د. مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(١) ١٤٠٣هـ.

٤ – الدوريات :

- الآداب ، عدد يناير بيروت ١٩٧١م.
- بحوث كلية اللغة العربية، السنة الرابعة، العدد الرابع ١٤٠٧هـ، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية .
- دراسات ، م١١، العدد الرابع صفر ١٤٠٥هـ، تشرين الثاني ١٩٨٤م.
- الموقف الأدبي، عدد أول أيار، دمشق ١٩٧٨م.
- مجلة معهد المخطوطات العربية، إصدار الكويت، جـ١، المجلد ٢٨ ربيع الآخر - رمضان١٤٠٤هـ، يناير - يونيو ١٩٨٤م .



٤ – فهرس الموضوعات

الموضوع .... الصفحة

الموضوع .... الصفحة



الموضوع .... الصفحة



الموضوع .... الصفحة



الموضوع .... الصفحة

الموضوع .... الصفحة

الموضوع ... الصفحة

الموضوع .... الصفحة



الموضوع .... الصفحة



الموضوع .... الصفحة